فيتالي ناومكين

سقطرى جزيرة الأساطير

ترجمة

خيري الضامن

سقطرى

جزيرة الأساطير

تأليف

فيتالي ناومكين

ترجمة

خيري جعفر الضامن



© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.
DS247.A2N3812 2015

Naumkin, Vitaliĭ Vi͡acheslavovich.

سقطرى: جزيرة الأساطير / تأليف: فيتالي ناومكين؛ ترجمه: خيري جعفر الضامن.- ط1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2015.

ص. ؛ سم.

تدمك: 8 - 380 - 01 - 9948 - 978

ترجمة كتاب : Sokotrii͡tsy : istoriko-ėtnograficheskiĭ ocherk

1. الأنثروبولوجيا -- اليمن -- سقطرى. 2. سقطرى (اليمن) -- تاريخ. أ. ضامن، خيري. ب. العنوان.





الطبعة الأولى 1436هـ 2015م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380

publication@tcaabudhabi.ae
www.tcaabudhabi.ae

سقطرى

تقـديم

في الشرق الأوسط، في تلك المنطقة التي كانت ولا تزال تلعب دوراً كبيراً في تاريخ البشرية، نجد العديد من الأقوام والجماعات الإثنية. ومن أولئك نخص بالذكر الجماعات الصغيرة القاطنة في اليمن وسلطنة عمان، ممن يتكلمون لغات قديمة غير مكتوبة تنتسب إلى ما يسمى باللغات السامية الجنوبية المحكية: المهرية والسقطرية والجبالية والشحرية والحرسوسية وغيرها. وأقل أولئك الأقوام، المحفوفين بالألغاز، حظاً ونصيباً في الدراسة والبحث والتحليل أهالي أرخبيل سقطرى الواقع في المحيط الهندي. يشكل هذا الأرخبيل إحدى محافظات الجمهورية العربية اليمنية، ويقيم السقاطرة تحديداً في ثلاث من جزره فقط هي سقطرى وعبد الكوري وسمحة.

كثيراً ما يبدي العلماء والباحثون من مختلف الاختصاصات، سواء في التاريخ والإثنوغرافيا والآثار أم في علم الاجتماع وعلم النفس، اهتماماً بالغاً ومميزاً بالأقوام الصغيرة، وخصوصاً الجماعات المقيمة في أطراف الدنيا، في البقاع النائية من المعمورة. ويعطي هذا الاهتمام أكُله من الناحية العلمية بخاصة، عندما تندرج الأماكن التي يسكنها أولئك الأقوام والجماعات ضمن دول قديمة شهدت في الماضي ازدهاراً حضارياً مرموقاً، فيما كان أسلافهم شهود عيان على ازدهار حضارات مندثرة اليوم وكانت في السابق ذات شأن كبير.

إلا أن جزيرة سقطرى التي تحتل موقعاً جغرافياً فريداً على مفترق الطرق البحرية وملتقى الحضارات القديمة استأثرت، على أية حال، بانتباه الباحثين من غابر الزمان. وقد تسنى للمؤلف في النصف الأول من سبعينيات القرن العشرين أن يكون من أوائل الباحثين الروس السوفييت يومذاك، الذين زاروا سقطرى ومكثوا فيها أمداً طويلاً لإجراء الدراسات العلمية الميدانية. وجاءت حصيلة أول «تعارف» بيني وبين الجزيرة في بحث نشرتُه باللغة الروسية في عام 1977 بعنوان «في موطن العنقاء». أما النتائج التحليلية

الأكثر تعمقاً للمواد التي جمعناها أثناء رحلاتنا إلى الجزيرة في السبعينيات فقد وردت في كتابي المشترك مع الباحث اللغوي الروسي فكتور بورخوموفسكي الذي صدر فيما بعد بعنوان «بحوث لغوية إثنية عن سقطرى».

وفي العام 1983 بدأت أعمال البعثة العلمية السوفييتية اليمنية المشتركة، ثم واصلتها البعثة الروسية في سقطرى حتى مطلع القرن الحادي والعشرين. وفي إطار هذه البعثة ترأس كاتب السطور فريق العمل الميداني الذي قام في غضون هذه الفترة بالدراسة المنتظمة لجزر الأرخبيل. وكان من مهام الفريق المذكور إجراء الدراسات الإثنوغرافية والأنثروبولوجية والأثرية والتاريخية والثقافية واللغوية والطبية والبيولوجية من أجل الكشف عن المنشأ الإثني للسقاطرة، واستحضار ماضيهم التاريخي، واستيضاح صلاتهم وارتباطهم الأصلي بسكان الجزء القاري من جنوب شبه جزيرة العرب، وتوصيف ثقافتهم التقليدية ونشاطاتهم الاقتصادية، واستعراض الشرائح السكانية في سقطرى، وتحليل خصوصية لغة السقاطرة ومفرداتها، وتسجيل فولكلورهم وشعرهم النبطي.

وقد شارك في عمل البعثة الروسية، في مراحل ومواسم مختلفة، علماء الآثار إلكسندر سيدوف، وخزري أميرخانوف، ويوري فينوغرادوف، وفاليري جوكوف، وعلماء الأنثروبولوجيا يوري تشيستوف، وفاليري ألكسييف، وفيرا بوغدانوفا، وإيليا غوخمان، والجيولوجي أندريه لوكاشوف، واللغوي فكتور بورخوموفسكي، والطبيب الأنثروبولوجي فلاديمير شينكارينكو.

ويطيب لي هنا أن أعبر عن خالص شكري وامتناني للعدد الكبير من أصدقائي السقاطرة الذين مدوا لنا يد العون بصدق وإخلاص طوال تلك السنين وأطلعونا على ما لديهم من معلومات ثمينة. أنا شخصياً تعلمت وأخذت الكثير على يد أهالي الجزيرة، ومواقفهم المثيرة للدهشة، من حيث الطيبة وحسن الضيافة، ستبقى في ذاكرتي مدى العمر. وإنني لأترحم على الكثيرين ممن كانوا معنا آنذاك ولم يعودوا، للأسف الشديد، على قيد الحياة اليوم، بعد مضي ثلاثة عقود من الزمن أو يزيد. وآمل أن يحظى حديثي عن ماضي سقطرى البعيد وغير البعيد باهتمام جمهور كبير من القراء، بمن فيهم جيل الشباب السقطري العصري الحالي والأجيال القادمة التي ستبحث عن الشذرات في تلافيف ماضيها، شأن أي شعب يراجع تاريخه للاعتزاز والاعتبار. وخاصة أن الكتاب إطلالة على ماضي المجتمع السقطري وليس مدونة لتاريخه.

كما أشيد بالجهود المشكورة التي بذلها الباحثون والدارسون اليمنيون الذين عملوا ضمن البعثة العلمية في مواسم متعددة، فتلك الجهود الجليلة ساعدت كثيراً على تنفيذ برنامج البعثة، وبدونهم ربما ما كان فريقنا يقوى على أداء مهماته العلمية المتشعبة. وأعبر عن خالص الشكر والامتنان إلى الهيئة العامة للآثار والمتاحف والمخطوطات في وزارة الثقافة والسياحة في اليمن وللسلطات في محافظة جزر أرخبيل سقطرى على تهيئة الظروف الملائمة لعملنا.

هذا الكتاب ثمرة إجمالية للدراسات التي أجرتها البعثة الروسية. وتأتي طبعته العربية صيغة موسعة شاملة، منقحة ومزيّدة بالمستجدات العلمية، للطبعة الروسية التي صدرت في موسكو عام 1988 بعنوان «السقاطرة» ولترجمتها الإنجليزية التي صدرت في بريطانيا عام 1994 بعنوان «جزيرة العنقاء». كما أنه نسخة تكاد تكون مطابقة للطبعة الروسية، التي صدرت عام 2012 بعنوان (جزر أرخبيل سقطرى: مراحل بعثة 1974-2010)

طبيعة البحث التاريخي الإثنوغرافي وفرت لي إمكانيات أوسع في محاولات تناول وتحليل الكثير من المسائل والمهام التي أوكلت إلى فريقنا. وأقر هنا بأني ألفت بعض فصول الكتاب بمشاركة مثمرة من زملائي من أعضاء البعثة الروسية، وأشرت إلى تلك المشاركة تحديداً في مواضعها من متن الكتاب. وأنا شاكر لهم، هم أيضاً، على هذا الإسهام الطيب. كما أشكر الزملاء يفغيني بريماكوف، وميخائيل بيوتروفسكي، وإلكسندر ميليتاريوف، وميخائيل روديونوف على المؤازرة والدعم المعنوي الكبير.

وكما هي العادة في أي بحث جدي من هذا النوع، يعتمد المؤلف على إنجازات الرحالة والباحثين السابقين، ولعلي أقول هنا إن كل ما كتبوه عن سقطرى وجد صدى في فصول هذا الكتاب.

معظم الصور المرفقة بالكتاب التقطت من قبلي، وبعضها من قبل زميلي المرحوم الدكتور فلاديمير شينكارينكو، كما أن معظم الرسوم والمخططات لي، وبعضها للعالم الأثري الإنجليزي برايان دو.

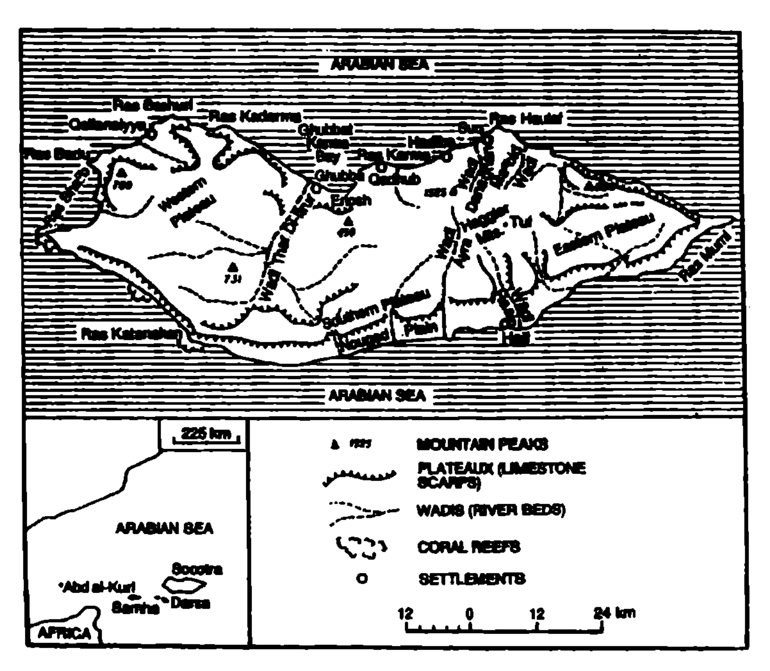
فيتالي ناومكين

موسكو

الفصل الأول

طبيعة جزر أرخبيل سقطرى

جيولوجيا الأرخبيل



(شكل رقم 1 ـ 1)

يضم «أرخبيل سقطرى»، وهو جزء من الجمهورية اليمنية، جزر «سقطرى» و«عبد الكوري» و«سمحة» و«درسة»، بالإضافة التى نتوءين صخريين هما «كعل فرعون» و«صابونية». وتقع جزر الأرخبيل في بحر العرب، على مسافة 100 ـ 370 كيلومتراً عن رأس غواردافوي (رأس عسير) في الطرف الشمالي الشرقي للصومال. من الناحية الجغرافية ينتسب الأرخبيل إلى الحافة الشرقية من قارة أفريقيا، ويعتبر في الوقت ذاته دليلاً على وجود مجموعة من «التشظيات» الجزائرية لليابسة الأفريقية العربية التي كانت في زمن ما موحدة متلاصقة. وقد تجسدت في التركيبة الجيولوجية لجزر الأرخبيل وتضاريسها الطبيعية آثار التحولات التكتونية الصخرية والجغرافية العنيفة التي رافقت انفصال جزيرة العرب عن القرن الأفريقي ونشوء خليج عدن العميق.

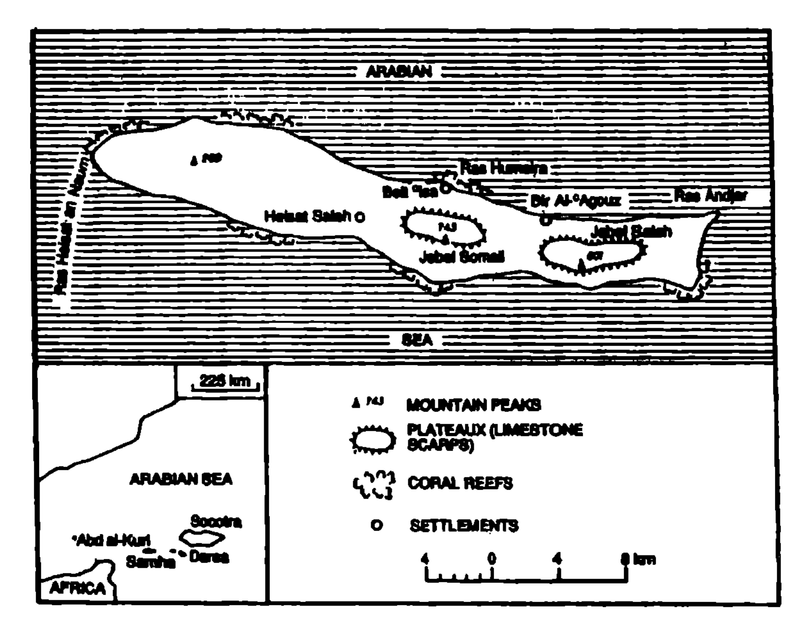
تحتفظ تضاريس جزيرة سقطرى بالسمات الملازمة لبعض مناطق أفريقيا الشرقية وجنوب الجزيرة العربية فيعهود سابقة أكثر رطوبة، إلا أن الكساء النباتي وعالم الحيوان فيسقطرى (وفيعبد الكوري جزئياً) يتميزان بوفرة الأنواع النباتية والحيوانية المستوطنة والتي لا نصادفها في أماكن أخرى. وبسبب أو بفضل عزلتها الطويلة عن القارتين المجاورتين، ولطبيعتها النادرة، احتفظت سقطرى ببيئة جغرافية مميزة، وفريدة بقدر كبير، وصالحة لإقامة البشر اعتباراً من العصر الحجري المبكر وحتى يومنا هذا.

تبلغ مساحة جزيرة سقطرى قرابة 3650 كيلومتراً مربعاً. وهي تمتد من الغرب إلى الشرق على مسافة 133 كيلومتراً وبعرض 43 كيلومتراً في أوسع بقعة من هذا الشريط (شكل رقم 1 . 1). سقطرى أبعد جزيرة في شرق الأرخبيل الذي يحمل اسمها، طرفها الغربي الأقصى، رأس شوعب، يقع على بعد 235 كيلومتراً عن أقرب نقطة على الساحل الأفريقي. وتبلغ المسافة بين النتوء الشمالي الغربي للجزيرة (رأس بشارة) وبين الساحل الجنوبي لجزيرة العرب (رأس فرتك) 345 كيلومتراً.

أما جزيرة عبد الكوري الواقعة جنوب غربي سقطرى فهي أصغر منها بكثير (شكل رقم 1 . 2). ويبلغ طولها 36 كيلومتراً، وعرضها 6 كيلومترات. ومساحتها قرابة 133 كيلومترا مربعاً. وهي في منتصف الطريق تقريباً بين سقطرى وسواحل الصومال. والمسافة بين الطرف الغربي من عبد الكوري، رأس خيصة النوم، وبين رأس غواردافوي 100 كيلومتر لا غير. أي على وجه التقريب المسافة نفسها بين رأس عنجر، آخر بقعة في شرق الجزيرة، وبين رأس شوعب فيسقطرى.

وتقع جزيرتا سمحة ودرسة اللتان تسميان بالشقيقتين على مسافة 50 كيلومتراً تقريباً إلى الجنوب الغربي من سقطرى، و60 كيلومتراً شرقي عبد الكوري. مساحة سمحة 41 كيلومتراً مربعاً، ومساحة درسة، الواقعة شرقي سمحة، 17 كيلومتراً مربعاً لا غير. أما صابونية فتقع على مسافة 15 كيلومتراً غربي سقطرى، فيما تقع كعل فرعون على مسافة 20 كيلومتراً إلى الشمال من عبد الكوري.

سقطرى وعبد الكوري جزيرتان جبليتان، إلا أن أعلى قمتين في جبل الصومال وجبل صالح الشبيهين بالهضاب في عبد الكوري 743 متراً و 601 متر، فيما تناهز أعلى قمة في سقطرى، على سلسلة جبال حجهر المتباعدة، 1525 متراً. وتكثر في تضاريس سقطرى الهضاب المطوقة بحواف صخرية شديدة الانحدار، وسطوح تلك الهضاب متموجة



(شكل رقم 1 ـ 2)

عادة، ويتراوح ارتفاعها عموماً بين 300 و 900 متر. أما السهول المنخفضة فتمتد بشكل أشرطة ضيقة (2-8 كيلومترات) على طول الساحل الجنوبي، وجزئياً الساحل الشمالي للجزيرة، كما تمتد هذه السهول في الغرب بشكل فسحات وقواطع غير كبيرة.

حوض وادي تارديترير الكبير، في الجزء الغربي من سقطرى، يتخذ شكل شجرة معقدة، ويوجه سيلاً مائياً سطحياً مؤقتاً من ثلث مساحة الجزيرة تقريباً في الشمال الشرقي نحو سواحل خليج غبة كرمة. أما في عبد الكوري فالمرتفعات والهضاب ليست كبيرة من حيث المساحة، ومعظم أراضي الجزيرة مكون من روابي صخرية واطئة ومتباعدة.

تتميز كلتا الجزيرتين بوجود ترابط واضح بين تركيبة سطح الأرض والبنية الجيولوجية والتكتونية. ومن الناحية الجغرافية نجد في سقطرى وفي عبد الكوري على حد سواء مجمعات من صخور الماغما التحوّلية المستقرة على أساس من طبقات صخرية قديمة العهد، وفوق تلك الصخور طبقات ترسبية غير مستقرة تغطيها بمثابة كساء ترابي.

وقد اعتمدنا في توصيف التركيبة الجيولوجية للجزيرتين في أدناه على آراء ز. بيدون وهـ. بيشان بالنسبة إلى سقطرى (Beydoun,Bichan، 1970) وج. غريغوري بالنسبة لعبد الكوري (Gregory، 1899).

الصخور التحولية لأساس الجزيرتين تتكون، في المقام الأول، من الطين الصفحي المتبلور والصخور البلورية، وكذلك الجرانيت والجابرو (الماغما أو الحمم الجبلية) التي يتخللها الطين الصفحي. وتنتشر هذه المكونات التحولية، المحصورة بين الطبقات الصخرية المعقدة، على نطاق واسع في وديان الطرف الغربي من سقطرى المطلة على رأس شوعب ومدينة قلنسية شرقي جبال حجهر، كما تنتشر في كل مكان تقريباً في عبد الكوري وفي أساس السفوح الجبلية بجزر الأرخبيل الصغرى. أما في منطقة وادي حديبو الصغير شمال سقطرى فنجد صخور الطُفّ وترسبات الأرجليت الصلصالي الأحدث عهداً والأقل تحولاً.

من الناحية التاريخية تعود صخور الماغما الجبلية إلى العصر الحجري المبكر، وتبرز الصخور البركانية بشكل خط مقوس أو تحدّب يشمل جبال حجهر من الجنوب. وتتكون المجموعة المتعددة الطبقات لسيول الحمم والترسبات البركانية الأحدث زمنياً من مواد بركانية متوسطة الحموضة، ولا توجد في سقطرى وعبد الكوري آثار انفجارات بركانية حديثة، كما هو الحال في جنوب وغرب شبه الجزيرة العربية.

صخور الماغما الجوفية المنغرزة في باطن الأرض تتخلل الصخور البركانية والتراكيب الصخرية التحولية الأقدم منها. وتبرز أكثر من غيرها صخور الجرانيت ذات التركيبة القلوية المركزة جداً في جبال حجهر التي هي النواة المتبلورة للنصف الشرقي من سقطرى. ولا يوجد على الكرة الأرضية إلا القليل من مثل هذه المجاميع الجرانيتية القلوية التركيب. ومما له دلالته أن المادة القلوية المسماة ريبيكيت اكتشفت لأول مرة بين عينات جرانيت سقطرى التي جلبها الجيولوجي الألماني إميل ريبيك في عام 1881.

وبات جرانيت سقطرى القلوي الشديد التركيز والصخور المماثلة له تسمى اليوم بجرانيت ريبيكيت. وفي بعض وديان الجزيرة، وعلى سواحلها جزئياً، توجد كتل غير كبيرة نسبياً من الجرانيت العادي، جرانيت البيوتيت. وإلى ذلك تعتبر من صخور الماغما الجوفية صخور الجابرو النارية (هناك موضع كبير لها مساحته 40 كيلومتراً مربعاً شمال شرقي مكامن الطف)، وتكثر الكتل المتقاطعة من مختلف التراكيب بين صخور أساس الأرض في سقطرى وعبد الكوري.

و تتموضع بغير انتظام على السطح المستوي بفعل التعري والتحات الشديد لصخور الأساس، طبقات سميكة من الصخور الترسبية في المضاحل البحرية. وتكون الصخور

الكلسية البيضاء عادةً في أسفل نتوءات الهضاب السقطرية، وعلى القمم الشبيهة بالهضاب في عبد الكوري وفي الجزر الصغيرة غير المأهولة من الأرخبيل (مثل سمحة ودرسة). كما أن في بعض المواضع أسفل هذا القاطع رمالاً طباشيرية وخليط الطين مع الكلس (مادة المَرل). يبلغ سمك الطبقات الطباشيرية في شرق سقطرى 300 متر. وفي شمال غرب الجزيرة قرب رأس قرقمة، تكثر الكتل الحاوية للحديد والصوان بين الصخور الكلسية المفتتة.

الأجزاء العلوية للمقطع الجيولوجي للسطوح الشبيهة بالهضاب في سقطرى تتكون من صخور كلسية، رمادية اللون بمعظمها، وتعود للعصر الحديث القريب (البليوسيني) والعصر الأيوسيني. ويبلغ سمك هذه الكلسيات التي تتشكل منها الصخور 400 متر. وتلاحظ بينها أحياناً أطيان صفحية صوانية وصخور أخرى (كما في غرب الهضبة الشرقية).

وفي المنخفضين الواقعين شمال وشمال غرب جبل بسحمحم وجبل متعلا في غرب سقطرى تبرز (بشكل سلسلة من الروابي الواطئة) بقايا طبقة من الصخور الكلسية والمَرلية غير السميكة والشبيهة بالصخور الطباشيرية. وهي تنسب إلى العصر الأوليغوسيني، أو ربما إلى العصر الميوسيني المبكر، وبفعل الاجتراف لم يبق من هذه الصخور سوى 50 متراً.

صخور العصر البليوسيني والدهر الرابع في سقطرى وعبد الكوري عبارة عن كساء متنوع من حيث المنشأ والتكوين، وغير سميك، بل غير موجود في كل مكان. ونجد في المدرج الأوسط من التضاريس أكبر كمية من منثورات الحصى والجلاميد القديمة التي تحولت إلى قشرة متصلبة، ذات طبقات حسب الظاهر، ومتكتلة بكاربونات الكالسيوم لدرجة التحجر الصخري. هذه القشرة والتكتلات المسلحة بإسمنت الكلس تميل وتطل عادة على سفوح الهضاب الكلسية المحدبة بدءاً من 100 - 150 متراً أحياناً أسفل انكساراتها (السفوح الشمالية لجبل متعلا، شرقي رأس بادوه).

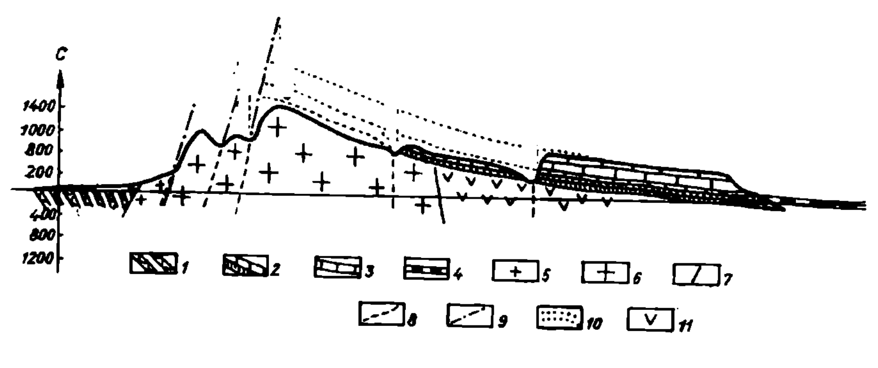
وفي أسفل وديان سقطرى، وأحياناً داخل الوهاد الجبلية، تنتشر ترسبات الحصى والجلاميد المخلوطة بالرمل والعائدة للدهر الرابع. ومنشؤها من التيارات المائية، وسمكها عادة بضعة أمتار، فعلى سبيل المثال لا يتجاوز سمك المدرج المطل على وادي معابض (على بعد 13 كيلومتراً عن مدينة حديبو) 4 أمتار.

وتنتشر على نطاق واسع، في الجزيرتين موضوع البحث، ترسبات بحرية ساحلية تعود للعصرين البليوسيني والهولوسيني. ومنها الكساء الحصوي على المدرج الساحلي البالغ ارتفاعه 30 - 35 متراً والشواطئ الرملية التي يكثر فيها فتات الصخور المرجانية والقواقع، وكذلك رمال وكلسيات المدرجات الساحلية الواطئة وبلاج سقطرى الحالي، ورمال وكلسيات المدرجات الساحلية الواطئة في عبد الكوري (نيكيفوروف وكوروتايف، 1982).

وتتركز في بعض المواضع على سواحل سقطرى وعبد الكوري ترسبات رملية رمادية، يؤكد سفيتوتش («جزر غرب المحيط الهندي»، 1982) مصدرين لمنشئها: الرمال الأقدم عهداً (العصر البيلوسيني المتأخر)، المتراصة بالكاربونات لحد التجمعات الرملية المتنوعة الحبيبات، التي كانت قد تراكمت في عهد المناسيب الواطئة لمياه البحر قبل ٣٠ ألف عام. والمنشأ الأحدث للرمال (العصر الهولوسيني والعصر الحديث) يتمثل في الكثبان الطليقة والمنثورات الرملية على السواحل وكذلك الكثبان الكبيرة المنحدرة على كلتا الجزيرتين، وفي بعض الحالات (مثل ثغر وادي السوق) الكثبان التي تبلغ الذرى الجبلية الساحلية بارتفاع أقصى يناهز 360 متراً.

ثمة وجهان أو جانبان للترابط الواضح الآنف الذكر، بين تضاريس كلتا الجزيرتين والتركيبة الجيولوجية لأرضهما. فمن جهة تتجلى في التضاريس بشكل مميز كتل وتجمعات صخرية جبلية معينة، مثل السطوح المرتفعة والمستقرة بهدوء على كلسيات الطباشير(في عبد الكوري) وعلى الصخور المتحجرة (في سقطرى)، وجبال حجهر الجرانيتية المسننة والمجزأة في العمق بشكل مكثف، والنتوءات البيضوية غير الكبيرة والدعائم المتباعدة لصخور مترسبة (متداخلة) في طبقات جرانيتية صفرى (جنوبي حديبو وشرقي قلنسية)، والرؤوس والقمم المتغضنة بشدة على كتل الديوريت الصخرية (الساحل الشمالي في عبد الكوري)، ومختلف السطوح المتدرجة والمكونة من الترسبات البحرية والصخرية المفتتة وغيرها.

والوجه الآخر للترابط بين التضاريس والتركيبة الجيولوجية في أرخبيل سقطرى هو بروز التراكيب التكتونية أو مكوناتها الحديثة العهد في التضاريس. إن مجرد تقسيم المنطقة موضوع البحث إلى سلسلة من الجزر والمضايق والخلجان إنما هو انعكاس للتمايز الذي حصل من زمن غير بعيد لتكتلات هذا الجزء من الأرض القديمة. أما التركيبة المورفولوجية لجزيرة سقطرى نفسها فهي، على الأكثر، نتيجة ثلاثة أصناف من النتوءات



(شكل رقم 1 ـ 3)

الأرضية الشبيهة بالطيقان المحدبة.

أكبر تلك النتوءات (طولها قرابة 30 كيلومتراً من الغرب إلى الشرق، وعرضها 18 كيلومتراً على وجه التقريب) تضم جبال حجهر. وعلى الرغم من ارتفاع القمم الجبلية الكبير في الجزيرة (1500 متر) فإن التضاريس الحالية لا تعطي إلا صورة جزئية لنطاق التحرك التكتوني، فالقمم والجدران الصخرية المكونة من جرانيت الريبيكيت نتأت بعد تعرّي السطوح الشبيهة بالطيقان والقباب المشوهة في المرحلة ما قبل الطباشيرية للسهل المتعري.

وسبق مرحلة تجزئة الجرانيت تفتيت وتحات وانجراف طبقة يبلغ سمكها 600 متر من صخور معظمها كاربونية طباشيرية وبالايوجينية كانت منذ البداية تشكل مكونات نتوء سلسلة جبال حجهر، ولم تبق محفوظة إلا في الحواف الخارجية لهذه السلسلة (شكل رقم 1 - 3). الروابي الكلسية المحيطة بجبال حجهر من الغرب والجنوب والشرق تطل على تلك الجبال بنتوءات متعرية شديدة الانحدار يبلغ ارتفاعها مئات الأمتار.

إن ثنايا ارتفاعات جبال حجهر غير متماثلة، والأجنحة الجنوبي والغربي والشرقي لهذه الجبال ذات انحدار لا يتجاوز 5 درجات، فيما الجناح الشمالي أشد انحداراً (15 درجة). ولعل هذا الانحراف قد حصل بسبب جاذبية هبوط مجموعات من الكتل الصخرية الصغيرة لجهة وادي حديبو. وترتبط تفاصيلُ طوبوغرافيا الكتلة الجبلية الجرانيتية، وقممها الحادة (بمعظمها)، وذراها الشبيهة بالرماح أو الصواري، وشعابها العميقة، ارتباطاً وثيقاً بمفعول التحات في شبكة الشقوق التكتونية الشديدة الانحدار في الاتجاهين الشمالي الغربي والشمالي الشرقي. أما في الجنوب والجنوب الشرقي فإن «النواة» الجرانيتية لنشوء جبال حجهر مطوقة بشريط (عرضه قرابة 8 كيلومترات) من

تضاريس صخرية متحاتة واطئة، ومجزأة باعتدال، تتناسب مع منافذ الصخور البركانية القديمة (حوض وادي حاصن والوديان المجاورة).

الارتفاعان الآخران نشا بصورة طليقة على الطرف الغربي لجزيرة سقطرى، في منطقة رأس شوعب ومدينة قلنسية. إلا أن النصفين الشرقيين فقط من كلتا التركيبتين الجبليتين ظلا على اليابسة، فيما هبط النصفان الغربيان عبر الانكسارات إلى تحت مستوى سطح البحر. وقد أوجدت التعرية والتحات في نوى هذه التكوينات الصغرى أشرطة من سهول داخلية واطئة مطوقة بنتوءات من الهضاب الكلسية يتراوح طولها ما بين 400 و 700 متر. وفي إطار تلك السهول الداخلية نشأ حوضا واديين يصبان مياهاً بين الحين والآخر في الاتجاه الغربي غير المعتاد بالنسبة للجزيرة. ويقع في قاع الواديين، وعلى حوافهما، دعائم كثيرة يتراوح ارتفاعها ما بين 40 و 60 متراً، تتناسب مع منافذ الصخور الجرانيتية غير الكبيرة لجهة سهول الصخور التحولية.

معظم سطح سقطرى مكون، كما أسلفنا، من هضاب متموجة تغطيها طبقات كلسية، وفي بعض الأماكن تتخذ الهضاب شكل مدرجات بارزة، الأمر الذي يتجلى بخاصة في جنوب غرب الجزيرة (على مقربة من جبلي بسحمحم ومتعلا) وعلى امتداد الساحل الشمالي (من قرية قاضب حتى رأس حائج). أما أطراف الهضاب على طول امتدادها تقريباً، فعبارة عن نتوءات شديدة الانحدار يبلغ ارتفاعها مئات الأمتار. وفي إطار سطح الهضاب تتباعد شبكة المتحاتات والمجروفات نظراً لامتصاص الصخور الكلسية المسامية والقابلة للذوبان أجزاء من الهواطل والأمطار.

إلا أن الحفر والوهدات الكبيرة نادرة هناك، وهي في بعض الأماكن عبارة عن كهوف ومغارات وطيقان أفقية في النتوءات الخارجية للهضاب (مثل الكهف الواقع على مسافة 8,3 كيلومتراً عن قرية حيف) أو على حواف وديان التحات التكتوني (الحافة الشمالية لوادي دي غالحم على الهضبة الشرقية، وشعاب الرافد الأسفل الأيسر لوادي تارديترير على الهضبة الغربية وغيرها). وإلى ذلك تصادف منخفضات صحنية الشكل وفيها بقع من «التربة الحمراء» وحفر ووهدات، والنوع الأكثر انتشاراً من التضاريس التي تكثر فيها الحفر والوهدات تلك السهول التي نصادفها في كل مكان تقريباً ونجد فيها الكثير من المنخفضات والوهاد والشقوق والخلايا والمغارات وما إلى ذلك.

وعلى امتداد ساحل سقطرى الجنوبي (من رأس كاتاناهان وحتى القطاع الواقع على

مسافة 10 كيلومترات شرقي مصب وادي حاصن) ولمسافة 73 كيلومتراً بالإجمال ينبسط سهل «نوجد» الساحلي المنخفض والضيق نسبياً (6 كيلومترات). وتطلق هذه التسمية في الغالب على الجزء الرملي من السهل المذكور. ويحد السهل من الشمال سور متواصل تقريباً وشديد الانحدار من الهضبة الكلسية على ارتفاع 300 ـ 400 متر. وفي ست مواضع فقط تشق قشرة الهضبة شعاب ووديان تتجه سيولها نحو الجنوب، وأكبرها وادي ايّرة ووادي حاصن. الدلتا الحصوية السيلية، المروحية الشكل، في الوديان التي تستوعب المياه أساساً من الأجزاء الجنوبية لجبال حجهر تنبسط فوق كلسيات بحرية حديثة العهد على مدارج السواحل، وخصوصاً التي لا يتجاوز ارتفاعها 5 ـ 7 أمتار.

معظم مساحة سهل نوجد الساحلي الجنوبي (المكون من سلسة مدرجات بحرية تتراوح ارتفاعاتها بين 5 أمتار و 40 متراً) مغطاة بعض الشيء بكساء مخلخل من الرواسب السيلية (سمكه قرابة المتر)، وهي بالأساس مكونة من الترسبات البحرية. وعلى طول الساحل، لمسافة 50 متراً تقريباً عن حافة الماء، يمتد شريط من الكثبان يصل ارتفاعها عادة إلى 10 أمتار. رمال الكثبان المتحركة تغطي جزئياً، بفعل الرياح من جهة الساحل، المرتفعات والترسبات الحديثة العهد الناجمة عن أمواج البحر على المدرجات الساحلية البالغ ارتفاعها 5-7 أمتار.

ويستمر منخفض نوجد مباشرة إلى ما تحت حافة المياه في الساحل الجنوبي لسقطرى. ففي ثغر وادي ايّرة مثلاً، لا يبلغ العمق 40 متراً إلا على مسافة 14 كيلومتراً عن الشاطئ، علماً أن العمق يزداد من حافة الماء برفق وبطء شديد للغاية. وعلى طول الشريط المائي المتاخم لسهل نوجد ، وعلى مسافة 15 كيلومترا من الساحل، لا يتجاوز عمق البحر 50 متراً.

في الجزء الشمالي من جزيرة سقطرى تتقدم انحدارات الهضبة الكلسية إلى الساحل مباشرة تقريباً في بعض المواضع، مثل رأس قرقمة والرأس الأحمر (رأس حمرهو) ورأس دي حمري وغيرها، وفي بعضها الآخر تتراجع عنه لمسافة 3-8 كيلومترات. وإلى الجنوب والجنوب الشرقي من حديبو لا وجود للهضاب الكلسية عموماً، بل تنتصب على السهل الساحلي هناك، على ارتفاع كيلومتر، المنحدرات الجرانيتية الحادة للجناح الشمالي من جبال حجهر.

وتعود تركيبة تضاريس الجزء الشمالي من الجزيرة هذه إلى الهبوط التكتوني، بفعل

الجاذبية، لسلسة الكتل الصخرية الصغيرة وتحات معظمها فيما بعد. ومن الأدلة على هذا التأويل وجود الكلسيات شبه الأفقية من العصر الأيوسيني في منخفض وادي أريوش والتي تغطيها في بعض المواضع ترسبات المدرج الساحلي البالغ ارتفاعه 5-7 أمتار، وفي بعضها الآخر (بمنطقة قرية الغبة مثلاً) تقترب من ساحل البحر بشكل سطح بنيوي سمكه 10 أمتار بحواف شديدة الانحدار.

ويبدو أن أكبر قطاع منبسط من الساحل الشمالي الذي يضم وادي موري وأريوش ورأس قرقمة ينتمي، على وجه التقريب، إلى زمان السطح غير المشوه للتكتلات التكتونية الهابطة. وإلى الشرق منه تقع قطاعات منبسطة أصغر (ومنها «مدرج» سهل حديبو) نشأت بفعل مؤثرات مجتمعة للجاذبية والتحركات التكتونية والتحات والتعرية، وهنا تغدو مختلف التجمعات الصخرية من الأساس المتبلور قاعدة وطيدة لترسبات المدرجات الساحلية ومدرجات الوديان الكثيرة.

أعماق البحر عند الساحل الشمالي لجزيرة سقطرى تجسد تركيبةً للطرف الشمالي الغاطس من الجزيرة أكثرَ تعقيداً من الطرف الجنوبي، وفي الجزء الغربي من الساحل الشمالي تقترب الأعماق البالغة 1,5 ـ 2 كيلومتر من الساحل لدرجة كبيرة (4-5 كيلومترات في المنطقة بين رأس بشارة ورأس قرقمة). وبعدها إلى الشرق، يتسع الجرف القاري للجزيرة ولا تتجاوز أعماقه 100 متر. وعلى خط رأس كرمة، لمسافة 14 كيلومتراً أخرى إلى الشمال من الساحل، يبلغ العمق 35 ـ 40 متراً لا غير. ولم يلاحَظ عمق بـ 1600 متر إلا على بعد 22 كيلومتراً عن الساحل. وعلى خط حديبو يبلغ عرض الجرف القاري الذي لا يتجاوز عمقه 100 متر 16 كيلومتراً، ويبدو أن سطح الكتل الآنفة الذكر والهابطة بفعل الجاذبية يغطس تحت حافة الماء على امتداد المسافة من الرأس الأحمر (رأس حمرهو) إلى رأس حولف (حولاف). وعند الشواطئ الشمالية الشرقية لجزيرة سقطرى يكاد الجرف القاري ينعدم، وتقترب الأعماق الكبيرة من الساحل مجدداً، ففي منطقة رأس دي حمري لوحظت أعماق بـ 1000 متر وأكثر على مسافة 4 ـ 5 كيلومترات عن الساحل.

يؤكد ف. كوسمينين («جزر الجزء الشرقي من المحيط الهندي»، موسكو، 1982) أن الجرف القاري في سقطرى، على عمق 40 ـ 30 متراً، يحمل آثار تطورٍ للشعاب المرجانية أوسع مما هو الآن، ولربما كان من العوامل المعرقلة لتطور الشعاب المرجانية في ظل المناسيب الحالية، العالية بعض الشيء، لسطح البحر ورود كميات كبيرة إلى المنطقة الساحلية، بين

الحين والآخر، من المواد والسيول العكرة من وديان الجزيرة.

ومما له دلالته بهذا الخصوص أن أكثر شعاب سواحل سقطرى تطوراً هي الواقعة قرب الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة (بين رأس شوعب ورأس كاتاناهان)، حيث لا ينفتح على البحر أي وادٍ من وديانها (ليونتيف، 1970). والأكثر من ذلك أن الشعاب المرجانية الحديثة تطوق، على نطاق واسع حقاً، سواحل جزر الأرخبيل الخالية من ينابيع المياه تقريباً، مثل سمحة ودرسة وعبد الكوري.

الظروف المناخية والطبيعية

مناخ سقطرى وعبد الكوري يتوقف في المقام الأول على تلاقي رياح آسيا والمحيط الهندي وتصادم تياراتهما الجوية. ذلك لأن الجزيرتين تقعان في طرف الحزام المناخي الاستوائي الشمالي، قرب حدود التقائه مع الحزام شبه الاستوائي. عموماً المناخ هنا استوائي جاف وقائظ، ومعدل درجات الحرارة يتراوح ما بين 24 درجة (في يناير) و 28 درجة (في يوليو). إجمالي الإشعاع الشمسي 200 كيلو/سعرة حرارية على السنتمتر المربع الواحد في السنة (مقداره في موسكو، على سبيل المثال، 90 كيلو/سعرة). ومن حيث مقادير الميزان الإشعاعي سجلت منطقة سقطرى (وكذلك مياه السواحل الشمالية الغربية لأوستراليا) رقماً قياسياً تجاوز 140 كيلو/سعرة على السنتمتر المربع الواحد في السنة.

الكميات السنوية للأمطار على سواحل سقطرى 193 ملمتراً مكعباً، إلا أن الأمطار في جبال كلتا الجزيرتين، اعتباراً من ارتفاع 200 متر تقريباً عن سطح البحر، تتجاوز هذا المؤشر بشكل ملحوظ، كما يتضح من المراقبة المباشرة ومن طبيعة الكساء النباتي (إلى 300 ملمتر مكعب، بل أكثر من ذلك، على ما يبدو، في جبال حجهر). أما التبخر فهو أعلى من 2000 ملمتر مكعب.

دورة الرياح الموسمية في منطقة سقطرى تتجلى في التبدل الطبيعي لاتجاهات الرياح المهيمنة. ففي أشهر الشتاء، وبتأثير المجال الآسيوي للضغط الجوي العالي، تتكون الرياح الموسمية الشمالية الشرقية الجافة، ومن أواخر أكتوبر وحتى أبريل تهب الرياح من جهة السواحل الشمالية والشمالية الشرقية لبحر العرب، بشدة معتدلة، لا تتجاوز عادة 4 - 5 درجات. ومن أواخر أكتوبر حتى ديسمبر لا يندر أن تجتاح القسم الأوسط من بحر

العرب، قادمةً من جهة الشرق، بعضُ الأعاصير الاستوائية التي يمكن أن تتعرض سقطرى لتأثيراتها المخففة بعض الشيء.

وفي أواخر أبريل تتغير الأنواء الجوية ويتبدل الطقس بسرعة، فبسبب التحول الجذري في مجالات الضغط الجوي فوق آسيا والمحيط الهندي تنطلق الرياح الموسمية الجنوبية الغربية، وتهب الرياح من سواحل الصومال عادة، بشدة 6 . 7 درجات من مايو وحتى بداية أكتوبر. وفي يونيو ويوليو، وبخاصة في أغسطس، تعصف رياح شديدة قوتها أكثر من 7 درجات في 20-40 بالمائة من الحالات الخاضعة للمراقبة. ومن أواخر أبريل وحتى يونيو تتعرض سقطرى لأعاصير استوائية شديدة، وفي أشهر الربيع والصيف يصعب على السفن، كما يقول كوسمينين، أن تقترب من سواحل الجزيرة ويتعذر عليها أحياناً أن تلقي مراسيها هناك.

درجة حرارة الماء على سطح بحر العرب عند سواحل سقطرى وعبد الكوري تتراوح بين 23-24 (في يوليو. أغسطس) و 25 (في ديسمبر. فبراير) و 29 درجة (في مايو). وتعود أسباب درجة حرارة البحر الواطئة نسبياً في نهاية الصيف (يوليو. سبتمبر هي الفترة الوحيدة التي تكون فيها حرارة البحر عند سواحل سقطرى أقل بعض الشيء من حرارة الجو) إلى صعود مياه الأعماق الباردة على الأطراف الساحلية للتيار الصومالي الصيفي. وهو تيار قوي تتجاوز سرعته عند سواحل كينيا والصومال وسقطرى 1.5 عقدة، إلا أن شدته تضعف عند وصوله إلى شرق سقطرى فيتسخن ويحمل المياه بسرعة أقل من 0.5 عقدة إلى سواحل الهند، ويسمى في هذه الحالة بالتيارات الموسمية.

ويلاحظ عند السواحل الشمالية لأرخبيل سقطرى في الصيف تيار أضعف من التيار الصومالي، قادم من خليج عدن باتجاه السواحل الشمالية لبحر العرب، وفي مضايق الأرخبيل تجري التيارات في الصيف من الجنوب إلى الشمال، أما في الشتاء فينشط في هذه المنطقة تيار دافئ في اتجاه الجنوب الغربي سرعته 0.5 . 1 عقدة. إلا أن اتجاه تحرك المياه من الجنوب إلى الشمال يبقى في أشهر الشتاء أيضاً في المضايق الواقعة بين سقطرى ورأس غواردافوي (بسبب الفوارق في سرعات التيار إلى الجنوب والشمال من الأرخبيل).

المناخ الجاف القائظ، وتفاوت هطول الأمطار، وشحتها في كل مكان تقريباً، سبب لعدم انتظام سيولة المياه السطحية وندرتها فمجاري الأكثرية الساحقة من وديان سقطرى وعبد الكوري ناشفة طوال العام تقريباً، ولا تمتلئ تلك المجاري بالمياه ولا تمرر سيول الأمطار إلا

في وقت هطولها (إذا كانت غزيرة)، وهو أمر لا يحصل في بعض الوديان كل عام.

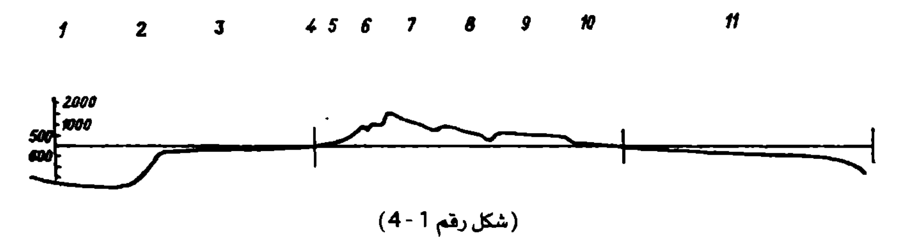
ولا يختلف الموقف عن ذلك اختلافاً ما، إلا في الوديان التي تمتص المياه من سفوح جبال حجهر وأطرافها، فكمية الأمطار المتكاثرة هنا تؤمن أداء عدد كبير نسبياً من ينابيع الشقوق الأرضية وروافدها، وتغذي المصادر الجوفية مسيل المياه الضعيف في بعض الوديان (دنجهن، ديعساكيلو، شوعب وغيرها) على امتداد عدة كيلومترات.

الينابيع والعيون الطبيعية، القوية نوعا ما، قليلة في سقطرى خارج منطقة جبال حجهر، أما في عبد الكوري فلا وجود لها أصلاً. ومن الينابيع الشقوقية الجيدة نبع متعدد المنافذ قرب قرية قيسو الواقعة جنوبي مدينة قلنسية، موارده الإجمالية لا تتجاوز عادة 5 ألتار في الثانية، إلا أن قدراته تزداد عدة مرات بعد هطول الأمطار. وهناك ينبوع معروف من هذا النوع في أحد شقوق الهضبة الكلسية جنوب غرب سقطرى. وتجدر الإشارة إلى نبع قرية الغبة على الساحل الشمالي (في وادي أريوش)، فهو يقع أدنى من مستوى البحر ويغذي بحيرة صغيرة مستديرة على مسافة 300 متر عن ساحل البحر. قطر البحيرة قرابة 30 متراً وعمقها عشرات الأمتار. وماؤها فيه ملوحة (المزيد عن العيون والينابيع في سقطرى: Morris, 2002).

كما تمتد عروق مياه جوفية، فيها ملوحة، تحت ترسبات بحرية ساحلية سمكها 5 - 7 أمتار في السهول المنخفضة في كلتا الجزيرتين، وهي تغذي مجموعة من الآبار. وتتطابق مستويات هذه العروق مع مستوى سلسلة خلجان الليمان والأخوار المتاخمة لثغور عدد من وديان سواحل سقطرى: حنيفو (في ضواحي حديبو) ودنجهن والسوق والقرية ومطوف وقلنسية والوادي الواقع جنوبي رأس بادوه. ويحتمل أن تكون هناك عروق عميقة ووفيرة المياه في أساس قاطع الصخور الترسبية في إطار الهضاب الواسعة في الأجزاء الشرقي والأوسط والغربي من سقطرى (شكل رقم 1-4) (راجع التفاصيل في Morris,2002).

شحة الأمطار في سقطرى عموماً، وفي عبد الكوري خصوصاً، هي السبب في ضعف عمليات نشوء التربة الناعمة، إلا أن التضاريس الجبلية للجزيرتين، وتفاوت الرطوبة الجوية في مختلف أرجائهما، وعدم تجانس الظروف الجيولوجية الصخرية والهيدرجيولوجية، تركت أثرها في تعقيد الطبقة الفوقانية للتربة (إلى حد التنوع الكبير في بعض المواضع).

وفي الجبال وأعالي الهضاب تشغل مساحة كبيرة النتوءات العارية للصخور الأصلية الملساء، مع غياب التربة في الواقع أو ضعف تطورها. وفي السهول الساحلية لكلتا الجزيرتين



(شكل رقم 1 - 4)

نصادف سباخاً وممالح، وعلى سفوح الجبال الرطبة نسبياً، وفي شريط السهول الذي يطوق أسافلها، تكثر التربة الحمراء الداكنة شبه القاحلة. كما يكثر هذا النوع من التربة في النصف الجنوبي من المنطقة الأريتيرية الصومالية المجاورة والمتفرعة عن منطقة التربة الأريتيرية الصومالية لقاطع البراري المدارية المكسو بالجافوف والعاقول والأحراش الإستوائية الأفريقية (غلازوفسكايا، 1983). ولعل أرخبيل سقطرى يميل من هذه الناحية، إلى المنطقة الأريتيرية الصومالية الفرعية (شكل رقم 1 - 5).



(شكل رقم 1 - 5)

طبقة الثرى العليا للتربة الداكنة ليست سميكة (قرابة 20 سنتمتراً)، وصبغتها أقرب إلى الرمادية، وتركيبتها الحبيبية خفيفة، وفي أسفلها يتحول اللون إلى أحمر مائل إلى الرمادي، وعلى عمق 40 - 60 سنتمتراً من سطح التربة يغدو اللون برتقالياً وأحمر قرميدياً. وتكثر على هذا المستوى كمية الأطيان والكربونات في تركيبة التربة، هذا النوع من التربة الداكنة يتطلب عناية كبيرة للحفاظ عليها والحيلولة دون تشويهها.

تشير ي. لوبوفا وأ. خاباروف إلى ضرورة تقييد استثمار التربة الحمراء الداكنة شبه القاحلة في ظل الطرق الحديثة للهندسة الزراعية (لوبوفا وخاباروف، 1983)، فإن لفلاحة هذه التربة من أجل البذار في موسم الجفاف تأثيراً فتاكاً عليها، وإلى ذلك لابد من الامتناع عن الإفراط في رعي الماشية في هذه الأراضي كما ينصح المؤلفان.

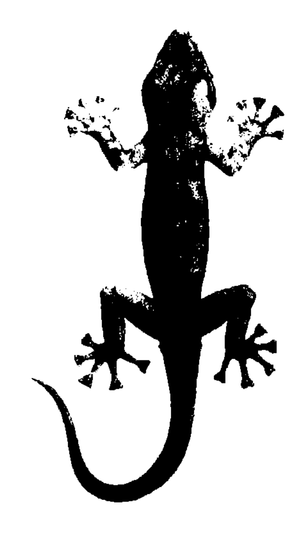
عالم النبات ومملكة الحيوان

ينتمي أرخبيل سقطرى إلى المنطقة الجبلية السهبية الأفريقية الشمالية الشرقية من المملكة النباتية المدارية القديمة. واشتهرت جزره، وخصوصاً سقطرى نفسها، في كل مكان بعالمها النباتي والحيواني القيّم المنقطع النظير (شكل رقم 1 - 6 , 1 - 7). وقد حظي باهتمام بالغ ومتواصل من جانب علماء النبات والحيوان والحشرات الأوروبيين الذين زاروا تلك الجزر في القرن الثامن عشر، فيما ينعت العلماء المعاصرون هذا الأرخبيل اليوم «بالمنطقة الإيكولوجية ذات الأولوية العالمية» (Cheung and DeVantier, 2006: 61). وتفيد حساباتهم أن قسماً كبيراً من النباتات التي تنمو في الجزيرة، وتحديداً 37 % من 825 فصيلة نباتية، (Ibid, 6) إنما هي نباتات مستوطنة لا توجد في أي مكان آخر في العالم.

ويطرح السؤال نفسه بخصوص منشأ وأصل هذه النباتات المستوطنة الفريدة. يشير أ. ميلر إلى تفسيرين محتملين لهذه الظاهرة: أولهما أن هذه النباتات من المخلفات القديمة لعالم النبات في بلاد غوندوانا (الهندية) في الدهر الوسيط (الميسوزوي). والتفسير الثاني هو احتمال نزوح هذه النباتات إلى الجزيرة من القارتين المجاورتين. التفسيران لا يستبعد أحدهما الآخر، ذلك أن قرب أرخبيل سقطرى من شبه جزيرة العرب وأفريقيا ووجود الرياح الموسمية الشديدة يفترضان احتمال انتقال النباتات (بذورها، فسائلها)

من المناطق القارية وإليها. إلا أن «الجيولوجيا المستقرة والمناخ البحري الرطب نسبياً قد يكونان قد ساعدا النباتات على البقاء والتطور هنا زمناً أطول بكثير مما في بيئة القارتين المجاورتين الأكثر شدة وقساوة» (Miller and Morris, 2004: 9) . وقد عثر علماء النبات في مدغشقر والجزيرة العربية والهند وجنوب آسيا وفي سقطرى على بعض النباتات التي تعود بأصلها إلى عالم النبات في غوندوانا . ومن الأمثلة على ذلك نبات الإكزاكوم Exa- cum الذي بينت الدراسة الجينية الجزيئية لفروع من فصيلته، وكذلك خريطة انتشارها، أنه وصل إلى مدغشقر من بعيد، في حين أن فروع فصيلته التي اكتشفت في سقطرى شبيهة بما هو موجود في جزيرة العرب؛ مما يدل على أن هذا النبات نقل منها إلى سقطرى في زمن ما أو أن تبايناً حصل منذ أن انفصلت سقطرى عن شبه الجزيرة العربية (Ibid) .

كما تلازم صفة الاستيطان التام الحيوانات البرية والبحرية والنهرية في جزر الأرخبيل، وخصوصاً الزواحف والرخويات وبعض الحشرات والعنكبوتيات والكثيرة الأرجل. ويرى علماء الحيوان أن للكائنات الحية في الأرخبيل أهمية خصوصية لفهم تطور الأنواع، فالخصائص التطورية لعالم النبات والحيوان في هذه الجزر تشمل الضخامة والضآلة (العمالقة والأقزام) ، والتأصل القديم، وفقدان قابلية التأقلم أو التكيف الوقائي، وما إلى ذلك (Cheung and DeVantier, 2006: 6) .



(شكل رقم 1 ـ 6)

ولقد ترسخ في الأذهان، بمثابة رمز أو شعار لسقطرى، اسم شجرة التنين الأحمر Dra-

caena cinnabari التي سميت بالعربية «دم الأخوين» حسب أسطورة لن نتطرق إليها الآن، وتقول إن قابيل وهابيل أول من سكن جزيرة سقطرى. إلا أن السقاطرة يطلقون تسمية عريوب على هذه الشجرة الباسقة التي يبلغ ارتفاعها 10 أمتار (شكل رقم 1 ـ 7). ونذكر هنا، بالمناسبة، أن في جزر الكناري وفي المغرب أشجاراً قريبة إلى فصيلة دم الأخوين السقطرية، لكنها على أي حال تختلف عنها نسبياً. أشجار دم الأخوين التي تنمو في سقطرى على الهضاب والجبال فقط (ما بين 500 إلى 1550 متراً عن سطح البحر) مدهشة بجمالها و«قبعتها» الرائعة التي حاكتها الطبيعة من أوراق شوكية أبرية طويلة، وهي من بعيد تبدو كأنها الفطر أو الكمأة بمظلة خضراء.



(شكل رقم 1 - 7)

وفي سنوات الجفاف تقتات الماشية على أوراق دم الأخوين. ومن لحائها، إذا شقت بسكين، ينبجس نسغ أو صمغ مائل إلى البياض سريع التحجر أو التخثر، وهو ما أعطى للتسمية العربية مصداقيتها على ما يبدو. عصارة الصمغ المتخثرة هذه تكتسب لوناً أقرب إلى القرمزي الأرجواني، وتسمى بالسقطرية أمصيلو (ولعلها مشتقة من الأمصال). الخثارة الطازجة تغلى وتصنع منها أقراص يسمونها عيداحه، وتستخدم على نطاق واسع كمادة تجميلية وعلاجية في الطب والبيطرة. ففي مجال التجميل تستخدمها النساء

لتليين بشرة الوجه، وصبغ الأظافر، وتزيين راحة اليد بمثابة الحناء، وفي مجال التطبيب ينقعون مسحوق الصمغ بالماء ويطلون به المواضع الملتهبة من البدن لإزالة آثار الإلتهابات. كما يرشون المسحوق الجاف على الجروح ومواضع لسع الحشرات، فيساعد على التئامها وتخفيف الألم. وفي حالات النزيف يضيفون المسحوق إلى اللبن الساخن ويشربونه للتعويض عن الدم المفقود، كما يستخدمون صمغ دم الأخوين علاجاً داخلياً لتخفيف أوجاع المعدة والأمعاء وما إلى ذلك.



(شكل رقم 1 ـ 8)

من حيث المظهر الخارجي ثمة بعض الشبه بين دم الأخوين وبين شجرة اليتوع (الفربيون) Euphorbia arbuscula التي تنمو في كل مكان الآن في سقطرى. ويبلغ ارتفاعها 5 أمتار، ويسميها الأهالي إيمته . أوراق اليتوع سميكة تشبه الصبار، وعصارتها تحرق البشرة وتعتبر من مستلزمات الطب الشعبي عند السقاطرة. ولا تقتات المعز على أوراق اليتوع إلا في السنوات العجاف.

هذه الشجرة المستوطنة تنتمي إلى الفصيلة الفربيونية Euphoebiaceae (اليتوعية) التي تضم أيضاً مختلف الشجيرات والأعشاب الشبيهة بأشجار اليتوع. ومنها على سبيل المثال، يتوع عبد الكوري Euphorbia abdelkui المسمى أرحاظ ، وهو منتشر في هذه الجزيرة وحدها. ولا أقل منه غرابة وانتشاراً الشجرة القنينية Adenium

obesum (المتورمة أو البدينة)، وهي من الفصيلة النباتية السقطرية socotranum وتسمى باللهجة المحلية في المنطقة الشرقية وفي جزء من المنطقة الوسطى تريمو، وفي المنطقة الغربية والجزء الآخر من المنطقة الوسطى إسفيد (شكل رقم 1 ـ 9). وهناك أيضاً ما يسمى بشجرة الخيار (وربما القرع) Dendrosicyos socotrana، وهي من الفصيلة القرعية Cucurbitaceae، واسمها بالسقطرية كامهن، وارتفاعها يصل إلى 6 أمتار(شكل رقم 1 ـ 10). المعز لا تأكل أوراقها أيضاً، إلا في سنوات القحط والجفاف.



(شكل رقم 1 ـ 9)

كما اشتهرت سقطرى منذ القدم بأشجارها العطرية الفواحة، وفي مقدمها عدد من انواع البخور واللبان Boswellia (شكل رقم 1 ـ 11). وتسمى هذه الأشجار بالسقطرية أمعيرو (أمغيرو بلهجة المنطقة الغربية)، ويبلغ ارتفاعها 8 أمتار. وهي ثلاثة أنواع أساسية: أمعيرو وأمعيرو صمغانو (صمغه أو نسغه أجود من النوع الأول) وأمعيرو تيليو (صمغه هو عموماً). وكان اللبان في سالف الزمان أساس البحبوحة التي عاش فيها أهالي سقطرى، شأن باقي سكان مناطق الجنوب العربي. فزراعة هذه الأشجار وتصدير البخور من أهم، بل هما أهم عمل مارسه السقاطرة في حينه.

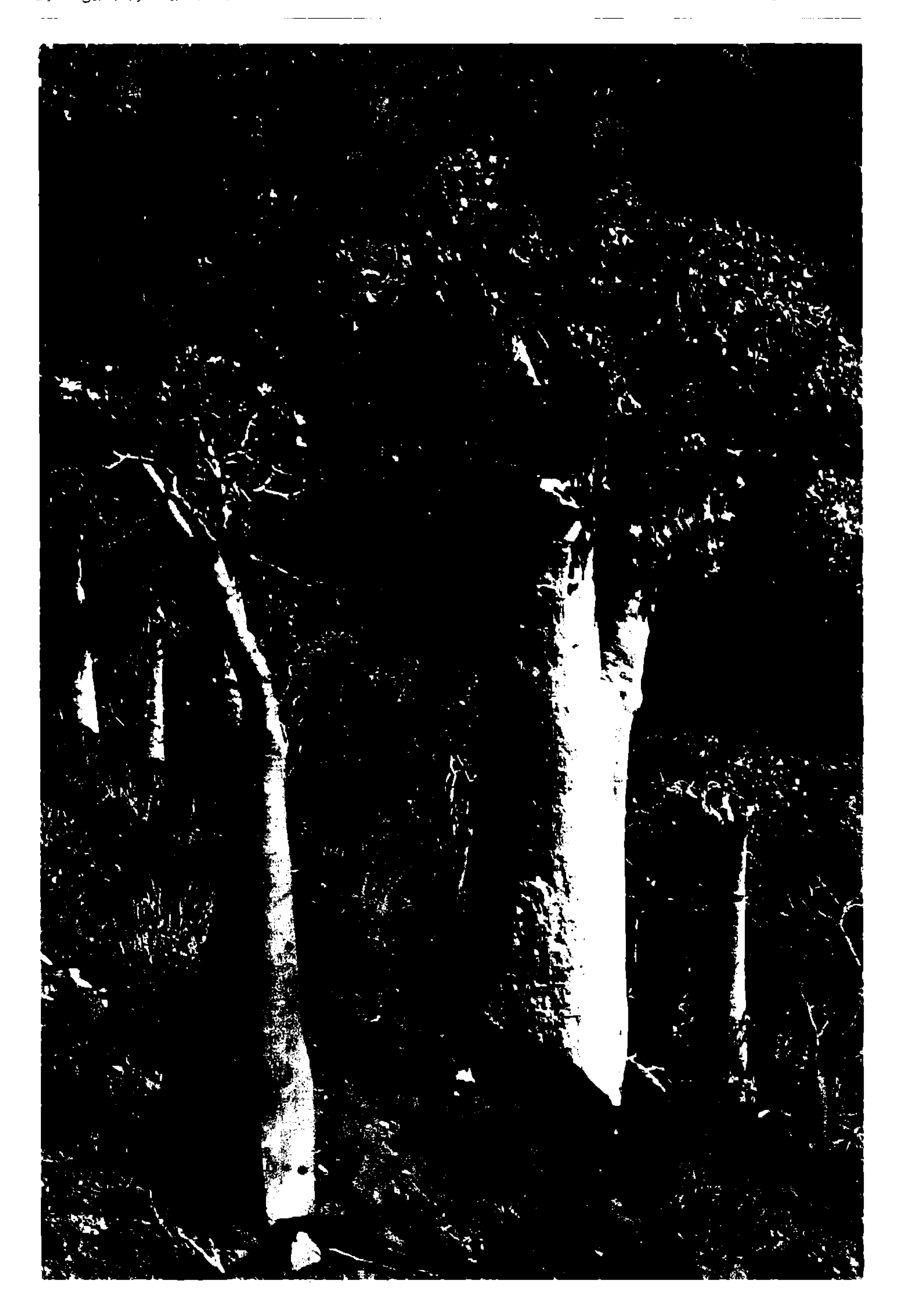


(شكل رقم 1 - 10)

كما يستعمل صمغ أو نسغ اللبان اليوم وسيلة للتطيب بحرقه بخوراً، و وسيلة للتطبيب في علاج الجروح والأمراض الجلدية والبيطرة. ونصادف في سقطرى شجرة الكافور Com-miphora أو البلسم الشائكة المسماة بالسقطرية حَرحِر، ويستخدم صمغها أيضاً في التطيب والتطبيب. وعلى سبيل المثال يبخر السقاطرة الطفل عندما يولد بدخان الكافور.

وفي سقطرى أنواع عديدة من أشجار الصبر Aloeceae (شكل رقم 1 - 12) المسمى بالسقطرية طيف، والاستعمالات الطبية لعصارة الصبر معروفة، والسقاطرة يستخدمونها في علاج مختلف الأمراض، حتى الملاريا.

وكثيراً ما نصادف في سهول سقطرى وهضابها شجرة العُنّاب من فصيلة النبقيات Ziziphus spina -christi، وتسمى بالسقطرية ظعد، وهي منتشرة أيضاً في الشرق الأوسط وأفريقيا وشمال غرب الهند، وثمرها يؤكل ويسمى بالعربية الدَّوم، وبالسقطرية جريومي، وهو علف جيد للماشية، وخصوصاً الإبل.



(شكل رقم 1 - 11)



(شكل رقم 1 - 12)

ويعتقد أن من الأنواع الإقليمية لعالم النبات هنا المستنبتات الصومالية - العربية في الصحاري الاستوائية. («الأطلس الجغرافي الفيزياوي للعالم»، 1964). ففي السهول الواطئة تكثر المناطق شبه الصحراوية التي تنمو فيها الشجيرات والغلال، ومعظمها في سقطرى، وكذلك البوادي في عبد الكوري التي يمكن أن تنمو فيها تلك الشجيرات والغلال. في الصحاري الخالصة (السهل الساحلي الجنوبي في سقطرى، وسطح عبد الكوري بمجمله تقريباً) تنمو أحراش غير عالية (لا يتجاوز ارتفاعها المتر الواحد) من الشجيرات المقاومة للجفاف (مثل الأقاصيا Acacia والطرفاء Tamarisk وغيرهما) والنباتات الريانة الخازنة المرطوبة. ومنها الشجرة القنينية وشجرة الخيار وبعض النباتات الأخرى. أما الكساء العشبي فهو مخلخل، ولم يبق منه شيء في الواقع بسبب الإفراط في رعي الماشية.

تشغل المناطق شبه الصحراوية القطاعات الأكثر رطوبة في السهول المتموجة وفي أسافل السفوح (سهل حديبو، ووادي أريوش، ووادي موري، وسهول قلنسية الساحلية المرتفعة، وسفوح الجبال الواطئة في عبد الكوري على ارتفاع 150 - 200 متر، وغيرها). ارتفاع الشجيرات المقاومة للجفاف والأشجار الواطئة هنا لا يتجاوز 2.5 - 3 أمتار، وأغلبها

من الأقاصيا واليَتوع وغيرهما. وهناك أيضاً شجيرات الدرشليتيا Dirichletia والأشجار القنينية وشجرة الخيار، وكذلك أشجار الصبر المعتادة. أما الأعشاب الدائمة والنباتات شبه الصحراوية فهي أكثر في البوادي، إلا أنها هي أيضاً تكاد تنقرض بسبب الرعي المفرط.

سفوح الجبال ومنحدرات الهضاب الأكثر رطوبة في سقطرى (في ارتفاعات تتراوح بين 200 و 500 متر عادة) مكسوة بغابات متباعدة من الأشجار المقاومة للجفاف، ويبلغ ارتفاع تلك الأشجار في بعض المواضع 5 أمتار، كما تزداد كثافتها بشكل ملحوظ أيضاً، ومعظمها من الأقاصيا واللبان واليتوع الشبيه بالأشجار. كما تصادف هناك أشجار المر (البلسم) الشوكية والبرتقال البري Citrus aurantium والخُبّازى Hibiscus والصبر، بالإضافة إلى الكثير من الأعشاب الزاهرة كالبنفسج Viola cinerea والبليحاء Reseda viridis والزعفران وغيرها.

تضاريس الغابات المتباعدة، المقاومة للجفاف، في سقطرى تنتشر على امتداد وديان حاصن وقلنسية ودنجهن، وكذلك فيوديان الجزء الغربي من الهضبة الشرقية.

وتتميز بمنتهى التفرد والأصالة نباتات الجزء الأوسط من جبال حجهر في حدود ارتفاعات تتراوح بين 500 إلى 1500 متر. فهنا تكثر أشجار دم الأخوين (شجرة التنين)، حيث تغطي أكماتها أحياناً جوانب الوديان والشعاب، وأحياناً أعالي الجبال، إضافة إلى ذلك توجد بين الغابات والأحراش الجبلية الشوكية الجافة أشجارُ الرمان البري Puni-ca protopunica، والصندل السقطرى Buxus hildebrantii، والعرعر والتمرهند Tamarindus indica ، والجميز Sycomore وغيرها. ونصادف في المدرج العشبي بنفسجاً شبيهاً ببنفسج الألب، كما نصادف زهور الجُريس وزنبق العنصلان Scilla berthelotii، وبعض أنواع الصبر، وزهرة الربيع Primula ، وزهرة البغونية السقطرية Begonia socotrana وغيرها.

كان ف. بلفور الذي وضع في حينه وصفاً تفصيليا لنباتات سقطرى (راجع: Bal-four,1888. Forbes, 1903) قد تحدث عن عشرات الأنواع المستوطنة من النباتات التي وجدها هناك من أشجار وشجيرات وأعشاب. وقد أتينا على ذكر بعضها أعلاه. فعلى سبيل المثال وجد بلفور بين عائلة شجيرات الدرشليتيا أربعة أنواع مستوطنة (من أصل الأنواع الخمسة الموجودة في سقطرى).

ومن بين الـ 12 نوعاً من أنواع اليتوع التي تنمو في سقطرى وعبد الكوري هناك 9 أنواع مستوطنة، وهناك كما أسلفنا ثلاثة أنواع مستوطنة من اللبان وثلاثة أنواع من الأقاصيا، و 6 أنواع من شجرة النيلة وكثير من الأنواع المستوطنة الأخرى. وثمة عدد من النباتات المستوطنة يعتبر من المخلفات المعمرة للأشجار الأفريقية القديمة، مثل يتوع عبد الكوري Euphorbia abdelkuri، وديندروسيكوس سقطرى Dendrosicyos socotrana وغيرهما.

نحن لا نتوخى هنا الإسهاب في تفاصيل عالم النبات في سقطرى، ولذا نكتفي بهذه الأمثلة الكبيرة الدلالة، ومن ينشد المزيد يجد وصفاً تفصيلياً معتبراً لنباتات الجزيرة في كتاب ميلر وموريس (Miller and Morris, 2004).

من ناحية الجغرافية الحيوانية الحيوانية تنتمي سقطرى وعبد الكوري إلى المنطقة الأفريقية الشرقية المتفرعة من المنطقة الحيوانية الإثيوبية، وتنتمي إلى هذه المنطقة الفرعية نفسها بلدان مجاورة كالصومال وجنوب الجزيرة العربية.

إلا أن في الجزيرتين موضوع البحث عالماً حيوانياً فريداً لدرجة كبيرة، إذ إن أكثر حيوانات تلك المنطقة من الوحوش البرية المتنوعة، فيما تفتقر سقطرى وعبد الكوري في الواقع إلى اللبائن. وكل المواشي الموجودة (من معز وأغنام وأبقار وحمير وجمال) وبعضها في حالة شبه برية (وخصوصاً المعز والحمير) قد جلبها الناس إلى الجزيرة قبل مئات السنين. يعتقد هنري فوربس الذي درس عالم الحيوان في الجزيرتين تفصيلاً (Forbes,1903) أن أهالي سقطرى هم الذين جلبوا من الخارج السنور الوحشي من فصيلة الزبّاديات الثديية Viverricula malaccensis (شكل رقم 1 - 13). وبالمناسبة نعيد إلى الأذهان أن منطقة انتشار فصيلة الزباديات أو الثدييات اللاحمة تشمل أفريقيا ومدغشقر وجزيرة العرب وهندستان والهند الصينية وجزءاً كبيراً من أرخبيل الملايو. ولا جدال في كون الخفافيش والوطاويط في سقطرى من اللبائن الغريبة المنشأ.

وفي سقطرى وعبد الكوري فصائل مستوطنة غير قليلة من الطيور والزواحف والحشرات والرخويات، ويعود سبب استيطانها في المقام الأول إلى عزلة الجزيرتين وانزوائهما الطويل الأمد، فمعروف أن قلة الأنواع والفصائل عموماً سمة تميز عالم الحيوان في جميع جزر العالم، وسببها انقراض قسم من الفصائل والأنواع القديمة وصعوبة تسلل

الحيوانات الوافدة بصورة طبيعية إلى الجزر. إلا أن الفئات الحيوانية القليلة الموجودة في أرخبيل سقطرى تتميز بتنوع فصائلها لدرجة كبيرة نسبياً، فنرى ذلك على وجه التحديد في الزواحف والمفصليات (الحشرات والقشريات والعنكبوتيات والكثيرة الأرجل) التي نصادف بينها نماذج بدائية قديمة جداً.



(شكل رقم 1 - 13)

جاء في كتاب تشونغ وديفانتيه أن عالم الحيوان في سقطرى يضم 600 نوع من الحشرات، و 60 نوعاً من العناكب، و 7 أنواع من أم أربع وأربعين، والكثير من القشريات، بما فيها 4 أنواع من السرطان ذي العشرة أرجل، و 38 نوعاً من القشريات المتساوية الأرجل، ونحو 100 نوع من الرخويات، و 30 نوعاً من الزواحف، و 192 نوعاً من الطيور، و 14 نوعاً من اللبائن (Cheung and DeVantier, 2006: 101). معظم هذه الكائنات الحيوانية مستوطنة وليست وافدة.

لا يزال عالم الحيوان في سقطرى غير مدروس بما فيه الكفاية، لذا يمكن توقع اكتشاف أنواع جديدة غير معروفة حتى الآن، هذا ما يؤكه علماء الحيوان أنفسهم. وهو ما يشير إليه تباين المعلومات بشأن عدد الأنواع الحيوانية في الجزيرة، فعلى سبيل المثال يتحدث فولفغانغ ورانك عن 800 نوع معروف، ويستدرك فيقول إنها قد تكون أكثر من هذا العدد بكثير (Wranik, 2003).

من أشهر عناكب سقطرى العنكبوت الذي يحمل باللاتينية اسم مكتشفه الأوروبي

بلفور Monocentropus balfouri، ويسمى بالسقطرية فطامي (شكل رقم 1 - 14)، وهو من أقدم العناكب على وجه البسيطة. هذا العنكبوت المستوطن ضخم بحجم راحة يد الإنسان، طول بدنه 34 ملمتراً، وطول أرجله 53 ملمتراً، ولذا ينعته العلماء «بالعنكبوت العملاق» ويعتبرونه من أقدم الكائنات السامة في الجزيرة، والرحالة الأوروبيون يسمونه «القرد السقطرى القبيح» وأهالي الجزيرة يخشونه لحد الهلع.

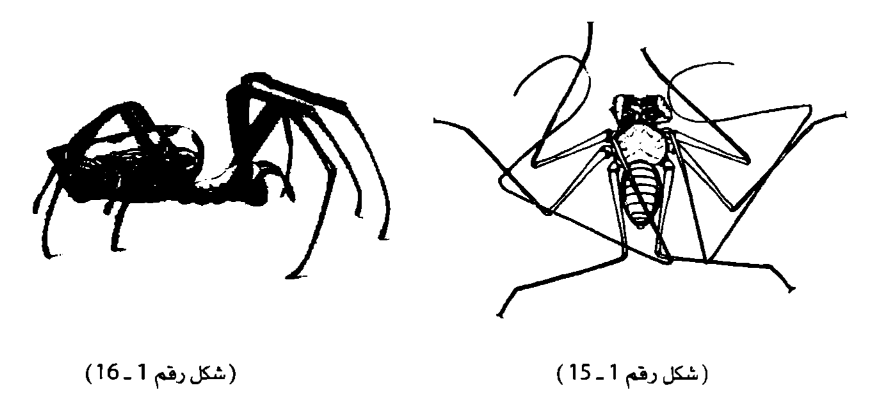
قال لي أحدهم إن لسعة هذا العنكبوت يمكن أن تقتل الجمل، فعندما يقترب منه الجمل السائر في الدرب ينقلب العنكبوت على ظهره في البداية، خوفاً من خف قائمته، ثم يقفز ويلسعه فيها، إلا أن علماء الطبيعة يجدون شيئاً من المبالغة في هذه القصص عن مفعول سم عنكبوت بلفور فطامي. على فكرة، إن السقاطرة من هواة إنشاء الأساطير عن الكائنات الفعلية والمتخيلة التي تهدد الإنسان.



(شكل رقم 1 - 14)

ويوجد في سقطرى ثلاثة من أصل ستة أنواع من العناكب السامة Latrodectus dahlia التي تعيش في شبه الجزيرة العربية ويطلق عليها هناك توصيف «الأرامل السوداء»، وهي أصغر حجماً من عنكبوت بلفور فطامي، وخاصيتها المميزة هي انتفاخ البطن بقطر يبلغ 10 ملمترات (شكل رقم 1 - 15). وقد رأينا في مغارة جنيبة شبهن عنكبوت Charinus stygochthobius (شكل 1 - 16)، ويعتبره بيتر وايغولدت وكاي فان دام حيوان الجحور الحقيقي الوحيد بين الكائنات المستوطنة في الكهوف من بقايا

العصور الأكثر رطوبة في تاريخ سقطرى (Weygoldt & Van Damme, 2004).



(شكل رقم 1 ـ 15) (شكل رقم 1 ـ 16)

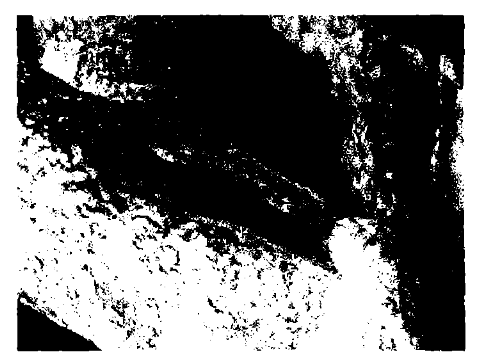
وتضم قائمة الحشرات المنتشرة في سقطرى فصيلة ثنائيات الأجنحة أو ذباب Dip-tera وفيها قرابة ثمانين نوعاً، بعضها محلي مستوطن وبعضها الآخر نصادفه في أرجاء أخرى من المعمورة. وقد درسها تفصيلاً عالم الحشرات فولفغانغ ورانك في كتابه الرائع (Wranik, 2003). ومن بينها الذبابة المنزلية العادية Musca domestica والذبابة السوداء Simulium ruficome، وقد كتب عن ذبابة Oestrus ovis المنتشرة في الكثير من أرجاء العالم، وهي من أنواع ذباب الخيل أو الأنبار البلعومية من فصيلة Oestri-dae التي تتطفل يرقاتها وتنمو على مخاط الحيوانات الأليفة. «هذه الذبابة التي تسمى في سقطرى ديعاصر يمكن أن تسبب التهاب العين أو القصبات الهوائية عند الناس، والرعاة هنا يخافون منها كثيراً» (Cheung, DeVantier, 2006: 115).

ومن الأحياء السقطرية الخطرة على الإنسان ما يسمى الحريش Scolopendra balfouri (Valida)، أو أم أربع وأربعين، (شكل رقم 1 - 17-18) وطولها 18 سنتمتراً. لسعها أشد إيلاماً من لسع العقرب الضخم Hottentota socotrensis البالغ طوله 13 سنتمتراً والذي يمكن أن نصادفه في جزيرتي سقطرى وسمحة فقط. كما يهتم العلماء بالأفاعي التي لا يوجد بينها هنا أنواع سامة.

ثم إن سقطرى موطن أنواع نادرة من الطيور التي ارتضت لنفسها عدة مواقع مميزة في الجزيرة. وفي كل مكان نصادف أعداداً كبيرة من النسور والعقبان (شكل رقم 1 - 19).

وفيما يخص الحيوانات البحرية فهي وفيرة ومتنوعة قرب سقطرى وعبد الكوري، الأمر الذي يعود، كما أسلفنا، إلى صعود مياه الأعماق، وهي غنية بالمواد الغذائية، مع

اقتراب التيار الصومالي الصيفي من شواطئ الجزيرتين. ومن بين الأسماك في هذه الأنحاء ما ينتمي إلى فصيلة الغضروفيات، مثل القرش والشفنين والرعّاد، وما ينتمي إلى فصيلة العظميات، مثل التونة، والإسقمري الهندي، والإسقمري الملوكي، وسمك البوري (أبو ذقن)، وسمك البركودة (الكراكي) المفترس، والأنقليس، وسمكة الببغاء، وسمكة الفراشة وكثير غيرها.



(شكل رقم 1 ـ 17)



(شكل رقم 1 ـ 18)



(شكل رقم 1 ـ 19)

ويتميز العديد من أسماك الشعاب المرجانية بجنبها المفلطح، ما يساعدها على التغلغل

في شقوق الشعاب. ومن الفصيلة السرطانية توجد هناك وفرة من جراد البحر (الكركند)، والسلطعون (أبو جنيب)، والجمبري (برغوث البحر) (شكل رقم 1 - 20). كما تنتشر بين الزواحف البحرية أنواع من الأفاعي السامة والسلاحف البحرية. فيما تكثر في المياه الساحلية مختلف أنواع الرخويات (أم الحبر ومحارة اللؤلؤ ومحار رأس الأفعى وغيرها). وهناك مستوطنات وتجمعات وفيرة أحياناً من المرجان السداسي الأذرع والثماني الأذرع.



(شكل رقم 1 ـ 20)

بعض الاستنتاجات

المعطيات والمعلومات المتوافرة لدينا تمكننا من إبداء الملاحظات التالية بشأن الجغرافية البليونتولوجية لجزيرتي سقطرى وعبد الكوري:

فترة ما قبل تاريخ التضاريس الحالية للجزيرتين ترتبط بوجود بحر هائل مترامي

الأطراف كان يغطي اليابسة في المنطقة كلها، وهو بحر دافئ غير عميق شمل أيضاً أراضي جنوب الجزيرة العربية الحالية والقرن الأفريقي، وفي أعماقه استمرت الترسبات الكلسية بالتراكم لحد ما قبل 40 مليون سنة تقريباً. يشير بيدون و بيشان (Beydoun & Bichan, 1970) بهذا الخصوص إلى التشابه بين الترسبات في كلٍّ من جنوب الجزيرة العربية وسقطرى والصومال.

في نهاية العصر الأيوسيني، وفي العصر الأوليغوسيني، وبداية العصر الميوسيني، حصل تبدل وتحول تدريجي للحالة البحرية إلى حالة قارية، بمعنى جفاف البحر ونشوء اليابسة، في منطقة أفريقيا الشرقية وجنوب الجزيرة العربية التي كانت تشكل آنذاك مجالاً واحداً متلاحماً. إلا أن البحر في العصر الأوليغوسيني اقتحم من جديد منخفضات اليابسة الحديثة العهد، وظلت محفوظة، في منخفضين بغرب سقطرى، ترسباتٌ طينية كربونية يصل سمكها إلى 50 متراً، وقد تراكمت من 25 - 30 مليون عام على وجه التقريب.

وقبل 20 مليون سنة تقريباً نشأت حالة اليبوسة أو النظام القاري في منطقة أرخبيل سقطرى الراهنة، وكان نهوض اليابسة عموماً هناك على ارتباط بعملية تفعيل صعود باطن الأرض. كان الدافع الأول لتفعيل الصعود في مراحله المبكرة هو النمو العمودي والأفقي (ارتفاعاً وعرضاً) الذي نتج عن تقوّس أو تحدّب أرضي كبير حصل حول المنطقة الشمالية الشرقية من أثيوبيا (الحبشة)، وقد اتجه أحد محاور هذا التحدب نحو الشمال الشرقي (على امتداد خليج عدن الذي سرعان ما نشأ في أعقاب تلك الحقبة).

العصر الذي يبعد عنا بـ 15 - 20 مليون سنة يشكل في تاريخ علم النبات والحيوان البري هناك فترة لم تنفصل فيها بعدُ مناطق نمو النباتات ووجود الحيوانات بعضها عن بعض على اليابسة الأفريقية العربية التي كانت لا تزال تشكل في الواقع بقعة واحدة. وبعد تلك الفترة فقط بدأ انفصال وانعزال المناطق البيولوجية الجغرافية المنفردة في جنوب الجزيرة العربية، وسقطرى، والصومال. إلا أن التبادل الجزئي فيما بينها ظل مستمراً، على الأغلب، من حين لآخر.

تعود أشد مراحل التطور الجيولوجي والجيومورفولوجي لمنطقة جنوب الجزيرة العربية والصومال إلى عهد تشقق وتفتت أجزاء التحدب الآنف الذكر. وهو ما حصل قبل 15

مليون سنة على وجه التقريب. وقد احتفظت جزر أرخبيل سقطرى وقاع القطاعات البحرية المتاخمة لها بآثار واضحة لهبوط كتل صخرية هائلة من اليابسة نتيجة لتصدع خليج عدن وتوسعه وتعمقه. وفي سياق تصدع الخليج المذكور تباعدت مناطق أرخبيلي سقطرى وكوريا موريا (عند شواطئ عمان) بعد أن كانت متجاورة قبل ذلك.

التحركات التكتونية في العصر الميوسيني المتأخر والعصر البليوسيني أدت في البداية إلى انبعاج السطح وظهور الأحديداب في ثلاثة مواضع (رأس شوعب، وسهل قلنسية، وجبال حجهر) في إطار الأبعاد الحالية لجزيرة سقطرى. وبعد ذلك، في العصر البليوسيني على الأرجح، بدأت تجزئة وتمايز الصخور والكتل الحجرية في منطقة الأرخبيل وانفصال الجزر الحالية بعضها عن بعض. ولربما تولت تكسرات الترسبات الأقدم في بعض الأحيان دور القوة الضاغطة المزحزحة في هذا المجال. علماً أن أعلى مجال للزحزحة العمودية (800 متر على اليابسة) يلاحظ في اتجاه يسير من الغرب إلى الشمال الغربي، وبخط مائل بالنسبة لمحور تصدع خليج عدن، أما التكسرات في الاتجاه الشمالي الشرقي والموازية لمحور التصدع فهي، بالأساس، ناتجة عن تحرك واندفاع الصخور.

نشوء التكسرات في حدود أرخبيل سقطرى لم يرافقه في أي مكان ظهور حمم الماغما. وقد استنتج الجيولوجيون من خلال أبحاثهم، أن عمق التكسرات ليس كبيراً، ويضاف إلى ذلك إمكانية مشاركة آليات وميكانيزمات التحركات التكتونية السطحية بفعل الجاذبية، في نشوء وانفصال صخور جزر الأرخبيل وقاع القاطع البحري المتاخم لها.

في منتصف العصر البليوسيني حصل ضعف في التحركات العميقة لقشرة الأرض بمنطقة أرخبيل سقطرى، وبدأ هناك استقرار تكتوني نسبي، مما يعني أن سقطرى وعبد الكوري اكتسبتا الخصائص الأساسية للطبوغرافيا الراهنة قبل 6 - 8 ملايين سنة. و في العصر البليوسيني ذاته تشققت الجزيرتان الجبليتان واخترقتهما شبكة من الوديان المتوسطة والصغيرة، كما نشأت بفعل التحات التكتوني في الجزء الغربي من جزيرة سقطرى عدة منخفضات (مثل وادي زهر والوهاد الأصغر منه). ويبدو أن سقطرى، التي باتت في العصر البليوسيني معزولة ومنفصلة عن الجزيرة العربية من جهة وعن الصومال من جهة أخرى، اكتسبت آنذاك خصوصيتها من حيث عالم النبات ومملكة الحيوان.

وعلى مدار الدهر الرابع تميز تطور طبيعة سقطرى وباقي جزر الأرخبيل (وخصوصا

المناخ وعالم النبات والحيوان) بدرجة كبيرة من «المحافظة» أو «الجمود والركود» نتيجة لموقعهما على الطرف الجنوبي من الحزام الاستوائي. يؤكد أ. سفيتوتش («جزر الجزء الغربي من المحيط الهندي»، 1982) بهذا الخصوص أن نطاق التذبذبات الطبيعية في العصر البليستوسيني لم يكن كبيراً نسبياً في خط الاستواء والحزام الاستوائي وشبه الاستوائي، وأن سير العملية الطبيعية كان أقرب لما في العصر البليوسيني، إلا أن التطور الهادئ عموماً للتضاريس جرى على خلفية التذبذب المتكرر لمستوى المحيط.

في عصر التجمد القاري، في النصف الشمالي من الكرة الأرضية، هبط مستوى المحيط الهندي إلى أوطأ من 100 متر؛ مما أدى إلى جفاف مساحات كبيرة في الجرف القاري للجزيرتين، بما في ذلك الكثير من الأخوار وقيعان المضايق، ما عدا المضيق العميق (1000 متر) الذي يفصل دوماً بين أساس جزيرة عبد الكوري وبين الجرف القاري لرأس غواردافوي. وظهرت مساحات كبيرة من اليابسة، أكبر بمرتين من جزيرة سقطرى، بعد التقاء الأخيرة بجزيرتي سمحة ودرسة الصغيرتين الواقعتين إلى الجنوب الغربي منها. وكانت لهذه الجزيرة الموحدة في تلك العهود (آخر مرة في نهاية العصر البليستوسيني، قبل نحو 20 ألف سنة) مساحات شاسعة من التضاريس المستوية المنخفضة التي كانت تتعالى في بعض مواضعها جبال وهضاب سقطرى وسمحة ودرسة الحالية، وفي عهود تراجع المحيط جرى تعمق ملحوظ في الوديان التحاتية هناك.

المراحل الأكثر دفئاً في العصر الجليدي شهدت تجاوزات في مناسيب المحيط الهندي التي ارتفعت كثيراً، حتى بلغت أحياناً مستويات أعلى بعض الشيء (بـ 10 - 15 مترًا) من المستوى الحالي. والرأي السائد أن جزر الأرخبيل شهدت هذا النوع من «الدفء» و«التجاوزات» عدة مرات: في نهاية العصر البليستوسيني الأوسط (قبل 140 ألف سنة)، وعند منتصف العصر البليستوسيني المتأخر (قبل نحو 70 ألف سنة)، وفي نصفه الثاني (قبل 30 ألف سنة تقريباً).

ويرتبط بآخر تجاوزات العصر الجليدي المائية نشوء مدرج بحري ارتفاعه 5 ـ 7 أمتار على سواحل سقطرى وعبد الكوري. وبناءً على تحليل الرخويات المتحجرة ودراسة الترسبات من وجهة نظر علم الصخور يرى سفيتوتش أن التضاريس البحرية والبرية هناك لم تكن تختلف كثيراً عن التضاريس الحالية، ففي عصر التجاوزات ملأت الترسبات القواطع الساحلية للوديان التحاتية.

وقبل نحو 10 آلاف سنة تأثرت سقطرى وعبد الكوري بالتجاوزات ما بعد الجليدية (فترة الفلاندرا) التي تركت آثارها بشكل مدرجات بحرية على الجرف القاري، وكذلك فوق حافة المياه الحالية على ارتفاع 2 - 4 أمتار. وإلى هذه التجاوزات بالذات ينسب البعض نشوء التقاسيم والأبعاد الساحلية المعاصرة. فقد نشأت حتى الوقت الحاضر ترسبات وتراكمات سدودية ساحلية اقتطعت من البحر عدداً من الأخوار (الليمانات) المغلقة، وكذلك البقع اليابسة في القواطع الواطئة من الشاطئ (مثل وادي أريوش)، والحواف الناتئة المتحاتة حديثة العهد.

وعلى البر استمرت عمليات التعرية الفعلية للصخور الجبلية، ونشوء الحفر والوهدات البطيء، وتحرك الكتل المتكسرة غير المتلاحمة والترسبات الترابية الناعمة على السفوح، وتطور الوديان. واقتصرت الظواهر الرمادية على اقتلاع الطبقة الترابية الغرينية الناعمة وإبعادها بفعل الرياح عن سطوح الروابي والمرتفعات ونشوء كثبان طليقة حديثة العهد ومائلة لجهة السواحل (بورسوك، 1982).

على الرغم من تفرد التضاريس المعاصرة في سقطرى وعبد الكوري وأصالتها، ليس من الصحيح اعتبارها تضاريس بدائية لم تتغير بفعل البشر. فالنشاط البشري الاقتصادي (في سقطرى نفسها على الأقل) مستمر هناك من آلاف السنين. وفي الحقيقة كل ما بقي على حاله في الجزيرتين هو باطن الأرض، وكذلك المناخ (المناخ الموضعي تبدل في بعض الأماكن)، ومسيلات المياه السطحية ومجاريها. أما التضاريس الفوقية فقد تعرضت لتبدلات طفيفة ذات منشأ بشري، نتيجة لشق الطرق وبناء مختلف المنشآت. ثم إن السكان، وعددهم كبير نسبياً، يستهلكون بكثرة الموارد الهيدروجيولوجية للطبقة العليا الحاوية للماء. وقد سبق وتطرقنا إلى بعض تبدلات تركيبة عالم الحيوان، ونضيف إليها هنا الاتجاه نحو الصيد الانتقائي لأنواع معينة من الأسماك الثمينة والحيوانات البحرية القيمة.

وعلى نحو ملحوظ، كانت المؤثرات البشرية التي تعرضت لها نباتات سقطرى كبيرة، وتجلت في شكلين: أولهما الظاهرة المرتبطة بالتلوث البيولوجي، بمعنى جلب فصائل غريبة على البيئة المحلية، مثل بعض المزروعات الداجنة، ابتداءً من النخيل، وبعض الأعشاب الطفيلية، والصبار (ربما من أميركا)، والبرتقال البري (ربما من البرتغال)، وما إلى ذلك. والشكل الثاني للمؤثرات البشرية التي تعرضت لها النباتات في سقطرى (وبعض

الأماكن في عبد الكوري)، كما سيأتي ذكره في هذا الكتاب، هو الإسراف في رعي عدد كبير من رؤوس الماشية، ففي العديد من مناطق نمو النباتات الأولية ظهرت نباتات ثانوية، وتضررت بخاصة المدرجات المعشوشبة والمكسوة بالشجيرات والأحراش.

ورغم التبدلات الجوهرية الآنفة الذكر في البيئة الطبيعية يمكن القول إن التضاريس الطبيعية المتأثرة بالنشاط البشري في سقطرى وعبد الكوري لا تزال في حالة توازن واستقرار نسبي. وكان الاستثمار المتكرر للموارد الطبيعية طوال القرون يتميز بالقدر نفسه من الاعتدال، وقد أسفر هذا الاستثمار عفوياً عن تأثيرات إيجابية للاقتصاد على المكونات الطبيعية الإقليمية، فهي تأثيرات لا تقود إلى استنزاف الموارد الطبيعية.

الفصل الثاني

صفحات من التاريخ

صفحات من التاريخ

ورد ذكر جزيرة سقطرى عند الأقدمين من زمان بعيد. إلا أن أحداً لا يعرف على وجه التحديد متى تم استيطانها ومن سكنها لأول مرة. فحتى فترة الاكتشافات الأخيرة لعلماء الآثار الروس لم يعمد أحد من الباحثين إلى دراسة زمن لسكنى الجزيرة أبعد أو أقدم من عصر الممالك القديمة في جنوب الجزيرة العربية. وكان بعض مشاهير دارسي تاريخ المنطقة القديم، مثل عالمي الآثار الإنجليزيين برايان دو وبوكسهول، يعتقدون أن الناس أمّوا الجزيرة من أجل اللبان عندما كان البخور يلعب دور ما يسمى «ذهب المشرق». ومع حلول القرن الرابع الميلادي، حيث تضاءل الطلب على هذه السلعة، اعتمد سكان الجزيرة بالكامل، وقد غدوا سكنة أصليين فيها، على تربية الماشية وصيد الأسماك، مما أدى إلى تشويه التطور الاقتصادي والاجتماعي هناك (Doe، 1970). إلا أن العثور على أدوات العصر الحجري في سقطرى على أيدي البعثة الأثرية الروسية التي كان كاتب السطور من أعضائها يمكّننا من طرح نظرية جديدة لسكنى الجزيرة منذ البداية (تفاصيل الموضوع في الفصل الرابع المخصص للمواقع الأثرية).

نظرية سكنى سقطرى من طرف قدامى الوافدين من شبه جزيرة العرب يؤكدها كونهم يجيدون ركوب البحر، إلا أن الملاحة البحرية، كما تبين أحدث الدراسات والتحليلات التفصيلية للأدلة المتوافرة لدينا، ربما كانت هي أيضاً أقدم من حضارات الجنوب العربي.

بحث هذه المسألة تفصيلاً لا يدخل ضمن مهمتنا. غير أن كتاب «العرب والبحر» (شوموفسكي، 1985 : 20، الطبعة الروسية)، يتضمن أدلة على ارتياد الملاحين لحوض المحيط الهندي في وقت مبكر تماماً. ونعيد إلى الأذهان بهذا الخصوص أن اتصالات بحرية كانت قائمة في الألف الثالث قبل الميلاد، على ما يبدو، بين ميزوبوتاميا (بلاد الرافدين) من جهة وبين ديلمون (البحرين) ومجان (عمان) وميلوخا (في وادي السند) من جهة أخرى (شوموفسكي، 1985 : 20).

الهنود وعرب الجزيرة والمصريون عكفوا على ارتياد رحاب البحار بهمة ونشاط، وحتى منتصف الألف الأول قبل الميلاد كان لعرب جنوب الجزيرة كما نعرف جيداً، موانئ على السواحل يمارسون التجارة البحرية من خلالها، إلا أن معارفنا عن العهود الأقدم من ذلك التاريخ قليلة للغاية. ولا يمكننا إلا أن نعطي بعض الافتراضات بشأن الاتصالات المحتملة

بين أهالي الجزيرة العربية (قبل نشوء الحضارات في جنوبها، وفي القرون الأولى لتلك الحضارات) وبين الهنود أو الأسترونيزيين (الهجرات الإندونيسية)، على سبيل المثال (شوموفسكي، 1985: 34).

في الألف الأول قبل الميلاد كانت سقطرى تابعة لتجار جنوب الجزيرة العربية، وفي منتصف تلك الحقبة لعبت سقطرى دوراً مهماً في تجارة الترانسيت، وأطلق عليها الهنود القدامى بالسنسكريتية توصيف «دفيبا سوقحضارة» (جزيرة النعيم). وإلى التسمية السنسكريتية ينسب المؤرخون الرواية المنتشرة بينهم حتى اليوم بشأن الأصل اليوناني أيضاً لاسم الجزيرة «ديوسكوريدا»، ومن ثم تسميتها الحالية (سقطرى، سوقطرة، سقطرة، إلخ).

هذه التسمية وردت، على سبيل المثال، في كتاب للمؤلفَين كاترين شيونغ وليندن دي فانتيه (Cheung and DeVantier, 2006: 223)، كما ذكرت في ندوة الجزيرة العربية التي عقدها في لندن عام 1997 ف. ميولر الباحث الألماني المتخصص في دراسة الجنوب العربي. وقد اعترض كاتب السطور على هذه الفكرة في الندوة، ولعله أقنع زميله الألماني برأيه، فمن المستبعد أن يكون اسم أحد الشعوب السامية العريقة، كالشعب السقطرى، قد جاء من جهة اللغات الهندوأوروبية القديمة، فهو بلا ريب اسم ذاتي محلي أصيل. والتدليل على هذا الافتراض الذي طرحته أنا لأول مرة ينطلق من دلالة التسمية اليونانية نفسها، إذا نظرنا إليها بمنظار صحيح. فمن هذا الافتراض بالذات يُستنتج منطقياً، وبكل وضوح، أن التسمية اليونانية للجزيرة «ديوسكوريدا» جاءت مقتبسة من التسمية السقطرية di - saqotri حيث «دي» أداة تعريف ربما هي بمثابة الاسم الموصول «الذي» بالعربية.

وبالمناسبة، فإن بلينيوس أيضاً يطلق على سقطرى في «التاريخ الطبيعي» تسمية «ديوسكوريدا»، وثمة افتراض بأن اسم سقطرى بالذات هو المقصود من كلمة سكريت في الكتابة القديمة التي عثر عليها في الجنوب العربي، فالجزيرة الشهيرة بأشجار اللبان والبخور كانت آنذاك تحت حكم مملكة حضرموت أغلب الظن.

أرض البخور

تشكل سقطرى مع جنوب الجزيرة العربية ما كان يسمى ببلاد البخور الشهيرة في

العالم بأسره، فالبخور من أثمن المنتجات في العالم القديم، فقد كان يحرق ويستخدم بكميات متزايدة في كل مكان. كان الكهان الكلدانيون يحرقون أمام مذبح بعل سنوياً ما قيمته 10 آلاف طالنت من البخور، وفي أورشليم بنيت مستودعات ضخمة لخزن هذه الهبة الإلهية والقربان الطقوسي، فيما كان الإغريق يحرقون البخور في كل مكان تكريما لرب الأرباب زيوس، وكانت تصل إلى روما بانتظام سفن من الجزيرة العربية محملة بالبخور والطيب والعطور.

كتب هيرودوتس في القرن الخامس قبل الميلاد يقول: «لا ينبت في أية أرض سوى الجزيرة العربية اللبّان والمر والسنّا والقرفة واللاذن. كل أنواع البخور هذه، ما عدا المر، يجنيها العرب بجهد جهيد، فبخور اللبان يحصلون عليه بحرق الميعة التي يصدرها الفينيقيون إلى اليونان. إن العرب يحرقون ميعة العبهر حول أشجار اللبان ليتمكنوا من الحصول على بخوره، ذلك أن أشجار اللبان محروسة بعفاريت مجنحة صغيرة ومختلفة الألوان تعشش بكثرة حول كل شجرة».

ولكي يجني العرب محصول السنّا (القرفة الصينية) «يلفون أبدانهم ووجوهم، ما عدا العينين، بجلود الثيران وغيرها». فالسنّا تنبت في «البحيرات الضحلة وما حولها، وفي تلك البحيرات تعيش وحوش مجنحة شبيهة بالوطاويط» التي تهاجم البشر، والعرب ينشّون هذه الوحوش ويطردونها ليقتطفوا السنّا (Herodotus, 1972 : 249 -248).

اما القرفة العادية فيحصلون عليها «بأسلوب أكثر غرابة»، إذ تحمل الطيور الكبيرة إلى أعشاشها في تجاعيد الجبال أجزاء جافة من لحاء شجرة يسميها الفينيقيون قرفة «الكينامون». والعرب «يقطّعون جيف الثيران والحمير وغيرها من الماشية الفاطسة إلى أشلاء كبيرة على قدر الإمكان ويحملونها إلى تلك الأماكن على مقربة من الأعشاش، ثم يبتعدون عنها. فتنهال الطيور على شرائح اللحم وتحملها إلى أعشاشها. وتحت ثقل اللحم لا تتحمل الأعشاش فتأخذ بالتساقط على الأرض. فيعود العرب إلى المكان ويلتقطون القرفة».

«أما اللاذن فالعرب يسمونه اللبّان، ويحصلون عليه بأسلوب أكثر غرابة. هذا البخور هو الأزكى رائحة على الرغم من وجوده في أماكن نتنة للغاية؛ لأنه يكون عالقاً في لحى الماعز وينشأ من صمغ الشجر. ويستخدم اللبان في مختلف المراهم العطرة الفوّاحة، فيما يستعمله العرب في الأساس بحرقه بخوراً» (Herodotus, 1972: 249).

اللاذن بخور قدسي، تقول الرواية إن طائر العنقاء مات فيه، على حين يستخدمه الناس في شعائرهم الدينية للطهارة الروحية والبدنية. كتب المؤرخ الروماني بلينيوس الأب عن اللاذن أن موسم جمعه لا يبدأ إلا بعد وصول إشارة طيبة يقال إنها مرسلة من الله، ويتعين على أصحاب مزارع أشجار اللبّان في موسم جمعه أن يتحاشوا الوصال مع زوجاتهم ولا يشاركوا في تشييع جنازة.

المعلومات قليلة عن استخدام اللبان في الجزيرة العربية في العصر الجاهلي، إلا أن بقاياه اكتشفت في معبد اللات في الطائف، ومعروف من كتابات وخربشات جنوب الجزيرة العربية أن الناس هنا كانوا يحرقون البخور ليستشفوا رضا الآلهة أو عدم رضاها عن سلوك البشر (مثل بناء دار أو غيره)، أو ليصدوا الأرواح الشريرة عن المتوفى (كانوا يضعون المباخر جنب القبور).

تتحدث الأساطير الشرقية كثيراً عن الفينيق أو العنقاء، طائر الفينيقيين المقدس، ويسمى أحياناً الرخ. كان هذا الطائر حسب تصوراتهم، يعيش ما بين 500 إلى 600 سنة، ويحط ليموت في مدينة الشمس (هليوبوليس) بمصر، ويُعتقد أنه ربما كان يأتي إلى مصر من جزيرة سقطرى. كتب بيلينيوس عن العنقاء يقول: «...هذا الطائر المشهور في جزيرة العرب بحجم النسر، له ريش فائق الجمال يطوق عنقه، وبدنه كله أرجواني، وريش ذيله فقط لازوردي اللون متداخل مع ريش مائل إلى الوردي، وعنقه مزين بعفرة ورأسه بذؤابة.

وهو يكرس نفسه للشمس، وعندما يشيخ يبني لنفسه عشاً من القرفة وأغصان اللبان تجعله يفوح بعبق البخور، ثم يجثم في العش ويلفظ أنفاسه. ومن عظامه ونخاعها تنشأ دودة صغيرة تتحول إلى طير صغير أول ما يقوم به هو دفن جثة والده، ثم ينقل العش إلى مدينة الشمس... ويضعه هناك في المذبح القدسي. وتنتهي دورة حياة شجرة النسب الكبرى بوفاة هذا الطائر، وتبدأ دورة أخرى كسابقتها، وفقاً لمواسم النجوم ومواقعها» (Pliny, 1909: Vol.10, 5-3).

كما كتب هيرودوتس أيضاً عن العنقاء، مؤكداً أنه لم ير الطير بأم العين، لأنه نادراً ما يطير إلى مصر: «في هليوبوليس يقولون إنه يأتي مرة كل 500 عام». «ولا يأتي طائر العنقاء إلا عندما يموت أبوه. وإذا كانت الصورة التي يرسمونها له صحيحة فإن حجمه ومظهره الخارجي كما يلي: ريشه ذهبي جزئياً وأحمر جزئياً، وهو أكثر شبهاً بالنسر من حيث المظهر والحجم.

ويقولون عنه (وأعتقد أن هذا القول بعيد عن الصحة) إنه يأتي من جزيرة العرب حاملاً جثة والده مدهونة بالمر إلى معبد هليوس ويدفنها هناك. وهو يحملها على النحو التالي: يجهز في البداية بيضة كبيرة من المر على قدر ما يستطيع أن يحمله، ثم يحاول أن يرفعها، فإذا استطاع يعمل فيها ثقباً يضع فيه جثة أبيه. ثم يسد الثقب بدهان المر. فتغدو البيضة مع الجثة ثقيلة كما كانت، ويحمل الطائر البيضة إلى معبد هليوس في مصر. هذا ما يفعله طائر العنقاء كما يقولون» (Herodotus, 1972: 102).

وإذا راجعنا ما كتبه ديودورس الصقلي عن جزيرة بانغي الخيالية، وجمع فيه بين المعلومات الموثقة والأساطير، نجد هناك بعض المؤشرات التي تقرّب بانغي من جزيرة سقطرى. فتلك الجزيرة كما يقول ديودورس (حسب مفسريه وشارحيه)، كانت تزود العالم كله بالمر واللبان وسائر النباتات العطرية الفواحة، وكان سكانها يبيعون البخور للعرب، فيما يقوم هؤلاء بنقله وتسويقه في مصر وبلاد الشام وغيرها. وكانت تقيم على الجزيرة أربع فئات من الأقوام: السكان الأصليون والإغريق والهنود والعرب، ومنهم الرعاة والفلاحون والعسكر والصناع والكهان (وربما التجار أيضاً من باعة البخور).

ومن المنطقي الافتراض بأن السقاطرة، وهم يتاجرون بالبخور الثمين، كان باستطاعتهم أن يحققوا ثراءً كبيراً، وهذا يتجاوب تماماً مع الإفادات القائلة بأن المصريين كانوا ينقلون من جزيرة سقطرى الذهب والأخشاب الثمينة الفواحة، وهي بضاعة يمكن أن تكون قد وصلت إلى الجزيرة قبل ذلك من الجزء القاري (اليمن) في مقابل البخور، إلا أن ذلك أمر مشكوك فيه، لأن الجزء القاري يمتلك ما يكفيه من البخور.

كما يورد ديودورس معلومات عن معبد جوبيتر الفخم الرائع الذي كان قائماً في الجزيرة، وهو مزين بأعمدة أسطوانية ثقيلة وبأجمل التماثيل والمنحوتات (راجع فصل المواقع الأثرية وكذلك Doe, 1992: 62). وكان أبهيمر المسيني (نهاية القرن الرابع - بداية القرن الثالث قبل الميلاد)، مؤلف «المدونة المقدسة» الطوباوية الفلسفية التي وصلتنا من خلال استشهاد ديودورس بنصوصها، قد ذكر أنه وصل أثناء تجواله إلى جزيرة «البانغيين» الواقعة غير بعيد عن سواحل الهند، ورأى المساواة تسودها، وليس فيها ملكية خاصة. وكان في إحدى الجزائر الواقعة هناك معبد زيوس وعليه كتابة تقول: «إنجازات أورانوس وكرونوس وزيوس» (فولغين، 1928 : 28,30 وكذلك بريغوروفسكي، 1926).

جرت العادة على القول بأن الملاح اليوناني هيبالوس، في القرن الأول قبل الميلاد،

اكتشف سر الرياح الموسمية في المحيط الهندي التي تغير اتجاهها مرتين في العام (ولعل الرياح الموسمية كانت معروفة قبل ذلك بزمن طويل). كان هذا الملاح يجيد الاستفادة من معلوماته وتوظيفها في الملاحة البحرية. انطلق هيبالوس في الصيف من ميناء على الساحل الشرقي لأفريقيا، فوصل بسلام إلى الهند تدفعه الرياح الموسمية، ثم عاد في الشتاء عندما أخذت الرياح تهب في الاتجاه المعاكس. وسرعان ما أخذت السفن الشراعية الإغريقية والرومانية تمخر البحر من مصر إلى الهند في غضون شهرين، وكانت تقل شحنات البضائع وكذلك الركاب. بعض السفن كانت تتجه نحو الجنوب، إلى سواحل أفريقيا، حيث أقيمت أولى المستوطنات التجارية الرومانية، وكانت سفن تجارية كثيرة تعرّج على سقطرى.

في القرن الأول الميلادي كتب عن سقطرى تاجر يوناني غير معروف من مصر له إرشادات بحرية بعنوان «رحلة في بحر إريتريا» (التسمية الإغريقية للبحر الأحمر)، تتطرق إلى مستوطنات تجارية مختلطة على الساحل الشمالي من الجزيرة دون أي ذكر للسكان الأصليين. صحيح أن مؤلف «الرحلة» يسمي المستوطنين أجانب، وذلك يقود بحكم المنطق إلى وجود سكان أصليين غيرهم في الجزيرة. ومن المحتمل تماماً أن تكون جبال سقطرى قبل ألفي عام كما هي الآن مأهولة، في المغارات والبيوت المبنية من الحجر، بسكان أصليين يمارسون الرعي، ولم يكن التجار اليونانيون والهنود في المستوطنات على علم بوجودهم. وهذا ما يؤكده جزئياً ديودورس الصقلي، حيث يقول: إلى جانب المستوطنة التجارية الأجنبية يقيم في سقطرى «أهالي البلاد المحليون».

تتضمن «رحلة بحر أريتيريا» وصفاً تفصيلياً لجزيرة سقطرى: «ديوسكريدا كبيرة جداً، لكنها خالية رغم وفرة المياه، فيها أنهار وتماسيح، وكثير من الأفاعي والحرادبن والعظايا الكبيرة التي تؤكل لحومها، فيما يذوّب سمنها ويستهلك بدلاً من زيت الزيتون. ولا تنتج الجزيرة الفاكهة والكروم والحبوب. وسكانها قليلون يقيمون فقط في جزئها الشمالي المقابل للقارة اليابسة، وهم خليط من الأعراب والهنود، وحتى اليونانيين الذين انتقلوا إلى هناك لمزاولة التجارة.

في الجزيرة يجري اصطياد السلاحف البحرية والبرية، فالسلاحف البيضاء كثيرة جداً، وهي المفضلة نظراً لدروعها الكبيرة، وكذلك السلاحف الجبلية. كما يستحصل في الجزيرة القرمز المسمى بالقرمز الهندي، يجمعونه من الأشجار قطرة قطرة... هذه

الجزيرة تحت حكم ملك بلاد البخور، كان يزاول التجارة فيها سابقاً أشخاص يزورونها وقتياً (من الهند)، فيجلبون الأرز والقمح والقطن الهندي والجواري والقيان، ويصدرون من الجزيرة كميات هائلة من دروع السلاحف» (Schoff, 1912: 30-32).

ليس بإمكاننا التأكد من مدى صحة هذه المعلومات. صيد السلاحف البحرية في الجزيرة يجري الآن أيضاً بكثرة، ويمكن التأكيد على صحة تصدير دروعها من سقطرى إلى العالم القديم. أما التماسيح والعظايا الضخمة وحشود السلاحف البرية فلم يبق لها أثر، ومن المشكوك فيه أنها كانت موجودة هنا في زمن ما، فالأرجح أن الكلام عن السلاحف البيضاء العملاقة من مخيلة مؤلف «الرحلة». وعلى أي حال يمكن الاستنتاج بأن دروع السلاحف كانت في سالف الزمان بضاعة ثمينة للغاية طالما عزم المؤلف على زيارة الجزيرة من أجلها.

وفيما يخص الملاحة البحرية إلى سقطرى من المهم أن نأخذ في الاعتبار ما قاله الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (المتوفى سنة 945 ميلادية) في كتابه «صفة جزيرة العرب» عن الرحلة من عدن إلى بلاد الزنج أو السواحيلي (شواطئ شرق أفريقيا)، حيث كتب يقول: «إذا خرج الخارج من عدن إلى بلد الزنج أخذ كأنه يريد عمان وجزيرة سقطرى تماشيه عن يمينه حتى ينقطع، ثم التوى بها من ناحية بحر الزنج» (الهمداني 1983: 93-94). (شكل رقم 2 - 1). ويشير شبرينغر بحق إلى أن هذا الطريق مرتبط بهيمنة الرياح الجنوبية على سواحل شرق أفريقيا (Schprenger، 1875: 87). وحسب معلومات الإدريسي وابن بطوطة وياقوت الحموي والمقدسي تكون جزيرة سقطرى إلى اليسار (الشمال) في طريق العودة من بلاد الزنج إلى عدن.

ومن ثم فإن جميع المعلومات المتوافرة تفيد بأن الملاحين كانوا في الطريق بين عدن وشواطئ أفريقيا الشرقية يلتفون حول السواحل الجنوبية لجزيرة سقطرى، وعندما يتوجهون إلى سقطرى من عدن فإن سفنهم تتوجه صوب رأس فرتك وتسير على امتداد ساحل الجزيرة العربية، ولعل ذلك هو ما جعل تحديد موقع سقطرى في سالف الزمان يتم وفقاً لرأس فرتك (Schoff, 1912: 30). ويورد صاحب «تاج العروس» حسابات تنطلق مباشرة من الخط المستقيم الذي تبعد سقطرى وفقاً له عن المها مسافة إبحار لثلاثة أيام بلياليها. وحسب الإدريسي المسافة من سواحل جنوب الجزيرة العربية حتى سقطرى على مسيرة يومين إذا كانت الريح مؤاتية.



(شكل رقم 2 ـ 1)

المسيحية والإسلام

الرواية التقليدية تنسب نشر المسيحية في جزيرة سقطرى إلى المستوطنين اليونانيين

في القرن الرابع الميلادي، على الرغم من أن التنصير ربما جاء إلى الجزيرة في الواقع قبل ذلك التاريخ. وفي إطار هذه الرواية نُسب التنصير في الجزيرة إلى القديس ثوماس، «فالتقاليد الكنسية تقول: إن الرسول القديس ثوماس هو الذي أسس الكنائس المسيحية في فلسطين وبلاد الرافدين ومملكة بارثيا وأثيوبيا والهند» (مساتسيسلوف، 1977 : 165 المجلد الثاني). ويقال إنه قُتل على يد حاكم مدينة ملبور الهندية.. وغالبا ما يسمّى المسيحيون المحليون الذين كان معظمهم في العصور الوسطى من مذهب الطبيعة الأحادية (للمسيح طبيعة واحدة) بالثوماسيين.

إلا أننا اكتشفنا بعد زملائنا من علماء الآثار البريطانيين، أساسات كنائس مسيحية أثناء حفرياتنا الأثرية في سقطرى (راجع الفصل الرابع). وقد كتب الهمداني يقول: «ومما يجاور سواحل اليمن من الجزائر جزيرة سقطرى وإليها ينسب الصبر السقطري... طول هذه الجزيرة ثمانون فرسخاً، وفيها من جميع قبائل مهرة، وبها نحو عشرة آلاف مقاتل وهم نصارى... ويذكرون أن قوماً من بلد الروم طرحهم بها كسرى ثم نزلت بهم قبائل من مهرة فساكنوهم وتنصر معهم بعضهم، وبها نخل كثير ويسقط بها العنبر، وبها دم الأخوين وهو الأبدع، والصبر كثير. وأما أهل عدن فيقولون: لم يدخلها من الروم أحد ولكن كان لأهلها الرهبانية ثم فنوا، وسكنها مهرة وقوم من الشراة وظهرت فيها دعوة الإسلام، ثم كثر بها الشراة فعَدَوا على من بها من المسلمين وقتلوهم غير عشرة أناسي، وبها مسجد بموضع يقال له السوق» (الهمداني 1983: 93 - 94).

كما كتب ياقوت الحموي: «سقطرى اسم جزيرة عظيمة كبيرة فيها عدة قرى ومدن تلوح عدن جنوبياً عنها، وهي إلى بر العرب أقرب منها إلى بر الهند، والسالك إلى بلاد الزنج يمر عليها، وأكثر أهلها نصارى عرب، يجلب منها الصبر ودم الأخوين، وهو صمغ شجر لا يوجد إلا في هذه الجزيرة يسمونه القاطر، وهو صنفان: خالص يكون شبيها بالصمغ في الخلقة إلا أن لونه كأحمر شيء خلقه الله تعالى، والصنف الآخر مصنوع من ذلك...

وكان أرسطوطاليس كتب إلى الإسكندر حين سار إلى الشام في أمر هذه الجزيرة يوصيه بها وأرسل إليه جماعة من اليونانيين ليسكنهم بها لأجل الصبر القاطر، فسيّر الإسكندر إلى هذه الجزيرة جماعة من اليونانيين وأكثرهم من مدينة أرسطوطاليس وهي مدينة أسطاغرا، في المراكب بأهاليها وسيّرهم في بحر القلزم (البحر الأحمر)، فلما حصلوا بها غلبوا على من كان بها من الهند وملكوا الجزيرة بأسرها ... وكان للهند بها

صنم عظيم فنقل ذلك الصنم إلى بلاد الهند في أخبار يطول شرحها، فلما مات الإسكندر وظهر المسيح بن مريم عليه السلام تنصر من كان بها من اليونانيين وبقوا على ذلك إلى هذا الوقت. فليس في الدنيا موضع والله أعلم فيه قوم من اليونانيين يحفظون أنسابهم ولم يداخلهم فيها غيرهم غير أهل جزيرة سقطرى، وكان يأوي إليها بوارج الهند الذين يقطعون على المسافرين من التجار، فأما الآن فلا» (الحموي الرومي 1906 Vol.5,93).

أما بعثة أكسفورد في عام 1956 التي بحثت عن آثار للإغريق في الجزيرة (راجع التفاصيل في فصل المواقع الأثرية) فلم تجد سوى مخلفات عدة بنايات في موضع يسمى السوق، وكان يعتبر عاصمة لسقطرى. «السوق» الآن قرية صغيرة يعيش سكانها، ومعظمهم من أصل أفريقي، في أكواخ من القش وبيوت مبنية من كسر الصخور المرجانية. وتقع السوق على ضفة خور كانت تصله السفن أغلب الظن في سالف الزمان. ومن المفترض أن يقيم هنا أيضاً الإغريق الإيونيون الذين كتب عنهم المؤرخون اليونانيون والعرب.

وجد الباحث الإنجليزي ن. أور في جبال سقطرى أساسات بنايات شيدت، دون ريب، من قبل شعب أكثر تطوراً من نزلاء المغارات الجبلية الحاليين، ومع ذلك لا يصح الجزم بأنها أنقاض كنائس أو منشآت مسيحية، ويفترض أور أنها يمكن أن تكون بقايا أبراج كنسية.

نحن نعتقد أن وجود مستعمرة إغريقية في سقطرى أمر ممكن تماماً، كما يحتمل أن يكون اليونانيون بالذات قد دعوا السقاطرة إلى اعتناق المسيحية. أما الرواية التي نقلها ياقوت الحموي القائلة بأن اليونانيين لم يرغبوا في الزواج من السقطريات ولذا انقرضوا فلا تبدو أقرب إلى الحقيقة. عموما تبقى مسألة مصير المستوطنة اليونانية (الإغريقية)، شأن المسائل الأخرى، في انتظار الحل.

كما عثر في الجزيرة على مخلفات بنايات أخرى تدل على مستوى رفيع من التطور لدى أهالي سقطرى القدامى. ففي منطقة فرحة (فراغي) تم اكتشاف بقايا طريق معبد قديم، كما اكتشف في الجزء الأوسط من الجزيرة طريق حجري معبد يمتد إلى وادي حديبو، وهو الآن طريق منسي مهمل تكسوه الأعشاب. وقد اكتشفت في ريد الكشن عدة مدرجات متشابهة مرصوفة من الحجر بعناية.

ومن المعثورات اللافتة للنظر الحفرة الدائرية بقطر ثلاثين متراً تقريباً في الطريق من غبة إلى قلنسية على مسافة زهاء 8 كيلومترات من جبل عابلهن. وهي عبارة عن وهدة

طبيعية في تربة كلسية. وفوقها عثر على أساسات حجرية بشكل دوائر متحدة المركز. ويفترض برايان دو أنها بقايا شبكة للري أو مستودع للمياه. كما شاهد دو من الطائرة على سفح الجبل فسحات أو ساحات حجرية مربعة محاطة بجدران حجرية واطئة.

إلا أن أكثر ما يثير الدهشة كثرة الخطوط أو الحدود الحجرية الواطئة والطويلة للغاية التي نصادفها في مختلف أنحاء الجزيرة، والمعروف أنها موجودة هنا من أقدم العصور، لكنّ دارسي الجزيرة غير مجمعين على وظيفة هذه الحدود. ومما يزيد في تعقيد المسألة أن المساحات المطوقة بتلك الحدود خالية تماماً في الحال الحاضر، فليس فيها مراكز سكنية ولا مزارع مفلوحة، وهي أراضٍ يمكن استخدامها للرعي الفردي، إلا أن السور الحجري الواطئ لا يحول دون انتقال الماشية من قطعة أرض إلى أخرى. ولم توضّح في الأمر شيئاً محادثاتنا مع الأهالي، لكنني أميل إلى الرواية القائلة بأن هذه الحدود كانت في الماضي السحيق تفصل بين مزارع أشجار اللبان. أما رواية مزارع الدخن الذي يسمونه هنا بالبامبا فهي باعتقادي ليست وجيهة، ذلك لأن زراعة الغلال تتطلب سقياً، فيما تكتفي أشجار اللبان بمياه الأمطار.

بعد القرن الرابع الميلادي ليس هناك في الواقع أية معلومات عن جزيرة سقطرى. الجغرافيون والمؤرخون العرب غالباً ما يكررون هنا كتابات الرومان واليونان عن الجزيرة. ومع ذلك تتميز بعض معطيات هذه الحقبة بأهمية معينة، ففي عام 528، في عهد يوستينيانوس، زار سقطرى الكاهنُ اليوناني كوزماس أنديكوبلويستيس من مصر في طريقه إلى الهند، وترك لنا وصفاً تفصيلياً للجزيرة في كتابه «الطبوغرافيا الإنجيلية» (راجع McCrindle, 1897). يقول كوزماس إن أهالي سقطرى كانوا لا يزالون يتكلمون اليونانية، وكانوا جميعاً نصارى تحت رعاية كاثوليكوس بابل النسطوري. ونسب كوزماس فترة الاستيطان الإغريقي للجزيرة إلى عهد البطالسة.

في القرن العاشر الميلادي كتب المسعودي أن سقطرى كانت قاعدة للقراصنة. وفي القرن الثالث عشر أكد الرحالة الإيطالي ماركو بولو هذا الكلام، فكتب عن سقطرى يقول: « يعيش هنا نصارى معمّدون ولديهم أسقف، وهنا كثير من العنبر، وعندهم أنسجة قطنية وكثير من البضائع الأخرى، وفيها وفرة من الأسماك الكبيرة المملحة اللذيذة. وهم يقتاتون على الرز واللحوم والألبان، وليست لديهم حبوب أخرى، كم أنهم يسيرون عرايا على غرار

الوثنيين الهنود. وتصل إلى هنا سفن كثيرة محملة بشتى البضائع، فيبيع التجار بضاعتهم في الجزيرة وينقلون منها السلع المحلية يتاجرون بها ويجنون أرباحا كبيرة، وكل السفن والتجار الذاهبين إلى عدن يتوقفون في الجزيرة.

أسقفهم لا علاقة له بالكرسي الرسولي في روما، فهو تابع لأسقف بغداذ الذي يعينه في الجزيرة كما يعين غيره من الأساقفة في مختلف أرجاء المعمورة بالطريقة نفسها التي يطبقها بابا روما. لا أحد هنا يطيع أساقفة كنيسة روما، فالجميع يتبعون إلى المرجع الأعظم في بغداذ، فهو عندهم بدل البابا. كما يصل إلى هنا الكثير من قطاع الطرق في سفنهم، فبعد غارات النهب والسلب يقيمون هنا مخيماً يبيعون فيه المنهوبات، ويقولون لك بحماس: إن النصارى المحليين يشترون منهم البضاعة لأنها مسروقة من الوثنيين والمسلمين وليس من المسيحيين. وعندما يتوفى أسقف الجزيرة يأتي من بغداذ أسقف آخر، وإلا لما كانت هنا أسقفية» أ(M.Polo, 1968: 254 - 253).

يتضح من كتابات ماركو بولو أن النسطورية هي النصرانية التي كانت سائدة في سقطرى آنذاك، فالسقاطرة كانوا تابعين لكاثوليكوس نساطرة بغداد، ولعل النساطرة في الجزيرة تمكنوا من أن يزيحوا اليعاقبة الذين كانوا في فجر العصر الوسيط يشكلون أكثرية النصارى في بعض أرجاء المنطقة، ومنها سقطرى.

ويؤكد ماركو بولو أن السحرة السقطريين كانوا «يرغمون» السفن على الاستدارة نحو شواطئ الجزيرة عندما يرغبون في نهبها، ولعل هذا القول صدى للصيت السيء الذي كسبه أهالي الجزيرة عندما كانوا ينهبون السفن الغارقة على الصخور المرجانية في رأس مومي. وعلى امتداد القرون الوسطى ظلت الجزيرة مشهورة بالقرصنة، وقد كتب الرحالة العربي ابن بطوطه في القرن الرابع عشر الميلادي أيضاً أن سقطرى قاعدة للقراصنة (راجع ابن بطوطة: 1968). كما أكد الإدريسي والمقدسي هذا الأمر.

بعد ذلك، وحتى نهاية القرن الخامس عشر، لم ترد أية أخبار محددة أو معلومات دقيقة عن سقطرى. ويمكن بالطبع التأكيد بأن المستوطنين اليونانيين والعرب والهنود لم يعودوا خلال هذه الفترة «غرباء» أو «أجانب»، بل انصهروا، فتحولوا إلى سقاطرة وتبنوا لغة الأهالي المحليين وعاداتهم، وباتوا يشكلون معهم مجتمعاً واحداً.

تعريب الجزيرة

في منتصف القرن الخامس عشر أسست أفخاذ قبيلة الكثيري من ظفار سلطنة فرتك في جنوب الجزيرة العربية وعاصمتها الشحر (حضرموت)، وأخضعت هذه السلطنة سقطرى (Stripling, 1942: 23). في البداية اعترف الكثيري بملوك الدولة الطاهرية في اليمن، وفي عام 1456 قاموا بمحاولة لإنهاء هذه التبعية، إلا انهم تلقوا ضربة قاضية، وباتت أراضيهم في حوزة الطاهريين الذين انبسطت ممتلكاتهم من البحر الأحمر حتى ظفار. وفي عام 1482 انتزع الطاهريون سقطرى من الكثيري (Serjeant, 1963:7 , Barbosa,1921: 29 - 28).

في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر وردت معلومات مهمة عن سقطرى ذكرها الملاح العماني أحمد بن ماجد الذي رافق فيما بعد سفن فاسكو ديجاما من ميناء ماليندي الصومالي إلى سواحل الهند.

كتب ابن ماجد في «الفوائد» يقول:

«الجزيرة العاشرة هي سقطرة وهي جزيرة عامرة قريبة التدوير أصغر من الجزائر المتقدم ذكرها، طولها وعرضها قريب خمسين فرسخاً بل أزيد وفيها الماء من كل مكان، وهي على مشارق بر الصومال تسكنها أهماج النصارى، وقيل: بقية اليونان، ذكرهما عمر بن أيوب بن شهنشاه مصنف كتاب تقويم البلدان، وفيها خلق كثير قريب عشرين ألف آدمي ملكوها من قديم الزمان. وقد ملكوها في عصرنا محمد بن علي بن عمرو بن عفرار وبني عبد النبي السليماني الحميري، وكلاهما من مشايخ المهرة، وبنوا فيها حصار وحكموا بعض أهلها وسخروهم، يأخذون من الرجل مَنّ سمن ومن المرأة شملة من نسج بلدهم.

وكان قد ملكها في زمان العباسية رجل من العجم فاحتال عليه أهلها وأسكروه هو وأصحابه وقتلوهم. كما قتلوا أحمد بن محمد بن عفرار الذي تولى عليهم بعد موت أبيه فجاء أعمامه وقبيلته وأخذوا بثأره وسخروهم وولوا عليهم ابن عبد النبي، فمن ذلك قالوا إنها شؤم على من ملكها. وهم قوم وطيئو الجانب إذا دخل عليهم الغريب يعرضون عليه الماء والزاد، ويعرضون عليه ثيابهم ونساءهم، والحاكمة عليهم امرأة، وأمّا تزويجهم فبيد قسيس النصارى، وهم يسكنون الكنائس ويقيمون بها بمشورة تلك المرأة، وقد انقضى مُلكها في عصرنا وضعف وما ملّكها المهرة إلا لأنهم يريدونها لعاقبة أمرهم يجتمعون فيها

عند خوفهم وضعفهم من سلاطين حضرموت وغيرهم.

وكان محمد بن علي بن عمرو قد استشارني فيها سنين فلم أطعه في ذلك فلما تولى على المهرة صرّف المال ومُلكها، فلما مات وأقامت قبيلته مكثوا فيها سنين وشعاوث ملوك أهل الشحر مخرّجين منها مدة ثلاثين سنة، فعاونهم إخوانهم المهرة على الشحر وأخذوها، وتولّى عليهم سعد بن مبارك بن فارس بعد أن حاصرها ثلاثة أشهر كاملة، وجاؤوا فأخرجوهم من حصار الشحر إلى بلدهم حضرموت، وكان عليها حينئذٍ بدر بن محمد الكثيري فخرجوا فأجاروه ومَن عنده في عام أربعة وتسعين وثمانمئة، وفي هذا التاريخ جزيرة سقطرة للمهرة مشركين فيها بني سليمان وبني عفرار، وهم بطن من بطون المهرة بني زياد» (نقلاً عن تيودور شوموفسكي في كتابه «العرب والبحر»، المجلد الأول، ص 368 – 369) .

يتضح من مذكرات أحمد بن ماجد أن سقطرى في سنة 1489 ميلادية كانت تحت سيطرة المهريين، ويبدو أنهم لم يتمكنوا من بسط سيطرتهم المباشرة على الجزيرة بكاملها (وهذا ما يتحدث عنه ابن ماجد وتدل عليه أحداث كثيرة جرت خلال الغزو البرتغالي فيما بعد)، وكل ما استطاعوا أن يفعلوه آنذاك أنهم فرضوا الجزية العينية على السكان، وكان هناك تعارض وخلاف واضح بين المهريين وسكان سقطرى الأصليين، وهو ما يؤكده مقتل شيخ المهرة على يد الأخيرين.

وقد استوطنت سقطرى قبيلة بنو عفرار المهرية التي كانت تقطن منطقة مدينة القشن الحالية على ساحل جزيرة العرب. كتب المؤرخ البرتغالي خوادي باروش: إن سقطرى كانت حتى الغزو البرتغالي، أي حتى العام 1507، تحت حكم سلطان القشن من 26 عاماً، بمعنى أن استيطان المهريين أنجز في حدود عام 1481. وكانت قلعة السوق المهرية، مركز سقطرى آنذاك، شرقي العاصمة الحالية للجزيرة حديبو، وقد شيدت قبل عام 1481، وأعيد بناؤها بعد الغزو البرتغالي.

تقع القلعة على مسافة 250 - 350 متراً عن المرفأ في الرأس البحري، وكان البرتغاليون يسمون هذه المنطقة «سوكو» أو «سوتو» أو «كوسو» (ولعل هذه التسميات تحوير إسباني وبرتغالي لكلمة السوق). أما المؤرخون العرب في العصر الوسيط، مثل ابن المجاور والهمداني، فقد كتبوا لا عن المرفأ فحسب، بل وعن مدينة تسمى السوق. فالرحالة الدمشقي جمال الدين بن المجاور قدم وصفاً للمدينة. وكتب عن قلعة السوق في العام 1541 البرتغالي جواو دي كاشترو مؤكداً أنها تقع شرقي حديبو، حتى إنه نشر رسماً

للقلعة فيه تفاصيل مبانيها.

كما أن الرحالة الإنجليزي ثيودور بونت (Bent, 1900) أشار في أواخر القرن التاسع عشر إلى موقع السوق شرقي حديبو، ثم إن جميع الباحثين المعاصرين (ومنهم الإنجليزي سيرجينت الذي درس المدونات الحضرمية العائدة للقرون الوسطى) يستشهدون بكتابات المؤلفين العرب والبرتغاليين في العصر الوسيط ليدللوا على أن هذه التسمية حقيقية لا ريب فيها. وفي اللغة السقطرية توجد بالفعل مفردة «السوق» المقتبسة عن العربية، ولعل السوق التجاري كان قائماً بالفعل جنب المرفأ الذي كانت ترسو فيه السفن محملة بالبضائع الأجنبية، إلا أن السقاطرة أنفسهم يطلقون على هذا المكان تسمية شأق التي لا علاقة لها بمفردة السوق، وإنما تعود بالأصل، في اعتقادنا، إلى كلمة شكو السقطرية التي تعني «مسلح» أو إلى الجذر شيكي الذي يتضمن معنى الإقتراب (من البحر في الحالة التي نحن بصددها).

في زيارتي الأولى إلى سقطرى عام 1974 لم يكن قد بقي من حصن السوق أو قلعتها سوى ركام الأحجار ومخلفات أساسات الجدران، إلا أنها كانت في القرن الخامس عشر تمثل تحصينات دفاعية متينة بالنسبة لزمانها. ويشير عدد من المتخصصين بالعمارة في جنوب الجزيرة العربية إلى أن تلك الأنقاض شبيهة بالقلاع اليافعية التي لا تزال قائمة حتى اليوم في محافظتي يافع وحضرموت. ومن أروع نماذج هذا الطراز المعماري قصر سلاطنة الكثيري في سيؤون العاصمة الشمالية لحضرموت. قلاع يافع وحصونها مربعة ومستطيلة على الخارطة، وفي أركان جدران المربع أو المستطيل أبراج أسطوانية تعلوها ثغرات رماية.

طول «حصن شأق»، حسب معلومات بعثة أوكسفورد برئاسة بيتر شيني الذي درسه لأول مرة، وكذلك حسب برايان دو، قرابة 25 متراً، وعرضه 20 متراً.

وعلى مسافة 100 متر جنوب شرقي القلعة الرئيسية بناية أخرى من نفس النوع لم يبق منها، مثل القلعة نفسها، سوى جزء من أساسات الجدران. أحجار البناء مثبتة بخليط كلسي، وقطر البرج في الركن الشمالي الشرقي من المبنى 3.6 أمتار. واستناداً إلى وجهة الجدار الشرقي للبناية المستطيلة الشكل تصور برايان دو أنها يمكن أن تكون مسجداً. وإلى الشمال من أنقاض المسجد المفترض بقايا كنيسة «نصر العذراء» التي شيدها البرتغاليون تكريماً لانتصارهم في احتلال القلعة.

وقد شيدت هذه الكنيسة في موقع بناية أخرى أقدم منها كانت إما كنيسة وإما مسجداً (إلا أن وجهتها غير صحيحة فيما لو كانت مسجداً). ومن الأدلة على ذلك بقايا الأرضية الكلسية التي اكتشفها علماء الآثار تحت الطبقة الأولى. الأعمدة التسعة للبناية الأقدم التي لم يبق منها سوى قواعدها مرصوفة من أحجار مثبتة بخليط كلسي. ويلفت النظر في تلك القواعد أنها جميعاً ذات مقاطع متباينة، بمعنى أن الأعمدة كانت مختلفة الأشكال. وعلى سبيل المثال أحد الأعمدة يبدو على الخارطة بشكل مربع، والآخر بشكل مثمّن، والثالث بشكل نجمة، والرابع دائري، كما ظل محفوظاً تصوير هذه البناية على الرسم الذي وضعه جواو دي كاشترو في العام 1541. وهو رسم مفصل تماماً، على الرغم من غياب المعايير العصرية للمنظور ومقياس الرسم، ويمكننا أن نلاحظ في الرسم حتى قمم جبال حجهر. والشيء الذي لا نستطيع أن نراه هو الحصن القائم على سفح جبل حواري المطل على بلدة السوق.

وقد اكتشف بونت في عام 1897 بقايا قلعة أخرى في وادي فرحة جنوبي حجهر، وتلوح جنب القلعة أنقاض مدينة أثرية. جدران القلعة من كتل حجرية ضخمة، وطول الجدران 30 متراً وارتفاعها متر ونصف المتر، فيما يبلغ سمكها 3 أمتار. ويبدو أن البناة كانوا ملمين بأساليب رفع الصخور الثقيلة ونقلها. ويمكن الافتراض بأن فرحة أو فراغي كانت في قديم الزمان مركزاً مهماً، ولربما كانت هناك مزارع أشجار علكة اللبان أو نباتات العطور.

في عام 1956 وصل إلى الأنقاض التي أشار إليها بونت كل من ج. ويكلي وبيتر شيني، وكتبا يقولان إن القلعة كانت قائمة في الموضع الذي يضيق فيه الوادي، وإن البناء من صخور جبلية غير منحوتة. والقلعة على الخارطة بشكل مثلث، والجدار الضخم على ارتفاع 3.6 - 4.5 أمتار مبني من كتل جرانيتية كبيرة مائلة إلى الحمرة، وهو يربط بين برجين، فيما يبدو البرج الثالث وكأنه على قمة المثلث. وعلى مقربة منه اكتشفت أساسات حجرات صغيرة وباحة داخلية وجزء من أساسات جدار. وتحت أحد الجدران حوض اصطناعي لعله كان يستخدم بمثابة خندق، فعندما يتجمع الماء في الوادي ينساب إلى الخندق ويملؤه.

وقد افترض أحد الرحالة أن تلك الآثار أنقاض قلعة برتغالية، إلا أن بيتر شيني لم ير فيها أية سمات برتغالية مميزة. وعلى أية حال يمكن الجزم بأنها أنقاض قلعة محصنة إذا حكمنا عليها من طبيعة المعمار وموقع البناء. ويبدو أن المهريين استخدموها موقعاً دفاعياً أثناء استيطانهم للجزيرة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، فالقلعة

تشرف كلياً على الطريق الرئيسي المؤدي من شمال سقطرى إلى جنوبها. وكانت تنتصب في قلب الأراضي التي يقطنها السقاطرة الأصليون، ولذا فهي أفضل قاعدة لتوغل المهريين في العمق ولشن الحملات التأديبية. صحيح أننا لا نعرف مدى مقاومة الأهالي الأصليين لتوغل المهريين في الجزيرة، ويمكن الافتراض بأن الاستيطان جرى بسلام نسبياً، خاصة أن السقطريين لم يكونوا متعصبين للمسيحية التي قاومت الفتوحات الإسلامية بشدة.

إلا أن شيوخ المهرة سرعان ما تعرضوا لمحنة عصيبة، فقد كتب وليم سارجينت، نقلاً عن المورخ الحضرمي أحمد بن علوي شنبل، عن الحدث الرئيسي في عام 1507 يقول: «هذا العام احتل الإفرنج الكفار سقطرى، فقتلوا ابن الطوعري الزبيدي مع خمسين مسلماً وبنوا كنيسة هناك» (نقلاً عن Serjeant,1963: 153).

ونحن نعرف أن الحادث جرى في أبريل من ذلك العام، وأن حكم شيوخ بني عفرار انقطع آنّذاك لعدة سنوات، بعد أن استمر 26 عاماً.

الاستعمار البرتغالي

شهد مطلع القرن السادس عشر بداية مرحلة في تاريخ سقطرى نعرف عنها ربما أكثر من أية مرحلة أخرى. ونعني فترة التوسع الإستعماري البرتغالي في بلدان حوض المحيط الهندي. ففي تلك السنوات بالذات أسس البرتغاليون إمبراطوريتهم الإستعمارية المترامية الأطراف، والقصيرة الأجل في الوقت ذاته، على رحاب الهند وأفريقيا والخليج العربي.

كانت البرتغال، إلى جانب إسبانيا، في القرنين الخامس عشر والسادس عشر من أكبر الدول البحرية في العالم. وكانت تبحث طويلاً عن طريق من أوروبا إلى الهند. وعلى مدار القرن الخامس عشر باتت السفن البرتغالية تمخر عباب المحيط متوغلة أكثر فأكثر إلى جنوب الساحل الغربي لأفريقيا، وأخيراً في فبراير من عام 1488، غدا برثولوميوس دياش أول برتغالي يلتف حول الطرف الجنوبي لأفريقيا ويصل إلى المحيط الهندي.

في يوليو 1497 جهز البرتغاليون بعثة فاسكو ديجاما إلى الهند، فأبحرت سفنه الثلاث «سان غابريل» و«سان رافائيل» و«باريو» مع سفينة نقل غير كبيرة من لشبونة وسارت على امتداد الساحل الغربي لأفريقيا والتفت على رأس الرجاء الصالح، وواصلت طريقها على امتداد الساحل الشرقي حتى وصلت إلى ميناء ماليندي الصومالي في عام 1498. وبذلك

كان البرتغاليون من اول الأوروبيين الذين اكتشفوا الساحل الجنوبي الشرقي لأفريقيا وزاروا عدة مراكز ساحلية على هذا الطريق (حتى ماليندي).

إلا أن كرامة المأثرة الكبرى في تاريخ الملاحة البحرية المتمثلة في عبور المحيط الهندي تعود ليس إلى فاسكو ديجاما بقدر ما تعود إلى الملاح والمرشد البحري العربي الشهير أحمد بن ماجد الذي صعد إلى متن سفينة المقدمة البرتغالية في ماليندي. ووفقاً لتعليماته الملاحية وصلت السفن البرتغالية إلى ميناء كاليكوت الهندي، وفي أواخر أغسطس 1498 اتصل فاسكو ديجاما بحاكم كاليكوت وشحن سفنه بالتوابل هناك وتوجه عائداً بها إلى أوروبا.

لقد اتسم افتتاح الطريق البحري المنتظم من أوروبا إلى ساحل ملبار في الهند بأهمية تاريخية بالغة للعالم كله، فيما جعل من البرتغاليين أسياداً استعمروا العديد من البلدان الآسيوية. وفي العام 1502 أبحر فاسكو ديجاما إلى الهند من جديد، على رأس أسطول من 20 سفينة هذه المرة، وبنى عدة حصون وقلاع على ساحل ملبار ثم عاد إلى لشبونة بغنائم كبيرة بعد أن نهب العديد من المدن وأخمد مقاومة السكان المحليين.

وقد علم البرتغاليون بوجود سقطرى واعتبروها أحد أهم نقاط الإسناد في الطريق التجاري إلى آسيا. ويرى بعض المؤلفين البرتغاليين أن دييغو فرنانديس بريرو هو الذي اكتشف لهم أرخبيل سقطرى، فقد كتب دي غوش، على سبيل المثال، أن بريرو قبطان سفينة «ناو»، بضمن العمارة البحرية التي قادها أنطونيو دي سلدانيا من البرتغال في العام 1503، لم يتمكن أن يلقي مراسيه في ماليندي بسبب الأحوال الجوية. ولذا اضطر على قضاء فصل الشتاء في سقطرى التي لم تصل إليها أية سفينة برتغالية قبل ذلك التاريخ (Da Costa, 1973:12). فيما يعتقد باحثون آخرون أن فينسينت سودري هو الذي اكتشف سقطرى في العام 1503، وقد قضى نحبه في ربيع ذلك العام في إحدى جزر كوريا موريا (الحلانيات). ويقال إنه تزود باحتياطي من الماء هناك.

ومهما يكن من أمر فقد كتب ملك البرتغال مانوئيل الأول إلى نائبه فرانسيسكو دي ألميدا يأمره بالإستيلاء على سقطرى والتمركز فيها لتسهيل الإستفادة من إمكانياتها، كالمرافئ الجيدة والملاحة في أي فصل من فصول السنة والتزود باحتياطيات المياه. وإلى ذلك كان في الجزيرة «كثير من النصارى وقليل من المسلمين» (Da Costa, 1973: 14)، وكانت موقعاً ملائماً تتوقف فيه السفن القادمة من موانئ البحر الأحمر. علما أن سقطرى

تقع على مقربة من عدة موانئ مهمة على الساحل الجنوبي من الجزيرة العربية. ولذا جاء في الأمر الملكي ما يلي: «رغبة منا في تشييد قلعة ووجود رجالنا هناك أمرنا تريستان داكونيا، وألفونسو دي ألبوكيرك الذي سيرافقه، ببناء قلعة هناك مع بيوت من خشب ينقل إلى المنطقة» (Ibid.).

كما أمر الملك البرتغالي بإيفاد قساوسة فرنسيسكانيين إلى الجزيرة لفتح دير فيها والدعوة للديانة المسيحية بين السكان، وقد شجع البرتغاليين على ذلك علمهم بوجود القديس ثوماس في سقطرى سابقاً وبقاء كثير من المسيحيين فيها من بعده، إلا أن الملك انطلق بالطبع من أهمية موقع سقطرى الإستراتيجي للهيمنة البرتغالية المرتقبة على المنطقة، دون أن ينسى منافع تشجيع النصارى من السكان المحليين ليعملوا على تأمين تأييد أهالي الجزيرة للوجود البرتغالي فيها.

كما ساعدت على تنفيذ مخططات ملك البرتغال بخصوص سقطرى سيطرة البرتغاليين التامة على سواحل أفريقيا الشرقية، وكانت هذه المهمة قد أوكلت إلى العمارة البحرية التي غادرت مرفأ لشبونة في عام 1505 بقيادة فرانسيسكو دي ألميدا وتقل سفنها 1,5 ألف جندي. ونفذت العمارة أمراً بشن حملة واسعة النطاق لغزو أفريقيا الشرقية وإنشاء ست نقاط إسناد عسكرية وتجارية على الطريق إلى الهند، كان البرتغاليون دوماً يبدؤون علاقاتهم مع البلدان الواقعة في هذه المنطقة من التجارة، ثم يستعمرون تلك البلدان.

وفي 5 أبريل 1506، وتنفيذاً لأمر الملك مانويل الأول، انطلق الأميرال البرتغالي الشهير تريستان داكونيا على رأس سرب من 14 سفينة حربية من مرفأ لشبونة قاصداً الهند، وفي اليوم التالي رفع الراية معاونه ألفونسو دي ألبوكيرك وتبع سرب داكونيا على رأس 6 سفن أخرى، واستدارت السفن حول رأس الرجاء الصالح ووصلت إلى ماليندي وقرر القادة التوجه إلى سقطرى لقضاء بضعة أشهر في تنفيذ المهمة التي طرحها الملك، ومن ثم متابعة الرحلة، بعد انتظار الطقس الملائم، وصولاً إلى الهند، وبعد نحو عشرة أشهر من مغادرة سفن الحملة لشبونة حصل في يناير 1507 ما يلي:

«سارت السفن دون أن تعرّج على أية أرض يابسة حتى ألقت بمراسيها في سوكو (السوق) الميناء الرئيسي للجزيرة ويسكنه الأهالي المحليون. في يوم بهيج ترفرف فيه الرايات فوق كل السفن أطلقت المدفعية تحية للجزيرة، ذلك أن سكانها مسيحيون. إلا أن تريستان داكونيا عندما رأى القلعة التي بناها العرب هناك مطوقة بالأسوار المدعومة

بأبراج مع برج عال في الوسط، وهو شيء يختلف كثيراً عن المعلومات التي تلقاها الملك مانويل، بعث في طلب الفونسو دي ألبوكيرك وجميع قادة سفن الأسطول، وأبلغهم بأن سيده الملك أمر ببناء قلعة في هذه الجزيرة وتكليف ألفونسو دي نورونيا بالبقاء فيها لحماية النصارى المقيمين في الجزيرة من عهد القديس ثوماس...» (ألبوكيرك، 1875. نقلا عن Botting, 1958: 108 -109).

كانت القلعة العربية في الجزيرة مفاجأة غير سارة بالنسبة للبرتغاليين، وباءت بالفشل كل المحاولات للاتفاق مع آمر القلعة «المحارب الشجاع المغوار» الشيخ الحاج إبراهيم نجل سلطان القشن (البرتغاليون يسمونها قشم). حماة القلعة العرب الـ 130 مسلحون بالرماح والسيوف والقوس والنشاب والحجارة، وقد رفضوا مغادرة القلعة، بل لم يكونوا يريدون التعامل بأي حال من الأحوال مع الوافدين الغرباء. وعندها قرر الأميرال تريستان داكونيا أن يهاجم القلعة، اعتماداً على الحامية الصغيرة (وليس على الرب). كان الإنزال صعباً للغاية، لأن البحر كان هائجاً، وليس على تضاريس الساحل تغطية، فقام ألفونسو دي ألبوكيرك بنفسه على قارب صغير باستطلاع الموقف على الساحل، «فعثرعلى خليج جنب بستان النخيل، وكان البحر هناك أهدأ نوعا ما... فقرر النزول هناك».

«أوعز ألفونسو دي ألبوكيرك الكبير لابن أخيه ألفونسو دي نورونيا أن يهيء قاربه مع أربعين مقاتلاً مسلحين بالبواريد ويأخذ معه مدفعاً وباروداً وقذائف كروية واثنين من المدفعيين وكذلك رافعة آلية وسلّمين من الحبال لاقتحام أسوار القلعة إذا اقتضت الضرورة. وكان ألبوكيرك نفسه ينوي أن يلحق بهم على مركب شراعي صغير مع الدون أنطونيو دي نورونيا والدون جوان دي ليما وأخيه الدون جيرونيمو دي ليما وغيرهم من القادة» (نقلا عن Botting, 1958:109).

كان النهار في بداياته عندما توجه البرتغاليون إلى الجزيرة: تريستان داكونيا في المقدمة وألفونسو دي ألبوكيرك في المؤخرة.

خلال الإبحار على امتداد الساحل لاحظ ألبوكيرك أن البحر عاد إليه هدوؤه تقريباً، وأنهم يستطيعون أن يقوموا بالإنزال جنب القلعة. ورأى الشيخَ يخرج مع قرابة مائة شخص من القلعة قاصدين حواجز الخوازيق التي غرزوها خلال الليل لمنع العدو من النزول في الخور. فأمر بالإنزال فوراً، إلا أن الشيخ لاحظ وجود البحارة قبل أن يبدؤوا الإنزال، فأرسل بعض رجاله إلى القلعة من جديد وقطع مع من تبقى معه من الرجال الطريق على العدو.

يقول المؤرخ البرتغالي جوزيه بيريري داكوشتا إن اقتحام القلعة حصل في أبريل - مايو 1507 و«أن رجال السلطان الـ 130 قاتلوا كـ 300 رجل». قلعة العرب كانت مبنية من الأحجار والصخور... وجرت المناوشة والاشتباكات فقط وراء البوابة الواقعة بين عدة صخور ضخمة تشكل ممراً ضيقاً (Da Costa, 1973: 75). ونذكر هنا بالمناسبة أن السقاطرة كانوا حتى وقت قريب يبنون على هذه الشاكلة منازلهم، أو على الأصح نوعاً معيناً من منازلهم. كما أشار البرتغاليون إلى وجود «أحواض كبيرة مليئة بمياه الشرب العذبة» داخل القلعة، وقالوا إن القلعة ذات أبراج وخنادق، وأنها تقع في«موضع سوكو على مسافة رمية قوس من مرفأ بينيج». ونعتقد أنهم يقصدون حجرة المدينة التي كنا أول من اكتشف ودرس آثارها (راجع فصل «المواقع الأثرية»).

ويضيف المؤرخ البرتغالي: «عندما جرت المواجهة نشبت المناوشات فيما بينهم، فاستخدمت خطاطيف المصادمة والرماح، وأصيب بجراح بعض من الثمانين بحاراً. واشتبك الدون ألفونسو دي نورونيا مع القائد العربي بالسلاح الأبيض، وكادت ضربات الخطاطيف تصرعه، إلا أن ألفونسو دي ألبوكيرك وصل في تلك اللحظة مع رجاله وأجهز على الشيخ»، وعندما رأى المقاتلون العرب قائدهم صريعاً انسحبوا على عجل باتجاه القلعة.

يقول مدون الأحداث البرتغالي: «في طريق الانسحاب إلى القلعة قتل رجالنا ثمانية منهم، ولاذ الباقون بالفرار، ثم اختفوا في الجبال تاركين القلعة، أما العرب الذين كانوا يراقبون من برج الحراسة اقتراب رجالنا من القلعة فقد أخذوا يرمونهم بالحجارة من فوق مسببين لهم الأذى، وقد أصابوا ألفونسو دي ألبوكيرك بحجر كبير على يافوخه فسقط على الأرض فوراً في حالة يرثى لها. إلا أنه لم يفقد وعيه، فأمر رجاله بمحاصرة القلعة وتضييق الخناق عليها، وبعث نونو فاج دي كاستيلا - برانكا ليجلب القنابل الكروية والمرفاع والسلمين والفؤوس والناطحات لكسر بوابة القلعة.

وعندما جلب نونو فاج السلم أمره ألفونسو دي ألبوكيرك أن ينصبه على السور، فأخذ رجالنا يتسلقونه، وكان أول من تسلقه غاشبار دياش دي أكاسيري دي سال الذي رفع رايته، وكذلك نونو فاج براية جوبا كيمالو، ولحق بهما الآخرون» (Ibid. 110)، وفي المناوشات الشديدة على أسوار القلعة وأبراجها لقي الكثيرون من الغزاة حتفهم، إلا أن نتيجة المعركة كانت محسومة بسبب عدم تكافؤ قوى الطرفين، فلجأ المقاتلون العرب إلى البرج الرئيسي

بعد أن تكبدوا خسائر جسيمة.

أما البرتغاليون فقد أفلحوا بالفؤوس والناطحات في اقتحام القلعة، وحاصروا المدخل المؤدي إلى البرج في انتظار وصول تريستان داكونيا، وكان هذا قد واجه مقاومة ضعيفة من جانب العرب عند حاجز الخوازيق في الخور. فالكثيرون منهم قتلوا، فيما فر الباقون إلى الجبال. ثم انضم داكونيا إلى ألبوكيرك ودخل القلعة، ولم يبق على قيد الحياة من الـ 150 مقاتلاً عربياً سوى 25، إلا أنهم كانوا محصنين في البرج الحجري المقفل بإحكام. حاول البرتغاليون الاستيلاء على البرج بهجمة اقتحامية من خلال ارتقاء السلم، لكنهم سرعان ما أدركوا مدى الخسائر التي يمكن أن يتكبدوها في هذه الحال، كونهم تحولوا إلى أهداف واضحة للسهام التي انهالت عليهم من فوق. وكاد المقاتلون العرب يقطعون عنق أنطونيو دي نورونيا لولا أنْ صد ألبوكيرك بترسه الضربة عنه. ولذا قرر تريستان داكونيا الدخول في مفاوضات مع من تبقى من العرب، إلا انهم رفضوا الإستسلام واستمرت المعركة.

تم الاستيلاء على القلعة في النهاية، إلا أن المعركة كانت حامية الوطيس على غير المتوقع، فقتل سبعة برتغاليين، وأصيب خمسون آخرون بجراح، فيما خسر العرب 80 قتيلاً. وتفيد معلومات دا كوشتا «أن عربياً واحداً فقط وقع في الأسر اسمه عمر، وكان مرشداً بحرياً ممتازاً يعرف سواحل الجزيرة العربية خير معرفة، وفيما بعد خدم عند ألفونسو دي ألبوكيرك وكان منه نفع كبير» (Da Costa, 1973: 8).

«في صباح اليوم التالي توجه تريستان داكونيا مع جميع رجاله إلى «مسجد العرب» الذي تحول إلى كنيسة رئيسية سميت باسم نصر العذراء، وفيها أقام القداس الأب أنطونيو دي لوريرو من سلك الفرنسيسكان».

بعد القداس تحدث تريستان داكونيا مع السكان المسيحيين، وأبلغهم أن جلالة الملك أوفده مع رجاله لحماية الأهالي من تعسف العرب، ولم يعد هناك موجب للخوف بعد الآن. وفي مقابل هذه الحماية طلب من سكان الجزيرة أن يحافظوا على الهدوء والسكينة في علاقتهم مع الحامية البرتغالية وأن يزودوها بالمؤن والأغذية وأن يدرسوا أصول وطقوس الديانة المسيحية التي نسوها من زمان، وتم توقيع معاهدة سلام مع السكان المحليين.

رمم البرتغاليون القلعة وصاروا يسمونها قلعة القديس ميكائيل، وتركوا فيها حامية من 100 شخص بقيادة ألفونسو دي نورونيا، ابن أخي ألبوكيرك. وفي الأول من أغسطس 1507 غادر سرب تريستان داكونيا إلى الهند، فيما توجهت سفن ألبوكيرك إلى عمان

وهرمز.

إلا أن سقطرى لسوء حظ البرتغاليين كانت تميل إلى المهريين أكثر من ميلها إلى الغزاة البرتغاليين الذين أضمرت لهم عداءً لم يعد مستوراً. فعندما عاد ألفونسو دي ألبوكيرك إلى الجزيرة بعد ثمانية أشهر وجد ابن أخيه في مرض شديد، وأربعة من رجاله لقوا مصرعهم، فيما كان الباقون في وضع عصيب، ذلك أن المقاتلين العرب الذين فروا في حينه إلى الجبال اقنعوا السكان المحليين بأن الفرنجة جاؤوا لاستعبادهم وتحويلهم إلى رقيق، فانتفض أهالي الجزيرة على البرتغاليين ونهبوا القلعة بعد أن قتلوا عدداً من أفرادها، وامتنعوا عن تزويد الحامية البرتغالية بالمؤن والغذاء، فتعرض البرتغاليون لمختلف أنواع العوز والحرمان، واضطروا على تناول لحاء النخيل والثمار البرية، وتعفنت قواربهم وباتت منخورة، وكانت سفنهم بحاجة إلى تصليح بعد أن فعلت فيها الرياح الموسمية فعلها.

وزع ألبوكيرك كل ما لديه من أطعمة على الجميع بالتساوي، وسدد رواتب أفراد الحامية لكل الشهور الماضية، وفي مايو من ذلك العام كانت كل سفن الأسطول البرتغالي مهيأة للموسم عند سواحل سقطرى.

«أعلن ألفونسو دي ألبوكيرك، بكل ما لديه من رجال، الحرب على أبناء تلك البلاد، فتعرضوا لهزيمة ماحقة وعقوبة شديدة على ما فعلوه برجالنا في غيابه، حتى اضطروا إلى طلب الصلح، ووافق ألبوكيرك على تلبية طلبهم بشرط أن يدفعوا غرامة سنوية لحامية القلعة مقدارها 600 نعجة و 20 بقرة و 40 كيساً من التمر» (Da Costa, 1973:81).

في أعقاب الحملة التأديبية غادر ألفونسو دي ألبوكيرك جزيرة سقطرى. وفي نوفمبر 1509 بات نائباً للملك على المستعمرات البرتغالية في الهند، ولم يعد إلى سقطرى من ذلك الحين. بعد ذلك الشتاء الأول الذي أمضاه الأسطول البرتغالي في الجزيرة وكادت الرياح الموسمية هناك تقذفه إلى عرض البحر لم يستخدم البرتغاليون مرفأ سقطرى قاعدة شتوية، على الرغم من أن سفنهم التي ظلت في السنوات التالية تمخر عباب المحيط كانت تعرّج على الجزيرة بين الفينة والأخرى للتزود بمياه الشرب.

نعم، كانت الأساطيل البرتغالية في السنوات اللاحقة تتوقف عند سقطرى، ووردت أنباء تقول إن الحامية في الجزيرة تضاءلت بسرعة. وفي العام 1516 ذكر أندريه كورسالي، وهو رحالة من فلورنسة رافق أسطول لوبو سواريس، أن القلعة باتت بيد العرب من جديد (De L'Afrique..., 1830: 334 - 335).

وتجدر الإشارة إلى أن المهريين الذين انهزموا أمام البرتغاليين ما كانوا إطلاقاً ينوون ترك الجزيرة إلى الأبد، فقد ذكر المؤرخ الحضرمي أحمد شنبل أن شيخ قبائل الطوعري والزويدي توفي في القشن سنة 915 هجرية، 1509 - 1510 ميلادية. ويعتقد سيرجنت أن شنبل ربما يقصد ابن شيخ قبائل الطوعري الذي قتل على يد الغزاة البرتغاليين عام 1507 (المؤرخون البرتغاليون الذين كتبوا عن احتلال القاعدة المهرية في سقطرى يسمونه «حاج إبراهيم»).

أما ابنا الشيخ ذاته الآخران فقد قاما بحملة على سقطرى في سنة 916 هجرية (1510 . 1511 ميلادية) وشنّا هجوماً على القلعة البرتغالية. جاء في تاريخ شنبل: أن خميساً وعَمْراً، ولدي سعد بن الزويدي، شنا في ذلك العام حملة على سقطرى، وكانت آنذاك بيد الفرنجة، فدخلا هذه البلاد ووقعا معاهدة مع أهلها، إلا أن الفرنجة قاوموا المسلمين وحاربوهم. وانتصر المسلمون على الكفار واستولوا على بعض أموالهم بعد أن قتلوا نحو عشرة منهم... (نقلاً عن Serjeant, 1963: 46).

واللافت للنظر تبدل لهجة المدونات البرتغالية التي تتحدث عن الأحداث المرتبطة بالاحتلال، ففي الفترة الأولى كان المؤرخون متحمسين كثيراً لمستقبل الاحتلال، وقد ركزوا على تمسك البدو بالمسيحية وعلى تعاطفهم من ثم مع البرتغاليين وتأييدهم لتدابيرهم. قال نيكولاو دي أورتا ريبيلو: «إن جميع المواليد المحليين من الإناث يسمون ماريا، ومن الذكور ثوماس، وإن موقف البدو ودي للغاية، وكانوا يتشوقون للقائنا. والجميع تقريباً في الجزء الغربي من الجزيرة يجيدون التكلم بلغتنا» (Da Costa, 1973: 7).

ثم تفتحت عيون المؤرخين ببطء وبالتدريج على واقع الحال، فالطقس القاسي وشحة الأطعمة وتفشي الأمراض واشتداد التناحر – كل ذلك جعل حياة البرتغاليين أكثر صعوبة وتعقيداً. آنذاك كتب كاستانيدا أن البرتغاليين تركوا القلعة «لأن سكان البلاد عموماً يكنون الود للعرب أكثر» وغالباً ما يتمردون على البرتغاليين«عندما يحاربهم الأعراب» (Ibid.). ولعل سبب مغادرة البرتغاليين لا يقتصر على ذلك، فهم على أية حال، لم يجدوا سبيلاً إلى التفاهم مع السكان المحليين.

الرحالة دوارتيه باربوزا الذي زار الجزيرة في ذلك الوقت تقريبا تحدث عنها بفتور وبدون حماسة (Barbosa, 1921: 59 - 64)، أما دي غويش فقد استفاض في وصف الآم البرتغاليين نتيجة لشحة الأغذية وانتشار الأمراض وتمردات السكان، في حين أن السفن

ما كانت تستطيع الاقتراب من شواطئ الجزيرة بسبب الرياح الموسمية. وفي هذه الظروف توفي في أغسطس عام 1510 الحاكم بيرو فيريرو بعد أقل من عام من تعيينه في نوفمبر 1509 (Da Costa, 1973: 85).

عند ذاك أخذت حاشية الملك تنصحه بترك الجزيرة، لأن الاستمرار باحتلالها ليس من الحكمة، وواجه البرتغاليون صعوبات جديدة بسبب المجابهة مع العثمانيين، يضاف إلى ذلك شدة التنافس بين داكونيا والبوكيرك. وأخيراً، في عام 1511 قرر الملك إجلاء الحامية من سقطرى، فأرسل ألبوكيرك إلى الجزيرة سفينتين لهدم القلعة وتجريفها، وكذلك لإخلاء جميع النصارى المحليين الراغبين في ترك البلاد، وبينهم 200 امرأة، إضافة إلى المدفعية وكل ما هو قيم وثمين من موجودات القلعة، وكان على القومندان أن يسلم والي هرمز «برج الأجراس في سقطرة مع الآنية الفضية وجلابيب القساوسة ...إلخ» (Da Costa, 1973: 88).

وهكذا اضطر البرتغاليون إلى مغادرة سقطرى في سنة 1511 ميلادية. ومن ذلك الحين أصبح المهريون أسياد الجزيرة الرئيسيين، فقد أسسوا سلالة السلاطين الذين حكموها حتى ثورة 1967 المناهضة للاستعمار. لقد بنى المهريون القلعة من جديد، وأزالوا كنيسة «نصر العذراء»، وليس معروفاً على وجه التحديد موقع بناء القلعة المهرية الجديدة. بيتر شيني درس أنقاض قلعة في فرحة اعتبرها مهرية وليس برتغالية (Shinni, 1960: 107). كما درست بعثة أوكسفورد بقايا قلعة عربية أخرى تقع على سفح جبل حصون في الجانب الشرقي لوادي منيف على مقربة من حديبو (شكل رقم 2 – 2). وكتب بوتنغ إن هذه الأخيرة هي القلعة المقصودة (Botting, 1958: 114)، فيما افترض برايان دو أنها الكنيسة التي تحدث عنها ديودورس (Doe, 1992: 63 - 62). أما توماس روي الذي زار جزيرة سقطرى عام 1615 فقد ذكر أنه رأى في هذا الموضع قلعة، لكنه مُنع من الاقتراب من أسوارها، وبدت له تلك الأسوار كما يقول سميكة للغاية، فيما كانت القلعة تقع على مرتفع يطل ويشرف على الوادي كله، وكانت القلعة حصينة تماماً. وقد حاول بيتر شيني في العام 1956 أن يصور بقايا الأسوار ويقيس أبعادها، إلا أن الرياح الشديدة أعاقته، وكانت سرعتها على المرتفع، حسب تقديرات شيني، 96 كيلومتراً في الساعة.

يعتقد بعض المؤلفين أنه كانت لا تزال لدى البرتغاليين فرصة احتلال سقطرى من جديد. ففي عام 1530 أوصى مؤلف «المذكرات» المجهول ملك البرتغال بانتزاع الجزيرة

من العرب وتقديمها على سبيل الهدية إلى أحد وجهاء البرتغاليين. كتب دا كوشتا إن البرتغاليين كأنما استعادوا سيطرتهم على الجزيرة جزئياً. إلا أنه اعتبر ذلك غلطة منهم. وفي العام 1513 توجه ألبوكيرك لغزو عدن، وعرّج على السوق، فوجد فيها «عرب الفرتك منهمكين في ترميم القلعة»، وقد فروا إلى قلنسية. ثم إن السفن البرتغالية ظلت تمر على سقطرى في السنوات التالية لتتزود بماء الشرب، وكان «عرب الفرتك» مسالمين في تعاملهم، حتى إن البرتغاليين اعتبروهم حلفاء في مواجهة «الروم».



(شكل رقم 2 ـ 2)

في العام 1541 للميلاد زار سقطرى الأميرال البرتغالي دون جواو دي كاشترو وألقت سفينته مراسيها في الموضع نفسه الذي رست فيه سفن ألبوكيرك قرب السوق.، ثم ارتحل إلى ميناء قلنسية، وكتب في يومياته يقول عن الجزيرة: «أهالي سقطرى يقدسون الإنجيل، وقد أكدوا أن الرسول القديس ثوماس أطلعهم على الكتاب المقدس، وبفضله اعتنقوا ديننا. وفي الجزيرة كنائس كثيرة في كل مكان، وعلى قبة كل منها صليب الرب. والأهالي لا يفقهون كثيراً في قضايا اللاهوت، لكنهم راغبون في معرفته، وقد ألحوا في الطلب بأن نحدثهم عن الدين وعن طقوس الكنيسة الرومانية التي يعتبرونها الديانة الصحيحة الوحيدة، وهم يريدون اعتناق تعاليم هذه الكنيسة بالذات.

أسماء أهالي الجزيرة مثل أسمائنا: بيير، جان، أندريه، وأكثر أسماء نسائهم ماريا، ولسكان الجزيرة نمط حياة خاص بهم، وليس لديهم ملك أو حاكم أو أسقف، وليس لديهم عموماً من يطيعونه أو يتلقون الإيعازات منه. يعيشون كوحوش البراري، وليس لديهم أية حياة أو نشاطات سياسية ولا أي تنظيم حقوقي. لا توجد في الجزيرة مدن ولا مستوطنات سكنية كبيرة، ومأواهم المغارات والكهوف، وبعضهم يقيمون في الأكواخ. يمارسون اقتصاد الغابات وتربية الماشية، ويقتاتون على اللحوم والتمر، ويشربون اللبن، وعلى الأكثر الماء العادي. والجميع تقريباً يحملون الصلبان المتدلية على الصدور، ويصعب أن تجد شخصاً بلا صليب.

إنهم جنس بشري جميل، مظهرهم الخارجي هو الأكثر جاذبية بين جميع سكان المنطقة. أهالي سقطرى طوال القامة، بقوام رشيق، وبدن متناسق، ووجوه الرجال سمراء ملوحة بالشمس، ووجوه النساء جميلة وأقل سمرة. ولا أثر في الجزيرة للسلاح، لا الهجومي ولا الدفاعي، ما عدا القليل من السيوف الحديدية القصيرة الصدئة. الرجال يمشون عرايا، ما عدا مآزر من قماش بسيط يرتدونها على الفخذين للحشمة وينسجونها بأنفسهم.

تربة الجزيرة قليلة الخصوبة ولا ينمو عليها سوى الصبر وشجرة دم الأخوين، فالصبر منتشر بكثرة، ويصدر إلى الخارج بكميات كبيرة. الجزيرة مطوقة بالجبال من جميع الجهات، وتعيش فيها أسراب كبيرة من الطيور، ولا ينبت في أرضها لا الأرز ولا القمح ولا أية محاصيل زراعية أخرى. واعتقد أن ذلك ليس بسبب عقم التربة، بل لغياب المبادرة وما يرتبط بنمط حياة السكان. الطقس بارد نسبياً في المناطق الداخلية. والأهالي لا يمارسون الملاحة ولا صيد الأسماك على الرغم من وجود أسماك وفيرة في بعض المناطق. أشجار الفاكهة والثمار قليلة في الجزيرة، ما عدا النخيل، والناس يبدون اهتماما كبيراً جداً بزراعة النخيل، فالنخلة تعطي المادة الغذائية الرئيسية. وتنمو هنا مختلف أنواع الخضار ونباتات البساتين، وكذلك أعشاب العقاقير. والجبال مكسوة بالرَّياحين وغيرها من مختلف النباتات العطرية الفواحة» (Kammerer,1936: 38 - 39).

القديس فرنسيسك كسافييه زار سقطرى في العام 1542 في طريقه إلى الهند، وقد أعجبته حتى رغب في الإقامة هناك، إلا أنه مُنع خوفاً من وقوعه في أسر العثمانيين. وفي منتصف القرن السادس عشر لم يجد الرحالة الأوروبيون هنا لا الأسقف ولا القساوسة ولا الرهبان، ومع أن القداس كان لا يزال يقام علناً أربع مرات في اليوم، إلا أن مواقع

المسيحية باتت ضعيفة للغاية، وظل أهالي الجزيرة على احترامهم لشارة الصليب لا أكثر. وكان مؤسس سلك الجزويتيين إغناطيوس لويولا قد وجه اللوم الشديد إلى السقاطرة لقلة الإيمان. وقد زار الجزيرة كثير من القساوسة الذين حاولوا «مساعدة المسيحيين في التخلص من سيطرة العرب» (Da Costa, 1973:90). إلا أن شيوخ المهرة وسقطرى صاروا يعتبرون البرتغاليين كفة موازنة مقابل العثمانيين.

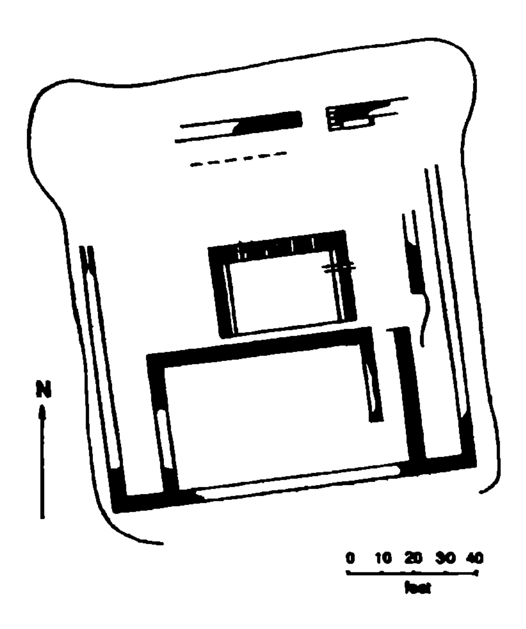
بعد خروج البرتغاليين من الجزيرة بأمد قصير تهاوت سيطرة البرتغال على منطقة الخليج العربي، وأفل نجمها كأول دولة بحرية تمكنت من إزاحة الملاحين العرب والفرس والهنود من هذه المنطقة. وتلقى البرتغاليون أول ضربة شديدة هنا على يد قوات السلطان العماني ناصر بن مرشد بن سلطان (حكم عمان 24 عاماً ابتداءً من سنة 1624 ميلادية). وأرغم السلطان ناصر البرتغاليين المتواجدين في هذه المنطقة على دفع الجزية وطردهم من بعض المراكز السكنية وقيّد نشاطهم التجاري.

آثار المسيحية في سقطرى، كما أفاد الكاهن الكرملي فنشينتسو، ظلت باقية حتى منتصف القرن السابع عشر في أقل تقدير(Bent, 1900: 355) ، ويشير إلى ذلك صموئيل بورشاس الموظف في شركة تجارة الهند الشرقية (Purchas, 1625)، آنذاك كان الناس هنا يتذكرون البرتغاليين جيداً. وإليكم ما قاله بهذا الخصوص الرحالة هنري اَغينار الذي عرّج على سقطرى في العام 1633: «في الشاطئ ثلاثة مدافع على عربات مسطحة قديمة، وهنا يمكن أن نرى أسلحة برتغالية، والسقاطرة انتشلوا بقايا سفينة غارقة، وهم يضمرون العداء للبرتغاليين» (Recueil, 1754: 294) .

في فترة وصول كاتب السطور إلى الجزيرة لأول مرة عام 1974 (ناهيك عن الوقت الراهن) لم يعد هناك إلا القليل مما يذكّرنا بالبرتغاليين. فلا تزال باقية من ذلك الزمان آثار المسجد الذي حولوه إلى كنيسة «نصر العذراء» (شكل رقم 2 - 3) وأنقاض القلعة (التي تقول المراجع العربية أن المهريين دمروها بعد مغادرة البرتغاليين الجزيرة وبنوا بدلها قلعة في موقع آخر)، وكذلك البرتقال المستورد من البرتغال (ويسميه السقاطرة «تانيجي» نقلاً عن التسمية البرتغالية «لارينجي»)، وربما أيضاً بعض المسميات الطبوغرافية.

فهل بقي في ذاكرة السقاطرة شيء من ذلك العهد البعيد؟ السكان المحليون لا يذكرون شيئاً عن ذلك الماضي، ما يدفع جميع الباحثين إلى الاستنتاج بأن الغزو البرتغالي كان «مشهداً عابراً» في تاريخ الجزيرة، إلا أنني سمعت من شيوخ القبائل الجبلية عندما سألتهم

عن أغانيهم القديمة أن البعض في عدد من المناطق كانوا حتى وقت قريب يعرفون أغنية تقول إن الجبليين كانوا يعيشون في مكان آخر يتمتعون فيه بالحرية والثروة والنعيم، لكنهم، بسبب «خطاياهم» تعرضوا للنفي من تلك البقاع المباركة ونقلوا إلى الجزيرة التي يعيشون فيها من سنين. فمن أين جاءت هذه الفكرة أو هذا الموتيف في الموروث الشعبي السقطري؟ لعل البرتغاليين كانوا، وفقاً للممارسات السائدة في العصور الوسطى، ينفون إلى الجزيرة المغضوب عليهم من رعايا الملك وكذلك من يقع في الأسر من القراصنة.



(شكل رقم 2 ـ 3)

كانت السلطة في سلطنة المهرة وسقطرى (أو القشن وسقطرى، وهو الاسم الثاني لدولة السلاطين المهريين) تتناوبها بطون قبيلة بني زياد المهرية، وكانت مدينة القشن في المهرة هي العاصمة، وفي المنطقة أيضاً مراكز كبيرة أخرى مثل سيحوت والغيضة. وفي فترة معينة كان السلطان يقيم في سقطرى إقامة دائمة، فيما يمثله في القشن بعض من أقاربه. ولا يغادر الجزيرة إلا نادراً، لأداء مناسك الحج مثلاً. وكان العبيد يُنقلون إلى السلطنة من بلدان أفريقيا الشرقية ويستخدمون في مجالات عدة، بما في ذلك الخدمة العسكرية، كما كانت تصل غانيات وجَوارٍ للأشغال المنزلية أو لزيادة عدد الحريم.

في العام 1800 حل الوهابيون في جزيرة سقطرى ودمروا المقابر والكنائس على

الساحل القريب من حديبو، وراحوا يوجهون السكان في أداء العبادات الإسلامية حسب ما يرتؤون. نحن لسنا مطلعين كثيراً على تفاصيل هذه الغزوة التي لم تترك أثراً ملحوظاً في مصير سقطرى، على الرغم من وجود معلومات عنها أغلب الظن، وعن نتائجها بالنسبة للسكان المحليين، كل ما نعرفه أن الوافدين الجدد لم يمكثوا طويلا في الجزيرة.

الغزو البريطاني

بتكليف من شركة الهند الشرقية قام الكابتن س. هاينس في الفترة 1834 - 1835، على متن سفينة البحوث «بالينوروس» (المسماة باسم قبطان سفينة «إنيا» في ملحمة فرجيل «الإنيادة»)، بقياس أبعاد شواطئ سقطرى لوضع إرشادات للملاحة البحرية، وقد جاء إليها من سواحل جنوب الجزيرة العربية. كتب هاينس يقول: «العامة من الناس لا تبدي أي اهتمام بالدين، والكثيرون منهم عاجزون حتى عن النطق بكلمات الصلاة الإسلامية»(Haines, 1845:111).

وفي العام 1834 قام الليفتينانت ويلستيد والليفتينانت كراتيندين، من ضباط الأسطول البريطاني الهندي الاستعماري، بتصوير جزيرة سقطرى (Wellsted, 1835) ورفعا تقريراً عنها بالرضا والاستحسان، ما حدا بالحكومة البريطانية أن تفتح هناك قاعدة لتزويد السفن الذاهبة إلى الهند بالفحم. وتلقى السلطان آنذاك عرضاً ببيع الجزيرة إلى التاج البريطاني. إلا أنه رفض. فاحتلت القوات البريطانية الإستعمارية سقطرى. لكنّ الحاجة إلى محطة التزود بالفحم سرعان ما انتفت. ذلك لأن البريطانيين استولوا على عدن في عام 1839. وبعد حين من الزمن غادرت الحامية البريطانية - الهندية سقطرى هرباً من الملاريا.

يعتقد الليفتينانت كراتيندين الذي تولى آنذاك منصب نائب المندوب السياسي البريطاني في عدن أن عائدات جزيرة سقطرى في العام 1847 بلغت 320 دولاراً، فيما وصلت في عام 1877، حسب تقديرات الكابتن هنتر، نائب المقيم البريطاني في عدن، ضعف هذا المبلغ.

وفي يناير 1876 وصل إلى الجزيرة من عدن المندوب السياسي البريطاني المقيم (مدير الإدارة الاستعمارية) ووقع مع سلطان سقطرى والقشن اتفاقية دفع له الإنجليز

بموجبها ثلاثة آلاف دولار، ووعدوا بدفع 360 دولاراً سنوياً في مقابل تعهد السلطان ومن يخلفه ويرثه بعدم تأجير أو بيع أرخبيل سقطرى أو رهنه أو السماح باحتلاله بأية وسيلة لأيٍّ كان، ما عدا الحكومة البريطانية، إضافة إلى ضمان حماية شحنات وركاب السفن البريطانية في سقطرى.

في العام 1886 تحولت سقطرى إلى محمية بريطانية، وتضاعفت مخصصات السلطان، فاختار الجزيرة مكاناً لإقامته الدائمة. وقد استبعد المدونون الإنجليز الذين عايشوا الأحداث أن تتمكن سقطرى من الحفاظ على استقلالها، وكتبوا يقولون إن الأقدار أعدت لها مصير بلد تابع «تحت الحماية»، لأن السلطنة التي لا تمتلك جيشاً ولا حلفاءَ ولا مالاً، مع قلة عدد السكان، لن تتمكن بأي حال من التصدي للمخاطر المنبعثة من أية دولة. واحتفظ المستعمرون بسقطرى بصفة مركز إستراتيجي احتياطي فيما لو نشبت حرب أو وقعت ملابسات طارئة أخرى. واقتصرت كل «المساعدات» التي قدمتها بريطانيا «لمحمية» سقطرى على هبات نادرة للأهالي عندما تحل المجاعة وتتفشى الأوبئة، تمثلت في إرسال كميات من الأدوية أو الأغذية.

في أواخر القرن التاسع عشر كانت الجزيرة تعتبر أخطر منطقة على السفن البحرية المارة بها، وكانت أشد المخاطر تواجه الذين يمرون برأس مومي، حيث سرعة التيار وشدة الرياح كبيرتان للغاية. ولذا كانت السفن المتجهة من السويس إلى الهند تتلقى تحذيرات خصوصية بأن عليها أن تبتعد عن الساحل على قدر الإمكان عندما تلتف حول الطرف الشرقي من سقطرى، فإن اقتران التيار والرياح يمكن أن يدفع السفينة بشدة إلى الساحل الصخري الملفع دوماً بالسحب والضباب، وهناك تحت الماء شعاب ضخمة تمتد بشكل سلسلة من رأس مومي إلى عرض البحر. وقد غرقت سفن كثيرة عندما ارتطمت بتلك الشعاب.

حصلت أكبر كارثتين للسفن هناك في نهاية القرن التاسع عشر، ففي العام 1887، وفي عتمة الليل، ارتطمت السفينة الألمانية «أودر» بالشعاب البحرية قرب رأس مومي. وبعد عشر سنوات حصلت في المكان نفسه كارثة أكبر، فقد غادرت السفينة الإنجليزية الفاخرة «أدين» البالغة حمولتها 3925 طناً ميناء كولومبو في بداية يونيو، في خضم الرياح الموسمية الجنوبية الغربية الشديدة، وعلى متنها 138 راكباً بالإضافة إلى الطاقم، وكذلك شحنات ثمينة من الشاي والقصدير والحرير وطرود البريد، فغرقت في منطقة رأس مومي وقتل 93 من ركابها.

خلال الحرب العالمية الثانية افتتحت بريطانيا قاعدة جوية لها في سقطرى، وعندما غادر الإنجليز الجزيرة بعد انتهاء الحرب أخذوا معهم كل ما كان في القاعدة، حتى المولّد الوحيد في الجزيرة، ولم يتركوا هناك سوى حطام الطائرات والثكنات المهدمة المبنية من الحجر غير المنحوت.

خلال فترة الهيمنة البريطانية زارت الجزيرة عدة بعثات علمية، ففي العام 1880 أجرى ج. بلفور دراسات نباتية وحيوانية وجيولوجية جدية (Balfour, 1888). وقام ج. بوني (Bonney, 1883) بدراسة مجموعة الكتابات المنقوشة على الحجر التي جلبها بلفور من رحلته. وفي العام 1881 قامت بعثة ريبيك التي شارك فيها غ. شوينفورث بدراسة ضواحي حديبو والسفوح القريبة منها طوال أكثر من شهر (Schweinfurth). وفي العام 1882 عمل العالم الطبيعي الفرنسي ش. مانويل مع شوينفورث، كما نشر زاوير في العام 1888 دراسة حول معادن سقطرى.

في العام 1897 جاب أرجاء الجزيرة طوال شهرين تيودور بونت وزوجته، وقد اهتما خصوصاً بالمواقع الأثرية. ونشرت زوجة بونت دراسته عن سقطرى بعد وفاته (Bent, 1900)، وهي تتضمن خريطة تفصيلية للجزيرة. أما الأخصائي في علم الحيوان بينيت، الذي رافق الزوجين بونت، فقد كان أول أوروبي يتسلق قمة جبل حجهر، كما تسلقها في العام 1899 الأوستراليان و. سيموني وف. كوسمات. وفي نوفمبر 1898 أوفدت أكاديمية العلوم في فيينا، على متن الباخرة السويدية «غوتفريد»، بعثة إلى جنوب جزيرة العرب أجرت دراسات أثرية وإثنوغرافية وطبيعية، وضمت البعثة كلاً من كارلو لاندبرج ود. ميولر وسيموني وكوسمات ويان وباولي. وفي عدن انضم إليهم أ. بيرن ، ثم هنري فوربس وغرانت الذين كانوا يريدون جمع عينات حيوانية ونباتية لمتحف لندن ومتحف ليفربول.

وبعد توقف الدراسات المفاجئ على أراضي الجنوب العربي توجه بعض أعضاء البعثة إلى سقطرى في يناير 1899. اشتغل العلماء هنا شهرين وتفقدوا في المقام الأول المناطق غير المدروسة كثيراً في جنوب وغرب سقطرى. ثم قاموا برحلة إلى جزيرتي عبد الكوري وسمحة. كان عملهم مثمراً ساعد على نشر دراسات كثيرة، منها كتاب هنري فوربس الآنف الذكر (Forbes, 1903) ونصوص د. ميولر السقطرية مع ترجمة وشروح بقلمه (Mul-ler, 1902; 1905; 1907).

في النصف الأول من القرن العشرين قل اهتمام العلماء بدراسة المنطقة، ربما بسبب

الحربين العالميتين الأولى والثانية، كما أن غياب مؤشرات العثور على النفط هناك لم يشجع على تفعيل الدراسات.

فيما ترك لنا الضابط البريطاني إ. سنيل في العام 1955 وصفاً لمحاكمة الساحرات في سقطرى له أهمية علمية معينة. كما زارت الجزيرة في العام 1956 بعثة أوكسفورد برئاسة د. بوتينغ مؤلف كتاب«أرض دم الأخوين» (Botting, 1958). ثم إن عضوهذه البعثة بيتر شيني الذي جئنا على ذكره مراراً نشر تقريراً علمياً أثرياً موجزاً عن نشاط البعثة (Shinnie, 1960).

وفي العام 1966 أجرى الخبير العسكري البريطاني ج. براون ، بتكليف من السلطات الاستعمارية، دراسة للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في سقطرى لغرض الكشف عن آفاق تنمية الاقتصاد في اتجاه يعود بالنفع على المستعمرين. كان براون أخصائياً محنكاً لديه إمكانيات واسعة للتجوال في ربوع الجزيرة، فتمكن من جمع معلومات قيمة عرضها في تقريره الرسمي عن رحلته (Brown, 1966).

وأخيراً في العام 1967 عملت في سقطرى بعثة موسعة من العلماء الإنجليز: ر. بيتشين (بيولوجي من جامعة ليدز) ، وبرايان دو (أثري، رئيس مديرية الآثار في عدن) ، وك. فريزر جينكينز (عالم حشرات) ، وت. جونستون (لغوي من جامعة لندن) ، وم. تومكينسون (لغوي وإثنوغرافي)، ور. سيرجينت (مؤرخ ومستعرب من جامعة كيمبردج)، وم. سيرجينت (طبيبة من مؤسسة إنقاذ الأطفال) ، وأ. رادكليف. سميث (عالم نباتي من حديقة النبات في كيو) ، وج. لافرانوس (عالم نباتي). وكانت لهذه البعثة أهداف عسكرية أيضاً، ذلك لأنها ضمت ضباطاً من وزارة الدفاع البريطانية.

وقد نُشرت عدة مقالات وبحوث عن نتائج رحلة البعثة، أهمها بحث برايان دو«سقطرى. دراسة أثرية 1967» (Doe, 1970) الذي طبع بالروتاتور في الولايات المتحدة (ميامي، فلوريدا) عام 1970، ثم صدر في العام 1992 بإضافة مقالات كتبها ر. سيرجينت وأ. راديكليف . سميث وك. كويتشارد (Doe, 1992). أما البروفيسور ت. جونستون فقد عاجلته المنية قبل أن يتمكن من تحليل ونشر المواد التي جمعها عن سقطرى.

في 30 نوفمبر 1967 نزل في الجزيرة فصيل من الجبهة القومية التي قادت النضال آنذاك في سبيل الاستقلال في اليمن الجنوبي، فتم إلغاء سلطنة المهرة وسقطرى، وانضوت الجزيرة تحت لواء جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية المستقلة (ثم جمهورية اليمن

الديمقراطية الشعبية اعتباراً من عام 1970) التي أعلن تأسيسها في ذلك اليوم، وفي العام 1990 توحد شطرا اليمن كما هو معروف في دولة واحدة هي الجمهورية اليمنية.

واعتباراً من العام 1983 بدأ فريق البعثة السوفيتية اليمنية المشتركة أعماله في سقطرى، وقد ضمت مجموعة من العلماء من مختلف الاختصاصات، وفيما بعد بات الفريق جزءاً من البعثة الروسية الموسعة لمعهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية منذ العام 1991، وقد باشر العلماء الروس الواردة أسماؤهم في تقديم الكتاب، بالعمل المنتظم في دراسة المواقع الأثرية في جزيرة سقطرى وتاريخها ولغتها وفولكلورها وتقاليدها وعاداتها. ونشر كاتب السطور مع فكتور بورخوموفسكي عدة دراسات في التحليل اللغوي الإثني في سقطرى وغيرها من جزر الأرخبيل، كما يعد العلماء الروس للطبع بحثاً تعميمياً معمقاً للغة السقطرية والفلكلور في جزيرتي سقطرى وعبد الكوري.

في تسعينات القرن العشرين، بعد انفتاح سقطرى على العالم ، وقد غدت جزءاً من الدولة اليمنية الموحدة، ازداد اهتمام العلماء بالجزيرة، وخصوصاً بعالم الحيوان والنبات فيها، فأوفدت الجامعات الأوروبية والهيئات الدولية عدة بعثات علمية أسهمت بقسط كبير جداً في دراسة سقطرى وباقي جزر الأرخبيل: عبد الكوري وسمحة ودرسة، وكذلك في الجهود الرامية إلى صيانة وحماية البيئة الطبيعية النادرة هناك، وتجلت نتائج تلك الجهود في عدد من المطبوعات المهمة.

وعكف على دراسة وتحليل اللغة السقطرية ولهجاتها كلّ من أنطوان لونيه وماري ـ كلود وسيميون ـ سينيل، وتجدر الإشارة بخاصة إلى الأهمية البالغة لجهود أنطوني ميلر وميراندا موريس في وصف عالم النبات في أرخبيل سقطرى، وذلك وفقاً لبرنامج حديقة النبات الملوكية في أدنبرة الذي أشرف عليه ميلر (Miller and Morris, 2004). وتجسدت حصيلة عمل العديد من الباحثين في الكتاب الضخم الذي أعدته كاترين تشونغ وليندن دي فانتيه عن التاريخ الطبيعي لجزر الأرخبيل (Cheung and DeVantier, 2006). كما تواصل ميراندا موريس عملها في دراسة وتحليل اللغة السقطرية والأدب الشعبي الفولكلوري في سقطرى. ولقد باتت الجزيرة محمية طبيعية يتردد عليها السياح. وجرت دراسة الكهوف والمغارات التي اكتُشفت فيها معثورات وملتقطات مهمة ومثيرة.

الفصل الثالث

ملامح السقاطرة

معطيات علم الاسنان

لسكان سقطرى، من حيث سيماؤهم وملامحهم الأنثروبولوجية الفسيولوجية، تركيبة معقدة دون ريب، يصعب تحليلها بالطرق العلمية المعهودة، ويمكن القول على سبيل الافتراض: إن ثلاثة عوامل محتملة قد أثرت في سيماء السقاطرة وملامحهم وساعدت على ظهور نمط أنثروبولوجي خاص بهم. وهي: (1) وجود أساس قديم لا يزال مجهول المنشأ، ولربما يرتبط بجنوب جزيرة العرب، يتجلى قبل كل شيء في المناطق الجبلية من الجزيرة. (2) توافد مهاجرين جدد استقروا أساساً في المناطق الساحلية واختلطوا مع السكان الأصليين. (3) تأثير العزلة أو الانزواء الجزائري والزواج اللُحمي (من الأقارب) الذي تسبب في نشوء سيماء وملامح وتقاسيم معينة لنمط أنثروبولوجي مميز.

ومهما كانت الدراسة الأنثروبولوجية لسقطرى فإنها تتطلب البحث عن سبل للكشف عن لوحة الترابط والتفاعل بين العوامل الثلاثة المذكورة.

إلا أن التحليل الانتقائي في علم الأسنان الذي قمنا به، أنا وزميلي الطبيب الأنثروبولوجي فلاديمير شينكارينكو، لسكان الجزيرة والمناطق المجاورة لها في منتصف الثمانينات، وأرسلنا مواده إلى موسكو، حيث درسها العالم الروسي ألكسندر زوبوف بمزيد من التفصيل، قد تعثر ولم يتوصل إلى نتائج نهائية للأسف الشديد، بسبب غياب الدراسة المقارنة في هذا المجال لباقي الأقطار العربية، وخصوصاً شبه جزيرة العرب. ولذا اضطررنا إلى اعتماد مواد الدراسات المقارنة لبلدان ومناطق أبعد، كالهند (البارسيّون والبراهمانيّون من ممثلي النمط الأوروبي لسكان الهند، والكتكاريون والسنتال من ممثلي الأقوام الفيدية والدرافيدية).

صحيح أن اختيار المجاميع السكانية لأجل المقارنة لم يأتِ فقط وفقاً لمبدأ «ليس في الوجود أحسن من الموجود»، فالقضية أن سكان الهند، وخصوصاً القبائل الأصلية المنتمية إلى النمط الفسلجي الفيدي - الدرافيدي، (الأوسترالي بمعنى أوسع)، لربما نشؤوا بالطريقة نفسها وبمشاركة المكونات نفسها التي نشأت منها قبائل الجزيرة العربية المجاورة لسقطرى. ومعروف بهذا الخصوص رأي العالم الأنثروبولوجي الأميركي كارلتون كوون (Coon, 1939) الذي يقول إن بدو حضرموت يشبهون الفيديين (أو الفدّيين- سكان جزيرة سيلان الأصليين) من حيث الملامح وتقاسيم الوجه. ونحن نعتقد أن الأدق هنا هو

استخدام مصطلح النموذج «الفيدي ـ الدرافيدي»، ذلك لأنه يراعي العناصر الأوروبية الجنوبية الواضحة في تلك التقاسيم. ولمقارنة سكان سقطرى بقبائل الهند، ومنها المجموعة الناطقة باللغة الدرافيدية، أهمية كبيرة للغاية، ذلك لأنها تمكننا من افتراض وجود ارتباطات قديمة بين الوافدين إلى سقطرى وبين الدرافيديين.

كما تثير الاهتمام مسألة المكون الأفريقي في التركيبة الأنثروبولوجية لسكان الجزيرة، وترتبط السمات والملامح الأفريقية على الأكثر بسقاطرة المناطق الساحلية، أي بوافدين أحدث زمنياً، على الرغم من أنهم توغلوا خلال عملية التهجين في المناطق الجبلية أيضاً. ولا تتكشف تلك السمات بكامل الدقة من خلال استخدام الطرق الأنثروبولوجية، فقد بينت الدراسات الأولية أن معطيات علم البشرة (راحة الكف والقدم) لا تقدم دليلاً على وجود آثار واضحة ومرئية لشعوب أفريقية في سقطرى. أما المواد الأولى المتعلقة بعلم الأسنان فتقول العكس وترجح وجود ارتباطات ما مع القارة الأفريقية، وخصوصاً مناطقها الشرقية (شينكارينكو وناومكين وهيت وزوبوف، 1984). وينتظر أن تقود المواد الجديدة التي آمل أن يتم جمعها إلى تدقيق المعطيات الأولية وتوضيح التناقض في نتائج طريقتي بحث المؤشرات الأنثروبولوجية التي نحن بصددها.

إمكانيات علم الأسنان محدودة نوعاً ما فيما يخص تمييز المجموعة الأوروبية (الجنوبية تحديداً) عن المجموعة الأفريقية نظراً لتشابههما في العديد من خصائص تركيبة الأسنان، إلا أن علم الأسنان يمكننا في الوقت ذاته من تمييز المكون الفيدي، وكذلك المكون الأفريقي بخاصة، من حيث عدة مواصفات ومؤشرات، وذلك أمر في منتهى الأهمية في الحالة التي نتناولها بالدراسة. ونحن في هذا الكتاب لا نكتفي بالأقوام الهندية لغرض المقارنة، بل نستعين أيضاً بمعطيات عن الشعوب المقيمة في مالي وأثيوبيا.

بعد الموسم الأول لعملنا الميداني في سقطرى عام 1984 اتسعت كثيراً سلة المعلومات التي جمعناها في إطار علم الأسنان. الأمر الذي وفر لنا إمكانية أكبر لفرز وانتقاء المعلومات المتعلقة بسكان المناطق الجبلية والسواحل، وكذلك انتقاء مجموعة من الأشخاص من ذوي الملامح والتقاسيم الأفريقية الواضحة من أجل التعمق في تحليل طبيعة ومنشأ المكون الاستوائي في سقطرى. وقد قسمنا تلك المعلومات المنتقاة إلى عدة سلال تخص أهالي الجبال، وأهالي السواحل، والأفارقة، وأهالي الجبال والسواحل معاً، وسكان سقطرى إجمالاً.

واعتمدنا في الدراسة والبحث منهجية علم الأسنان المتبعة، يومَها، في روسيا (زوبوف، 1963 و 1968) والتي استخدمت طوال سنين في جمع المعلومات المتعلقة بجمهورية روسيا وباقي أرجاء الاتحاد السوفيتي آنذاك، وفي دول أجنبية أخرى، كالهند ومنغوليا والفيتنام وبيرو وإثيوبيا ومالي وفنلندة وبلغاريا وبولندة. وكانت النتيجة لا أقل من المواد المتوافرة في حينه عن مختلف المجموعات الإنثروبولوجية في العالم، ثم إن تشكيلة المواصفات المعتمدة في هذا الفصل لا تخرج عن إطار المعايير التي كانت متبعة في تلك الفترة (ولم تتغير كثيراً حتى اليوم) والتي وضعت لها تصنيفات علمية على مستوى تقسيمات البشرية وجماعاتها الأنثروبولوجية الكبرى والصغرى.

ولقد تناولنا في تحليلنا مجمل الإحداثيات المتعلقة بتركيبة الأسنان في تجويف الفم، وخصوصاً: شكل أسنان القضم، والمفرق بين القواطع العلوية الوسطى، وتحاشك الأسنان في موضع القاطع العلوي الجانبي (ومن ثم انحرافه إلى الجانبين أو إلى أحدهما)، شكل القواطع العليا الشبيه «بالمعول»، نتوء كارابيللي على الضرس العلوي الأول، انخفاض نتوء الضرس العلوي الثاني، عدد النتوءات ونوعية التقاء الأخاديد أو الحزوز بين نتوءات الضرس السفلي، القمة التاجية القصوى (الأبعد) لثلاثي التريغونيد trigonid ، الثنية المعوّجة للميتاكونيد، النتوء الإضافي الداخلي الأوسط ووضعية الأخدود الثاني للميتاكونيد في الضرس السفلي الأول، وكذلك شكل الأخدود الأول في الضرس العلوي الأول.

المقارنة الإجمالية بين المجموعات السكانية ساعدتنا في الحصول على فكرة عن التناسبات التصنيفية فيما بين الأنماط والنماذج الأنثروبولوجية موضوع البحث، وإنّ بالخطوط العريضة التي تخفف من الطابع المتنافر للفوارق بين بعض المؤشرات وتوافر إمكانية متابعة الاتجاهات الرئيسية في التوزيع المتنوع لرياح «الفونه» foehn الجبلية الحارة. وبناءً على نتائج التحليل المقارن للمجاميع التي درسناها في سقطرى، إلى جانب المعطيات المتعلقة بالمناطق المجاورة، والقائمة على منهجية متوسط التباعد التصنيفي فيما بين تلك المناطق، يمكننا أن نشير إلى الاستنتاجات التالية:

1. فيما يخص سكان سقطرى عموماً فهم من حيث إجمالي مؤشرات علم الأسنان، أقرب إلى النموذج الأوروبي والأقوام الفيدية - الدرافيدية في الهند، ويأتي الإثيوبيون الأحباش في المرتبة الثانية من هذه الناحية.

2. تبين سلال المعلومات الثلاث التي جمعناها في سقطرى بهذا الخصوص وجود

تشابه كبير فيما بينها، علماً أن التباعد التصنيفي فيما بين كل سلتين من تلك السلال الثلاث متساو، الأمر الذي يدل على درجة ومدى تجانس السكان و«تعادل» المواصفات الأنثروبولوجية للنموذج السقطري على الرغم من وجود صيغ موضعية متباينة، على أية حال، في داخل النموذج المذكور.

3. السكان الجبليون أكثر شبهاً، من حيث مجمل المؤشرات، بمجموعة القبائل الكتكارية الهندية الغربية المنتمية إلى العرق الفيدي - الدرافيدي، كما أن المجاميع السقطرية تشبه كثيراً الهندأوروبيين (البراهمانيين والبارسيين)، وعلى مسافة أبعد بعض الشيء يقف الأثيوبيون بفوارق طفيفة، فيما تختلف المجاميع ذات المكونات الشرقية الكبيرة، وكذلك سكان مالي الأفارقة، اختلافاً شديداً عن السقاطرة الجبليين.

4. سكان السواحل السقطرية يشبهون الأثيوبيين إلى أقصى حد، وفي المرتبة الثانية الهنود البارسيين والكتكاريين، أما البراهمانيون فيقفون على مسافة أبعد بكثير من المجموعة السقطرية التي نحن بصددها، مما يشير إلى هبوط نسبة النموذج الأوروبي الصرف في السواحل مقارنة بالمناطق الجبلية. إلا أن المكون الهندي الفيدي أو المكون الأفريقي، على الرغم من كثافتهما الكبيرة نسبياً على الساحل السقطري، لا يرقيان إلى المستوى الذي يصح فيه اعتبار السكان هنا من المجاميع الاستوائية، والدليل على ذلك هو التباعد التصنيفي الكبير بين سلة المعلومات المتعلقة بالساحل السقطري من جهة، وسلة المعلومات الخاصة بالسنتال والزنوج في مالي من الجهة الأخرى.

5. سلة المعلومات «الأفريقية» الخاصة بسيماء السقاطرة وملامحهم ليست أفريقية صرفاً بالطبع، صحيح أنها بالمقارنة مع السلتين السابقتين أقرب بعض الشيء إلى ملامح وتقاسيم أهالي مالي، إلا أن التباعد في هذه الحالة أيضاً كبير جداً، فالسقاطرة ذوو الملامح الأفريقية أقرب إلى الفيديين - الدرافيديين (الكتكاري والسنتال) في الهند. ونظراً للتقارب مع هؤلاء الأخيرين يبدو المكون الاستوائي لدى «الأفارقة السقطريين» أكبر بالفعل مما لدى السقاطرة الجبليين والساحليين، إلا أن التقاسيم والملامح الاستوائية لا تشير إلى انتماءات أكيدة وخصوصية إلى أفريقيا، والدليل على ذلك هو أن تباعد «السقطريين الأفارقة» عن الأحباش أكبر من تباعدهم عن سكان الساحل السقطري.

يبين تحليل معطيات علم الأسنان أن سكان سقطرى لا يمثلون محصلة لموجتين منفصلتين أو ثلاث موجات من النزوح إلى الجزيرة. فقد نشأ هذا الكيان السكاني في فترة

زمنية طويلة حصل خلالها تجانس متواصل رافقه توزيع متنوع لخصائص الأسنان يميز سكان هذه الجزيرة.

عموماً ينتشر في سقطرى تجمّع سكاني بملامح أوروبية جنوبية، وفيه مكون فيدي كثيف شبيه بنموذج القبائل الأصلية في غرب الهند، وبعبارة أخرى، مكون درافيدي أو فيدي - درافيدي، ذلك أن المجموعة الأنثروبولوجية الدرافيدية (أو الهندية الجنوبية) الصغرى تشغل على وجه التحديد مرتبة وسطاً بين المجموعة الفيدية ومجموعة البحر الأبيض المتوسط الهندية (روغينسكي وليفين، 1978). كما تُمكننا المعلومات الواردة في كتاب كارلتون كوون الآنف الذكر من الافتراض بأن تركيبة سكان حضرموت تقوم على ذات هذين المكونين: الأوروبي الجنوبي (الهندي تحديداً) والفيدي. وإذا صح هذا الافتراض نتوصل إلى استنتاج يفرض نفسه ويقول إن النموذج الأنثروبولوجي الفسلجي الأساسي الذي انطلق منه التجمع السكاني في سقطرى نابت الجذور دون ريب، في أرض جنوب الجزيرة العربية، وبديهي أن البرهنة على هذه الفرضية تتطلب توافر معطيات في علم الأسنان تغطي الجزيرة العربية برمتها.

وقد تدل الزيادة الموضعية بعض الشيء في كثافة المكون الاستوائي في سقطرى على توارد جينات من الخارج في عصور مختلفة، كما تفيد بعض خصائص تجويف الفم عند السقاطرة (مثل انتشار النتوء الإضافي الداخلي الأوسط في أسنانهم) بأنهم ربما تعرضوا لتأثير أفريقي، أثيوبي بالأساس، إلا أن استنتاجاً كهذا لابد أن يقابل بشيء من الحذر، فإن انتشار ظاهرة النتوء الإضافي الداخلي الأوسط في المناطق الجبلية من سقطرى قد لا يكون دليلاً على التبادل الوراثي في إطار الجزيرة فحسب، بل قد يأتي أيضاً شاهداً على وجود جينات النتوء المذكور في منطلق النموذج الأنثروبولوجي الفسلجي للسكان السقطريين (وللأسف تعيقنا عن التأكد من هذا الموضوع أيضاً شحة المعلومات المتعلقة بحضرموت). وقد تكون سقطرى، والجنوب العربي برمته، حلقة الوصل المفقودة في الخط الوراثي الذي يربط بين الشرق والغرب، ويبحث عنها علماء الأنثروبولوجي حينما يشيرون إلى انقطاع منطقة السلالة أو المجموعة البشرية الاستوائية، أي انفصام الأفارقة الزنوج (سكان أفريقيا السوداء) عن السلالة البشرية الأوسترالية الفيدية المالينيزية. وليس من قبيل الصدفة أن يأتي ذكر الجزيرة العربية في بحث ي. روغينسكي وم. ليفين على أنها المنطقة المحتملة لإنتشار هذا النموذج الأنثروبولوجي الوسطي البيني.

وعلى النطاق الجغرافي الأضيق نواجه مسألة البحث عن حلقة الوصل بين المجموعة أو السلالة الدرافيدية في الهند والسلالة الإثيوبية في أفريقيا، فالتشابه الذي لوحظ من زمان في هاتين المجموعتين يوحي بوجود خط وراثي متواصل فيما بينهما. ولما كانت المجموعة الدرافيدية حلقة وسطية بين المجموعة الفيدية والمجموعة الأوروبية الجنوبية (مجموعة البحر الأبيض المتوسط الهندية) فإن الحلقة التي تلي الدرافيدية باتجاه أفريقيا في الخط الوراثي المفترض ينبغي بحكم المنطق أن تتغير بعض الشيء لجهة المزيد من التشابه مع المجموعة الإثيوبية.

ولعل ذلك هو ما نتلمسه عندما نشير إلى وجود «خلطة أفريقية» في سقطرى إلى جانب المكونين الأوروبي الجنوبي والفيدي الهندي، ولربما نحن نجد هنا في الواقع ذلك «الجسر» الذي يربط بين المجموعتين الصغريين الدرافيدية والإثيوبية، ويتكون من مجمل الخواص المنطقية والمحتملة نظرياً، لكنها لم تكن معروفة على نطاق واسع لدى الإنثروبولوجيين، وبهذا «الجسر» تسد الثغرة بين الفرعين الغربي والشرقي للمجموعة أو السلالة الاستوائية الكبرى.

وإذا انطلقنا من هذا الموقف لا يبقى ثمة ما يدفعنا إلى ربط عناصر المكون «الأفريقي» للنموذج الفسلجي لسكان سقطرى بالهجرة الإضافية من أفريقيا، فتلك العناصر كان يمكن أن تشكل جزءاً لا يتجزأ من منطلق الرصيد الوراثي الذي يضرب جذوره في جنوب الجزيرة العربية. إلا أن تأويل الموضوع بهذه الشاكلة يتطلب الاعتراف بالوحدة الوراثية لكلا شطري المجموعة الاستوائية الكبرى (الشرقي والغربي)، وهو أمر لا يتبناه جميع الإنثروبولوجيين. فالباحث الروسي ألكسندر زوبوف، على سبيل المثال، يتمسك بوجهة نظر أخرى (زوبوف، 1968 و 1977) تقوم على مبدأ «الطرد المركزي» الذي صاغه عدد من العلماء ابتداءً من ف. فيدينريخ.

ووفقاً لوجهة النظر هذه يعتبر الأفارقة الزنوج والفرع الأسترالي الفيدي الماليزي من المجموعة أو السلالة الاستوائية ممثلين لجذعين أنثروبولوجيين كبيرين متباينين من الناحية الوراثية. وانطلاقاً من هذا الموقف يمكن اعتبار المنطقة التي تقع فيها سقطرى ليس حلقة وصل بينية في سلسلة واحدة، بل مجالاً للتواصل والاتصال بين أفارقة متنوعين وراثياً («غربيين» و«شرقيين»)، فيما يعتبر الكيان السكاني الذي نشأ هنا هجيناً أو ناتجاً لعملية تهجين واضحة. وفي هذه الحالة ينبغي اعتبار المكون الأفريقي في سقطرى نتيجة

لجينات وراثية وافدة من أفريقيا. ومن ثم يتوقف البت في مسألة هذا المكون على حل مسألة أكبر، هي الوحدة الوراثية أو التشابه والتقارب بين فرعي السلالة الأنثروبولوجية الاستوائية الكبرى. ومن جهة أخرى يمكن للمواد الخاصة بجزيرة سقطرى أن تساعد بقدر غير قليل في حل المشكلة النظرية الشاملة لأصل ومنشأ البشرية الأنثروبولوجي، وخصوصاً إذا أضيفت إلى تلك المواد المعطيات المتعلقة بالمناطق المتداخلة، وفي مقدمها شبه جزيرة العرب وبلاد الرافدين والصومال.

مدلولات بصمة الكف عند السقاطرة

النتائج الأولى لدراسة مدلولات بشرة اليد أو بصمة الكف عند سكان سقطرى، بالاستناد إلى المواد التي جمعناها أنا وزميلي فلاديمير شينكارينكو في الموسم الميداني لعام 1983 ثم جرى تحليلها التفصيلي في موسكو على يد الباحثة هنريتا هيت، ساقت الدليل على تعقد نشأة النموذج الأنثروبولوجي الفسلجي في الجزيرة (شينكارينكو وناومكين وهيت وزوبوف، 1984).

وبعد ذلك، خلال الدراسات الميدانية في العامين 1984 و 1985، جمع شينكارينكو وكاتب السطور معطيات جديدة شملت عدداً من السقاطرة يزيد ثلاث مرات عما سبق، فقد قمنا بفحوص إضافية لأهالي الساحل الشمالي والمنطقة الجبلية الشاسعة في الجزء الشرقي من الجزيرة. وبموازاة ذلك قمنا من هذه الناحية بدراسة سكان عبد الكوري، وكذلك زنوج سقطرى وعرب اليمن. ووفرت كل تلك المواد، ولأول مرة، إمكانية الحكم على التشكل المورفولوجي لبصمة الكف عند سكان منطقة شاسعة تندرج ضمن مجال نشوء الحضارات القديمة في جنوب الجزيرة العربية، وتقع على مقربة من أفريقيا مباشرة.

على أساس المعطيات الأولية قسمنا سكان سقطرى إلى سبع مجاميع إقليمية، الأمر الذي سهّل علينا متابعة جغرافية التبدلات الحاصلة في خصائص ومؤشرات بشرة اليد كلٍّ على حدة، وكذلك في مجمل تلك الخصائص والمؤشرات، في مختلف مناطق الجزيرة.

كانت المجاميع الرجالية التي تناولناها بالتحليل كالتالي:

سقطرى: 167 شخصاً من الساحل الشمالي، 70 شخصاً من المنطقة الوسطى (جبال حجهر)، 46 شخصاً من الساحل الجنوبي (نوجد)، 28 شخصاً من المنطقة الجبلية

الغربية، 25 شخصاً من الساحل الغربي، 78 شخصاً من المنطقة الجبلية الشرقية، 22 شخصاً من الساحل الشرقي. المجموع 436 شخصاً.

عبد الكوري: 20 شخصاً.

اليمن: 84 شخصاً من عرب الشمال وعدن وحضرموت.

وإضافة إلى ذلك استخدمنا لغرض المقارنة معلومات عن زنوج سقطرى (54 شخصاً)، بعضهم من أحفاد العبيد السابقين وبعضهم نزح حديثاً من غرب أفريقيا.

وقمنا بتحليل طبع الأصابع وبصمة الكف وفقاً لمنهجية كومينس وميدلو، فيما حددنا الخطوط المحورية للكعبرة على راحة الكف وفقاً لمخطط شارما (Cummins, Midlo, 1961. Sharma,1964). واستخدمنا في التحليل الأنثروبولوجي خمسة مؤشرات مفصلية أساسية، وحولنا المقادير المطلقة لتلك المؤشرات إلى النسب المئوية للمقياس الأوراسي لمتوسط أعداد الأقوام أو السلالات عن طريق طرح الحد الأدنى للمقياس من المقدار المعين وتقسيم الحاصل، مضروباً في100، على مدى قيمة الذروة . وانطلاقاً من المقادير أو الكميات المحولة إلى نسب رسمنا مجالات التبدلات وحسبنا التباعد العام لخطوط البصمة بوصفها المقدار المتوسط للفوارق في المؤشرات المفصلية الخمسة: مؤشر دال (دلتا)، ومؤشر كومينس، والخط المحوري الأقرب فيراحة الكف، وخطوط ضرة اليد (أليَة الإبهام)، والنسبة الإجمالية للخطوط الإضافية بين الأصابع.

وتم تحديد العلاقات بين السلالات والأقوام من حيث التباعد العام وفقاً لمنهجية التجميع الثنائي - التعددي الموزون.

ورغم الزيادة الكبيرة في المواد لم تتغير تقريباً المقادير الأساسية للمجموعة السقطرية الإجمالية، فهذه المجموعة المميزة للغاية تتضمن توليفة غير عادية من مؤشر دال المرتفع ومؤشر كومينس المنخفض ومستوى واطئاً جداً للخط المحوري الأقرب في راحة الكف ورسماً مكثفاً لألية الإبهام وكثرة الخطوط الإضافية بين الأصابع. وإلى ذلك لاحظنا عند السقاطرة قلة خطوط الهضاب الناتئة أسفل الأصابع، وكذلك قلة خطوط البارتنغ (0.9 %) وغياب الخط «سي» عند 8 % من الأشخاص الذين تمت دراستهم.

وتتجلى أصالة بصمة كف السقاطرة وتفردها، قبل كل شيء، في غيابهما عند أكبر المجاميع الأنثروبولوجية البشرية، فالطابع الهجين للكيان السكاني السقطري غني عن البيان، وغني عن البيان أيضاً شيوع المكون الأوروبي الجنوبي والآسيوي الغربي فيه. يتضح

ذلك من تحليل تركيبة خصائص البشرة ومن أبعاد المكون الأسترالي والمكون الاستوائي (الأفريقي). فمن حيث التباعد التعميمي لرسوم البشرة الذي يمثل معدل الفوارق بين الجماعات بصرف النظر عن أحجامها نجد السقاطرة أقرب الجميع إلى النموذج الأوروبي في غرب آسيا، كما يقفون أبعد بعض الشيء عن الهندأستراليين، وأبعد بمرتين عن سكان أفريقيا السوداء وعن زنوج سقطرى. كما أن السقاطرة الأصليين بعيدون عن أهل عبد الكوري بعدهم عن الإثيوبيين وزنوج سقطرى وسكان أفريقيا السوداء.

المكون الأسترالي في سيماء السقاطرة أشد وضوحاً مما عند أوروبيي آسيا الغربية، وأضعف مما عند الهنود. أما من حيث حجم المكون الاستوائي فالسقاطرة لا يختلفون في الواقع عن سكان غرب آسيا، لكنهم يختلفون كثيراً عن الأفارقة. وفيما يخص التناسب بين هذين المكونين فإن الطابع الأوسترالي عند السقاطرة يغلب على الطابع الأفريقي بعض الشيء.

واللافت للانتباه أن كلا المكونين أكثر تطوراً عند عرب اليمن وأهل عبد الكوري مما عند السقاطرة، إلا أن العرب يشبهون السقاطرة عموماً من حيث أبعاد مؤشرات البشرة ومواصفاتها (ما عدا الخط المحوري الأقرب الذي نصادفه في راحة الكف عند العرب أكثر)، ومن حيث مجموعها الإجمالي.

سكان جزيرة عبد الكوري على النقيض من سكان سقطرى، والفارق بينهم كبير جداً من حيث بعض مؤشرات البشرة ومن حيث مجموع تلك المؤشرات. ففيما يخص كلا المكونين والتناسب بينهما (المكون الأفريقي أكبر من المكون الأسترالي) نجد أهالي عبد الكوري يشبهون زنوج سقطرى. والأصح أن ننعتهم بالمجتمع المختلط الذي يضم، إلى جانب السواد الأعظم القائم على أساس زنجي، خليطاً ملحوظاً من الهندوأستراليين ومكوناً غير كبير من أوروبيي غرب آسيا.

يشكل زنوج سقطرى نموذجاً للجماعات المختلطة، فالسيماء الأفريقية الواضحة تقترن عندهم بخليط سقطري مخفف، إن صح التعبير، ولا يصعب تفسيره أو متابعة تجلياته في الانخفاض الشديد في الخط الأقرب على راحة الكف والتقلص الملحوظ في عدد الخطوط الإضافية على حدبات أسفل الأصابع، إلا أن تقاسيم الوجه المميزة تدل على أن هذه المجموعة من السكان من أصل هو الأقرب إلى زنوج أفريقيا من ناحية حجم المكون الاستوائي فيها.

التمايز الموضعي الإقليمي

ما مدى تجانس سكان سقطرى؟ المناطق السبع التي جمعنا فيها مواد البحث متباينة كثيراً من حيث مؤشرات البشرة ومواصفاتها، ومن حيث تركيبة تلك المؤشرات والمواصفات. كما يؤكد هذا التباين والاختلاف، في المنشأ وفي الأصول، تحليل الخط البياني لتوزيع أبعاد المواصفات فيما بين تلك المناطق. وهو خط يتخذ شكل قمتين. معدل تباعد المواصفات والمؤشرات في داخل المجموعة يبلغ 5.19، أي أعلى من المستوى بكثير. إلا أن متوسط الجذر التربيعي للانحراف لا يتجاوز المستوى المعياري (5.72)، كما يتباين كثيراً حجم المكونين الأسترالي والاستوائي (39 - 49 و 23 - 47 على التوالي).

ينتشر المكون الأسترالي في حده الأقصى على الساحل الشرقي (5.49) والساحل الشمالي (2.47)، وفي حده الأدنى على الساحل الجنوبي (9.38)، أما في باقي أجزاء الجزيرة فإن انتشاره متعادل في حدود تتراوح بين 41 و 44. ونذكر هنا أن نسبة هذا المكون عند أهل اليمن 51.6 وعند أهل عبد الكوري 5.54 ومن ثم تلاحظ أكبر كثافة للمكون الأسترالي، بين مكونات ملامح سكان المنطقة، في الساحلين الشرقي والشمالي من سقطرى، وكذلك في سائر أراضي اليمن، وخصوصا في جزيرة عبد الكوري.

ونجد اللوحة ذاتها تقريباً في توزيع المكون الاستوائي، فهو في أقصاه يتركز في الساحل الشمالي (3.47) والمنطقة الوسطى (9.39)، وفي أدناه بالساحل الجنوبي (9.22)، فيما يتراوح في باقي أرجاء الجزيرة، وبضمنها الساحل الشرقي، في حدودٍ أو أشرطة ضيقة جداً (31 - 32).

وعلى خلفية التنوع الواسع للمؤشرات يتجلى تجانس السقاطرة بخاصة من حيث بصمة آليَة الإبهام (4 - 10 %)، أي العنصر الأكثر تبدلاً وتنوعاً بين سائر المؤشرات والمواصفات في داخل الجماعة وفي داخل السلالة الأنثروبولوجية الكبرى. فإن معدل كثافة خطوط هذه البصمة عند السقاطرة واطئ تماماً قرابة 6 %، الأمر الذي يميزهم كثيراً عن أقوام وسلالات المنطقة الاستوائية التي تتسم تلك البصمة عندهم بكثافة خطوطها وتحاشكها. ولعل قلة كثافة هذا المؤشر من الأدلة على احتفاظ بشرة السقاطرة بخصائص وسمات سكان الجزيرة القدامى قبل أن يتعرضوا للمؤثرات الأفروأسترالية (شكل رقم 3 - 1).

ويكشف التوصيف التجميعي لأهالي سقطرى وأهالي عبد الكوري في المقام الأول عن

خصوصية الأخيرين وتفردهم المطلق من حيث التباعد العام بين مواصفات البشرة وكأنهم من جنس واحد. إلا أن سكان سقطرى أنفسهم ليسوا متجانسين، ويتميز بخصوصية كبيرة بينهم أهالي الجبال الغربية والشرقية المتشابهون كثيراً في الملامح وتقاسيم الوجه، لكنهم يختلفون عن باقي المجاميع بصفات وخصائص كبيرة جداً. ثم إن أهالي الساحلين الجنوبي والشرقي المتشابهين لدرجة متوسطة إنما يقفون أيضاً على تباعد كبير من المجاميع المتبقية، ومن بين هذه المجاميع سكان الساحل الشمالي والجبال الأخرى المتشابهون كثيراً فيما بينهم ، لدرجة تكاد تبلغ حد التشابه بين جبليي غرب الجزيرة وشرقها.



(شكل رقم 3 ـ 1)

وانطلاقا من تركيبة مجمل المؤشرات، أي من شكل الخطوط البيانية لتوزيع السكان ومن شجرة التوزيع، عمدنا إلى تصنيف السقاطرة موضوع البحث إلى ثلاثة مجاميع موضعية أو إقليمية كبيرة، واعتمدنا لهذا الغرض ترقيماً جديداً هو: سقطرى ـ 8 (الجبال الغربية والشرقية)، وسقطرى ـ 9 (الساحل الشمالي والجبال الوسطى) وسقطرى ـ 10 (السواحل الجنوبي والغربي والشرقي).

ولاحظنا أن الفوارق بين الأهالي في هذا التصنيف مميزة وذات دلالة، فسقاطرة الجبال الغربية والشرقية يمثلون صيغة مركزة جداً لأبناء الشرق الأوسط الشبيهين بالأوروبيين، وهي أقرب من حيث الملامح والتقاسيم إلى اليهود والفرس، ويتحلون بكبر حجم كل المؤشرات الأساسية، ما عدا الخط المحوري المنخفض لراحة اليد. أما سكان شمال ووسط سقطرى فهم أكثر شبهاً بقبائل الكتكاري (المقيمة في الساحل الغربي للهند والمصنفة على الأستراليين من حيث تقاسيم الوجه).

إلا أن سقاطرة هاتين البقعتين يتميزون بتقلص عدد خطوط وتجاعيد مؤشر دال (دلتا) على الأصابع (بتأثير أفريقي) وكذلك شحة بصمة أليَة الإبهام، ثم إن التباعد في تقاسيم البشرة بين مجموعتي سقطرى ـ 8 وسقطرى ـ 9 كبير للغاية (8.23). أما سقاطرة الشريط الساحلي في غرب وشرق الجزيرة وجنوبها فيمثلون حالة انتقالية بين المجموعتين السابقتين مع بعض الاقتراب من أهالي الجبال (التباعد بينهم وبين المجموعتين 7.16 و1.18 على التوالي).

فهل يدل ذلك على عدم وجود أي تشابه بين المجموعات الموضعية الثلاث لسكان سقطرى؟ كلا. ذلك أن القاسم المشترك بينها يتجلى في أشكال الخطوط البيانية لتوزيعها، كما يتجلى في نتائج المقارنة مع المجاميع والسلالات الأنثروبولوجية التي أسهمت في تكوين المجموعات السقطرية، وفيما يخص هذه النتائج لا يقتصر الأمر على المعيار الكمي للفوارق، بل يتعداه إلى الوجهة الكمية لتلك الفوارق.

ومما له دلالته أن المجموعات السقطرية الثلاث أقرب، من حيث إجمالي السمات والملامح والقسمات، إلى أوروبيي غربي آسيا، ومن بعدهم إلى أستراليي الهند، كما أنها تختلف إلى أقصى حد عن سكان أفريقيا السوداء. وهذا بحد ذاته يشير إلى وحدة الأساس التشكيلي المورفولوجي للسقاطرة وإلى تناسب وتناسق المكونات الفسلجية التي يمثل المكون الأوروبي أكبرها والمكون الأفريقي أصغرها. إلا أن السقاطرة ليسوا متجانسين لا من حيث التناسب بين هذه المكونات ولا من حيث الفارق الإجمالي عن المجاميع الأخرى، فسكان الشمال والوسط، على سبيل المثال، أقرب إلى المجاميع الإنثروبولوجية المقارنة، ومن ثم يشكلون الجزء الأكثر اختلاطاً وتنوعاً، من الناحية الأنثروبولوجية الفسلجية، من سكان الجزيرة.

واللافت للنظر أن هذه المجموعة من السقاطرة مرتبطة بعرب اليمن إلى أقصى حد،

فالتباعد العام يشكل 2.11، أي أدنى من المتوسط الذي يعتبر فارقاً ضئيلاً نسبياً. كما أن سقاطرة الجبال الغربية والشرقية أقرب إلى الأوروبيين من الأستراليين، إلا أن الحجم المطلق لكل الفوارق بينهم وبين الجميع كبير جداً، حتى إن الفوارق بينهم وبين عرب اليمن تعتبر كبيرة. إن اختلاف سقاطرة السواحل عن أستراليي الهند أكثر بعض الشيء من اختلافهم عن الأوروبيين، ولعل بالإمكان القول إنهم يبتعدون مسافة متساوية عن كلتا السلالتين، إلا أن اختلافهم عن الأفارقة أكبر من ذلك، كما أن هناك تباعداً كبيراً جداً بين ملامح سقاطرة السواحل وبين العرب.

لقد تناولنا حتى الآن الفارق العام الذي يجسده مدى التباعد في تقاسيم البشرة (راحة الكف والقدم) ويتوقف ظهوره على مجموع الأسباب المؤثرة، بما فيها التركيبة الأنثروبولوجية الفسلجية، إلا أن التمعن في نتائج البحث واستخلاص الاستنتاجات أمر يغدو أكثر سهولة باعتماد التوجه الكمي السلالي في تحليل الفوارق، وذلك يساعد في التركيز على دراسة التشعبات الناجمة كلياً عن الإختلاف وعن الفوارق في التركيبة المذكورة.

المجموعات السقطرية الثلاث بمجملها تقع في الجانب الأيسر من مخطط الترابط أو العلاقة المتبادلة مع أوروبيي غرب آسيا وعرب اليمن وأستراليي الهند. علماً أننا نجد عند أهالي الجبال الغربية والشرقية في سقطرى الحد الأدنى من المكون الأسترالي وأقل من هذا الحد من المكون الأفريقي. أما أهالي الساحل فالخليط الأسترالي عندهم أكثر من ذلك بعض الشيء، في حين أن الخليط الأفريقي أقل نسبياً مما عند الجبليين. لكننا نلاحظ زيادة في كلا هذين المكونين عند سكان الساحل الشمالي والجبال الوسطى، مع توازن في التناسب بينهما، الأمر الذي يبعدنا إلى أقصى حد عن نقطة الحساب الأوروبية.

السقاطرة عموماً على اقتراب كبير من ملامح وتقاسيم سكان آسيا الغربية بالمعدل، إلا أن المكون الاستوائي عندهم ملحوظ تماماً، أما الفوارق بينهم وبين الأوروبيين، فيما يخص المكون الاستوائي، فليست بادية للعيان تقريباً، فيما يتميز عرب اليمن بأكبر قدر من كلا المكونين بالمقارنة مع أية مجموعة سقطرية ومع السقاطرة عموماً (شكل رقم 3 – 2).

وعلى الجانب الأيمن من مخطط الترابط يوجد أهالي عبد الكوري الأقرب قليلاً إلى المكون الاستوائي من المكون الأسترالي، وكذلك سكان أفريقيا السوداء وأفارقة سقطرى. التقاسيم والملامح الاستوائية عند أفارقة سقطرى أقوى مما عند أهالي عبد الكوري وأضعف مما عند سكان أفريقيا السوداء. ونلاحظ أن المكون الأوروبي الجنوبي في ملامح

السقاطرة إجمالاً أقل وضوحاً مما عند سكان آسيا الغربية عموماً، واللافت للنظر أن أهالي المناطق الساحلية والجبلية أقرب، لأقصى حد (وبنفس القدر تقريباً)، إلى الأوروبيين، فيما يبدو هذا التوجه أضعف بكثير عند سقاطرة الشمال والوسط. أما أهالي عبد الكوري فيتميزون، إلى حد يثير الدهشة، عن كل المجاميع السقطرية بقلة شبههم بالأوروبيين وشدة شبههم بأفارقة سقطرة. في حين أن عرب اليمن أقرب الجميع إلى السقاطرة الشماليين، إلا أن التقاسيم الأوروبية لديهم ضعيفة على نحو ملحوظ .



(شكل رقم 3 - 2)

خلاصة القول أن سكان سقطرى الأصليين يتميزون ببصمة فريدة لبشرة راحة الكف ومدلولات خطوطها، وهم يمثلون جماعة بشرية مختلطة الأصول يعود الدور الأساسي في تركيبتها إلى التشابه مع تقاسيم وملامح المكون الأوروبي الجنوبي (البحر الأبيض المتوسط وغرب آسيا). والمكون الأنثروبولوجي الفسلجي الثاني من حيث الوزن النوعي في هذه التركيبة يرتبط بالأقوام ذات الملامح الأسترالية في الهند، وعلى صعيد المجاميع السقطرية المحلية أو الموضعية يبدو للعيان مكون ثالث ذو منشأ أفريقي.

التنوع الإقليمي الموضعي لتقاسيم وملامح السقاطرة كبير للغاية. ورغم ذلك ثمة أساس واحد مشترك للصيغ أو الفئات السقطرية الأساسية الثلاث التي تضم سبعة

مجاميع متباينة من السكان. ونعتقد أن الفوارق في الملامح والتقاسيم بين الفئات الثلاث تعود إلى اختلاف نسب أو مقادير المخاليط غير الأوروبية.

المكون الأوروبي الجنوبي في تقاسيم سقاطرة الشمال والجبال الوسطى ضعيف جداً، فيما المكون الأسترالي، وكذلك المكون الأفريقي على الخصوص، مرتفعان ارتفاعاً ملحوظاً مقارنة بالسقاطرة الأكثر شبهاً بسكان غرب آسيا. أهالي الشمال والجبال الوسطى هؤلاء يمثلون الصيغة أو الفئة الوحيدة التي يتوازن فيها كلا المكونين الأسترالي والأفريقي تقريباً، مع بروز طفيف للمكون الأسترالي. أما الفئتان الأخريان فيتجلى فيهما بمنتهى الوضوح تفوق التقاسيم الأسترالية على الأفريقية (شكل رقم 3 - 3).



(شكل رقم 3 - 3)

في الجبال الغربية والشرقية يقيم نمط من السقاطرة قريب، لأقصى حد، من سكان غرب آسيا الشبيهين بالأوروبيين الجنوبيين من حيث المكونين الأوروبي والأسترالي (فكلاهما قويان في ملامح هؤلاء السقاطرة)، إلا أنه يختلف عنهم بقلة المخاليط الأفريقية.

أما سقاطرة السواحل (ما عدا الساحل الشمالي) فالمكونان الأوروبي والأسترالي في ملامحهم أقوى مما في ملامح الجبليين، فيما يبدو المكون الأفريقي أضعف مما عند الأخيرين بكثير.

وبالمحصلة الأخيرة نجد الخليط السقطري الأسترالي الأفريقي ينتشر بمعظمه من الساحل الشمالي للجزيرة، فيما يتضاءل تأثير كلا هذين المكونين كلما ابتعدنا عنه (كما يتضاءل تأثير المكون الأسترالي أيضاً كلما ابتعدنا عن الساحل الشرقي)، إلى أن يصل هذا التأثير إلى حده الأدنى على الساحل الجنوبي لسقطرى.

سكان جزيرة عبد الكوري، الواقعة على مشارف سقطرى من جهة القارة الأفريقية، تعرضوا للتهجين قبل غيرهم فيما يبدو، فكانت النتيجة أنهم باتوا أكثر شبهاً بزنوج سقطرى من حيث محتوى المكون الأفريقي وبالسقاطرة ذوي الملامح الهندأسترالية من حيث نسبة المكون الأسترالي، ونقرأ في بصمة الكف عندهم أشد المؤثرات والمؤشرات الأفريقية، أما عرب اليمن فهم من حيث الملامح والتقاسيم أقرب إلى المجموعة الشمالية من السقاطرة.

الدراسات الأنثروبولوجية الأحفورية

في العام 1984 عثر المؤلف والدكتور فلاديمير شينكارينكو، أثناء العمل الميداني في سقطرى، على متحجرات أحفورية في مقبرة بمغارة قرب قرية شوعب (شُعب) وفي مقبرة بمغارة أخرى قرب قاضب. وقد أرسلنا تلك المواد، وبينها جمجمتان بدون الفك الأسفل، لغرض الدراسة والتحليل إلى المتحف الأنثروبولوجي والإثنوغرافي بمدينة سان بطرسبورغ في روسيا، وهناك قام يوري تشيستوف بدراستها.

لم تكن تحت يد العلماء آنذاك أية متحجرات أنثروبولوجية من جزيرة سقطرى على الرغم من كثرة معالمها الأثرية، بما في ذلك مدافن ومقابر شتى العصور. صحيح أن دوغلاس بوتينغ كتب عن متحجرات اكتشفت في مغارات بسقطرى وأرسلت إلى لندن، إلا أن نتائج دراستها لم تنشر. في حين يكتسب ظهور وتحليل المواد الخاصة بالجماجم السقطرية أهمية بالغة، دون ريب، بالنسبة لحل القضايا المتعلقة بأصل وانتشار القبائل المقيمة في الجزيرة نفسها وفي الجنوب العربي عموماً في مختلف العهود التاريخية، وكذلك بالنسبة لحل القضايا الأنثروبولوجية والإثنية لتلك القبائل وأواصر القربى فيما بينها.

وبحكم عدد من الظروف التاريخية والجغرافية والطبيعية باتت هذه المنطقة من سالف الزمان ملتقى لتفاعل شتى الحضارات الأثرية بشكل متواصل ومنتظم، كما غدت ساحة

لالتقاء أبناء مختلف السلالات الأنثروبولوجية. ولذا تكتسب المعطيات المتعلقة بالأحفوريات الأنثروبولوجية في سقطرى أهمية خصوصية، كالعادة، لدى تناول أكثر المسائل إثارة للجدل من الناحية الأثرية والتاريخية.

بالنسبة للجمجمتين السقطريتين وتحديد عمرهما أجرى ل. سولرجيتسكي تحليلاً كولاجينياً بروتينياً لهما في مختبر حساب العمر المطلق بمعهد الجيولوجيا لأكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي السابق.

وانتهى التحليل المكرر إلى نتيجة غير أكيدة فيما يخص العمر، والأرجح أن الجمجمتين تعودان إلى تخوم الألفين الأول والثاني للميلاد، إلا أن المعلومات الأخرى التي رافقت هذا التحليل ذات أهمية كبيرة لبحثنا.

الجمجمة رقم 1 (من المغارة الأولى في قرية قرب شوعب) تعود، على ما يبدو، لامرأة في سن تتراوح بين 30 و 40 عاماً. وهي عموماً جمجمة نحيلة ورشيقة، تتميز بصغر القطرين الطولاني والعرضاني للقحف وتعتبر متوسطة الطول. وبالنسبة للأبعاد القطرية الأساسية تبدو الجمجمة مرتفعة نسبياً وليست عريضة، والعظم الجبهي ضيق والعظم القذالي ضيق للغاية. ارتفاع عظام الوجه هو في الحدود الدنيا لمعدل الأحجام، والوجه نفسه ضيق، وقطر العظم الوجني صغير للغاية. ومن حيث المؤشر العلوي يبدو الوجه مرتفعاً بعض الشيء ومستقيماً من حيث النتوء الفكي ومن حيث زوايا هيكل الوجه، ومصفّحاً لدرجة كبيرة في سطحه الأفقي. كما أن محارة الأنف الدونية مرتفعة، ومحجري العينين واسعان متوسطا الارتفاع، والأنف منخفض وضيق ومتوسط الحجم، وزاوية نتوء الأنف كبيرة. ويلفت النظر في عظام الوجه النتوء الشديد في مغارز الأسنان العلوية.

الجمجمة رقم 2 (من المغارة الثانية في قرية قرب قاضب) لرجل متقدم في السن، القطران الطولاني والفوقاني متوسطا الحجم، إلا أن القطر العرضاني صغير جداً، ومن ثم نرى، من خلال المقاييس الأساسية للقحف، جمجمة ضيقة عالية وطويلة، العظم الجبهي فيها ضيق والعظم القذالي أضيق منه. الأبعاد الطولانية والعرضانية لعظام الوجه متوسطة الحجم، فيما يعتبر قطر العظم الوجني ما بين الحجم الصغير والصغير جداً. ومن حيث المؤشر العلوي يبدو الوجه مرتفعاً، ومستقيماً من حيث النتوء الفكي ومن حيث زاويتي صندوقه العظمي أو ركنيه المتوسط والعام.

ولابد من الإشارة كذلك إلى النتوء البالغ في مغارز الأسنان العلوية، ثم إن الوجه مصفح لدرجة كبيرة أيضاً في سطحه الأفقي، ولكنْ أقل مما في الجمجمة رقم 1. محارة الأنف الدونية مرتفعة، ومحجرا العينين واسعان متوسطا الارتفاع، والأنف ضيق وواطئ ونحيف.

التوصيفات الواردة أعلاه والأرقام التحليلية الأساسية الدقيقة التي لم نذكرها هنا، كيلا نثقل على القارئ، تسوق الدليل القاطع على أن الجمجمتين السقطريتين تنتميان إلى النموذج الأنثروبولوجي الأوروبي الجنوبي (البحر الأبيض المتوسط). ففيهما يتجلى بوضوح مجمل الخصائص الملازمة لممثلي هذه المجموعة البشرية الكبرى من حيث تركيبة عظام الجمجمة بشقيها: قحف الدماغ وهيكل الوجه.

وبهذا الخصوص نستحضر الفرضيات الأساسية المتعلقة بسبل استيطان السكان في الجنوب العربي، وفي جزيرة سقطرى، وتكوّن النموذج الفسلجي الإنثروبولوجي لسكان المنطقتين، ذلك لأن تاريخ الجزيرة العربية القديم هو الأكثر ارتباطاً بتاريخ سقطرى القديم، أو العكس.

بداية لا بد من الإشارة إلى أن جنوب شبه جزيرة العرب تم استيطانه في العصر الحجري القديم، الأمر الذي أكدته اكتشافات ومعثورات بعثتنا الروسية (راجع التفاصيل في الفصل الرابع). أما مسألة زمن استيطان جزيرة سقطرى فلا تزال تنتظر الحل النهائي. العالمان الأثريان الإنجليزيان برايان دو وب. بوكسهول اللذان زارا سقطرى في عام 1967 يعتقدان أن الإنسان استوطن الجزيرة في فترة متأخرة نسبياً، في عهود البحث المكثف عن مواطن استيراد البخور الذي كان من مستلزمات الحضارات القديمة في مصر الفراعنة وبلاد الرافدين. وكانت تلك في الوقت ذاته فترة نشوء الكيانات والدول في الجنوب العربي: السبئية والمعينية والقتبانية والحضرمية والحميرية. وقد قامت هذه الدول، أغلب الظن، على أساس القبائل السامية الأصيلة الأولى في الجنوب العربي وبمشاركة محتملة من المهاجرين الوافدين من الجزء الشمالي من شبه جزيرة العرب والمنطقة الفينيقية (الفلسطينية أو الكنعانية). لكننا نعتقد أن بعض سكان الجنوب العربي الأصليين تحاشوا الصدامات مع القبائل الشمالية الوافدة فلجؤوا إلى المناطق الوعرة في المهرة وظفار وجزيرة سقطرى.

إلا أن مسألة احتمال استيطان سقطرى قبل تلك العهود، وكذلك مسألة علاقات الجزيرة مع الدرافيديين وغيرهم من الأقوام والشعوب القديمة، تبقى مفتوحة، كما سبق

أن ذكرنا في هذا الفصل. وقد تطرق المؤلف في مواضع أخرى من الكتاب إلى تعرض سقطرى فيما بعد لتوسع الإغريق والرومان الأوائل. كما أقام في الجزيرة أهالي إثيوبيا، وعاش فيها بصفة عبيد أو مجندين أبناء أفريقيا الشرقية. ونزح أهالي المهرة إلى سقطرى أكثر من مرة في العصور الوسطى. كما رابطت فيها حامية برتغالية منذ القرن السادس عشر، وقد جئنا على ذكر ذلك في الفصل الثاني. كل هذه الملابسات لابد أن تكون قد أدت إلى تباين كبير في التركيبة السكانية الحالية في سقطرى.

واستناداً إلى المشاهدات الأولى، ووفقاً لنتائج المراقبة بأم العين، ذكر كاتب السطور في حينه أن بالإمكان تقسيم سكان سقطرى إلى ثلاثة نماذج أنثروبولوجية في أقل تقدير (ناومكين 1977). فيما أكد خبراء بعثة أوكسفورد، بعد دراسة حياة بدو سقطرى، أنهم يتميزون بقصر الرأس أو تسطح الجمجمة، ولديهم بنية بدنية صغيرة ومتينة وبشرة سمراء داكنة وشعر أجعد ولحى قصيرة غير كثة. وشدد هؤلاء الخبراء على اختلاف السقاطرة الكبير، من حيث اللغة والثقافة والمظهر الخارجي، عن معظم سكان جنوب الجزيرة العربية، وأشاروا إلى الشبه الواضح بينهم وبين سكان المهرة وظفار. كما أعرب الخبراء الإنجليز عن رأي يقول إن أهالي سقطرى الأصليين هم من بقايا «سلالة حام» (بن نوح) التي انتشرت في حينه على نطاق واسع في جنوب الجزيرة العربية، ثم أزاحها ذوو الرؤوس الطويلة الوافدون من الشمال، أي أبناء «سلالة سام» (Botting, 1958: 200 - 209).

وقد بين تحليل فصائل دم أهالي سقطرى أنهم على العموم يشبهون عرب اليابسة، وكشف عن تأثر غير كبير بأقوام شرق أفريقيا (Lister, 1966: 82 - 86). ووفقاً لمعطيات علم البشرة (بصمة اليد) تجتمع عند السقاطرة، كما أسلفنا، سمات النماذج البشرية التالية: الهندوأسترالي، الأوروبي الجنوبي، الاسيوي الغربي. وبالنسبة لسكان المناطق الجبلية الداخلية يكثر بينهم المكون الأوروبي الجنوبي، خلافاً لأهالي السهول والسواحل، ولا أثر لمؤثرات أفريقية هناك. أما معطيات علم الأسنان فتجعل من الممكن القول بأن سكان سقطرى يمثلون بمعظمهم فرعاً من «الشجرة الغربية» التي تضم، من حيث شكل الأسنان، الأوروبيين وسكان أفريقيا السوداء. أهالي الجبال يبدون، بالمقارنة مع خصائص الأسنان عند الجماعات الاستوائية في الهند وإثيوبيا، أقرب إلى النموذج الأوروبي الجنوبي الرشيق الذي نلاحظه عند الأقوام المقيمة في شمال غرب الهند، فيما تبدو أسنان سقاطرة

الساحل شبيهة جداً بخصائص تركيبة أسنان أهالي أثيوبيا وشرق أفريقيا.

غير أننا ينبغي أن نأخذ بالاعتبار أن استنتاجات زملائنا من معطيات علم مصل الدم وعلم البشرة وعلم الأسنان إنما هي استنتاجات أولية قائمة على المقارنة بالمعلومات القليلة، للأسف الشديد، المتوافرة حالياً لدى علم الأنثروبولوجي عن الأقوام المقيمة في المناطق المجاورة.

أما بخصوص علم الجماجم فإن معطياته الجزئية والشحيحة للغاية التي أمكننا اعتمادها في التحليل المقارن للجمجمتين السقطريتين الأحفوريتين تجعل كل الاعتبارات والتصورات المطروحة في هذا الفصل تمهيدية تتطلب المزيد من البحث والتدقيق. قلة العدد وغياب المعطيات المشخصنة بشأن تزامن توقيت مجاميع الجماجم العائدة لغرب آسيا وشبه الجزيرة العربية وشرق أفريقيا وشبه القارة الهندية يحولان في الواقع دون استخدام السبل المقننة لتقويم التشابه والتباعد بين الأقوام والسلالات القديمة في المنطقة.

وإلى جانب مواصفات هذا النوع من الجماجم العائدة لسكان سقطرى في القرون الوسطى، والذي يمكن توصيفه، كما أسلفنا، بالصيغة الرشيقة لجماجم السكان القدامى في منطقة البحر الأبيض المتوسط دون ريب، يطرح نفسه سؤال مهم عما إذا كانت سقطرى منطقة لتهجين قديم أو مصاهرة بين السلالتين الأوروبية والاستوائية. في العام 1951 افترض ديبيتس أن أقدم سكان جنوب وغرب آسيا ينتمون إلى المجموعة أو السلالة الاستوائية، فيما بدأ توغل العناصر ذات الملامح الأوروبية إلى هذه المنطقة اعتباراً من الألف الرابع قبل الميلاد أو في زمن أسبق.

ويعتقد ديبيتس أن آثار الطبقة الاستوائية (الأفريقية الأسترالية) القديمة بادية للعيان بوضوح في ملامح سكان الجنوب العربي المعاصرين. إلا أن مؤشرات كثيرة توافرت في الآونة الأخيرة، ومنها معطيات علم الأسنان، تسوق الدليل على عدم وجود حزام موحد للسلالات الاستوائية الأفريقية والآسيوية، وتؤكد وجود جذعين «غربي» (أوروبي - أفريقي) و«شرقي» (مغولي - اوسترالي) لتلك السلالات. ولذا ظهر رأي يقول إن أراضي غرب آسيا كانت في الماضي السحيق منطقة لتصاهر وتهجين المجاميع الإنثروبولوجية الأوروبية الأفريقية مع المجاميع الاستوائية في آسيا.

إلا أننا لا نجد في الجمجمتين السقطريتين اللتين في حوزتنا مؤشراً على أية تأثيرات استوائية، فهما لا تختلفان عن جماجم البحر الأبيض المتوسط القديمة التي اعتمدناها في التحليل المقارن إلا بالمزيد من النحول والرشاقة، وربما بسعة المحجرين وانخفاض الأنف بعض الشيء، على الرغم من أن سبب ذلك قد يعود إلى التبدل في داخل الجماعة أو السلالة. واللافت أن اختلاف الجمجمتين موضوع البحث عن جماجم المدافن القديمة في الهند والجماجم الحديثة العهد من شرق أفريقيا يسير بالاتجاه نفسه، فالجماجم المذكورة أضيق وأطول، وقطر العظم الوجني فيها أكبر، وهيكل الوجه أوطأ وأقل نتوءاً في سطحه الأفقي، والأنف أوسع ومحارته الدونية أوطأ.

وقد أجرينا حساب الفوارق النسبية بين الجمجمتين السقطريتين من جهة وبعض تلك الجماجم من جهة أخرى وفقاً لمعادلة هينكه واعتماداً على الأحجام والزوايا والمؤشرات العشرة لقحف الدماغ وهيكل عظام الوجه (الأقطار الطولاني والعرضاني والفوقاني والارتفاع العلوي للوجه والقطر الوجني ومؤشر الأنف والمؤشر المحجري ومؤشر الأعراض الظاهرية وزاوية الأضراس وزاوية الفك الأعلى).

واتضح من أحجام التباعد العام أن جمجمتي سقطرى، من حيث النمط أو النوع الأنثروبولوجي، أقرب إلى أهالي البحر الأبيض المتوسط في غرب أسيا، وكذلك المصريين القدامى، من ذوي الملامح الأوروبية في الهند الذين تصاهروا وتعرضوا للتهجين مع القبائل الدرافيدية القديمة أو من سكان شرق أفريقيا الحاليين.

ولعل من اللازم أن نكرر هنا مرة أخرى اننا بصدد أحد أبعد الأساليب عن الدقة في تقويم «معادلة التقارب والتباعد» أو التشابه والاختلاف بين النماذج الأنثروبولوجية، وبصدد تحليل تمهيدي بالكامل، لكنه الأسلوب الممكن الوحيد في الوضع الذي نحن فيه، حيث لا نمتلك سوى جمجمتين من سقطرى حتى الآن، وليس لدينا سوى معلومات مجتزأة ومنقوصة من المناطق المرتبطة بجنوب الجزيرة العربية. الأحكام الأكثر دقة ومصداقية عن أصل سكان سقطرى، والجنوب العربي عموماً، تتطلب بكل إلحاح مضاعفة الجهود في جمع المواد الإنثروبولوجية الأحفورية لمختلف العصور والدهور في هذه المنطقة المهمة.

بديهي أن الطرق والمنهجيات الوراثية الحديثة المعتمدة في الدراسات الإنثروبولوجية،

ومنها، على سبيل المثال، تحليل الحمض النووي، يمكن أن تلقي الضوء على المسائل التي لم نوفق في حلها بالطرق التقليدية التي كانت متوافرة لدينا في الثمانينيات ولا تزال حتى اليوم قيد الاستعمال على نطاق واسع.

الفصل الرابع

المواقع الأثرية

المواقع الأثرية

الحفريات التي بدأتها البعثة الأثرية الروسية في اليمن عام 1983، وتواصلها حتى كتابة هذه السطور، أسفرت خلال موسمَي العمل الميداني في 2008 و 2009 عن اكتشاف ملتقطات وآثار غير متوقعة وغير عادية إطلاقاً. فقد عثرت البعثة في جزيرة سقطرى على آثار تعود إلى أقدم عهد في التاريخ البشري، هو العصر الحجري المبكر المسمى بدهر الأولدوفاي (نسبة إلى كهف أولدوفاي في تنزانيا). هذا الدهر يوافق، فيما يخص قارة أفريقيا والشرق الأوسط، إطاراً زمنياً يقع ما بين مليونين وخمسمائة ألف عام ومليون وأربعمائة ألف عام قبل تاريخنا الحاضر. آثار مثل هذا الزمن السحيق نادراً ما يصادف العثور عليها خارج حدود أفريقيا، وهذا النوع من المواقع والأماكن الأثرية يعد على أصابع اليد. ولذا يعتبر اكتشاف منطقة جديدة لمستوطنات عصر الأولدوفاي أمراً بالغ الأهمية في علم آثار الإنسان القديم، ولابد أن يثير اكتشاف تلك الآثار والمعثورات والملتقطات في مواقع حفريات المتحجرات في جزيرة سقطرى بالذات اهتماماً علمياً خصوصياً.

نعيد إلى الأذهان أن أرخبيل سقطرى، من ناحية المناخ، ينسب إلى المنطقة الاستوائية الحارة الجافة، ومن ناحية التقسيمات النباتية يعتبر جزءاً من المنطقة الجبلية السهبية الأفريقية الشمالية الشرقية من مملكة النبات الاستوائية البليونتولوجية. فيما تنتشر في جزيرة سقطرى عناصر الكساء النباتي الملازم لمنطقة القرن الأفريقي الصومالية وما حولها، لكنها عناصر «مخففة» جداً، لكثرة ما في سقطرى من أنواع الأشجار والأحراش والأعشاب المستوطنة. أما من ناحية مملكة الحيوان الجغرافية فالجزيرة تنتسب إلى منطقة أفريقيا الشرقية المتفرعة عن المنطقة الحيوانية الإثيوبية الكبرى.

كما نعيد إلى الأذهان أن التاريخ الجيولوجي لجزيرة سقطرى هو جزء من العمليات الجيولوجية التي رافقت انشطار وانسلاخ أراضي جنوب أفريقيا والقرن الأفريقي بعدما كانت تشكل في السابق بقعة واحدة. فقبل 20 مليون عام على وجه التقريب تبدل النظام البحري في منطقة سقطرى إلى نظام قاري. ومن الناحية الجغرافية النباتية والبيولوجية كانت سقطرى في تلك الحقبة جزءاً من الأراضي المتلاحمة لمنطقة جنوب جزيرة العرب وشمال شرق أفريقيا. وقد أدى انفتاح خليج عدن وما رافقه من انحدار وهبوط قواطع كبرى من اليابسة قبل نحو 15 مليون عام إلى ابتعاد أرخبيل سقطرى عن رحاب اليابسة

القارية. وفي العصر الحديث القريب (البليوسيني)، قبل ما يقارب 6 - 8 ملايين عام، جرى انفصال جزر الأرخبيل نفسه بعضها عن بعض، فاكتسبت معالمها وأبعادها الراهنة. ومن ذلك الحين بدأت تنشأ في الجزيرة الشبكة الحالية للوديان الأساسية والوهاد التكتونية الصخرية الجرداء (Beydun & Bichon, 1970. المزيد في الفصل الأول من كتابنا).

وفي العصر الحديث الأقرب (البلستوسيني) لم تكن العمليات الجيولوجية والتذبذبات الطبيعية في الجزيرة واسعة النطاق، وأبرزها في تلك الحقبة تذبذب مناسيب البحر نتيجة للتبدلات الطبيعية والمناخية على سطح الكرة الأرضية. فقد لوحظت تجاوزات المناسيب لأعلى من مستوى سطح البحر الحالي في سقطرى بـ 10 – 15 أمتار خلال حقبة الذوبان في العصر الجليدي الموافق لمنتصف وأواخر العصر الحديث الأقرب. وتعود آخر تجاوزات فيوض المياه في العصر البلستوسيني إلى ما يقارب 30 ألف عام، وهي التي أنشأت في التضاريس الساحلية للجزيرة مدرجاً أو مستشرفاً بحرياً يبلغ ارتفاعه 5 - 7 أمتار (سفيتوتش 1982). ويصل ارتفاع أعلى المدرجات الساحلية المكونة عموماً من الترسبات الحصوية والصخرية التي يتخللها الكثير من المرجان ومحار الرخويات إلى قرابة 30 - 35 متراً فوق سطح البحر.

وفي أثناء الانحسارات البحرية اتسعت مساحة الجزر كثيراً، ففي تلك المرحلة التقت سقطرى وتلاصقت مع باقي جزر الأرخبيل، ما عدا جزيرة عبد الكوري، فتشكلت منها جميعاً يابسة واحدة. ويبقى السؤال مفتوحاً عما إذا كان قد نشأ في تلك الحقبة جسر أو ممر بري متواصل بين سقطرى وطرف القرن الأفريقي أم لا. لكن المعروف أن نطاق الانحسارت المائية الكبرى تجاوز المائة متر من حيث العمق مقارنةً بسطح البحر الحالي. وحتى لو لم تنشأ في تلك الفترات حلقة وصل يابسة تماماً بين الجزيرة والجزء القاري من أفريقيا فلا بد أن يظهر على سطح الماء في حدود الأرخبيل كثير من الجزائر الصغيرة والسلاسل الصخرية التي تفصل فيما بين المضاحل.

من ناحية التشكيل أو التركيبة الجيولوجية (الجيومورفولوجية) تقسم جزيرة سقطرى إلى ثلاث مناطق أساسية هي: السهل الساحلي الذي يحيط بالجزيرة من الجنوب بمعظمه وبشريط عرضه 8 كيلومترات تقريباً، والهضبة المكونة من مرتفعات تتراوح بين 300 و 900 متر، وجبال حجهر البالغة قمتها 1525 متراً والممتدة في اتجاهٍ أقرب إلى خط العرض عبر الجزء الشرقي من الجزيرة.

انتشار ترسبات الدهر الرابع في سقطرى محدود، فهي تتخذ شكل غلاف رقيق نسبياً من أنواع التربة الأقرب إلى الحمراء يغطي الخط الساحلي للجزيرة وبعض بقاع الهضبة. وعلى الساحل الشمالي، وخصوصاً في جزئه الأوسط ما بين مدينة حديبو ورأس حولف (حولاف)، ثمة أجزاء حُبيبية من السهل البحري العريض تتكون من الترسبات الحصوية الصخرية الآنفة الذكر وتنحدر من السفوح الصخرية لأسفل الهضبة نحو الساحل. وهي لا تشكل مدرجات واضحة المعالم. وقد سبق أن ذكرنا الارتفاع الأقصى لتلك الترسبات عن سطح البحر. أما مستوى خط انحناء أسفل الهضبة، الخالي تقريباً من الترسبات الحبيبية، على السهل الساحلي فيشكل قرابة 40 - 45 متراً فوق سطح البحر.

في هذا القاطع من الساحل تخترق الترسبات المذكورة أعلاه وديان كبيرة نسبياً هي وادي حجرة شرقي بلدة السوق، ووادي دنجهن غربيها، ووادي الطرف الشرقي لمدينة حديبو. وفي التعرية الطبيعية لحواف هذه الوديان لا يتجاوز السمك الأقصى لترسبات الدهر الرابع الحصوية الصخرية المتكلسة 4 أمتار. أما القاع في أعالي وديان القسم الأوسط من الجزيرة وفي المنتصف منها فهو مغطى، على امتداد عرضه، بالحصى والصخور الجرداء، ولم نتمكن من العثور في هذا النوع من الوديان حتى على أصغر القطاعات الحاوية للتربة المفتتة.

ولا نستطيع أن نحدد على وجه الدقة الفترة التي بدأ فيها استيطان الجزيرة بشكل مطرد، لكنّ نتائج حفرياتنا التي لا تزال غير واسعة، وتحتاج إلى مواصلة، إنما تمكّننا، كما سنبين أدناه، من القول إن استيطان سقطرى كان يمكن أن يتم في النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد، أو أنه تم بعد هذا التاريخ. إلا أننا نجد إشارات إلى فكرة الاستيطان المبكر التي تستند إلى ورود ذكر سقطرى في مصنفات الأولين من المؤرخين اليونانيين. أما استيطان الجزيرة في العصر الحجري فهو مسألة لم تطرح أصلاً لأسباب غنية عن البيان. وإذا كان بالإمكان، نظرياً على الأقل، الافتراض بوصول أناس إلى هنا بالصدفة على مراكب بدائية في العصر الحجري الحديث، أي قبل 5 - 8 آلاف سنة، فإن الكلام عن سكنى الجزيرة واستيطانها في وقت قبل ذلك التاريخ قد يبدو مجافياً للمنطق.

ولذا كان من المدهش والمثير حقاً أن نعثر في سقطرى فجأة على آثار حضارة تعود إلى مرحلة مبكرة في فجر العصر الحجري القديم. ففي العام 1985 عثر المؤلف، مع إلكسندر سيدوف، لأول مرة على أدوات مصنوعة من الصلصال في قرية راكف، ثم في أكتوبر 2008

عثر فاليري جوكوف، الصحفي المرافق لبعثتنا الأثرية الاستكشافية في سقطرى، على أدوات صلصالية في عدة مواضع شرقي وغربي حديبو، لكننا لم نجد روابط وأسانيد لتشخيصها من حيث علم الطبقات الجيولوجية ولا من حيث التركيبة المورفولوجية العضوية، بل لم نجد الإطار أو السياق الأثري الذي ترتبط به.



(شكل رقم 4 ـ 1)



(شكل رقم 4 ـ 2)

وتبادرت إلى الذهن أسئلة بخصوص عائدية هذه الأدوات من حيث توزيعها التاكسونومي. كما لم يكن الأمر واضحاً فيما يخص المؤشرات الفنية التقنية والطبوغرافية النوعية لصناعة هذه الأدوات الحجرية، لكن المصنوعات الحجرية نفسها كانت بين أيدينا وقد جمعناها من مواقع مختلفة. وإذا تركنا جانباً الأسئلة والشكوك الكثيرة التي خطرت في بالنا، تبقى عائدية تلك الحاجيات إلى إحدى الفترات المبكرة في فجر العصر الحجري القديم مسألة واردة.

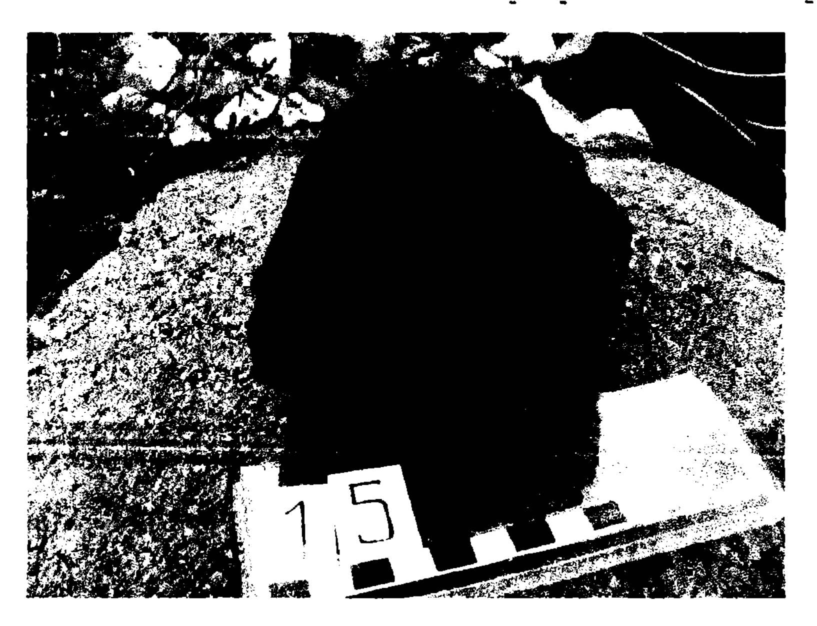
وبهدف إيجاد حل لهذه التساؤلات ومواصلة الدراسات المتعلقة باكتشاف المواد والأدوات المذكورة، تم تنظيم رحلة خصوصية من موسكو إلى سقطرى قمت بها أنا برفقة خزري أميرخانوف في فبراير 2009، ولضيق الوقت وقلة الاعتمادات المالية قررنا التركيز على سهل حديبو المتاخم للساحل الشمالي من الجزيرة، كما قمنا بجولات استطلاعية إلى مدينة قلنسية وإلى الهضبة وإلى وادي دعرهو، في القسم الأوسط من الجزيرة جنوبي جبال حجهر.

كانت الثمرة الأساسية للأعمال الجديدة فيما يخص البحث عن المواد الأثرية هي التأكد من وجود بقايا ومخلفات العشرات، بل المئات، أغلب الظن، من المستوطنات المنتشرة أساساً في ثغور الوديان الثلاثة في السهل المذكور (وادي حجرة ووادي دنجهن ووادي حديبو). وتبدو مخلفات هذه المستوطنات على الخريطة بشكل «بقع» لركام أدوات حجرية منتشرة على سطح الأرض، وهي عبارة عن مجموعات من أدوات متماثلة ومحددة الأبعاد والأحجام تغلب عليها الفؤوس والسواطير الصوانية الحادة إلى جانب الرماح والمزاريق (شكل 4 - 3) .

وفي بعض الحالات تتوافق هذه التراكمات مع مرصوفات وأساسات دائرية من أحجار وصخور كبيرة، وهذه المرصوفات محفوظة بدرجات متفاوتة من الصيانة، بمعنى أن الزمن أثّر في بعضها ولم يؤثّر كثيراً في بعضها الآخر. وهي على نوعين: النوع الأول بقطر 3 أمتار تقريباً، والنوع الثاني بشكل دائري كما لو كانت أساسات لمنزل. وليس بالإمكان التدليل على صلة هذه المرصوفات والأساسات بتراكمات المصنوعات الحجرية عن طرق المنهجية المستخدمة في علم الطبقات الجيولوجية، إلا أننا نعتقد بوجود صلة، من حيث الوسط أو السياق ومن حيث التخطيط المكاني، بين هذين الصنفين من الآثار المكتشفة.

الكثير جداً من الآثار الحجرية التي عثرنا عليها يتركز في البقاع بين وادي حجرة ووادي

دنجهن. علماً أنه لا توجد أية أدوات حجرية كالتي نحن بصددها بين أقدم آثار الحفريات المعروفة في سقطرى حتى الآن (قرى الفترة المبكرة من القرون الوسطى) والواقعة على مسافة كيلومتر أو كيلومترين عن المنطقة التي درسناها، كما لم نعثر على مثل تلك الأدوات في أي محيط أو سياق آخر في باقي مناطق الجزيرة.



(شكل رقم 4 ـ 3)

ولا يجوز بالطبع انتقاء الأشياء والحاجيات البارزة من مجموعة الآثار هذه بدون منهجية علمية، ولمجرد كونها أكثر ملاءمة للخروج ببعض الاستنتاجات. فإن أي انتقاء من هذا النوع لا يقودنا إلا إلى الإخلال بسياق تلك الحاجيات والأشياء وتفكيكه؛ ولذا قررنا أن نركز على مراقبة طبيعة تلك الآثار (من دون انتزاعها) ومتابعة انتشارها على مساحة بضعة هكتارات، إلى جانب الدراسة الأكثر تفصيلاً لأحد التراكمات بوصفه نموذجاً لأوسعها انتشاراً.

من الناحية الجيومورفولوجية يمثل القطاع الذي درسناه خطَّ انحناءٍ متدرجاً للسهل المنحدر من الهضبة نحو ساحل البحر. فمستوى الارتفاع المطلق هنا 30 متراً، والترسبات الحبيبية غير السميكة تتكون من تربة طينية حمراء يتخللها الكثير من الصخور والحصى والحصباء، وفي تشكيلة مواد التربة هناك كثير من حطام المرجان، كما نصادف هشيم محار الرخويات البحرية.

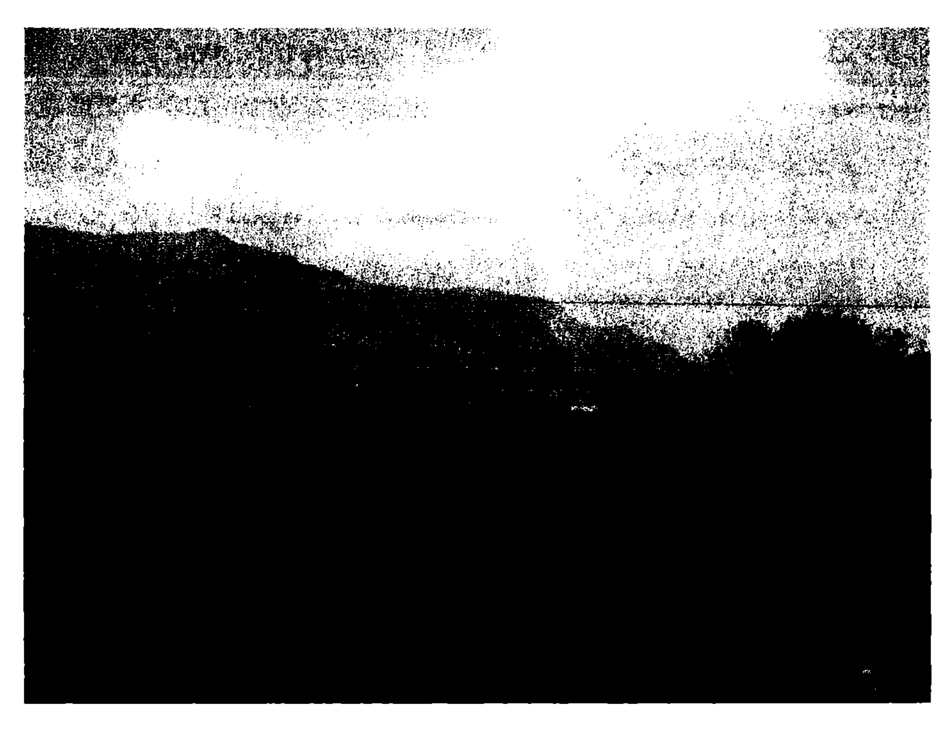
النقطة التي اخترناها للدراسة والتنقيب، وأطلقنا عليها اسم «وادي حجرة - 1»، تقع على الضفة اليسرى للوادي المذكور، على مسافة كيلومتر تقريباً من قرية السوق، والبقعة التي جمعنا فيها مواد البحث عبارة عن مستطيل بمساحة 6 × 12 متراً. وقد عثرنا في سطح القاع على 26 قطعة حجرية، بينها مدقّ وشطائر وشظايا وحطام وهشيم وكسر. أما الأدوات المعمولة فبينها فؤوس وسواطير، وهي على أربعة أنواع، وكذلك المزراق، ولم نلاحظ عليها فوارق من حيث الاستخدام في المدافن (شكل رقم 4 - 5).



(شكل رقم 4 ـ 4)

لم يعط المجس التنقيبي الذي حفرناه بمساحة 2 × 2 متر في حدود الحواجز الحجرية المستديرة التي ارتسمت أبعادها هناك نتائج تستحق الذكر. وتأكد لنا أن سمك ترسبات الحبيبات الترابية لا يتجاوز 35 سنتمتراً، وعثرنا على بعض الحاجيات بهيئة أحجار مكسرة عمداً على عمق لا يتجاوز 10 سنتمترات، وعددها إجمالاً 8 قطع، وهي عبارة عن شطائر وكسر حشفية وشظايا من الحصى، ولم يكن بينها سوى حاجة واحدة من فئة الأدوات، هي مقشط من كسرة حصوية ثقيلة.

إلى جانب جمع المواد في نقطة وادي حجرة ـ 1 أخذنا عينات محدودة من الحاجيات المكتشفة، النموذجية من حيث الخامات الأولية المستخدمة فيها ومن حيث المواصفات



(شكل رقم 4 ـ 5)

بديهي أن هذا التواجد الكثيف للمخلفات الأثرية في المنطقة التي درسناها لم يكن من بنات الصدفة. فليس من السهل العثور على موقع آخر في سقطرى يجتمع فيه هذا القدر من العوامل المؤاتية لتوفير مستلزمات الحياة. فهنا كثير من الخامات الصالحة لصنع الأدوات الحجرية (الصلصال الصوّاني)، ومجاري ومصادر المياه الجوفية القريبة إلى السطح، والموارد الغذائية البحرية والبرية، وتقارب أحزمة التضاريس الأرضية المتنوعة.

في القاطع الزمني الذي تنتسب إليه المستوطنات موضوع البحث ساعدت العوامل الآنفة الذكر السكان آنذاك على الاستثمار بهمة ونشاط واستصلاح الجزء الذي درسناه من جزيرة سقطرى. إلا أن المسألة الأكثر إثارة هي التأريخ لتلك المخلفات الأثرية وتحديد أعمارها، ففي الأحوال والظروف العادية يصادف أن يكون حل هذه المسألة متعذراً لعدم توافر المعطيات والمعلومات المباشرة، أو أن تعترض ذلك الحل إشكالات معينة. أما الحالة التي نحن بصددها فتمثل معادلة غير معقدة من عنصرين معروفين، فنحن نعرف من أين يمكن أن يأتي هذا النوع من الحضارات إلى الجزيرة، ومن أي مكان ليس بوسعه أن يأتي إليها بأي حال من الأحوال: أرض المنشأ ونقطة الانطلاق هي شمال شرقي أفريقيا وليس

أي بقعة أخرى. هذا ما يستنتج من معطيات التاريخ الجيولوجي للمنطقة، وهو ما سبق أن تطرقنا إليه.

أما بخصوص المواصفات التقنية الطبولوجية للنمط الحضاري الذي تمثله المكتشفات الجديدة فهي تقول إن هذه الحضارة يمكن أن تكون قد وصلت إلى هنا من بلد المنشأ في فترة أقصاها، على وجه التقريب، مليون وأربعمائة ألف عام من الآن. في تلك الحقبة حل الدهر المسمى بالعصر الأشولي (نسبة إلى موقع سان أشيل بفرنسا)، في جميع أرجاء شمال شرق أفريقيا وفي الشرق الأوسط، محل الطور الأول المبكر في التصنيف الجيولوجي لمراحل التاريخ والمسمى بعصر «الأولدوفاي». ولم تتكرر ملامح ذلك العصر فيما بعد أبداً. فقد ظهرت تشكيلة جديدة من أدوات الحضارة الوليدة بأنواع واضحة المعالم وقابلة للتشخيص كأدوات ملازمة للعصر الأشولي، لكننا لم نعثر بين آثار سقطرى على أدوات من هذا العصر.

وإذا كانت مسألة توقيت ظهور الحضارة التي نحن بصدد دراستها في سقطرى والتاريخ الذي ما كان لها أن تظهر بعده قابلة للحل فإننا لا نجد جواباً على السؤال الآخر حول طول الفترة التي كان بوسع هذه الحضارة أن تقضيها هنا، في التربة أو البيئة الجديدة. فلا توجد بالنسبة لأراضي سقطرى معلومات عن مراحل العصر الحجري الأخرى التي أعقبت «الأولدوفاي»، مثل الحضارة الأشولية والحضارة الموستيرية (نسبة إلى كهف موستيه بجنوب فرنسا) أو العصر الحجري الأوسط والعصر الحجري المتأخر وما إلى ذلك.

ولا يعني ذلك أن الحضارة السقطرية كان يمكن ألا تصمد لبعض الوقت في وجه الهزات في عصرها، إلا أن تلك الحضارة، في ظل شحة موارد المنطقة الاستوائية الجافة الحارة دوماً. وفي ظل العزلة والانزواء عن العالم الخارجي ومحدودية الأراضي . من المستبعد أن تكون قادرة، من خلال الأشكال البدائية لمستلزمات حياتها، على تأمين العيش للناس هنا على امتداد عشرات أو مئات الآلاف من السنين. ويتذكر السقاطرة كثيراً من الأمثلة على هلاك قسم كبير جداً من السكان دفعة واحدة بسبب المجاعة والأوبئة في ظروف اقتصاد قائم على إنتاج الأغذية وحدها حتى في القرن العشرين الذي تميز في جزيرة سقطرى بالوفرة والرخاء نسبياً.

ولذا يمكن القول إن سقطرى لم تبرر توصيفها «بجزيرة النعيم» بالنسبة لسكانها الأوائل في فجر العصر الحجري القديم المسمى بدهر «الأولدوفاي». فالمخلفات الأثرية

التي درسناها تسوق الدليل على درامية عالم كان محاصراً ومنزوياً في هذه الجزيرة التي باتت يومها آخر ملجأ لفرع من أقدم فروع النوع البشري في بداية طريق انتشاره على وجه البسيطة من بلد المنشأ في شرق أفريقيا.

بدء الحفريات الأثرية في سقطرى

بصرف النظر عن أول وصف واسع، وبالخطوط العريضة، لجزيرة سقطرى كان قد أعده اللفتينانت جيمس ويلستد في العام 1835 (Wellsted, 1835)، فإن الحفريات والتنقيبات الفعلية والدراسات الأثرية المعمقة بدأت في الجزيرة لأول مرة في العام 1897 على يد الرحالة الإيطالي جيمس ثيودور بونت الذي كتب كما أسلفنا عن وجود آثار قديمة هناك (Bent, 1900). ويأتي بعده بفارق زمني كبير نسبياً، بيتر لويس شيني الذي شارك في بعثة أوكسفورد عام 1956 وسبقت الإشارة إليه في الفصل الثاني من الكتاب. ثم قدم أكبر إسهام في دراسة المواقع الأثرية في سقطرى برايان دو الذي زار الجزيرة عام 1967 وأعد خريطة تفصيلية لمواقعها الأثرية (راجع خريطة المواقع الأثرية حسب برايان دو في الشكل رقم 4 - 6).

كان بيتر شيني قد توصل إلى استنتاج مفاده «أن نتائج الدراسات في سقطرى لم تبرر الأمل بإمكان العثور على آثار يونانية أو رومانية كلاسيكية. ومع عدم استبعاد العثور عليها خلال التنقيبات اللاحقة فإن من الواضح أن ذلك سيتم ليس على الصخور الكلسية الجرداء التي لا تترسب عليها التربة ولا تستقر إطلاقاً. ومن المحتمل جداً أن يكون مكوث التجار القدامى الذين استقى منهم مؤلف «رحلة البحار» معلوماته قصيراً في الجزيرة. ونحن نفترض أن هؤلاء التجار المبكرين كانوا يصلون إلى سقطرى في فترات نادرة، شأن معاصريهم التجار القادمين من جنوب أفريقيا والهند، ولبضعة أيام يسحبون خلالها سفنهم إلى الشاطئ ويتزودون بالمؤن وماء الشرب ثم يواصلون إبحارهم إلى الهند أو البحر الأحمر، دون أن يتركوا في الجزيرة شيئاً أغلب الظن» (Shinnie, 1960: 108).

إلا أننا اليوم نعرف، للأسف الشديد، أن بعثة أوكسفورد مرت مرور الكرام ولم تلاحظ أهم المواقع الأثرية في سقطرى، وعذرها أن بيتر شيني كان في الواقع أول باحث رائد في الدراسات الأثرية الأركيولوجية للجزيرة. وقد أبدت البعثة المذكورة اهتماماً خصوصياً

ببقايا الكنائس والمنشآت التحصينية والمباني السكنية، ودرست تفصيلاً في هذا الإطار حصناً في وادي فرحة (فراجي) كتب عنه شيني يقول: «هذا الحصن الواقع في أضيق جزء من الوادي والممتد من هناك إلى الساحل قد لاحظه بونت (جاء ثيودور بونت على ذكره دون أن يقدم وصفاً تفصيلياً له أو صوراً توضيحية).

الحصن يقع في الجزء الغربي من الوادي قرب الحوض. ويبدو أن الحوض جرى توسيعه وتعميقه، فبات يشبه خندقاً للمياه يحمي الجدار الأمامي فقط للحصن المشيد من الجرانيت الأحمر على صخرة جبلية... جداره الأمامي الرئيسي مبني من صخور كبيرة، أما الجدران الباقية فمن كتل مقطّعة لا تشبه نمط المباني المحلية ذات الأركان المرصوفة بعناية. القسم الخلفي من الحصن تعرض للتدمير والتلف بعد أن نصبت فيه سقائف للماعز واخترقته أطراف الحقول.

حصن وادي فرحة مثلث الشكل، وله برجان على طرفي جداره الأمامي الذي هو مجرد وسيلة صد وتعويق، كونه لا يرتفع كثيراً عن مستوى الأرضية في داخل الحصن نفسه». وفي باحته الوسطى بئر، وعلى امتداد أحد جوانب الحصن بقايا عدد من المباني. «ولا تتوافر أية معلومات يمكن أن تدل على زمن تشييد الحصن، فلم يعثر على سيراميك أو خزف أو أية مواد أخرى لا في الحصن ولا حواليه. وتصور الباحثون الذين سبقونا أن البرتغاليين هم الذين بنوا الحصن، إلا انني لم أعثر على شيء يثبت هذه الفرضية. وأعتقد أن الاحتمال المعقول أكثر هو أن عرب المهرة هم الذين بنوه من أجل السيطرة على بدو سقطرى، ولعل ذلك حصل في القرن السادس عشر عندما استعاد المهريون سيطرتهم على الجزيرة في أعقاب خروج البرتغاليين منها» (Shinnie, 1960: 107).

ويقول شيني إن الطبيب ن. أور صادف، وهو يتجول في الجبال ليأخذ عينات من دم البدو للتحليل، عدداً من البيوت ذكر السكان أنها «قديمة» وسموها ببيوت الفرنجة. ويضيف الطبيب، حسب شيني، ما يلي:

1. البيت المطل على كيشن حجري من الطوب فيه غرف وحجرات واسعة جداً، الحجرة الرئيسية مستديرة يتراوح قطرها ما بين أربعة أمتار ونصف إلى ستة أمتار، والجدران من أحجار مثبتة بالإسمنت. وعلى أربعة أعمدة إسطوانية من أحجار مثبتة بملاط الإسمنت من دون عناية تمتد عوارض جذوع الأقاصيا من عمود إلى آخر ومنه إلى الجدار، ويقوم عليها سقف من الحجر والتراب سمكه 60 - 90 سنتمتراً.

2. في مهادوم، جنوب غربي جبال حجهر، عدة منازل «إفرنجية» بجدران حجرية مطلية بالملاط وأفنية مبلطة.

3. على التلة الكلسية قرب زريح (ربما ضريح) منزل «إفرنجي» قديم. الأرضية من حجر الكلس الطبيعي والجدران مزدوجة مرصوفة جيداً، والباحة الوحيدة داخل المنزل واسعة، طولها 9 أمتار. وفي المنزل ثلاث حجرات إحداها شبه معتمة، وقد نبت فيها العشب، ووراءها باحتان أخريان على مستويين مختلفين، وقد تعرضتا للدمار، وفي إحداهما أكوام حجارة.

4. عدة بيوت قديمة في عدهين وعلى سفح جبل شلالة، معظمها ملحقة بالأسوار الحامية للحقل الصغير... وهناك أعمدة الحجارة في الحقل وقرب البيوت المختلفة الأحجام، أحد البيوت طوله 9 أمتار وعرضه 6.3 متراً. منازل البدو الحالية ذات عوارض خشبية، أما سطوح البيوت القديمة فتقوم على كتل حجرية مستوية ضخمة (طول بعضها 8.1 متراً) يستقر طرفها على العمود الأوسط ويتجه طرفها الآخر نحو الجدران على الجانبين. والجدران في بعض البيوت مائلة للقاء طرف تلك الكتل، والأحجار تبرز إلى الأمام الواحد فوق الآخر في محاولة بدائية لبناء الطيقان، وعلى امتداد الجدران دكّات ترتفع فوق الأرضية. الأبواب في الغالب مسدودة بجدران حجرية غير سميكة. وتتصل بالبيت زريبة صغيرة للكلاب باتت تستخدم الآن للأبقار.

5. على التلة المعشوشبة المطلة على وادي مولسة في أسفل جبل شلالة مدرج من الأسوار الواطئة والحقول والجدران التي تشكل في الغالب حواجز منخفضة للحماية. وهناك مستوطنة من منزلين، ولم يبق من البناية المستطيلة (8.10 × 6.3 أمتار) سوى شريط من الحجارة يقسمها من الوسط إلى نصفين، أحدهما على هيئة زاوية قائمة ضلعها العمودي ضعف ضلعها الأفقي.

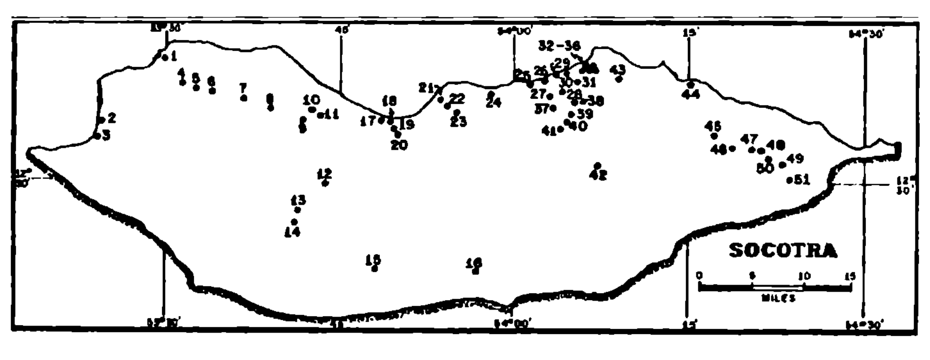
وعلى بعد 10 أمتار بناية مماثلة (18 × 6.3 متر) مقسمة إلى خانات مربعة.

وعلى مسافة خمسين متراً تقريباً أنقاض ثلاث بنايات مستطيلة بجدران حجرية مزدوجة ومطلية بالملاط. في إحداها موقد مرتّب، عند جدار غير مألوف من حيث الحجم، مع مدخنة موجهة إلى الخارج، وارتفاع الجدار لا يتجاوز المتر والنصف، وهو في حالة جيدة ومرصوف بعناية. أبعاد اثنتين من البنايات 9 × 6.3 أمتار، أما البناية الثالثة فهي بقياس 7.2 × 7.2 متراً (Shinnie, 1960: 109 - 106).

ولابد أن يكون برايان دو قد اعتمد، أثناء دراساته في جزيرة سقطرى، على معلومات بيتر شيني، إلا أن أهم ما أفلح في إنجازه، ويستحق منا كل التقدير، هو تسجيل وتوصيف جميع المواقع التي راَها على الرغم من قلة الآثار العينية المكتشفة فيها. ولقد اكتفى برايان دو بدراسة استطلاعية للآثار، وهي بحد ذاتها دراسة قيمة. والمواقع التي قدم توصيفاً لها ليست قليلة (أكثر من خمسين). إلا أن ما يثير الدهشة والاستغراب أنه لم يولِ التنقيبات الميدانية الاهتمام اللازم. أما نحن في بعثتنا الروسية، فقد أجرينا تنقيبات واسعة في سقطرى واكتشفنا أماكن أثرية أكثر من «مواقع دو» بمرات، حتى إنني عثرت على ملتقطات وحاجيات عينية وفيرة، وجدت بعضها في المواقع نفسها التي تناولها العالم البريطاني بالوصف والتشخيص.

نورد أدناه مسميات المواقع السقطرية كما جاءت في خريطة برايان دو (شكل رقم 4 - 6):

1. قلنسية، 2 - 3. قرية سيمار كار في غبة قلنسية، 4. قرية مربون، 5. بئر، 6. هرم من الحجارة، 7. أساس مبنى جنب الطريق، 8. سد وأرضية مرصوفة ومقبرة، 9. نصف دائرة من الحجارة، 10. سد في سفح جبل عبلهن، 11. ضيعة، 12. تجمع سكني، 13. سد ترابي، 14. درجات وقرميد مرصوف، 15. قرية ديهب، 16. قرية ستيرة، 17. بئر في دي عبر، 18-19. مستوطنة وأنقاض مبنى في طريق نحو الشرق، 20. بقايا بنايات وكتابة على حجر كلسي في أريوش، 21 - 22. أسس وبقايا إنشاءات مستديرة في مقبرة رأس كرمة، 23. بقايا أسوار على طرف الوادي، 24. بلدة قاضب (جدار من حجر منحوت)، 25. أساسات دار على الطريق، 26. مقبرة، 27. قرية دسينيفيرو، 28. قلعة على جبل حاصن، 29. قرية أرهينو، 30. قرية سيرهن، 31. علها (موقع في الطرف الجنوبي للقرية)، 32. بلدة السوق، 33. السوق (قلعة على الهضبة)، 34. السوق (البلدة القديمة)، 35. السوق (المسجد وهو الكنيسة)، 36. السوق (قلعة من الطراز اليافثي)، 37. ثلاث بنايات، 38. قرية دي جدور، 39. قرية عدونة، 40. قرية تروبة، 41. قرية شمس في وادي دنجهن، 42. قرية حاصن، 43. قرية فرحة، 44. قلعة صغيرة قرب جبل قرية، 45. قرية ديشس، 46. ممر معابض الجبلي، 47. ضيعة ومقبرة، 48. طريق مبلط بالكلس، 49. قرية ريشي، 50. قرية شيزاب، 51. قرية كاليسن.



(شكل رقم 4 ـ 6)

ولعل برايان دو أبدى بمنطقة السوق اهتماماً أكثر من سائر المناطق التي عكف على دراستها. وكتب يقول إن أفضل المراسي في سقطرى تسوق الدليل، أغلب الظن، على وجود تجمعات بشرية من العصور المبكرة ليس بعيداً عن بلدة السوق (غبة حديبو وبندر دليشة) وكذلك في منطقة قلنسية (غبة قلنسية). وتكمن مزية منطقة السوق، كما يؤكد دو، في كون مراسيها تقع على جانبي رأس حولف، الأمر الذي يحميها من الرياح الشرقية والغربية إلى حدٍّ ما. بلدة السوق نفسها تقع في وسط المنطقة، مما يسهل الاتصالات والمواصلات الداخلية. «وما عدا موقع دسينيفيرو الذي كان فيه على ما يبدو مركز ديني مبكر كل المواقع المتبقية التي تمت دراستها تعود إلى القرون 15 - 17 الميلادية.

وفي منتصف القرن السادس عشر كانت السوق هي المركز الإداري أو العاصمة على الرغم من أن حديبو (تماريدا) تحولت آنذاك إلى مدينة سرعان ما حلت محل السوق بعد أن استأنف عرب المهرة نشاطهم في أعقاب بناء الحامية البرتغالية التي لم تعمّر طويلا». وفي عام 1615 أهملت الكنيسة البرتغالية في السوق، فيما بني مسجد في حديبو، وكان، كما يعتقد برايان دو، بناية مسطحة في البداية، وفيما بعد شيدت عليها قبة في نفس وقت بناء مسجد قلنسية وقبتها. (Doe,1970: 41,151).

وثبت بعد تطهير أنقاض الكنيسة في السوق وجود بناية أقدم هنا تعود إلى مطلع القرن السادس عشر. كما يشير المدخل الشمالي وبقايا الجدار الشرقي إلى الأبعاد الأولية السابقة لمبنى الكنيسة (شكل رقم 4 -7). وبفضل اكتشاف حصن فوق الصخور الجبلية مطل على البلدة الحالية أمكن استنباط بعض خصائص المنشآت التحصينية من قلاع وحصون وسواها في منطقة السوق (Doe, 1970: 151).

عندما تفقدنا منطقة السوق توصلنا إلى افتراض بأن السفن في العصر القديم كان يمكن أن تدخل إلى هور وادي السوق، حيث اكتشفنا أنقاض بنايات على ضفته (ناومكين،

1988: 43). وقد تأكد هذا الافتراض جزئياً لدى اكتشاف مستوطنة حجرة عام 1985 (راجع التفاصيل في أدناه).



(شكل رقم 4 ـ 7)

اكتشف برايان دو في بلدة السوق، وعلى مقربة من الهور، قطعاً خزفية شبيهة بالسيراميك المكتشف على سواحل شرق أفريقيا والعائد للفترة من القرن العاشر حتى القرن السابع عشر الميلادي. وأقدمها كسرة حافة إبريق مع مقبض مدهون بلون رملي ـ أخضر فاتح تعود إلى خزفيات العهد الساساني المتأخر أو الإسلامي المبكر. وتم العثور على هذا النوع من الخزف على سواحل أفريقيا الشرقية إلى جانب مواد تعود إلى القرن العاشر الميلادي. كما عثر على هذا الخزف في أنقاض سيراف ببلاد فارس.

وأجرى الباحث ن. تشيتيك مقارنة بين خزف السوق وخزف شرق أفريقيا (راجع Doe، 1970: 152)، وتوصل إلى أن إحدى القطع (وهي كسرة فخارية عليها كتابة) تعود إلى الفترة ما بين القرنين 11 - 13 للميلاد، في حين استنتج برايان دو أن الإبريق الآنف الذكر قد جلب، أغلب الظن، من منطقة الخليج العربي.

كما عثر برايان دو على أجزاء من آنية حجرية صينية تعود إلى القرن الرابع عشر والقرن السابع عشر، فيما تعود كسرة خزفية مطلية بدهان بني (ربما هي جزء من وعاء للزنجبيل) إلى القرنين 17 - 18 للميلاد.

القطعة الوحيدة من الخزف الصيني الحقيقي التي عثر عليها (إلى جانب حطام الآنية الحجرية) هي عبارة عن قاعدة ثقيلة لكأس خضراء فاتحة اللون تعود إلى فترة القرنين 15 - 16 للميلاد. واللافت للنظر أن أحداً لم يعثر في سقطرى على آنية صينية خزفية بيضاء مائلة إلى الزرقة مما هو منتشر كثيراً في سواحل جنوب الجزيرة العربية المتشاطئة مع شرق أفريقيا. أما العدد الكبير الذي عثر عليه في منطقة السوق من بقايا الآنية الإسلامية الأحادية اللون فهو يعود إلى القرن السادس عشر أو السابع عشر. هذا النوع من الأواني الفخارية كثيراً ما نصادفه في سواحل شرق أفريقيا وجنوب جزيرة العرب (Doe, 1970: 152).

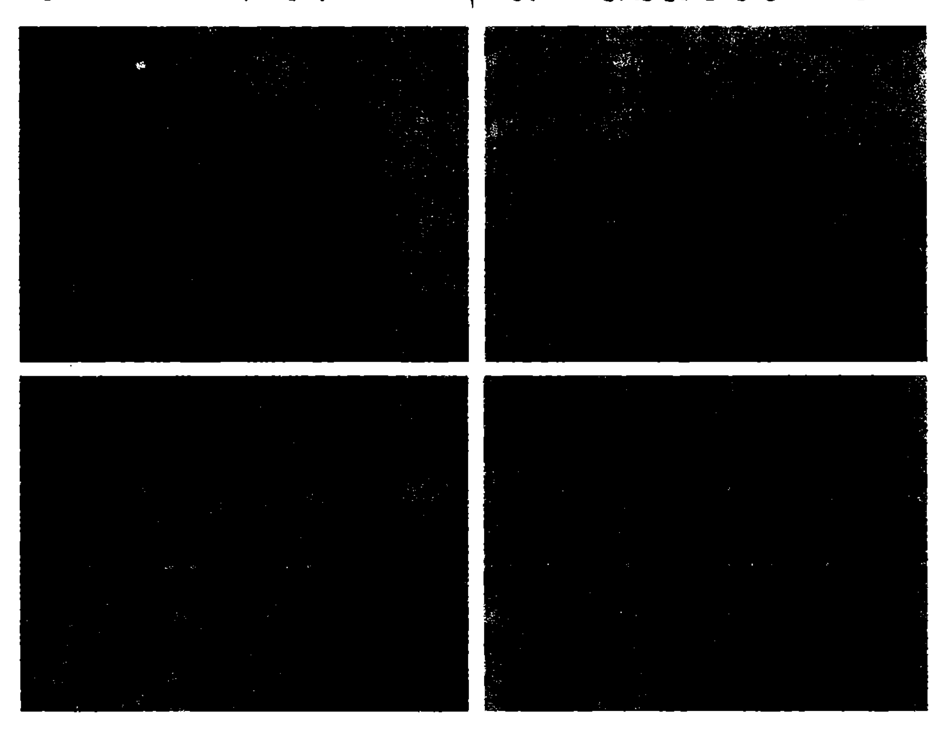
لقد تفقد برايان دو بكل اهتمام منطقة أريوش التي تم فيها العثور على كتابات وخربشات عديدة، حسبما ذكر تيودور بونت وبيتر شيني. وأفاد برايان دو أن موقع أريوش عبارة عن ثلاث فسحات بيضوية الشكل محدبة بعض الشيء من أرض حجرية كلسية ظاهرة على السطح يناهز طولها 90 متراً. وتشكل الفسحات الثلاث صعيداً أفقياً واحداً يمتد من الشرق إلى الغرب. الكتابات والخربشات والرسوم موجودة فقط في الفسحة الوسطى التي تلوح من جهتها الشمالية بقايا سور واطئ. «الكثير من الكتابات والرسوم محفورة على السطح المستوي للحجر، ومنها رسوم تمثل صورة راحة قدم وأشكالاً هندسية مجردة وحيوانات وبشراً.

وثمة أيضاً عدة كتابات (شكل رقم 4 - 8 أ، ب، ج، د) تذكرنا بأحرف الكتابات القديمة في جنوب الجزيرة العربية بخصوصياتها الأقرب إلى الأبجدية الأثيوبية والأبجدية التي عثر عليها شمال ظفار وتحدث عنها برتراند ثوماس (Thomas, 1932). ومن الصعب تسجيل تلك الكتابات بالصورة الفوتوغرافية، لأنها محفورة على عمق طفيف ولا تكاد تعطي ظلاً.

وبعد الأمطار الغزيرة في أبريل غطت طبقة سميكة من الأوحال سطح الموقع بكامله، واقتضت الضرورة تنظيفه. وكان عمق الماء في بعض أجزائه 15 سنتمتراً، ما جعل الناس يسقون الإبل والماعز هناك. ولعل ذلك يشير إلى استخدام رعاة الماعز لهذه الفسحات في الماضي السحيق، وفي تلك الحقبة جرى نقش تلك الكتابات» (Doe, 1970: 5 - 6).

على مسافة 180 متراً جنوب غربي موضع الكتابات تقع أنقاض قام العالم الأثري برايان دو بدراستها أيضاً، ولم يعثر على ما يساعده في تحديد تاريخها التقريبي. وقد أشار

إلى أن الجدران مبنية بأفضل مما في المنازل الحالية، وأن البنايات، من حيث التخطيط، مستطيلة الشكل. ولعل ثيودور بونت اعتبر عام 1897 هذه البنايات بالذات منشآت كنسية.



(شكل رقم 4 - 8 أ، ب، ج، د)

في فترة زيارتنا إلى هذه المنطقة كانت الأنقاض أقل مما في العام 1967، ولذا فإن التوصيف الذي تركه لنا برايان دو يتسم بأهمية كبيرة، ونحن نورده هنا بإيجاز:

يقول دو: إن طول مجموعة المباني إجمالاً قرابة 270 متراً، ويشير إلى الأهمية الخصوصية لكون معظم هذه المباني متجهة صوب الوادي على محور الشمال - الجنوب. زاوية سمت هذه التشكيلة من المنشآت، بالنسبة لموقع الكتابات والرسوم على أرضية الصخور الكلسية المذكورة أعلاه، هي 315 درجة. والتشكيلة هي أكبر مجموعة من البنايات في وادي أريوش، إلا أن أحداً لم يعثر هنا أيضاً لا على مصنوعات خزفية ولا على مواد وأدوات أخرى.

الموقع الآخر يتواجد على مسافة كيلومتر ومائتي متر جنوبي أريوش، وهو يتكون من خمسة مبانٍ مهدمة لا أحد يعرف حتى الآن وظيفتها، على الرغم من أنها يمكن أن تكون، في رأي برايان دو، مباني سكنية ما دامت تقع في منطقة كانت مأهولة سابقاً، رغم عدم

وجود أية ملتقطات أو معثورات تدلل على هذا الرأي. طول هذا الموقع 180 متراً وامتداده من الشرق إلى الغرب 63 متراً.

مقاييس ومواقع المباني: 1) القطر 5.4 أمتار، الارتفاع 90 سنتمتراً. 2) 3.6 × 6.3 أمتار بزاوية سمتية 230 درجة ومسافة 27 متراً عن المبنى رقم 1. 3) الطول 7.2 متر وبزاوية 230 درجة عن الرقم 1. 4) القطر 2.1 متر وبزاوية 235 درجة عن رقم 3. 5) القطر 35.1 متر، وبزاوية 265 درجة ومسافة 108 أمتار عن رقم 1. والمهم أن المباني 4 - 5 فيها آثار وأساسات مربعات حجرية صغيرة ربما كانت سقائف للماعز. خلاصة القول أن هذه المجموعة من المباني ربما هي قرية مهجورة.

وفي الوادي، وخصوصاً باتجاه السفوح في الجنوب، مجاميع عديدة أخرى لأنقاض بنايات غير كبيرة، بعضها سجلته البعثة الأثرية البريطانية، وهي عادة أكواخ مهدمة مستديرة الشكل لا يمكن تحديد تاريخها. وتم على قمة رابية في رأس قرقمة اكتشاف أساسات حجرية دائرية قطرها 5.4 أمتار مع صخرة مصمكة في الوسط يقوم عليها عمود لإسناد العوارض. وبين تلك الرابية والساحل أنقاض وأطلال يعتقد الأهالي أنها من مخلفات الإنسان القديم (Doe,1970: 6).

وهكذا لم تساعد التنقيبات على مقربة من وادي أريوش في تحديد التاريخ، حتى الافتراضي أو التخميني، للكتابات ومخلفات المستوطنات القريبة منها. أما بخصوص الكتابات والرسوم نفسها فقد قمنا بدراستها تفصيلاً أثناء رحلاتنا الأولى إلى سقطرى (في الشكل رقم 4 - 9 أ وب بعض تلك الرسومات)، يقيناً أنها نقشت بطريقة الحز على الصخور الكلسية. ولم تؤد إلى نتيجة محاولات مقارنتها بشواهد الكتابة في جنوب الجزيرة العربية. ولعل واضعيها اكتفوا بمحاكاة تلك الكتابة، كونهم رأوها دون أن يجيدوا النطق بها، لأنهم كانوا يتكلمون اللغة السقطرية، وليس لغة جنوب جزيرة العرب.

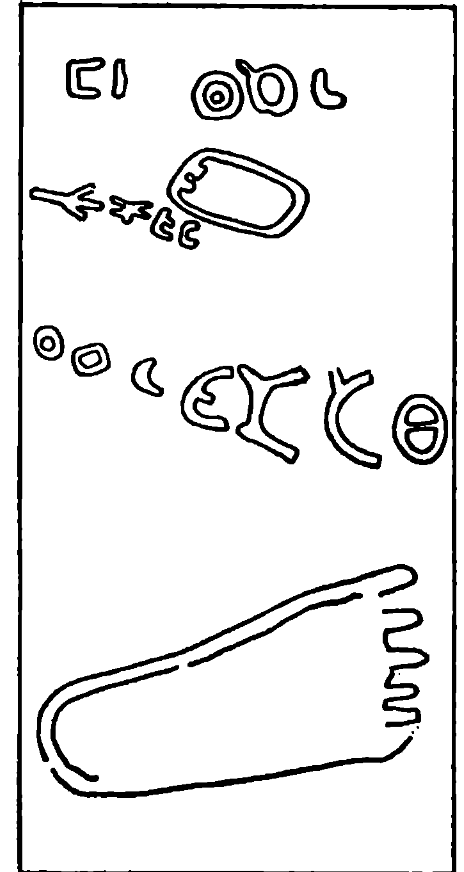
ويبدو أن لتلك الكتابات والرسوم، أغلب الظن، وظيفة غيبية سحرية، يمكن قول ذلك بمزيد من التحديد عن صور راحة القدمين، وقد عثر على آثار القدمين المحفورة والمنقوشة على الحجر في شتى أرجاء المعمورة. ثم إن تصوير الماعز أو الخروف الذي كان يحظى بالتقديس في جنوب الجزيرة العربية يتسم بطابع طقوسي ديني أيضاً. ومن بين الرسوم التي اكتشفناها تجدر الإشارة بخاصة إلى رسم الجمل والشخص الذي يحاول أن يصطاده، كما نعتقد. وقد اكتشف علماء الآثار الأميركيون بين الرسوم الصخرية في

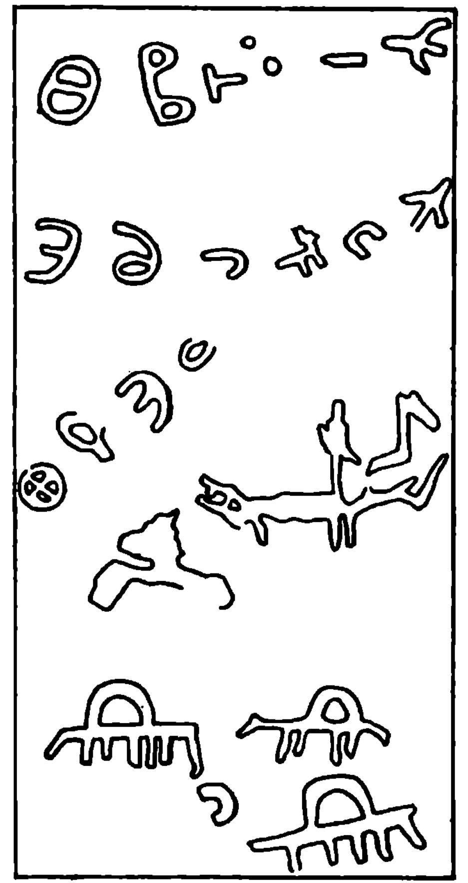
المملكة العربية السعودية صور إبل يتعقبها الصيادون (Anati, 1970:196).

وثمة عدة كتابات ونقوش، بما فيها صورة الصليب، موجودة على مقربة من السوق.

ومن أنواع المنشآت الآنفة الذكر نوع يشكل إحدى فقرات تصنيف برايان دو للمواقع الأثرية، وهي تحديداً «الحواجز الحدودية» و«أسيجة الحجر غير المنحوت». ونصادفها في الكثير من المواقع في سقطرى، حيث تمتد كيلومترات على طول الجزء الشرقي من الجزيرة وحول قلنسية في الجزء الغربي.

والغرض من الحواجز والأسيجة الحدودية الصخرية غير واضح، كان برايان دو يعتقد أنها تشكل خطوطاً فاصلة تحمي الممتلكات العقارية الشخصية، إلا أنه توصل فيما بعد إلى





(في الشكل رقم 4 - 9 أ وب بعض تلك الرسومات)

استنتاج مفاده أنها يمكن أن تكون أسيجة تفصل بين مزارع أشجار البخور واللبان

ونبات الصبر والدارسين والقرفة في العصور القديمة (Doe, 1983: 19). ولعل ذلك تفسير أدق للغرض من المنشآت المذكورة العائدة من ثم إلى القرن الأول الميلادي، أي إلى الفترة التي كانت فيها سقطرى مصدّراً كبيراً للبخور والصبر والدارسين.

واكتشفت بعثتنا الروسية ودرست، مثل بيتر شيني وبرايان دو من قبلنا، مخلفات المستوطنات القديمة وبيوت الفلاحين، وكذلك المقابر القريبة منها التابعة لها، على ما يبدو، في مختلف المناطق بجزيرة سقطرى. ونشير هنا، على سبيل المثال، إلى أن برايان دو عثر في منطقة ديهب على أنقاض فوق هضبة على الساحل الجنوبي للجزيرة هي بقايا مستوطنة كبيرة محصنة، على امتداد حدودها، بسور ربما كانت له أبراج حراسة، وكان داخل السور ما لا يقل عن 12 بناية ظلت محفوظة سطوح بعضها المبنية من الكتل الحجرية، ويقول أهالي المنطقة إن هذه المباني تعود إلى العصر الجاهلي (Doe, 1992: 54).

وفي غرب الجزيرة ، جنوبي رأس بادوه، عثر برايان دو على مجمعين من المنشآت أطلق عليهما تسمية «سيمار كار». وكان الكابتن هينس قد أشار إلى أحدهما في عام 1835 (المستوطنة ب)، فيما يتكون المجمع الآخر (المستوطنة أ) من بنايات مستطيلة عديدة جدرانها مبنية من صخور كبيرة بطبقات غير متوازية وليست مثبتة بالملاط أو غيره. وإلى الجنوب منها قاعدة حجرية واطئة، وعلى مقربة من القاعدة «صخرة أضاحٍ وقرابين» معمولة من حجر كلسي وفي سطحها العلوي حوضان دائريان، وعلى جانب من جوانب الحجر تخاريم هندسية الشكل «لعلها ترمز إلى كتابة مختزلة باللغة الحضرمية القديمة» (Doe, 1992: 46 - 45).

وبعد دراسة وتحليل آثار سقطرى قام برايان دو بتعميم خلاصة المعلومات عن جميع المنشآت والمباني العائدة للقرن السابع عشر الميلادي. فجاءت، في تصنيفه، على النحو التالي:

1. المباني الدائرية الشكل من أحجار وصخور وكتل كاملة.
2. مساكن الكهوف المحمية بجدران من جهة المدخل، علماً أن الكهوف والمغارات استخدمت لهذا الغرض من أقدم العصور. ويبدو أن هذا النوع من السكن لا يزال يستخدم حتى اليوم.
3. مدرجات وعليات مسيجة بالحجارة وبجدران مبنية من الأحجار على الخطوط الدفاعية في المسالك والممرات الجبلية الضيقة.
4. مجمعات منزلية شخصية من دون انتظام في التخطيط. الجدران المرصوفة من

الأحجار مثبتة كيفما اتفق مع أبواب ذات أطر حجرية عمودية. وينتشر فيها استخدام الأعمدة لحمل عوارض السقوف. الأرضية مبلطة. وهناك حضائر صغيرة للماشية بجدران ملاصقة للمنزل.

5. عدة مشتملات للشؤون المنزلية بجدران مرصوفة كيفما اتفق ومن دون تثبيت بالإسمنت أو غيره. وهي مستطيلة الشكل، مبنية وفق مخطط مرسوم بزوايا محددة، والأعمدة قائمة بشكل مجموعات متماثلة من أربعة أو ستة عواميد، ومساند أطر الأبواب من أحجار مرصوفة عمودياً، والأرضية مبلطة بأحجار مستوية.

6. الأسوار الفاصلة بين باحات البيوت الشخصية مبنية من الصخور غير المنحوتة. وقد أقيمت بعد جهود كبيرة لتطهير المنطقة.

7. جدران المباني والجدران المحيطة «بالمقامات البشرية» غير المرتبطة، على ما نعتقد، بالمنشآت المنزلية وبمخطط الأسوار الفاصلة بين باحات البيوت الشخصية الآنفة الذكر. ولعلها كانت في عائدية رعاة الماشية الذين يربون الأغنام والماعز في الجبال. أما التي على الساحل فلربما هي ملك لصيادي الأسماك والغواصين العاملين في صيد اللؤلؤ، وهي موجودة على مقربة من الساحل في مستوطنات مثل سيمار كار وفي بنايات بلدة السوق. الجدران مبنية من أحجار مستوية عمودية، وهناك بلاطات مستوية في أركان أساسات الجدران ومواضع الربط بين تلك الجدران.

8. جدران مرصوفة من كتل الحجر الخشن غير المنحوت وغير المتناسق، لكنها مثبتة ومجيّرة بمخلوط النورة المصنوع من الصدف والمحار المفخور ومسحوق الكلس. وعثر جنب هذا النوع من الجدران على آنية مجلوبة من الخارج مطلية بالأخضر أو الأزرق (إسلامية الطراز من لون واحد).

9. الأرضيات المطلية بطبقة من الجير، ومعظمها في منازل السوق.

10. الجدران الحجرية المطلية بالنورة من الداخل والخارج، ومن ذلك مساجد حديبو وقلنسية وبنايات أخرى تشمل العصر الحاضر أيضاً (Doe, 1970: 152 - 151).

المستوطنات والمقابر الأثرية

يمكننا القول إن الدراسة العلمية المنهجية المبرمجة للمواقع الأثرية في سقطرى لم

تبدأ إلا مع بعثتنا الأركيولوجية. لكن نتائج عمل الرحالة الذين سبقونا، من أمثال بيتر شيني وبرايان دو، كانت نافعة لنا، في المرحلة الأولى قررنا أن نركز على المنطقة الشرقية من الجزيرة لأن دراساتنا التمهيدية بينت أن هذه المنطقة بالذات تحتوي على بقايا أقدم المنشآت التي مر بها العالمان الإنجليزيان مرور الكرام، أو فوّتاها على الأصح.

وتكفي هنا الإشارة إلى ما اكتشفناه وسجلناها في زيارتنا الأولى لجزيرة سقطرى عام 1974 من مصاطب الدولمين الصخرية التي اعتبرناها آنذاك بمثابة الأضرحة أو شواهد القبور، وهو أمر تأكد فيما بعد، أثناء الحفريات التي أجريتها أنا مع إلكسندر سيدوف في موسم الأعمال الميدانية عام 1985 وموسم عام 1987.

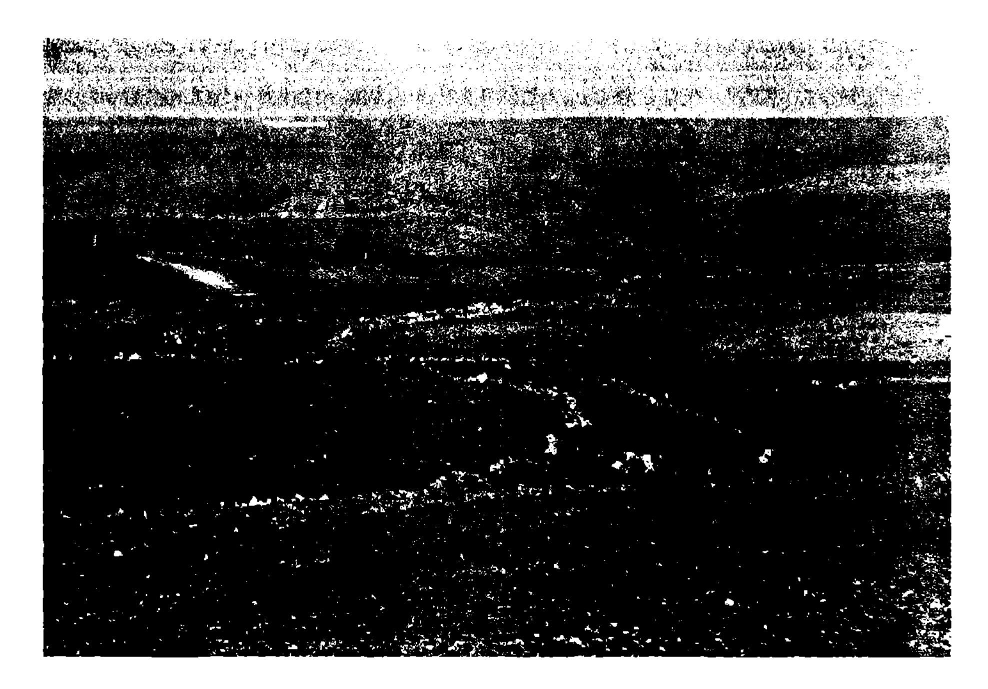
في المنطقة الخلابة المسماة كاليسن (كالسان) والواقعة في واد يحمل الاسم نفسه، حيث ينبجس من تحت صخرة أجمل نبع غزير المياه في الجزيرة، عثرنا في العام 1983 على أنقاض كنيسة صغيرة مبنية من أحجار منحوتة وأخرى غير منحوتة، وأركانها متجهة بدقة صوب الجهات الأربع. المدخل من الغرب والمحراب في الجانب الشرقي، والمبنى من الواجهة بيضوي الشكل، وعرض الجزء الأضيق 5 أمتار والأوسع 7 أمتار.

كما عثرنا (قرب قلنسية مثلاً) على منشآت كثيرة من الكتل والحجارة الكبيرة لم يرد ذكرها عند برايان دو، لكنها شبيهة بالآثار التي اكتشفها. وفي المنطقة الشرقية تمكنا من تسجيل الكثير من الحواجز أو الحدود الحجرية الممتدة على طول عدة كيلومترات والتي كانت في قديم الزمان تفصل، على ما يبدو، بين مزارع اللبان (شكل رقم 4 - 10 - 4 - 11). كما اكتشفنا الكثير من هذه الحواجز البينية الفاصلة في مناطق أخرى من الجزيرة.

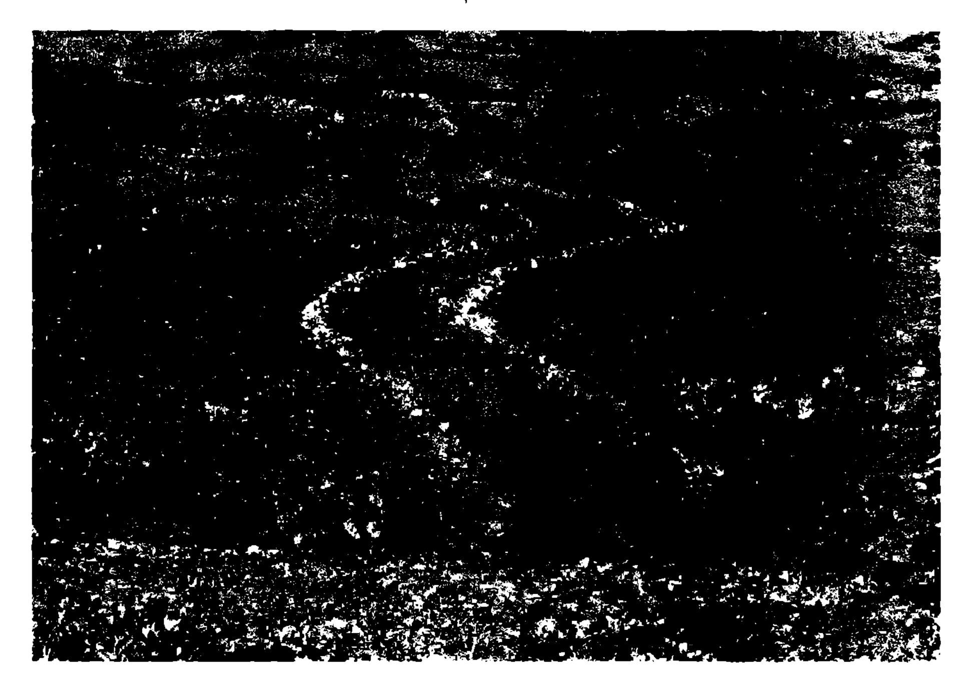
وسجلنا اكتشافات مهمة أثناء جولتي مع فلاديمير شينكارينكو في ربوع المنطقة الشرقية خلال موسم الأعمال الميدانية في العام 1984، حيث اكتشفنا نوعاً من المدافن السقطرية هو المقابر الجماعية في الكهوف الطبيعية.

آنذاك صعدنا سويةً إلى ممر شلهي الجبلي ولم نمض إلى اليسار إلى جهة الشرق، حيث يقود المسلك إلى رأس مومي، بل توجهنا نحو الجنوب، وسرعان ما وصلنا إلى قرية شُعب (في الجزيرة العديد من القرى بهذا الاسم)، حيث استقبلنا سعيد حلفان من قبيلة بني مشرة المقيمة في هذه الأنحاء، ورافقنا سعيد لمشاهدة «مقبرة الإنسان القديم» في الكهف، والتي سبق أن حدثنا عنها في حديبو.

على بعد كيلومترين تقريباً جنوب شرقي قرية شعب رأينا على سفح جبل بغبغة (بغبغ)



(شكل رقم 4 ـ 10)



(شكل رقم 4 ـ 11)

المطل على الوادي، وعلى ارتفاع 100 متر تقريباً عن أسفل الجبل، كهفاً طبيعياً كبيراً شبيهاً بالقبة ارتفاعه 5.2 - 3 أمتار وقطره قرابة 4 أمتار. مدخله بيضوي الشكل يقع على المنحدر الجنوبي الغربي من الجبل، وفيما مضى كان المدخل مسدوداً بأحجار مرصوفة ومثبتة بالطين. وقبل فترة غير بعيدة هدم أطفال القرية جدار المدخل، ووجدنا في الداخل كومة من هياكل عظمية لعشرة أشخاص تقريباً مع عظام ماعز.

وعلى مسافة 30 متراً على السفح، إلى الجنوب الشرقي، عثرنا على عدد من المدافن الأخرى، مداخل ثلاثة كهوف صغيرة تقع على الجانب الشمالي الشرقي من الجبل. وكانت هناك أيضاً ثغرات في الستار الحجري للمداخل، ولم نر للأسف الشديد مقبرة واحدة غير متضررة في تلك الكهوف، إلا أننا أخذنا عينات من الرفات وبقايا العظام لتحليلها.

في موسكو سلمنا العظام إلى مختبر الكيمياء الجيولوجية للنظائر في معهد الجيولوجيا التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية. وقام ل. سوليرجيتسكي بتحليل أنسجتها الكولاجينية (مادة الكولاجين البروتينية في العظام). وأعطانا التاريخ المطلق لمنشأها: قبل 1300 عام، ما يعني أن مقابر الكهوف في ذاك الجبل تعود إلى عام 685 الميلادي.

وأجرينا دراسة لمقابر جماعية مماثلة في كهوف ممر جبلي قرب بلدة قاضب في الجزء الأوسط من الساحل الشمالي للجزيرة، وكذلك إلى الجنوب من قلنسية على الساحل الغربي للجزيرة، عند رأس بادوه.

ورغم نتائج التحليل الكولاجيني للرفات تبقى مشكلة التاريخ الدقيق لمقابر الكهوف غير محلولة حتى النهاية. فالمعلومات الواردة من الأشخاص المطلعين تقول إن أهالي المناطق الجبلية في سقطرى يدفنون موتاهم حتى اليوم أحياناً في الكهوف والمغارات الطبيعية ويسدون مداخلها بالحجارة. كان ذلك يحصل، عادة في مواسم الجفاف والأوبئة عندما يعجز الناس عن حفر القبور، وثمة شهادات في مدونات القرون الوسطى تقول بأن السقاطرة يدفنون موتاهم في الكهوف الجبلية.

ولعل المواقع الموجودة قرب قرية راكف الحالية من أقدم المواقع الأثرية (المعروفة) في سقطرى، فقد اكتشف المؤلف وإلكسندر سيدوف في هذه البقعة مخلفات مشغل لصنع الأدوات الحجرية الصوانية. وذلك هو المكان الوحيد في الهضبة الشرقية للجزيرة حيث يظهر الصوان على السطح ويشكل قشرة صوانية على الصخور الجيرية المنحدرة على الهضبة. وقد عثرنا على المصنوعات الصوانية في مساحة 400 × 400 متر تقريباً (شكل

رقم 4 – 12، 4 – 13، 4 – 14). وجمعنا منها كمية كبيرة من 120 قطعة، بينها مدقات وشطائر (بعضها مزين) ورقائق وأدوات (محكات ومساحج ونصال ومقاشط). وتعطينا هذه المجموعة فكرة عن الحضارة المادية لأقدم سكان جزيرة سقطرى، إلا أن السؤال عن التاريخ الدقيق لتلك الحضارة يبقى مفتوحاً.

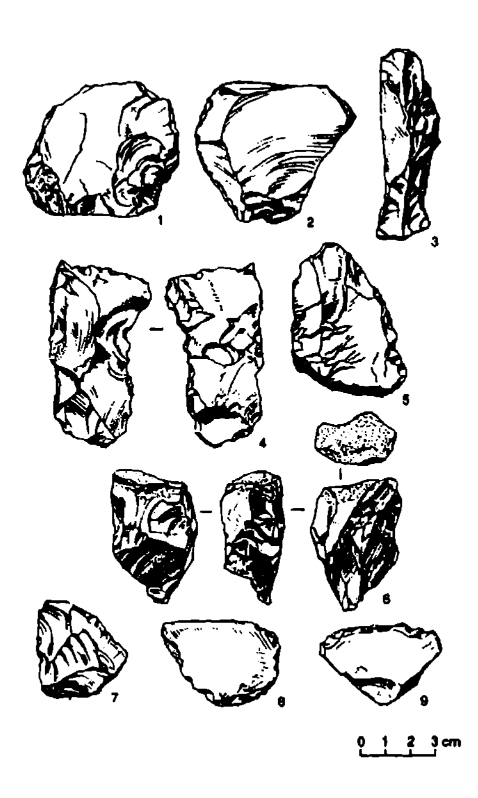
كما عثرنا هنا، قرب قرية راكف، على المقبرة الصغيرة المتميزة الآنفة الذكر ذات التوابيت الحجرية الشبيهة بمصاطب الدولمين التي صادفناها فيما بعد في المنطقة الغربية من سقطرى وفي ساحلها الشمالي.

تتكون المقبرة من عشرة قبور تقريباً، إلا أن قبراً واحداً منها فقط ظل سليماً حتى ذلك الحين، وجرى تفكيكه فيما بعد. كان بمثابة مصطبة مستطيلة أي دولمين حجري يتجه من الشمال نحو الجنوب بمقياس: 1.92 × 2.64 متراً، وارتفاعه: 0.7 - 1.0 متراً. جانباه الشرقي والغربي والجدار العرضاني الشمالي من ثلاث إلى أربع صخور خشنة موضوعة أفقياً بعضها فوق بعض، والشقوق فيما بينها محشوة بكسار الحجر الدقيق في عناية واهتمام.



(شكل رقم 4 ـ 12)

(شكل رقم 4 ـ 13)

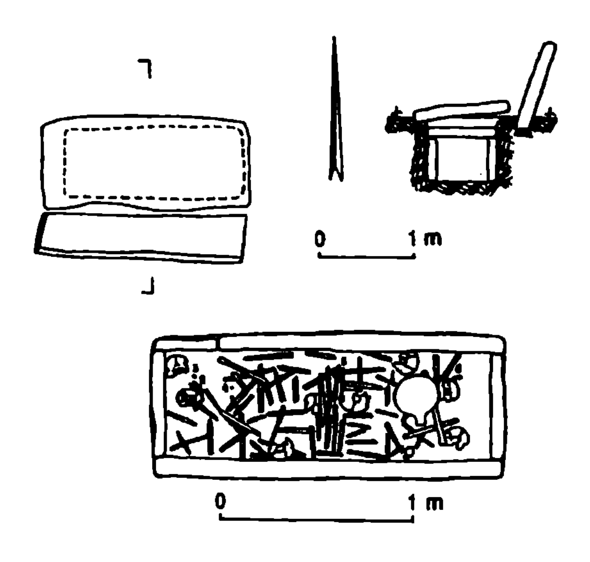


(شكل رقم 4 ـ 14)

الجدار العرضاني الجنوبي مبني من لوحين حجريين غير سميكين مغروزين عمودياً، وبينهما ثغرة مستطيلة بقياس 54.0 × 8.0 متر. أما السقف أو الغطاء فهو عبارة عن بلاطة سميكة بقياس 92.1 × 64.2 متر، وسمكها 17.0 - 22.0 متر. وهي موضوعة بصورة أفقية، ومعدّلة من حيث المستوى بكل دقة وعناية، ذلك لأن الجدار الشمالى أوطأ قليلاً من الجدار الجنوبي. باقي منشآت المقبرة مهدمة، الا أنها إذا أخذنا بالاعتبار بقاياها، مختلفة الأحجام وشبيهة من حيث الهيكلية بالنموذج الذي نحن بصدده. والفارق الوحيد المميز لها، على ما يبدو، هو أن جدرانها الجانبية لم تكن من الحجر المتلاصق، بل من أحجار متباعدة بعض الشيء ومغروزة أو مطمورة عمودياً.

بينت الحفريات التجريبية التي أجريناها (وقد حفرنا خمسة من الدولمينات الصغيرة المهدمة) أن في داخل حفر ترابية لا يتجاوز عمقها المتر الواحد، تحت تلك المصاطب الفوقية، بنيت من كتل منحوتة بغير عناية قبور أو مدافن حجرية أشبه بالصناديق أو السراديب مغطاة ببلاطات متلاقية ومتلائمة. وكانت أربعة سراديب منهوبة خالية تماماً،

فيما احتوى أحد السراديب على مدفن جماعي على ما يبدو لتسعة هياكل عظمية بشرية. فقد عثرنا هنا على تسع جماجم وعدد كبير من العظام الأنبوبية وعظام الحوض منثورة بلا انتظام. إلا أننا لم نجد إطلاقا أعمدة فقرية ولا أضلاعًا، ولا فقرات أو سلاميات أصابع الأيدي والأرجل وما إلى ذلك، ولم تكن الفكوك السفلى موجودة (شكل رقم 4 - 15، 4 - 16، 4 - 17).

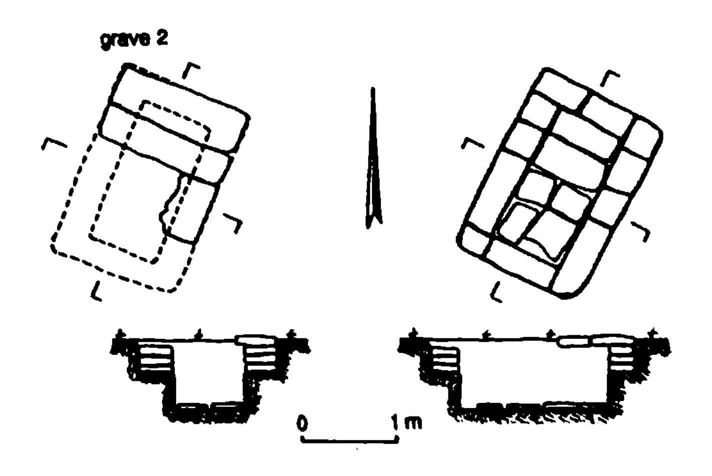


(شكل رقم 4 ـ 15)

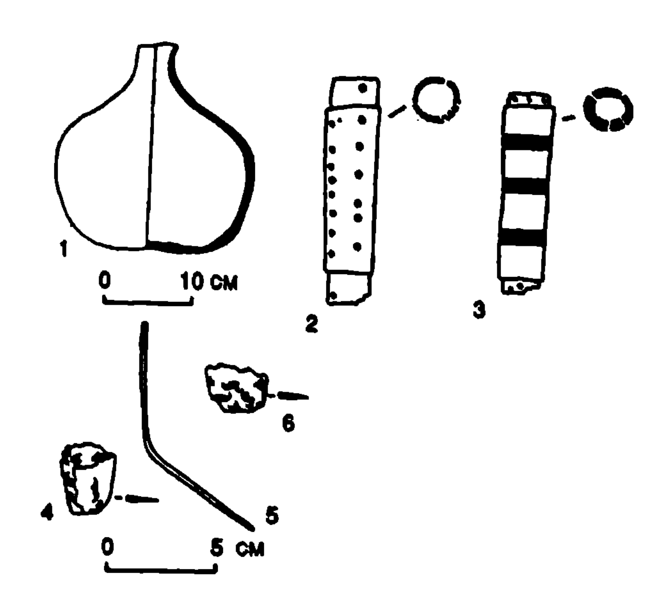
وعثرنا بين رفات الموتى على مقبضين عظميين (يبدو أنهما مقبضان لسكين)، وكسر من سكاكين حديدية ودبوس برونزي. وفي الجزء الشرقي من السرداب عثرنا فوق العظام البشرية على إناء فخاري من الطين الأحمر، يدوي الصنع، كروي الشكل، ضيق العنق.

وللأسف لا تمكننا المعثورات العظمية والملتقطات الفخارية المكتشفة في راكف من تحديد عمر المدافن تحديداً دقيقاً. فالعظام التي نقلناها إلى موسكو لم تكن صالحة للتحليل الكولاجيني، والأدوات التي عثرنا عليها لم تمكّن الأخصائيين من تحديد تاريخ أكيد. الإناء الخزفي من المدفن رقم 1 يختلف من حيث الشكل وطريقة الصنع عن الملتقطات الفخارية التي عثرنا عليها في المقابر السقطرية الأخرى، الأمر الذي يجعلنا نفترض أنه وصل إلى الجزيرة من مكان آخر، والدبوس البرونزي من المدفن نفسه «مستورد» من ذلك المنشأ، على ما يبدو. المقبضان العظميان أشبه بمقابض العاج التي اكتشفها بيتر شيني في مقبرة

قرب كيشن (Shinnie، 1960: 106. Doe، 1992:98).



(شكل رقم 4 ـ 16)



(شكل رقم 4 ـ 17)

مدافن مقبرة راكف تختلف كثيرا عن المدافن والقبور المعروفة لدينا (آنذاك) في المناطق الأخرى من سقطرى، وسنأتي على ذكر هذا الموضوع فيما بعد. إلا أن مقابر الدولمين ذات السراديب الحجرية الشبيهة بهذه تصادفنا بين الحين والآخر في جنوب جزيرة العرب. وقد أطلعنا على معلومات بهذا الخصوص الباحث الأثري عبد العزيز بن عقيل الذي درس في العام 1984 منطقة وادي حجر في حضرموت. ونجد تشابهاً أيضاً مع منشأت المقابر المكتشفة في جنوب الهند (McIntosh، 1979: 468 – 459).



(شكل رقم 4 ـ 18)

وإلى ذلك جرت دراسة مقابر ذات سراديب حجرية مماثلة في منطقة الخليج العربي (Lombard & Salles, 1984)، وخصوصا في عُمان (Vogt, 1984: 284 - 271).

ويشير التحليل المقارن إلى احتمال تأريخ مقبرة راكف ونسبتها إلى النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد. فالإناء الذي كان موجوداً في المدفن 1 يمكن مقارنته بإناء ضيق العنق عثر عليه في مقبرة من حضارة ثمود المعروفة في عمان ويعود إلى القرون الرابع - الأول قبل الميلاد (Vogt,984:227) والشكل رقم 1 و 3 و 6 و 7 في نفس المصدر).

التحليل الكربوني الإشعاعي الذي أجري في سان بطرسبورغ للعينات الفحمية المأخوذة من السرداب الحجري في المدفن 5 يعطينا تاريخاً في حدود عام 720 للميلاد، مما يعني أن المدفن في هذا السرداب قد نهب حتى ذلك الحين، وبات السرداب الحجري خالياً.

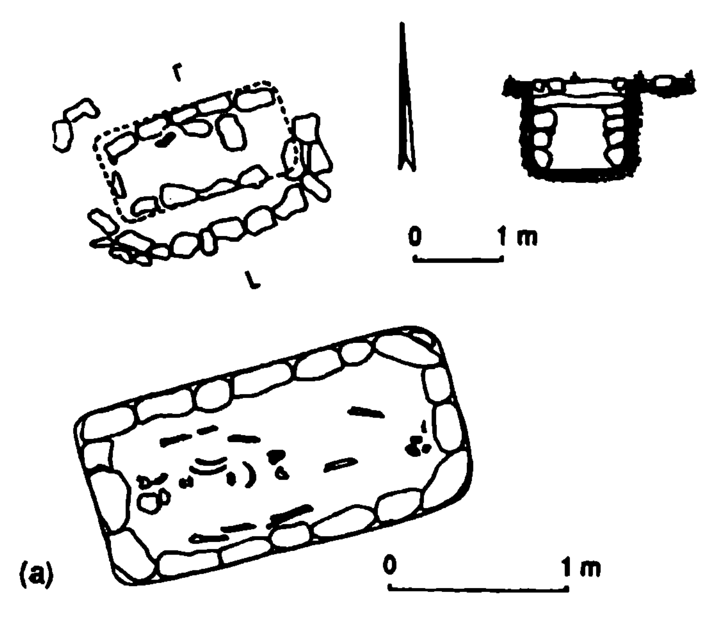
كما يحتمل تماماً أن تعود إلى الفترة نفسها الكتابات والرسوم المكتشفة في منطقة أريوش شرقي قرية غبة على الساحل الشمالي من الجزيرة. وليس بعيداً عن هذا المكان، على الساحل باتجاه الغرب، عثرنا على قبور دولمينية لم نفرغ من دراستها بعد. وفي العديد من مناطق الجزء الشرقي من الجزيرة اكتشفنا ودرسنا بقايا مستوطنات وبيوت قديمة، وكذلك المقابر الواقعة على مقربة مباشرة منها، والمرتبطة بها أو العائدة لها أغلب الظن. ففي موقع بقرية روكب السفلى درسنا أنا وإلكسندر سيدوف أنقاض مستوطنة كبيرة لفت فيها انتباهنا ضخامة صخور البناء (نجد صخوراً بهذا الحجم في المستوطنات الأخرى، مثل التي في قرية ديريسموتين في وادي دعرهو) وكذلك بقايا المباني التي تستقر سقوفها وسطوحها على حجرين أو أربعة أحجار ضخمة (شكل رقم 4 - 19).

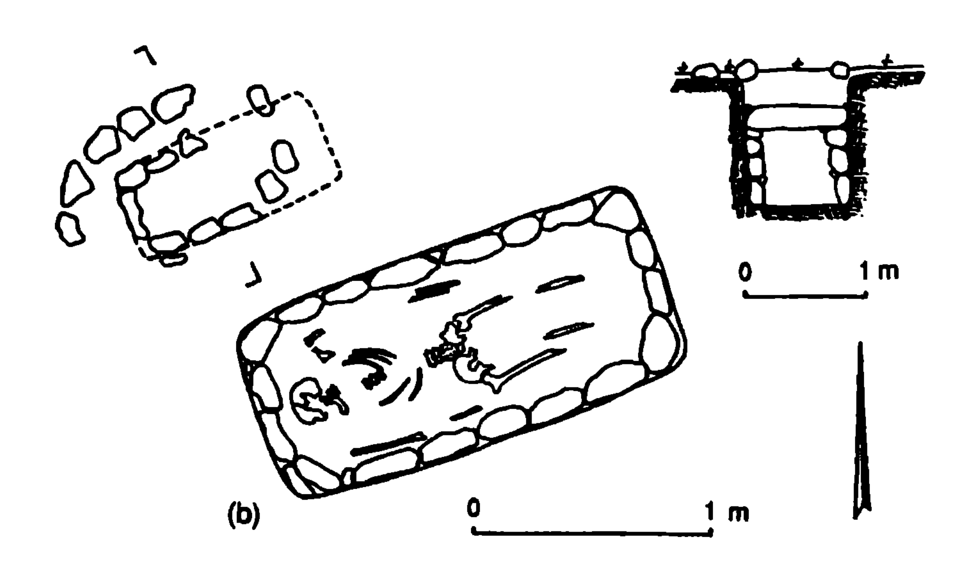
ونذكر هنا بالمناسبة أن برايان دو درس أمثال هذه المنشآت وسطوحها القائمة على صخور مصمكة في وادي عاشول وقرية شيزاب (Doe، 1992: 52، 194)، وقد عثرنا على بقايا مقبرة شرقي وجنوب شرقي المستوطنة. وهي عبارة عن مدافن من الطراز نفسه المنتشر في سقطرى، إلا أن الصخور المستخدمة في الجدران الداخلية أكبر حجماً مما في المقابر الأخرى.

كما درسنا بقايا منازل ومقبرة في مستوطنة على مقربة من قرية حاصن. تتكون هذه المقبرة من ثلاثة مدافن أو مجاميع معزولة بعضها عن بعض، وتشغل الرأس الصغير الناشئ عن التقاء وادي حاصن بوادي مقالهم. مساحة المقبرة 80 × 100 متراً على وجه التقريب. مدفن حاصن 1 يضم تسعة قبور يشكل ثلاثة منها سلسلة ممتدة من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، أما الستة الباقية فهي على هيئة تجمع متقارب. ويقع مدفن حاصن 2 على مسافة 30 متراً إلى الغرب ويضم ستة قبور في سلسلتين من ثلاثة قبور ممتدتين من الشمال باتجاه الجنوب (شكل رقم 4 - 20). والمدفن الثالث، حاصن 3، يقع على بعد 15 متراً عن المدفن الأول.

على مسافة 80 - 100 متر شمال غربي المقبرة تقوم أنقاض بناية ربما هي منزل بقيت منه أجزاء قصيرة من أساسات الجدران. وقد تعرضت هذه الأنقاض إلى تغييرات كبيرة، حيث يقوم عليها منزل حديث مع مشتملاته، علماً أن حجارة من مبنى أقدم منه استخدمت في بناء هذا المنزل. وليس بالإمكان الكلام عن وظيفة وخصائص المبنى الأول قبل إجراء الدراسات والتحاليل المختصة، إلا أن الافتراض الممكن على نحو أكيد هو وجود

مستوطنة أو ضيعة قديمة في هذا المكان يعود تاريخها، أغلب الظن، إلى تاريخ المقبرة التي بجنبها.





(شكل رقم 4 ـ 19) - (شكل رقم 4 ـ 20)

أجرينا حفريات ومجسات تنقيبية في مواقع سبعة قبور من المقبرة: ثلاثة في المدفن الأول وثلاثة في المدفن الثاني وواحد في المدفن الثالث. المنشآت فوق القبور (في الحالات التي لم تتعرض للتلف) عبارة عن مستطيلات أو حواجز متماثلة (8.1 – 1.2 × 9.0 - 0.1 متراً) محاطة بحدود بيضوية من الحجارة (2 - 3.2 × 6.2 – 8.2 متراً). المستطيلات والحدود البيضوية متجهة من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي في مدفن حاصن 1 ومدفن حاصن 2، ومن الغرب إلى الشرق في مدفن حاصن 3.

الحواجز المستطيلة أعلى من سطح التربة حالياً بـ 10 – 20 سنتمتراً، وهي عبارة عن صف واحد من الأحجار المغروزة حول حفرة القبر غير العميقة (قرابة 1 متر). وفي داخل الحفرة سرداب مبني من حجارة غير مشذبة وغير منحوتة مغطاة ببلاطات مستوية كبيرة. جدران السرداب مرصوفة بمنتهى العناية، والشقوق فيما بين الحجارة، كما بين بلاطات الغطاء، محشوة بالحصباء وحطام الأحجار. أركان السرداب باتت مستديرة، بفضل الأحجار، بحيث يتخذ الفراغ في الداخل شكل الامتداد البيضوي. كل صف من الأحجار يطل قليلاً من فوق الصف الذي تحته، مما يجعل فجوة السقف أضيق، ومن السهل تغطيتها. المقياس الداخلي لسراديب الدفن: 7.0 - 8.0 × 7.1 - 9.1 متر، والارتفاع 6.0 - 7.0 متر. سطح حفرة السرداب مغطى بطبقة مرصوصة جيداً من التراب والحصباء. وفي هذه الطبقة غرزت أحجار الحواجز.

في قاع السرداب تدفن عادة جثة واحدة ممددة على الظهر ورأسها لجهة الغرب أو الجنوب الغربي (تبعا لجهة حفرة القبر). القبور هنا خالية من الأدوات، أو تكاد تكون خالية (وعاء خزفي عند القدمين). وفي أحد القبور (مدفن حاصن 1) عثرنا على جزء من فك وأسنان طفل مع رفات شخص راشد. كما عثرنا في المدفن نفسه على عظام ماعز. وفي قبر آخر من المدفن رفات لثلاثة أشخاص دفعة واحدة، فقد عثرنا في سرداب الدفن على ثلاثة هياكل عظمية مزاحة من مواقعها الأصلية مع تلف في العظام والجماجم. ويبدو من البقايا أن أحد الموتى سجّي على ظهره في وضعية امتداد ورأسه إلى الشرق.

إلا أننا عثرنا على أدوات كثيرة مرافقة للموتى في مدفن حاصن 3 الموجود على انفراد. المقياس الداخلي لسرداب هذا المدفن الممتد من الغرب باتجاه الشرق (لم يبق للمدفن شاهد قبر أو منشأة حجرية فوقه وحواليه): 6.1 × 0.4 متراً، وارتفاعه: 4.1 متراً. وقد عثرنا على بقايا رفات شخص واحد (جمجمة) عند منتصف الجدار الشمالي للسرداب

وكذلك عند منتصف الجدار الجنوبي (كومة عظام). ووجدنا معها هنا ستة أوان خزفية: إناءين جنب الجمجمة وكومة العظام، وأربعة مصفوفة قرب الجدار في الركن الشمالي الشرقي لسرداب القبر.

وقمنا بدراسة منشآت ومراسم دفن أشبه بهذا النوع من السراديب في مقبرة تقع شمال شرقي قرية شبهن (شبهون) الحالية. المنشآت التي فوق القبور اختفت في الواقع، إلا أن بقاياها تدل على أنها هي أيضاً كانت عبارة عن حواجز مستطيلة من الأحجار المغروزة حول حفرة سرداب القبر، وقد لا تكون لها حدود خارجية بيضوية الشكل.

في هذه المقبرة أجرينا حفريات في مواضع أربعة مدافن، وكلها تحتوي على رفات في سراديب حجرية مغطاة ببلاطات مستوية كالتي عثرنا عليها في مقبرة حاصن، وأرضية قاع السراديب ممهدة بالحصباء الناعمة. الرفات انفرادي كالعادة لموتى ممددين على الظهر ورؤوسهم لجهة الغرب، وكان بين المدافن قبر واحد لشخصين، وآخر جماعي.

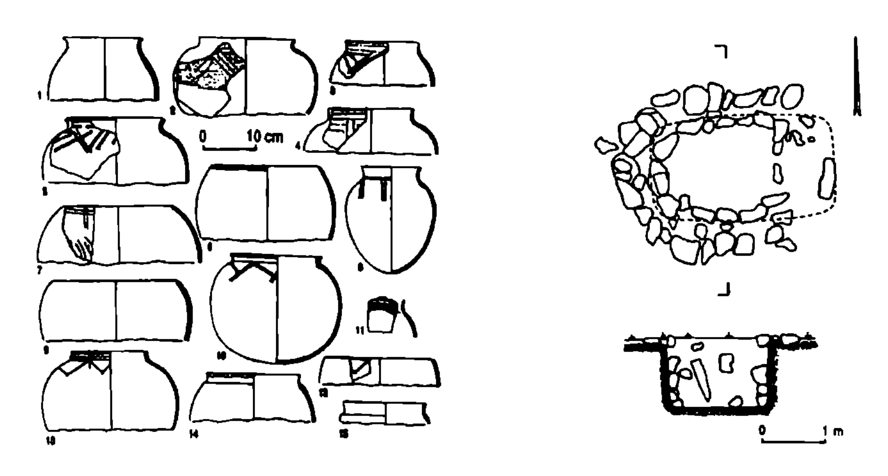
وخلافاً لمقبرة حاصن عثرنا في شبهون على كميات كبيرة نسبياً ومتنوعة من الحاجيات والأدوات الدفينة. وبينها آنية خزفية وبرنزية وكسر من الأواني الزجاجية وسكاكين حديدية وقلائد من الخرز الحجري والزجاجي وأقراط برونزية وأساور حديدية. وفي أحد المدافن عثرنا على قرص دواء معمول خصيصاً من صمغ شجرة دم الأخوين.

وفي موضعين آخرين في الجزء الشرقي من الجزيرة، قرب قريتي معابض ومتهيوبو حالياً، اكتشفنا بقايا مستوطنة ميوبرهم الكبرى ومخلفات استيطانية مع مقبرتين جنبها.

مخلفات المستوطنة القديمة عبارة عن مربع من بنايات مهدمة تماماً (المتبقي منها هو أساسات الجدران فقط) حول باحة مربعة الشكل مساحتها 15 × 15 متراً. ولعلها كانت بنايات منفصلة (7 × 7 و 5 × 7 أمتار) ومتجاورة جداً. ولها أبواب على الباحة. وفي الحال الحاضر هدمت البنايات بالكامل تقريباً، وقام في موضعها منزل حديث في الجزء الجنوبي من الأنقاض ومشتملات للماشية استخدمت في بنائها مواد البنايات الأثرية.

وتلتصق بموقع المستوطنة من الشمال الشرقي مقبرة مساحتها 15 × 25 متراً كانت مسيجة في حينه. فلا تزال واضحة أساسات سياج حجري من صف واحد على طرفيها الشرقي والجنوبي وجزئياً على الطرف الشمالي. تتكون المقبرة نفسها من عدة مدافن (في كل منها ما بين أربعة إلى ستة قبور) ممتدة بشكل خمس سلاسل من الشمال إلى الجنوب. وإلى ذلك تتصل بالجانبين الشمالي والجنوبي من أراضي المقبرة المسيجة مدافن صغيرة

تضم ما بين قبرين إلى أربعة. فيكون في المقبرة 35 - 40 قبراً. وهي عبارة عن مستطيلات مسيجة ممتدة من الغرب إلى الشرق (ويميلان إلى الشمال أحياناً). وللكثير منها، فضلاً عن ذلك، حواجز صخرية بيضوية تطوق السياج (شكل رقم 4 - 21). وقد حفرنا مجساً في موضع أحد القبور في الجزء الغربي من المقبرة. ويبدو أنه تعرض للنهب في الماضي (شكل رقم 4 - 22).



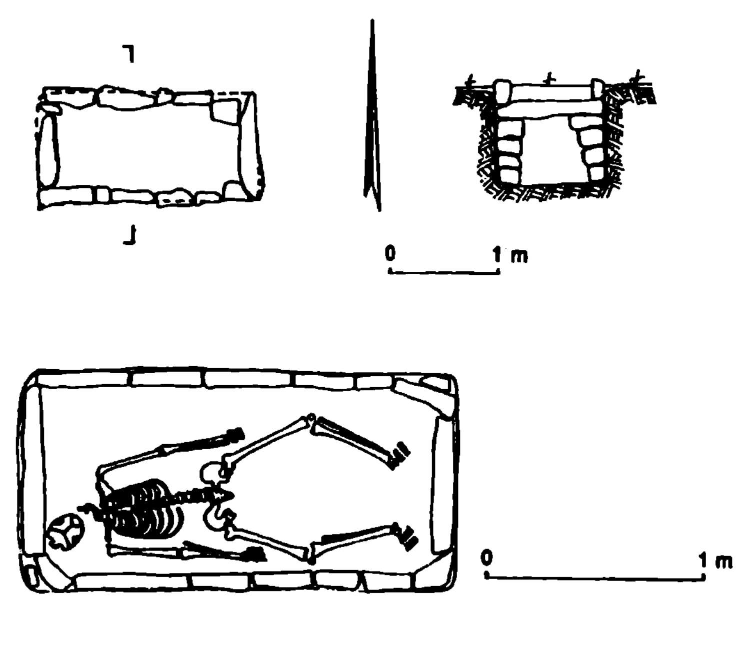
(شكل رقم 4 ـ 21) - (شكل رقم 4 ـ 22)

تقع مستوطنة ومقبرة متهيوبو على كلا جانبي الوادي. وقد احتفظ الزمن بأساسات زهاء عشر بنايات حجرية متقاربة دون انتظام. وهي تشغل على الجهة الشرقية من الوادي مساحة 40 × 50 متراً على وجه التقريب، فيما تشغل على الجهة الغربية مساحة 15 × 20 متراً. ويستدل من أنقاض الأساسات أن إحدى البنايات كانت منزلاً صغيراً من حجرتين 6 × 8 و 8 × 12 متراً، مسيجة بسور من الحجر. جدران المباني من حجر غير منحوت وبدون ملاط أو مخاليط تثبيت، ويبلغ ارتفاع بعض الأنقاض 1 - 5.1 متر.

المقبرة غير كبيرة نسبياً، وتضم قرابة أربعين قبراً بثلاث مجموعات على مسافة 15 - 20 متراً شمالي المستوطنة (شكل رقم 4 - 23)، والمجموعة الأكبر تتكون من 25 - 30 قبراً.

جنوبي هذه المجموعة، قرب أنقاض المباني مباشرة، تقع مجموعة صغيرة من ثلاثة أو أربعة قبور. والمجموعة الثالثة تقع على الجهة المقابلة من الوادي جنوب شرقي المجموعة الأولى، وتتكون من خمسة أو ستة قبور منقورة في المنحدر الصخري لمجرى الوادي.

البلاطات المستوية التي تغطي تلك القبور مكشوفة، وفي جميع القبور تقريباً نجد بلاطة أو بلاطتين مقلوبتين أو مزاحتين من موقعهما.



(شكل رقم 4 ـ 23)

المدافن في المجموعة الأولى تتخذ شكل مسلسلات من ثلاثة أو أربعة قبور (ويصادف أن تكون من ثمانية قبور) ممتدة من الشمال إلى الجنوب. المنشآت الخارجية الفوقية للقبور عبارة عن أسيجة أو حواجز مستطيلة الشكل من أحجار مطمورة لا يتجاوز ارتفاعها 25 - 30 سنتمتراً، والأرضية بداخل المدافن مفروشة بالحصباء الناعمة والتراب. أبعاد الحواجز 5.1 - 8.1 × 2.2 - 7.2 متر. واتجاهها من الغرب إلى الشرق، مع ميلان قليل إلى الشمال أحياناً. وفي حالات نادرة تكون الحواجز دائرية الشكل من أحجار مرصوفة، ويبلغ قطرها 8.2 متر. وثمة عدة مواضع تلتقي بالحواجز أو الأسيجة الكبيرة فيها حواجز مستطيلة صغيرة (0.8 × 4.1 متراً) في الاتجاه نفسه.

المجسات التنقيبية التي حفرناها في كلتا المقبرتين (كشفنا عن قبر منعزل واحد في طرف كل مقبرة) أسفرت عن تشابه كبير، في هيكلية القبور وطقوس الدفن، بينها وبين مقبرتي حاصن وشبهن (شبهون). وكما في تلكما المقبرتين وجدنا هنا حفرة قبر معمقة في التربة مبنية من أحجار غير منحوتة ومغطاة ببلاطات مستوية، الرفات لموتى انفراديين

راقدين على الظهر ورؤوسهم إلى الغرب أو الجنوب الغربي، ولا وجود للحاجيات والملتقطات جنب المعثورات العظمية في القبور.

واكتشفنا بقايا منزل فلاحي مع مدفن ملاصق له في منطقة جوزُف على مسافة كيلومتر جنوبي بلدة قرية الحالية (في الجزء الشرقي من سقطرى). أنقاض الحوش الفلاحي تقع على هضبة غير مرتفعة مطلة على منحدرات وادي قرية. وللأسف الشديد فإنها، شأن الكثير من المواقع الأخرى، مدمرة بالكامل تقريباً بسبب المباني الجديدة. إلا أن بالإمكان ترميم موقع الجدار العازل الذي هو على الخريطة أشبه بمستطيل من ثلاثة أضلاع مبني من صفوف حجرية غير متوازية ومهمته تطويق الحوش المطل على مجرى الوادي. وثمة آثار أربعة أو خمسة مشتملات مهدمة على امتداد الجدار، فيما تتكدس أنقاض بنايات أخرى غربي الجدار ذاته.

أما المقبرة المهدمة جزئياً ايضاً فتقع جنوب شرقي أنقاض المنزل الفلاحي، وقبورها المتجهة من الغرب إلى الشرق معلّمة بحواجز حجرية مستطيلة الشكل أبعادها: 8.0 - 0.1 × 7.1 - 1.2 متر. وفي الجزء الجنوبي من المقبرة، جنب أحد الحواجز، عثرنا تحت الطبقة الترابية الفوقية مباشرة على إبريقين من الفخار أحدهما مدفون على رأسه والآخر على قاعدته، ولعلهما من بقايا وليمة التأبين. وكان أحد القبور في وسط المقبرة مفتوحاً ومنبوشاً لحد التدمير تقريباً.

وقد تفقدنا مقبرة مماثلة على هضبة تبعد 20 متراً إلى الجنوب من قرية شبهن الحالية. الأهالي عثروا على بنايات القبور عندما كانوا يقطّعون الأحجار على الهضبة لأغراض البناء. أحد المدافن كان مدمراً بالكامل تقريباً، فيما دمر مدفن آخر بشكل باد للعيان، حتى إن ملتقطات الدفن كانت متناثرة حوله على منحدر الهضبة. وقد حفرنا مجسات في أربعة قبور لم يحتفظ الزمن بشيء منها تقريباً، إلا أن بقايا الأحجار التي فوقها تشير إلى أنها كانت في زمن ما حواجز كل منها يتكون من صف واحد من الحجارة.

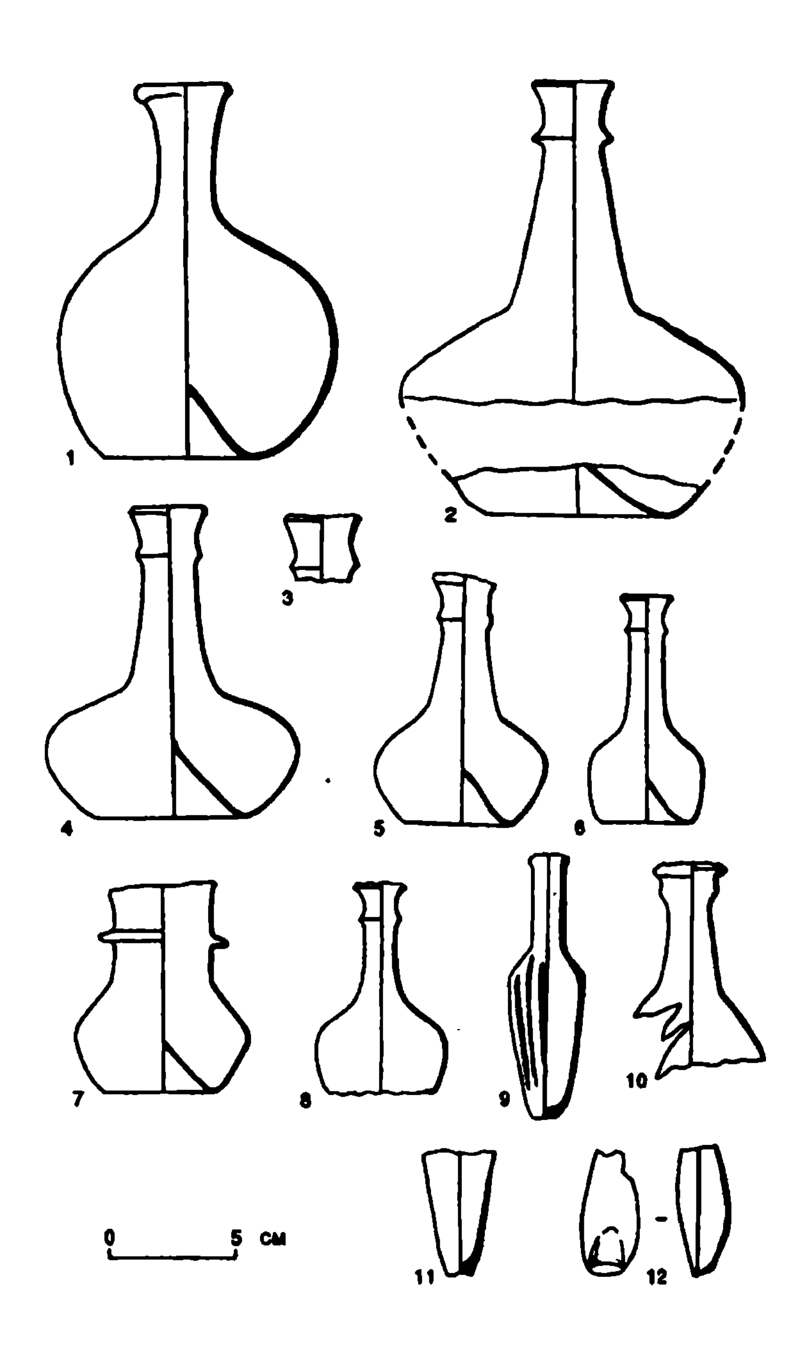
في شتاء 1989 اكتشفنا في قلنسية على الساحل الغربي لجزيرة سقطرى مقبرة جماعية غنية بالمعثورات والملتقطات. ففي الطرف الشمالي الشرقي للمدينة، على مسافة كيلومتر واحد تقريباً من الساحل، عثر أهالي ضاحية قدير على قبر قديم عندما كانوا يحفرون بئراً هناك. البلاطات التي تغطي حفرة القبر الصخرية وجدت على عمق نصف متر من سطح الأرض حالياً، لكن المنشأة التي فوق القبر لم يبق لها أثر. أزاح الأهالي

إحدى البلاطات ليتمكنوا من دخول الحفرة، وأخذوا من هناك قسماً كبيراً من الملتقطات ومستلزمات الدفن، بعد أن نبشوا القبر لهذا الغرض، وعندما علمنا بذلك مضينا للتأكد من القضية.

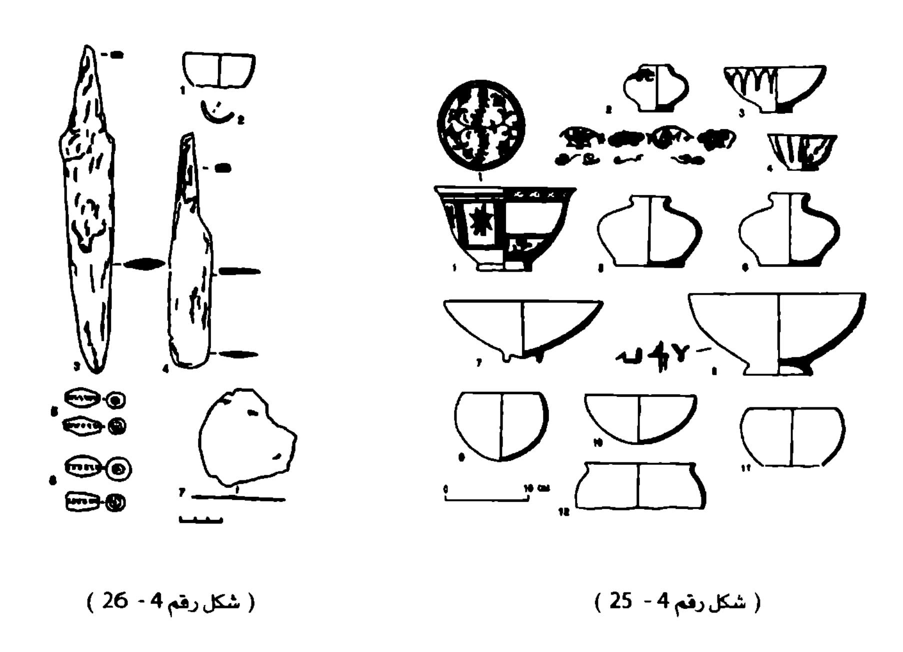
كان تحت بلاطات التغطية الحجرية الثقيلة سرداب دفن من نوع «الصناديق الحجرية» (بشكل قارب على مخطط الخريطة) بالأبعاد الداخلية التالية: 0.1 × 55.2 متر وبعمق 2.1 متر. أربعة أو خمسة صفوف من الكتل الحجرية الكبيرة تشكل الجدران، والصفوف العليا ناتئة الواحد فوق الآخر إلى داخل السرداب، ما يضيّق كثيراً الفجوة العليا المغطاة بأربع بلاطات كبيرة، والجانب الطولاني للسرداب يمتد من الشرق إلى الغرب، وفي الجدار العرضاني الشرقي، على ارتفاع 85 سنتمتراً من قاع الحفرة، فجوة صغيرة طولها 52 وعرضها 35 وعمقها 20 سنتمتراً.

كانت محتويات السرداب منبوشة ومشوشة تماماً عندما تفقدناها، وهي تشكل خليطاً أو طبقة سميكة نسبياً (تتجاوز الـ 20 سنتمتراً) من العظام والأضلاع والأعمدة الفقرية والجماجم السليمة والمهشمة تغطي قاع السرداب بأكمله، ولعل ذلك حصل بعد أن توغل الأهالي في القبر الكبير. وحدثنا شهود عيان فقالوا إن مستلزمات الدفن كانت سابقاً في الجزء الشرقي الأوسع لسرداب القبر، الأمر الذي يمكّننا من الافتراض، كما في المقابر الأخرى التي درسناها، بأنها وُضعت عند أقدام الموتى أثناء دفنهم. وخلال تفقد السرداب الكبير عثرنا نحن أيضاً على عدد من الملتقطات تحت الطبقة الترابية، وبينها ما مجموعه 12 وعاءً زجاجياً (سبعة منها سالمة، وخمسة مكسرة) و 8 أوعية خزفية مفخورة ومطلية بالدهان و 6 أوعية طينية صغيرة معمولة باليد وسكين وخنجر من الحديد وخرز حجري ومرآة برونزية وحلقة خاتم وكسرة كأس. وعلى أحد الكؤوس الخزفية ثلاثة أحرف كتبت بدهان بني اللون من أبجدية غير معروفة حتى الآن (شكل رقم 4- 24 و 4 - 25 و 4 - 26).

يعتبر العثور على هذا العدد الكبير من الملتقطات ومستلزمات الدفن في مدفن جماعي غير كبير نسبياً (ربما كان سرداباً لعائلة واحدة) أمراً غير مألوف بالنسبة لجزيرة سقطرى، ومن المحتمل في اعتقادنا أن توجد هنا مقبرة جاهلية قديمة لعلها مرتبطة بقلنسية.



(شكل رقم 4 ـ 24)

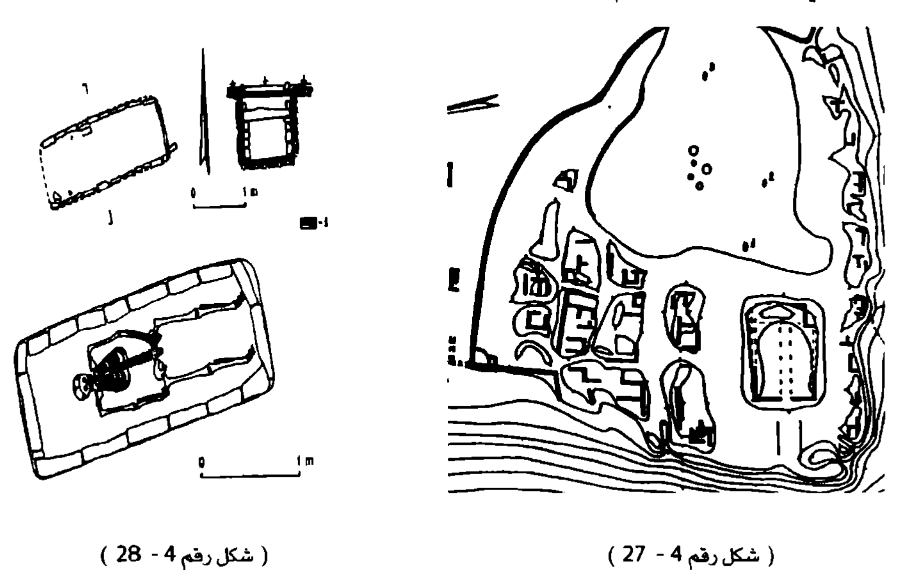


(شكل رقم 4 - 25)

(شكل رقم 4 - 26)

الحفريات في مستوطنة حجرة

من أهم الاكتشافات التي قامت بها بعثتنا ما تحقق في العام 1985، فقد اكتشفنا مستوطنة كبرى على مسافة كيلومترين جنوبي بلدة السوق الحالية على الضفة اليمنى (الشرقية) لمجرى وادي حجرة الذي يمتد إلى الساحل ويصب في البحر عند الطرف الشرقي للبلدة (شكل رقم 4 - 27 و 4 - 28).



(شكل رقم 4 - 27)

(شكل رقم 4 - 28)

المستوطنة على الخريطة عبارة عن مستطيل (100 × 130 متراً) بأضلع غير مستقيمة ومتوجهة صوب الجهات الأربع. وهي مطوقة بجدار أو سور تحصيني دفاعي عرضه نحو مترين، مشيد من الحجر غير المنحوت ومثبت بمخلوط الطين. ما بقي محفوظاً من ارتفاع الجدار غير كبير، في حدود 20 - 30 سنتمتراً. إلا أن معلومات المطلعين تقول إن الجدار كان قبل بضع سنوات على ارتفاع يتراوح في بعض أجزائه ما بين السبعين سنتمراً والمتر. الممر عبر الجدار التحصيني غير واضح المعالم نظراً للخراب الذي حل به، إلا أن البوابة يحتمل أن تكون في الركن الشمالي الغربي، فهنا في ركن المستوطنة، بناية تبدو دائرية على الخريطة (أساسات جدرانها محفوظة) قطرها 5 أمتار، ولعلها برج دفاعي. الجداران الغربي والجنوبي للمستوطنة مستقيمان يلتقيان في زاوية قائمة، أما الجداران الشرقي والشمالي فهما غير مستقيمين وفيهما نتوءات واستدارات واعوجاج.

المستوطنة مقسومة إلى قسمين متميزين: القسم الغربي الخاص بالمساكن والقسم الشرقي الذي يمثل مقبرة كبيرة في داخل الأسوار المحيطة بالمستوطنة، وفي الركن الجنوبي الغربي للمستوطنة بناية مستطيلة ضخمة أبعادها 15 × 30 متراً، والمتبقي من ارتفاع جدرانها قرابة مترين. وهي معزولة عن البنايات الأخرى «بشوارع» عرضها 10 - 12 متراً. جدران البناية (0.1 × 3.1 متراً) مبنية من الحجر المنحوت كيفما اتفق والمثبت بمخلوط الطين، ومن الخارج الجدران مطلية بطبقة طينية سمكها 5 - 7 سنتمترات (ظلت محفوظة في بعض المواضع على ظاهر الجدار الغربي). أما التخطيط الداخلي للبناية فيتكون من حجرات مستطيلة (عددها سبع، أغلب الظن) مترابطة فيما بينها بممرات.

الركن الشمالي الغربي للمستوطنة تشغله بنايات حجرية متحاشكة، وهو ملاصق لقطاع الجدار التحصيني الغربي، تفصله عن الجدار الشمالي، وعن البناية القائمة على انفراد في الركن الجنوبي الغربي، شوارع عرضها 7 - 10 أمتار، مساحة مباني هذا الركن إجمالاً 60 × 70 متراً. وهو مقسم إلى عشرة أو أحد عشر منزلاً (15 . 15 × 30 - 40 متراً) يفصل بينها شارعان عرضهما 5 - 7 أمتار يتجهان نحو الغرب وزقاقان متعامدان مع الشارعين عرضهما متر أو متر ونصف. التخطيط الداخلي لهذه المنازل يتكون من عدة حجرات مستطيلة أبعادها 6 × 8 و 8 × 10 أمتار، والمتبقي من جدران هذه المباني على ارتفاع 50 - 70 سنتمتراً، وهي مبنية من أحجار منحوتة كيفما اتفق ومثبتة بخليط الطين. وعلى امتداد الجدار التحصيني الجنوبي وقسم من الجدار الغربي تلاحظ، على

الخريطة، آثار بنايات مستطيلة (5 × 6 و 4 × 7 أمتار) متلاصقة في صف واحد.

الجزء الشرقي من المستوطنة تغطيه مقبرة كبيرة تحاذي قبورها التي في أقصى الغرب منازل المستوطنة ومبانيها، الشواهد والمنشآت التي فوق القبور عبارة عن أسوار أو حواجز من الحجارة، مستطيلة الشكل على الخارطة (0.1 - 1.1 × 2.2 - 4.2 متراً) متجهة من الغرب صوب الشرق، مع ميلان نحو الشمال أحياناً. وهي تشكل عادة سلاسل من ثلاثة أو أربعة قبور (تصل أحياناً إلى 8 - 12 قبراً) ممتدة من الشمال إلى الجنوب. وفي بعض المواضع نرى حواجز متماسة فيما بينها، وكذلك حواجز محاطة بصفين إضافيين مشتركين من الحجارة المرصوفة بشكل مستطيل أو دائري بيضوي. وفي أحيان نادرة نصادف حواجز منفردة لبعضها صف حجري إضافي خارجي مستطيل أو بيضوي.

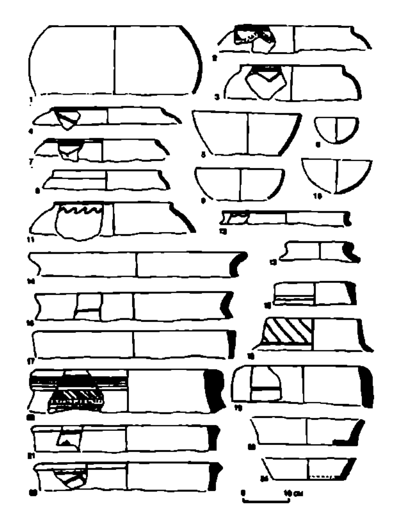
أشكال المنشآت فوق قبور الجزء الشرقي من المقبرة تختلف بعض الشيء عن غيرها من شواهد القبور، فهي عبارة عن حواجز وأسيجة غير كبيرة (3.1 - 6.1 × 4.0 - 7.0 متراً) أقرب إلى الشكل البيضوي، ومتجهة عادة من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي، ومن الشرق نحو الشمال الشرقي، ومن الجنوب الغربي نحو الغرب، وفي أحيان نادرة من الغرب نحو الشرق، وهي موزعة عادة دون انتظام، ماعدا عدة قبور تشكل سلاسل من قبرين أو ثلاثة.

واتضح لنا بعد حفر مجسات تنقيبية في الجزء الجنوبي الغربي والجزء الشرقي من المقبرة أن القبور المنفردة والمنعزلة شبيهة بالقبور التي حفرنا مجسات منها في مقابر حاصن وشبهون وميوبرهم ومتهيوبو من حيث هيكلية المدافن (سرداب حجري مغطى ببلاطات مسطحة)، ومن حيث طقوس الدفن (الجثمان مسجى وحده على الظهر ورأسه إلى الغرب، ولا وجود للحاجيات والملتقطات).

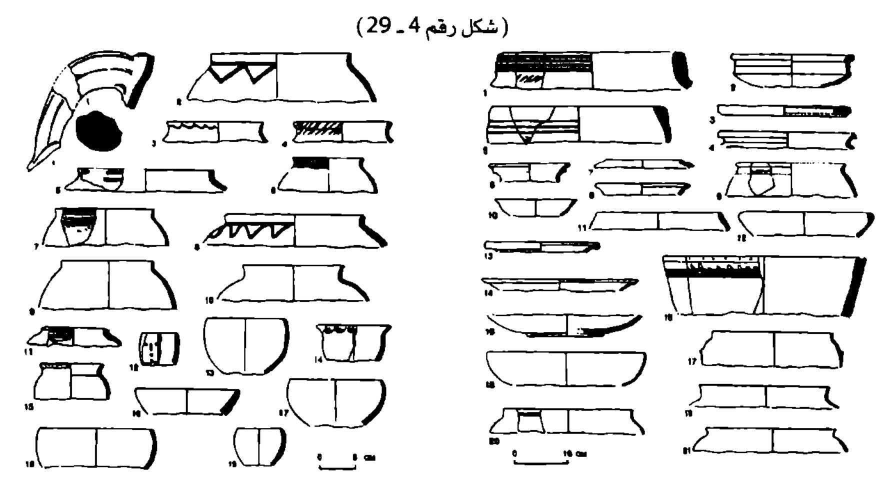
الجزء الأوسط من مقبرة المستوطنة خال من القبور، وفيه أربع تشكيلات من الحجارة المرصوفة بدوائر أقطارها مختلفة تتراوح بين مترين إلى سبعة أمتار، ولعلها بقايا آبار مندثرة أو أجباء (أحواض) أنشئت فيما بعد لسقي الماشية.

المعثورات والملتقطات التي اكتشفناها في هذه المستوطنة عام 1985 وعام 1987 مكّنتنا من الخروج باستنتاج أولي في شأن تاريخ نشوئها، فقد عثرنا على حطام كثير من

الأواني ذات الصفة السقطرية الصرف في الطبقة الترابية على أرض المستوطنة وفي داخل المجسات التنقيبية التي حفرناها وسط أنقاضها. ومنها كسر جرار فخارية ذات قواعد مستديرة ومسطحة مع نقوش وخربشات مرسومة بطريقة الحز، ومعظمها مستوردة من الخارج، ما يعني أنها كانت حيز الاستعمال كأدوات مطبخ، والجرار معمولة باليد من دون دولاب الخزف، وظاهرها مصقول بعناية بمحك أصداف القواقع. شكل الجرار والنقوش التي عليها وطريقة صنعها شبيهة بالآنية السقطرية التقليدية الحالية (شكل رقم 4 - 29 و 4 - 30 و 4 - 31).



(شكل رقم 4 ـ 29)



(شكل رقم 4 ـ 30 و 4 ـ 31)

إلى جانب حطام الجرار عثرنا على آنية مغايرة لها تماماً، إنها كسر أوانٍ كبيرة معمولة من طين فاتح اللون ظاهرها مطلي بشتى تلاوين الأخضر: من الفيروزي الفاتح إلى الأخضر الغامق أو الداكن، وكذلك أجزاء من الخزف المطلي بطين أحمر برّاق وسط هالة بنية داكنة. كل هذه الأوعية الفخارية مصنوعة على دولاب الخزف ذي المحور الدوّار، وهي بمعظمها تعود إلى القرون 10 - 13 للميلاد. أما من حيث الشكل فهي شبيهة بالخزف المكتشف في شبه جزيرة العرب وسواحل الخليج العربي. وأثبتت العينة التي أخذناها للتحليل الإشعاعي الكاربوني، من الملتقطات المكتشفة في أنقاض أحد المساكن جنب الجدار التحصيني، صحة التاريخ لسنة 1190 ميلادية زائداً ناقصاً 140 سنة (العينة رقم LE - 4318 وقد تم تحليلها في سان بطرسبورغ ـ روسيا).

ومن بين الملتقطات على سطح التربة في المستوطنة كسر من آنية وأوعية خزفية أقدم بكثير، ومنها كسرة مقبض قارورة أمفورة رومانية ثقيلة وحطام كؤوس وقصاع مطلية باللك الأحمر، ولعلها مصنوعة في بلاد البحر الأبيض المتوسط في القرون الأولى للميلاد. وعثرنا هنا على حطام أوان سوداء ورمادية اللون، لعلها هندية المنشأ، وكذلك أوعية مقولبة سميكة الجدران شبيهة بما تم اكتشافه اثناء حفريات وادي حضرموت في الطبقات الأثرية الحضارية العائدة للقرون 1 - 4 للميلاد. ولبعض حطام الخزف شبهٌ مباشر بملتقطات حفريات مستوطنة قنا من الطبقات الأثرية العائدة للقرنين 3 ـ 4 والقرنين 5 - 6 للميلاد (حفريات ميناء قنا في مملكة حضرموت على مقربة من بلدة بيرعلي حالياً تمت على يد البعثة اليمنية السوفيتية المشتركة في أعوام 1985 - 1990). وإلى جانب كسر وحطام الأواني الخزفية الأجنبية عثرنا في المستوطنة على آنية محلية الصنع ذات مواصفات سقطرية.

وقد مكّننا التحليل الأولي لملتقطات مستوطنة حجرة من الخروج باستنتاجين، أولهما أن هذه المستوطنة ربما ظهرت إلى الوجود في القرون الأولى للميلاد. ولعل أنقاضها هي «آثار الحضارة الكلاسيكية القديمة... على الصخور الكلسية المتعرية في شمال» جزيرة سقطرى والتي لم يوفّق بيتر شيني في اكتشافها (Shinnie, 1960:108). ثانياً ـ لم تعد المستوطنة مسكونة ومأهولة اعتباراً من القرن الثاني عشر أو الثالث عشر للميلاد.

القبور التي عثرنا عليها ودرسناها تعود إلى عصر ما قبل الإسلام (الجاهلية) في تاريخ سقطرى. والدليل على ذلك هو طبيعة الدفن (وضعية الجثامين ووجهة الرؤوس

وكذلك وجود المقابر الجماعية ووجود عظام الحيوانات في قبور الناس) وهيكلية الشواهد والمنشآت التي فوق القبور والمحيطة بها (السراديب الحجرية المغطاة بالبلاط) ووجود مستلزمات الدفن والحاجيات داخل القبور.

ومن الصعب جداً تحديد التاريخ الدقيق للقبور ولأنقاض المباني القريبة منها، ولذا فالتوثيق الزمني المقترح افتراضي صرف. التحليل الكولاجيني لعظام مقبرة شبهون، مثلا، يترك مجالاً واسعاً لتحديد العمر المطلق لمدافنها التي يمكن أن تكون قد أنشئت في حقبة زمنية تعود إلى ما قبل 790 – 1110 سنوات، بمعنى أنها يمكن أن تعود إلى الفترة بين عام 875 وعام 1197 للميلاد (أجرى هذا التحليل الخبير ل. سوليرجيتسكي من مختبر التوثيق الزمني المطلق والكيمياء الجيولوجية للنظائر في معهد الجيولوجيا التابع لأكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي السابق).

اما الأواني الخزفية من المقبرة الجماعية قرب قلنسية فتعود، على الأرجح، إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد (ولربما إلى القرن الرابع عشر). وينبغي أن يشمل هذا الاستنتاج الأولي الآنية الخزفية المطلية بالدهان الأزرق والأخضر الفاتح والتي يرجع أنها صنعت في زبيد (اليمن) أو في بعض مناطق جنوب بلاد فارس، وكذلك الآنية التي جلبت إلى سقطرى من جنوب الصين وبلدان أخرى في جنوب شرقي آسيا. (ويطيب لنا بهذا الخصوص أن نعرب عن الامتنان الخالص على التوضيحات والمشورة لزميلنا ب. ليون من المركز الوطني للبحوث العلمية في فرنسا ـ CNRS).

القبور التي قمنا بمسح لها وحفرنا مجسات تنقيبية في مواقعها بمقبرة حجرة شبيهة، من حيث مكان الدفن ومن حيث المنشآت التي فوق القبور، بالمدافن التي درسناها في المقابر الأخرى (حاصن وحوزُف ومتهيوبو وميوبرهم). الأطر الزمنية المفترضة لتاريخ المستوطنة ولمقبرتها، تتراوح ما بين بدايات الألفية الثانية والقرون 12 - 13 للميلاد. ومن المحتمل تماماً أن تكون جميع المقابر عائدة لنفس الفترة (وقد تكون هذه الفترة في القرن الرابع عشر الميلادي). وواضح أن الجزيرة حتى القرنين الثاني عشر والثالث عشر، اللذين هما الفترة الأكثر احتمالاً لظهور تلك المقابر، لم يصلها الإسلام، وإلا لظهرت فيها مقابر إسلامية.

المقابر الترابية الإسلامية الحالية في جزيرة سقطرى تدل على صلة واضحة بتقاليد وطقوس المدافن السقطرية في عهد ما قبل الإسلام، فهناك مقبرة إسلامية معاصرة

تحتوي ما بين 80 إلى 100 قبر جنب مقبرة ميوبرهم القديمة. المنشآت فوق تلك القبور عبارة عن أسيجة صغيرة مستطيلة الشكل تقريباً، أو بيضوية ممدودة، أبعادها 0.4 - 0.6 × 1.2 - 1.6 متر. الجانب الطولاني للسياج يمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، وأحياناً من الشمال إلى الجنوب، وداخل السياج على محوره الأوسط غرز حجران أو ثلاثة بصورة عمودية، وبعضها مجسم ومنحوت بشكل وجه بشري لا على التعيين. وقد أبلغنا الأهالي أن موتى القرى المجاورة لا يدفنون في هذه المقبرة، لأنها تستخدم فقط لدفن البدو الجبليين أو القادمين من أماكن أخرى للعمل في مزارع النخيل في الوديان القريبة.

إلى جنوب مستوطنة حجرة، وببعض الانحراف عنها، توجد أيضاً مجموعة صغيرة من القبور الإسلامية لا تتجاوز العشرة، تحيط بها أسيجة حجرية، بيضوية أو مستطيلة الشكل، على الخريطة، وممتدة من الشمال إلى الجنوب، ومعظمها مسيج بخط بيضوي إضافي من الحجارة (وهناك قبر بدائرتين من هذا النوع). وفي داخل السياج على امتداد محوره الأوسط، حجر أو حجران مغروزان في العادة، والجزء العلوي منهما مجسّم بشكل بشري أحياناً. أبعاد هذه الأسيجة: 0.5 - 0.7 × 1.2 - 1.45 متر، والدائرة الخارجية تطوق مساحة تبلغ أبعادها: 2.1 – 6.1 × 9.1 – 1.2 متر. وبذلك نجد في المقبرة الإسلامية تشابهاً كبيراً مع المقابر القديمة، إلا أن لمنشآتها أسيجة ذات شكل مغاير (في العادة بيضوي تقريباً) وأبعاداً أخرى (أصغر، وأحياناً أصغر بكثير)، وكذلك توجهات مغايرة (القبور القديمة تمتد في الاتجاه الشمالي مع بعض الانحراف عنه) بالإضافة إلى وجود أحجار مغروزة في داخل السياج المحيط بالقبر.

الأهمية الحضارية والتاريخية للحفريات

دراسة المعثورات الحضارية المادية المكتشفة أثناء التنقيبات في مدافن المقابر الترابية، شأن الدراسة المقارنة للمدافن والقبور نفسها، تُمكّننا من الخروج ببعض الاستنتاجات الأولية ذات الصفة الحضارية التاريخية. فإن التشابه بين أنواع المدافن والقبور التي قمنا بمسحها ودراستها في مختلف المقابر، المتباعدة في الغالب، يدل أغلب الظن على الوحدة الحضارية والإثنية للسقاطرة القدامى الذين خلّفوا هذه المقابر، أو على أية حال سكان ذلك الجزء من الجزيرة الذي نعرف بوجود مثل هذه المقابر فيه.

ومن بين ملتقطات الدفن المجلوبة من الخارج دون ريب (الخرز الحجري والزجاجي، مثل خرز مقبرة شبهن، يضم خرزات هندية منقوشة بلون العقيق الأحمر البرتقالي، وخرزاً مصنوعاً من الأحجار شبه الكريمة: اليشم والمرجان والماندين والكهرمان والجمشت وعقيق الأجيت والبلور الجبلي والسيلكا أو عين النمر والزجاج الأزرق المعتم، وكذلك الآنية والأوعية الزجاجية وأقراط البرنز والجرار الخزفية المطلية) - من بين تلك الملتقطات والمعثورات مصنوعات محلية، منها جرار خزفية يدوية الصنع ذات قواعد مستديرة، وسكاكين حديدية ذات مقابض وبشفرات عريضة، عثرنا عليها في مدافن شبهون وحاصن وميويرهم وفي المقبرة القريبة من قلنسية. ولا تزال أنواع مماثلة لهذه المصنوعات تماماً تصنع وتستخدم في معيشة السقاطرة حتى اليوم، ولا يستبعد وجود تواصل حضاري بهذا الخصوص بين سكان سقطرى الحاليين وأسلافهم في غابر الزمان.

ومن هذه الناحية تتسم بأهمية معينة توضيحات السقاطرة الذين شاركوا معنا في الحفريات بشأن بعض المعثورات في المقابر، فهم يقولون إن السقاطرة اعتادوا على صنع جرار خزفية صغيرة كالتي عثرنا عليها في مقبرة حاصن لمناسبة عيد الأضحى إحياءً لذكرى الأطفال المتوفين، وذلك بمعدل جرة لكل طفل ميت. وفي اليوم الأول من العيد يصبون الماء في هذه الجرار ويشربونه ثم يهشمونها ويرمونها. ويقول الشيخ محمد مبارك علي من بلدة حاصن ربما كان الناس يضعونها في القبور مع الموتى من الأطفال أو من الكبار الذين معهم أطفال موتى، ولم تبق من هذه العادة الآن سوى ذكراها.

السقاطرة المعاصرون لا يضعون شيئاً من الحاجيات في القبور، ولكنْ إذا توفي شخص لا أقارب له فالقبيلة تدفن حاجياته معه (ما عدا الماشية) ولا تستأثر بها.

السكاكين الحديدية التي عثرنا عليها في المقابر كانت بدون مقابض، فقد بليت مقابضها. ولعلها مصنوعة من مواد عضوية لم تبق محفوظة في التربة أو أنها كانت ذات قيمة مادية بالنسبة لمجايلي المتوفى، فكانوا ينتزعونها من السكاكين. السقاطرة المعاصرون يصنعون مثل هذه المقابض من قرون الماعز بعد أن يعرّضوها للنار كي تلين ويعدلوها بالشكل المطلوب. وكان من بين السكاكين التي عثرنا عليها واحدة بشفرة مثلثة ناتئة، وهي تشبه السكين الحديثة المستخدمة لإستخلاص النوى من حبات التمر. وهناك سكين أخرى شفرتها أشبه بورق النبات، وهي تذكرنا بمبضع الختان، وبالفعل يستخدم السقاطرة في عملية الختان سكاكين شبيهة بالسكاكين القديمة: بمقبض من قرن الماعز وشفرة حادة من جانب واحد.

عثرنا على الخرز في عدة قبور، ويقول الأهالي إن للقلائد والخرز وظيفة صد الشرور والحماية والعلاج. كان الناس يرتدون قلائد الخرز من حجر أبيض كبير على الرقبة لكي تجف البثور على الرأس (استخدامها لهذا الغرض نادر الآن، والمتقدمون في السن هم الذين يرتدونها بالأساس)، والرأي السائد أن الخرز يشفي البثور المتقيحة (وهي مرض كان منتشراً عند السقاطرة). ثم إن قلائد الخرز الملون تستخدم بمثابة تعاويذ وطلاسم تقي الناس من لسع ذباب «داء المثقبيات» الذي يمكن أن يقود إلى الموت (راجع الفصل التاسع). ويقول الأهالي إن قلائد الخرز الناعم تشد على سواعد الأطفال فوق الكوع لحمايتهم في الجبال. ويشد الناس حبلاً بخرزة بيضوية كبيرة حول الخصر بحيث تكون الخرزة على الظهر «لتقيه» من الآلام في موضع القطَن!

السقطريون المعاصرون يتصورون وجود عظام الماشية (الماعز) في داخل القبور أمراً مهولاً، ولم يكونوا على أية حال يعرفون بذلك في الماضي القريب.

إلى جانب المقابر الترابية اكتُشفت في سقطرى مدافن جماعية في الكهوف الجبلية الطبيعية. ويقدم برايان دو وصفاً «لمقبرة صخرية» من هذا النوع في جبل حواري شرقي بلدة السوق، وبقايا أنقاض المباني التي يمكن أن تنسب إلى مدينة السوق القديمة منتشرة على السفوح السفلى للجبل. وعلى مقربة منها تعرية صخرية وجد فيها برايان دو أربعة كهوف أو شقوق ضيقة مداخلها مسدودة بحجر وطين. العظام هناك في حالة سيئة للغاية، فهي مهشمة ومتناثرة. ولعلها كانت جزءاً من مدافن جماعية ونقلت إلى هنا لتدفن مرة ثانية. ولم يعثر العالم الأثري الإنجليزي على ملتقطات الدفن(Doe، 1992: 88 -85)، كما أن بيتر شيني تفقد مقبرة حجرية في كهف آخر على مقربة من كيشن (Shinnie, 1960: 106).

في العام 1985 عثرنا، أنا وفلاديمير شينكارينكو، على مدفن من هذا النوع في سفوح جبل بغبغة المطل على الضفة الأخرى للوادي، في موقع يبعد كيلومترين تقريباً جنوب شرقي بلدة شوعب. فهنا ولمسافة 100 متر تقريباً في أعالي الجبل، يوجد كهف طبيعي كبير أشبه بالقبة، ارتفاعه 2.3 - 3 أمتار على وجه التقريب، وقطره نحو 4 أمتار. المدخل البيضوي إليه على الجانب الجنوبي الغربي من الجبل، كان في زمن ما مسدوداً بجدار من الحجارة والطين، إلا أن الأطفال الذين كانوا يلعبون هناك حفروا منفذاً في الجدار. وفي داخل الكهف هياكل عظمية متناثرة لعشرة أشخاص وعظام ماعز.

وعلى مسافة 30 متراً تقريباً إلى الجنوب الشرقي من الكهف اكتشفنا على صخرة الجبل عدة مدافن أخرى، وكانت مداخل ثلاثة كهوف صغيرة منها على الجانب الشمالي الغربي من الجبل، وهنا أيضاً وجدنا فجوات في الجدران الحجرية التي تغطي المداخل.

بعثنا عينات من عظام المقابر الجماعية على سفوح جبل بفبفة إلى معهد الجيولوجيا التابع لأكاديمية علوم الإتحاد السوفيتي، وأجرى الدكتور سوليرجيتسكي من مختبر جيوكيمياء النظائر تحليلاً كولاجينياً بروتينياً لتلك العظام، وأثبت التحليل أن عمر العظام 1300 عام، وهذا يعني أن المدافن تعود إلى سنة 685 ميلادية على وجه التقريب.

وتفقدنا مقابر جماعية في كهوف مماثلة في ممر جبلي قرب قرية قاضب الواقعة في المنطقة الوسطى من الساحل الشمالي لجزيرة سقطرى، وكذلك في رأس بادوه (بدو) جنوبي قلنسية.

ورغم نتائج التحليل الكولاجيني لا يجوز القول إن مشكلة تحديد عمر وتاريخ مقابر الكهوف قد حلت نهائياً، فقد علمنا أن أهالي الجبال لا يزالون حتى اليوم يدفنون موتاهم أحياناً في الكهوف والمغارات الطبيعية ويسدون منافذها بالحجارة. وهم يفعلون ذلك عادة في فترات الجفاف أو انتشار الأوبئة، عندما لا يقوى الناس على حفر القبور. ثم إن المؤرخين والمدونين في القرون الوسطى أشاروا إلى ممارسات السقاطرة لدفن موتاهم في الكهوف. ويعتقد برايان دو أن الكهوف استخدمت لإعادة دفن الموتى الذين سبق أن دفنوا في قبور منفردة بأماكن أخرى من الجزيرة (Doe, 1992: 88 -85).

وثمة في سقطرى مجموعة خاصة من مخلفات المستوطنات القديمة ذات صلة بتواجد المهريين في القرنين الخامس عشر والسادس عشر واحتلال البرتغاليين الجزيرة لأمد قصير في السنوات الأولى من القرن السادس عشر (راجع التفاصيل في الفصل الثاني من الكتاب).

التحصينات والمنشآت الدينية

عندما نزل البرتغاليون في سقطرى في يناير 1507 أضطروا، كما أسلفنا، إلى اقتحام القلعة المحصنة التي بناها المهريون في السوق، ويمكننا أن نستشف من الأنقاض المتبقية في جبل حواري شرقي بلدة السوق (مدينة شأق حالياً) صورة تطابق بدقة أوصاف الهجوم

على القلعة كما وردت في مصادر ذاك الزمان. تقع القلعة على تلة في الجبل المطل على بلدة السوق من جهة الشرق، ويمكن الوصول إليها بالمسلك الصاعد نحو الشمال من الهور (شكل رقم 4 - 32).



(شكل رقم 4 ـ 32)

برايان دو اكتشف على القمة بقايا التحصينات التي كانت على ما يبدو تحمي مدخل القلعة، والأسوار الدفاعية المبنية من أحجار مرصوفة بشكل صفوف غير متوازية ومثبتة بملاط إنشائي، تبدو كأنها انعكاس للتضاريس الطبيعية المحيطة بالمكان، وتشكل في الركن الشمالي الأقرب إلى البحر برجاً محصناً نصف دائري. وفي داخل القلعة حوض بيضوي كبير لخزن المياه. أما في الركن الجنوبي الشرقي فتوجد علية حجرية بشكل مربع منحرف أبعاده على وجه التقريب: 2.5 × 6.11 متراً، ولها صفان من المدرجات أحدهما يقود إلى داخل القلعة والآخر إلى خارجها (Doe, 1970:46, 1992:84). ولعل البرج الذي احتمى به آخر المدافعين عن القلعة كان قائماً في هذا الموضع (راجع الفصل الثاني).

يعتقد برايان دو أن القلعة على التلة في جبل حواري «برتغالية»، لكنه لم يقدم أدلة على أن البرتغاليين هم الذين شيدوها. وتفيد المدونات البرتغالية أن الغزاة عندما انتزعوا القلعة من العرب قاموا بإعمارها وغيروا اسمها إلى قلعة القديس ميكائيل واستخدموها لإسناد الحامية التي تركوها في سقطرى. وبعد بضع سنين، عندما دخل أبناء قبيلة المهرة

الجزيرة من جديد، واصلوا على الأرجح استخدام القلعة وعززوا منشآتها الدفاعية بأعمال إنشائية إضافية.

وقد أجرينا نحن مسحاً لمنشأة تحصينية أخرى، هي «القلعة الدنيا» الواقعة على مسافة 50 متراً تقريباً جنوبي المباني الحالية في بلدة السوق، وهي تكاد تكون مدمرة بالكامل، إلا أن بالإمكان تصور مخططها ورسمه بشكل أقرب إلى الأصل. إنها عبارة عن بناية مستطيلة أبعادها 20.35 × 25.15 متراً. ولها في أركانها الأربعة أبراج مستديرة قطر الواحد منها 5.4 أمتار تقريباً. وكان بيتر شيني حفر في العام 1956 مجسات تنقيبية في عدد من مباني أسوار القلعة وتوصل إلى استنتاج مفاده أن المعثورات الخزفية المطلية التي اكتشفها فيها تعود إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر (Shinnie, 1960:105).

أما برايان دو فيقارن بين مخطط «القلعة الدنيا» وبين مخطط بناء مماثل استخدم في قلاع حضرموت التي يسميها سيرجينت بالقلاع «اليافعية» (Sergeant, 1963:156)، ويشير برايان دو إلى احتمال تشييد القلعة في سقطرى بعد عام 1541، نظراً لاحتلال الجزيرة من قبل المهرة (Doe,1992: 91 والمراجع الآنّفة الذكر). قلاع يافع في حضرموت مربعة أو مستطيلة على الخارطة، وأبراجها أسطوانية الشكل ولها فوهات قتال في كل ركن، واليمنيون يصفونها بحصون المآثر التاريخية. ولا تزال هذه المنشآت قائمة حول يافع وفي أماكن أخرى من حضرموت، ومن أفضل نماذجها المتبقية حتى اليوم قصر الكثيري في سيئون العاصمة الشمالية لسلطنة حضرموت.

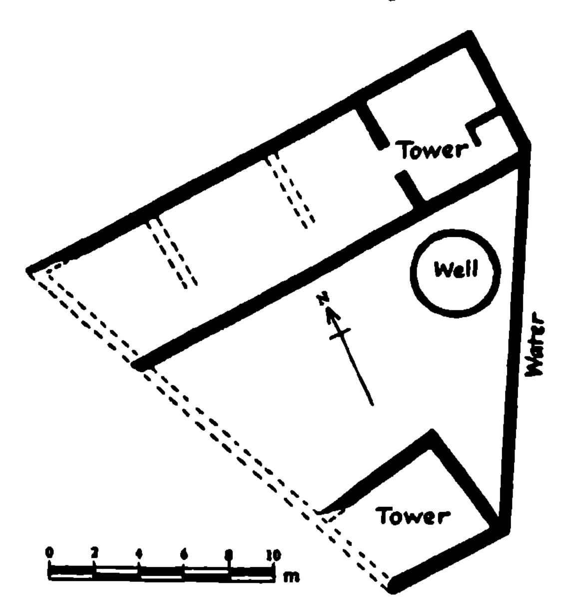
على الأطراف الجنوبية لبلدة السوق بقايا قلعة أخرى غير كبيرة، مستطيلة الشكل على الخارطة. وفي ركنها الشمالي الشرقي برج دائري قطره 3.5 أمتار تقريباً، وإلى الشمال من هذه الأطلال نجد مخلفات بناية مستطيلة أخرى أبعادها على وجه التقريب: 12 × 23 متراً. وقد تساءل برايان دو: ألا يحتمل أن يكون أحد المبنيين هو القلعة العربية التي احتلها البرتغاليون في العام 1507 ؟ (Doe, 1970: 47, 1992: 93 -90).

على مقربة من حديبو تلة مخروطية ناتئة يسميها الأهالي جبل حصون، وعلى قمتها أنقاض قلعة ظلت محفوظة بشكل لا بأس به. يقول برايان دو إن معبداً رائعاً كان قائماً في هذا المكان على ما يبدو، وقد كتب عنه ديودوروس الصقلي في القرن الأول للميلاد (راجع الفصل الثاني) على الرغم من عدم وجود أية مؤشرات منظورة على ذلك المعبد في هذه البقعة المحاطة بأسوار تحصينية متينة أبعادها: 15 × 18 متراً على وجه التقريب، وفي

داخلها حوض مساحته 6.7 × 8.0 متراً تقريباً وعمقه ما لا يقل عن 1.5 متراً.

وكان لهذه القلعة الحصينة موقع إستراتيجي مهم على السهل الساحلي الشمالي على الجهة الأخرى لمدينة حديبو الحالية. ولذا يجمع كل الباحثين (بونت ودو وشيني) على أنها بنيت في عهد وجود المهريين في سقطرى (Doe, 1970:41 - 42, 1992:62 - 63. Shinnie, 1960: 03 - 104).

وفي وادي فرحة (فراجي) عند المنحدرات الجنوبية لجبال حجهر، بقايا قلعة أخرى اكتشفها جيمس ثيودور بونت عام 1897، وجنبها تقع، على ما يبدو، أطلال إحدى القرى. وقد كتب بيتر شيني عن هذه القلعة القائمة في أضيق قطاع من الوادي بشكل مثلث، على الخريطة، إذا نظرنا إليها من الأعلى (شكل رقم 4 - 33). وكان في اثنين من أركانها برجان مستطيلان، وقد تم اكتشاف بقايا حجرات صغيرة في الجزء الداخلي من أحد الأسوار، فيما كان هناك بئر في أحد أركان الباحة. وكان شيني يعتقد أن القلعة ربما بنيت من قبل المهريين لغرض التحكم ببدو سقطرى، ولعل ذلك حصل عندما استعاد المهريون سلطتهم على الجزيرة بعد رحيل البرتغاليين في القرن السادس عشر (Shinnie, 1960:107).



(شكل رقم 4 ـ 33)

كانت القلعة في الواقع تهيمن على الطريق الرئيسي المؤدي إلى شمال الجزيرة من

جنوبها، وما دامت قائمة في وسط المنطقة فهي على الأرجح كانت بمثابة أفضل قاعدة ينطلق منها المهريون للتوغل في الجزيرة أو لشن حملات تأديبية على السكان الأصليين لإخضاعهم.

في البقعة التي تقع فيها السوق حالياً قام كل من بيتر شيني وبرايان دو، ونحن من بعدهما، بمسح ودراسة بقايا مبنى كبير لكنيسة نصرانية، حسب تقديراتهما ، ومعروف أن البرتغاليين أقاموا قدّاساً في يوم نجاح نزولهم في سقطرى، أقاموا القداس في المسجد الواقع على مقربة من القلعة التي احتلوها، وكما هي العادة حولوا المسجد إلى كنيسة وأطلقوا عليها اسم كنيسة العذراء أو كنيسة النجاح. ويفترض أن شيني وبرايان دو حفرا أنقاض هذه الكنيسة بالذات، الأول في العام 1956 والثاني في العام 1967، إلا أن تخطيط الكنيسة الذي يتحدثان عنه غير متطابق في الأبعاد واتجاهات الجدران (Shinnie, 1960: شكل رقم 3 -Doe,1970: شكل رقم 26، وكذلك (90- Doe,1992:87.)

أبعاد مبنى الكنيسة، حسب معلومات برايان دو، كالتالي: 2.12 × 2.15 متراً. جدارها الأطول متجه من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وقد بقيت محفوظة لدرجة كبيرة معظم أجزاء الأرضية المجصصة التي تقوم عليها أساسات تسعة أعمدة في ثلاثة صفوف، وكذلك جزء من الجدار الشمالي الشرقي للمبنى وسمكه 80 سنتمتراً تقريباً. ولربما كان هناك في الجانب الشرقي صف رابع من ثلاثة أعمدة مهدمة حالياً، الأمر الذي يجعل بالإمكان الافتراض بأن سقف المبنى كان يستقر على 12 عموداً. أساسات الأعمدة ذات قطاعات عرضية مختلفة الأشكال: مربعة وثُمانية الأضلاع وصليبية وبشكل نجوم ثُمانية، على الرغم من عدم بقاء أية أجزاء من الأعمدة نفسها أغلب الظن. ويعتقد برايان دو أنها كانت خشبية على الأرجح، إلا أننا عثرنا بين أنقاض الكنيسة عام 1987 على مقاطع حجرية دائرية من أعمدة مركبة قطرها 40 سنتمتراً تقريباً، وهي مجوفة في الوسط لغرض تركيب أحدها فوق الآخر.

في منتصف الجدار الشمالي للمبنى علية واطئة نسبياً ومجصصة اعتبرها برايان دو «مائدة» أو «مصطبة». وأبعادها: 0.9 × 1.9 متر، ونظراً لهذه الأبعاد فهي يمكن أن تكون مذبحاً. وفي الجدار نفسه ثغرة بعتبة حجرية أو مدخل عرضه متر ونصف المتر تقريباً يقود إلى علية أو فسحة مجصصة مكشوفة مساحتها 2.9 × 4.6 أمتار. وإلى الشمال الغربي والجنوب الشرقي من المدخل أريكتان متماثلتان أقرب إلى مصطبتين على ارتفاع

30 سنتمتراً، كالمصاطب التي نصادفها كثيراً، كما يقول برايان دو، قرب المنازل الحديثة في حديبو (ومعروف أنها موجودة أيضاً في القرى الأثرية والحديثة في وادي حضرموت، وخصوصاً في مدينة ريبون الأثرية وقرية المشهد).

ويفترض برايان دو أن برج النواقيس ربما كان قائماً على انفراد في هذه الفسحة المكشوفة (Doe,1970:46). كما جرى التنقيب على مستوى آخر، في طبقة أوطأ بأرضية الفسحة، واتضح أن بقايا أساسات جداري الرصيفين التي اكتشفت في منتصف جدار الكنيسة الشمالي الغربي تتلاقى على هذا المستوى، فعندما كانت البناية مسجداً ربما كان جدارا الرصيفين جزءاً من المحراب، ثم جرى تحويلهما إلى ممر أو مدخل (Doe, 1970: 45- 46).

ويبدو أن المعطيات الأثرية تؤكد التاريخ المذكور في المدونات البرتغالية لتحويل المسجد إلى كنيسة نصرانية. ولا جدال في وجود فترتين مرتبطتين بهذا المبنى، أولاهما إسلامية عندما كان فيه محراب عند الجدار الشمالي الغربي، والأخرى مسيحية شهدت ترميماً كبيراً لرفع مستوى الأرضية وتوسيع المحراب (تحويله إلى مدخل ثان) وإنشاء المذبح عند الجدار الشمالي الغربي.

بعد جلاء البرتغاليين لم يعمد أحد على ما يبدو إلى تحويل الكنيسة مجدداً إلى مسجد، فلم يعثر على أية معطيات أثرية تشير إلى تغييرات لاحقة في المبنى. ويستشهد برايان دو بأقوال الكابتن بوتون من السفينة التجارية «حبة الفلفل» الذي شاهد الكنيسة القديمة في عام 1615 وهو في طريقه إلى حديبو، وعندما دخلها وجد فيها «مذبحاً عليه صليب وفيه تماثيل» على حد تعبيره (Doe,1992: 88).

فيما يشير شيني إلى أن التنقيبات المبكرة حول موقع الكنيسة كشفت عن حطام خزفيات معظمها من الأوعية والآنية السقطرية، ومعه كسر مصنوعات خزفية مجلوبة من الخارج، بما فيها آنية خزفية إسلامية مطلية بالدهان، وكذلك فخار السيلادون (نوع من الخزف الصيني)، كل المصنوعات الخزفية القابلة للتدوين التاريخي تعود إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد (Shinnie, 1960: 105).

وثمة بقايا آثار لما يمكن أن يكون كنيسة مسيحية أخرى أو برج نواقيس كنسياً في وادي كاليسن شرقي سقطرى. ولعل هذا المبنى شيد واستخدم قبل كنيسة السوق بزمن طويل. برايان دو يربط بين تسمية كاليسن وبين الكلمة اليونانية «إيكليسيا»، ويتساءل عما إذا كانت

هنالك صلة بينها وبين النشاط التبشيري للقديس ثوماس الذي يعتبر عادة مؤسس الكنيسة في جزيرة سقطرى في القرن الرابع الميلادي (Doe,1970:91. 1992:105 - 104).

وفي وادي كاليسن الغزير المياه، بفضل عين دائمة هناك، توجد أنقاض مستوطنة صغيرة، وهي مستوطنة قديمة، إلا أن من الصعب تحديد تاريخ منشئها. أنقاض الكنيسة الصغيرة التي اكتشفناها ودرسناها أنا وفلاديمير شينكارينكو، عام 1984 مبنية من صفوف حجرية غير متوازية متجهة بدقة نحو الجهات الأربع، وعرض هذه البناية البيضوية 5 أمتار وطولها 5 أمتار أيضاً، ومدخلها يقع من جهة الغرب، فيما يتواجد المذبح في جزئها الشرقي.

وفي دسينيفيرو إلى الجنوب من حديبو، على الضفة الغربية لوادي معنيفو، يوجد مجمع بنايات كانت على الأرجح تشكل مستوطنة مسيجة بسور، وإلى شمالها الغربي مقبرة صغيرة تضم قبوراً بأسيجة مستطيلة صغيرة. ويعتقد برايان دو (1970:43-42. 1992:61) أن أنقاض أحد المباني هناك ربما كانت مخلفات كنيسة قديمة، لأن تخطيطها يضم على الأغلب جداراً ناتئاً في الجهة الشمالية شبيهاً بتخطيط الكنائس البيزنطية في رافينّا وروما.

في العام 2002 قمنا برحلة تفقدية لمغارة حوك (حوق) الكارستية (الرسوبية الكلسية) الهائلة التي يتجاوز طولها ثلاثة كيلومترات. وقد ذاع صيتها بفضل الاكتشافات التي سجلها هناك فريق علماء الكهوف البلجيكيين برئاسة بيتر دي غيست (شكل رقم 4 - 34 و 4 - 35). ففي الفترة 2000 - 2001 عمل أعضاء هذا الفريق في سقطرى في إطار برنامج الدراسة الكارستية للجزيرة، وكانوا أول من هبط إلى أعماق المغارة، وعثروا هناك على مباخر فخارية من كربونات الكالسيوم المتبلور، والكثير من الكتابات المخربشة على الجدران بمختلف اللغات، ولوحاً خشبياً حفر عليه نص باللغة التدمرية يعود إلى عهد مملكة تدمر في القرن الثالث للميلاد (شكل رقم 4 - 36 و 4 - 37). وقد قام خبير الكتابات القديمة الفرنسي كريستيان روبين مع ماريا غوريا بفك رموز النص وترجمته على النحو التالي: في الخامس والعشرين من شهر تموز سنة 569 جئت، أنا أبغر بن عشيمياء من شمّر إلى هنا، إلى مغارة بلاد نيشي. فليبارك الرب الذي قادنا إلى هنا كل من يقرأ هذا اللوح، وليبارك الذين يتركون اللوح في مكانه.



(شكل 4 ـ 34)



(شكل 4 ـ 35)

ولعل أبغر هذا كان بحاراً أو تاجراً أو حاجاً زار الموقع المسمى نيشي في اليوم المذكور أعلاه. ويستفاد من مناشدته كل من يقرأ اللوح أن يتركه في مكانه أن المغارة كانت محجة للزائرين. ويبدو أنه كان فيها معبد معروف في المنطقة، فقد كشفت الدراسة التمهيدية للكتابات على جدرانها أن بين زوار المغارة عدداً كبيراً من أهالي الجنوب العربي والهنود (من غرب الهند) والأحباش والأرمن والتدمريين. ويقول دي غيست: «من الواضح تماماً أن حوك كانت في القرون الأولى بعد الميلاد معروفة لدى التجار والرحالة الذين يتجولون في منطقة شاسعة بين أفريقيا والهند والشرقين الأدنى والأقصى» (Cheung,De Van-tier,2006: 230).

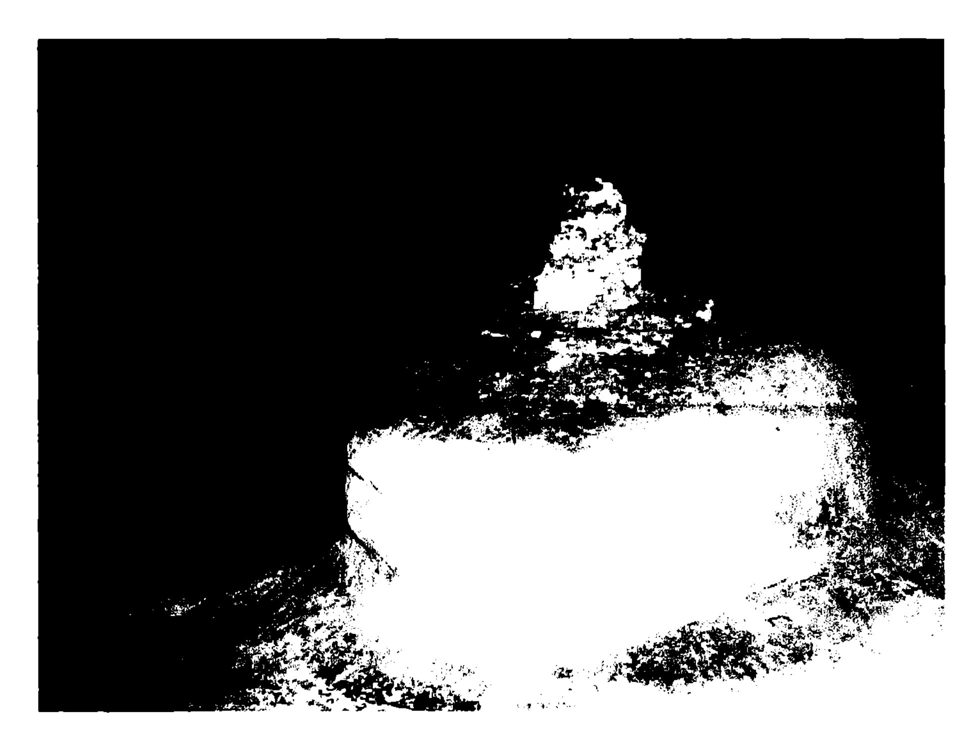
وتوغلنا، على أثر العلماء البلجيكيين، في داخل المغارة، فشاهدنا كتلة من صواعد الإستلاجميت بطول قامة الإنسان وفوقها مبخرة خزفية ذات حواف متبلورة وفي داخلها بقايا بخور. ويفترض أن هذا الموضع كان في حينه مذبحاً أو هيكلاً (شكل رقم 4 - 38). فإليه بالذات جاء أبغر ليمجد الآلهة ويخلد اسمه في التاريخ. وقد راجعنا الكتابات القريبة من ذلك المكان، وهي عبارة عن مخربشات باللغة البراهمية ومقتبسات بلغات الجنوب العربي (شكل رقم 4 - 39)، كما رأينا رسوماً كثيرة أبرزها رسم سفينة، وكان فريق مصوري التلفزيون الفرنسي قد سجل هذه المشاهد برفقة كريستيان روبين.

مضينا في داخل المغارة إلى أبعد، ورأينا كتلتين أخريين من صواعد الإستلاجميت عليهما مبخرتان، وهذا يعني أنهما تؤديان في أغلب الظن دور المذبح، مثل الكتلة الأولى (شكل رقم 4 - 40). وإلى ذلك وجدنا أثناء تفقد المغارة، على مسافة 250 متراً تقريباً عن المدخل، مبخرة مرمية جنب الجدار مع كسر فخارية أخذناها للدراسة والتحليل. ونعتقد أن هذه المبخرة كانت مستقرة على عمود الإستلاجميت الثاني، ولعل أحد زوار المغارة المعاصرين رفعها من هناك.

ولا ريب أن المغارة كانت في السابق معبداً يقيم فيه السقاطرة القدامى الصلوات والطقوس الدينية، ويؤمه التجار والملاحون والحجاج الوافدون إلى الجزيرة، كما يلفت النظر التشابه بين المباخر القديمة والمباخر الحديثة التي يمارس السقاطرة صنعها حتى اليوم (شكل رقم 4 - 41).

(شكل 4 ـ 36)

(شكل رقم 4 ـ 37)



(شكل رقم 4 ـ 38)



(شكل رقم 4 ـ 39)



(شكل رقم 4 ـ 40)



(شكل رقم 4 ـ 41)

التنقيبات والحفريات الأخيرة

في الأعوام 2006 - 2008 واصلت البعثة الأثرية الروسية في اليمن الحفر والتنقيب والمسح والتوثيق الميداني في جزيرة سقطرى. وخلال الموسم الميداني لعام 2008 تركزت الأعمال أساساً على مستوطنة حجرة في الوادي الواقع على مقربة من العاصمة القديمة المفترضة للجزيرة شرقي حديبو. هذه المستوطنة عبارة عن سلسلة من المواقع الأثرية التي تشغل مساحة 36.1 هكتار، وتمثل بقايا بنايات ومقبرة وجدار التفافي يحيط بالمستوطنة والمقبرة، وقد أجرينا حفريات في ثلاثة قواطع تبلغ مساحتها الإجمالية 110 أمتار مربعة.

قاطع الحفريات رقم 1 بدأناه في المبنى الرئيسي، وهو أكبر مبنى في المستوطنة، فمساحته 24 × 12 متراً، واتجاهه من الشرق نحو الغرب، وجدران المبنى من أحجار غير منحوتة وغير مشذبة، والمدخل الرئيسي من جهة الغرب. على سطح التربة سبيل واضح المعالم طوله 10 أمتار وعرضه نحو مترين، وعلى جانبيه جداران من حجارة صغيرة عرضهما 50 سنتمتراً تقريباً .

أعمال الحفر والتنقيب جرت في الجزء الجنوبي من المبنى حيث قمنا بدراسة وتحليل طبقة تهدم البناء جنوبي جداره الخارجي (4 × 3 أمتار)، وكذلك في جزء من فضائه الداخلي (5 × 5 أمتار)، لكن طبقة المهدمات لم تعطنا معلومات ذات شأن عن الموقع نفسه. وقد وجدنا بين الأحجار الكثيرة المتراكمة تحت الطبقة الترابية الصفراء المائلة إلى الحمرة (وسمكها 30 - 45 سنتمتراً) 51 كسرة من حطام الأواني الخزفية و 3 عظام حيوانية و 11 قوقعة بحرية صغيرة و 11 كسرة من ملاط تجصيص الحيطان، هذا كل ما عثرنا عليه.

جميع الأواني الخزفية من الطراز السقطري المحلي للجرار والأباريق ذات القواعد المستديرة المصنوعة دون استخدام دواليب الخزف، وعليها حزوز معروفة في هذه الديار، ومعظمها من الداخل. وعلى جزء قليل من هذه الأواني نقوش من خطوط مستقيمة ومتموجة كانت قد رسمت على طينها قبل حرقه.

كشفنا عن الجدار الجنوبي للمبنى على امتداد 5 أمتار، واتضح أن عرضه 75 سنتمتراً، فيما يصل القسم المتبقي من ارتفاعه إلى 50 سنتمتراً، وفي منتصف الجزء المكشوف من الجدار على وجه التقريب، فتحة باب عرضها 75 سنتمتراً، والجانب الغربي

من الفتحة عبارة عن كتلة حجرية كبيرة غير منحوتة قائمة على جنبها (0.74 × 0.23 متراً، وارتفاعها 48 سنتمتراً). الجدار مبني من حجارة غير منحوتة مثبتة بمخلوط الطين، وهي مستوية بغير انتظام ومرصوفة بوجهين وبصفوف واضحة للعيان. أبعاد الحجارة المرصوفة فيوجهي الجدار كالتالي: 32 × 21 × 15سم و 51 × 22 × 16 سم و 75 × 36 × 20 سم. باطن الجدار فيما بين الواجهتين، محشو بكسارة ناعمة من الحجر غير المنحوت (شكل رقم 4 -42).

على مسافة مترين وأربعين سنتمتراً شمالي الجدار الخارجي وبموازاته يقوم جدار آخر كشفنا عن جزء منه طوله 5 أمتار أيضاً وعرضه 60 سنتمتراً والمتبقي من ارتفاعه 50 سنتمتراً، وفيه ممر آخر عرضه 90 سنتمتراً مقابل فتحة الباب في الجدار الخارجي، رصف هذا الجدار شبيه بما وصفناه أعلاه، إلا أن أبعاد الأحجار تختلف: 26 × 25 × 7 سم و 43 × 16 × 15 سم و 41 × 31 × 16 سم .



(شكل رقم 4 ـ 42)

الفراغ بين الجدارين اللذين نحن بصددهما مليء بتربة سميكة مائلة إلى الصفرة مع أكوام كبيرة من الحجارة المتراكمة. وعندما نظفنا هذه الطبقة من التربة عثرنا على 93 قطعة من حطام شتى أنواع الأواني الخزفية، وعلى 15 قطعة صغيرة من عظام الحيوانات و 7 كسر لقواقع بحرية و 4 قطع من ملاط التجصيص الأبيض. معظم الملتقطات الخزفية هي من الأواني المحلية ذات القاعدة الدائرية، وفي بعضها نقوش وخربشات بشكل خطوط مستقيمة أو ملتوية معمولة بطريقة الحز على الطين قبل فخاره. وإلى ذلك وجدنا هنا

حطام آنية مجلوبة من الخارج يشكل 25 % من مجموع الملتقطات الخزفية، ونخص بالذكر منها كسرة من وعاء على قاعدة مستديرة وقطعة من خزف السيلادون الصيني.

الدراسات التي أجريناها في قاطع الحفريات رقم 1 لا توفر لنا مبررات الحكم الأكيد على وظيفة وعائدية المبنى الرئيسي في المستوطنة. ورغم ذلك يمكننا القول الآن إنه يعود إلى فترة متأخرة نسبياً، ذلك لأن السيلادون وصل إلى منطقة الخليج وجزيرة العرب، كما هو معروف، وليس قبل القرن الخامس عشر أو الرابع عشر في أبعد تقدير.

قاطع الحفريات 2 (3 × 3 أمتار) خصصناه لدراسة السور المحيط بالمستوطنة من ثلاث جهات، أما الجهة الرابعة الغربية فكأنما لا سور فيها، فهناك جرف الوادي الشديد الانحدار، إلا أن ذلك لا يفسر بالكامل سبب غياب السياج، فالجرف المذكور يشمل أيضاً ناحية الجنوب. على أية حال، آثار هذا السور باقية الآن بشكل خط عرضه متران ونصف المتر يعلو على أرض المستوطنة بثلاثين سنتمتراً.

يقع قاطع الحفريات الثاني على مسافة 8 أمتار جنوبي القاطع الأول، الطبقة السطحية الحضارية في هذا القاطع عبارة عن تربة سميكة نسبياً، أقرب إلى اللون الأصفر، مخلوطة بالرمل والحجارة المتراكمة هنا وهناك، وقد عثرنا فيها على 44 كسرة من مختلف الأواني الخزفية وقطعة واحدة من قرن ماعز و 5 قواقع بحرية. أكثر الملتقطات والمعثورات الخزفية من صنع سقطري ومن مواد محلية، ماعدا قطعتين صغيرتين غامضتين يمكن اعتبارهما من صنع أجنبي.

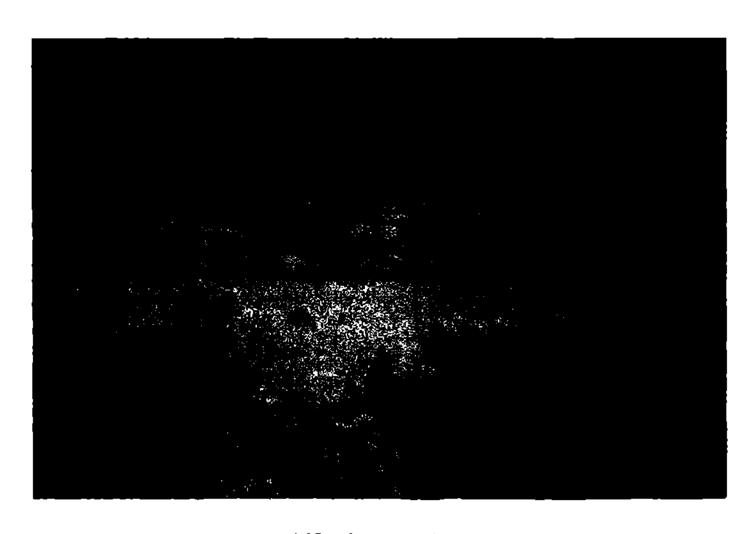
أهم نتيجة للحفريات في هذا القاطع هي اكتشاف الأساس الحجري لجدار متجه من الشرق صوب الغرب، المستوى العلوي لصفوفه يقع على عمق 20 سنتمتراً تحت سطح التربة الحالي. الجزء الذي كشفنا عنه من الجدار طوله 3 أمتار وعرضه 70 - 80 سنتمتراً، والارتفاع المتبقي منه 25 سنتمتراً. أحجاره مرصوفة بشكل مستو وبلا انتظام، ولكن بطبقتين وبوجهين، وهي حجارة غير منحوتة، ومثبتة بخليط الطين، أبعادها كالتالي: 25 × 21 × 16 و 28 × 25 × 15 و 32 × 17 × 19 و 80 × 41 × 25 سنتمتراً.

في منتصف قاطع الحفريات على وجه التقريب، في جهته الجنوبية على بعد متر واحد عن الجدار، عثرنا على حجر قائم على جنبه (عرضه 30 سنتمتراً وارتفاعه 40 سنتمتراً). في البداية لم نوله اهتماماً واعتبرناه مجرد حجر من الركام الكثير. لكننا بعد أن درسنا قاطع الحفريات رقم 3 (راجع التفاصيل أدناه) صرنا نرجح كثيراً أن يكون الحجر مسلة

مكونة من صخرة كبيرة غير منحوتة منصوبة على جنبها (شكل رقم 4 - 43).

قاطع الحفريات 3 (8 × 8 أمتار) يقع على مسافة 9 أمتار شرقي القاطع رقم 2، على خط سور المستوطنة الآنف الذكر، ولهذا الموقع أهمية كبيرة تعود إلى وجود تربة من الرماد مرتفعة بعض الشيء وأعلى من أرض المستوطنة بنحو 35 سنتمتراً، وتبرز فيها كتل جرانيتية من بنايات ما.

الحصيلة الأساسية للدراسات في هذا القاطع هي اكتشاف مبنى مستطيل الشكل، على الخارطة، ومستدير الزوايا (6.30 × 2.60 - 3.00 أمتار) متجه بمحوره الأطول من الشرق إلى الغرب. وثمة كل المبررات للاعتقاد بأن السور البيضوي كان متصلاً به. وعلى أية حال اكتشفنا قرب الركن الشمالي الغربي لهذا المبنى جزءاً من حائط مرصوف عرضه 70 سنتمتراً.



(شكل رقم 4 ـ 43)

ومن الجنوب هنالك بناية أحدث عهداً تغطى على المبنى الأقدم، وسنأتي على ذكرها فيما بعد.

في بادئ الأمر حفرت لتشييد المبنى الرئيسي في التربة الطينية المائلة إلى الحمرة حفرة أساس غير عميقة (لا تتجاوز 20 سنتمتراً)، وعلى جوانبها شيدت الجدران من حجارة كبيرة غير منحوتة قائمة على جنبها. عرض الجدران 20 - 40 سنتمتراً، وارتفاعها بالمتوسط 60

سنتمتراً. أبعاد الحجارة كالتالي: 52 × 21 × 63 و 52 × 27 × 87 و 55 × 41 × 56 سنتمتراً.

ويمكننا أن نشير إلى ثلاث مراحل في استثمار هذا المبنى والغرض منه. فمن المرحلة المبكرة بقيت في قاع حفرة الأساس طبقة ترابية سمكها 5 سنتمترات مكونة من رماد يكاد يكون أسود تماماً، وعلى هذه الطبقة رصفت أحجار جدارين فرعيين عازلين متجهين من الشمال إلى الجنوب مع بعض الانحراف، وهما يقسمان المبنى إلى ثلاث حجرات أو قسام (شرقي وأوسط وغربي). ويصعب القول بدقة متى أقيمت على الأرضية هنا ثلاث مسلات أو كتل من حجارة غير منحوتة قائمة على جنبها عمودياً، صف هذه المسلات متجه من الشرق إلى الغرب، أي إنه يقسم المبنى إلى جزئين: شمالي وجنوبي.

الجدار العازل الشرقي يقع على مسافة 0.75 - 1.15 متر عن الجدار الأساسي الشرقي للمبنى، وعرضه 25 سنتمتراً بالمتوسط، وارتفاعه عن الأرضية 35 سنتمتراً (منها 5 سنتمترات طبقة تربة الرماد). الجدار العازل المذكور مرصوف في صف واحد من حجارة صغيرة غير منحوتة أبعادها كالتالي: 25 × 23 × 31 و 27 × 24 × 28 سنتمتراً.

ولم نجد بين الملتقطات التي عثرنا عليها في الجزء الشرقي من المبنى ولا قطعة واحدة تختلف عن سائر الملتقطات والمعثورات المعهودة.

أما الجزء الغربي فيفصله جدار عازل قائم على مسافة 0.60 - 1 متر عن الجدار الغربي للمبنى، وعرضه 30 سنتمتراً وارتفاعه 30 سنتمتراً أيضاً. الجدار العازل الثاني، شأن الأول، مبني من حجارة غير منحوتة، وأبعادها كالتالي: 30 × 24 × 15 و 35 × 23 × 18 و 49 × 23 × 18 سنتمتراً. في الجانب الغربي من المبنى الذي يفصله هذا الجدار العازل عثرنا على ملتقطات نادرة جداً في هذه المستوطنة، وهي حطام أباريق وكسرة حافة وعاء من السيلادون الصيني وعدة كسر من الزجاج. هذه الملتقطات تمكننا من تحديد تاريخ المجمّع كله، بحيث يعود إلى فترة لا تتعدى القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

الجزء الأوسط من المبنى، ومساحته 3.75 - 4.00 × 2.75 - 3.00 أمتار، هو الأهم والأكثر تعقيداً من حيث التنظيم الداخلي، فهنا غرزت في الأرضية المسلات أو البلاطات

الثلاث الآنّفة الذكر. المسلة الأولى الشرقية تكاد تلامس الجدار العازل الشرقي من الغرب، في وسطه تقريباً. أبعاد المسلة في المقطع 24 × 27 سنتمتراً، وارتفاعها عن الأرضية 53 سنتمتراً، وهي مثبتة في أسفلها بحجارة ناعمة مطلية بالطين.

وعلى مسافة متر ونصف المتر عنها غرزت في الأرضية من جهة الشرق المسلة الثانية التي هي الوسطى بين المسلات الثلاث. وهي أيضاً عبارة عن بلاطة أو كتلة غير منحوتة أبعادها في المقطع 27 × 24 سنتمتراً وارتفاعها عن مستوى الأرضية 53 سنتمتراً. وجزؤها السفلي مثبت كذلك بحجارة ناعمة مطلية بالطين.

المسلة الثالثة التي في الطرف، تقع غربي المسلة الوسطى على مسافة 80 سنتمتراً، وعلى مسافة 30 سنتمتراً شرقي الجدار الفاصل الغربي، وهي عبارة عن بلاطة حجرية غير منحوتة أبعادها في المقطع 36 × 17 وارتفاعها عن الأرض 60 سنتمتراً، وجزؤها السفلى مثبت أيضاً بحجارة ناعمة مطلية بالطين، ارتفاع حجارة الطلاء الطيني غير المتقن يقارب 20 سنتمتراً.

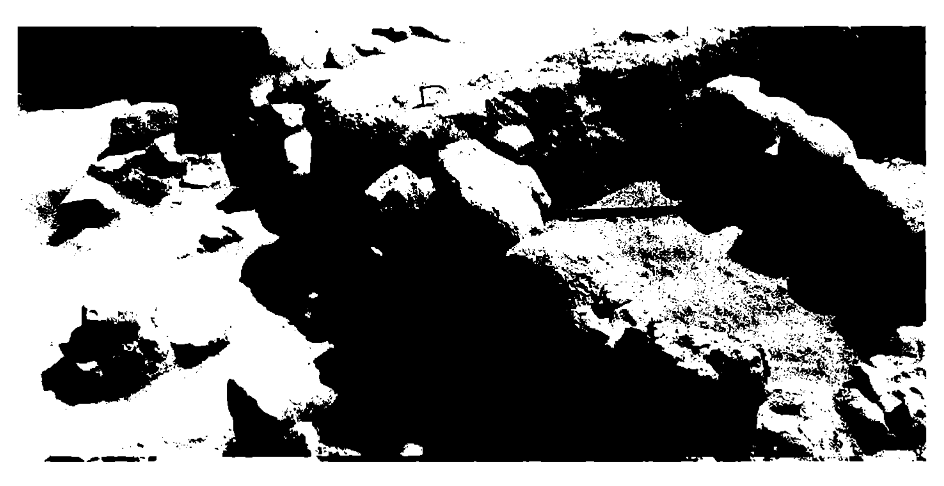
ونعيد إلى الأذهان هنا أننا عثرنا على مسلة أو بلاطة من هذا النوع في قاطع الحفريات رقم 2 جنوبي السور المحيط بالمستوطنة. كما تجدر الإشارة إلى أننا اكتشفنا مسلة أخرى في القاطع رقم 3 خارج المبنى موضوع البحث، وهي تقع على مسافة 1.80 متر جنوبي جداره الجنوبي وعلى مسافة 3.50 أمتار جنوبي الجدار الأوسط للمبنى. والجداران يشكلان معها ما يشبه صفاً من المسلات متجهاً من الشمال إلى الجنوب وبصورة عمودية بالنسبة إلى صف المسلات الثلاث الآنّفة الذكر.

المسلة الأخيرة تثير الاهتمام كونها مزدوجة، بمعنى أنها معمولة من بلاطتين متجاورتين، أبعاد الأولى في المقطع الأفقي 40 × 21 سنتمتراً، وارتفاعها 61 سنتمتراً، وأبعاد الثانية 38 × 23 سنتمتراً وارتفاعها 46 سنتمتراً. والمسافة بين البلاطتين 5 سنتمترات. الجزء السفلي لكلتا البلاطتين مثبت بحجارة ناعمة مطلية بالطين. هذه المسلة المزدوجة داخلة ضمن تركيبة رصف الجدار الجنوبي لبناية مشيدة في فترة متأخرة، وسنعود إليها فيما بعد.

في محيط القسم الأوسط من المبنى، في كل المواضع تقريباً، برك أو أحواض محفورة في

التربة، وعددها إجمالاً 12 بركة أو حفرة، وقطرها يتراوح بين 40 و 55 سنتمتراً، وعمقها 20 - 25 سنتمتراً تحت مستوى الأرضية. وفي بعض الأحيان تلتقي حفرتان فتشكلان حفرة واحدة بيضوية الشكل، على الخارطة، أو بهيئة الرقم ثمانية الإفرنجي، وهناك حفرة محاطة بحجارة غير كبيرة. داخل الحفرات جميعها مُلئ بتربة من الرماد الأسود، وقد وجدنا فيها عدة معثورات خزفية عادية.

بعض الحفرات الموجودة في الجزء الجنوبي من المبنى يخترقها أساس جدار، وهذا دليل آخر على أن المبنى تعرض لإعادة الإنشاء أكثر من مرة، بمعنى أن تلك الحفرات ينبغي أن تعزى إلى الفترة الأولى من استثمار المبنى، أي فترة توسع المبنى لمسافة كبيرة إلى الجنوب. ومهما يكن من أمر، فالجدار الجنوبي الذي كشفنا عنه بني في فترة متأخرة (شكل رقم 4 - 44).

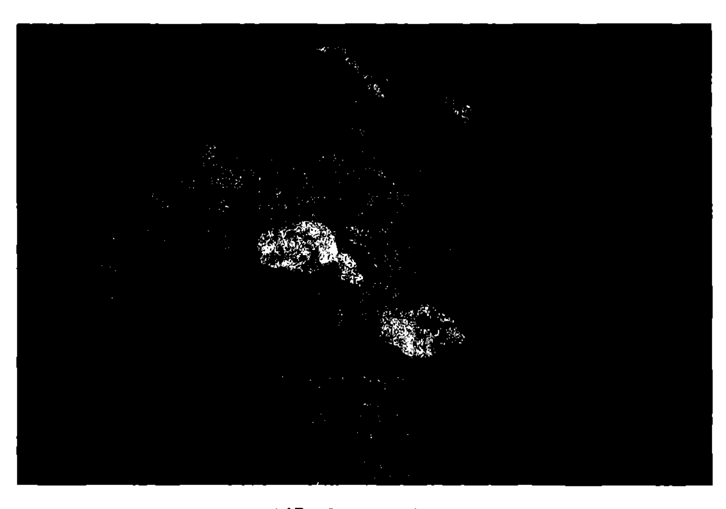


(شكل رقم 4 ـ 44)

كما ترتبط بالفترة المبكرة من استثمار المبنى المعثورات غير العادية التي اكتشفناها على أرضية الجزء الأوسط من المبنى، وكانت تحديداً تحت طبقة سطحية لا يتجاوز سمكها 5 سنتمترات، هذه المعثورات مصنوعة من طين غير محروق، فاتح اللون، وبأشكال مستديرة وبيضوية أطلقنا عليها اصطلاحاً تسمية «الأقراص». وعددها ثلاثة. «القرص» الأول قطره 28 سنتمتراً وسمكه سنتمتران، وكان قرب المسلة الوسطى من ناحية الجنوب. وعلى مسافة 43 سنتمتراً عن هذا «القرص»

قرب الجدار الجنوبي للمبنى «قرص» ثانٍ، وعلى الأصح «قرصان» واحد فوق الآخر. «القرص» السفلي بيضوي الشكل (33 × 27 سنتمتراً) وسمكه سنتمتران، والقرص العلوي بيضوي أيضاً، إلا أنه أصغر (16 × 14 سنتمتراً) وبذات السُّمك. أما «القرص» الثالث فقد عثرنا عليه في الركن الجنوبي الشرقي للقسم الأوسط من المبنى، وهو مستدير (قطره 33 سنتمتراً وسمكه سنتمتران). هذا «القرص» يتميز عن سابقيه بسطحه المقعر، وليس المستوي. وعمق التقعر في وسطه 4 سنتمترات، ما يجعله يتخذ هيئة الإناء (شكل رقم 4 - 45).

الغرض من هذه «الأقراص» غير واضح، ولم نتمكن حتى الآن من مقارنتها مع أية ملتقطات أو معثورات مماثلة في سقطرى، إلا أن هنالك ما يبرر الافتراض بأن تسميتها الاصطلاحية يمكن أن تكون مطابقة للواقع، فقد تكون نماذج لأقراص أرغفة فعلية، بمعنى أنها نماذج لرغيف الخبز السقطري القديم.



(شكل رقم 4 ـ 45)

كل المعثورات الآنفة الذكر (الجداران العازلان والحفرات و«الأقراص») تعود، كما أسلفنا، إلى المرحلة المبكرة من استثمار المبنى والتي تضم فترتين للبناء والإنشاء، هما ما قبل الجدارين العازلين وما بعدهما. وفي غضون ذلك نشأت طبقة سطحية حضارية مشبعة بالرماد، لونها قاتم أقرب إلى السواد، وهي تنبسط مباشرة على التربة التي كانت أرضية سابقة للمبنى. يبلغ سمك الطبقة السوداء 10.8 سنتمترات، وهي مكسوة بطبقة

أخرى ترابية مائلة إلى الصفرة، سمكها 5 سنتمترات، ويمكن اعتبارها أرضية ثانية، أحدث زمنياً، للمبنى. هذه الأرضية مغطاة بطبقة من تراب الرماد الفاتح (سمكها 70.65 سنتمتراً) يمكن أن نعزوها إلى المرحلة الثانية من استثمار المجمّع الذي نحن بصدده. والأصح أن نتكلم عن فترة ثالثة من البناء والإنشاء، لكننا تناولنا الفترتين الأوليين معاً، لأن الطبقة السطحية الحضارية العائدة لهما لا تختلف لا من حيث تركيبتها ولا من حيث طبيعة الملتقطات.

ونقدم هنا مواصفات الملتقطات التي وجدناها طي كل طبقة. في الطبقة السفلى، الرمادية السوداء، عثرنا على 343 كسرة وشظية من شتى الأواني الخزفية والفخارية، و 5 قطع زجاجية، وعظمين فقط للماشية، و 108 قواقع بحرية. 4.97 % من المعثورات الخزفية مصنوعة من مواد محلية، و 6.2 % فقط من الخارج. كل الخزفيات المحلية بقواعد مستديرة ومعمولة دون استخدام دولاب الخزف الدوّار، وطينها المخلوط ليس نقياً إطلاقاً، حيث يلاحظ فيه رمل كثير. سطح الأواني تعرض للتشذيب بعناية، حتى بقيت على بعضها حزوز تدل على عملية الصقل والجلخ، ومعظم تلك الحزوز باقية على الجانب الداخلي من الأواني.

واذا ميّزنا بين مجموعات الأواني الفخارية (أواني الطعام أو المطبخ أو غيرها) نجد أن 6.28 % منها عبارة عن انَية طعام رقيقة الجدران من صنع محلي، و 8.33 % جدرانها متوسطة السُّمك، و 5.29 % عبارة عن انَية طبخ، فيما يشكل حطام الأواني والجرار السميكة الجدران المستخدمة لحفظ الأغذية 6.2 % فقط. وعلى جميع تلك الخزفيات، ما عدا السميكة الجدران، نقوش معقدة جداً بشكل حزوز رقيقة عند الرقبة وخربشات وخطوط على الهياكل. كل الأواني والأوعية التي من صنع محلي تشكل، كما أسلفنا، 4.97 % من إجمالي الخزفيات التي عثرنا عليها هناك.

الخزفيات المجلوبة من الخارج قليلة جداً (6.2 %) . إلا أنها هي بالذات تمكننا من الخروج باستنتاج ما عن تاريخ استثمار المبنى واستخدامه. وقد سبق أن ذكرنا أن هذه الخزفيات تضم حطام انَية من الطين الأحمر والرصاصي المفخور. بيد أن الأهم من هذه الناحية هو وجود كسر الأباريق وقطعة السيلادون الصينية، فهذه الملتقطات بالذات تمكّننا من تحديد تاريخ الطبقة المبكرة من إنشاء المبنى، العائدة إلى القرنين 14 - 15 للميلاد على وجه التقريب.

وقد عثرنا في الطبقة الحضارية العليا الرمادية، على 202 قطعة من حطام مختلف الأواني الخزفية، وكسرة واحدة من درع سلحفاة، و 43 قوقعة. نسبة الخزفيات المجلوبة من الخارج 5.1 % فقط، وما يعود إلى صنع محلي سقطري 5.98 % من حطام الأواني الخزفية اليدوية (8.22 % حطام آنية الطعام رقيقة الجدران و 6.37 % متوسطة السُّمك و 2.28 % أواني الطبخ و 9.9 % سميكة الجدران). ومن الصعب جداً الكلام الآن عن الفوارق بين مجموعتي الملتقطات الخزفية من الطبقتين السفلى والعليا لداخل المبنى. فالملتقطات تبدو متماثلة تماماً للوهلة الأولى. وعلى أية حال لا يلاحظ المرء فوارق فيما بينها من حيث الأشكال وطبيعة الرسوم والخربشات، إلا أن هذه المسألة تحتاج إلى تحليل إضافي ودراسة متخصصة.

المبنى الذي نحن بصدده تغطيه أنقاض منشأة أخرى شيدت جدرانها بدون عناية، وتقع هذه الأنقاض جنوبي المبنى الآنف الذكر بحيث بات جزء من جداره الجنوبي أساساً للجدار الشمالي للمنشأة الجديدة. أما جدرانها الأخرى فتقوم على طبقة حضارية سمكها 60 سنتمتراً. علماً أن تركيبة جدارها الجنوبي تحتوي مسلة البلاطتين المزدوجة التي سبق أن تحدثنا عنها، ومن ثم باتت المسلة المذكورة جزءاً من أساس هذا الجدار.

من حيث التخطيط، المنشأة المتأخرة شبيهة بالمبنى الأقدم، فهي على الخارطة عبارة عن بناية مستطيلة بأركان مستديرة، إلا أن أبعادها أصغر بكثير: 4 × 6.1 - 75.1 متر. الجدران يتراوح عرضها ما بين 30 و 50 سنتمراً، وما تبقى منها يتراوح ارتفاعه بين 10 و 30 سنتمتراً. وهي من حجارة بصف واحد. علماً أن أحجارها ليست كبيرة عموماً (25 × 23 × 10 و 32 × 30 × 15 و 42 × 32 × 25 سنتمتراً)، لكنّ الجدار الشمالي من حجارة كبيرة الحجم: 65 × 52 × 38 و 51 × 45 × 35 سنتمتراً، ثم إن عرض هذا الجدار هو الأكبر بنحو نصف متر، ولعل حجارة من بناية أقدم استخدمت في تشييد هذا الجدار. ولم نعثر على أية بقايا في الداخل يمكن أن تشكل حلقة وصل مع البناية الأقدم.

في طبقة التربة الرمادية الفاتحة، وغير المتماسكة نسبياً، عثرنا على كمية كبيرة جداً من الملتقطات الأثرية: 786 قطعة من حطام مختلف أنواع الأواني الخزفية وقطعتين من حطام أوعية زجاجية وكسرة واحدة من قحف سلحفاة و 44 قوقعة للرخويات البحرية. ولدى إحصاء الملتقطات الخزفية وجدنا بينها 2.4 % من الأواني المجلوبة من الخارج، فيما تشكل

المصنوعات المحلية 8.95 % منها، علماً أن 8.31 % من مجموع الخزفيات آنية طعام رقيقة الجدران، و2.40 % آنية متوسطة السُمك، و6.19 جرار طبخ، و2.4 % آنية سميكة الجدران.

وهكذا فالملتقطات الخزفية في الطبقات والترسبات الأحدث زمنياً لا تختلف في الواقع عن الملتقطات العائدة لطبقات أقدم، فهي من حيث المبدأ آنية وأوعية خزفية من أنواع متماثلة وبنقوش وخربشات متقاربة جداً. والخزفيات الأجنبية هنا قليلة جداً، يمثلها حطام آنية فخارية لا يثير الاهتمام.

ولدى المقارنة بين قطاعات الحفريات الثلاثة من حيث طبيعة الملتقطات والمعثورات ينبغي الانتباه إلى النسبة الكبيرة للموجودات الأجنبية في القاطع رقم 1، حيث تشكل ربع إجمالي الملتقطات الخزفية. وهذه الكمية أكثر بست مرات مما في الطبقة الترابية الأحدث في القاطع رقم 3، فما سبب هذا الفارق؟ وهل هو أمر عرضي ناجم عن محدودية التنقيبات في القطاع الثالث؟ الجواب لن يأتي إلا بعد مواصلة الحفريات في مستوطنة حجرة مستقبلاً.

أما بخصوص تواريخ بقايا المنشآت الاستيطانية التي اكتشفناها في العام 2008 فهي، على قدر علمنا حتى الآن، منشآت متأخرة جداً وعائدة إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وربما لفترة أحدث. ونأمل أن يوضح هذه المسألة إلى حد ما التحليل المختبري لعينات الفحم النباتي التي أخذناها من الطبقات الترابية الثلاث فيقاطع الحفريات رقم 3.

الفصل الخامس

التنظيم الاجتماعي والأحوال المعيشية

التنظيم الاجتماعي والأحوال المعيشية

يتطلب التنظيم الاجتماعي والمعيشي والاقتصادي لحياة السقاطرة تحليلاً تفصيلياً من شتى الجوانب، لكي نقف على ما كان عليه في الثمانينيات (خلال عمل بعثتنا) وفي الستينيات (خلال عمل بعض المختصين الإنجليز)، ونقارن بين الفترتين، ونتناول بإيجاز ما آل إليه ذلك التنظيم في الحال الحاضر.

ونظراً للتبدلات الجذرية التي طرأت على هذا التنظيم طوال ربع قرن من الزمن تكتسب المادة التي جمعناها في تلك الحقبة أهمية خاصة لدراسة المجتمع السقطري وتاريخه. وإلى ذلك ففي أواخر تسعينيات القرن العشرين والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين جرت دراسة منتظمة وحثيثة لجزر أرخبيل سقطرى، وخصوصاً من قبل العلماء الإنجليز، وذلك خلافاً للفترات السابقة التي لم يكن أحد يعمل فيها على تلك الجزر ما عدا العلماء الروس. بديهي أن الإمكانيات المحدودة للعمل الميداني آنذاك لم تتح لنا فرصة رسم لوحة متكاملة لجميع مناطق سقطرى وعبد الكوري، ولذا فالمعلومات والاستنتاجات الواردة في هذا الكتاب تقوم أساساً على حياة المراكز السكنية التي تسنى للمؤلف زيارتها وعلى أحوال المجاميع السكانية التي التقاها وعايشها. محدودية المادة وعدم توافر الإمكانية للتأكد الدقيق من المعلومات التي أدلى بها لنا السكان، هما سبب وجود هفوات وربما أخطاء، لا يزال في الوقت متسع لتلافيها وتصحيحها في أثناء العمل اللاحق ومن خلال المقارنة مع المعلومات القيمة التي جمعها العلماء الإنجليز.

التركيبة الاجتماعية للسكان والمؤثرات الطبيعية والمناخية

بلغ عدد سكان سقطرى حتى عام 2000 م قرابة 45 ألف نسمة، حسب معلومات الاتحاد الأوروبي. أهالي الجزيرة يتكلمون إحدى أقدم اللغات السامية المنتمية إلى أسرة اللغات الأفروآسيوية، وهي تشكل، مع المهرية والشحرية والجبالية والحرسوسية ودثينة وغيرها، مجموعة فرعية للغات واللهجات الحية في جنوب الجزيرة العربية. جميع هذه اللغات محكية من دون كتابة ولا أبجدية خاصة بها، وهي غير مدروسة بالقدر الكافي حتى الآن.

اللغة السقطرية أيضاً غير مدروسة بالقدر الكافي، وحظها من هذه الناحية أقل من حظ اللغات الأخرى، إلا أن ثمة دراسات كتبت عنها فيما سبق، وأهمها النصوص التي جمعها د. ميولر ونشرت في مطلع القرن العشرين كما أسلفنا، وكذلك معجم فولف ليسلاو السقطرى (Leslau, 1936). ومن بين الدراسات العلمية الأحدث نشير إلى مؤلفات ميراندا موريس واللغويَين الفرنسيَين ماري سيميون - سينيل وكلود لانيه، وكذلك دراسات كاتب السطور، ومنها التي وضعها بالتعاون مع اللغوي الروسي فكتور بورخوموفسكي (راجع «ناومكين وبورخوموفسكي» 1981، بالإضافة إلى عدد من مقالاتنا المنشورة في بريطانيا ضمن سلسلة «دراسات منتدى الجزيرة العربية»). وحتى الحال الحاضر أعد المزيد من المواد في دراسة اللغة السقطرية، الأمر الذي يجعلنا نأمل في تحرك كبير لتوصيفها وتحليلها. وللأسف الشديد فإن التعريب الذي هو في العالم العربي ظاهرة في طبيعة الأشياء، إنما يساعد على تسريع اندثار اللغة السقطرية المحكية.

كانت الأغلبية الساحقة من السقاطرة، ولا يزالون، موحدين على أساس البنية القبلية العشائرية، ففي الجزيرة قرابة مئة قبيلة، أكثرها مكونة من أفخاذ وبطون وعوائل كبيرة موسعة. إلا أن هناك أيضاً قبائل صغيرة، مجهرية إن صح التعبير، تتكون من 10 إلى 25 شخصاً. يرأس كل قبيلة عادة شيخ أو مقدم (شكل رقم 5 - 1)، باستثناء الموالي وأحفاد العبيد السابقين الذين نزحوا إلى سقطرى من شرق أفريقيا ومارسوا، منذ استقلال جنوب اليمن في العام 1967، صيد الأسماك بالأساس (شكل رقم 5 - 2)، وكذلك اليمنيين الذين انتقلوا للإقامة في سقطرى في العقود الأخيرة، وخاصة في النصف الثاني من التسعينيات، وفي العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، فأولئك وهؤلاء ليس لديهم شيوخ.

القبائل السقطرية تسمي نفسها في العادة بأسماء المناطق التي تقطنها. فقبيلة دعرهو مثلاً تسمى باسم وادي دعرهو، وابن القبيلة يسمي نفسه دعرهي (شكل رقم 5 - 3). إلا أن ثمة قبائل تحمل أسماء أجدادها ومؤسسيها (الفعليين أو الأسطوريين) مثل بني مالك أو بالمحمود.

أول لقاء لي مع سقطرى، حيث وصلت إليها عام 1974، جعلني أخرج باستنتاج حول وجود ما لا يقل عن نوعين أو شكلين من أشكال الاستثمار الاقتصادي، هما الرعي (أهالي المناطق الداخلية) وصيد الأسماك (أهالي المناطق الساحلية)، وقد أكدت الدراسات الميدانية التي أجريناها في الجزيرة صحة هذا الاستنتاج، كما ساقت الدليل على وجود



(شكل رقم 5 ـ 1)



(شكل رقم 5 ـ 2)



(شكل رقم 5 ـ 3)

نمط أو شكل اقتصادي مختلط (رعوي سمكي، أو رعوي زراعي، وما إلى ذلك) لدى أهالي المناطق الداخلية.

خلال فترة عملي في سقطرى كانت الأغلبية الساحقة من أهالي الجزيرة تقيم في مناطقها الداخلية وتزاول رعي الماشية، إلا أن قسماً متزايداً من السكان أخذ في السنوات الأخيرة يتركز في منطقة العاصمة حديبو وقرى الصيادين الساحلية (Miller, Morris, 2002:6). ونظراً لكون هذه القبائل الرعوية بالذات تمثل الأشكال الاجتماعية والاقتصادية الأكثر تقيداً بالتقاليد في الحياة العامة. ولكونها حاملة الثقافة والعادات والأعراف العريقة والأدب الشعبي الشفاهي والفولكلور الغنائي والشعر النبطي، فقد ركزنا عليها بصفتها الموضوع الأساسي للبحث. ونشير هنا رأساً إلى أن الرعاة يربون المعز والأغنام والأبقار من أجل لحومها ولبنها، فيما يربون الإبل والحمير كواسطة نقل، ما عدا بعض المناطق التي تربي الإبل أيضاً من أجل اللحوم والألبان (شكل رقم 5 - 4).

ولكننا، قبل أن نتناول توصيف وتصنيف اقتصاد الرعاة ومربي الماشية السقطريين، نتطرق إلى البحث الموسوعي الذي نشره بوريس أندريانوف في موسكو عام 1985 عن البدويين الرحّل في العالم كله بعنوان «سكان العالم المترحلون». وفيه تحليل لكل التصانيف

ومجمل المعايير المتبعة في هذا الميدان. ومن بين تلك التصانيف الكثيرة نستعين بأحدها، مما يندرج أيضاً ضمن منظومة تصانيف خبراء منظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة (أندريانوف، 1985: 77 - 79)، ونعني «تربية الماشية الرعوية غير المرتبطة بالزراعة»، أو ما يسمى «بالرعي الموسمي» للمواشي.



(شكل رقم 5 ـ 4)

ولعل هذا المصطلح يناسب أكثر من غيره تشخيص اقتصاد الرعاة الجبليين في سقطرى، رغم أن جميع الرعاة ومربي الماشية في الجزيرة يمارسون أيضاً زراعة النخيل. ولكنْ هل يصح أن ننسب استثمارات أهالي الجبال إلى نوع اقتصادي آخر في إطار التصنيف ذاته؟ هل يجوز أن ننسبها إلى «تربية الماشية الرعوية المرتبطة بالزراعة» أو إلى «الأشكال الرعوية المقترنة موسمياً بالزراعة»؟

نعتقد أن ممارسة الرعاة الجبليين في سقطرى لزراعة النخيل لا تعطينا مسوغات توصيفهم بالمزارعين، وذلك لجملة أسباب وجيهة:

أولاً ـ الوقت الذي يصرفونه في فلاحة تربة البساتين ورعاية النخيل وجني محصول التمور وما يرتبط بها أقل بكثير من الوقت الذي يقضونه في السهر على الماشية ورعيها وإعداد المنتجات الحيوانية وهلمجراً.

ثانياً ـ عدد النخيل التي تمتلكها العائلة الرعوية الواحدة قليل بالمعدل.

ثالثاً ـ الرعاة الجبليون لا يعرفون من أشكال الزراعة المتنوعة سوى النخيل، وهم

بطبيعتهم طارئون على الأعمال الزراعية، يعتبرون الفلاحة عملاً لا يليق بالرجال، بمعنى أنهم يتحلون بمزايا فكرية، أو تلازمهم عقدة ثقافية، أشبه بما يلازم أهل البادية. كما أن ميل الجبليين إلى موضع أو مكان معين واحد لا يرتبط بملكية الأراضي الزراعية المستخدمة لغرس النخيل، بل يرتبط بملكية المراعي.

وإذا اعتمدنا تصنيف أندريانوف الآنف الذكر يمكننا القول إن نمط حياة رعاة سقطرى أقرب إلى نمط الحياة الملازم للحضر والمقترن بالنزوح الموسمي الشامل من الحواضر أو المراكز السكنية، أي الحراك السكاني الموسمي. وتضفي زراعة النخيل خصوصية مميزة على النوع السقطري للاقتصاد أو الاستثمار.

ولكنّ القول «بان الوقت الذي يقضيه الرعاة شبه الرحل في المواطن الدائمية أطول من الوقت الذي يقضونه في الترحال الموسمي، ولذا يمارسون الزراعة» لا يناسب هذا النوع من الاقتصاد، ومن ثم فإن ممارسة الرعاة السقاطرة للزراعة لا تجيز توصيف نمط حياتهم بالحضري – البدوي، كما لا يجوز في اعتقادنا تسميته بالرعوي شبه البدوي، ما دام لدى الرعاة مراكز سكنية أو مستوطنات دائمة توحي بأن نمط حياتهم حضري، وقتي أو متعاقب بين حين وآخر (أندرونوف يتحدث عن نمط معيشي من هذا النوع لدى سكان المناطق الجبلية في التبت). كما لا يناسب السقاطرة الكلام عن «التحضر على مدار السنة مع نزوح موسمي لجزء من السكان»، ما دمنا أمام نزوح رعوي لجميع سكان المنطقة موضوع البحث.

ومن هنا يشكل الجمع بين تربية الماشية الرعوية بالأساس وبين زراعة النخيل سمة خصوصية مميزة لنمط الحياة الاقتصادية والمعيشية للسقاطرة المقيمين في المناطق الجبلية، أما أهالي الوديان والسهول في بعض المناطق فالسمة المميزة لحياتهم هي زراعة النخيل بالأساس إلى جانب تربية الماشية غير الرعوية أي غير المرتبطة بالترحل (منطقة رأس مومي، على سبيل المثال).

وانطلاقاً من هذه المؤشرات والاعتبارات تحديداً قمنا بتصنيف وتوصيف اقتصاد القبائل السقطرية، آخذين بعين الاعتبار أيضاً معياراً إضافياً هو صنف الماشية التي تشكل الأكثرية في استثمارات هذه المنطقة أو تلك (الأبقار، الأغنام، المعز).

في هذه الدراسة لا تتوافر لي إمكانية وضع كل النقاط على الحروف فيما يخص التوزيع الدقيق لمختلف أشكال الأداء الرعوي بجزيرة سقطرى في شتى مراحل ودرجات

التصانيف المتبعة لدى الإثنوغرافيين حينما يتحدثون عن مفاهيم النمط الاستثماري الرئيسي والفرعي والطبقة والعائلة والفصيلة والصنف والنوع، إلى آخره. فهذا الأمر يتطلب إنجاز الدراسات الميدانية المماثلة في حضرموت والمهرة أيضاً، إلا أننا نتوخى في هذه المرحلة تقديم توصيف دقيق، على قدر الإمكان، للاقتصاد السقطري والأحوال المعيشية عموماً. وبمقتضى هذه المهمة اعتمدنا تقسيم الرعاة إلى مجموعات عامة وفرعية، أو كبيرة وصغيرة. على أية حال، يمكننا القول بوجود ما لا يقل عن نوعين من أنواع الاستثمار الاقتصادي هنا، وهما الرعوي «الصرف» والمختلط، أما الصيغ الأخرى فسندرسها في إطار كلٍّ من هذين النوعين الرئيسيين باعتبارها أنواعاً فرعية لهما.

لدى الرعاة شبه الرحل أماكن سكن دائمة نسبياً، إلا أن المراعي الواقعة على مقربة منها ليست كافية لتأمين الكلأ لمواشيهم، ذلك لأن موارد المنطقة الصالحة للرعي المترحل توفر الفرصة لحيازة قطعان أكبر. هذا أولاً، وثانياً هنالك حاجة إلى توفير كميات من المنتجات الحيوانية (للسوق أيضاً في الآونة الأخيرة) أكبر بكثير مما يمكن أن تعطيه ماشية الاستثمار ترعى جنب البيوت طول السنة دون ترحل. والعائق أو القيد الأول بهذا الخصوص هو الماء، فالكميات المتوافرة منه في المنابع الطبيعية ليست كافية، ولذا يستخدم مربو الماشية البرك والأحواض الطبيعية لتجميع مياه الأمطار أو يبنون تلك البرك والأحواض بأنفسهم. غير أن مربي الماشية يحافظون على ارتباطهم وميلهم الشديد إلى أماكن سكناهم الدائمة رغم الترحل الموسمي بحثاً عن الكلأ.

إستراتيجية الترحال الرعوي تتوقف على مؤثرات الظروف الطبيعية والمناخية، بما فيها الثابتة أو الدائمية والمتغيرة أو غير الدائمة. ومن المؤثرات الدائمة، على سبيل المثال، الرياح الشديدة الموسمية الجنوبية الغربية، التي تهب على الجزيرة خمسة أشهر تقريباً، من مايو حتى سبتمبر، وتبلغ سرعتها 30 عقدة، أو سبع درجات من مقياس شدة الرياح، ولذا تكون الجزيرة في الموسم الصيفي مغلقة تماماً أمام الملاحة وصيد الأسماك. وطبيعي أن الرياح الموسمية الصيفية تعيق أي نوع من أنواع النشاط الاقتصادي، أما الرياح الموسمية الشمالية الشرقية التي تهب من نوفمبر حتى مارس فهي أخف بكثير ولا تسبب أية إشكالات في النشاط الاقتصادي.

ومن المؤثرات غير الدائمة كميات المياه التي تحملها الأمطار، وهي المصدر الرئيسي للمياه في سقطرى، والجفاف الذي يتكرر بين الحين والآخر يشكل كارثة على الرعاة ومربي

المواشي، ومن ثم على جميع سكان الجزيرة. فصل الشتاء (الموسم الشتوي عموماً) أكثر ملاءمة لحياة الناس وللنشاط الاقتصادي، فالطقس في هذا الوقت أخف وأهون وفيه برودة، والأمطار تهطل فيه إذا لم تكن الفترة المعنية من السنوات العجاف.

الرعاة ومربو الماشية مضطرون على التكيف لتبدلات الظروف الطبيعية، وقد نشأت لديهم أساليب وأصول وقواعد وضوابط اجتماعية خصوصية للبقاء على قيد الحياة في سنوات القحط والجفاف وغياب الكلأ، وهو ما سنتناوله أدناه.

يقسم سكان مختلف المناطق في سقطرى، ممن يزاولون الرعي وتربية الماشية كعمل أساسي أو كواحد من الأعمال الأساسية، إلى عدة مجموعات يختلف بعضها عن بعض بتميزها الواضح من حيث الاستثمار الاقتصادي، على الرغم من عدم وجود حدود دقيقة بين المجاميع المتجاورة، لأننا نلمس في كل مكان أشكالاً انتقالية وبينية متداخلة. والمواد الميدانية التي جمعناها تُمكننا من وضع توصيف موجز للمجموعات الأساسية، على الرغم من بقاء عدة جوانب من نشاطاتها الاقتصادية وثقافتها التقليدية ونمط حياتها خارج إطار البحث. وقد وجدتُ صعوبة حتى في تحديد العدد التقريبي للسكان المحسوبين على هذه المجموعة الاقتصادية أو تلك، ولذا فإن تسلسل ورود مجموعات السكان ليس دليلاً على حجمها أو كثرة أفرادها. وقبل أن ننتقل إلى تفاصيل هذه المسألة نتناول التقسيمات الجغرافية الطبيعية للجزيرة، معتمدين على استنتاجات بعثة توني ميلر وميراندا موريس البريطانية في مطلع القرن الحادي والعشرين (Miller, Morris, 2002: 55 - 108).

المناطق الجغرافية الطبيعية

يقسم الخبراء الإنجليز جزيرة سقطرى إلى المناطق الجغرافية الطبيعية التالية: 1) السهول الشمالية، 2) السهول الجنوبية، 3) الوديان الداخلية، 4) الهضبة الوسطى، 5) المنطقة الشرقية، 6) السهول الداخلية الشرقية، 7) المنطقة الغربية، 8) السهول الداخلية الغربية، 9) جبال حجهر، 10) الجبال والسهول الغربية الوسطى. هذا التقسيم مجزّأ وموسع كثيراً، ويعكس الخواص الطبيعية والمناخية والجغرافية العامة لمناطق الجزيرة، الأمر الذي ينعكس طبعاً على حياة السقاطرة واقتصادياتهم. إلا أننا حينما نتناول الفوارق اللغوية والثقافية بين المناطق، نختزل عددها إلى ثلاث مناطق أساسية هي: الوسطى

والغربية والشرقية. وسنقدم توصيفاً تفصيلياً لها في موضع آخر من هذا الفصل، فيما نكتفي الآن بموجز لخصائص المناطق العشر التي يركز عليها الخبراء الإنجليز.

1- السهول الشمالية: يتراوح عرض هذا الشريط المنبسط، وتتخلله مرتفعات جبلية نادرة ومبعثرة، ما بين 100 متر و 8 كيلومترات. وفيه تقع حديبو عاصمة الجزيرة ومراكز سكنية أخرى مثل السوق ودليشة وقاضب وديحمض وكدح وقرية وغيرها. ويزاول أهاليه صيد السمك ويربون المعز في الغالب، والأغنام بقدر أقل، ولديهم بساتين نخيل. تقيم الآن في هذه المنطقة قبائل سقطرية أكثر من القبائل التي كانت فيها سابقاً، كما يقيم فيها أحفاد العبيد والموالي. وقبيل ثورة 1967 كان سلطان المهرة وسقطرى يقيم في حديبو، وقبل ذلك كان مقره في السوق، ثم في حولف، وبعدها في جيوء، وعلها، ثم في جيوء من جديد. كما أمضى السلطان بعض الوقت في بلدة ديحوكامي (الحاكمين) المطلة على سهل نوجد الجنوبي.

2- السهول الجنوبية: تمتد مسافة 80 كيلومتراً على طول الساحل الجنوبي، ويبلغ عرضها 6 كيلومترات. الجزء الشرقي منها يسمى سهل نوجد، والغربي يسمى قعرة. خلال عملي في الجزيرة اكتشفت في نوجد بضع قرى مبنية من صدف القواقع وسعف النخيل على الرمل مباشرة (شكل رقم 5 - 5). أهاليها يزاولون صيد السمك بالأساس. فيما تقول ميراندا موريس إن الإنجليز الذين زاروا نوجد في عام 1944 شاهدوا هناك قريتين فقط يقيم فيهما 38 شخصاً، أما أنا فقد قمت بأعمال ميدانية في بعض قرى نوجد مثل حلمي وستيرو وحيف. ومن القبائل المقيمة في منطقة قعرة قبائل ترباك وبيت عيلة وسمهو وغيرها.

3- الوديان الداخلية: وتشمل المنطقة المتاخمة لجبال حجهر مباشرة. ميراندا موريس تطلق عليها تسمية الوديان لأن السقاطرة أنفسهم يسمونها «شيعب» بمعنى الوديان (المفرد شعب). إلا أن المراكز السكنية مبنية أيضاً على الهضاب والربايا غير العالية (إجليسو وجمعها إجالس) وعلى السفوح. في المنطقة أربعة وديان رئيسية تنحدر نحو الجنوب، لجهة نوجد، وهي: دعرهو وديعصمو وشوعب وديعلوفي

في قرية دعرهو الرعوية قمت في العام 1974 بعملي الرئيسي في جمع المادة العلمية التي جئت من أجلها، وساعدني في ذلك أصدقائي الطيبون من أبناء هذه القبيلة (التفاصيل لاحقاً)، وقد تمتعت بكرم الضيافة عدة سنين في قرى ديرسمويتن وعجيمينو

وباعة وغيرها. وهنا أجريت مع زملائي من علماء الآثار الدراسات الأولية لأنقاض المراكز السكنية القديمة.



(شكل رقم 5 ـ 5)

ومن بين المراكز السكنية الأساسية في وادي ديعصمو بلدات فيدد وحدرهن ورزحم وغيرها. والعشيرة الرئيسية هنا هي حيريوهن التي تضم فخذين: كيلمهو وزعبيبهن. التقسيم الثنائي ظاهرة منتشرة بين القبائل السقطرية، وفي بعض الحالات تقسم القبائل إلى «بيض» و«سود»، والرأي السائد حسب الروايات، أن مؤسسَي الفخذين هما دوماً أخوَان من اب واحد يعتبر الجد الأكبر للقبيلة.

يقسم وادي شعب إلى عدة أقسام هي شعب دي ألف (ومن بلداته فريجي) وشعب دي فعرهو (وبلدته تسمى بنفس الاسم) وشعب دي أعابيريو إلى الشمال من فريجي (هنا تسنى لي أن أدرس بلدة كيديني) وشعب دي شيديهر (وتسمى إحدى بلداته بنفس الاسم) وشعب دي أزرهو (هنا زرت بلدة كيزة)، ثم وادي شعب دي الوفي (ومن بلداته ميريشي)، وفيه تقيم قبيلة ميركهو.

4- الهضبة الوسطى: وتقع إلى الجنوب من السهل الشمالي، غربي جبال حجهر، منفتحة

على الوادي الجنوبي. وهي تتكون في الحقيقة من عدة ربايا ومرتفعات (إجالس) تمتد من الشمال إلى الجنوب. ويحمل أحد المرتفعات اسم هضبة ديكسم، وتقطنها مجموعة من القبائل، بينها قبيلة بني مالك التي تسنى لي أن أعمل معها وأجمع مادة علمية عنها في منتصف الثمانينات، وكذلك قبيلة كربب وقبيلة بديبو وقبيلة رأش وغيرها. إلا أن منطقة ديكسم ذات مساحة أوسع من الهضبة، وهي تسمى طيدعة. وفي بعض الأحيان تنسب خييرهي التي هي أعلى قمة في ديكسم إلى جبال حجهر، ربما ليس بسبب ارتفاعها فحسب، بل لكثرة الأمطار فيها أيضاً، على الرغم من موقعها في أسفل تلك الجبال. في منطقة ديكسم عدة عيون طبيعية وبرك اصطناعية كبيرة (تسمى ليم) ومنشآت أصغر لتخزين مياه الأمطار (التفاصيل أدناه). ومن بلدات وقرى هذه المنطقة حجيفينو ومجحليتن ودي زويهر وزيريغ وغيرها.

وهناك جزء من المنطقة يسمى شبهن، وتقيم فيه قبائل باسوتر وبالمحمود ورمحي وغيرها. ومن مراكزه السكنية دي سعدهيفيتن وجيرهم ومجيليدو وغيرها.

وقد كتبت ميراندا موريس عن المنطقة المطلة على الوادي الجنوبي وعن منطقة المرتفعات غير العالية والمسماة إجالس دي تيتن، أي رابية الضأن لكثرة الكلأ والأعشاب الصالحة لعلف الأغنام، ومن قرى هاتين المنطقتين كرمهام وطربينو ودجدجوودي حمرينو وتيميري وتيريبكهيتن وغيرها.

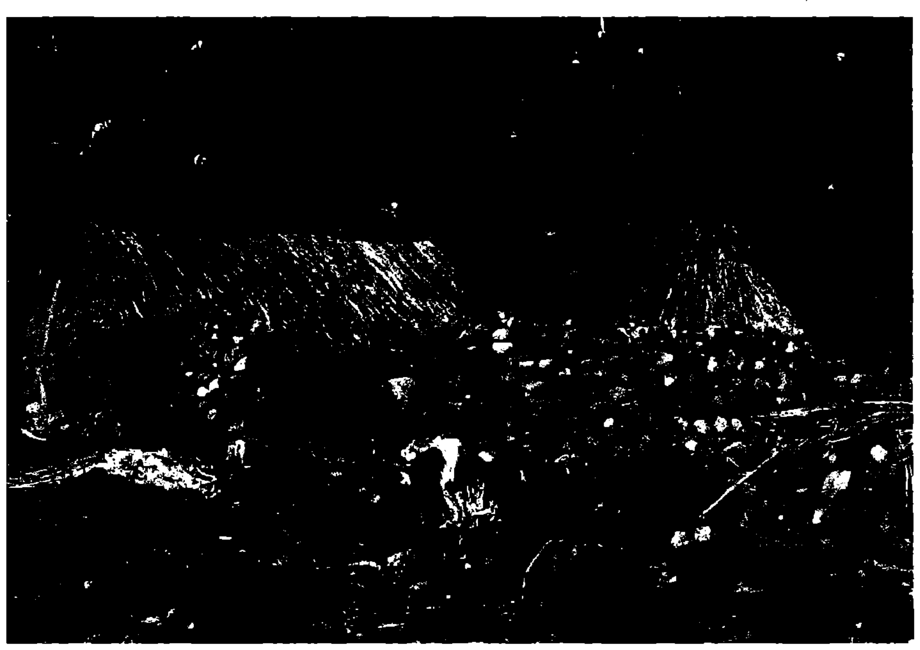
5- المنطقة الشرقية: وهي الجزء الشرقي من سقطرى الذي غالباً ما يسمى «مومي» نسبة إلى رأس مومي الواقع في طرفها الشرقي، ويشمل هذا الجزء أراضي هضبة شبيري ومنخفض مشيلهي. ووفق تصنيف أكثر تفصيلاً تضم هذه المنطقة رأس مومي، الطرف الشرقي الجاف للجزيرة، ومرتفعات شبيري، وسهل حالة الساحلي، ووادي حومهل الممتد من السهل الساحلي إلى أعماق الجزيرة، ومنخفض حنتهيو الذي يشكل الجزء الغربي من المنطقة الشرقية (وفيه مركز سكني واحد هو قرية زيريجيهن)، وخور مطياف.

وقد تسنى لي أن أزور العديد من المراكز السكنية في المنطقة الشرقية، وفي بعضها أجرينا كما أسلفت، حفريات في مستوطنات أثرية وقرب مدافن ومقابر قديمة، ودرسنا خصائص النشاط الاقتصادي للقبائل المحلية وخصوصيات فلكلورها وأساطيرها وعاداتها وتقاليدها، والمراكز التي زرتها هي بلدة قرية على الساحل وقرى فلاكي وجلسينو وقدامينو وكليسن (باسم الوادي والنبع الغزير الذي اكتشفت قربه أساسات كنيسة قديمة) وتاربك

وزافيلي وحجفينو ودي قزقز وبجوبج وشبهن وراكف ودينيهو وبعض القرى الأخرى.

وهناك منطقة المرتفعات الجافة المكونة من جزئين، هما إساله وفيلينج، وتقع فيهما المراكز السكنية حميري وزافاكانو وترباك وزانيجهن ومهيديدو وغيرها، ومن قبائل هذه المنطقة بن يقوت ودي فرجهل وزعبهي وشحي وغيرها.

6- السهول الداخلية الشرقية: وهي منطقة تتخلل الهضاب سهولها، وينسب الخبراء الإنجليز إليها ما يسمى شيتي (راجع التفاصيل أدناه)، ومنها قرى ديفسير ومينوديب وجومهر. أما الهضاب الواطئة المحيطة ببلدة قرية فتسمى روكب ومعابض وكام ولاهاز وأرهينو (على حدود سهل حديبو). وتوجد هنا مراكز سكنية مثل شيليهن وديشس وغيرهما (شكل رقم 5 - 6).



(شكل رقم 5 ـ 6)

7- المنطقة الغربية: وتضم عدة أجزاء هي الساحل الغربي المسمى بيدو (وفيه قلنسية، المدينة الرئيسية للمنطقة الغربية، وبلدة كودهر وبلدة نيت وغيرهما)، وسهل شيتي إلى الشرق من قلنسية (وفيه بلدتا مبدليو وإدرهم وغيرهما)، ومرتفعات شيبيري المطلة على السهل الساحلي (وفيها بلدات قازيمينو وكاتانا وبيت عبودي وغيرها)، وروكب وقاطن ومنطقة معلا الجبلية، وهضبة دي ميدي الكلسية الممتدة حتى نوجد. ومن قبائل سهول

هذه المنطقة دي موري وبنروجيج وقمحي وحرسي وبلخير وفيرجهو وغيرها. ومن قبائل معلا الجبلية زيدهي ومكلل ومرهو ودي باعة وغيرها، وفي هذه المنطقة قمم جبلية معروفة.

8- السهول الداخلية الغربية: وتضم منطقتي ريد (وتعني بالسقطرية السهول) وميها. ومن قبائل منطقة ميها: جزلهو وزنجهو وزمديد وحميرهو وغيرها، ومن مراكزها السكنية قرية زليكينو التي أمضيت فيها بعض الوقت لدراسة الأحوال الاقتصادية للأهالي، وقد أحسنوا ضيافتي مشكورين، وكذلك كودي ودي قزقز وريكيبو وغيرها. ولأهالي السهول مغارات وكهوف في الجبال والسفوح يتخذون منها مساكن لهم في موسم الترحل طلباً للكلأ، ومنها في منطقة معلا قرى الكهوف والمغارات حيف وكاف وقيزمينو وغيرها، ومن السهول الداخلية الغربية يشار خصيصاً إلى منخفض تير دي ترور (وتعني تسميته «باب الأبواب») وفيه عدد من القرى.

9- جبال حجهر: وتقسمها الباحثة الإنجليزية ميراندا موريس إلى ثلاث مناطق، هي الغربية (حجهر بيت حاجي) والوسطى (حجهر دعدهي) والشرقية (حجهر ديد فهد)، (Miller, Morris, 2002:95). جبال حجهر الشرقية ذات كثافة سكانية أكبر من المنطقتين الأخريين، إلا أن في حجهر الغربية التي هي أقل مساحة مراعي معشوشبة أكثر، وأعلى قمم حجهر هي دي شعر ودي فيئي وسكان دي سكاند وميكزي دي شعر. ومن قبائل حجهر الوسطى بنو علين وبنو ماجد وبنو كلشيت وزعبنوت وفعمهي، ومن مراكزها السكنية قرى أديهن ودينجهن وتيهن وغيرها، وللكثيرين من الأهالي منازل في دعرهو.

أما قبائل حجهر الشرقية فهي بنو حبشي وحزمهو وريمهو وغيرها، ومن قراها كودي وإبدهور وزيبارهي وبنو عفرار (المسماة باسم القبيلة التي ينتمي إليها السلطان) وسيفي وريع وغيرها. ومن قبائل حجهر الغربية الميرو وحدرهو وغيرهما، وقراها هي دي حاقوق ومشفيت ودي ناهة وغيرها. وتفيد المعلومات التي أوردتها ميراندا موريس أن قبائل حجهر الغربية ترحل لترعى ماشيتها في روكب دي فيرمهم أو ريجد. وبعضها مثل حدرهو تبقى في أماكنها، فيما تنتقل قبائل حجهر الوسطى للرعي في الوديان أو ترتحل إلى مستوطنتها الشمالية معنيفو.

10- الجبال والسهول الغربية الوسطى: تركّز ميراندا موريس في هذه المنطقة على عدة أجزاء، وخصوصاً ريجد وعيهوفت. كما تشير إلى قبائل كربب وشدرهو وحدرهي وبلسوتر وغيرها، وإلى القرى والمراكز السكنية ريجيفت وكليمو وستير وروهو وغيرها.

فصول السنة واتجاهات ترحال الرعاة

الظروف الطبيعية والمناخية، وخصائص النشاط الاقتصادي الرعوي (والزراعي فيما يخص النخيل) المتوقفة على تلك الظروف، ولّدت لدى السقاطرة تصوراً تقليدياً مميزاً عن المواسم والفصول. فهم يقسمون السنة إلى أربعة مواسم أساسية أو فصول:

أولها قياط ويستمر على وجه التقريب من ديسمبر حتى فبراير، والأمطار في هذا الفصل نادرة عادة. والفصل الثاني يسمى دوتو، وهو موسم الأمطار الممتد من مارس حتى مايو. والثالث حُرف، موسم الرياح الشديدة من أواخر مايو حتى أغسطس، وفيه يجنون محصول التمور. أما الفصل الرابع فهو صيريب، ويشمل الفترة من سبتمبر حتى ديسمبر، وهنالك فترات قصيرة بين المواسم لها مسمياتها الخاصة.

الترحال عادة يمكن أن يكون عمودياً، من الوديان إلى الهضاب وبالعكس، في حدود أراضي القبيلة وخارجها، وسببه الأول هو ضرورة الانتقال إلى الأماكن التي يوجد في مراعيها كلأ وفير وماء للماشية (بما في ذلك موسم الأمطار إذا كان مكان الإقامة القديم لا يوفر مثل تلك الإمكانيات). إلا أن ثمة أسباباً أخرى للنزوح، مثل ضرورة الانتقال من البقاع الحارة إلى بقاع أبرد منها، أو الانتقال من الأماكن الباردة والبليلة إلى أماكن أدفأ، والبحث عن ملاذ من شدة الرياح. وإلى ذلك يقتاد الرعاة الماشية، عندما يتوجهون لجني محاصيل التمور، إلى مواقع البساتين، أو إلى المناطق الساحلية عندما يمارسون صيد الأسماك في بعض الأحيان.

ولدى القبائل السقطرية أماكن عائدة لها ومخصصة للإقامة الدائمة، وأماكن أخرى للرعي توجد فيها بيوت أو أكواخ وقتية. وإلى جانب الطرق والمسالك الأساسية للترحال مع الماشية هناك طرق ومسالك بديلة للحالات أو المواسم الصعبة. ولكل منطقة يرتحل إليها الرعاة خصائصها ومزاياها، ففي بعض الحالات تكون مراعيها متقاربة، وفي حالات أخرى متباعدة.

خلال رحلاتي الأولى إلى الجزيرة، قيل لي مثلاً إن قبائل المنطقة الشرقية نادراً ما تترحل على الرغم من تميزها بالخفة وسرعة التحرك، وحتى إذا ترحلت فلمسافات قريبة، في حين أن قبائل المنطقة الوسطى والبقاع المجاورة لها تنتقل مع مواشيها بانتظام إلى المراعي الجبلية. وهذا ما يفعله مثلاً أهالي قرية روكب الذين لديهم مستوطنتان

متقاربتان: دائمة يقيمون فيها، ووقتية ينتقلون إليها في موسم جني التمور.

ولا بد من الإشارة هنا إلى الطريقة الفريدة التي يهتدي بها السقاطرة، أثناء تنقلهم، في الجهات الأربع. وهي مرتبطة بنمط حياتهم شبه البدوية. فهم يميزون بين ثلاثة أنواع من النزوح والترحال يسمونها بلغتهم: مزهيرو ومركيو ومطعينو. الأول والثاني هما النوعان الأساسيان للنزوح الموسمي المنتظم. في بادئ الأمر لم نفهم من أحاديث السقاطرة وأجوبتهم عن أسئلتنا في هذا الموضوع ما يقصدونه بتلك المصطلحات، على الرغم من أن مخطط الترحال واضح من الناحية النظرية. على أية حال فهمنا من توضيحاتهم أن النوع الأول يعني رحيل البدو من مكان واقع في مجال ميدي إلى مكان آخر في مجال شيتي، أما النوع الثاني فهو النزوح في الاتجاه المعاكس، ولا يبقى أمامنا سوى إيضاح معنى هاتين التسميتين.

يقول فولف ليسلاو إن ميدي تعني الرياح الجنوبية وشيتي تعني الشمال، وكذلك الرياح الشمالية (Leslau, 1938: 238,435). ونجد في اللغات السامية ظاهرة ملفتة ومثيرة بخصوص هاتين المفردتين اللتين يعود جذراهما إلى أصل سامي واحد دون ريب، ففي اللغة المهرية تطلق كلمة ميدد على الرياح الشمالية (وليس الجنوبية)، في حين تطلق كلمة شوتو shutu بالأكادية على الجنوب والرياح الجنوبية (وليس الشمالية). ونجد الشيء ذاته في الآرامية، حيث تعني شوتا shuta الجنوب، وفي اللغة الحبشية القديمة تعني كلمة سامين samen الجنوب، فيما تعني هذه الكلمة في الأمهرية الشمال. وبعبارة أخرى نحن هنا أمام مفردة واحدة تستعمل بمعنيين متضادين في مختلف اللغات السامية، وقد لاحظ تيودور نولدكه هذه الظاهرة وحاول أن يجد لها توضيحاً (Noldeke, 1910: 63 -62 ,81) .

ولكن ما العلاقة بين مفهومي ميدي وشيتي وبين تحديد السقاطرة وجهتهم في الجهات الأربع؟ ولربما ليس السقاطرة وحدهم، وليس في الاتجاهات الأربع وحدها! وجود المفاهيم المتساوية من حيث المعنى (رغم استبدال مواقعها) عند الساميين القدامى، وخصوصاً الأكاديين، إنما يعطي المبررات للافتراض بأن المفردتين المذكورتين قديمتان جداً، فيما نعرف نحن من تجربتنا الخاصة أن الكثير من طبقات المفردات السامية المشتركة حافظت في اللغة السقطرية على مضمونها ومعانيها إنْ لم يكن بشكلها الأصلي، فبشكل معدل بعض الشيء لدرجة أقل بكثير مما في باقي اللغات السامية الحية.

ألا يجدر بنا أن نبحث هنا عن سنن مشتركة كانت سبباً لهذا التفاوت والاختلاف في

معنى نفس المفردات أو المصطلحات السامية؟ ثم ألا يثير الاستغراب أن التضاد في هذين المصطلحين يتناول جهتين فقط هما الجنوب والشمال، فيما يغيب الشرق والغرب، على الرغم من أن التوجه نحوهما أسهل بسبب حركة الشمس؟ وعلى فكرة، فإن المقابر القديمة والمعابد وما يماثلها من مباني السقاطرة تتجه تحديدا نحو محور الشرق - الغرب. ونعيد إلى الأذهان أن كلمات هذا الجذر في اللغات السامية الأخرى لها معان مرتبطة بمنظومة أخرى من المفاهيم، وهي تحديداً منظومة الفصول والمواسم (الزمانية) وليس منظومة الجهات (المكانية)، والدليل على ذلك هو مفردة «شتاء» في اللغة العربية.

ويمكن الافتراض بأن ثنائي المصطلحين المتناقضين في اللغة السقطرية لا يرتبط بزوجية الشمال - الجنوب فحسب، بل كذلك بزوجية الشتاء - الصيف (أو البرد – الحر، على الرغم من أن تبدل درجات الحرارة في سقطرى لا يعني بالضرورة تبدل الفصول التي يتسم عامل الأمطاروالرياح بالأهمية الحاسمة للتفريق بينها)، وكذلك فوق - تحت (الجبال - السهول).

ومما يؤكد هذا الافتراض أن الفارق بين نوعي الترحال مزهيرو ومركيو لا يحدده بصورة مباشرة تضاد الاتجاه على محور الشمال - الجنوب، فالنوع الأول من الترحال الرعوي يجري من فوق لتحت، من الجبال إلى الوديان، من البرد إلى الحر، من المنطقة القاحلة إلى المنطقة التي فيها كلأ وماء (في الموسم نفسه)، أي إلى المراعي الشتوية. أما النوع الثاني فيتم من تحت لفوق، من السهول إلى الجبال، من الحر إلى الطقس الأبرد، من مناطق الجفاف إلى مناطق الكلأ والماء (في الموسم نفسه)، أي إلى المراعي الصيفية. الترحال الموسمي يتوافق في معظم الأحوال (وليس جميعها) مع وجهة الشمال – الجنوب، وإلى ذلك يمكن الانتقال إلى المراعي الشتوية في الاتجاه الشمالي وفي الاتجاه الجنوبي.

الترحال أو النزوح الموسمي من جبال حجهر، أو المنطقة المتاخمة لها، نحو الأسفل في الاتجاه الشمالي (ضواحي حديبو وكام وقرية وديليشه وغيرها) يسمى فعلا دشيتي. ويطلق هذا المصطلح نفسه على الأراضي نفسها مما يقع في الأسفل إلى الشمال، إلا أن الترحال أو الانتقال إلى الجنوب لا يسمى لا بهذه المفردة ولا بالمفردة الأخرى المضادة لها ميدي. كل ما في الأمر أن النازحين يشيرون إلى مكان النزوح ويقولون إنهم راحلون إلى محفرهن أو حلمي، على سبيل المثال. ثم إن النزوح إلى حديبو يسمى بمصطلح خصوصي هو سرحة، ولم يتسن لنا أن نعرف أصل هذه الكلمة. وعلى نفس الشاكلة يسمى الترحال من

السهول الشمالية إلى أعلى، باتجاه الجنوب، دي ميدي، كما تستخدم نفس المفردة للدلالة على تلك المناطق.

نضيف إلى ذلك أن للتضاد بين الأعلى والأسفل (فوق وتحت)، بين الجبل والوادي، في الثقافة السقطرية معنى أوسع بكثير من معاني الأضداد الأخرى. والدليل على ذلك هو ثنائية مصطلحي الاتجاه: دسعنهن ـ نحو الجبال، ودجامي ـ نحو الوديان. ويعزى ظهور هذه الثنائية إلى وجود ثقافتين ونمطين للحياة ونوعين من الاقتصاد، وأخيراً فئتين أساسيتين من السكان: الرعاة الجبليين وأهالي المناطق الساحلية.

في نوجد، على الساحل الجنوبي، يسمى النزوح أو الانتقال من الجبال إلى تحت، إلى السهل الساحلي في الاتجاه الجنوبي، منجد نوجد، كما تطلق هذه التسمية نفسها على المناطق الساحلية، فيما يسمى النزوح أو الصعود إلى الأعلى إلى الجبال، دي ميدي، ويطلق هذا المصطلح أيضاً على المناطق المرتفعة إلى الشمال من الساحل.

القبائل الرعوية السقطرية تترحل، كما أسلفنا، في الظروف العادية (ما عدا الحالات الاستثنائية كالجفاف والأوبئة ونفق الماشية وغيرها)، إلى المراعي الموسمية نفسها التي تستخدمها طوال القرون، ما يعني أن تلك المراعي عائدة لهذه القبائل، ولدى أبنائها في منطقة هذه المراعي عادة بيوت (أو مغارات) يقيمون فيها مع عوائلهم طوال فترة النزوح التي تستغرق عدة أشهر.

إلا أنهم يواجهون في بعض الأحيان أوضاعاً يتعذر فيها لسبب ما رعي مواشيهم في مراعيهم، وفي مثل تلك الحالات تقتضي الضرورة استخدام نوع ثالث من النزوح والتنقل يسمونه مطعينو، وهو يمكن أن يحصل في أي فصل من فصول السنة وفي أي مكان. فالقبيلة أو العائلة الكبيرة التي تواجه وضعاً عصيباً تطلب المساعدة من القبيلة أو العائلة التي لديها مرعى فيه كفاية من الكلأ. وفي العادة يسمح أصحاب المراعي للمتضررين من الجفاف أن يقيموا عندهم ويرعوا الماشية في مراعيهم إلى أن يسعدهم الله بمطر يروي أراضيهم. وقيل لنا إن المتضررين يدفعون لمن يستضيفهم، وتسمى تلك المدفوعات مزبيدو، وتسدد نقداً أو بشكل عيني (بماشية أو زبدة أو تمر).

في مفهوم السقاطرة لاتجاهات الترحال تطلق على قلنسية وضواحيها تسمية فُتك، والنزوح إليها بالطبع ليس كالنزوح إلى مناطق الجنوب أو الشرق (فهذه المناطق تختلف كثيراً من حيث الظروف الطبيعية)، إلا أن أي نزوح إضطراري أو صدفي حتى إلى

منطقة قلنسية يسمى في كل الأحوال بنفس المصطلح الثالث مطعينو. وقد سمعتُ البدو من قبيلة بني مالك في ديكسم (على الحدود بين المنطقتين الوسطى والغربية) يطلقون هذا المصطلح على النزوح الاضطراري إلى قلنسية، ونوجد، ورأس مومي، أي إلى الغرب والجنوب والشرق.

ثم إن نوعي الترحال والتنقل الأساسيين مزهيرو ومركيو هما نزوح إلى منطقة محددة تماماً تقتضي النزول والصعود. كان الرعاة ينتقلون أو ينزلون من الأعالي لفترة قد تطول ما بين شهر إلى ثلاثة أشهر، تبعاً للمنطقة والطقس والظروف المناخية تحديداً، يتم ذلك عادة في نوفمبر - ديسمبر عندما يبرد الجو هناك وينعدم الكلأ، وأهالي حجهر يمتلكون أماكن دائمة للرعي في وديان المنطقة الشرقية ينزحون إليها في هذا الموسم. وهناك اتجاه مهم آخر في النزوح، وهو من جبال منطقة حديبو في موسم دشيتي، وبالعكس إليها في موسم دميدي.

يطلق السقاطرة على أهالي حديبو تسمية شيتهو (المشتقة من شيتي)، وعلى أهالي نوجد نُجدهو، وعلى أهالي قاضب قاضبهو، أما البدو فيسمون دوماً سقطري! ولذا لا يجوز الجزم بأن شيتي هي الاتجاه الشمالي تحديداً، ذلك لأن قاضب تقع أيضاً في الشمال من حجهر، إلا أن أهاليها لا يسمون شيتهو.

يقول الخبير الإنجليزي ج. براون الذي زار سقطرى عام 1966: إن النزوح الموسمي الموضعي هو من الممارسات المعتادة لرعي الماشية في الجزيرة، وهو يجري دوماً على مساحة محدودة ولمسافة محدودة أيضاً لا تتجاوز الميل أو الميلين (1.6 - 3.2 كيلومترات) «من الهضبة أو إليها». ولم يصادف هذا الخبير في سقطرى رعاة أو مربي ماشية يمتلكون قطعاناً أو مراعي في أراضي متباعدة، على الرغم من وجود هذه الظاهرة في بعض الحالات، عندما يتزوج الراعي من قرية بعيدة أو يحصل على تركة في مكان بعيد عن مكان إقامته.

وكانت حقوق الرعي محددة ومرسومة بدقة. فأصحاب الأبقار من منطقة حديبو، مثلاً يتمتعون في الفترات الاستثنائية، كالجفاف الشديد، بحق رعي أبقارهم في مراعي جبال حجهر، وهو أمر غير جائز في الأوقات العادية، وبموجب هذا الحق يجوز فقط رعي الأبقار التي لديها عجول، إلا أن سكان حجهر الدائميين يحق لهم أن يمنعوا حتى هذا النوع المحدود من الرعي. وبالمقابل أهالي المراكز السكنية في السهل الساحلي الشمالي الذين لا يمتلكون حقوقاً معينة لرعي مواشيهم على سفوح الهضاب الواقعة إلى الجنوب من السهل

المذكور يقومون برعيها هناك، وما كان الجبليون من أهالي الهضاب يستطيعون منعهم من ذلك، مثلما لا يستطيع أهالي السهول منع الجبليين من رعي ماشيتهم في مراعي تلك السهول خلال موسم الأمطار، كما في دانس، على سبيل المثال. وكان مربو الإبل المقيمون على مقربة من حديبو يتمتعون بحقوق كاملة لرعي إبلهم في مراعي أحد الوديان التي يتمتع فيها بدو الهضبة المجاورة بحق رعي مواشيهم في موسم الأمطار (مراعي الوادي تعتمد على مياه الأمطار). أما في المناطق الواقعة غربي حديبو فإن ممارسات رعي الإبل لا تتم إلا بموافقة أصحاب الحق في ملكية تلك المراعي (Brown, 1966: 14). (شكل رقم 5 - 7)



(شكل رقم 5 ـ 7)

الخصائص العامة للاقتصاد الرعوي

ثمة أسباب كثيرة تجعل من الصعب تقديم لوحة متكاملة للاقتصاد الرعوي في سقطرى، بل وحتى تقدير عدد رؤوس الماشية في الجزيرة، ومن تلك الأسباب ضعف مشاركة الإنسان في رعي المواشي، فهي متروكة لحالها دوماً تجوب المراعي بحرية تامة، إلا أنه بات بالإمكان اليوم تقويم الموقف بدقة أكبر مما في السابق. المشاهدة الميدانية مهمة بالطبع، ولكنْ ثمة معلومات نعرفها من دون مراقبة وبلا مشاهدة مباشرة، فعلى سبيل المثال يمكن أن تسرح

بكل حرية وتقضم الأعشاب والشجيرات في سفوح أحد جبال حجهر 500 معز دون أن نرى، مباشرة، ولا واحدة منها، ومع ذلك تفيد معطيات مستشار الاتحاد الأوروبي الذي أجرى دراسات ميدانية في سقطرى عام 2000 م (Miller, Moris, 2002: 303) أن في الجزيرة الأعداد التالية من رؤوس الماشية:

المعز . 29300

الأغنام . 7300

الأبقار . 2500

الإبل . 400 (ولا ذكر لعدد الحمير).

فلنقارن هذه الأرقام بالتقديرات التقريبية التي أوردها ج. براون عام 1966 م. (Brown, 1966:25) :

المعز . 19000 (كانت موجودة بكثرة في أراض محدودة هي الأسوأ بالنسبة لتربية الماشية الرعوية في مناطق الجزيرة، أي في السهول والوديان الكبيرة والمنطقة المحيطة بمدينة حديبو. أما في المنطقة الغربية، وخصوصاً في حجهر، فإن المراعي المتوافرة لم تستخدم لرعي المعز بما فيه الكفاية).

الأغنام . 26000 (هذا عدد كبير لا نعرف أسبابه اليوم، إلا أنه استنفد قدرات المراعي آنذاك).

الأبقار. 1800 (آنذاك كانت جميع الأبقار تقريباً، ماعدا ربما 150 رأساً، موجودة في حدود منطقة حجهر، وفيما بعد ظهرت أبقار في المناطق الأخرى).

الإبل – 350 (آنذاك كان بدو المنطقة الشرقية والجنوب الشرقي فقط يقومون بتربيتها، أما اليوم فالإبل أكثر، نصادفها في هضاب السهل الساحلي الشمالي وفي المنطقة الوسطى).

الحمير. 500 (آنذاك كانت موجودة فقط عند بدو الجزئين الشرقي والجنوبي من الجزيرة الميالين أكثر إلى الترحال ولديهم ما ينقلونه من مكان إلى آخر).

كان الخبير الإنجليزي يعتقد آنذاك أن الأبقار لا يمكن أن تتكاثر في المراعي الطبيعية هناك. وعلى العموم لم تكن أعداد المواشي كبيرة في سقطرى، فلكل رأس منها نحو 8 هكتارات من المراعي (وبمعدل 4.2 هكتار في مراعي الأغنام الجبلية). وفي شرق الجزيرة ما لا يقل عن 6.1 هكتار. الحيوان الأليف الوحيد الذي كان بالإمكان تكاثره بشكل مربح

اقتصادياً في سقطرى هو الماعز.

ولم يجد براون تفسيراً لعدم تكاثر المعز بالنسب المنتظرة من إمكانيات المراعي الكبيرة، في ظل غياب الوحوش المفترسة وقلة عدد السكان الذين كان يمكن أن يشكلوا خطراً عليها، (بسبب حاجتهم إلى اللحوم، فيما لو كان عددهم أكبر مما هو عليه). علماً أن الماعز يمكن أن يتكاثر من دون تدخل من الإنسان، والدليل على ذلك هو وجود عدد كبير من الماعز البري الذي يمكن أن تتشكل منه قطعان بكاملها في المراعي التي لا تشغلها الحيوانات الأليفة.

كانت قطعان الماعز البري التي يسميها الجبليون طحرر منتشرة في سقطرى في السابق، ولم يبق لها اليوم أثر تقريباً. أبلغنا أحد السقاطرة أن بعضها ربما بقي في الجبال المطلة على قلنسية، والطاعنون في السن من الجبليين كثيراً ما يستحضرون في أحاديثهم معنا مشاهد من حياتهم في عهد الصبا عندما كانوا يطاردون الماعز البري في تلافيف الجبال، ويحبون التباهي بشجاعتهم في الإمساك بماعز عنيد من هذا النوع.

من حيث المظهر الخارجي لا يختلف الماعز البري في الواقع عن الماعز الأليف، إلا أنه يعيش حراً طليقاً في رحاب الطبيعة، ويهرب من الإنسان إذا اقترب منه أو تحرش به. ويمكن الافتراض بأن الماعز البري لا يشكل فصيلة مميزة، وإنما هو ماعز متوحش كان أليفاً في زمن ما، والدليل على ذلك سهولة ترويضه، كما أكد لنا الرعاة السقاطرة. وهناك نوع من الماعز البري يسمى طحرر دي زيمزيهن يتسلق الجبال، حسبما قيل لنا، على نحو أسرع، كأنه يختلف بعض الشيء عن المعز الأليفة من حيث المظهر، ولونه بني على بياض.

وصيد الماعز البري، أو المتوحش على الأصح، يتم بشبكة يمتد منها حبل طويل إلى الصياد المختبئ في كمين. كما يتحدث الرعاة عن خراف متوحشة أطلق لها العنان في أعوام الخير لأن أحداً ليس لديه الوقت الكافي للعناية بماشية نفعها قليل لا يبرر الجهد المبذول في رعايتها. ومن المنطقي الافتراض بأن المواشي المتوحشة التي عاشت حياة الحرية أو ولدت من ماشية متوحشة هناك تغدو أمتن وأقوى، وربما أضخم من مثيلاتها الأليفة.

يقول ج. براون إن الجزيرة لم تشهد أوبئة فتاكة قادت إلى نفق الماشية وهلاكها بأعداد كبيرة. ولا أجد نفسي متفقاً مع الخبير الإنجليزي في رأيه هذا، فقد سمعتُ من الرعاة كلاماً عن أوبئة كهذه، وجمعتُ بعض المعلومات عن أمراض الدواب، فعلى سبيل المثال يذكر السقاطرة داء الجرب بوصفه من الأمراض الفتاكة التي تهلك الماعز. وتشير ميراندا

موريس إلى أنهم ربما يقصدون بالجرب «الحكة أو الحساسية السقطرية» sarcoptic mange، وأن الجبليين يتصورون أن عدوى هذا المرض وصلت إلى الجزيرة في عهد السلطان عيسى بن علي (Miller and Morris, 2002:347).

ويؤكد الرعاة وجود نوعين من هذا المرض: خارجي من أعراضه بياض جلد الماعز ويبوسته وتساقط الشعر واشتداد الحكة والحساسية التي تخلف بثوراً مدماة. في المرحلة الأولى يدهن الرعاة مواضع الحكة بالسمن على أمل أن يكون له مفعول ما، إلا أن الماعز، في هذه الحالة، محكوم عليه بالهلاك، فيذبح عادة ويدفن أو تهال عليه الأحجار. أما الشكل الثاني الباطني لأعراض الجرب فهو يشبه الحصبة، ويقول الرعاة: إن الماعز يمكن أن يتماثل إلى الشفاء إذا خرج المرض من الداخل إلى خارج الجلد عبر البثور المتقيحة، ولا يستبعد أن تعني مفردة الجرب هناك أمراضاً غير وبائية مشابهة له، تصيب الماعز وتفتك بها.

وثمة مرض آخر أخف وطأة يسمى محاريت يسبب عسر التنفس ويجعل الماعز المصاب به يشخر أثناء الشهيق والزفير. ويعالج هذا المرض تقليدياً بالكي على جانبي الرقبة بحديد مسخن (كانت الخدمات البيطرية معدومة عند الرعاة الجبليين)، وبالطريقة نفسها تعالج أمراض المعدة والأمعاء لدى الحيوانات الأليفة. ومن أعراض تلك الأمراض نقص الإدرار اللبني، إلى جانب الإسهال، ويسمى هذا المرض كبت، ويعالج بالكي على البطن. وهناك حالة أخرى لا ترافقها شحة اللبن وتسمى مسرح أو مخروج وتعالج بالكي على القفا. كما يستخدم كي البطن في علاج أمراض أخرى مثل التلحيم، ومن أعراضه هزال ونحول الماعز أو الشاة، وكذلك التهاب الكلية، ومن أعراضه أيضاً الضعف والهزال والنحول. كما تصاب الأبقار بمرض يسمى بالسقطرية جعف وأعراضه أشبه بجنون البقر، ويعالج بالكي على القفا. ومن أمراض المعدة والأمعاء المنتشرة بين الدواب داء عقابة، ومن أعراضه أيضاً هزال الدابة والإسهال الكثير، والماشية المصابة به تذبح، فليس هناك من علاج.

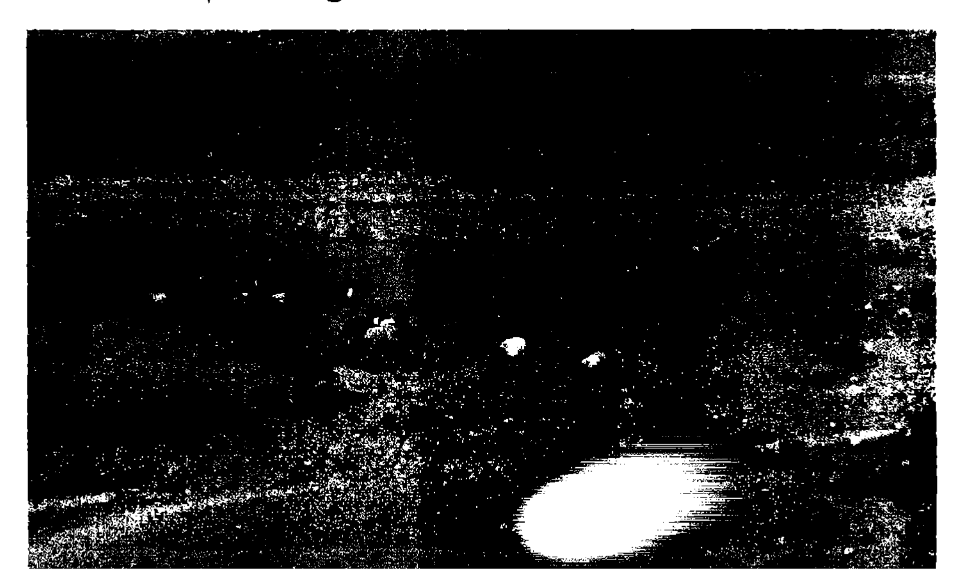
يقول الباحث الإنجليزي براون إن هذه المناطق لم تشهد سرقة المواشي، ونحن نعتقد أن هذا القول قد لا يكون صحيحاً، فقد ورد ذكر سرقة المواشي في النصوص الفلكلورية التي سجلناها في سقطرى. ومن الجدير بالذكر أن السرقة كانت مستهجنة تماماً، ولا تحصل إلا في سنوات القحط والجفاف.

كتب ج. براون: «يبدو أن راعي المعز يسعى إلى الاكتفاء بالحد الأدنى من رؤوس الماشية

التي يستطيع أن يحلب لبنها، ولذا يعمد بطيب خاطر إلى نحر النسل من أجل لحومه، وهذا لا يروق لرعاة المواشي الأخرى، وخصوصاً فيما يتعلق بالمواليد الإناث».

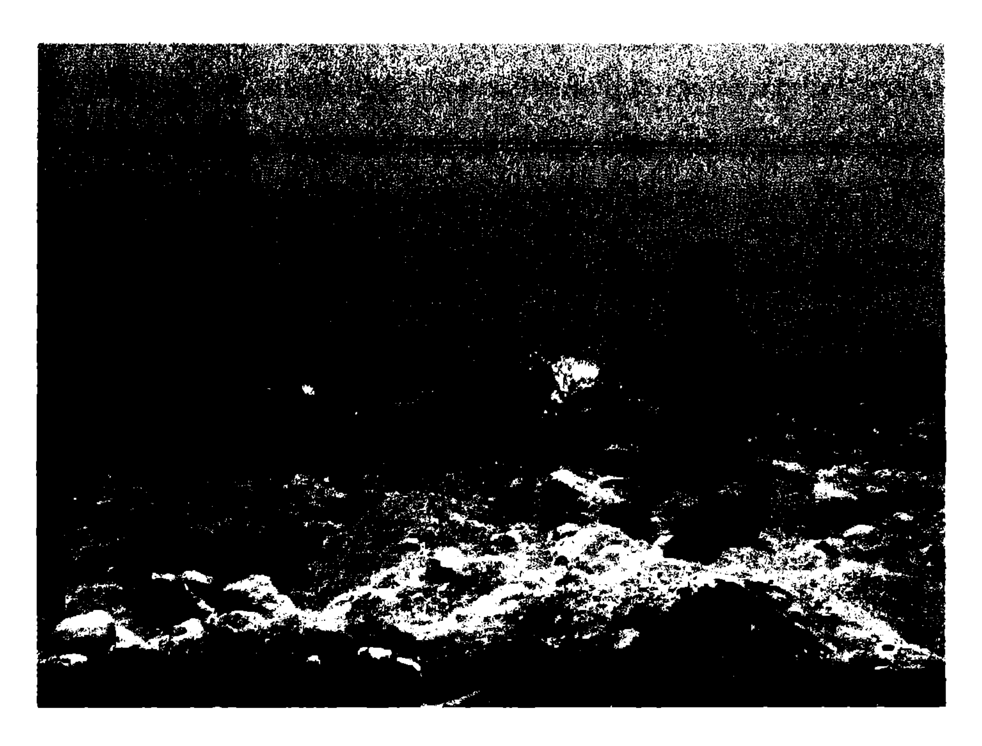
كان براون يعتقد أن تكاثر المعز هو الوحيد الذي له مستقبل في الجزيرة، سواء من حيث تحسين النسل والأصناف أو من حيث زيادة عدد الرؤوس. كما طرح آنذاك فكرة تأسيس معمل لفراء الصوف المجعد، أو ما يسمى فرو آستراخان، بهدف تشجيع تربية الأغنام، وهي الفكرة التي لم تعد مجدية اليوم بسبب غياب الطلب على مثل هذه المصنوعات. وكان يعتقد أن من السهل على البدو أن يربوا أغنام فراء أستراخان، لأن جلودها المدبوغة لا تتلف، ويسهل تصديرها. كتب براون يقول: «إذا كان المزارعون في جنوب أفريقيا يربون أغنام فرو آستراخان في ظروف صحراء كالاهاري، ويجنون الأرباح منها، فما الذي يمنع القيام بذلك في سقطرى؟ ألا تعيش أغنام كالاهاري على ما يتيسر لها فقط من الكلأ؟» (Brown, 1966: 26).

ولقد اقتنعنا من خلال الدراسات الميدانية، بأن تعداد الماعز في سقطرى ازداد بالفعل في السنوات الأربعين الأخيرة، فيما تقلص عدد الأغنام لدرجة كبيرة. خلال عملي هناك في السبعينيات والثمانينيات لم تتوافر لدي إمكانية تحديد عدد رؤوس الماشية على وجه الدقة، ولكن الأكيد الذي لاحظته بأم العين، أن عدد الأغنام آنذاك كان أقل من الماعز، وأعتقد أن هذا الاتجاه تصاعد بسرعة فيما بعد على الأرجح (شكل رقم 5 - 8).



كانت تربية الماشية في سقطرى ولا تزال تهدف بالأساس إلى توفير اللبن، ليس لأنه من المفردات الرئيسية في قائمة المواد الغذائية والأطعمة السقطرية فحسب، بل لأنه يشكل أيضاً «الخامات» التي تصنع منها الزبدة، وكذلك السمن، وهو الأهم، كونه المنتوج البضاعي الرئيسي بين المنتجات الحيوانية السقطرية (التفاصيل في الفصل السادس). فالرعاة كانوا يبادلونه بكل ما يعجزون عن إنتاجه بأنفسهم، ابتداءً من السكر والرز وانتهاءً بالحديد والأقمشة. كما كانت المعز والأغنام، ولا تزال تستخدم لتوفير اللحوم، وتؤمن سد حاجة السكان إلى هذا النوع من المنتجات الحيوانية.

أما الأبقار فنادراً ما تستخدم لهذا الغرض، ذلك أن فترة الإدرار عندها أطول، وذلك يزيد كثيراً من قيمتها باعتبارها مصدراً لتوفير اللبن، ففترة إدرار الأبقار تتجاوز 300 يوم في السنة إذا لم تقطعها إمكانية الحمل، فيما يقتات الوليد على لبن أمه وحده ثلاثة أشهر فقط. وبعدها يستطيع أن يسد حاجته إلى الغذاء من مصادر إضافية أخرى (Mill-er and Morris, 2002: 305) (شكل رقم 5 - 9).



أما المعزاة السقطرية فإن فترة إدرارها قصيرة جداً، قرابة 4 أشهر (للمقارنة: تصل هذه الفترة حتى عامين بالنسبة لأصناف من المعز مرباة خصيصاً من أجل اللبن وتتلقى علفاً كافياً وجيداً). كما أن حلب المعزاة غير جائز قبل مرور عدة أسابيع من ولادة الجدي، فهو يقتات على لبن أمه وحده طوال تلك المدة، ويبدأ الجدي بقضم العشب وأوراق الشجيرات الخشنة عندما يبلغ أسبوعين أو ثلاثة من عمره، وفي سن 10 أسابيع يستطيع أن يقتات على أي علف أو طعام صلب (Ibid., p. 304).

ولكي يحصل الرعاة خلال هذه الفترة القصيرة من الإدرار على أكبر كمية ممكنة من اللبن لسد حاجتهم يعمدون إلى نحر معظم الجداء الذكور في سن تبدأ من اليوم العاشر حتى الشهر، إذ المعزاة تدر اللبن بسهولة (Ibid., p. 326). وكثيراً ما شاهدنا في سقطرى المعز تنتصب على قوائمها الخلفية وهي تقضم أوراق الأشجار العالية. والأكثر إثارة للدهشة مشهد المعز التي تجوب شوارع حديبو والبلدات الساحلية الأخرى وتلتهم كل ما تصادفه من ورق القرطاسية المرمي على الأرض، بل حتى علب الورق المقوى (الكارتون).

كان لدى العوائل الرعوية في سقطرى تقسيم تقليدي للعمل، عندما زرت الجزيرة لأول مرة عام 1974 لاحظت أن الرجال وحدهم يمارسون حلب جميع أنواع المواشي، وقيل لي إن النساء عموماً لا يحق لهن أن يحلبنها. ولعل هذه القاعدة المتجذرة في المجتمع السقطري تعود بأصولها إلى المحظورات القديمة والمحرمات الطقوسية المرتبطة، على ما يبدو، بالتصورات الجنسية الأنثوية الأسطورية التي تعتبر المرأة مصدر السحر والشعوذة والشرور. إلا أنني شاهدت فيما بعد في الثمانينيات، مخالفات لحظر حلب الماشية على النساء. ولعل من أسباب تخفيف ذلك الحظر تأثير الأيديولوجية الاشتراكية التي تقيد بها النظام الحاكم آنذاك في اليمن الجنوبي، حيث دعا إلى المساواة بين الجنسين وسعى إلى محو وتذويب المعايير الاجتماعية والثقافية القبلية التي اعتبرها من التقاليد البالية.

وفي الحال الحاضر تغدو المحظورات والمحرمات الأنثوية في طي الماضي، إلا أن حلب الماشية لا يزال ممنوعاً على المرأة في بعض الأماكن النائية، في المنطقتين الوسطى والغربية خصوصاً. وقد قال لي بعض السقاطرة إن الرجال يرفضون أحياناً احتساء اللبن أو تناول مشتقاته إذا علموا أن امرأة حلبت الماشية، ويشمل تفكك هذا التحريم بالدرجة الأولى حلب الشياه التي لا تتمتع في سقطرى بمكانة محترمة مثل مكانة الماعز. ولعل ذلك هو سبب

كثرة الأغنام في القطعان العائدة للنساء.

كما رأيت في بعض الأماكن نساءً يحلبن بقرات ومعزات، لكنني لم أر امرأة تحلب ناقة، فحلب النوق من صلاحيات الرجال في كل مكان في سقطرى. كما لم تكن النساء في الماضي يملكن حق نحر الذبائح، ولا يملكن هذا الحق الآن أيضاً، إلا أن المرأة تمارس خض اللبن لإعداد الزبدة والسمن وترعى الماشية وترويها.

توافر المياه هو الشرط الأول لنجاح أداء الاقتصاد الرعوي، فالجفاف يشكل دوماً كارثة على القبائل الرعوية، ولقد شهدت بنفسي الصعوبات الهائلة التي عانى منها الرعاة في فترة إقامتي في سقطرى (وأثار دهشتي أن كرم الضيافة عند السقاطرة لم ينضب حتى في تلك الأوقات العصيبة، ولم يتخلوا عن شعورهم بالكرامة الشخصية). إلا أن الذاكرة التاريخية لهذا الشعب تحتفظ بمشاهد أصعب وأفظع مما كنت شاهداً عليه، حيث ألّمت بالسقاطرة نكبات رهيبة في العهود التي كانت الجزيرة فيها تعيش في عزلة تامة تقريباً عن العالم الخارجي. آنذاك التقى القحط بالجفاف، فنفقت الماشية بالجملة وتفشت الأوبئة والأمراض وهلك عدد كبير من الناس بسبب المجاعة.

في تلك السنوات العجاف عجز السقاطرة عن دفن موتاهم لكثرتهم، ولهزال من بقي على قيد الحياة وعجزهم عن حفر القبور. فكانوا، حسب العادات، يسجّون الموتى في المغارات ويسدون مداخلها بالحجارة. وليس من قبيل الصدفة أن تحتفظ اللغة السقطرية حتى اليوم بتوصيفات وتسميات كبيرة الدلالة لتلك السنوات الفظيعة، ولا يعرف تلك الكلمات سوى السقاطرة من الجيل الأقدم. وهي في الوقت ذاته مؤشر على جهود أهالي الجبال للبقاء على قيد الحياة مستفيدين من الإمكانيات الشحيحة للطبيعة حواليهم. أورد هنا بعضاً من تسميات وتوصيفات السنين العجاف مما تسنى لي تسجيله:

عينو دي مندؤ	عام نهشت فيه النسور جثث الموتى
عينو دي حلقة	عام التوت فيه الأجساد من الجوع
عينو دي مسبيلي	عام أكل فيه الناس سنابل الدخن
عينو دي جمعانو	عام نفقت فيه كل المعز سوى التي لم تولد بعد
عينو دي أمت	عام ماتت فيه القبيلة كلها سوى رجل واحد
عينو دي ارتح	عام لم يبق فيه ما يؤكل سوى جيف المعز
عينو دي مجيرش	عام ترحل فيه الناس والمواشي بحثاً عن بقايا الكلأ

عينو دي كيدهر   عام أكل فيه الناس باطن لحاء النخيل

عينو دي مهتيجبيهن   عام نحر فيه الجياع معزهم الحبلى والمسروقة.

في السنوات العصيبة تتعاضد القبائل على أساس التضامن الداخلي الذي يساعد طبعاً الرعاة ومربي الماشية في مواجهة الجفاف والهلاك، إلا أن ثمة آليات وميكانيزمات أخرى للصمود والبقاء، ومنها على سبيل المثال الروابط الودية بين المقيمين في مختلف المناطق المناخية التي يتميز بعضها عن بعض من حيث النشاط الاقتصادي. ويسمي السقاطرة هذا النوع من علاقات الشراكة بين الطرفين «بالمعارف» (ويلفظون صيغة المفرد «محرف»). هؤلاء المعارف يتزاورون ويتبادلون الهدايا ويساعد بعضهم بعضاً ويهبّون للنجدة عند الاقتضاء.

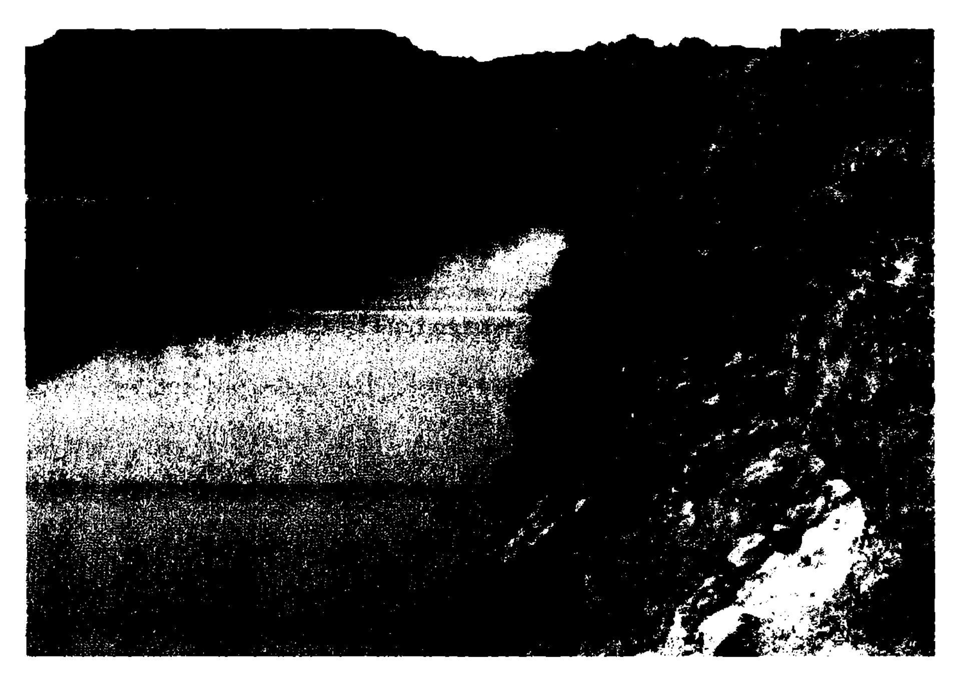
قال لي أصدقائي من قبيلة دعرهو إن البعض من أبناء القبيلة الذين لديهم معارف في حديبو يمكن أن يحملوا إليهم هدايا عينية مثل الماعز أو قربة تمر مهروس أو علبة سمن أو ثياب وما شاكل. كما يأتي المعارف من حديبو إلى أصدقائهم في القبيلة ليساعدوهم في جني محصول التمور ويجلبوا لهم الهدايا أيضاً، فيتبادل المعارف الأطعمة ويقتات بعضهم عند بعض، فالجبلي مثلاً يقتات في السنوات العجاف على سمك معارفه بمدينة حديبو.

مكانة المعز الخصوصية

السقطريون كما أسلفنا يحترمون المعز أكثر من سائر الدواب والأنعام، ويفرّقون بينها وبين الأغنام مثلاً من حيث المكانة في سلّم الحيوانات الأليفة. فالمعزى عندهم تحظى، إن صح القول، بتقدير أكثر من النعجة أو الخروف، وترتبط هذه المكانة «الأرستقراطية» أغلب الظن، بتقاليد تمجيد المعزى وعبادتها في جزيرة العرب في زمن الجاهلية،الأمر الذي تؤكده الحكايات والأساطير، فكثيراً ما نجد المعزى بين شخوصها (شكل رقم 5 - 10).

إلا أن مربي الماشية المعاصرين في سقطرى يفردون هذه المكانة الخصوصية والمنزلة الرفيعة للمعزى انطلاقا من اعتبارات وتوضيحات تطبيقية ونفعية صرف لا تخلو من المنطق، فالأغنام دواب غبية بليدة لا تستجيب للراعي عندما يناديها بالاسم، وذلك خلافاً للمعزى التي يحمل كل منها اسمها الشخصي وتهرع إلى صاحبها حالما يناديها، وهي تعرف أصحابها وتلحق بهم دون غيرهم. ثم إن المعز تدر لبناً أكثر، ورعيها لا يتطلب جهداً في

الواقع: فهي في الصباح تنطلق من الحظيرة لنهار أو يوم كامل، وترعى الكلأ، ثم تعود إلى مأواها من كل بد، أما الأغنام فلابد من جمعها ليلاً واقتيادها إلى زرائبها، وإلا تفرقت في أنحاء الأرض. الماعز يتحمل العطش مدة أطول من الأغنام والأبقار، وإذا لم يكن في المنطقة سوى الشجيرات، فهي تقضم أوراقها وتستغني عن الكلأ والماء، فيما لا تقضم الأغنام والأبقار سوى الأعشاب الندية، إضافة إلى ذلك تتسخ الأغنام بسرعة، خلافاً للماعز، ولذا يقتضي الأمر غسلها مرتين في السنة.



(شكل رقم 5 ـ 10)

ومن مخلفات تأليه الماعز سابقاً وجود «رؤوس موقرة» أو «كريمة» بين قطعانها، والفئة الأولى منها تسمى «محظاظة» (وربما الماعزة المحظوظة). وقد شبّه أحد السقاطرة الذين استطلعنا آراءهم المحظاظة بين الماعز بالحكيم بين الناس، وحلب لبن هذه الفئة من المواشي «الكريمة» حصر على الرجال، وتمنع النساء من شرب هذا اللبن، ولا يجوز صبّه في القرب وحفظه فيها، أو خضّه لصنع الزبدة منه وبيعها. كما لا يسمح لغير الرجال بغلي هذا اللبن (السقاطرة لا يتناولون اللبن إلا مغلياً). لكنّ المرأة تستطيع أن تلمس وعاء لبن المعزاة «الكريمة» إذا كان على النار. ولا تزال قائمة حتى اليوم الخصوصية الغيبية للبن

هذه المعزاة، على الرغم من بعض التساهل فيها، نظراً لحركة التجديد وضعف العادات وانحسار التقاليد التدريجي (فالمرأة باتت تتجرأ على حلب المعزاة «الكريمة» عند الضرورة، ولا يزال بعض السقاطرة يعتقدون أن الذي يشرب لبنها يتلقى معه التبريكات والهناء.

إلا أن المحظورات لا تشمل لحمها، فهو مباح للجميع، وقد أوضح لنا السقاطرة هذا الموقف بشكل لا يجافي المنطق: ما المانع من تناول الجميع لحم الماعزة الكريمة؟ فهي ذبيحة على أية حال ولم تعد على قيد الحياة، وبعبارة أخرى فالصفة الغيبية والسحرية فارقت الجسد بعد ذهاب الروح. أما الذبح نفسه فلا يتعارض مع الخصوصية الغيبية، لأنه يجري بعد دعاء وابتهال إلى الخالق بأن يعفو عن جريرة ذبح المخلوق ويبارك نحر الذبيحة. علماً أن الدعاء يتلى في أثناء ذبح المعز «الكريمة» دون غيرها، إذ يجلس الذباح القرفصاء عادة ويمسك الدابة من قرنيها ويتلو الدعاء، وهو في تلك الأثناء يخفي السكين كيلا تراها الماعزة ولا تدرك حقيقة مصيرها المحتوم الوشيك.

صحيح أن السقطري الذي حدثنا عن ذلك بدت عليه أمارات الأسف واللوعة للآلام الذبيحة وهو يوضح لنا أن الماعزة المسكينة الذكية تتوقع ما ينتظرها، فترتجف أوصالها أحياناً خلال الدعاء. ولا ريب أن مراسم الذبح والدعاء هذه من مخلفات أضاحي الجاهلية التي تغير شكلها في الإسلام، والدليل على ذلك هو ورود كلمة قنينهن (قننهن)، بمعنى «السيد»، في الدعاء، ولعلها تعني ما يشبه «صاحب الزمان» أو الإله «بعل» المعروف في اللغات السامية.

ومن الواضح أن الناس هنا كانوا في حينه يذكرون هذا الاسم ويتبركون به ويتشفعون إليه وحده. ومع انتشار الإسلام أضيف اسم الجلالة إلى دعاء الذبح والأضاحي، فصار يتلى بذكر الله وطلب شفاعته أيضاً. وغني عن البيان أن طلب الشفاعة هذا من الاثنين معاً يفتقر إلى المصداقية.

لحم المعزاة «الكريمة» يقدم إلى ضيوف الشرف باعتباره من أسمى آيات التكريم، ويسمح بصنع القرب من جلود المعز «المكرمة» إذ لم تعد على قيد الحياة. الرعاة ومربو الماشية يحتفظون بهذه الفئة من الدواب في حظائر خصوصية منعزلة، جداؤها الذكور لا تعيش حتى سن النضوج، فلا يجوز لها أن تلقح الماعزات، ولذا تذبح وهي صغيرة. عموماً يمكن لأي ماعز أن يلقح المعزى «الكريمة»، ولا يؤثر ذلك في «كرامتها»، لأن السقاطرة يعتقدون أن الخصوصية الغيبية لهذه الدابة تنتقل من الأم، وليس الأب، إلى نسلها، ومن

ثم فإن تكاثرها لا يختلف ظاهرياً عن تكاثر وتناسل سائر الماعز.

الفئة الثانية من المعز التي تحظى بمكانة خاصة تسمى مجريدو أو دي وهب (وربما دويبة). وخلافاً للبن المحظاظة يمكن للمرأة أن تغلي لبن المجريدو، بل وأن تشربه أيضاً، إلا أن الحظر يبقى سارياً على خض الزبدة منه وعلى بيعه، ويسمح للنساء بحلب لبن هذه الدواب أسوة بالرجال، ما عدا فترة الحيض. علماً أن الحلب يتم كما في حال الفئة الأولى، داخل أماكن خاصة لا تدخلها المعز الأخرى، إلا أن دواب هذه الفئة توجد في الحظيرة نفسها مع سائر المعز. ويفهم من ذلك أن مكانة المجريدو أدنى من المحظاظة، وأعلى من المعز العادية، بمعنى أنها «دابة من الدرجة الثانية» (الماعز العادي يسمى دي جزهر). غير أن مصير جدائها الذكور هو نفس مصير جداء معز من «الدرجة الأولى»، حيث تذبح قبل سن النضوج.

وقد لفت نظرنا توضيح السقاطرة لمنشأ «المعز الكريمة» وأصلها، وهو توضيح خرافي أسطوري طبعاً، إلا أنه بحد ذاته يشكل عنصراً من مكونات تلك العبادة الوثنية القديمة، فقد سمعنا منهم روايتين مختلفتين بعض الشيء، لكنهما تكررتا مراراً في أجوبة عدد من المساهمين في استطلاعات الرأي، مما يدل على سعة الانتشار.

رقد رجل على السرير لينام، فرأى في الغسق ظل الجني ديدبحت وهو ينقضّ على إحدى المعز وينهشها بأنيابه، لكنها تملصت وتمكنت من الفرار تاركة في فمه قطعة من بدنها. وظلت آثار الجرح بادية على تلك المعزاة، إلا أن صاحبها أشفق عليها ولم ينحرها، ثم أوصى ورثته قبيل وفاته أن يعاملوها بالحسنى، ويتقيدوا بكل المحظورات التي حددها لهم آنذاك، ولا تزال تلك المحظورات باقية حتى اليوم في خصوصية الاهتمام بمعز المحظاظة والمجريدو. وهما كما تقول الأسطورة من نسل تلك المعزاة الجريحة.

هذه الحكاية لا تختلف كثيراً عما يتردد من روايات عن أجداد القبائل السقطرية الأسطوريين، وعن الأشخاص الذين نجوا من هجمات الجن والعفاريت واعتداءات السعالي.

زعيم قبيلة دعرهو الجبلية الشيخ عيسى عامر، وهو من خيرة أصدقائي في سقطرى، يُعتبر من الموسرين، فلديه قطيع كبير، إلا أن عدد المعز «الكريمة» فيه لا يتجاوز 20 محظاظة و 15 مجريدو. وقد قال لي إن العناية الفائقة بهذه المعز، والتي تكاد تبلغ حد العبادة القديمة، أخذت تنحسر تدريجياً وتغدو في طي الماضي، ولربما ستختفي نهائياً في

القريب العاجل. فالمحظورات والموانع الكثيرة تعقد حياة الجيل الناشئ من الرعاة ومربي الماشية السقطريين، ذلك لأن معظمهم عصريون بميول إسلامية، ولا يحبذون التقاليد والأعراف القديمة ولا يخشون مخالفتها. وأكد صديقي الشيخ عيسى وجود استثمارات حيوانية في سقطرى الآن تخلو قطعانها من المعز التي تتمتع بمكانة خصوصية.

العلاقات الاجتماعية والأجور وتقسيم العمل

القبائل السقطرية احتفظت على مر العصور بتقاليد راسخة، ومثيرة للدهشة، فيما يخص التعاضد والنخوة والفزعة. وهي تقاليد ساعدت أهالي الجزيرة على البقاء في أحلك الأزمان، أما العمل المأجور فقد كان محدوداً تماماً في الاستثمارات الرعوية وبساتين النخيل خلال المواسم الأولى من دراساتي الميدانية في الجزيرة. وكان بمعظمه في أشكال تقليدية اختلط فيها التبادل العيني والبضاعي واستئجار الأيدي العاملة مع علاقات التعاضد القبلي والعائلي وتقاليد الفزعة والنخوة المجانية. وتركت تلك الأشكال التقليدية بصماتها على منظومة تقسيم العمل (محريف) المميزة تماماً، ولا تزال تلك الأشكال باقية لدرجة كبيرة حتى اليوم، على الرغم من عملية الحداثة الجارية وتطور علاقات السوق في الجزيرة، ولعل المنظومة التقليدية المذكورة تندرج ضمن اللوحة العامة للعلاقات الاجتماعية وعلاقات العمل.

إلا أن تقسيم العمل بالمعنى الحرفي للكلمة مطبق على صعيد الأسرة، حيث ترسم مهمات وواجبات وحقوق ووظائف معينة لكل فرد من أفرادها: للرجال والنساء والبنات والصبيان والشيوخ. الرجل يتولى الواجبات الاقتصادية الأساسية كالرعي وحلب الماشية وسقيها وما إلى ذلك، جميع الدواب المدرارة تحلب مرة في اليوم، ما عدا الشياه التي كانت تحلب سابقاً مرتين في اليوم (ونادراً ما تحلب المعز بين يوم ويوم). وإذا كان الماء متوافراً في البرك والغدران تشربه الماشية بنفسها (ولا يبقى سوى توصيلها إلى المورد). وإذا لم يتوافر الماء تستدعي الحاجة أن يقوم الرجل بسقيها خصيصاً. أما المرأة فتتولى إعداد الطعام وتدبير المنزل وتربية البنات وتوفير الماء والحطب، والعناية بالأغنام (معظم الأغنام في حوزة النساء، كونَها ماشية وضيعة، كما أسلفنا). كما تمارس المرأة في بعض المناطق حلب الشياه، والبنات يساعدن أمهاتهن في كل الأعمال. فيما يقضي الأولاد أوقاتهم

مع أبيهم يساعدونه في العناية بالنخيل ورعي الماشية والبناء السكني، والشيوخ يساعدون النساء في تدبير شؤون المنزل وصيانته وحراسته، ويعتنون بالأطفال الصغار.

وهناك الكثير من العادات المتعلقة بالتعاضد المجاني الخالص أو المقترن بالتبادل العيني. وعلى سبيل المثال تعني مفردة (شمنح) المستعير، أي الشخص الذي لا يمتلك معزاً حلوبات، فيستعير من أبناء قبيلته أو قبيلة أخرى بضعة رؤوس (10 - 15 عادة) يحلبها وينتفع بلبنها فترة معينة ثم يعيدها إلى أصحابها دون أن يدفع شيئاً في مقابل هذا الانتفاع، كما أن المحتاجين يمكن أن يتسلموا مقداراً من الزبدة أو السمن. وهناك مفردة (معتيبو) للدلالة على حالة يتقبل فيها الراعي على سبيل المثال، خمس معزات صغيرات من شخص آخر، فترعى في قطيعه وتسمن في مرعاه، وبالمقابل يحق له أن يستأثر بواحدة منها لأغراضه الشخصية ويعيد أربع معزات فقط من الخمس بعد تسمينها.

كما نجد في التداول مصطلح (شلفة) ومرادفه (شرسيت) ويعني الشخص الذي فقد قطيعه لسبب ما، فيدور على أبناء جلدته راجياً أن يهبه كل واحد منهم معزاة حتى يتكون لديه قطيع صغير آخر. ويعني مصطلح (شيسراده) الشخص الفقير الذي يطرق الأبواب في المساء طالباً فنجاناً من السمن فتتجمع لديه في ختام الجولة كمية لا بأس بها. وثمة عادة أخرى هي أن يهدي أكبر شخص في العائلة، وهو الجد عادة، معزاة أو بقرة للصبي عندما يبلغ الرابعة من العمر تقريباً، فتعتبر ملكاً له بين سائر القطيع.

وإذا كان للأسرة المعوزة أو الفقيرة أطفال صغار يمكن لأبيهم أن يطلب لهم لبناً من أبناء قبيلته أو الجيران. وفي هذه الحالة يخصصون له كمية معينة من اللبن بعد كل وجبة من حلب الماشية أو يستدعونه ليشارك في حلبها ويأخذ الكمية التي خصصها أصحابها لأولاده دون أن يقلل ذلك من الكميات التي يحتاجون إليها هم أنفسهم.

ومن أنواع التعاضد والمعونة سماح مالك المرعى للشخص المحتاج إلى الكلأ بأن ترعى معزه فيه مقابل معزاة يسلمها لصاحب المرعى أو ينحرها لمأدبة تقام تكريماً له، وتطلق على هذه الفعالية مفردة (جزبد).

وتتسم بأهمية كبيرة مكانة قطعة الأرض التي في عائدية القبيلة وتسمى (معشر)، ولا يجوز لأحد من غير أبناء القبيلة الانتفاع بها. كما يوجد نوع آخر من الأراضي يسمى (مبدهل)، وهي المساحات الواقعة بين الزرائب والحظائر العائدة لمالكين مختلفين، لكنهم يتمتعون بحقوق متساوية للانتفاع بها في رعي مواشيهم، كما يمكنهم أن يسمحوا للغرباء

بالرعي فيها إذا دفعوا في مقابل ذلك اثنين من المعز أو عجلاً أو كمية من السمن أو مبلغاً من النقود، أما إذا كان الغريب فقيراً فيمكن أن يعفى من تسديد «بدل الإيجار» هذا.

وهكذا تتخذ نجدة القريب أو الجار أو ابن القبيلة في وقت الضيق واحداً من أشكال المساعدات التالية: بالماشية أو اللبن أو السمن أو النقود أو الرعي المجاني، وبالطبع يستطيع المحتاج أن يمارس عملاً بأجرة.

يستخدم العمل المأجور في شكله «الخالص» نسبياً في البستنة وزراعة النخيل، إلا أن مكافأة هذا النوع من العمل تتسم حتى اليوم بطابع عيني في الغالب. فإذا كانت العائلة تمتلك على سبيل المثال، خمسين نخلة ينبغي لها أن تستأجر خمسة معاونين تقريباً في موسم التلقيح وفي موسم جني التمور. ويتقاضى المعاونون لقاء هذا العمل خُمس المحصول، ما يعادل تمر عشر نخلات في المثال الذي نحن بصدده. وهذا «الخمس» إنما هو طبعاً مدفوعات عينية لأجرة العمل. أما إذا اقتصر عمل المعاونين على قطع عذوق التمر فهم يتقاضون عذقاً واحداً لقاء جهودهم يسمى (دي كسعيهي)، فيما تعني مفردة (دي شاني) تقسيم المحصول مناصفة إذا كان الشخص يغرس النخيل في أرض لا تعود له ويرعاه حتى مرحلة الثمر، وهناك مصطلح (حالي) ويعني غرس المزيد من النخل في البقعة نفسها التي تنمو فيها نخيل (دي شاني) إذا توافرت المساحة اللازمة، بصرف النظر عن موافقة مالك الأرض أو عدمها.

حظائر الماشية ومشاربها

الرعاة السقطريون يبنون مختلف المنشآت الحجرية التي تستخدم حظائر وزرائب للماشية والدواب ولأغراض شتى.

حظائر الأبقار والمعز والأغنام يختلف بعضها عن بعض، ولا يجري خلط هذه الفصائل من المواشي إلا في بعض الأماكن شمال شرق الجزيرة. الأبقار، ماعدا العجول، لا تحتاج عموما إلى حظائر، فالظروف المناخية تساعد على بقائها في العراء ليل نهار، إلا أن الرعاة يعدون لها مع ذلك فسحات واسعة تسمى معانه دي عليتين، مسيجة بأسوار واطئة من حجر، وتوضع الأبقار فيها عند الضرورة، كما يجري حلب الأبقار فيها، ولذا تسمى محلباً في بعض الأحيان. هذا النوع من الحظائر يكون مسقوفاً أحياناً لتدفئ الأبقار بعضها بعضاً

في الليالي الباردة، أو بالعكس لتحتمي في ظلها من حرارة الشمس في قيظ النهار.

استدعاء الأبقار لحلبها يتم بإشعال النار في «موقد الحلب» (مقطرح دي محلب)، فالبقرة تأتي على رائحة الدخان ومنظر النار، أما المعز فتأتي بالنداء الصوتي، وهي لا تستجيب للهب، على الرغم من حبها لرائحة الدخان، فتنصاع لرائحته أحياناً. ولا بد من حماية العجول في حظيرة خصوصية تسمى بالسقطرية (مكيعه) أو (حور)، وفي حجهر يبنى كوخ (مفدي) تلد فيه البقرة ويبقى العجل هناك لبعض الوقت.

حظيرة المعز (مجهر) حجرية مستديرة، بسور أعلى من سور حظيرة الأغنام، كون المعز تقفز أعلى منها، وارتفاع السور في العادة لا يقل عن متر ونصف،وإذا تم في الحظيرة عزل جناح خصوصي للحلب فهذا الجناح يسمى (جُسف)، كما تبنى للمعز حظائر مسقوفة لحمايتها من أشعة الشمس الحارقة. ويمكن أن تبنى لهذا الغرض سقيفة في داخل الحظيرة المكشوفة، ويقوم السقف على أعمدة أو أوتاد. في المنطقة الوسطى تسمى هذه السقيفة (تربوك) وفي المنطقة الغربية (حُدور). كما يمكن حماية المعز في المغارات (طريبة)، أما الجداء التي يمكن أن تقع فريسة للسنانير الوحشية فتتم حمايتها في أكواخ حجرية صغيرة تغلق منافذها في الليل. وهي تسمى (محيلو) أو (حور). وعندما يغطى الكوخ الصغير المخصص للجداء أو الحملان ببلاطة كبيرة من فوق يسمى في هذه الحالة (مرظيف).

بالنسبة لحظائر الأغنام يكون سورها أوطأ من سور المعز كما أسلفنا، ولا يتجاوز ارتفاعه المتر أو المتر وعشرين سنتمتراً، كما يمكن أن يبنى من الجريد وليس من الحجر.

إلا أن مشكلة الرعاة الرئيسية كما سبق أن ذكرنا، هي توفير الكميات اللازمة من المياه لاستثماراتهم، فالمياه ضرورية لشرب المواشي ولنمو الكلأ والأعشاب وما يلزم من نباتات وشجيرات تقتات عليها الماشية، ففصائل الماشية على اختلاف أنواعها تحتاج إلى كميات مختلفة من العلف والماء بالطبع. فالبقرة على سبيل المثال، تستهلك حسب تقدير الخبراء الإنجليز كمية من الماء تزيد ثلاث مرات تقريباً عما تستهلكه الماعز أو النعجة أو الجمل (شكل رقم 5 - 11). في المناطق شبه الجافة تشرب الماشية الماء، إذا كان سهل المنال، بالكميات التالية:

النعجة . 4 - 5 ألتار مرة كل يومين.

الماعز. 4 - 5 ألتار يومياً.

الحمار.	10 - 13 لتراً يومياً.

البقرة .	30 - 40 لتراً مرة أو مرتين في اليوم.

الجمل.	60 - 80 لتراً مرة في كل 4 - 5 أيام. (Miller and Morris, 2002: 303).



(شكل رقم 5 ـ 11)

يقسم السقاطرة في العادة، موارد المياه إلى ماء الله (ريهو دي الله) وماء عباده، موارد (ماء الله) طبيعية المنشأ لا أحد يحتكر الانتفاع بها، كغدران مياه الأمطار الجارية في الوديان والمياه الجوفية المنبجسة من العيون والينابيع، والعادة أن تتمتع بحق استخدام تلك المياه القبائل المقيمة في منطقة تلك الموارد، إلا أنها في سنوات الجفاف تظل في متناول الجميع.

ويتحدث الباحثان الإنجليزيان ميلر وموريس عن الأنواع التالية من موارد المياه الطبيعية في سقطرى:

قيريه، عيون، حلمي - منابع يستخدمها كل من يتمتع بحق الرعي في المنطقة المذكورة، ويجوز لهؤلاء أن يمنعوا الغرباء من فلاحة الأرض أو بناء المساكن الدائمة قرب تلك المنابع.

عيجيه . بركة أو مستنقع يستخدمه كل من يحق له رعي الماشية على مقربة منه.

جهي (جاهي) ديقافيد . مجرى مائي تسوده القواعد نفسها الواردة أعلاه.

هور. خور أو خليج مالح تطبق فيه قواعد الماء العذب نفسها.

وقد درس الباحثان جميع مناطق الجزيرة من ناحية توافر المياه وأشارا إلى عدد من أكبر المجمعات المائية الطبيعية، بما فيها:

تير دي ترور . مجرى في المنطقة الغربية والوسطى يتجه نحو الوادي الشمالي قرب ديحمض.

جهي دي قلنسية . مجرى في المنطقة الغربية يتجه نحو خور قلنسية.

تير دي فاعر. مجرى في المنطقة الوسطى يتجه إلى الوادي الجنوبي في نوجد.

قلنسية . مجرى في المنطقة الشرقية يتجه نحو الوادي الجنوبي في نوجد.

جهي دي مرسيريو . مجرى في المنطقة الشرقية يتجه نحو بلدة قرية في الساحل الشرقي.

جهي دي إيعيهر . مجرى في الشرق يتجه نحو حالة في الساحل الشرقي (Miller and Morris, 2002:34).

وثمة قواعد أخرى فيما يخص (ماء العباد)، أي المياه التي تتجمع في أحواض ومستودعات يبنيها الناس وتعود لهم ولعوائلهم بالطبع. ففي هذه الحالة لا تعتبر المياه ملكاً عاماً، على الرغم من أنها هي أيضاً هبة من الله، غير أن صيانتها مرهونة بجهود البشر.

من بين هذه الأنواع من موارد المياه ماء الآبار (عُبيهر) التي تنتقل عائديتها بالوراثة، ويصادف أن يسمح أصحابها للمحتاجين من الجيران بالاغتراف من مائها، إلا أن هنالك آباراً حفرت من زمن بعيد، فباتت ملكاً للجميع، وفي المنطقة الشرقية يحق لجميع الناس أن يسقوا الماشية من الآبار في موسم الجفاف. وفي الأوقات الأخرى لا موجب لاستحصال موافقة صاحب البئر إذا كان ماؤها يستخدم للوضوء أو الشرب أو طهي الطعام، أما إذا كان ماء البئر قليلاً فإن صاحبه يحدد أوقاتاً معينة لغيره من المستهلكين.

وفيما يخص العائدية هناك نوع مماثل من موارد المياه يسمى (اتّم دي ريهو)، وتعني الساقية التي يحفرها الإنسان لتوصيل الماء من الجدول إلى بستان النخيل، وهذا شيء لا وجود له بالطبع إلا بوجود جداول أو غدران، كما في جبال حجهر. كما تطلق تسمية (محيسي) على الحفر الصغيرة التي تمهد للوصول إلى مياه المجرى الأكثر عمقاً أو إلى

الطبقات العميقة من المياه المتجمعة في موسم الأمطار (Ibid).

أما خزانات المياه أو المستودعات المبنية لحفظ مياه الأمطار لأمد طويل فهي أكثر تعقيداً، والنوع الأكثر انتشاراً منها هو الأحواض الطبيعية الكبيرة الممهدة للاستعمال من قديم الزمان، لكنها لا تزال تخدم حتى اليوم أحفاد من مهّدوها. الماء يصب فيها من ميزاب حجري مرصوف من جدارين، والأحواض متنوعة من حيث التعقيد، بعضها يضم شبكة متشعبة من القنوات والجدران والمدرجات.

والرأي السائد أن مياه الأحواض الطبيعية غير صالحة تماماً لشرب الإنسان، ولذا تستخدم لإرواء الماشية في الغالب. وماء هذه الأحواض في متناول الجميع، ما عدا الحالات التي يكون فيها الحوض داخل المنطقة السكنية لقبيلة ما، أو إذا كان معروفاً على وجه التحديد أن الذين مهدوه هم أسلاف القبيلة المذكورة، فيكون لها حصراً حق الانتفاع به. وإذا كان الحوض يستخدم لإرواء الماشية كثيراً يسيج قسم منه بالحجر للدواب خصيصاً كيلا تدوس باقي أقسامه بحوافرها، ويسمى هذا القسم الذي يحول دون تلوث الحوض (مقعاه دي ريهو)، كما تقتضي الحاجة تنظيف الأحواض الطبيعية من حين لآخر (Miller and Morris, 2002:35).

وتستخدم لحفظ المياه أيضاً الوهاد والبرك والفجوات الطبيعية في الصخور، بعد أن تبنى لها جدران أو تغطى بالبلاط أو بسطوح من جذوع الأشجار. وتسمى في هذه الحالة (قوط)، كما يسمى أكبرها حجماً (شزيهر)، وأصغرها (أنتيك). وتنتفع بمياه هذه المستودعات العوائل المقيمة في المنطقة، ويسمح بالاستفادة منها للذين يقتادون قطعانهم من المناطق الأخرى للرعي في تلك الأماكن.

وفي بعض الأحيان يعمد الأهالي إلى التعتيم على حوض صغير من هذا النوع كيلا يكتشفه الغرباء، ولهذا الغرض يغطونه بالبلاط والصخور، فيبدو من بعيد وكأنه كومة من الحجارة، ويسمونه آنذاك (ميسور) (Ibid). وكيلا تشرب الدواب من المستودعات المخصصة للناس يصار إلى عزلها بصخور تحول دون وصول الماشية إليها. وتسمى تلك الأحواض عادة (جابية). الرعاة يرون أن الماشية عموماً لا ينبغي أن تشرب الماء لحد الإفراط، فالماء الكثير يؤدي إلى خفض مستوى جودة اللحوم ويجعلها رخوة رجراجة.

في الثمانينيات شهدت شخصياً بدايات بناء الأحواض الحديثة في سقطرى من مواد البناء المصنعة كالحجر والرمل ومخاليط الإسمنت، وتسمى (كريف)، والماء فيها يمكن أن

يظل محفوظاً لأمد طويل نسبياً. كما ظهرت في الجزيرة آنذاك أنابيب المياه لتزويد القرى بماء الشرب الصافي، إلا أن الجفاف الذي يتكرر بين الحين والآخر يبقى مصيبة تلحق ضرراً كبيراً بالاقتصاد الرعوي والمنتجات الحيوانية.

نعود هنا بمزيد من التفصيل إلى الاقتصاد الرعوي في المناطق السقطرية الثلاث الكبرى التي سبق أن أشرنا إليها (في مقابل المناطق الجغرافية الطبيعية العشر التي درسها الباحثون الإنجليز وقدمنا توصيفاً موجزاً لها في بداية هذا الفصل).

المنطقة الوسطى

من الناحية الاقتصادية يشكل أهالي جبال حجهر والوديان المتاخمة لها في المنطقة الوسطى مجموعتين فرعيتين من السكان: أهالي الهضبة وأهالي الوديان. والفوارق ضئيلة بين المجموعتين. كلتاهما تمارسان تربية الأبقار والمعز، وكذلك الأغنام بقدر أقل، إلا أن أهالي الهضبة والمرتفعات يعتبرون زعاة «خالصين» بالمقارنة مع المقيمين في المناطق الأوطأ، في الوديان، لأن الأخيرين يزاولون غرس النخيل أكثر.

في السابق كان السواد الأعظم من الأبقار في منطقة حجهر، وتفيد حسابات ج. براون التقريبية لعام 1966 أنه كان في حجهر 1650 رأساً من الأبقار من المجموع الإجمالي، وهو 1800 رأس، أي أكثر من 90 % (Brown, 1966 :26). قطعان الأبقار كانت في تلك الفترة حرة طليقة تجوب المراعي طول الوقت تقريباً، وفي حالات استثنائية نادرة فقط يقتادونها إلى الحظائر. خلال زياراتي الأولى للجزيرة في منتصف السبعينيات لم ألاحظ أن الوضع تغير عما كتب عنه براون في منتصف الستينيات، فالأبقار كانت ترعى الكلأ دون رقيب.

أبقار سقطرى قميئة جداً لا يتجاوز ارتفاعها في عفرة الرقبة المتر الواحد، وتبدو حسب الظاهر أصغر من الحمير، هذا الصنف من الأبقار لا يتطلب عناية فائقة، وهي شديدة التحمل، صبورة على الحر، ولا تتطلب ماءً كثيراً، وتكتفي أحياناً بالعلف الخشن. ويعتقد خبراء بعثة حديقة النبات الملكية في أدنبرة أن الأبقار القصيرة القوائم جلبت بصورة مستقلة في زمن ما، على أيدي البحارة من غرب آسيا، إلى القرن الأفريقي والساحل الشرقي من أفريقيا وإلى الجزر القريبة من القارة الأفريقية.

وقد سنحت لي الفرصة للتأكد من وجود فصيلة من هذه الأبقار الصغيرة لدى رعاة المناطق الجبلية في المهرة وظفار الذين تربطهم أواصر القربى بالسقاطرة ويعيشون حياة مماثلة لحياتهم. وثمة معطيات تفيد بأن هذه الأبقار كانت موجودة تاريخياً، وحتى عشرينيات القرن العشرين، في جزيرة بيمبا، كما أن فصيلة من الأبقار الصغيرة القصيرة القوائم عاشت في مدغشقر إلى أن أزاحتها الجواميس. وقد أطلق الخبراء الإنجليز على هذه الفصيلة من أبقار سقطرى تسمية «أقزام حام» (Miller and Morris, 2002:305).

لبن الأبقار في سقطرى قليل، وقد تأكدت بنفسي أن البقرة الواحدة تعطي يومياً لا أكثر من صيج ونصف بالمعدل (الصيج، وجمعها صيوج، مكيال سقطري للمواد الجافة والسوائل يعادل عشرة فناجين). واتضح لنا أن وزن الصيج الواحد من السوائل يعادل على وجه التقريب خمس أوقيات إنجليزية، أي 2.25 كيلوغرام، مما يعني أن كمية اللبن التي تحلب من البقرة الواحدة حداً أعلى هي 4.3 كيلوغرام، أي ما يعادل طناً واحداً تقريباً في 280 يوماً من الإدرار في السنة. صحيح أننا صادفنا في بعض النصوص تقديرات تشير إلى 3 صيوج (6.8 كيلوغرامات أو ألتار) في اليوم، إلا أن السقاطرة أنفسهم أبلغونا أن هذه الكمية لا تفرزها حتى البقرة الحلوب المدرار.

ومن جهته يقول ج. براون إن كمية اللبن التي تحلب من البقرة الواحدة تعادل 2.85 كيلوغراماً في اليوم، إلا أن جميع الأبقار التي تناولها بالدراسة والفحص كانت إما في منتصف فترة الإدرار أو في نهايتها حيث ينضب لبنها عادة، ولذا افترض أن البقرة في بداية فترة الإدرار، ولدى توافر العلف الجيد، يمكن أن تعطي ضعف هذه الكمية من اللبن (Brown, 1966: 15).

وأعتقد أن المعلومات التي أبلغني بها الأهالي أدق، كما أن نصف كمية اللبن السنوية يرضعها العجل، والنصف الآخر يبقى من حصة الناس.

ومما يلفت النظر قلة الثيران، فنادراً ما كنا نصادفها في سقطرى، ولعل ذلك يرتبط بالتقاليد المتبعة من زمان والتي أشار إليها براون أيضاً، ففي قطيع من 343 رأساً، قام بدراسته في إحدى المناطق، كان هناك 3 ثيران فقط، اثنان منهما في الحول الرابع، وواحد في حوله الثالث. ويقول براون إن الرعاة أخبروه بأنهم لم يتعودوا على رعاية ثيران في سن تتجاوز الرابعة أو الخامسة، ولذا فهم ينحرونها. ويرى الباحث أن وجود ثلاثة ثيران فقط في سن النضوج ضمن قطيع من 343 بقرة سبب وجيه لتقلص المواليد، فإن نصف الأبقار

فقط، بل وأقل من النصف تضع عجولاً كل عام، ثم إن ممارسات ذبح الثيران حالما تبلغ سن النضوج قد حالت، في رأي براون، دون «انتشار الأنساب الجيدة»، ومن ثم دون تحسين فصيلة الأبقار.

ومما له دلالته أن السقاطرة لم يكونوا يقدرون الثيران حق قدرها لا في زمن براون ولا في زمني (ويبدو أنهم لا يقدرونها الآن أيضاً)، فأصحاب الأبقار التي تلقحها الثيران لا يدفعون شيئاً لأصحاب تلك الثيران النادرة. عدد الثيران قليل لدرجة أن أصحاب الأبقار يجلبون أبقارهم إليها لغرض التلقيح وليس العكس، بمعنى أن الثيران لا تلاحق الأبقار لهذا الغرض، كما هي العادة.

في بعض مناطق حجهر كان من نصيب الرأس الواحد من الماشية 6.1 هكتار من الأرض، وفي حجهر عموماً نوعان من الكساء النباتي: المدرجات المعشوشبة و«البوشمات» التي تعني حرفياً «بساط الشجيرات». وهي عبارة عن أحراش كثيفة ومتشابكة من شجيرات واطئة جاسئة، وقد أطلق عليها براون هذه التسمية ليميزها عن شجيرات المناطق المنخفضة. شجيرات براون، «البوشمات»، لا يتجاوز ارتفاعها 8.1 متر، بل هي أوطأ في الغالب، وليس فيها أشواك، إلا أنها تجرح الأقدام والأيدي. وأذكر هنا أنني وزملائي أعضاء البعثة الروسية لم نولِ النباتات السقطرية، بما فيها التي تقتات عليها الماشية، الاهتمام الكافي لعدم وجود أخصائيين في علم النبات ضمن بعثتنا. وقد سد هذا النقص في عملنا بأفضل صورة خبراء بعثة حديقة النبات في أدنبرة الذين عملوا في جزيرة سقطرى كما أسلفنا.

الماشية تقضم أوراق الشجيرات بالأساس عندما تشق طريقها إلى موارد المياه، والمروج المعشوشبة تسد حقاً حاجة الماشية إلى العلف بمعدل 2.1 ـ 6.1 هكتار تقريباً للرأس الواحد، أما أحراش الشجيرات فبمعدل 5.32 هكتاراً. ثم إن لشجيرات «البوشمات» قدرة على مقاومة الحرائق، وقد قال لنا الأهالي إن النيران يمكن أن تشتعل بالصدفة في أعشاب المنحدرات السفلى، لكنها لا تطال الشجيرات المذكورة أبداً.

شجيرات «البوشمات» لا تنمو بشكل غابات متحاشكة، فالشيوخ والكهول يتذكرون أنهم كانوا يقيمون في هذه الأراضي قبل ظهور تلك الأشجار فيها، وليس هناك ما يدل على إزالة الغابات، فلو كانت الغابات موجودة في السابق لبقيت منها قطاعات ومخلفات وقرم وآثار، إلا أنني وزملائي، شأن براون، لم نعثر على شيء من هذا القبيل.

ولعل شجيرات «البوشمات» تمثل كساءً نباتياً قديماً لأية تضاريس جبلية شديدة

الانحدار وفي «جيوبها» وشقوقها توجد تربة ما، ومن المستبعد أن تنمو نباتات أخرى تحت هذا «الكساء». فالتربة هناك قليلة وأعمال التطهير تحتاج إلى جهود هائلة.

وقد نصح براون بالتفكير في كيفية العناية بمنابع المياه الدائمة الكثيرة على الروابي والمرتفعات، فهناك ينمو نوعان فقط من النباتات الصالحة للماشية. ويقول البدو إن تلك المناطق أفضل مرعى للماشية التي تقتات على أوراق الشجر، علماً أن الأبقار السقطرية لا تقضم أوراق الشجر إلا إذا يئست من العثور على ما يكفيها من العشب والكلأ.

الأعشاب تنمو على السفوح التي توجد فيها طبقة ترابية، والجبال التي تتخذ شكل مدرجات أو سلاسل تكون مكسوة بالأعشاب عادة، إلا أن شجيرات «البوشمات» تنمو من جديد في البقاع التي تتخللها صخور كثيرة هناك، وهي حتى في تلك السفوح تشغل نحو ربع التضاريس التي يزيد ارتفاعها على 900 متر، ومن ثم تكون حصة الرأس الواحد من الماشية في الجبال بمعدل 5.3 هكتار، فيما لا تزيد حصته في المراعي الصرف عن 5.2 هكتار من الأرض، بل وفي بعض الاستثمارات 6.1 أو حتى 4.1 هكتار.

العشب الأكثر انتشاراً هناك هو الحشائش ذات النهايات الشوكية الأقرب إلى العاقول، والأبقار عموماً لا تحبها، إلا أن أبقار سقطرى تقضمها بارتياح، على ما يبدو، فكثرة هذه الحشائش تدل على استنزاف المراعي.

في عهد براون كانت القطعان غالباً ما ترعى حول منابع المياه مباشرة، حيث الكساء النباتي أفضل، لكنها لا تستنكف من تناول العاقول والحشائش الشائكة، ولعل هذه الحشائش بحكم الطبيعة هي الأكثر انتشاراً في ظروف التربة المحلية ومعدل الأمطار هناك. وإذا كان الأمر كذلك فلا أمل في تحسن حالة المراعي في سقطرى، باعتقاد براون، فهي تتحول بلمح البصر في غضون ثلاثة أسابيع من مروج خضراء إلى فسحات بنية اللون. وحتى لو كانت التربة غير مستنزفة بفعل الرعي المفرط تبقى الفرص قليلة لتكاثر الماشية هناك، وليس بوسع أية بقرة في سقطرى أن تبقى على قيد الحياة ما لم تتناول العاقول وما يماثله من الأعشاب الشائكة.

شجيرات «البوشمات» تغطي خمسَي أراضي المنطقة تقريباً، فيما تكسو الأعشاب ثلاثة أخماسها، وبناءً على ذلك كنا نعتقد أن عدد الأبقار هنا في حجهر، أكثر مما تصوره براون، أي ما لا يقل عن ألفي رأس، إلا أن من المتعذر الحصول على معلومات دقيقة بهذا الخصوص.

خلال عملنا في الجزيرة لم يكن بالإمكان دراسة بيوتات أو استثمارات الرعاة ميدانياً لاستيضاح أعداد ماشيتهم الصغيرة، ذلك لأنها ترعى بحرية ومن دون متابعة من طرف أصحابها، ولذا اعتمدنا على معطيات استطلاع الرأي. وكنا نتأكد من أقوال بعض المشاركين فيه بعد مقارنتها على قدر الإمكان بأقوال بعضهم الآخر. واتضح لنا بعد تلك المقارنات، أن هؤلاء الأشخاص غالباً ما كانوا يعطوننا معلومات غير دقيقة، محوّرين فيها لجهة النقصان وتقليل العدد، ومن أسباب ذلك رغبتهم في إخفاء الحجم الحقيقي لملكيتهم، والحذر الذي فطروا عليه، والريبة الملازمة للبدويين، وأحياناً عدم معرفتهم فعلاً بما يملكون، فهم في الغالب لا يعرفون عدد المعز والنعاج التي في حوزتهم (ما عدا الحالات التي يكون فيها العدد قليلاً). ومن جهة أخرى حصلت في بعض الأماكن زيادات في التقدير، حيث كان واضحاً أن الشباب هناك يتباهون بثروات عوائلهم «البدوية الأصيلة»، كما يقولون.

حساب رؤوس الأبقار أسهل بالطبع، فالمشاركون في الاستطلاع لم يحاولوا التلاعب بأعدادها أمامنا، وذلك لأن أبقارهم قليلة وعددها معروف لهم ولغيرهم.

لكل عائلة في حجهر تقريباً بقرة أو أكثر، وإلى ذلك فإن أهالي الجبال التي تتوافر فيها أفضل المراعي يمتلكون عدداً من الأبقار أكثر مما في حوزة سكان الوديان. بمعنى أن كل عائلة جبلية تمتلك في الغالب 10 أبقار أو يزيد. كما يمتلك أصحاب هذه القطعان بضع عشرات (وأحياناً مئات) من رؤوس الماشية الصغيرة (معظمها من المعز).

وعلى سبيل المثال كانت للمشارك رقم 328 في الاستطلاع 70 بقرة زائداً 200 ماعز ونعجة زائداً 300 نخلة على وجه التقريب، على الرغم من أن امتلاك النخيل ليس منتشراً على نطاق واسع في المنطقة الوسطى، ولم يكن هذا الشخص وحده استثناء من القاعدة. أما المشارك رقم 434 فقد كانت في حوزته 3 أبقار و 30 ماعزاً، بالإضافة إلى 40 نخلة في الوادي، علماً أن بساتين النخيل العائدة لجبليي «الصعيد» تكون في الوديان القريبة من جبالهم فقط.

ورأينا جمالاً لدى بعض الجبليين، فالمشارك رقم 298 في الاستطلاع على سبيل المثال كان يمتلك 5 أبقار و 5 جمال وأكثر من 100 ماعز وبضع نخلات.

فيما لاحظنا لوحة مغايرة لدى أهالي الوديان الجبلية، أي جبليي «الوجه السفلي»، إن صح التعبير: عدد الأبقار في العائلة الواحدة أقل من عشر بقرات عادة، ولكن عدد المعز كبير، وكل العوائل لديها نخيل.

تفقدنا 21 بيتاً في منطقة وادي دعرهو الجبلي وقرية عصمو المطلة على الوادي، واستطلعنا آراء الأهالي هناك، السواد الأعظم منهم فضلوا عدم ذكر العدد الدقيق لمواشيهم. إلا أننا علمنا بأن إحدى العوائل تمتلك 10 أبقار وجملين وحماراً واحداً و 500 ماعز ونعجة وكثيراً من النخيل. معظم العوائل تمتلك الكثير من المعز والأغنام والنخيل، لكنّ عدد الجمال قليل، وعدد الحمير لا يتجاوز الخمسة في كل البيوت الـ 21 التي زرناها. وهناك بيتان أصحابهما يتامى لم يحصلوا على تركة تستحق الذكر، فلا جمال ولا حمير.

جميع بيوت الوادي لها بساتين عامرة من النخيل، وثمة بيوت قليلة في عصمو ليست لديها بساتين، عموماً يعتبر راعياً فقيراً في قرية دعرهو من لا تتجاوز ملكيته 25 - 30 ماعزاً و 20 - 30 نخلة، ويعتبر متوسط الحال من يمتلك 100 ماعز و 15 بقرة و 100 نخلة، وثرياً من يمتلك 500 ماعز و 40 بقرة و 200 نعجة و 20 جملاً و 500 نخلة، وقد لاحظتُ في السبعينيات والثمانينيات أن الأثرياء بهذه المعايير قليلون جداً، وربما لا وجود لهم.

أهالي وادي دعرهو أبناء قبيلة واحدة بالاسم نفسه ، تتكون من فخذين: صبعهو (يقيمون أساساً في قرية عجمينو السفلى) وغرديفهو (يقيمون في قرية باعة العليا). وقد أبلغنا رجال في القبيلة أنها تمتلك مراعي مشتركة تستخدمها أية عائلة ليس لديها سوى حظيرة للماشية ولا تملك مرعى خاصاً بها. أهالي باعة يقضون الشتاء في قرية درسمويتن الواقعة في الجزء السفلي من الوادي عند منتصف الطريق بين باعة وعجمينو (على مسيرة 40 دقيقة عن باعة)، فهناك ترعى قطعانهم. وفي فترة فبراير - أبريل ينتقلون إلى باعة، حيث الجو أقل حرارة، والمطر يتساقط أحياناً، وتقتات المعز على أوراق الشجيرات. وفي موسم الأمطار يعودون إلى درسمويتن من جديد، ويقضون قسماً من موسم الرياح الشديدة في موقعي حصهن وقطهون الواقعين على مسيرة ربع ساعة أسفل باعة، حيث بساتين النخيل العائدة لهم فيجنون محاصيل التمور.

بعض هؤلاء الجبليين يعتبرون درسمويتن مكان إقامتهم الأساسي، فيما يرى البعض الآخر أن باعة هي ذلك المكان. وإذا كان الصيف قائظاً جدا يمكن اقتياد الماشية إلى الأعالي، إلى السفوح المطلة على الوادي، حيث يمتلك أبناء قبيلة دعرهو بيوتاً صيفية صغيرة من الحجر.

أما صعبهو فيقيمون في عجمينو طوال فصل الشتاء، وفي موسم القياظ ينتقلون إلى

المراعي السفلى، إلى قرية مصابه (على مسيرة 45 دقيقة من عجمينو)، كما يمكن أن ينزلوا في باعة، ثم يعودون في موسم الأمطار إلى عجمينو. وفي موسم جني التمور ينزحون إلى درسمويتن ، حيث تجتمع العشيرة برمتها في تلك الفترة.

ترحال قبيلة بني مالك لا يختلف عن التوصيف الوارد أعلاه، إذ تقيم هذه القبيلة في منطقة ديكسم الجبلية التي تحاذي حجهر من جهة الغرب. يقضي بنو مالك فصل الشتاء كله في ديكسم ، في كهوف ومغارات على هضبة غير كبيرة، وفي موسم القياط إما يبقون في ديكسم، وإما ينتقلون إلى قرية حجيفينو على مسافة كيلومترين تقريباً باتجاه الجنوب إذا كانت الأعشاب قد نمت هناك. كما يقضون موسم الأمطار في حجيفينو، ويعتبرونها المكان الرئيسي لإقامتهم. إلا أنهم ينتقلون في موسم جني التمور إلى الشمال، إلى درهميتن، على مسافة 3 كيلومترات عن ديكسم، حيث علف الماشية أفضل في هذه الفترة، وإلى ذلك يمتلك بنو مالك بساتين نخيل في دي عبالهن الواقعة غربي منطقة ديكسم، في هضبة حجهر.

قبيلة بني مالك السقطرية تتكون من ثلاثة أفخاذ: رملهل وكربيب وسبيبو. ويقول أبناء القبيلة إن جدهم مالك نزح من يافع في اليمن، وإن أبناءه الثلاثة هم مؤسسو الأفخاذ أو البطون المذكورة. ولا توجد حدود بين مراعي الأفخاذ الثلاثة، كما أن منابع المياه مشتركة بينهم، وأهمها البركة الكبرى (كريف) التي تحتفظ بالمياه لعدة سنوات حتى في مواسم الجفاف. ويمارس هؤلاء الرعاة الجبليون تربية الأبقار، حيث تمتلك العائلة عشر أبقار بالمعدل. وهي ترعى بحرية تامة، وفي الفترة بين العاشرة والحادية عشرة صباحاً تأتي جميع المواشي إلى المشرب في البركة الكبرى، فيما يأتي أصحابها لتفقدها، والتأكد مما إذا كانت جميعها سالمة. والفترة الثانية لشرب الماشية ما بين الثالثة والرابعة بعد الظهر، ويأتي الرعاة من جديد لتفقد مواشيهم.

السبب الأول لرعي قطعان الماشية في حرية، وبدون مرافقة الرعاة، هو أن سقطرى تخلو من الوحوش المفترسة في الواقع، والحيوان الوحيد الذي يهدد صغار الدواب هو السنور المتوحش أو قط الزباد الذي يتصيد الجداء والحملان. كان السقاطرة في الماضي ينصبون له الكمائن والمصائد (محزيري) المبنية من الأحجار مع فتحة تعلوها ويبدو منها طرف حجر طويل تستقر قاعدته على قطعة لحم، وفوق طرف هذا الحجر بلاطة مسطحة تسد الفتحة حالما يلتهم القط الطُعم ويحرّك الحجر الطويل. أما الآن فالرعاة يستخدمون مصيدة أو فخاً حديدياً مصنّعاً يسمى محنب.

زراعة النخيل في هذه الأنحاء، كما في كل مكان من الجزيرة، مقتصر على الرجال، أما رعي الماشية فتمارسه النساء أيضاً إلى جانب الرجال، غير أن حلب الأبقار من واجب الرجال وحدهم، وفي حال عدم وجود رجل في العائلة فإنها تستأجر غريباً لأداء هذه المهمة.

في المنطقتين الوسطى والغربية لا يجوز للمرأة أن تحلب الماشية، ولا يعرف رعاة حجهر سبب هذا المنع، إلا أن البعض منهم أجابوا عن سؤالنا بهذا الخصوص قائلين إن من العيب على المرأة أن تجلس القرفصاء لتحلب البقرة فيراها الناس بهذه الهيئة المشينة. أما في المنطقة الشرقية التي يسودها الاقتصاد المختلط فقد شاهدتُ النساء في السبعينيات والثمانينيات يحلبن الأبقار ولا يشملهن هذا الحظر المعمول به في المناطق الرعوية الصرف فقط، ولعله يلازم الاستثمار الرعوي الذي يتولى فيه الرجل مهمات العمل الرئيسية.

وقد كشفت دراساتنا لاقتصاديات الرعاة وأحوالهم المعيشية عن وجود تفاوت كبير في الملكية تخفف من حدته النخوة والفزعة وباقي تقاليد التعاضد الراسخة، ومع ذلك يواجه الفقراء وذوو الدخل المحدود صعوبات كبيرة، فيبحثون عن عمل في مناطق أخرى. وقد صادفنا بين العمال والشرطة المتطوعة (التي كانت تسمى آنذاك المليشيا الشعبية) في حديبو عدداً من أبناء العوائل الفقيرة من حجهر. فالمشارك رقم 63 في الاستطلاع أبلغنا أن عائلته في الجبل لا تملك سوى 20 ماعزاً وبضع نخلات. أبناء العوائل الفقيرة يعملون بالأجرة عادة في بساتين الأغنياء أو في خدمة الذين لا يستطيعون أن يخدموا أنفسهم (كالأرامل أو الغائبين عن عوائلهم في سفر إلى الخارج أو إلى حضرموت أو إلى حديبو).

وبينت الدراسات أن التفاوت الاقتصادي والمعيشي على أقله لدى أهالي هضبة حجهر من مربي الماشية «الخالصين»، ونحن نسمي نمط حياتهم بالحضري المترحل على سبيل الإصطلاح، ويعود استعمالنا لهذا التوصيف الاصطلاحي إلى عدم وضوح الحدود الفاصلة بين مختلف الأشكال المعيشية هناك.

كان مربو المواشي في جبال حجهر يقضون معظم فصول السنة في منازلهم الدائمة، فلا يترحلون، بل ولا يرعون الماشية في الواقع، تاركين لها العنان لترعى بنفسها، إلا أن مظاهر الترحال تتجلى في حياة البدوي السقطري حتى في هذه الفترة من السنة، فهو يمضى أحياناً إلى قطيعه ويبيت الليل في الجبال مفترشاً الأرض، ويرتاد السفوح الوعرة بكل سهولة سيراً على الأقدام عند الضرورة. دروب ومواقيت ترحاله الموسمي ترتبط بالظروف المناخية، وهي تختلف بعضها عن بعض في سنوات الخير وفي السنوات العجاف.

ويتوقف اختيار درب الترحال وموعده على عدة ملابسات، أولها طبيعة الكساء النباتي، وثانيها توافر مياه الشرب للماشية والناس في المراعي، وثالثها حالة الطقس. في السنوات العادية تنتقل قبائل الوديان إلى المراعي الجبلية الصيفية التي توجد لها فيها مساكن دائمة، ولذا يمكن توصيف نمط حياتها في تلك السنوات المؤاتية بالحضري المتناوب.

أما الجبليون المقيمون على الهضبة نفسها فينزحون إلى أسفلها، إلى وديان حجهر السفلى، في نوفمبر ـ ديسمبر عندما يشتد البرد أحياناً في المناطق العليا، إلا أن هذا النوع من النزوح ليس شاملاً، وإنما يخص القليل من السكان فقط.

الكثيرون من مربي الماشية يضطرون في سنوات الجفاف على النزوح لمسافات بعيدة. وكانت عواقب الجفاف أخف وأهون في المناطق التي فيها منابع لا تنضب لسقي المراعي، أو التي فيها أحواض وبرك لخزن احتياطي من مياه الأمطار يكفي لإرواء المواشي، وكان يلجأ إليها قسم من سكان المناطق الأكثر تعرضاً للجفاف. بعض القبائل تترحل في مثل هذه الأوقات العصيبة بكامل عوائلها وماشيتها، علماً أن العادات البدوية تنظم وتضبط دروب ومسارات هذا النزوح. فعلى سبيل المثال ينتقل جبليو المنطقة الوسطى في موسم الجفاف عادة إلى وديان المنطقة الشرقية الأفضل من هذه الناحية، ففي الشرق لا يوجد إفراط في رعي الماشية، والمراعي ليست مستنزفة، وقد شاهدت أثناء عملي في سقطرى في الثمانينيات نزوحات من هذا النوع عندما اجتاح الجفاف الجزيرة آنذاك.

خلال موسم أعمالنا الميدانية سنة 1983 كانت الأحوال لا تزال جيدة في قرى وادي دعرهو. أما في موسم سنة 1984 فقد وجدنا أصدقاءً ومعارف لنا من دعرهو نزحوا مع ماشيتهم بحثاً عن الكلأ في قرية شبهن الواقعة في الجزء الشرقي من الجزيرة على بعد مسيرة عدة أيام. وقبل عام من ذلك التاريخ كان أحدهم يسلينا بالعزف على «ناي» من النحاس الأصفر في دعرهو، إلا أنه أبلغنا هذه المرة، في شبهن، أن القحط ألمّ بالجبال، وأن الماشية نفقت هناك. ولذا نزح وعائلته من تلك المنطقة بفضل وجود عدد كاف من أفرادها القادرين على العمل خلال الترحال، وبفضل الجمال الثلاثة التي حملت الأثاث والحاجيات، أما العوائل التي ليست لديها أيد عاملة كافية، وفيها العديد من العجزة والمرضى، فقد بقيت تنتظر نهاية المصيبة في الجبال.

وقد لاحظنا أن الرعاة الذين نزحوا إلى شبهن كانوا واثقين من أنفسهم ولا يشعرون بأنهم مهانون أو غرباء على المنطقة، ولم نتمكن من التأكد مما إذا كان أهالي شبهن قدموا

لهم المساعدة لوجه الله أم مقابل شيء ما.

المنطقة الغربية

يمكن تقسيم رعاة الجبال الكلسية في المنطقة الغربية، اصطلاحاً أيضاً، إلى مجموعتين فرعيتين: أهالي الجبال وأهالي الوديان الجبلية.

أشار ج. براون في حينه إلى أن الأوضاع الإيكولوجية في جبال المنطقة الغربية تختلف تماماً عما هي عليه في جبال حجهر، فالهضاب والسفوح السفلى تفتقر إلى المياه. المنابع والآبار قليلة خارج وادي قلنسية ووادي غبة شُعب، وفي الأعالي تنتشر النتوءات الصخرية والمدرجات الكلسية المغطاة بطبقة طينية تكسوها أعشاب الثيل والشجيرات، فيما تكثر في الأسفل الصخور والأحجار الترسبية التي تتخللها الشجيرات، ولا تتجمع المياه إلا في الأماكن القائمة على قاعدة صخرية تشكل حاجزاً مصمكاً عبر الوديان.

وفي بعض الأحيان توجد منابع صغيرة في الأعالي، حيث تستقر الطبقات الكلسية فوق الجرانيت، إلا أن استخدام تلك الينابيع موضعي ومحدود. ويبدو أن المياه كانت شحيحة هنا في غابر الزمان أيضاً، ذلك لأنه تم اكتشاف مخلفات خزانات وأحواض حجرية قديمة بنيت قبل مئات السنين لتجميع المياه في هذا الجزء من الجزيرة. إلا أن الطبقة الترابية في هذه الأماكن كانت في تلك الحقبة على ما يبدو أفضل بكثير مما هي الآن، والدليل على ذلك هو وجود آثار المستوطنات والمقاطعات والحظائر الواضحة المعالم هناك، وثمة مؤشرات على كثرة المواشي في هذه البقعة آنذاك.

يقول براون: «خلافاً لحجهر نجد في هذه المنطقة كل الدلائل على أن مراعيها تعرضت في الماضي لاستنزاف كبير متواصل، فلو كان قد حصل تبدل كارثي في المناخ خلال القرون الماضية لبقيت منه آثار واضحة، أما ما نراه هنا الآن من صحراء قاحلة فهو من فعل الإنسان» (Brown, 1966: 17).

فوق القمة الكلسية طبقة طينية معشوشبة على تربة غير سميكة، وفي بعض مواضعها تبرز نتوءات الصخور الجبلية، إلا أن براون لم يعثر على حبة أو بذرة واحدة في مدرجات تبلغ مساحتها 64 كيلومتراً مربعاً ليستدل على نوعية الأعشاب التي كانت فيها واستهلكت عن آخرها. يبدو أن الأغنام أتت على كل شيء هناك.

سفوح الجبال وقاع الوديان مغمورة بخضرة الشجيرات، ما عدا بعض المواقع التي تحتفظ، قرب الوديان، باحتياطي من الترسبات الرملية والحصوية العميقة نسبياً. الكساء النباتي هنا مكشوف، والمرور بين الشجيرات المتباعدة سهل على الناس والإبل في جميع الاتجاهات، ومعظم تلك الشجيرات من النباتات المسماة بالمهرية «شيقوف» و«زركان» و«ميطين» و«إيفوربيا» وغيرها، ويلاحظ عليها جميعاً، وخصوصاً الميطين المنتشر هناك كثيراً، سرعة نمو أوراقها الصغيرة.

ماشية أهالي المنطقة الغربية ليست كثيرة، وتفيد حسابات براون أن الأغنام هناك أكثر من المعز بنسبة 3.4. بعض العوائل تزاول بالأساس رعي الأغنام وتقيم في المرتفعات، فيما يزاول بعضها الآخر تربية المعز ويقيم أساساً في الوديان. خلال فترة مكوثي في الجزيرة كان عدد الأغنام، كما أسلفنا، أقل بكثير مما في عهد براون. وكان قسم من السكان الذين يقطنون سفوح الهضاب يمارسون تربية المعز والأغنام مناصفة. إلا أنهم ما كانوا يعانون كثيراً من شحة المياه.

متوسط عدد رؤوس الأنعام للفرد الواحد 35 رأساً، والعدد المعتاد لرؤوس قطيع العائلة الواحدة 120 - 150 رأساً، والشخص الذي يمتلك 260 رأساً أو يزيد يعتبر من الأثرياء. كان أكبر قطيع شاهده براون ملكاً لعائلة من سبعة أشخاص وعدد رؤوسه 322 ماعزاً، وأصغر قطيع من 43 شاة كان في عائدية شيخ متقدم في السن. كما كانت حصة الرأس الواحد من المعز والأغنام تقدر بـ 3.7 هكتارات من الأرض. ولكل نعجة في الجبال ما بين 0.4 إلى 25.4 هكتارات، ولكل ماعز في الوديان ما بين 0.4 إلى 9.3 هكتارات. وفي جبل جيزيل ترعى 15 نعجة في هكتارين، فيما ترعى 20 بقرة في مثل هذه المساحة في سفوح ميحولي بجبال حجهر. تفيد حسابات براون أن العدد الإجمالي للمواشي في الجبل الغربي بلغ 10 الاف رأس: 5700 من الأغنام و 4300 من المعز (Ibid.).

الأعشاب الخضراء في أعالي الجبال تجعل إدرار بعض المواشي متواصلاً في جميع المواسم، ولذا تستغني عوائل الرعاة عن مياه الشرب تقريباً، فلا تهبط إلى مواقع الآبار إلا فيما ندر، ويبدو أن المعز تنعم بحياة رغيدة عندما تجد الكفاية من الماء إلى جانب الحشائش والأعشاب، فتدر اللبن حتى في موسم الجفاف. ولعل أصحابها المقيمين في الأماكن السفلى الأشد حرارة يحتاجون إلى المزيد من السوائل. ومهما يكن من أمر فهم يتركون ماشيتهم على مسافة كافية من موارد المياه، ولا يستخدمون المساحات الشاسعة

للمراعي السفلى إلا في وقت الأمطار، ومن ثم يتوقف عدد الماشية ليس على وفرة الكلأ في المراعي فحسب، بل وعلى مدى قرب القطيع من المياه، فتزويد هذه الأراضي بالمياه يمكن أن يغير الموقف جذرياً نحو الأفضل، إلا أن الموقف أخذ يتحسن بعض الشيء في زماننا، وليس قبل ذلك التاريخ.

ورغم ذلك نشأ لدى براون الذي كان يفتقر إلى المعطيات الدقيقة انطباع وكأن كميات اللبن المحلوب في هذه المنطقة أكثر بكثير مما في جبال حجهر، وقد يكون سبب ذلك أن حصة العجول الصغيرة والجداء الرضع من اللبن هنا أقل مما في حجهر. وفي ظل العدد الأكبر من الأغنام والمعز قد يكون بوسع العائلة المتوسطة التي تعيش بالكامل على منتجاتها الحيوانية أن تحصل على أكثر من 35 كيلوغراماً من السمن، فيما لو هطل المطر مدراراً. وفيما عدا موسم الأمطار الغزيرة لا يبقى لإعداد السمن إلا القليل من الزبدة، أو لا يبقى منها شيء بتاتاً، وبالفعل كان السمن نادراً في الأسواق. أما براون فلم ير سوى مرة واحدة كيف يتم إعداده، وقد شاهده في عائلة مربي ماشية «غني» يمتلك 264 نعجة.

كتب هذا الخبير الإنجليزي يقول: «لحوم الجداء والحملان من الذكور تندرج دوماً في قائمة طعام العائلة، إلى جانب لحوم النعاج والمعز التي تذبح على أمل أن تلقى أحداً يشتريها. ويمكن للراعي من المنطقة الغربية أن يكسب قرابة 10 دنانير من بيع اللحوم. وقد يصل المبلغ الإجمالي للمداخيل النقدية للعائلة إلى 22 ديناراً في السنة. وهذا يوفر لها إمكانية شراء كيلوغرامين أو يزيد من الحبوب في اليوم على مدى ثلاثة أو أربعة شهور» (Brown, 1966: 22).

وقد تصور براون أن بدو جبال المنطقة الغربية يستهلكون كميات من الحبوب أقل من سكان حجهر، ولا يعرفون الشاي والسكر إلا فيما ندر. وبدا وكأنهم لا يصنعون بين الحين والآخر كميات متواضعة من السمن لأجل البيع إلا عندما لا يجدون ما يشترون به الثياب، ولا ينحرون نعجة إضافية إلا عندما يداهمهم الجفاف. وبعبارة أخرى كانوا يعيشون على مواشيهم ومنتجاتها لا يبيعون شيئاً ولا يحتاجون إلى شيء. ومن الأدلة على طبيعة هذا الاقتصاد العيني ما يشير إليه براون من قلة استعمال السكاكين عند هؤلاء الناس. فعندما اقتضت الحاجة ذبح خروف، بحضور ستة رجال، كان براون الشخص الوحيد بينهم يحمل سكيناً، وقد اتضح له من حسابات أجراها بهذا الخصوص أن نصف الرعاة لا يحملون سكاكين أو خناجر، وغالباً ما تكون للعائلة في بيتها الحجري في المغارات سكين حديدية

واحدة فقط.

خلال عملنا في المنطقة الغربية تفقدنا ودرسنا عدة بيوت يمارس أهلها تربية الماشية، بعضها في السفوح البعيدة عن الساحل وبعضها في المناطق القريبة منه والتي لها علاقة بصيد الأسماك.

أنا لم أجد لدى مربي الماشية في تلك المنطقة أبقاراً أو جِمالاً أو حميراً، فهم يربون حصراً صغار الماشية من معز وأغنام، ولفت انتباهي وجود عدد من الأغنام أكثر مما في المنطقتين الوسطى والشرقية، إلا أن النسبة لم تكن على أية حال، 3.4 كما كانت في زمن براون.

معظم الرعاة الذين استطلعنا آراءهم يمتلكون بضع عشرات من الأغنام والمعز (عند خُمسين منهم تقريباً تتألف القطعان من المعز بالأساس)، وملكية نصف الذين تحدثنا إليهم من النخيل تقتصر على بضع نخلات، وبعض الجبليين لم يكن يمتلك نخيلاً أصلاً. إلا أننا لم نخرج باستنتاجات تعميمية من هذه المعلومات نظراً لقلة عدد المشاركين في الاستطلاع.

ورأينا لوحة مماثلة عند أهالي قرية قيسو على مقربة من قلنسية. إلا انهم يعتبرون، في المقام الأول، من مزارعي النخيل، ذلك لأن قيسو التي تتوارد اليها المياه من الجبال وتكثر فيها الآبار مشهورة، مثل قلنسية، ببساتينها الكثيرة والكبيرة، حيث تمتلك العائلة الواحدة بمعدل 150 - 200 نخلة.

سكان المنطقة الغربية التي تسودها ظروف طبيعية صعبة يعانون من الجفاف ومصائبه أكثر من غيرهم، ويلحق الضرر في المقام الأول بتربية الماشية الرعوية، وخصوصاً في الأماكن التي تستخدم الطرق التقليدية. ومما يزيد من تعقيد هذه المشكلة بالنسبة للرعاة السقطريين أن تربية الماشية عندهم ليست ذات توجه تجاري، كونها مكرسة بالكامل لتلبية احتياجاتهم الغذائية. ولما كانت استثماراتهم تتسم بطابع الاقتصاد العيني فإن نفق المواشي لأسباب طبيعية يقود مباشرة إلى المجاعة وتفشي الأمراض وهلاك الناس. ومن الشواهد على ذلك المفردات المميزة في اللغة السقطرية الدالة على هذه الظواهر (سبق أن تناولناها في أعلاه)، وكذلك ما يتناقله الناس من روايات عن سنوات المجاعة التي عايشوها وكانوا شهود عيان عليها، فضلاً عن المقابر والمدافن الجماعية في الكهوف والمغارات، مما يدل على أن الذين بقوا على قيد الحياة آنذاك أضعفهم الهزال لدرجة لم

يعودوا قادرين فيها على حفر القبور لموتاهم، فكانوا يتركون جثثهم في المغارات.

كما رأينا في العام 1984 آثار الجفاف وعواقبه على مربي الماشية المقيمين عند السفوح المطلة على وادي زليكينو في المنطقة الغربية.

وقد بتنا ليلتنا في منزل «ألف جيم قاف» من قبيلة قمحي. لدى هذا الرجل المقيم في إحدى المغارات الجبلية 70 ماعزاً و 10 نعجات. نساء العائلة يمارسن نسج البطانيات والشملات من صوف الغنم وشعر المعز، وزوجة «ألف جيم قاف» تعمل على مَنسج خاص بها. وكانت زوجته الأولى قد توفيت تاركة ولداً وخمس بنات، كان الابن آنذاك في الخدمة العسكرية، وأربع من البنات متزوجات يعشن مع أزواجهن. أما الخامسة فهي مطلقة عادت إلى بيت الوالد مع طفلها الصغير. وتعمل على ماكنة خياطة في تلك المغارة نفسها. ولدى «ألف» من زوجته الثانية صبي صغير. مغارة الرجل متواضعة، بل فقيرة، والأدوات المنزلية فيها قليلة على الرغم من أنه عمدة لأحد أفخاذ القبيلة.

وادي زليكينو يعاني من شحة المياه، ولذا لا يمارس أهاليه زراعة النخيل، وإنما يزاولون تربية المعز، فالأغنام هناك قليلة جداً، والمراعي ذات حدود مرسومة. كل العلاقات بما فيها علاقات الملكية، محكومة بالعادات والأعراف السائدة، ففيما يخص الزواج يفضل أهالي زليكينو أن يتزوجوا من خارج قبيلتهم، (إلا أن «ألف جيم قاف» تزوج من ابنة عمه)، ولعل السبب يعود إلى كون زليكينو من المناطق الأكثر فقراً، والإمكانيات الاقتصادية محدودة، مما يؤدي إلى استبعاد فائض السكان.

في سنوات القحط والجفاف تنشأ هنا مشاكل ونزاعات على موارد المياه (لا تحصل عادة في سنوات الخير)، وهناك العيون التي تسمى في اليمن جابية، وفي سقطرى عين، وكذلك البرك التي تسمى بالسقطرية قاط. الجابية عادة نبع صغير كميات المياه فيه محدودة، أما البرك فهي عبارة عن أحواض طبيعية (وأحياناً مجرد وهدة في الصخور) تحتفظ بماء الأمطار بضع سنوات (يقول الجبليون إن ماءها لا ينضب على مدار ست سنوات إذا كانت البركة كبيرة).

ملكية العين أو النبع توفر ضمانة دون عاديات الزمن في السنوات العجاف، إلا أن العيون لا تكون دوماً في أماكن وجود المراعي، بل تنبجس بين الصخور، حيث لا تنمو الأعشاب تقريباً. كذلك هو الحال في زليكينو: قمحي المقيمون في الوادي لديهم عين ماء، لكنهم يفتقرون إلى المراعي، وقد نشأ على مدار القرون نظام لاستثمار المراعي يخول قمحي في

موسم الجفاف حق رعي مواشيهم في الجبال. أما أبناء قبيلتي شيتهو وحجيهو المقيمون في السفوح المطلة على مساكن قمحي فيمتلكون مراعي في الأسفل، أي في الوادي المجاور لمنطقة زليكينو، ولذا ينزحون إليها مع مواشيهم في الموسم، والقبائل العليا ليس لديها عيون ومنابع، إلا أنها تمتلك بركة كبيرة لخزن مياه الأمطار.

خلال مكوثي في منطقة زليكينو لاحظت أن قبيلة قمحي كانت منفعلة هائجة، وشيخها «ألف جيم قاف» ورجاله مستاؤون متبرمون لأن القبائل «العليا» لا تسمح لمعزهم التي ترعى العشب هناك أن ترتوي من ماء البركة. وكنا قد وصلنا إلى زليكينو بعد أن تمكنا من إقناع أحد مسؤولي الإدارة السقطرية المتوجهين إلى هناك لتسوية ذلك الخلاف أن يصطحبنا معه. وكان هذا المسؤول قد وصل بناء على شكوى تقول إن القبائل «العليا» لا تسمح لرعاة قمحي وماشيتهم أن يشربوا من ماء البركة في هذا الوقت العصيب والصعب جداً على الناس والدواب، حيث تنضب مياه العيون وتجف الأعشاب. نحن لم نسمع ما قاله المسؤول للرعاة البدويين، ولكن خيل إلينا أنه لم يستجب للشكوى، إلا أننا كنا على خطأ، فلا يفهم نفسية البدو وطباعهم الانطوائية المعقدة إلا من يطلع على حياتهم عن كثب، وعندئذٍ يدرك أن المشكلة ليست في جيران قمحي، بل فيهم أنفسهم.

فقد اتضح أن الخلاف استعر بين فخذين من قبيلة قمحي ذاتها (بين بيدريو الذين ينتمي اليهم «ألف جيم قاف» وبين جديد) على العين التي نضب ماؤها فعلاً. شيخ القبيلة الشاب الذي لا تزال كلمته غير مسموعة لم يتمكن من حل المشكلة، فدعت الحاجة إلى الاستعانة بالسلطات، إلا أن من المخجل طبعاً نشر غسيل القبيلة، فتحججوا برواية القبائل «العليا» التي كأنما أساءت معاملة قمحي ومواشيهم، وكانوا يعوّلون على المسؤول، فعسى أن يعيد الأمور إلى نصابها.

ولم يبق أمامنا إلا أن نستشف تلك اللعبة النفسانية المعقدة التي حاكها البدو في تعاملهم مع المسؤول، ولكنه حزر دهاءهم وأدرك خفاياهم، وفي النهاية وعد المشتكين بمساعدتهم (وهو ما كانوا يطمحون إليه تحديداً). وبعد يوم من عودتنا إلى حديبو توجهت إلى زليكينو سيارة حوضية للماء، وجاءت تلك المساعدة في محلها، فإن شحة المياه تترك آثارها السلبية خصوصاً على أهالي الوديان التي ليس فيها برك لخزن مياه الأمطار (شكل رقم 5 - 12).

في السابق كان في سقطرى تفاوت كبير في الملكية بين قبائل المنطقتين الوسطى والغربية، إلا أن ذلك التفاوت لم يسفر عن تمايز أو انقسام ملحوظ بين السكان، فالشخص في جبال

حجهر يعتبر ميسور الحال إذا كان يمتلك 20 هكتاراً من المراعي المعشوشبة و 10 أبقار وثوراً واحداً وقرابة 140 ماعزاً، أما في جبل جيزيل بالمنطقة الغربية فهو يعتبر غنياً حتى إذا كانت ملكيته لا تتجاوز 264 نعجة.

في الستينيات كانت الأدوات المنزلية في البيت العادي في حجهر، والذي تقيم فيه عائلة من زوج وزوجة وطفلين (ولد وبنت)، عبارة عن ستة من جلود البقر وأربعة من جلود المعز وثلاث بطانيات وثلاثة حصران (أحدها حصير بالٍ عادة) وفأس وبضع سكاكين وثلاث جرار فخارية وأربعة أكواب من الألومنيوم وقدرين كبيرين وغلاية شاي من الألومنيوم وستة فناجين قهوة وخمس قرب في حالة جيدة وبضعة حبال وخمس قطع من القماش أو المآزر الكتانية. وفيما يخص الثياب النسائية فلكل امرأة فستان نظيف على الأقل، فيما تتزين ربة البيت وأبنتها بحلي فضية.



(شكل رقم 5 ـ 12)

هذه اللوحة تختلف، وإن بشكل طفيف، عن حاجيات بيت آخر في مغارة جبلية قرب غبة شعب في المنطقة الغربية، حيث يقيم شيخ وابنه وكنته مع ثلاثة أحفاد (شابين وطفل صغير). فقد وجد براون هناك أربعة من جلود الغنم وإثنين من جلود المعز وبطانية واحدة

ومئزرين من القطن وثلاثة أكواب خشبية وكوبين من الألومنيوم وصحناً واحداً ومقلاة واحدة وقربتين جلديتين وسكيناً واحدة فيقراب. وليس لدى زوجة الابن حلي، كما لم تكن في المغارة ثياب، ما عدا ما يرتديه نزلاؤها (Brown, 1966: 13). وأشار براون إلى أن الاتصالات بين البدو وأهالي الوديان كانت ضعيفة، إلا أنها لم تبلغ حد القطيعة والخلافات التي شهدتها حضرموت آنذاك.

ولم تكن في سقطرى يومها حبوب، ما عدا الذرة (السكرية) التي تزرع على المدرجات الجبلية، ويسميها البدو بامبة ويستخدمونها في إعداد السمن الحيواني (راجع الفصل التالي) ومادة غذائية احتياطية في سنوات القحط. أثناء فترة مكوثي بالجزيرة في الثمانينيات لم تعد هذه الذرة تزرع هناك، نظراً لانتظام تزويد سقطرى بالرز والدقيق.

في سنوات الجفاف كان السقاطرة يشترون الحد الأدنى من الحبوب، ولا يشترونها عموماً فيسنوات الخير، مما أدى إلى عدم اهتمامهم بتربية دواب النقل كالجمال والحمير، كما يؤكد براون (Ibid., p.14). فالجمال التي نصادفها أحياناً في الجبل الغربي ليست عائدة إلى أهاليه، بل هي ملك لأصحاب الإبل في الوديان. وفي بعض الأحيان يحتاج بدو حجهر إلى نقل كميات كبيرة من السمن، ولكنّ إلى المناطق السفلى فقط، فهؤلاء البدو لا يغادرون مناطقهم عادة على مدى شهور. أما بدو المنطقة الغربية المضطرون إلى النزوح عدة أميال خلال الموسم فليس لديهم ما ينقلونه، فالبدوي من حجهر لا يشتري الحبوب إلا بالكمية التي يستطيع نقلها إلى الجبال دون مشقة، ويعتقد براون أن الشيء ذاته يصح على أهالي المنطقة الغربية، رغم غموض مسالة دفع أثمان تلك الحبوب.

فالاهتمام بالنقود خارج حدود قلنسية كان في عهد براون ضعيفاً على العموم، وهو يقول إنه صادف هناك شخصاً لا يعرف كيف يتصرف بنصف الدينار، لأنه لم يسبق له أن امتلك مثل هذه الورقة النقدية «الكبيرة». فمعظم الصفقات والتعاملات تتم بالتبادل العيني المباشر على الرغم من تداول النقود بين سكان حجهر بفضل تقاربهم القديم مع أهالي حديبو.

مربو الماشية في الجبل الغربي، شأن قبائل جبال حجهر، غالباً ما يتخذون من الكهوف والمغارات بيوتاً لهم. إلا أن أكثر منازل الوديان مبنية من الحجر وجذوع النخيل (المزيد في الفصل السادس).

ولما كان الاقتصاد الرعوي في المنطقة الغربية خلال الثمانينيات وما بعدها، وحتى

اليوم، لا يلبي في الواقع سوى حاجة القبائل إلى المواد الغذائية، فإن مجال الاقتصاد المختلط يشمل هنا السفوح الجبلية، فضلاً عن الشريط الساحلي. وبفضل الكسب الإضافي ومساعدة الدولة نجد حياة قبائل هذه المنطقة أفضل. تأجير الأيدي العاملة في تربية الماشية وزراعة النخيل في المنطقة الغربية أقل مما في المنطقتين الوسطى والشرقية، وذلك يعود أيضاً إلى فقر المزارع والاستثمارات.

المنطقة الشرقية

الرعاة ومربو الماشية الجبليون في هذه المنطقة يعيشون في ظروف تختلف عن ظروف المنطقتين الوسطى والغربية، فالجبال هنا ليست عالية، وانحدار الهضبة الشرقية معتدل، وهناك الكثير من السهول والمنخفضات الجبلية والمنحدرات التدريجية المكسوة بأعشاب وحشائش كثيفة. الهضبة الشرقية شبيهة بالجبال الغربية من حيث مراعي الأغنام، مع فارق في المساحة. فهذه المراعي تشكل في المنطقة الغربية لا أكثر من سدس مساحتها، فيما هي تغطي الهضبة الشرقية بكاملها تقريباً، كما توجد فيها منابع مياه ووديان. ثم إن الظروف المناخية متشابهة بالأساس في مختلف أرجاء الجزء الداخلي من المنطقة: في السهول والوديان، وخصوصاً في الجبال. ولذا فالفوارق بين مربي المواشي في الهضبة وفي الوديان الجبلية ليست كبيرة. ويمكن اعتبار جبليي المنطقة الشرقية جماعةً متجانسة واحدة تتميز بالتحضر طول العام تقريباً، إلى جانب غنى استثماراتها نسبياً.

كما أن تأثير الإسلام هنا منذ تلك السنين أقوى بكثير مما في المنطقتين الآنفتي الذكر، والكثيرون يجيدون اللغة العربية ويقرؤون القرآن ويحتفظون بكراريس الصلاة والأدعية، ولعل ذلك يعود إلى الاتصالات الأوثق مع دول الخليج، لأن أبناء المنطقة الشرقية كانوا في السبعينيات والثمانينات يرتحلون إلى هناك للعمل والكسب أكثر من جيرانهم في المنطقتين الأخريين.

وتلاحظ إمارات الثروة والنعيم بخاصة على مربي الماشية في بعض الأماكن المجاورة للمنطقة الوسطى، حيث تتجاور بساتين النخيل الزاهرة في الوديان مع المراعي المعشوشبة على السفوح والسهول الواقعة شرقاً.

وقد قمنا بدراسة 48 استثماراً وبيتاً رعوياً في مختلف أرجاء المنطقة الشرقية،

وقسمناها إلى خمسة مجاميع، هي:

1- ستة عشر بيتاً في كل منها أقل من 50 رأساً من الماشية الصغيرة، وفي تسعة منها تتكون القطعان من المعز وحدها، وفي سبعة بيوت تتكون من المعز والأغنام والأكثرية من المعز، ووجدنا في أحد البيوت حماراً وفي بيت آخر حمارين إضافة إلى القطيع. وإلى ذلك كان اثنان من مربي الماشية لا يمتلكان نخيلاً، فيما تمتلك ثماني عوائل أقل من 50 نخلة لكل منها، وتمتلك أربع عوائل ما بين 50 و 100 نخلة، ويمتلك شخص واحد ما بين 100 و 150 نخلة، وشخص آخر ما بين 150 و 200 نخلة.

2- اثنا عشر بيتاً في كل منها 50 - 100 رأس. جميع القطعان من المعز والأغنام، والأكثرية معز، ثلاث عوائل تمتلك أقل من 50 نخلة لكل منها، وخمس عوائل تمتلك ما بين 50 و 100 نخلة، وأربع عوائل تمتلك ما بين 100 و 150 نخلة.

3- ستة بيوت في كل منها 100 - 150 رأساً، ثلاثة قطعان منها مختلطة مع أغلبية من المعز، وإلى ذلك تمتلك إحدى العوائل جملين، وكان لأحد أصحاب البيوت أقل من 50 نخلة، فيما كان اثنان يمتلكان ما بين 100 و 150 نخلة، ويمتلك ثلاثة أشخاص أكثر من 200 نخلة لكل منهم.

4- أربعة بيوت في كل منها أكثر من 200 رأس، وكل القطعان مختلطة مع أغلبية من المعز. صاحب أحد البيوت يمتلك 250 رأساً من الماشية وأكثر من 100 نخلة، فيما يمتلك شخص آخر 400 رأس و 100 نخلة، ويمتلك ثالث ما بين 500 و 600 رأس و 250 نخلة، في حين تتجاوز ملكية الرابع 500 رأس و 800 نخلة.

5- عشرة بيوت تمتلك أبقاراً، عائلتان منها تمتلك 10 أبقار ونحو 200 معز بالإضافة إلى عدد من النخيل لكل منهما، وعائلة أخرى تمتلك 5 أبقار وأكثر من 100 ماعز ونخيلاً، وأربع عوائل تمتلك كل منها 4 أبقار، كما تمتلك إحدى هذه العوائل الأربع حولية وحماراً وأكثر من 100 ماعز ونعجة ، فيما تمتلك أخرى بضعة حمير وقرابة 100 رأس من المعز والأغنام وبضع عشرات من النخيل، وتمتلك ثالثة 40 ماعزاً وأكثر من 100 نخلة، وتمتلك العائلة الرابعة 40 ماعزاً وقرابة 50 نخلة. وثمة ثلاث عوائل تمتلك كل منها بقرة واحدة (بالإضافة إلى بضع عشرات من المعز والإغنام وقليل من النخيل في اثنتين منها، وفي الثالثة بضع معزات ونعجات).

وللحمير والجمال في هذه المنطقة البعيدة عن العاصمة أهمية خصوصية، فالحمار

ضروري للبدوي، بل ولأهالي الوديان والمناطق الساحلية، باعتباره وسيلة لنقل أحمال كثيرة وثقيلة كالأحجار والأكياس الكبيرة المعبأة بالمواد الغذائية. ونعيد إلى الأذهان أن سقطرى كانت في تلك الحقبة تفتقر إلى طرق المواصلات، كما أن السيارات كانت نادرة للغاية. علماً أن أهمية الحمير تزداد لتواضعها فيما يخص العلف، والعادة أن يمتلك الحمارَ الواحدَ عدةُ أشخاص، وعندما تلد أنثاه يتقاسمون جحوشها بالتراضي.

صاحب الحمار يمكن أن يكسب كثيراً بتأجير حماره للآخرين، إذ كانت أجرة اليوم الواحد في منتصف الثمانينات 10 دنانير أو حتى أكثر. فيما بلغت قيمة الحمار 250 ديناراً (للمقارنة: قيمة الماعز الذكر 5 دنانير والأنثى 15 ديناراً). وكان الجمل هو الدابة الوحيدة الأغلى من الحمار، فهو أكثر نفعاً في نقل الأحمال، وقد بلغت قيمته 600 دينار. في الماضي غير البعيد كان الجمل يساوي، في سعر التبادل العيني، 40 ماعزاً، إلا أن ثمنه ارتفع فيما بعد. أبلغنا مرافقنا علي، حادي الإبل، أن شخصاً عرض عليه 700 دينار في مقابل جمله، إلا أنه رفض أن يبيعه.

وفيما يخص حقوق البدو بملكية الأراضي اعتبر ج. براون الرعاة مالكين وراثيين لحق الانتفاع بها، الأمر الذي كان قائماً على الوفاق بين السكان ومدعوماً بمنزلة السلطان، إلا أنه استدرك قائلاً، وهو على حق، إن من غير الصحيح اعتبارهم «مالكين للأراضي الأميرية» أو متجاوزين عليها. كان السلطان يكتفي بحل الخلافات البدوية النادرة للغاية (براون نفسه لم يشهد ولم يعرف حتى نزاعاً واحداً على الأراضي)، إلا أن حقوق السلطان في ملكية جزء من المراعي لم تكن واضحة تماماً، كما يقول براون.

حق القبائل في الأرض كان بالفعل قائماً على الأعراف وتتوارثه الأجيال على هذا الأساس أيضاً من جيل لآخر، ومصدر تلك الأعراف ومشروعيتها هو العقل الجماعي لشيوخ القبائل، وليس اللوائح المدونة والموثقة.

إلا أن أحكام حقوق الأراضي كانت تختلف من منطقة إلى أخرى، وهي أكثر تشدداً في الأماكن ذات المراعي المستنزفة والمياه الشحيحة، وإلى ذلك لم تكن بعض القبائل تعرف الحدود بين الأراضي العائدة لأفخاذها وبطونها، فيما كان ترسيم تلك الحدود معمولاً به في قبائل أخرى.

فلا حدود بين المراعي العائدة للعوائل في القبائل الرعوية بالمنطقة الشرقية، إلا أن تلك الحدود مرسومة بدقة بين أراضي القبائل نفسها. وفي إطار أرض القبيلة الواحدة

يمكن للأسرة أن ترعى مواشيها حيثما تشاء. كما أبلغنا الرعاة أنه لا مشكلة في عبور الماشية صدفة إلى أراضي قبيلة أخرى. ولذا فإن مفهوم «الأراضي القبلية» اصطلاحي على الأرجح، والمقصود به مكان إقامة القبائل وأحقيتها في رعي مواشيها هناك، مما يعني أن حق ملكية الأرض آنذاك توافقي وذو صبغة اصطلاحية.

إلا أن سكنى أراضي الغير والبناء فيها ليس من الأمور المباحة، ولا يسمح بهما إلا لمن يرغب في الانتساب إلى القبيلة المعنية، وهذا يتطلب اتفاقاً وإقراراً من المنتسب الجديد بأن يتحمل كل الواجبات والالتزامات المترتبة على انتسابه إلى القبيلة، ومنها مناصرته لأبناء القبيلة والولاء لهم وحمايتهم من اعتداءات الغرباء مهما كانت الظروف. وعلى الرغم من سهولة الانتساب حسب الظاهر، إلا أن الحالات التي وقع فيها نادرة نسبياً. وهي تحصل بالأساس عندما تكون للقبيلة المستضيفة مصلحة في انتساب العضو الجديد إليها (نتيجة لتناقص عدد رجالها، على سبيل المثال). وفي هذا الإطار كانوا يحاولون اقناع الشخص الذي يتزوج من قبيلة أخرى أن ينتقل إلى أنسبائه، بل ويساعدونه على بناء بيت، وكان يوافق على ذلك عادة في حال وقوعه في ضائقة مالية أو صعوبات اقتصادية.

ترحال القبائل خاضع، كما أسلفنا، للملابسات والظروف المناخية في سقطرى، وهي تنعكس في تقسيم السقاطرة لفصول السنة ومواسمها، ولا ينحصر هذا التقسيم في الفوارق المناخية الموسمية فحسب، بل يشمل أيضاً العوامل الاقتصادية، وخصوصاً ما يتعلق منها بزراعة النخيل وجني التمور.

ولعل ضرورة البحث عن موارد جديدة للغذاء هي التي جعلت السقاطرة، في المقام الأول، يعيشون حياة البداوة والترحال في حينه، فبعض البيوتات الرعوية كانت تنزح إلى الأعالي لمسافة 40 كيلومتراً، وتستقر مؤقتاً في أماكن محددة سلفاً، أي في الأماكن التي يحق لها أن تكون فيها، وهي مراعٍ صيفية تعتبر بعيدة جداً، ففي العادة ينزح الرعاة إلى مسافات أقل من تلك بكثير.

في منطقة قعرة في السهل الساحلي الجنوبي مثلاً، لا أحد ما عدا السلطان يمتلك كما يقول براون حق بساتين النخيل إذا كان يقيم بعيداً عنها لمسافة تتجاوز 15 كيلومتراً. إلا أن الخبير الإنجليزي يجانب الصواب في قوله هذا، فقد سجلنا حالات كانت فيها بساتين النخيل في الوديان بالذات ملكاً لقبائل تقيم بعيداً عنها، علماً أن تلك القبائل تنتمي إلى مناطق «الصعيد» الجبلية، وقد كانت في زمن ما، على ما يبدو، مهيمنة على المنطقة،

فاحتفظت بحق التصرف بأراضيها (فيضواحي بلدة معابض في الجزء الغربي من المنطقة الشرقية، على سبيل المثال). وفيما بعد، ونظراً لإمكانيات الكسب التي توافرت للناس، لم يعد البدو يرغبون في قطع مسافات كبيرة من أجل جني التمور، بل صاروا يفضلون تأجير بساتينهم.

صيد الأسماك والاقتصاد الرعوي المختلط

أهالي المناطق الساحلية من سقطرى يعيشون نمطاً اقتصادياً وثقافياً يختلف عن نمط حياة الرعاة الجبليين. صيد الأسماك هو العمل الأساسي لمعظم سكان هذه المناطق، وهو وسيلة إضافية للكسب بالنسبة للبعض منهم.

بين صيادي الأسماك «الخالصين» الذين يُعتبر الصيد الوسيلة الوحيدة لكسب القوت بالنسبة لهم (وهم أيضاً كان لديهم عدد غير كبير من المعز والأغنام) ثمة نسبة كبيرة لأبناء العبيد السابقين من الزنوج الأفارقة الذين يسمون بالمولدين (أو الموالي)، إلا أن القبائل السقطرية الأصيلة كانت تمارس هي الأخرى هذا العمل، على الرغم من ازدراء الرعاة لتلك الممارسات واستهانتهم بصيد الأسماك.

كان صيد الأسماك يجري أساساً، بقوارب خشبية بعضها مزود بمحركات، والقرش هو السمك الأكثر أهمية من هذه الناحية، وشرائحه المجففة تبقى محفوظة بضع سنوات، وتحظى بإقبال كبير في عموم اليمن وأقطار أفريقيا الشرقية والقرن الأفريقي. في الماضي البعيد كان معظم هذا المنتوج يسوّق في الصومال وأثيوبيا، أو تجري مبادلته فيهما بالقمح، وخلال فترة عملي في الجزيرة كان هذا المنتوج يباع أساساً داخل اليمن، وقد ظل الطلب عليه كبيراً، في حضرموت على الخصوص. والنوع المهم الآخر من الأسماك التي يتم صيدها بكميات تجارية الأسقمري الملوكي (ويسمى في اليمن سمك الديرك) الذي يؤكل مشوياً أو مجففاً عادة (راجع الفصل السادس). كما كان السقاطرة قبل عام 1967 يمارسون صيد اللؤلؤ، إلا أن هذه الممارسات توقفت فيما بعد وانقرضت تقريباً، بسبب حظر تسويق اللؤلؤ في اليمن الجنوبي بعد ذلك التاريخ.

كتب ج. براون في العام 1966 يقول إن سعر القرش المجفف في سقطرى يتوقف على حجم الشريحة، وثمن الشريحة لا يتجاوز ديناراً واحداً إذا كان طولها أقل من 45 سنتمتراً.

أما الشرائح الأطول فيتراوح ثمنها بين 1.25 دينارا إلى 15 ديناراً. سمك الديرك المجفف يباع بكميات أو وجبات من 100 شريحة بسعر 0.25 دينار للشريحة الواحدة. والشريحة في هذه الحالة ذات مقاس محدد تماماً، وهو حوط واحد، والحوط يعني هنا المسافة من الكتف اليسرى حتى أصابع اليد اليمنى الممدودة، أي حوالى متر واحد. أما الشرائح الأصغر فكانت تجمع معاً وتقاس بالمقياس نفسه. وعلى سبيل المثال تباع 55 شريحة طول الواحدة منها قرابة 60 سنتمتراً بمبلغ 5.7 ديناراً (Brown, 1966: 38).

في السبعينيات ظل مقياس تقدير طول شرائح الأسماك كما كان عليه، إلا أن العمل به توقف في الثمانينيات، كما ارتفعت أسعار السمك المجفف والمشوي إلى ثلاثة أضعاف تقريباً، وأسعار السمك الطازج إلى أكثر من ذلك. سمكة «ذئب البحر» أو «الفرخ» بوزن كيلوغرام ونصف أو كيلوغرامين كانت تباع في سوق حديبو بمبلغ 10 شلنات (الشلن= 0.05 دينار). سعر مشتريات الدولة من هذه الأسماك مقارب لهذا الرقم، أما الخبير الإنجليزي ج. براون فكان في منتصف الستينيات يشتري 5 كيلوغرامات تقريباً من سمك الديرك الثمين بمبلغ 3 شلنات لا غير.

انّذاك كان صياد السمك يكسب قوت يومه بشق الأنفس، وبموجب حسابات براون يؤمن الصياد لأسرته الكمية اللازمة من السمك للاستهلاك اليومي ويكسب إلى ذلك 40 - 50 ديناراً في السنة لا يبقى منها، بعد الصرف على المواد الغذائية الأخرى، سوى 5 . 15 ديناراً.

إلا أن أحوال صيادي السمك في السبعينيات والثمانينيات باتت أفضل بكثير، بفضل ازدياد الطلب على الأسماك بعد ظهور عدد كبير من الموظفين والمستخدمين اليمنيين في الجزيرة، وكذلك بفضل استخدام الصيادين لوسائط النقل وأدوات الصيد الحديثة، كالشباك الكبيرة والقوارب ذات المحركات. كما أن بعض الصيادين شكلوا انّذاك جمعيات تعاونية، إلا أن حصة الصيادين الانفراديين من محصول الأسماك كانت كبيرة، وكانوا يخرجون إلى البحر بفرق محدودة من أفراد عوائلهم. وظهر بينهم عدد من أصحاب القوارب الكبيرة المزودة بمحركات اشتروها في بلدان الخليج، وشكل هؤلاء الأغنياء مؤسسات لصيد الأسماك يعمل فيها صيادون مأجورون في الواقع، وواضح أن هذا النوع من الصيد الخاص يتطور اليوم بحرية وبدون قيود.

قبل عام 1967 كان الصيادون يستفيدون من أية فرصة توفر لهم كسباً إضافياً، فقد

كتب العالم الأثري بيتر شيني، عضو بعثة أوكسفورد إلى سقطرى عام 1956، أن أهالي قرية صغيرة لصيادي السمك في الساحل الشمالي (ولعله يقصد ديشص)، على مقربة من وادي أريوش، استضافوا الخبراء الإنجليز وقدموا لهم شاياً بماء مغلي شديد الملوحة وتمراً يجلبونه من الساحل الجنوبي من نوجد، لأنهم لا يغرسون النخيل، بل يشترون التمر بسعر شلن واحد للأوقيتين (900 غرام). ثم قدموا للضيوف ماءً عذباً مما يحمله إليهم البدو من الجبال ويبيعونه عليهم بدينار للبرميل. وطلب صاحب البيت من الضيوف ديناراً واحداً لقاء الضيافة، فيما دفعوا إلى الدليل الذي أوصلهم إلى المكان 5 شلنات، ما يعادل ربع دينار (Botting, 1958: 152).

ركوب البحر غير ممكن بالنسبة للصيادين إلا في موسم هدوء الرياح الذي يستمر قرابة ستة أشهر ويسمى فتاح، أما في باقي أيام السنة المسماة موسم القفل، فالرياح الشديدة تعيق صيد الأسماك.

خلال استطلاع الرأي الذي أجريناه في قرى الصيادين تحدثوا إلينا عن أوضاعهم ومشاغلهم، ونورد هنا أمثلة ذات دلالة من تلك اللقاءات:

«عين عين صاد» (50 عاما) من أهالي حديبو بالأصل، وهو من المولدين، نجار حالياً، يمارس صيد الأسماك في مواسمها (في السابق كان متفرغاً للصيد فقط)، لديه قارب هوري ويساعده أحد أبنائه.

«حاء عين عين» (30 عاماً) من أبناء قرية حلمي في نوجد، يقيم وحده في منزل والده المتوفى (والدته تزوجت للمرة الثانية)، صياد يعمل على قارب مستأجر، ولا يمتلك أدوات صيد خاصة به، كل عائداته تنفد طبعاً، ولا يمكن الادخار منها في مثل هذه الحالة.

«سين عين سين» (20 عاماً) من أبناء قرية حلمي، صياد متزوج ولديه بنت، والده مارس تربية الماشية وزراعة النخيل، إلا أن التركة وزعت على أخوته الستة وأختيه، ولذا اضطر «سين» على ممارسة صيد الأسماك.

«عين سين عين» (37 عاماً) من أبناء قرية حلمي استلم حصته من تركة أبيه (نخيلاً وثلاثة جمال وعدداً كبيراً من الأغنام)، فعاش مع أسرته على انفراد، واشترى قارباً وأخذ يمارس صيد الأسماك، يعتبر نفسه صياداً على أية حال.

«ياء سين عين» (20 عاماً) أخو «عين سين عين» لأبيه، يمتلك مع شقيقه بالرحم

قارباً يركبان به البحر سوية، ولديهما 25 نعجة وعدد من النخيل، ويعتبر نفسه صياداً وراعياً في الوقت نفسه.

«عين ميم خاء» (35 عاماً) من أبناء قرية بعيدهول في نوجد، يمارس صيد الأسماك مثل أجداده، ويمتلك قارباً بمحرك يعمل عليه مع ولديه، ويعيشون في بحبوحة.

«ميم غين ميم» (21 عاماً) من أهالي حديبو، صياد من المولدين يمتلك قارب هوري ويؤمن حاجة أسرته من عمله، وليس لديه موارد أو ممتلكات أخرى.

«ألف هاء ألف» (20 عاماً) من أبناء قرية زحق في نوجد، صياد متزوج، كان عضواً في التعاونية، ثم انسحب منها واقتنى، بالاشتراك مع ابن عمه، قارباً بمحرك يعملان عليه سوية، وساعده في دفع ثمن القارب أخوه الذي كان يعمل في الإمارات العربية المتحدة.

«ميم ثاء عين» (16 عاماً) من أهالي قلنسية، كان والده صياداً وعائلته فقيرة، وعندما توفي أبوه اضطر إلى العمل بأجرة نقدية عند أصحاب القوارب، ولم تكن أجرته تكفي لإعالة والدته.

«ميم دال زاي» (17 عاماً) من أبناء قرية سعلوتي على الساحل الشمالي، كان والده صياداً، وعاش بعد وفاته عند عمه الذي له ولدان ويمارس الصيد أيضاً (تزوجت والدته للمرة الثانية)، والآن يمارس الجميع صيد السمك.

«عين ميم عين» (16 عاما) من الساحل الشمالي، يمارس الصيد مع أبيه وأحد إخوته الأربعة، لديهم قارب هوري، وباقي إخوته يكسبون في العاصمة.

الأمثلة التي تناولناها أعلاه تشير إلى وجود فوارق في الأوضاع الاجتماعية والمالية للصيادين، فمن جهة اضطر على ممارسة الصيد رعاة أخفقوا في إعالة أسرهم من منتجاتهم الحيوانية وحدها، ومن جهة أخرى لم يكن الصيادون الذين لا يمتلكون قوارب ووسائل صيد حديثة قادرين على إعالة أسرهم على نحو مقبول، فكانوا مضطرين على البحث عن أسباب الرزق في مجالات أخرى.

كانت بعض القبائل الرعوية تمارس صيد الأسماك في موسمها، كما أسلفنا (الاقتصاد المختلط). وهذه الظاهرة منتشرة بخاصة في المنطقة الشرقية، ولذا يصعب في هذه الحالة التفريق بدقة بين الصيادين «الخالصين» و«الوقتيين». على الساحل الشمالي، قرب جبل عبلهن، زرنا بيوت الصيادين. الرعاة الذين يمارسون كلا نوعي النشاط بقدر واحد، ويحصلون منهما على عائدات متقاربة، أجداد هؤلاء الأشخاص كانوا رعاة

خالصين.

في الثمانينيات بدأت تتطور في سقطرى تجارة المفرق الفردية أو الخاصة، وكان يمارسها بالأساس أقرباء الأشخاص الذين غادروا الجزيرة للكسب في دول الخليج الغنية بالنفط. وهم على العموم من سكان المناطق الساحلية الذين كانوا في الماضي يمارسون صيد الأسماك، وأدى تطور تلك التجارة إلى تفكك جزئي في الاقتصاد السمكي. كان الأنفع للعاملين في الخارج أن يبعثوا إلى ذويهم وأقاربهم في سقطرى بضائع على مراكب السنبوق المستأجرة من أن يحولوا إليهم مبالغ نقدية عبر المصارف والبنوك.

وكان النظام الحاكم في اليمن الجنوبي آنذاك يواجه صعوبات في توفير السلع الضرورية للجزيرة، فقدم بعض التسهيلات للتجار الخاصين، لكنه منع عليهم رفع الأسعار إلى أعلى من المستوى الذي تحدده اللجنة المختصة. كما حصل تفكك في الاقتصاد السمكي من خلال انتقال قسم كبير من السكان إلى الميادين الاقتصادية الأكثر مردوداً، فالصيادون السابقون باتوا حمالين أو عمال بناء ... إلخ.

ويمكن أن ندرج في مجموعة الرعاة الذين كانوا يمارسون النشاط الاقتصادي المختلط بضع مجموعات فرعية تضم السكان الذين يجمعون بين الرعي وبين نوع آخر من الأعمال كصيد الأسماك أو الزراعة وما إلى ذلك. الأمر الذي يتسم بأهمية اقتصادية كبيرة بالنسبة لهم كمصدر لتوفير المواد الغذائية أو العائدات المالية الإضافية. ولا ينبغي أن نعتبر زراعة النخيل من تلك الأعمال، ذلك لأن جميع الرعاة كانوا ولا يزالون يمارسون تلك الزراعة المخصصة بالكامل لتلبية احتياجاتهم، ولا يباع فائض التمور في السوق إلا في حالات نادرة للغاية.

يشكل أهالي السهل الساحلي الشمالي الذي تقع فيه حديبو، عاصمة سقطرى أو مركز المحافظة، إحدى أكبر تلك المجاميع السكانية الفرعية، وهنالك عدد أقل بكثير من الناس يقيمون في السهل الساحلي الجنوبي، وهو سهل نوجد الرملي.

والسهلان المذكوران هما أقل المناطق الطبيعية المناخية في سقطرى صلاحاً لرعي الماشية، فالمراعي فيهما قليلة، والكساء النباتي ممزق، والمياه الجوفية عميقة، ولا توجد إلا في السهل الساحلي الشمالي بقاع مكسوة بشجيرات الميطين والشيقوف. كما تتقاطع مع هذا المشهد منطقة حديبو التي ترويها مياه وافرة تسيل من جبال حجهر.

ورغم ذلك مارس أهالي السهل الساحلي الشمالي أيضاً الرعي، وكانوا يربون الماعز

بالأساس، أما الأبقار فنادراً ما يصادفها المرء في منطقة حديبو وفي قرى هذا السهل وكذلك المرتفعات الواقعة جنوبيه. إلا أنها موجودة اليوم أيضاً في حوزة أبناء السادة البكريين من أهالي كدحة (في الجزء الداخلي من السهل، ليس بعيدا عن العاصمة). وقد أبلغنا المشارك رقم 267 في استطلاع الرأي من كدحة، على سبيل المثال، أنه يمتلك 10 أبقار وجملاً واحداً وبضع عشرات من المعز والأغنام (علماً أن قبيلة أبي بكر كانت تمارس الزراعة، وخصوصاً غرس التبغ والخضروات في قطع غير كبيرة من الأرض قرب المنازل). كما صادفنا بيوتات غنية وموسرة في قرية عدونة جنوبي حديبو، في الجزء الداخلي أيضاً من السهل الساحلي الشمالي. فقد أفاد المشارك رقم 73 أنه يمتلك 5 أبقار و 5 جمال وحماراً واحداً وعشرات من الماعز والأغنام.

ونادراً ما صادفنا الأبقار في قرى الصيادين في السهل الساحلي الشمالي، على مقربة مباشرة من الشواطئ، ففي قرية السوق التي كانت الأغلبية المطلقة من سكانها آنذاك من أبناء الصيادين المتحدرين من أفريقيا الشرقية الذين لم يكونوا في السابق يتمتعون عموماً بحق ملكية الأرض والانتفاع بالمراعي لم نجد إلا في بيت واحد بقرة و 15 من المعز. أما باقي بيوت القرية فليس فيها سوى بضع معزات. وفي حديبو وفي قرية قاضب على الساحل الشمالي، كانت عوائل معدودات تمتلك أبقاراً، إلا أن لبعض العوائل عدداً كبيراً من الماعز.

وقد وجدنا في ثمانية بيوتات، اخترناها لا على التعيين من مختلف الشرائح الاجتماعية في حديبو، ما يلي: 1- 120 رأساً من الماشية (معظمها من الماعز) و 20 نخلة. 2 - 60 رأساً وبضع نخيل. 3 - 20 رأساً و 10 نخلات. 4- 10 رؤوس وأكثر من 100 نخلة. 5 -10 رؤوس وقرابة 100 نخلة. 6 -10 رؤوس و 20 نخلة. 7 -400 نخلة بلا ماشية. -8 بلا ماشية ولا نخيل (شكل رقم 5 - 13 - 5 - 14).

كما اخترنا بالطريقة نفسها ثمانية بيوتات في قاضب، فوجدنا فيها ما يلي: 1 -50 رأساً من الماشية وقرابة 100 نخلة. 2 -50 رأساً، بلا نخيل. 3 -30 رأساً و 100 نخلة. 4-10 رؤوس وقرابة 10 نخلات. 5- 10 رؤوس وقرابة 60 نخلة. 6 -10 رؤوس و 10 نخلات. 5-7 رؤوس وقرابة 60 نخلة. 8– قرابة 20 نخلة، وبلا ماشية.

معظم أهالي قاضب، ومهنتهم الأساسية هي صيد الأسماك، يمتلكون معزاً يرعونها في الشتاء قرب القرية، وفي الصيف حيث يتعذر ركوب البحر، يرتحلون إلى المراعي الجبلية الواقعة جنوبي السهل الساحلي الشمالي.

وعندما واصلنا السير غرباً في السهل، تمكنا من تحديد المنطقة التي تربى فيها الأبقار والإبل، وبعدها تأتي منطقة ليس فيها سوى الماعز والأغنام، وآخر موضع شاهدنا فيه الأبقار هو قرية عبلهن، حيث وجدنا في أحد البيوت (المشارك رقم 15 في استطلاع الرأي) 3 أبقار ونحو 50 معزاة ونعجة، وقرابة 10 نخلات.

أهالي السهل الساحلي الشمالي يجمعون بين تربية الماشية وغرس النخيل وبين صيد الأسماك وزراعة الخضروات (الطماطم والبصل والفلفل الحار والقرع بالأساس) والتبغ (كما في قرية كدحة مثلاً) ويمارسون بعض الحرف والصنائع (صناعة الفخار وإعداد النورة)، كما كان تأجير دواب الحمل مصدراً إضافياً للكسب



(شكل رقم 5 ـ 13)

ونظراً لتطور الجزيرة الملحوظ نوعا ما والذي بدأ منذ السبعينيات اقتضت الحاجة استخدام الأيدي العاملة، وخصوصاً عمال البناء، ولذا استفاد الكثيرون من الرعاة من هذه الفرصة، فأخذوا يمارسون الأعمال الموسمية بصفة حجارين وحمالين وما إلى ذلك.

في الشريط الرملي من سهل نوجد نصادف واحات صغيرة معشوشبة تقضم الماعز والأغنام حشائشها، وكذلك الإبل التي يربونها هنا وتلتهم حتى النباتات والشجيرات المالحة. وفي الجزء الشرقي من نوجد توجد طبقة من المياه الجوفية القريبة نسبياً من

السطح. وللأهالي هناك آبار ماؤها عذب تماماً، يساعد في زرع البطيخ الأحمر الرائع على التربة الرملية. كان هذا البطيخ ولا يزال يزرع بكميات قليلة لأغراض البيع فقط، ويشكل مورداً إضافياً للدخل، ويبلغ وزن البطيخة الواحدة 25 كيلوغراما، وكان سعر الكيلوغرام



(شكل رقم 5 ـ 14)

في منتصف الثمانينات قرابة الشلن.

وتوجد قاعدة أفضل للكلأ وعلف الماشية في الجزء الصخري من السهل، وهو يقع بعد الجزء الرملي من نوجد ويتحول إلى مرتفعات تشكل السفوح الجنوبية للجبل الغربي. اقتصاد هذه المنطقة مختلط كما في نوجد، إلا أن الرعي هو الغالب فيه، وصيد السمك يعتبر عملاً ثانوياً، وذلك خلافاً لغلبة الصيد في نوجد.

في منتصف الثمانينيات قمتُ بدراسة أحد عشر بيتاً في قرية قعرة، فوجدت في أحدها ثلاثة جمال، واعتبرتُ ذلك مؤشراً على تقارب القرية مع نوجد واختلافها عن المنطقة الغربية، ويمكن قول الشيء ذاته عن كثرة المعز في قعرة. والفوارق بين البيوتات أو الاستثمارات ليست كبيرة، ففيها جميعا ما بين 70 إلى 130 رأساً من المواشي، ولم أجد لدى سبع عوائل نخيلاً، بينما تمتلك العوائل الأربع الباقية قليلاً من النخيل. قطعان سبع عوائل تتكون من الماعز فقط، فيما تتكون في الأربع الباقية من الماعز والأغنام، لكن الأكثرية من الماعز.

في نوجد، كما في سائر مناطق الاقتصاد المختلط، لا يوجد حظر على مشاركة النساء في حلب الماشية، كما هو الحال عند جبليي المنطقتين الوسطى والغربية، فالمرأة هنا ترعى وتحلب الماعز أيضاً، وليس النعاج وحدها. أما الرجل فيمارس النسيج والغزل والضفر، بل ويؤدي أحياناً بعض الواجبات التي يعتبرها الجبليون نسوية صرفاً مثل طهي الطعام وجلب الماء، أما الحطب فيجمعه الرجال والنساء على حد سواء. والرجال وحدهم يعتنون بالنخيل هنا، كما في كل مكان، ويعود ذلك إلى خصوصية تلك العناية التي تتطلب جهداً وشطارة في تسلق الجذوع.

كان سهل نوجد يتميز بالجمع بين الرعي وزراعة النخيل (وإمكان تكاثر الإبل بفضل العلف المتوافر) وبين صيد الأسماك وبساتين القرعيات. ومن مصادر رفاه العوائل في تلك السنين الأعمال الموسمية، ومنها العائدات الجيدة لقلع أحجار البناء ونقلها في المنطقة الساحلية الشمالية.

كما يتميز الجزء الأكبر من المنطقة الشرقية (ما عدا الرعاة «الخالصين» الذين يشكلون الأقلية) بالجمع بين الرعي وصيد الأسماك الموسمي. ويشكل الأهالي هنا مجموعة فرعية أخرى ضمن مجموعة الاقتصاد المختلط موضوع البحث.

ولقد تغير الموقف كثيراً في منطقة الاقتصاد المختلط منذ الفترة التي مرت على زيارة

براون. فبعض الأشغال انقرضت، فيما انتشر بعضها الآخر على نطاق أوسع أو بات أكثر ريعاً وربحية، وللمقارنة بين الحالتين نعود من جديد إلى ما كتبه براون بهذا الخصوص:

«الى جانب فئتي الرعاة الخالصين هنالك الكثير من الأهالي الذين يمارسون الاقتصاد المختلط، بمعنى أنهم يجنون التمور ويصطادون السمك وما إلى ذلك، وفي بعض الحالات يكسبون المال بتأجير جمال الأحمال. وفي الأماكن التي تجعل فيها موارد المياه الدائمية عملية الري والسقي سهلة تمارس بعض البيوتات كذلك زراعة الذرة السكرية. وتنتشر الاستثمارات المختلطة في جميع التلال والمرتفعات الساحلية وفي الهضبة الشرقية وفي السهل الساحلي الجنوبي وفي محيط سفوح جبال حجهر. قرابة ثلثي البدو يعيشون على هذا الاقتصاد بشكل أو بآخر. ولعل من أبسط أشكاله البدائية الممارسات المتبعة في قلنسية لمبادلة حزم الحطب المحمولة على الرأس بمنتجات ثانوية كرؤوس الأسماك وذيولها وما إلى ذلك. وينتهي مجال هذا الاقتصاد عند حمهر في منطقة الهضبة الشرقية. فلدى الأهالي هنا أماكن ممتازة لرعي الأغنام، ونبع دائم يسقي الأراضي المغروسة، بل حتى بعض الأبقار، والإبل الجيدة، والمراعي المعشوشبة على السفوح السفلى، وبعض النخيل في الوادي، وقوارب على الساحل.

وهم يعتبرون من البدو الموسرين في سقطرى، وهناك تدرج كبير فيما بينهم، فالرعاة من الهضبة الشرقية يمتلكون قوارب صيد في رأس مومي ويهبطون من الصخور والتضاريس الجبلية لكي يعملوا عليها (ولكي يجلبوا ماء الشرب لأنفسهم، فيما تروي أغنامهم عطشها من الطل والندى بالأساس). أكبر بساتين النخيل في منطقة قعرة (السهل الساحلي الجنوبي) تشغل قرابة 73 هكتاراً، وهي في عائدية القبائل، ما عدا زهاء مائتي نخلة عائدة للسلطان عيسى. أما في موقع قرية على الساحل الشمالي فكل النخيل تقريباً ملكاً لعبد الله شقيق السلطان. الناس تعتني بتلك النخيل على أساس المحاصصة وتوزيع المحصول ثلثين لعبد الله وثلثاً للفلاحين. ويقوم هؤلاء الأشخاص بصيد كميات معتبرة من الأسماك، إلا أنهم فقراء بسبب قلة مراعيهم. وفي ستيرة وزحق في السهل الساحلي الجنوبي توجد مراعٍ جيدة للإبل وظروف ملائمة لصيد الأسماك، ولكن النخيل لا تنمو هناك. أهالي قيسوٍ (على مقربة من قلنسية في المنطقة الغربية - المؤلف) يرعون الأغنام في الجبال ويمتلكون بساتين نخيل ترويها مياه العيون، لكنهم لا يمارسون صيد الأسماك» (Brown, 1966: 18).

في فترة وصولي إلى سقطرى لم تعد هناك ملكية للسلطان، ولا أحد يبادل حزمة الحطب برأس سمكة، إلا أن مناطق انتشار الاقتصاد المختلط ظلت على حالها.

وقد تسبب انصراف السكان إلى الأعمال الموسمية، بحثاً عن مصادر لدخل إضافي، في تغيرات طرأت على العلاقات الإجتماعية، من خلال اتساع استخدام الأيدي العاملة المأجورة مثلاً. وهذا ما لاحظناه خصوصاً في المنطقة الغربية التي كانت الأعمال الموسمية فيها متركزة في الأماكن القريبة من قلنسية، حيث يهبط الرعاة الجبليون من مواقعهم إلى الساحل ليمارسوا صيد الأسماك.

وعندما يترك الراعي قطيعه ليمارس العمل الموسمي في قلنسية، يكلف وكيلاً يتولى أمر العناية بمعزه وأغنامه، ويدفع له أجرته عيناً بحساب الماشية ومنتجاتها، أو نقداً. فقد أبلغنا «ألف عين ميم» (35 عاماً) المقيم في قلنسية، وهو من قبيلة ألساس، ومن مواليد قرية شيتي دي ألساس في السفوح القريبة من المدينة، أن والده كان راعياً «متفرغاً لتربية الماشية»، إلا أن الحاجة دفعته إلى ممارسة صيد الأسماك. وقد تعلم صيدها «على أيدي أناس غرباء»، كما يقول الابن. وخلّف الأب لابنه قطيعاً من الغنم، ولديه قارب لا يستخدمه في صيد السمك إلا في الموسم الذي لا تهب فيه الرياح ويمكن ركوب البحر. وفي حال غيابه خلال الموسم المذكور يكلف وكيلاً يرعى أغنامه ويحلبها، وهو يعطي الوكيل في مقابل ذلك نعاجاً في بعض الأحيان، ونقوداً في بعضها الآخر.

الاقتصاد المختلط يوفر للقبائل إمكانية الصمود في وجه العواقب الوخيمة المترتبة على الكوارث الطبيعية، كالقحط والجفاف والعواصف العاتية وأوبئة الدواب التي تفتك بالماشية وما إلى ذلك. كما أن هذا الاقتصاد يحسن وينوع التغذية (منتجات اللحوم والألبان والأسماك والمحاصيل الزراعية). والرأي السائد أن سبب وجود الاقتصاد المختلط يعود إلى كون كثافة سكان المنطقة التي ينتشر فيها أكثر من كثافة سكان المناطق الرعوية الصرف. وهذا أمر طبيعي ومنطقي تماماً، لأن كثافة سكان المناطق الرعوية تتوقف على التناسب بين مساحة المراعي وعدد رؤوس الماشية.

وإذا اشتدت الضغوط على تلك المناطق يحصل نزوح منها أو يتقلص عدد سكانها بسبب المجاعة والأوبئة وما إلى ذلك، ولذا عندما يقول براون «إن وجود الاقتصاد المختلط يتوقف على وجود عدد من السكان في جميع هذه المناطق أكثر مما في الجبل الغربي، على الرغم من قلة القطعان» إنما يتصور أن عدد الماشية في هذه الحالة يجب أن يكون أكبر،

وهو ليس على حق في هذا الرأي، فعدد الماشية هناك بالذات ينبغي أن يكون أقل بحكم منطق الاقتصاد المختلط.

تفيد حسابات براون أن كثافة السكان في المنطقة الواقعة جنوبي خليج قرية (الجزء الشرقي من الساحل الشمالي التابع للمنطقة الشرقية) أكثر بنحو 11 مرة مما في الجبل الغربي، على الرغم من أن التضاريس متماثلة تقريباً ولا يعوز تلك المنطقة سوى مسالك الأغنام الجبلية المتوافرة في هذا الأخير. أما في السهل الساحلي الجنوبي فالكثافة السكانية أكثر بـ 6 مرات، وفي الهضبة الشرقية أكثر بـ 8 مرات مما في الجبل الغربي، على الرغم من أن الهضبة الشرقية شبيهة بجبال المنطقة الغربية. وبخصوص المقارنة الأخيرة يفترض براون أن سبب الفوارق التي سجلها يعود إلى كون منطقة الهضبة الشرقية بكاملها تقريباً تمثل مراعي مرتفعة للأغنام على عكس الجبل الغربي الذي تشغل مراعيه العلوية لا أكثر من سدس الأراضي، فيما تلعب «مصادر العيش البديلة» هناك دوراً ثانوياً. «إلا أن أهمية تلك المصادر تزداد أكثر فأكثر، ذلك أن إمكان تركز عدد كبير من السكان في تلك البقاع أدى إلى ازدياد عدد رؤوس الماشية، وتعرضت المنطقة كلها إلى استنزاف كبير سببه الإفراط في الرعي، وهي حالياً في سبيلها إلى التشوه التام. علماً أن الإفراط في الرعي سمة مشتركة تلازم مناطق الاقتصاد المختلط، مما يدفع الناس إلى البحث الدؤوب عن أسباب ووسائل أخرى للعيش، ما دام الوضع باقياً على حاله» (Brown, 1966: 19).

ولعل من باب أولى وأصح أن نسمي الإفراط في الرعي سبباً وليس سمة لنشوء الاقتصاد أو الاستثمار المختلط، لأن القبائل الرعوية لجأت إلى البحث عن «مصادر العيش البديلة» بسبب استنزاف المراعي ونتيجة لذلك الاستنزاف.

خلاصة واستنتاجات

نتساءل في الأخير من هم بدو سقطرى ورعاتها وأي توصيف يمكن أن نعطيه لنمط معيشتهم وحياتهم عموماً؟

لقد وقع باحثون كثيرون في خطأ عندما تصوروا بأن نمط حياة السقاطرة «مستورد» أو مقتبس من الجزء القاري من اليمن، طالما أنهم كانوا، في زمن ما، من بدو الجنوب العربي الوافدين إلى الجزيرة. فهذا الرأي ينطوي على تجاهل لأصالة نمط معيشة

القبائل السقطرية الذي نشأ طوال القرون في ظروف فريدة تختلف عن الظروف الطبيعية والمناخية في جنوب الجزيرة العربية. بديهي أننا لا ننكر نزوح جماعات قبلية كبيرة من المناطق القارية (من المهرة أساساً). إلا أن المسميات المهرية لبعض القبائل السقطرية تعود في الغالب إلى جد مهري واحد اختلط أبناؤه وأحفاده بالقبائل الأخرى المقيمة أصلاً في سقطرى.

أما الموجة الأولى من النازحين إلى الجزيرة فنحن لا نعرف على وجه التحديد من أين جاؤوا، ومتى وصلوا، وما هي مواصفاتهم من حيث الكم والنوع؟ تقول إحدى الروايات، كما أسلفنا، إن ما أرغم السقاطرة الأصليين على ممارسة الرعي، بعدما كانوا يمارسون العناية بأشجار اللبان، هو فرارهم إلى الجبال تخلصاً من مضايقات الغزاة. إلا أننا لا نمتلك أدلة قاطعة على أن تجارة البخور كانت تشكل تحديداً المصدر الرئيسي للكسب بالنسبة للمهاجرين الأوائل من اليابسة إلى الجزيرة.

ومهما يكن من أمر، فإن نمط حياة السقاطرة يتسم بأصالة تتجلى بمنتهى الوضوح في الجمع المميز جداً بين سمات وخصائص معيشة الحضر والبداوة. والحقيقة ما كان بوسع بدو سقطرى أن يمثلوا، في هذه الجزيرة الصغيرة نسبياً وفي تلك الظروف المختلفة كثيراً عن البوادي والصحارى العربية، بدواً رحلاً بكل معنى الكلمة.

وفيما يخص بداوة السقطريين وحياتهم الرعوية كان الخبير الإنجليزي ج. براون على حق عندما قال في منتصف الستينيات: إن عدد رؤوس الأبقار في سقطرى ما كان ليزداد في ظروف المراعي الطبيعية وحدها من دون مجهود إضافي، وبالفعل لم تحصل زيادة كهذه. كما كان براون على حق أيضاً عندما أكد أن أعداد الماشية عموماً قليلة في الجزيرة، فللرأس الواحد ما يعادل قرابة 8 هكتارات من الأراضي، وهذا كثير جداً بالطبع (في مراعي الإغنام 4.2 هكتار بالمعدل، وفي شرق الجزيرة أقل من 6.1 هكتار). إلا أن المعزاة هي الدابة الوحيدة ذات المردود الاقتصادي من حيث الإجهاد الذي تسببه للطبيعة، ولذا كان بالإمكان تشجيع تكاثرها في سقطرى، وهذا ما حصل بالفعل كما رأينا.

ومن بين السمات المهمة التي تميز الرعاة السقطريين عن القبائل البدوية الأخرى في الجزء القاري من اليمن أنهم يربون الجمال لاستخدامها للنقل فقط، فيما تستخدم هذه الدابة لشتى الأغراض في كل الأماكن التي تنتشر فيها تقاليد تربية الإبل، كالمملكة العربية السعودية وسلطنة عمان والإمارات وغيرها.

نحن نترك مسألة أصل الرعي في سقطرى مفتوحة، ونشدد فقط على الرأي القائل إن السقاطرة يمارسونه من زمن طويل، الأمر الذي يشير إليه الفولكلور القديم الملازم للمجتمعات الرعوية، بالإضافة إلى العادات والتقاليد الشعبية المميزة، ودفن المعز والأغنام جنب الموتى أو معهم (وهو تقليد يعود إلى عصر الجاهلية)، والثقافة الرعوية الصرف في معظم أراضي الجزيرة.

وفي الحقيقة، حتى الزراعة كانت متطورة هنا في زمن ما، وقد صادفنا في مختلف الأماكن آثار ومخلفات مزارع اللبان والصبر وغيرها، ويبدو أن الجزيرة شهدت في تلك الأزمان ازدهاراً كبيراً وشاركت في التجارة الدولية بهمة ونشاط. إلا أننا نستبعد، انطلاقاً من الظروف الطبيعية، أن يكون السقاطرة قد مارسوا زراعة الحبوب في زمن ما، هذا الموضوع نتركه إلى مجال آخر، ما دمنا نتناول هنا مسألة الاقتصاد الرعوي، فما هي الحالة التي كان عليها هذا الاقتصاد في الماضي؟

نعود مرة أخرى إلى الخبير الإنجليزي ج. براون الذي كتب في منتصف الستينيات يقول بحق: «ثمة أدلة مقنعة على أن الجزيرة كانت في زمن ما مأهولة بسكان أكبر عدداً، وأكثر شطارة، وتحت إدارة أفضل من الآن. فالكثير من وديان حجهر الخضراء عبارة عن شبكات من الحقول المدرجة والمخصصة للري على الأكثر، ونلاحظ في الوديان الأخرى بقايا شبكات إروائية مماثلة. وفي كل مكان من الجزيرة أنقاض دور كثيرة ومساكن مهجورة... وتخترق الهضاب والمنخفضات خطوط فاصلة مرصوفة من الأحجار القديمة على امتداد مئات الأميال، كانت في زمن ما حدوداً بين المقاطعات الزراعية والمستوطنات السكنية. وتكتشف في الجزيرة مخلفات وآثار سدود قديمة سمك جدرانها يناهز 40 قدماً (قرابة 12 متراً)، وهذه الآثار مرئية من فوق وبكل وضوح، حتى بين النتوءات الجرانيتية قرب غبة شُعب» (Ibid., p. 9).

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن عدد سكان سقطرى كان يتقلص بين فترة وأخرى نتيجة الجفاف وهلاك الماشية والأوبئة والأمراض، إلا أنه كان يعود كل مرة إلى مستواه السابق أو إلى مستوى قريب منه. غير أن كثافة السكان في الجزيرة ظلت لأمد طويل على مستوى ساعدهم في البقاء دون أن يتسببوا في إرهاق الطبيعة والبيئة التي يعيشون فيها. فإن محدودية الموارد الطبيعية وتخلف الاقتصاد السقطري وطابعه العيني وغياب العلاقات والصلات الاقتصادية الخارجية بالكامل تقريباً (وخصوصاً لدى سكان المناطق الداخلية)

- كل ذلك أدى إلى جعل العوامل الإيكولوجية تلعب دوراً معيناً في حياة السقاطرة في الماضي غير البعيد. وبعبارة أخرى، لو كان عدد السكان قد تجاوز المستوى المعهود لسبَّبَ أزمة اقتصادية، ثم إن عدد الحيوانات الأليفة يتناسب مع إمكانيات توفير العلف لها.

وإذا أردنا أن نقدم توصيفاً للرعاة السقطريين على العموم لابد أن نقول إن بعضهم ينتمون، من حيث الطراز ونمط المعيشة، إلى رعاة البوادي في حزام المناطق الحارة وتتكون قطعانهم بمعظمها من المعز والأغنام، فيما ينتمي البعض الآخر، ممن يربون الأبقار، إلى رعاة المناطق الجبلية والمناطق المتاخمة لها. نمط حياتهم الأكثر قرباً من باقي الرعاة إلى حياة الحضر، لا يعود إلى كثرة ممارستهم الزراعة (بالعكس، غرس النخيل هنا يتوقف على الحراك أو النزوح الموسمي للسكان)، وإنما يعود في المقام الأول إلى خصوصية ظروف البيئة التي يعيشون فيها. درجات النزوح متباينة، بدءاً من الصفر، أي الإقامة المتواصلة، وصولاً إلى النزوح المصحوب بإقامة وقتية (الانتقال العمودي في الغالب، من الجبال إلى الوديان وبالعكس، مع اقتياد القطعان إلى المراعي الصيفية)، وانتهاءاً بالترحل المتواصل مع إقامة وقتية (بحثاً عن العلف في سنوات الجفاف). ويلاحظ نزوح سكان المنطقة جميعهم، وكذلك نزوح الرجال فقط منها، أي النزوح الموسمي لجزء معين من السكان، فيما تقيم الأكثرية بشكل متواصل في الحواضر طول العام، علماً أن الاستثمار الرعوي يجري بالطرق التقليدية ذات التوجهات الاجتماعية القبلية.

وبسبب انتشار الأساليب التقليدية للاستثمار الاقتصادي يعاني الرعاة السقطريون أشد المعاناة من العواقب الفتاكة لتقلبات المناخ، وخصوصاً الجفاف الذي يداهمهم بين فترة وأخرى. وقد حصل في بعض المناطق إفراط شديد في الرعي واستنزاف الكلأ حتى تشوهت المراعي وحلت الشوكيات محل الإعشاب الريّانة.

وحتى تسعينيات القرن العشرين ظلت اقتصاديات الرعاة في سقطرى تتسم بطابع عيني أو أقرب إلى الطابع العيني، ولا تزال بعض أبعاد هذا الاتجاه قائمة حتى اليوم. أما في الفترة التي سبقت عام 1967 فقد كانت الاقتصاديات والاستثمارات عينية بالمطلق، وليس لها أية توجهات بضاعية وتجارية، إذ كان هدفها الأول والأخير هو تلبية احتياجات الرعاة أنفسهم وتوفير الأطعمة لعوائلهم والخامات لصنع الأدوات الضرورية في حدها الأدنى.

آنذاك قدّر براون مردود البقرة الواحدة في سقطرى بـ 1365 كيلوغراماً (لتراً) من اللبن في العام، يبقى لأصحابها منه 682 كيلوغراماً، ومن هذه الكمية من اللبن الممتاز

يمكن إعداد زهاء 34 كيلوغراماً من السمن، وإذا أخذنا بالاعتبار أسعار ذاك الزمان نرى أن الرعاة كانوا يستلمون قرابة 9 دنانير مقابل 25 كيلوغراماً من سمن البقرة الواحدة حداً أقصى. وإذا أضفنا إلى هذا المبلغ ثمن بيع العجول نحصل بمعدل 10 دنانير للبقرة سنوياً (Brown, 1966:15).

كان ذلك في أواسط الستينيات، أما في الثمانينيات فقد بقي السمن المنتوج الحيواني البضاعي الرئيسي، إلا أن سعره ارتفع عدة مرات، وبات بوسع الرعاة السقطريين أن يستلموا ما لا يقل عن 25 ديناراً للسمن أو قرابة 30 ديناراً من منتوج البقرة الواحدة في العام، مقابل الـ 10 دنانير في الستينيات. وفي الوقت ذاته ازدادت احتياجات الناس، وتكاثر أفراد العوائل، في حين ظل متوسط عدد رؤوس الماشية التي في حوزة العائلة الواحدة دون زيادة، بل لعله صار يميل إلى النقصان. وارتفعت أسعار السلع التي بات السقاطرة بحاجة ماسة إليها، فسعر الفستان أو الثوب النسائي التقليدي، على سبيل المثال، بلغ 5.17 ديناراً في أقل تقدير (فلنقارنه بمردود البقرة السنوي!).

واتسع كثيراً استخدام جلود الأغنام والمعز في صنع القرب و«دلاء» الآبار، على الرغم من أن علب وأوعية البلاستيك والصفيح أخذت تنافسها من ذلك الحين.

في العام 1966 ورد القليل من اللحوم إلى السوق، ولم يصله شيء من الألبان، حسب شهادة براون، وفي السبعينيات والثمانينيات لم يتغير الموقف من هذه الناحية، كما لاحظتُ شخصياً، ما عدا الارتفاع الكبير في أسعار الماشية نتيجة ازدياد الطلب كثيراً على اللحوم بعد أن ظهر في سقطرى موظفون ومستخدمون من حضرموت وباقي أرجاء اليمن. كانت الماشية تباع في سنوات الجفاف لنحرها بالأساس. فهي، على أية حال، تتعرض للهلاك في تلك الظروف، ولهذا السبب تنخفض أسعار اللحوم بعض الشيء، لكنني لم أصادف حتى في سنوات الجفاف أن بيعت الماعزة بأقل من 5.7 دنانير.

وقد ظل السمن في الواقع البضاعة التجارية الوحيدة بين المنتجات الحيوانية للاقتصاد الرعوي في سقطرى. كما كانت لجلود البقر قيمة تجارية نوعاً ما، فعلى الرغم من صغر حجم الأبقار السقطرية إلا أن جلودها تنتزع وتدبغ بمهارة. وكانت في زمن براون تباع بأبخس الأثمان ـ 5.4 شلنات، أي أقل من ربع دينار، لجلد البقرة. وما كان بإمكان المرء في تلك الحقبة أن يجد في السوق كله أكثر من 150 جلداً مدبوغاً (Ibid., p. 15). أما في فترة تجوالي في ربوع الجزيرة فقد ارتفع سعر الجلود المدبوغة 8 . 10 مرات. السقاطرة

أنفسهم يستعملون جلد البقر غير المدبوغ بمثابة بساط أو حصيرة أحياناً. إلا أن الجلود المدبوغة هي التي تستخدم بالأساس، فمنها يصنعون عدة حاجيات، حتى وسيلة تسلق جذوع النخيل، بعد أن يفتلوا الجلد ويضفروه بالشكل المطلوب (راجع الفصل السادس).

وكانت الأنسجة من صوف الأغنام وشعر المعز التي تسمى بالسقطرية حلهل وبالعربية شملة أحد أنواع المصنوعات البضاعية أو التجارية لدى الرعاة. في الثمانينيات تقلص صنعها لأن أسعارها في السوق غير مجزية، والطلب عليها محدود، في حين يتطلب نسجها جهداً كبيراً. في تلك الحقبة كان سعر الشملة يتراوح بين 5.1 و 5.7 دنانير (السعر الأخير مقابل الشملة البيضاء السميكة المزينة بخيوط ملونة، وهي الأجود). نسج الشملة الواحدة يتطلب ثمانية أيام في أقل تقدير. صحيح أن أسعار هذه المنسوجات ازدادت في الثمانينيات كثيراً بالمقارنة مع أسعار منتصف الستينيات، حيث كانت تباع آنذاك بسعر 45.0 . 9.0 دينار. إلا أنها اليوم تباع في سقطرى بثمن يعتبر زهيداً (حوالى 3 آلاف ريال، أي ما يقارب 15 دولاراً).

كانت العائلة العادية في جبال حجهر في منتصف الستينيات تمتلك بالمتوسط قرابة 32 هكتاراً من الأرض، تشغل المراعي أكثر من 22 هكتاراً منها، وليس في تلك المراعي سوى عشر أبقار مع ثور واحد. خمس بقرات من العشر حلوب لديها عجول، وكل منها تعود على صاحبها بـ 10 دنانير سنوياً، بمعنى أن إجمالي عائداتها 50 ديناراً، وبعبارة أخرى تبلغ ريعية الأرض 3.2 دينار للهكتار الواحد. (صاحب الأرض ما كان يعرف هذه الحقيقة، وما كان يعرف على وجه التحديد حتى كمية اللبن التي تدرها البقرة الواحدة).

تضم مثل هذه العوائل ستة أفراد في العادة، ولو اقتاتوا على منتجات بقرتين فقط من الخمس الحلوب على مدار تسعة أشهر لوفروا، بموجب حسابات ج. براون، 30 ديناراً. وفي الأشهر الثلاثة المتبقية من السنة يحتاجون إلى 8.1 كيلوغراماً من الحبوب يومياً، أي ما قيمته 18 ديناراً للفترة المذكورة. وما يتبقى في المحصلة الأخيرة هو 12 ديناراً لا غير. «إنها حلقة مفرغة تقريباً». يقول براون ويواصل: «إذا أضفنا إلى ذلك شراء بطانية أو قطعة قماش لخياطة ثوب وقليل من الشاي والسكر تنغلق تلك الحلقة نهائياً. الفائض القليل الذي يمكن ادخاره في غضون عام، وقد يكفي لشراء حلية فضية، تلتهمه السنوات العجاف، ولذا فالبدوي في حجهر، عندما يمارس تربية الأبقار وحدها، إنما يسد رمقه لا أكثر» (.Ibid).

أما في منتصف الثمانينيات فقد استنتجنا أثناء عملنا في الجزيرة بأن مثل هذه العائلة يمكن أن تكسب 150 ديناراً في السنة، نظراً لارتفاع أسعار المنتجات الحيوانية، إلا أن العوائل باتت أكبر من السابق، ففي العائلة الواحدة بالمتوسط، ما بين ثمانية إلى عشرة أفراد، وليس ستة، كما كان الحال في عهد براون، وإضافة إلى ذلك ارتفعت أسعار المواد الغذائية الأخرى، وتبدلت طبيعة احتياجات الرعاة، ولذا ظل الاستهلاك يبتلع فائض العائدات.

إلا أن أفراد عوائل حجهر أنفسهم الذين يتحدث عنهم براون يربون أيضاً الماعز (وعدداً أقل من الأغنام التي رأيناها نحن، وربما بدأ الناس يربونها هناك منذ السبعينيات، ذلك لأن براون قال في الستينيات إن الأغنام لا تربى في حجهر). إدرار المعزاة الواحدة قرابة 2.1 كيلوغرام (لتر) من اللبن في اليوم بالمعدل، ونصف هذه الكمية من حصة الجدي، والنصف الآخر لاستهلاك العائلة، وفي منتصف الستينيات كان الراعي الذي يمتلك قطيعاً من ثمانين ماعزاً، نصفها حلوب، يحصل سنوياً على قرابة 40 كيلوغراماً من سمن الماعز، وسعره آنذاك 5.6 شلن (0.325 دينار) للكيلوغرام. بمعنى أنه يمكن أن يستلم 13 ديناراً. وعلى الرغم من أن الجداء الذكور كانت تنحر عادة في تلك الفترة وما بعدها، إلا أن الأسرة يمكنها عند الحاجة أن تبيع قرابة عشرة منها بسعر 6 شلنات للجدي الواحد، أي أنها تحصل على 3 دنانير أخرى. وإذا أضفنا إلى ذلك إمكانية بيع ست معز كبيرة بسعر 5.1 دينار للرأس الواحد (9 دنانير إجمالاً) يمكن أن تشكل عائدات المعز 25 ديناراً في أفضل الأحوال. بمعنى أن الماعزة الواحدة في قطيع من 80 رأساً تعود على صاحبها سنوياً بـ 25.6 شلنات بالمعدل، وكلما كان القطيع صغيراً تضاءلت عائدات الرأس الواحد.

ومن ثم كانت العائدات الإجمالية للاستثمار الكبير الذي يضم 10 أبقار و 80 ماعزاً تساوي 75 ديناراً، يبقى منها دخل صاف في السنوات العادية (ما عدا سنوات الجفاف) مقداره 35 ديناراً بعد خصم كل النفقات الضرورية. وإلى ذلك أخذت الدولة تقدم في السنوات الأخيرة معونات لأصحاب الاستثمارات، مما جعلها متماثلة تقريباً من حيث المستوى.

وقد حاولنا أن نحسب دخل الاستثمارة أو العائلة انطلاقاً من أسعار الأغنام والماعز في مواسم عملنا بالجزيرة في أواسط الثمانينيات، فتوصلنا إلى الاستناجات التالية: يمكن للراعي أن يستلم 40 ديناراً من بيع 40 كيلوغراماً من سمن الماعز (وقد اعتمدنا هذا

الرقم اصطلاحاً، فنحن نعلم أن قطعان حجهر تضم عادة 100 رأس وليس 80). كما يستلم 50 ديناراً من بيع 10 جداء، و 60 ديناراً من بيع 6 معزات، أي ما مجموعه 150 ديناراً. ومن هنا يكون الدخل الإجمالي للاستثمارة الواحدة في حجهر آنذاك 300 دينار بحساب الماعز والأبقار. إلا أن خصم جميع النفقات الضرورية (في ظل الأسعار وحجم الاحتياجات آنذاك) يُبقي للعائلة ما بين 50 إلى 100 دينار بصفة دخل صاف، مما جعل الاستثمارة أكثر ثباتاً واستقراراً من دون أن يعطي مبررات الكلام عن تغيير وجهتها أو زيادة عائداتها.

لقد تناولنا هنا، على سبيل المثال، استثمارة هي الأكثر ربحية بالنسبة لذاك الزمان، إلا أن معظم العوائل كانت في حال أسوأ بكثير، ولم يكن بعض البدو قادرين على تلبية أدنى المتطلبات والاحتياجات إلى المواد الغذائية من استثماراتهم وحدها، فكان ذلك دافعاً للبحث عن مصادر بديلة لتوفير الغذاء.

سقطرى تشهد الآن، كما أسلفنا، تبدلات هائلة في حياتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ولهذه التبدلات تأثير كبير في أحوال الرعي والرعاة وعلى نمط معيشة القبائل الرعوية. كما تخصص لتطوير الجزيرة اعتمادات مالية ضخمة، وقد شقت طرق كثيرة، ويزداد عدد السيارات، ويجري بانتظام تموين السكان بما يحتاجون إليه من المواد الغذائية، ويتسع نطاق بناء المساكن من الحجر المحلي بالوسائل التقنية الحديثة. وتزود المدن والقرى الكبيرة بالكهرباء وإسالة المياه، كما نصبت أجهزة تبريد الأسماك، ويصار إلى حفر المزيد من الآبار، فيما يتم توصيل مياه الشرب بالسيارات الحوضية إلى المناطق الخالية من مصادر المياه. وتنصب أعداد متزايدة من المضخات في الآبار ويصار إلى تغطية تلك الآبار فتغدو مسقوفة ولا تتعرض للتلوث. كما بنيت أرصفة ومرافئ للسفن البحرية ومطار يستقبل الطائرات يومياً في رحلاتها الجوية من وإلى الجزيرة. أبناء الرعاة يتعلمون في المدارس ويتلقون التحصيل العلمي في الجامعة، وتتعالج العائلات على أيدي الأطباء. وفي الجزيرة ممثليات لهيئات دولية تتولى تنفيذ مشاريع تنموية انطلاقاً من ضرورة صيانة البيئة الطبيعية كيلا تتعرض للتلوث والضرر. وقد باتت سقطرى محجة للسياح الأوروبيين.

الكثيرون من السقاطرة يغادرون إلى الخارج للعمل في دول الخليج العربية وفي مختلف محافظات اليمن، وباتت الخدمة في دوائر الدولة المصدر الرئيسي لحياة البعض منهم، ونتيجة تحسن ظروف المعيشة وبناء شبكة المؤسسات الصحية انخفضت نسبة الوفيات

وازداد عدد الأطفال في الأسرة السقطرية. ويحافظ العديد من عوائل الرعاة على وحدة الاستثمارات ووحدة الملكية. ففي العوائل الأبوية مثلاً يبقى أحد الأبناء في المنزل ليواصل عمل والده، فيما يلتحق الآخر بالخدمة في دوائر الدولة، أو يمضي للدراسة أو يسافر للعمل في الخارج. لكن الجميع يحافظون على علاقاتهم الاقتصادية المترابطة ويساعد بعضهم بعضاً، بحيث يوزع راتب الواحد منهم على سائر إخوانه في الواقع، مثلما يوزع عليهم ما ينتجه الآخر من زبدة أو لحوم أو تمور.

إلا أن التنمية الاقتصادية المقررة اليوم غير محكومة بقواعد وضوابط سليمة للانتفاع بالموارد الطبيعية المتوافرة، فالتدخل المفرط وغير الموزون في شؤون البيئة المستضعفة يمكن أن يسفر بعد سنوات عن إتلاف الموارد البيولوجية، وقد تتسارع هذه العملية الخطيرة بخاصة في صيد الأسماك واستنزاف المراعي وقطع الأشجار والأحراش، وحتى نتيجة الإفراط في شق الطرق وزيادة عدد السيارات دون ضوابط والتمادي في تلويث الطبيعة بالقمامة التي لا تزال تتراكم دون اية معالجة تذكر. كما أن المغالاة في توسيع السياحة دون تخطيط أو برمجة يمكن أن تشكل خطراً على البيئة الطبيعية والوسط الاجتماعي.

وأذكر بالمناسبة أن بعثتنا هي أول من تقدم بفكرة إعلان سقطرى محمية طبيعية من أجل صيانة أكثر تضاريسها قيمة، كونها تمثل مجمّعاً طبيعياً باهراً ومنقطع النظير. ويبقى الأمل في إيجاد توازن وتناغم بين مهمة الحفاظ على البيئة الفريدة وتوفير ظروف استمرار النشاط الاقتصادي التقليدي للرعاة السقطريين من جهة ومهمة تنمية الجزيرة وتجديدها المنشود من الجهة الأخرى.

الفصل السادس

ميادين النشاط الاقتصادي

ميادين النشاط الاقتصادي

النشاط الاقتصادي لشرائح المجتمع السقطري يتوقف كلياً على طبيعة النمط الذي تنتمي إليه كل شريحة من بين أنماط التنظيم الاجتماعي والمعيشي (راجع الفصل السابق)، كما يتوقف على المنطقة الجغرافية الطبيعية والمناخية التي تقيم فيها تلك الشريحة. ونحن هنا نركز بخاصة على القبائل الرعوية التي تميز اقتصادها العيني، في فترة دراستنا للجزيرة، بالتوجه نحو تلبية حاجة المنتجين أنفسهم إلى المواد الغذائية والسلع الضرورية. فقد تميزت اقتصاديات الرعاة السقطريين في معظم الأحوال بطبيعة شاملة تجلت في الاستفادة من الحيوانات الأليفة لمختلف الأغراض (اللبن واللحوم والصوف والعظام والجلود)، إلى جانب استثمار النخيل، وأحياناً البستنة وزراعة الخضروات، بل حتى مزاولة صيد الأسماك (الاقتصاد المختلط). ومن هذه الناحية نحن لا نستطيع أن نحيط في هذا الفصل بجميع جوانب نشاط السقطريين المتنوع للغاية، ونبدأ بما يتعلق برعي الماشية.

أسماء المواشي وأوصافها بالسقطرية

تعتبر كثرة أسماء الماشية ونعوتها وأوصافها دليلاً على أهمية الثروة الحيوانية بالنسبة لأهالي سقطرى، فإلى جانب تسميات الفصائل الحيوانية عموماً (مثل أووز، تته - عنز أو معز، ظاح - نعجة أو شاة، إيلهي - بقرة) هناك مسميات وتوصيفات مشتقة للمواشي تقوم على ثلاثة مؤشرات: الصبغة أو اللون، والأصل أو السلالة، وخصوصية الهيكل البدني. كما تطلق على المواشي تسميات لا تعني شيئاً باللغة الحديثة حسب الظاهر، بل تعتبر مجرد أسماء شخصية (اسم علم). ونظراً لكثرة الأسماء ووفرتها قيد الاستعمال يمكن لصاحب القطيع في العادة أن يطلق اسماً معيناً على كل دابة في قطيعه، حتى وإن كانت رؤوسه أكثر من مائة، ما عدا الأغنام التي لا تلتفت للاسم إذا ناديتها به.

أكبر عدد من أسماء وأوصاف المواشي في سقطرى (ومعظمها من الماعز) يقوم على الصبغة واللون.

إليكم بعضاً منها:

حجوهه أسود - سوداء (للأبقار)

لبهن أبيض

ركشش	مبقع
حاهر	أسود (للمعز والأغنام)
عافر	أشقر، أحمر
دركك	مبقع
حلحل	بني على بياض
جدهر	بني فاتح
حبدد	أسود على بياض
شظرهر	بني، أشقر (أخضر لغير الحيوان)
حبشش	(بنفس المعنى)
قرقهر	أشقر أو مبقع (داكن على بياض)
صعبب	رملي، بيج (أسمر للإنسان)
دي حابر	مبقع بالأبيض
عبدهر	بني مبقع

ومن الأمثلة على التسميات المأخوذة عن خصائص السلالة والأصل، بما في ذلك شكل الأذنين، ما يلي:

صامويه	نعجة بأذنين قصيرتين ملتويتين
صيمح	خروف بأذنين قصيرتين
فيدد	بلا قرنين
ريفريت (سعليهل)	ماعز بأذنين طويلتين
ككآنه	معزاة فتية بأذنين متوسطتي الحجم
تايه	ماعز بأذنين قصيرتين
توهه	معزاة صغيرة بأذنين قصيرتين
كشئهي (ككتشئهي)	معزاة بأذنين متوسطتين
لعشش	نعجة بأذنين غير بارزتين
سميعي	نعجة بأذنين قصيرتين جداً
سومعي	حمل رضيع
كشعهي	ماعز بأذنين بيضاوين من تحت

المعزاة دون سن البلوغ أو سن الإدرار تسمى حرشيش، أما غير اللبونة فتسمى كشلهل (الكلمتان مترادفتان تقريباً). والمعزاة التي تلتفت إلى نداء راعيها تسمى محجاجة حشارة، والتي تأتي تلبية لندائه تسمى رعيمي.

وقد تناولنا في بحث آخر (راجع ناومكين وبورخوموفسكي، 1981: 14 - 15) تفاصيل تسميات المواشي ونعوتها المرتبطة بخصائصها البدنية وهيكلها العظمي، مثل مكباظ وما إلى ذلك.

أما بالنسبة للسن والأعمار فقد وجدنا عند السقاطرة مجموعة من المسميات للجداء والحملان، نسجل منها هنا الأربعة التالية:

عيفف	في سن أقل من شهر
سيرد	من شهرين إلى ثلاثة
أضيح	من ثلاثة أشهر إلى سنة
تصاعه	حولي (سنة).

وبالنسبة للعجول:

شاطر	حولي (حولية)
فوهي	أكثر من سنة.

وهناك تسميتان أخريان:

ملعز	صغير وضعيف
لعاب	مسموح له بالرضاع في أي وقت.

أساليب وسم المواشي

يعود وجود هذا العدد الكبير من مسميات وتوصيفات الحيوانات الأليفة، أول ما يعود، إلى ضرورة التفريق بينها وتحديد عائديتها إذا اختلطت، وهو أمر مهم جداً في ظروف الرعي الطليق السائد في الجزيرة. كما أن وسم الدواب بالوسوم الخاصة والحزوز والعلامات الفارقة يهدف إلى الغرض ذاته، فالتسمية المشتركة للحزوز والعلامات هي علّم. المواشي من غير الأبقار تعلّم على آذانها، وهناك عدة أنواع من علامات الآذان، إحداها على شكل خطوط أو حزوز مستقيمة في ركن طرف الأذن، وتسمى عندهم ربكهن

(صيغة المفرد «ربك» وكذلك «ربيك») أو محسهل. ويمكن أن تكون هذه العلامة بحز مستقيم واحد أو حزين متوازيين أو ثلاثة حزوز، متوازية أيضاً. كما يسمى هذا النوع من الحزوز صاحن. وإذا كانت الحزوز قصيرة جداً تسمى العلامة محزيفو، وصيغة الجمع معوزف. والنوع الآخر من هذه العلامات عمودي ويسمى شطف. والنوع الثالث هو اقتطاع جزء صغير شبه دائري من الطرف العلوي للأذن، ويسمى سطلة إذا كان في أعلى منتصف الأذن تماماً، وسطلة مشتيفو إذا كان منحرفاً عن المنتصف إلى أحد جانبيه. وهناك علامة أخرى هي اقتطاع جزء صغير بخط مستقيم من أعلى الأذن ويسمى مجرهم أو سطلة مجرومو. وعندما يقتطع جزء جانبي من أعلى الأذن تسمى هذه العلامة نقص. وهناك علامة بشكل ثقب في الأذن يسمى خلته، وهذه العلامة عبارة عن فجوة تقتطع من الأذن قطعاً، وإلا فالثقب العادي يلتئم بمر الزمن. ويصادف المرء معزاً غير معلمة، كونها لا تبتعد عن البيت، وتسمى حساره (الجمع حسرهنيتن) أو ملحه (الجمع ملحيتن).

أما الإبل والحمير فتوسم على الرقبة أو الكتف أو الفخذ، ويقول الأهالي إن الأبقار أيضاً كانت توسم فيما مضى، إلا أننا لم نصادف أبقاراً موسومةً. وكان تيودور بونت قد لاحظ وسوم الدواب وسجل بعضها، وهي في تصوراته تشبه حروف الكتابات القديمة في جنوب الجزيرة العربية، على الرغم من أن أوجه الشبه ضعيفة جداً. وهناك عدة أنواع من الوسوم، أحدها وسم معرِكة الذي يشبه القطرة من حيث الشكل. أما الوسم بشكل نقطة فيسمى مركزاً أو بهشه، فيما يسمى الوشم بشكل خط عمودي واحد - مختار، وبخطين - مختارين، وبشكل صليب - سوبك، وبخطين متعاكسين - مقص، لأنه يشبه المقص فعلاً، وهناك وسوم بشكل الحروف دال ونون ولام - ميم.

خصوصية الرعي

المواشي في سقطرى ترعى كما أسلفنا بحرية تامة، والرعاة يطلقون المعز والأغنام للرعي طوال النهار، ولا يحتجزونها في الحظائر إلا عند الضرورة، وهم يستخدمون بضعة أصوات وصيحات مميزة للتحكم بسلوك الماشية، فيصيحون: «رش» عندما يريدون جمعها معاً، و «أرظ» عندما يريدون فصل الجداء والحملان عن الماعز والأغنام، و «عرر» عندما يريدون إدخال الماشية إلى الحظيرة أو الزريبة.

اهتمام الراعي موجه أساساً إلى حلب الماشية في حينه، وهذا الأمر يتسم بأهمية خصوصية في الجزيرة الكثيرة الصخور والأحراش، فالدابة يمكن أن تجرح ضرعها المنتفخ بحجر أو شوك، فتنفق. كما يهتم الرعاة الجبليون بتحديد النسل والتحكم فيه، وبرضاعة الحملان والجداء، مستخدمين لهذه الأغراض وسائل ربما كانت بدائية، إلا أنها فاعلة ومثمرة. ومن تلك الوسائل رقعة جلد البقر التي يسمونها قرصة، ويشدونها إلى أسفل بطن الماعز الذكر كيلا يقرب من الأنثى (شكل رقم 6 - 1). وهناك أداة أخرى تستخدم لمنع الحملان والجداء من الرضاع في غير موعده. وهي عبارة عن عود (شكاف)



(شكل رقم 6 ـ 1)

من خشب ميترر (الميطين) يوضع في الفم مثل الرسن. ويتم تثبيته من طرفيه بخيطين من الصوف (شرهر) يعقدان على قفا الرأس.

عندما تلد الدابة يتركز اهتمام الراعي على حماية وليدها، فهو يمكن أن يضل الطريق أو يرتطم بحجر أو يسقط من فوق على حجر فيهلك، كما يمكن أن يقع فريسة للوحوش، والحقيقة لا وجود للوحوش الكاسرة في الجزيرة كما أسلفنا، إلا أن هناك ما يسمى بقط الزباد، وهو من السنانير المتوحشة التي تهاجم الحملان والجداء، كما أن الغربان يمكن أن تنقر عيونها في البداية ثم تقتلها.

الرعاة يبنون سقائف أو ملاجئ حجرية خصوصية (حور) يحتجزون فيها الحملان والجداء بعض الوقت لحمايتها، كما يبنون سقائف مماثلة للنعاج والمعزات التي توشك على الوضع، ويهيئون من الحجر أيضاً مشارب لإرواء المعز والأغنام يسمونها مقوعو، أما حظائر الماشية فيسمونها دي مجهر.

الحملان والجداء الذكور تذبح عادة للإستفادة من لحومها، ولا يترك الرعاة منها على قيد الحياة إلا الحد الأدنى المطلوب لمواصلة النسل، أما الإناث فيختارون أقواها وأفضلها ليهتموا بتغذيتها خصيصاً كي تكبر وتغدو نعاجاً وعنزات مكتنزات سمينات، تعطي المزيد من اللبن، وكذلك اللحوم عند الاقتضاء. ولهذا الغرض جرت العادة على إرضاع الوليدة في البداية ليس من أمها، بل من نعجة (أو معزاة) أخرى ولدت في الوقت نفسه حملاً (أو جدياً) ذكراً، يصار إلى ذبحه حالاً، فتتقبل أمه الوليدة الغريبة وكأنها وليدتها. فترضع الأخيرة من نعجتين، تطلق على هذا الإجراء تسمية خصوصية هي بيعي، وتعني الرضاعة من والدتين.

العناية بالأبقار تسبب للرعاة هموماً أكبر ومشاغل أكثر. حدثنا أحد الرعاة من جبل حجهر عما واجهه من صعوبات في تربيتها، فقال: أنا أتذكر تلك السنة التي ترحلنا فيها، فقد كان الوقت آنذاك، مثلما هو الآن، ممطراً (د. اوتو)، والشتاء في تلك السنة كان ممطراً أيضاً. البقرتان السوداء والشقراء كلتاهما ملقحتان، وقد بدأنا الترحل وهما في بداية الحمل، كان ذلك في الربيع. انتهت الأمطار وجاء الحر وحل موسم الجفاف، فصرنا نجمع أوراق الشجر للبقرتين، ونقشط ألياف النخيل ونقدمها علفا لهما. طول الوقت اضطررنا إلى البحث عن الأوراق حتى انتهى الحر وبدأ موسم البرد (صيرب).

وضعت كلتا البقرتين وليدتين، إحداهما مبقعة، سوداء ببقع بيضاء، والأخرى بنية

اللون. البقرة السوداء ولدت المبقعة، والبقرة الشقراء ولدت البنية. أمسكنا بالبقرتين هنا، في مسيوهر، ومضيت مع الجد جمعان لنحلبهما، وهما ترعيان الكلأ على هواهما حتى الصباح. اما الحوليتان فتمرحان في المكان الذي نحلب فيه البقرتين، تلك هي العادة. الحوليتان تمرحان والبقرتان ترعيان. ذات مرة جاءت إحدى البقرتين ظهراً، في موعد حلب اللبن، ولم تأت معها البقرة الأخرى، وتصورنا أن عين الحسود أصابت تلك البقرة، وكيلا نتعب بسببهما لم نذهب هذه المرة اليهما في المكان الأبعد، بقينا ننتظرهما. أما الآن فلا بد من الذهاب والبحث عن البقرة في المكان الذي كانت ترعى فيه، كان ينبغي أن نبحث عنها في المغارات التي يمكن أن تختبئ فيها لنجدها ونحلبها. على أية حال لم تكن بين أبقارنا واحدة تدر ثلاثة صيوج من اللبن، ولذا تذكرت الآن تلك السنة...

إلى ذلك يمارس الجبليون تجميع عسل النحل البري، يجدون أعشاش النحل في جوف جذوع الأشجار، فينشون نحلها بالدخان ويجمعون العسل لأغراض البيع، وللعسل البري قيمة كبيرة.

اللحوم والألبان

اللبن (شحاف) أهم المنتجات الحيوانية في الاستثمارات الرعوية، و«اللبن الأول»، أي باكورة الزخات التي تشخب من ضرع المعزاة في بداية الحلب، يسمى شحاف دبيكحلب. و «اللبن الثاني» الذي يأتي بعده يسمى شكر، فيما يسمى نفس هذا اللبن إذا كان من البقرة عريز. اللبن الحليب (الصريف) يسمى شحاف مكبظ، ويشربه السقاطرة أحياناً قبل الغلي، وفي الغالب يغلونه قبل الشرب. ورغوة اللبن تسمى عندهم كيبيبو، فيما تسمى القشدة الناشئة والمتيبسة على سطحه أتليفو.

اللبن المتجمع من الحلب عدة مرات يصبونه في قربة كبيرة جزهر مسحليب. وأفراد العائلة الذين يمارسون حلب الماشية يجلبون من المحلب (موضع حلب الأبقار) ومن المجهر (مواضع حلب العنزات والنعاج) قرباً صغيرة كانوا قد سكبوا فيها اللبن من الأوعية التي حلبوه فيها. إذا كان اللبن مخصصاً للشرب يغلونه، ويسمي الجبليون الحليب المغلي مشحم، فيما يسميه أهالي المناطق الساحلية لبن. أما لبن الوجبة المسائية غير المغلي فيكتسب حموضة في صباح اليوم التالي، ويشربه الناس عادة مع طعام الفطور، وله هو

أيضا تسميته الخصوصية (معطيلهم).

اللبن المخصص لصنع الزبدة والسمن والمشتقات الأخرى يصب في قربة خض الزبدة قشعر، يضاف إليه قليل من الخميرة حيلب أو الخثارة (المخيض المحمض قبل يوم، ويسمونه مكبر). يجري تخمير اللبن في المنزل، ويغطى ببطانية لبضع ساعات: لبن عدة وجبات من حلب نهار الأمس يخمّر من الصباح حتى الظهر، ولبن وجبات مساء الأمس وصباح اليوم يخمّر من الظهر حتى المساء. وللتأكد من جاهزية اللبن لخض الزبدة يفتح الراعي عنق القربة حنجهر ويدس فيه إصبعيه، فإذا علق بهما شيء من القشدة لبيكو، فذلك يعني أن موعد الخض قد حان.

ينفخ الرجل القربة من عنقها ليدخل فيها بعض الهواء، فبدونه لا تستحصل الزبدة من اللبن. ثم يعلقها بحبل ميميمو على غصن شجرة، ويهزها مراراً وتكراراً على مدى ساعتين أو ثلاث ساعات تقريباً. وللتأكد من انتهاء العملية يحل الرجل عقدة العنق ويلقي بنظرة إلى داخل القربة، فإذا كان الكثير من الندف البيضاء، صير، كما يسميها السقاطرة، يطفوعلى سطح اللبن فإن الزبدة تعتبر جاهزة، أما إذا كانت الندف قليلة أو معدومة فإن عملية الخض تستمر.

عندما تكون الزبدة جاهزة (الجبليون يسمونها حمئي، فيما يسميها أهالي المناطق الساحلية نكاطة) يحضرون الآنّية أو الجرار إقدهور (وربما القدور) ويصبون فيها السائل اللبني، ثم ينزعون القربة من حبل الشجرة، ويمسكونها من طرفها الأضيق بإصبعين ويضغطون عليها قليلا حتى تخرج بقية اللبن السائل مع اولى حبات الزبدة المتصلبة، وبذلك لا يبقى مع الزبدة المتجمعة إلا الحد الأدنى من مخلوط اللبن.

ثم تبدأ العملية الأكثر مسؤولية، وهي فتح الطرف العريض من القربة (ويسمونه حه، ولعله فوه، أي الفم بالمعنى الحرفي للكلمة السقطرية)، والضغط عليها باليدين لإخراج الزبدة في وعاء خصوصي يسمونه (مجيتو)، أشبه بالكوب أو الفنجان الكبير. وفي بعض الأحيان يسخنون الزبدة في هذا الوعاء ثم يبردونها من جديد، وبعد ذلك يجمعون الزبدة بالأيدي من عدة أوعية صغيرة في وعاء أكبر يسمونه (معصيرو) أو (جومه)، وهو متسع في الأسفل ضيق في الأعلى، لكن اليد تدخل في عنقه على أية حال. وبعد نقل الزبدة من وعاء المجيتو يبقى في قاعه شيء من الخثارة، كل عملية من هذه العمليات تمثل حلقة في سلسلة إجراءات تخليص الزبدة من بقايا مخاليط اللبن. الزبدة المتجمعة في الوعاء الكبير

يحتفظ بها عدة أيام، لغاية أسبوع، وعندما تتجمع الكمية الكافية من الزبدة تبدأ عملية إعداد السمن.

ويصار الآن إلى دق وهرس الحبوب، من ذرة وقمح وشعير ورز ودخن، ووضع الكتلة المهروسة مع الزبدة في الوعاء المخصص لإعداد السمن. يوضع الوعاء على موقد بنار فاترة، يصار إلى تغذيتها بالحطب تدريجياً، ولا بد أن يغلى السمن السائل مرتين أو ثلاث مرات، ثم تقلل النار ويبقى القدر عليها قرابة نصف ساعة، ثم يرفع من الأثافي ويوضع على الأرض كي يبرد السائل الذي يحتويه.

السمن المستحصل بهذه الطريقة يسكب في وعاء آخر، هو جرة فخارية كبهن أو قنينة أو علبة معدنية مرتبان، وما يتبقى بعد سكب السمن هو الحثالة الكثيفة، والأصح الثمالة اللذيذة سيرو التي تقدم على سفرة الطعام وتعتبر من أطيب المأكولات. إنها سريعة التلف، ولذا لا بد من تناولها حالاً، وأهل البيت يأكلونها حتى الشبع، ويدعون الضيوف ليساعدوهم في الإجهاز عليها، أما السمن نفسه فلا يتلف ولا حدود لزمن حفظه.

سكان اليمن وحضرموت يعتبرون السمن السقطري من المنتجات الحيوانية الرائعة من حيث طعمه اللذيذ وعدم تعرضه للتلف أمداً طويلاً، حتى في أشعة الشمس الحارقة. ويكمن سر ديمومة هذا السمن وعدم تلفه في تنقيته الدقيقة التي تتوقف على الكثير من العوامل وعلى التقيد الشديد بالتقنية التقليدية لصنعه. الرعاة الجبليون يميزون بين نوعين من السمن الحمئي، أحدهما شبيه بالزبدة المغلية المعروفة ويستحضر بواسطة الغلي العادي للزبدة عندما لا تكون صالحة للحفظ أو عندما تكون كمياتها قليلة وبعضها يتبدد بشكل ثمالة أثناء التصفية والتنقية. هذا النوع من السمن يحتوي على بقايا مخاليط مخيض اللبن ويسمى عندهم مرجهي، فيما يكون النوع الثاني صافياً خالصاً، ويسمى بتسميتين حمئي وحميشي.

السمن الخالص يعتبر ثروة للعائلة السقطرية، حتى إنه يستخدم وسيلة للتداول والتبادل وتسديد الديون والإسهام العيني في الأعياد المشتركة، كما أنه يدخل حتماً في عداد المواد الغذائية التي تقدمها عائلة العريس لحفل الزفاف. وعندما ينفد الدهن أو الزبدة عند أحد السقاطرة يستعير من الأقارب أو الجيران أو أبناء القبيلة كمية من السمن على سبيل الاستدانة. ولا يستغني الناس هناك عن السمن الوفير السعرات في الاستعمال اليومي، وهم يخلطونه مع الرز المطبوخ متصورين بأنه يعوض عن اللحم. أجود الأنواع هو

السمن المستخلص من لبن البقر، ويأتي بعده سمن الغنم، ثم المعز.

ولا يقل مخيض اللبن (حيلب) أهمية عن باقي المشتقات، فهو من المواد الغذائية للاستعمال اليومي، والجميع في سقطرى يشربونه على الدوام، ومنه يصنعون الجبنة.

ولهذا الغرض يغلون المخيض طويلاً، ما بين ساعة وساعتين، ويخلطونه في تلك الأثناء حتى يتخثر، وبالتدريج تنشأ في المخيض السائل قطع صلبة يسمونها حنيكة. وعند ذلك يرشون الأرض بطبقة من الرماد تحول دون وقوع حبات الغبار والحصى في المخيض المتجبن، ثم يفرشون على الرماد قطعة من القماش ويسكبون الجبن عليها ليتخلص تدريجياً مما فيه من سوائل، ولتسريع العملية يعصرون قطعة القماش مع محتوياتها.

الجبن حمدهر المستحصل بهذه الطريقة يحفظ ما بين أسبوعين إلى شهر، فيتصلب في هذه الفترة، ثم يقطع بالسكين قبيل تقديمه على سفرة الطعام. السائل المترسب بعد عصر الجبن يسمى مقديف، وهو يحفظ يوماً أو يومين، ولا يستخدم في الطعام، بل تسقى به الجداء والحملان الصغيرة، ولهذا الغرض يسكبونه في وعاء، ومنه يصبونه في قربة، ثم يحلون إحدى فتحات القربة سبعل (من جهة إحدى قوائم الدابة سابقاً) ويدسونها في فم الجدي ليرضع منها كالبزّازة أو الحلمة ملحو.

السقاطرة يأكلون اللحم مطبوخاً عادة، ينتزعونه من العظام بعد الطبخ ويتناولون العظام في بداية الوليمة،يضعون العظم على حجر ويهشمونه بحجر آخر ليمتصوا نخاعه على طريقة أهل البادية. وبعد ذلك يقدمون اللحم مع الرز في صحن يضعونه على حصيرة أو سفرة من خوص السعف يتحلّق حولها الرجال والصبيان (النساء والبنات يتناولن الطعام على انفراد). وفي بعض الأحيان يقدمون الكبدة لوحدها قبل الرز باللحم الذي يؤكل عن آخره عادة.

وكان السقاطرة في الماضي غير البعيد يتناولون اللحم المجفف مكشت، ويعدونه على النحو التالي: يطبخونه في البداية ويخلصونه من المرق ويقصونه قطعاً على قصعة فيها سمن حيواني ويغلونه على النار مجدداً حتى ينشف، ثم يبردونه، فبهذه الصورة لا يتعرض اللحم للتلف أمداً طويلاً نسبياً. وفي الماضي الأبعد كانوا يعدون اللحم المشوي مشكك الذي لا يتعرض للتلف يوماً أو يومين. ينحرون الدابة ويوزعون شرائح من لحمها على الجميع، ويتركون شريحة واحدة يعلقونها على عود يشوونها به فوق النار لتتدخن (ولذا يسمون هذا اللحم أحياناً مشكك مئكاظ).

وقد سعدت عندما كانوا يستضيفونني كثيراً ويطعمونني طبقاً مميزاً آخر هو معدة المعز المطبوخة على انفراد، ويسمونها عادج، يشقون المعدة جزئين يغلونهما في الماء بمحتوياتهما، دون تقشيط، وبعد الطبخ يشربون المرقة الحامضة ويأكلون المعدة المطبوخة. وقد أوضح لي زميلي في البعثة الدكتور فلاديمير شينكارينكو، أثناء عملنا في الجزيرة، أن هذا النوع من الطعام مفيد جداً للجهاز الهضمي. فالبدو في ذاك الزمان كانوا معزولين عن العالم، ولم تكن لديهم توابل وبهارات ولا خضروات، فلم يكن طعامهم مريئاً، بل كان مسيخاً، ولذا فإن تلك المرقة الحامضة ضرورية جداً لتحسين هضم الطعام، على الرغم من أنها لا تثير شهية الضيوف، ومن جديد يثير بدو سقطرى دهشتنا لقدرتهم على تعبئة كل الطاقات من أجل البقاء في أصعب الظروف.

صنع الأدوات

جلود الماشية من أبقار ومعز وغيرها تستخدم لمختلف الأغراض، وتنتزع من الذبائح بمختلف الطرق تبعاً لتلك الأغراض. وفي اللغة مصطلحان للدلالة على انتزاع الجلود:

دحش، وتعني نزع جلد الماعز أو الخروف كالجورب دون شقوق، ليصلح للاستخدام كقربة.

جزهل، وتعني نزع جلد البقرة من خلال شق في البطن بحيث يأتي الجلد متوازياً مستوياً يمكن فرشه على الأرض.

يفرش جلد البقرة على الأرض بعد تمطيطه وتثبيته بأسافين خشبية، ثم يرش عليه التراب أو ذرق الطيور ويترك ليجف في أشعة الشمس من يومين إلى أسبوع، وفي اللغة السقطرية ثمة الفعل شادح للدلالة على الدباغة ويعني فرش جلد البقرة ليجف في الشمس. ومن جلد البقر يصنعون أداة تسلق النخيل (التبلية) ويسمونها حبهل (انظر شكل رقم 6 - 1). جزؤها العريض يصنعونه من أشرطة الجلد الطازج بعد تنظيفها من الشعر بواسطة الرماد الساخن وتجفيفها بعد ذلك. أما الجزء الأضيق فيفتلونه، كالحبل، من أشرطة جلدية ضيقة، ويشدونه إلى إسفينين في الأرض ويتركونه ليجف.

ورغم اختلاف المصطلحات للدلالة على شتى أساليب نزع الجلود يطلق السقاطرة تسمية واحدة على جميع أنواع الجلود هي نبعه، وخلافاً لجلود البقر تستخدم جلود الأغنام

والمعز بالأساس لصنع القرب، وهي على انواع:

مزلج . قربة الماء (عند الجبليين)

جزهر . قربة اللبن

عاني . قربة التمر المكبوس (لفصل الشتاء)

قشعر . قربة كبيرة (من جلد دابة كبيرة)

مشحليب . قربة كبيرة للبن.

جلد القربة يقلبونه بحيث يكون الشعر أو الصوف في جهة الظاهر، ويضعون عليه رماداً منقعاً بالماء ويتركونه لمدة يوم واحد، فيسهل اقتلاع الشعر منه. ويصار إلى دباغة الجلد باستخدام لحاء بعض الأشجار مثل إتئب ولجهم وتيك وإمعيرو (اللبان). وإذا كانت القربة مخصصة للألبان يدبغون الجلد يوماً واحداً فقط، أما إذا كانت للتمر أو الماء فدباغتها تستغرق ثلاثة أو أربعة أيام، ثم ينفخون القربة ويجففونها وينقعونها بالماء، وعندها تكون جاهزة للاستعمال (شكل رقم 6 - 2).

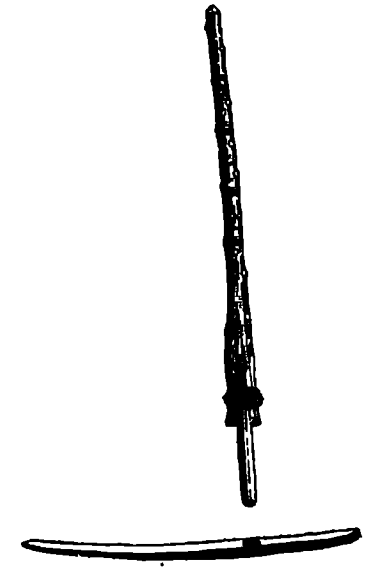


(شكل رقم 6 ـ 2)

القرب التي كانت تستخدم في الجزيرة بمثابة دلاء للماء فسحت المجال الآن لدلاء

البلاستيك والأوعية المعدنية. ولذا تقلص صنع تلك القرب. ونادراً ما نرى في البيوت حالياً القربة ذات الجدران الرقيقة لحد الشفافية برقبتها العريضة، كما في دلو الماء، أما الأنواع الأخرى من القرب فلا تزال قيد الاستعمال بوصفها من الأدوات التي لا يمكن الاستغناء عنها.

خلال رحلاتي إلى سقطرى أواسط السبعينيات وبداية الثمانينيات كان الأهالي في المناطق الجبلية يستخدمون طريقة لإشعال النار باتت اليوم طي الماضي، وهي تقوم على حك عودين من الخشب، مثل قدح الزند. هذه الأداة التي تسمى عند الرعاة إشهار تسعفهم في اليوم المطير، عندما يبتل الثقاب أو تطاله الرطوبة في بعض الأحيان. العود العلوي مصنوع من خشب «ميترر» المتين ويدار باليد. في شق طرفه العلوي خشبة ألين تغرز في فجوة العود السفلي، على أن تكون الخشبة اللينة والعود السفلي من نفس النوع من الشجر (شكل رقم 6 - 4). ولهذا الغرض يستخدم الجبليون أخشاب أنواع معينة من الأشجار يسمونها بلغتهم: إتب وإكشه وعوبب وكيريلّو (شكل رقم 6 - 3 و 6 - 4) .



(شكل رقم 6 ـ 3)



(شكل رقم 6 ـ 4)

ونذكر أن أدوات استحصال النار، كالتي وصفناها أعلاه أو الشبيهة بها، كانت موجودة لدى شعوب كثيرة، وهي عند بعضها ذات مسميات جنسية خلاعية، إن صح التعبير.

أدوات «الفيدي» الهندية، على سبيل المثال، تسمى «أسفاتثا» بمعنى الذكر للعود العلوي و «سامي» بمعنى الإنثى للعود السفلي، فيما يسمى ما ينتج عنهما «آغني» أي النار (Shakti Gupta, 1971). ونجد هذه التصورات والإيحاءات نفسها عند السقاطرة، فهم يسمون العود العلوي عجّ (رجل، ذكر) والسفلي عاجة (امرأة، أنثى).

النخيل والتبغ والبستنة

يقترن الرعي وتربية الماشية في جميع أنحاء سقطرى تقريباً بزراعة النخيل التي تعتبر من الميادين الأساسية للنشاط الاقتصادي لأهالي الجزيرة، وتنمو النخيل بالأساس في الوديان وعلى مقربة من العيون، وبقدر أقل في السهول، حيث تقتضي الحاجة سقيها في الغالب. تكاثر النخيل يتم أساساً بغرس الفسائل (وبنوى التمر على نحو أندر). تغرس الفسيلة التي لم ينمُ سعفها ولم يتفتح خوصها بعد في حفرة ممهدة، ويصار إلى سقيها بغزارة طوال ثلاثة أيام في الصباح والمساء، ثم يقلل السقي إلى مرة كل يومين.

وإذا لم تتجذر الفسيلة ولم تبدُ عليها أمارات الحياة في غضون خمسة وأربعين يوماً تحرم من الماء لمدة أسبوع، وهذا يساعد عادة على استئناف السقي بنتيجة وأمل، المهم أن تنمو في الفسيلة السعفة الوسطى التي لا تستطيع البقاء بدونها. وهي سعفة طويلة أرفع وأنحف من السعف العادي في بادئ الأمر، خوصها متلاصق، ينفتح فيما بعد بزاوية حادة غير منفرجة، ولذا تبدو السعفة الفتية كطرف السنبلة. وهي تنمو صاعدة إلى فوق، ليس كباقي السعف الذي يميل إلى الجوانب في كل الاتجاهات. وفيما بعد تتحول إلى سعفة عادية عندما تنبجس سعفة فتية أخرى في الوسط تحل محلها، وهكذا دواليك. ومع نمو النخلة وقص سعفها الخارجي المتيبس يقوم جذعها ويتصاعد تدريجياً، وتظهر في أسفله فسائل تتحول إلى نخيل فيما بعد. والعادة أن يتم غرسها في أماكن متباعدة عن النخلة الأم.

النخيل تعطي ثمرها، تبعا لأصناف التمور، في العام الرابع أو الخامس أو السادس بعد غرسها، وعندما يبدأ موسم الازدهار يقوم الفلاحون بتلقيحها يدوياً، أو باستكمال تلقيحها الطبيعي بواسطة الرياح. لقاحها يسمى الطلع، وهوعلى نوعين ذكوري وأنثوي، والأصح أن للنخيل فحولاً ذكوراً، عددها أقل بطبيعة الحال، ربما فحل واحد أو فحلان لكل بستان متوسط المساحة (من مئة نخلة على وجه التقريب). يقتطع الفلاح وعاء الطلع

النضيد من الفحل ويقصه ويستخرج الطلع من داخله. ويرش لقاحه الأبيض على طلع النخلة المتفتح أو يضع مستلات منه بين طيات الأخير (شكل رقم 6 - 5).

ولعل التلقيح من العمليات الأكثر مسؤولية في العناية بالنخيل، فهو الذي يؤمن فيما بعد ظهور عذوق البلح والرطب والتمر، ولتخليص النخلة من نافل المحصول الذي يمتص نسغها يصار إلى هز جذعها باكراً فتتساقط الثمرات الضعيفة التي لا خير فيها. وبعد نحو شهرين من التلقيح يجري ربط العذوق وتثبيتها على النخلة، ويقتطعون بعضها لينمو ما يتبقى منها وينضج بشكل أفضل. وبمرور شهر آخر يغطون العذوق بأكياس الجنفاص أو القماش لحفظ التمر من التساقط ومن الحشرات والطيور والرياح.



(شكل رقم 6 ـ 5)

بعد قرابة خمسة أشهر من التلقيح، وتبعاً لأصناف التمور وللأنواء الجوية يحل وقت النضوج. السقي في هذه الفترة يزيد المحصول كثيراً. ثم يبدأ موسم جني التمور، فيصار إلى قص العذوق من أصولها وتنقل إلى المنازل في أكياس. وهناك تجري معالجتها.

تستخدم في زراعة النخيل بعض الأدوات اليدوية، وفي مقدمها المسحاة مُشرح أو الرفش والمعول لحرث التربة وتفتيتها وتقليبها، وكذلك الفأس التي تستخدم في قص الجذوع

وأصول السعف.

وتبعاً لصنف التمور ولمنطقة النخيل يمكن في سقطرى جني المحصول مرتين في السنة، أصدقائي الذين في دعرهو يجنون التمور مرتين. بعض النخيل عندهم محصولها شتوي (قيطهي)، ويتم تلقيحها في سبتمبر - أكتوبر، وبعضها صيفي (خرفي)، وتلقح في يناير - فيراير، والنوع الأكثر من التمور هناك هو الصيفي.

في الثمانينيات كانت أجرة من يجمع تمر ثلاث أو أربع نخلات 3 دنانير، فقيمة محصول النخلة الواحدة 10 دنانير بالمعدل، وكان سعر القربة المحشوة بالتمر آنذاك ما بين 5.7 إلى 15 ديناراً.

تختلف النخيل من حيث كمية التمور ونسبة المحصول تبعاً لأصنافها، ،أكثر أصناف النخيل ثمراً في سقطرى يعطي 50 كيلوغراماً من التمر للنخلة الواحدة.

بعد جني المحصول يصار إلى قطع السعف اليابس لتكون النخلة جاهزة للموسم القادم. التمر الطازج يجرد من النوى تمرة تمرة، وتشطر كل تمرة شطرين وتنشر في فسحة مخصصة للتجفيف، يحيط بها سياج مشبك أو سور منخفض من الأحجار مغطى بالجريد الشائك كيلا تجتازه الدواب، ونوى التمر بعد تلك العملية يطبخ ويقدم علفاً للمعز والأغنام.

يجفف التمر في الشمس أسبوعين على وجه التقريب، ثم يهرس بالأقدام حتى يتحول إلى كتلة لزجة تكبس وتحفظ في القرب. التمر المهروس يمكن أن يبقى محفوظاً لأمد طويل في القربة المغلقة بإحكام، وذلك بفضل الخواص البكتيرية التي تميز هذا الثمر العسلي، وعندما يحين موعد الاستهلاك تقص القربة بالعرض. ويفضل السقاطرة التمر المعسول على التمر الطازج، ثم إن الشراب المفضل لديهم هو التمر المهروس مخلوطاً بالماء (ماريس). هذا العصير السكري البني اللون يعطى، كغذاء إضافي، للأطفال الرضع منذ الأيام الأولى للولادة.

المفردات اللغوية السقطرية الكثيرة المتعلقة بالنخيل السقطرية تعطينا فكرة واضحة عن زراعتها:

جلبة، جمعها جلب - حفرة غرس الفسيلة

تمره، جمعها تمهر - نخلة

حاجب، جمعها حجّب - فسيلة

مشنة - فسيلة مغروسة

سارمة - فسيلة قابلة للغرس

ديم - الغرس

عيه - السقي

ديلعاين - السعفة العليا (الوسطى)

مجرد ، جمعها مجرود - سعفة

حيص، جمعها حوص - خوصة

شكاعو، جمعها شكع - الجريد

كربة، جمعها كرب - فسيلة جانبية

جودع - جذع النخلة

إشكا، جمعها إشيوك - سعفة عذق

فوتر – سعفة بذاتها

شمرح، جمعها شمارح - عذق تمر

حلهل، جمعها حلهيتن - تمرة

إلبه، جمعها إلب - شوكة

إلب - جرح الشوكة

نابت - تلقيح

أكره، جمعها أكاريهن - البسر الصغير (حبَبوك في العراق)

راقح يكره - نشأة البلح

نبت - ازدهار طلع النخلة

رمد - لقاح (غبار) الطلع

جدلهن - الطلع المتفتح تواً

أبلؤو - تفتح الطلع

دي صتيعو - الازدهار

إفكك، سعوف - تنظيف البلح

إجه، نفج - هز العذق

أعد - ترتيب العذق

ترشو - ربط العذق بالجريد

عوفن ـ تنطية العذق (بكيس جنفاص)
إقصص ـ قص السعفة
قاصي ـ جني المحصول (وقص السعف اليابس)
رسي – تسلق النخلة
هيلة – البسر (الجمري أو خلال الطوش في العراق)
قديب ـ الجمّار
نوسة ـ ليف النخل
حتمي ـ حبل مفتول من الليف
سفيف ـ حصيرة خوص
سوفه ـ شظية جريد
كمبب ـ نخلة مستقيمة
مستاح ـ فسحة لتجفيف التمر
بكر ـ تجفيف التمر
حوسم ـ التقاط (التمر من العذوق)
تيبل ـ جني التمر
كودك ـ هرس (التمر بالأرجل أو الأيدي)
كونس ـ كبس (التمر في القربة)
إيجح ـ صعود النخلة
أفش ـ طبخ (النوى)
فيره ـ الحطب اليابس
عيظظ، وجمعها عوظظ ـ نواة التمر.

وفي اللغة السقطرية عدة مسميات للدلالة على أصناف النخيل والتمور. وهي تقوم على مؤشرات وخصائص مختلفة. أحد أفضل الأصناف مثلاً يسمى حوكم انطلاقاً من شكل التمرة. كما اشتقت تسمية تمر ميطكينو من كلمة ميطك (حلو)، فيما تتطابق تسمية تمر دي حلهل (أو دي حلهُل)، مع مفردة البطانية المنسوجة أو الشملة، لتؤكد طبيعة هذه التمرة الليفية التركيب. وإليكم تسميات أخرى سجلناها أثناء مكوثنا في سقطرى: صيرافاني، بني سئنهن، جيلعانو، فريتت. كلمة حريش تعني البسر أو البلح غير الناضج، وهو يرمى

لكونه غير صالح للأكل. فيما تعني كلمة لعيم التمر الذي لا يصلح إلا علفاً للماشية. وهناك تمر يسمى «كلْ واسكتْ»، بمعنى احمد ربك حتى على هذا الصنف غير الجيد من التمور. ويسمى التمر المكبوس في القرب مشورهق. وترتبط مفردة سميراح بتسمية النخلة وتعني الرطبة، كما تطلق على الرطبة أيضاً تسمية مصيعب (وردت في معجم فولف ليسلاو للغة السقطرية مفردة معبهيريتي للدلالة على الرطب بصيغة الجمع). ونجد في النصوص السقطرية التي جمعها هرمن موللر (قبل مائة عام) مفردات أخرى منها:

بشره - التمر الفسيخ

حيله، بيئي، هالوله - البسر (البلح الأخضر)

شوج - رطب متأخر، لونه على اخضرار

جعرهر - تمر نخل غير ملقح

في بعض القرى السقطرية يزاول الأهالي زراعة التبغ والخضروات، فكانوا يزرعون التبغ، وهو أصلاً من حضرموت، على مساحات محدودة للاستهلاك المحلي، قبل ظهور السجائر كان السقاطرة نادراً ما يدخنون. وعندما يدخنون على أية حال يستخدمون مباسم فخارية شعرهر، وفي بعض الأحيان يدسون المبسم الصغير في عود خشبي أجوف، كالشبق أو بيبة التدخين الطويلة، ويمتصون الدخان دون أن يحرقوا شفاههم. التبغ محصول تجاري يزرعه الأهالي للبيع، إلا أنه لا يوفر في سقطرى مردوداً أو عائدات كبيرة.

في قرية كدحة، موطن فخذ من سادة أبوبكر، تحظى الفلاحة والبستنة باهتمام كبير، وتلك ظاهرة كانت على العموم نادرة في حينه. أما في هذه القرية ففي كل بيت بستان للخضروات، والكثيرون يزرعون التبغ ويسمونه تمبيكو. حدثنا علي سالم محمد عن كيفية زراعته، فقال: في البداية نعد البذور (ديري)، ثم نحفر حفراً متقاربة (مطيرو)، نضع في كل منها ثلاث بذرات، تتحول إلى أفراخ أو شتلات (سوبه). وبعد شهر ننقل الشتلات إلى حفر متباعدة في مكان آخر. وهنا نسقي كل نبتة بمياه غزيرة ثلاثة أيام. ثم نسقيها مرة كل يومين على مدار ثلاثة أشهر، وبعد شهر نسمدها بالروث (إدينه). وكلما كان السماد أكثر جاءت الأوراق ريانة ممتلئة. وبعد ثلاثة أشهر نقلل السقي: مرة كل ثلاثة أيام في البداية، ثم مرة في الأسبوع، وعندما تمتلئ الأوراق بالنسغ (شنطع) نجمع المحصول (نزرب)، نقطع الأوراق ونجففها (كوسع)، ونبيع التبغ في السوق بشكل حزم من الأوراق.

كان الهدف من غرس الخضروات بمساحة صغيرة في باحات البيوت هو تلبية حاجة

أهل البيت، (والآن يمارس البعض البستنة من أجل البيع، ولكن بكميات قليلة للغاية). ففي بدايات مكوثنا في سقطرى قلما كنا نصادف في حديبو شخصاً يبيع البصل أو الطماطم، أما الآن، حيث تربط سقطرى مواصلات بحرية وجوية منتظمة بباقي مناطق اليمن، وخاصة حضرموت وصنعاء، ففي أسواق حديبو تباع دوماً الخضروات والفواكه المجلوبة من هناك. وقد رأيت في فترة دراستي للجزيرة منطقة لزراعة البطيخ الأحمر من أجل البيع في الجزء الشرقي من سهل نوجد، حيث تتوافر المياه العذبة.

الضفر والنسيج

للنخلة استعمالات عديدة لا تقتصر على التمور. وقد اعتاد السقاطرة في كل مكان تقريباً على صنع الحصر والسلال والحبال من مواد ذات صلة بها. يشطرون السعفة بالطول شطرين بمسمار أو سكين ويجففونها، فتغدو مادة يضفرون منها البسط والحصران. في البداية يضفرون شريطاً طويلاً، بـ 40 - 50 باعاً (على امتداد الغرفة)، يسمونه في حديبو والمناطق الجبلية (سفيف) وفي قاضب (قفع). ثم يخيطون من تلك الأشرطة الحصر المستطيلة والمستديرة والسلال على اختلاف أنواعها. ويستخدمون في خياطتها إبرة مصنوعة من قرن الدابة يسمونها (محيتو). ومن مسميات مصنوعات سعف النخيل في سقطرى ما يلي:

حصير - مستطيل يفرش في الغرفة أو الباحة

ميرحت - حصير مستدير يستخدم سفرة للطعام

مسفي – سلة لحفظ ونقل الأطعمة (ذات استعمال أندر).

كما تفتل الحبال من ألياف النخيل وتسمى (قيد)، فيما تستخدم جذوعها وجريدها وسعفها في البناء (كما سنبينه أدناه). وإلى ذلك تستخدم ألياف النخيل في صنع معدات تجهيز الإبل، وهذا النوع من المصنوعات الحرفية نادر في الحقيقة. نورد من هذه الحاجيات أدناه أهم ما صادفناه، وقد أخذنا قياساتها في قرية دفرعهو:

نعفة: حصيرة أو قاعدة من الجنفاص بخيوط من الصوف (100 × 55 سنتمتراً).

جونية: حشية بشكل كيس من البطانيات الصوفية محشو بألياف النخيل (120 × 90 سنتمتراً).

نعجة أو معزاة يلقيها على جنبها في البداية، ويقص عنقها بالسكين متوجهاً صوب القبلة، كما تنص عليه الشريعة الإسلامية، ثم يعلق الذبيحة على غصن شجرة لينسكب دمها بالكامل. ثم يقطع رأسها، وكذلك كروعها (الأظلاف)، ويقص الجلد على قوائمها دائريا، ثم على طول القائمة ويدس يده تحت الجلد ويفصله عن اللحم. الجلد يفصل وينتزع عن الدابة، كالجورب، باتجاه الرأس. كما يقتلع الجزار العينين من الرأس المقطوع، وبعد ذلك يمضي في تقطيع الذبيحة إلى أجزاء.

الكبد والكليتان (الأحشاء) يتم شويها قليلاً على الصخر المسخن أو على جمر الموقد. ويتناولها الناس قبل أن تنضج بالكامل، والرأس يشطر بالفأس إلى شطرين، طوليين عادة، ويتم حرق شعره على نار الموقد، أما اللحم المقطّع فيطبخ في قدر. وبالأصابع يتم الضغط على الأمعاء الغليظة لتخليصها مما فيها، ثم تملأ بالسمن وتطبخ أيضاً. فيما تطبخ الأمعاء الدقيقة من دون تمهيد مسبق، مع ربطها بشكل حزمة في بعض الأحيان. الرعاة يعتبرون المعدة طبقاً مميزاً بخاصة، ويقطّعونها نصفين ويطبخونها مع محتوياتها في قصعة بمعزل عن اللحم.

لحم الذبيحة المطبوخ يجرد من العظام، وتوزع كل العظام (كرمهم) مع الرأس وتوضع على السفرة قبل اللحم، بصفتها مقدمة للمأدبة. يعالج السقاطرة تلك العظام بحجرين، وما أكثر الأحجار في سقطرى!.. يهشمون العظام ويمتصون نخاعها بتلذذ، ويقتلعون بأسنانهم بقايا اللحم العالق بها، فلا تبذير ولا هدر أو تفريط. وبعد مشقة تذليل العظام يشعرون بشهية عارمة إلى الحساء الذي يأتي في أعقاب «مقدمة» الوليمة، ثم يأتي طبق اللحم المطبوخ مع الرز (شكل رقم 6 - 18 و 6 - 19).

تركيبة القرى وأشكال المباني

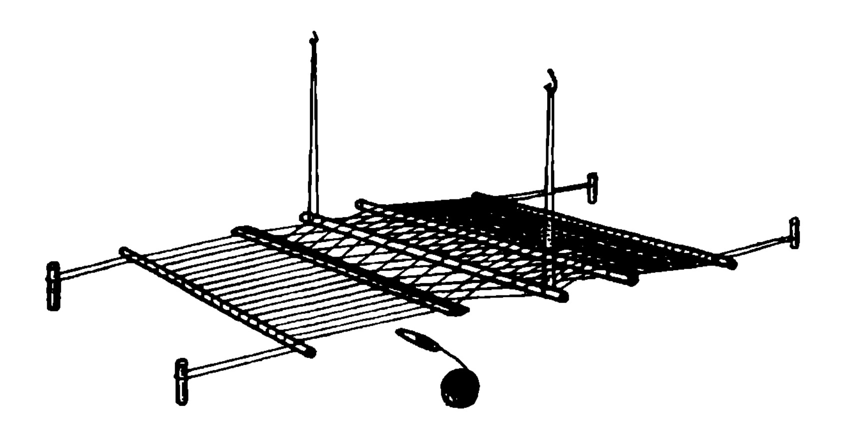
كل قرية في سقطرى تكاد تكون موطناً أو مقاماً حصرياً لفخذ واحد من قبيلة ما، وإذا كان الفخذ كبيراً فإنه يشغل في الغالب عدة قرى، وينقسم في هذه الحال إلى مجموعة من البطون والعوائل الكبيرة. وخلافاً لجنوب اليمن، حيث تسمى المراكز السكنية أحياناً بأسماء ساكنيها من القبائل والأفخاذ، لا تتوافق مسميات القرى في سقطرى مع أسماء ساكنيها، القرى السقطرية صغيرة في العادة، أكبرها يتكون من بضع عشرات من المنازل والبيوت.

اذا كانت خطوطها ناعمة متقاربة. وقد أشار خبراء المستعمرات البريطانيون في حينه إلى إمكان تسويق المنسوجات الصوفية السقطرية، إلى جانب اللؤلؤ، في الخارج (بعد إجراء بعض التحسينات عليها).

صوف الغنم أو شعر المعز يتم تمشيطه على حصيرة في البداية بواسطة أداة أشبه بالقوس والنشاب تسمى مفاتك، ثم يتم فتله وغزله. وعلى آلة النسيج تنسج النسوة شريطاً عرضه قرابة عشرين سنتمتراً بالمعدل. ثم يصار إلى خياطة عدة أشرطة طولانية بعضها إلى بعض. فيكون عرض البطانية ما بين 120 إلى 250 سنتمنتراً على وجه التقريب، ويصادف أن تنسج بطانيات أعرض. الغزول تصبغ على انفراد بالأبيض والأصفر والأخضر والبني والأحمر، فتشكل خطوطاً طولانية ملونة، وفي بعض الأحيان تضاف غزول قطنية إلى البطانية لتزيينها. وتُعتمد في صنع البطانيات عدة رسوم تركيبية للنسيج، تتراوح بين ضفر الخيوط أو الغزول الخفيف المتباعد والكثيف المتقارب، ومعظم البطانيات تقوم بالأساس على اللون الأسود (شكل رقم 6 - 7 و 6 - 8)، إلا أن هنالك بطانيات بيضاء أيضاً، كانت في عهدنا هي الأغلى (5.7 دينار).



(شكل رقم 6 ـ 7)



(شكل رقم 6 ـ 8)

صيد السمك واللؤلؤ

تستخدم في صيد السمك عادة قوارب الهوري الصغيرة بمجاذيف قصيرة ذات زعانف مستديرة، ويركبها في البحر شخصان يمارسان الصيد إما بشبكة (ليوخ) وإما بعدة الشص (سكة). تستخدم عدة الشص لصيد القرش أو الجرجور عادة، وهي تتكون من خيط متين أو حبل (قيد) وعوامة أو غمّازة (بوته) وصنارة أو خطاف (إكله، جمعها أكالي). والطعم عبارة عن سميكات صغيرة يصطادونها بصنارة، وكذلك ديدان عومة. أثناء الصيد بهذه الطريقة يتوقف القارب ويلقي بالمرساة بروصي. وعندما يعلق القرش بالخطاف ويسحبونه إلى السطح يضربونه بحربة الصيد مسلّة. كما يمارسون صيد الأسماك في المضاحل وقرب الساحل بمصائد القرقور التي يفتلونها من ألياف تسمى حيفو، ويصطادون السمك أيضاً بالشباك اليدوية الصغيرة.

يجفف السقاطرة ما يسمونه لحم القرش على النحو التالي: يقصون القرش طولياً ويخلصونه من الأحشاء ويقطعون الرأس، وبعد ذلك يملحون القروش جيداً ويرصفونها

في الظل ليوم واحد، ثم يغسلونها وينشرونها لتجف في الشمس محمية من الطيور وغيرها في سقيفة مشبكة. وبعد أسبوعين يكون سمك القرش جاهزاً للاستهلاك، إلا أن هذه الإجراءات لم تعد منتشرة في سقطرى الآن.

سمك الديرك (طانك)، وهو نوع من الأسقمري، يصطاده السقاطرة بالشباك الكبيرة، ويعدون الديرك المقدد حنيط بوضع برميل في التربة يحيطونه بالحجارة والحطب ويشعلون النار حتى يتسخن البرميل بالقدر المطلوب. ثم يقطعون رؤوس الأسماك ويشقون بطونها لتخليصها من الأحشاء ويرصفونها في البرميل على طبقات، ويغطون البرميل بأكياس الجنفاص ويضعون الرمل فوقها. يبقى السمك في البرميل يوماً وليلة، ثم يستخرجونه وينشرونه في أشعة الشمس حتى يجف ويتقدد في سقيفة مشبكة، كما في سمك القرش. ويكون الديرك جاهزاً للاستهلاك بعد ثلاثة أو أربعة أيام، فينقل إلى الظل كيلا ينشف ويتجسأ أكثر من اللزوم. سمك الديرك المقدد سريع التلف لرقته بالمقارنة مع القرش المجفف الجاسئ. ومع ذلك يقاوم الديرك بضعة

شهور، ولذا يمارس السقاطرة بيعه (شكل رقم 6 - 9)، مثل القرش المجفف، في الجزء القاري من اليمن.



(شكل رقم 6 ـ 9)

ويبدو أن السقاطرة دأبوا على إعداد هذين النوعين من السمك من زمان، فقد كتب ماركو بولو في حينه يقول: «في هذه الأنحاء الكثير من الأسماك الكبيرة المملحة اللذيذة» (ماركو بولو، 1955 : 201).

عندما يجهزون الديرك يشقون السمكة في البداية إلى شقين على امتداد العمود الفقري، ويسمى الشق الواحد أمت، ثم يقطع الشق إلى جزئين طولانيين كبيرين يسمى الواحد منهما شيره، ثم يقطع هذا الجزء بالعرض إلى قطعتين، تسمى الواحدة منهما قطبة، وإذا اقتضت الحاجة يمكن تقطيع هذه القطعة إلى شرائح عرضانية تسمى نعسة، وجمعها إنعس.

الأسماك والحيوانات البحرية في سقطرى كثيرة ومتنوعة، كما أسلفنا. نورد هنا أسماء أكثرها انتشاراً:

صوده	سمك
قنشأة	سمكة السلطان
بدبوده	سمكة موسى
قفعونه	قانطو (ابو قريقر)
صتعو	الرعاد
دي زونك	سمكة القمر
جرهم	القرش أبو مطرقة
حاروب	سمك البوري
شيرو	السمك الإبري
قحلهن	سمك البكلاه
دي لامي	سمك اللشك (اللاصق)
كير	نوع من القرش
فضهين	فرخ البحر
تيبب	نوع من فرخ البحر
تربوحو	الحبّارة
شريح	جراد البحر
حمسه	سلحفاة بحرية (غيلم)

إرهو قنديل البحر
مجلف مرجان
عطرهه أخطبوط
شحاطه حوت

يعتبر كبد القرش من أطيب الأطعمة عند السقاطرة، ويسمونه تقليدياً صيفة، فإذا كان جيداً وصالحاً للاستهلاك يجمعونه في براميل ويملحونه ويحتفظون به في هذه الوضعية عشرة أيام ثم يطبخونه، فلا يتلف لأمد طويل نسبياً. وهناك طريقة أخرى لإعداد الكبد تعتمد تقطيعه وحفظه في داخل معدة القرش (قادل) بعد قشطها وتنظيفها. ثم يعلق بهذه الوضعية في الهواء، ويمكن أن يبقى معلقاً عدة شهور، بل وحتى عاماً كاملاً. كبد بعض أنواع القرش ليس عالي الجودة. ولا يصلح للخزن بهذه الطريقة، وله تسميته الخاصة طحلة (ولعله طحال).

صيادو اللؤلؤ (جمش) يركبون البحر في الربيع والصيف على قوارب السنبوق ويمارسون الغطس في أعماق كبيرة نسبياً. في البداية يتفقد الغطاس قاع البحر من فوق بعلبة معدنية ذات ثقب أو كوة مغطاة بزجاجة ينظر من خلالها، فإذا رأى لؤلؤة يسد أنفه بسداد من قرن الخروف أو الثور (جشم) ويتنشق المزيد من الهواء ويلتقط ثقلاً يساعده في بلوغ القاع بسرعة. صيد اللؤلؤ يمارسه عادة أشخاص من أصل أفريقي يستأجرهم صاحب القارب مقابل مبلغ زهيد، ثم يبيع اللؤلؤ إلى تجار كبار من الخليج تكون لهم حصة الأسد من الأرباح.

الخزف والحدادة

كانت الأواني الخزفية والفخارية المحلية الصنع من المستلزمات التي لا يستغني عنها السقاطرة في حياتهم المعيشية واقتصادياتهم. ولا يزال باقياً في الجزيرة حتى اليوم الأسلوب القديم جداً لصنع تلك الآنية عن طريق النحت أو قولبة الطين باليد وليس بالدولاب الفخاري أو القرص الدوار. في نهاية القرن التاسع عشر قدم العالم الطبيعي البريطاني هنري فوربس الذي زار سقطرى آنذاك وصفاً تفصيلياً لصناعة الفخار هناك، ولما كان هذا التوصيف محتفظاً بمصداقيته في معظم المناطق حتى اليوم رأينا أن نستشهد

به هنا لأهميته في إلقاء الضوء على هذه الحرفة.

«في قرى سهول حديبو تنتشر صناعة الفخار والسيراميك، ولكن بطريقة بدائية تماماً على الرغم من العلاقات الطويلة الأمد بين سقطرى والبلدان التي تمارس صنع أجود أنواع الفخار. الأواني تصنع هنا باليد، لأن أحداً لا يعرف بوجود الدولاب الدوار، وصناع الخزف نساء، يأخذن الطين الأحمر الساطع من الفسحات بين الصخور الكلسية، حيث يتجمع ويترسب بعد المطر، وكذلك من أساسات الجبال الوسطى، ومن بعض الجداول والغدران التي يتجمع فيها صلصال رمادي مائل إلى الأصفر، وهو أكثر لزوجة. تعجن النسوة كلا نوعي الطين معا وبإضافة مسحوق الكلس الناعم للغاية، ومن هذه العجينة الطينية يصنعن الجرار الصغيرة والصحون بأصابعهن وبمساعدة محك صقيل.

أما الأواني الأكبر حجماً فتصنع بشكل حلقات، بدءاً من الأساس وصولاً إلى الحجم المطلوب والشكل المرغوب، مع تعديل وتسوية وصقل من الداخل والخارج بالإبهام وبراحة اليد وبالحصى المبللة بالماء. ويستعمل قرص مقعر صغير من جوزة هند ضخمة مما يصل إلى الجزيرة من الخارج أو شأفة محارة لقشط الطين من ظاهر الجرة أو الوعاء ليتخذ السُّمك المطلوب. وبعد تجفيف الجرار في الشمس يصار إلى حرقها على نار الحطب، وبنتيجة الحرق الدقيق تكتسب الجرة لوناً أحمر ساطعاً مع بقع قاتمة في المواضع التي لم تتعرض للنار بما فيه الكفاية، نظراً لتماسها بالرماد. الكثير من الجرار الصغيرة المستخدمة لحفظ اللبن إنما هي بلون المنغنيز الداكن وكأن الهواء لم يبلغ ظاهرها في أثناء الحرق.

وعلى ما يبدو لا أحد هنا يعرف دهان الخزف وفن استخدامه، كما أن النقش لا يحظى بالاهتمام، وفي الحالات التي يستخدم فيها نراه باهتاً غير مجسم أو محفور، مجرد رسم على سطح الفخار، ليس بوسعي أن أجسده بوضوح. والأصباغ المستخدمة هي بالأساس من صمغ شجرة دم الأخوين، ولم يتسن لي أن ألاحظ إضافات أخرى إليه ولا كيفية خلطها به. ولم يكن صنع الآنية الفخارية من تخصصات عوائل معينة، ففي كل استثمارة أو بيت يصنع أهلهما، على حد علمي، الأواني التي يحتاجون إليها. ولم أعثر في العينات التي درستها على أية دمغة تشير إلى صانعها، وكان واضحاً تماماً أنها لم تصنع من أجل البيع» (Forbes, 1903: 24 - 25).

نضيف إلى هذا التوصيف، على أساس ما شاهدناه في مختلف أرجاء الجزيرة من

فعاليات صنع الخزف والفخار، أن النساء بالفعل يمارسن تقليدياً صنع الآنية الفخارية، ولكن ليس في جميع القرى، فالرجال يمارسونه أيضاً في بعضها. وفي بعض الأماكن، بقرية معنيفو مثلاً ما كانوا يخلطون الصلصال الأحمر بغيره، وفي قرية دي فعرهو لا يضيفون إلى العجينة الحمراء توعهر مسحوق الكلس، بل يخلطونها بمسحوق حجر آخر ائتب (شكل رقم 6 - 10). ولم يكونوا يضيفون إلى نسغ دم الأخوين، كصبغة، أية مادة أخرى. ويقشطون فائض الطين أو الصلصال بصدفة محار دكعلا، ويصقلون ظاهر الإناء بالصدفة نفسها (تستخدم الأصداف أيضاً في سقي المواليد الرضع).

رسم فوربس نقوشاً على عدد من الجرار والأواني الفخارية (شكل رقم 6 - 11) وقدم لها الوصف التالي: «الإناء رقم 1 ويسمونه سحن والإناءان 4 و 5 تستخدم لحفظ اللبن والسمن ونسغ الصبر، والأخيران مخصصان أيضاً لغلي ما فيهما أو تسخينه. الآنية 6 و 7 و 8 و 10 تستخدم للماء: الإناء 6 للوضوء لأنه يساعد على صب الماء بكميات محدودة، والإناء 7 ويسمونه صفلحة وكذلك 8 و 10 تستخدم لحفظ الماء في المنزل. والإناءان 3 و 9



(شكل رقم 6 ـ 10)

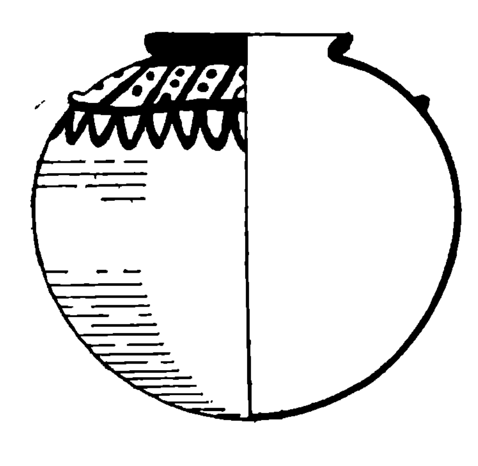
يستخدمان لتناول الطعام. أما الإناء 2 فيسمونه مكرسية و يعلق على الجدار للزينة (كما نعلق نحن صحن الزينة في المكتب) عندما لا يستخدم بمثابة مبخرة» (Ibid, 25) .



(شكل رقم 6 ـ 11)

الأواني الفخارية التي درسناها في سقطرى كثيرة الشبه بالأواني الواردة في رسومات هنري فوربس.

على ظاهر الجرار والقلل وغيرها رسم يكاد يكون متماثلاً، بصبغة من نسغ شجرة دم الأخوين (شكل رقم 6 - 12)، ومعظم الجرار بلا قاعدة تقوم عليها، ولذا يغرز الناس تلك الجرار في الأرض إذا كانت مليئة أو تلقى مقلوبة على جنبها إذا كانت خالية.



(شكل رقم 6 ـ 12)

مسميات كل أنواع الجرار والقوارير والأواني الخزفية تقوم على أساس وظائفها وأحجامها، وهي بالأساس مسميات واحدة في الجزيرة كلها. وقد تسنى لنا أن نسجل الأنواع التالية منها:

قومه	جرة للسمن الحيواني بثقب صغير
معصير	جرة مشابهة
مجيتو	فنجان للزبدة
مكهل	جرة كبيرة لحفظ الماء
جزفه	جرة كبيرة لنقل الماء من البئر
سفعة	جرة صغيرة للسوائل
قودهر	أصغر جرة للسوائل كانت تستخدم في العبادات
فوتي	جرة لحلب المعز
كيعر	إبريق شاي (قهوة)
نحف	جرة مكسورة، لكنها تستخدم لحفظ الحاجيات
كبهن	جرة مرتفعة للسمن
صفلحة	قدر كبير لطهي الرز واللحم
سفيعة	إناء للاغتسال والطبخ
سرباد	جرة كبيرة لحفظ الماء
مجميرة	مبخرة

حرفة الحدادة لا يمارسها في سقطرى إلا القليل من الأفراد، وقد كان السقاطرة عموماً بحاجة متواصلة إلى السكاكين فقط، على حين يحتاج أهالي حديبو وقلنسية وقاضب إلى المسامير لتثبيت الأجزاء الخشبية من منازلهم (الأبواب أساساً). وحتى تلك الأجزاء يمكن تثبيتها بدون مسامير. السكين الكبيرة المتعددة الأغراض تسمى في المنطقتين الوسطى والشرقية صعرة، فيما تسمى في المنطقة الغربية حصهن. أما السكين الصغيرة المخصصة للختان فتسمى في كل مكان موس. وثمة مؤشرات على وجود السلاح الأبيض (السيوف والخناجر) عند السقاطرة فيما مضى، إلا أنهم يفضلون استخدام الحجارة والعصي في حالات الشجار. ولذا لم يشاهد السلاح الأبيض لديهم في العقود الأخيرة إلا فيما ندر، وقد يكون ذلك من أسباب تخلف الحدادة في الجزيرة.

لقد زرنا «مشغل» حدّاد عجوز في قرية بضواحي حديبو، كل الأدوات البسيطة التي يستخدمها موجودة في كوخه الصغير. ورشة الحدادة تسمى في السقطرية مسيمة، والحداد يسمى سيعة. الكير (منفاح) يصنع من قربة ينفخ الحداد من خلالها النار (شياط) إلى الفرن (تتّار)، ولعله تنّور، ويغذي النار بالفحم النباتي (حمهل). ولإعداد هذا الفحم تستخدم أخشاب الميترر والأقاصيا (ضأد) وجذوع النخيل وغيرها. الأدوات الرئيسية هي المطرقة وتسمى بهذه المفردة العربية في اللغة السقطرية، وكذلك السندان (مزبرة)، والملقط (مقص) وطوله قرابة 30 سنتمتراً. بعد أن تتسخن القطعة الحديدية وتغدو حمراء (يعفرر) يطرق عليها الحداد و(يسيهع) فتتحول إلى الحاجة التي يريدها.

المنتوج الأساسي للحدادين هو المسامير، وتسمى بالسقطرية كما في العربية، وكذلك الفؤوس المستخدمة في قطع الأغصان وتشذيب جذوع النخيل، والسكاكين المنزلية (حنجهر)، والرفش (مشرح) المستخدم في تمهيد التربة حول النخيل، والمسامير الكبيرة (بقش) لتثبيت الأبواب الخشبية، الحداد يسقي فولاذ هذه المسامير بالماء عادة.

الثياب وتصفيف الشعر

تتجلى أصالة السقاطرة فيما تتجلى، في ثياب النساء أو الفساتين التقليدية.

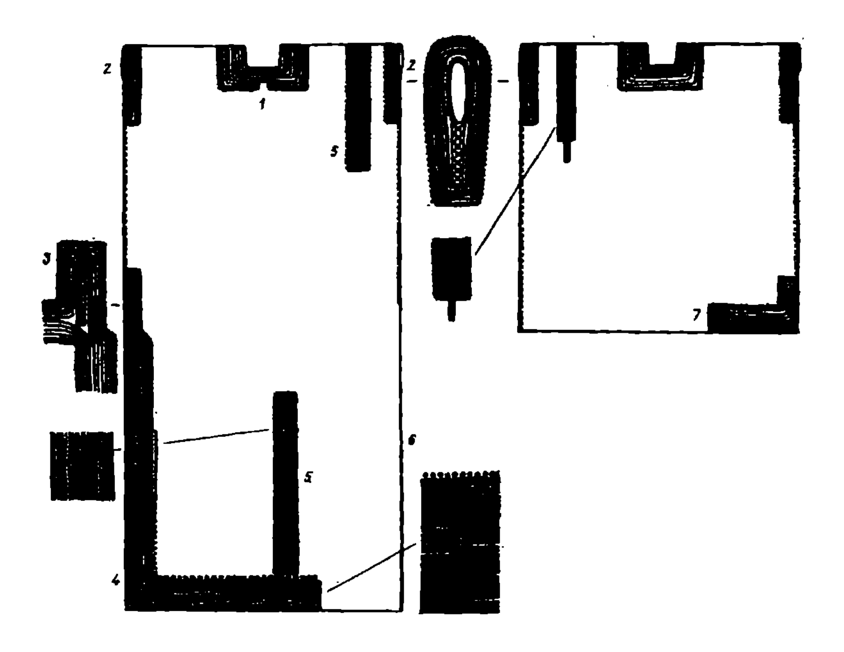
للفستان السقطري التقليدي (شكل رقم 6 - 13) فصال أصيل ومميز للغاية، ونحن لم نصادفه في أيما مكان آخر غير الجزيرة. إنه زي يسهل تمييزه عن الثياب النسائية الحضرمية والمهرية، جزؤه الخلفي الطويل يعادل مرتين تقريباً جزءه الأمامي، ويساعد على لف هذا الجزء من الثوب حول الفخذين، فيكون ذيل الثوب (4) عند موضع الخصر في الأمام، حيث يشد ويثبت هناك بحزمة مفاتيح للزينة (شكل رقم 6 - 14). والسمة المميزة للفستان السقطري هي التطريز بخيوط فضية بشكل أشرطة مستقيمة أو متعرجة من خمسة أو ستة أو سبعة أو عشرة خيوط (تبعاً لمكان التطريز). تخاط الفساتين من قماش خفيف أسود (للاستعمال اليومي) أو أحمر أو أخضر أو ليلكي أو بني أو أصفر. فصال ونقوش التطريز في العادة متماثلة تماماً. ونادراً ما نصادف خياطة موضع مكشوف عند الخصر في الجزء الأمامي من الثوب (حارس).

مسميات تفاصيل الفستان (خلق) بالسقطرية مبينة في الشكل رقم 6 - 13 على النحو

التالي: 1. فاقر، 2. متحو، جمعها متحوتي، 3. دنبهن، 4. فير، 5. معتيبو، 6. دلات، 7. مقدمة.

الشريط المطرز بخيط واحد يسمى طرحة وجمعها طرحات، فيما يسمى التطريز بشكل دوائر زرار.

وترتدي النسوة تحت الفستان عادة تنورة داخلية (فوطة)، وكذلك شيّال أو حمّالة (كنشري)، و في عب الفستان تضع المرأة حاجيات صغيرة (قاتلي).



(شكل رقم 6 ـ 13)

تشد السقطرية رأسها عادة بمنديل شفاف أسود مزين بنقاط (نقبة) أو بقلوب مذهبة أو فضية اللون، وتلفه من فوق المنديل بشال أحمر داكن (مسر).

فستان البنت الصغيرة يختلف عن فستان المرأة بكون جزئيه الأمامي والخلفي متساويين من حيث الطول، ولذا لا تلتف به البنت، بل ترتديه كالقميص (شكل رقم 6 - 15).

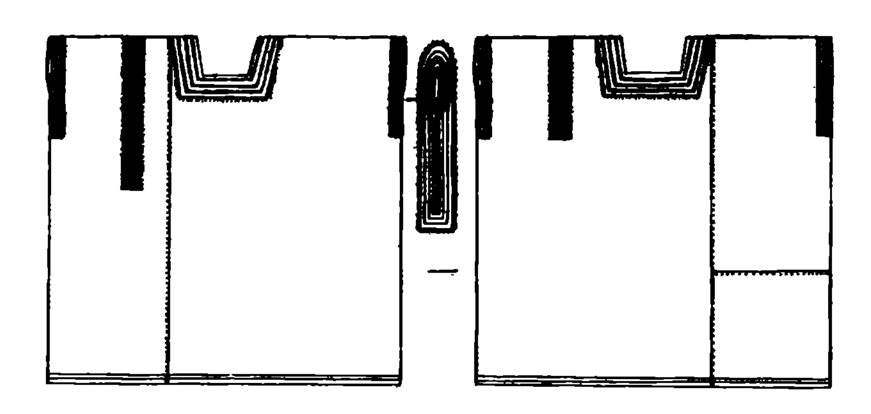
ثياب الرجال أبسط، ففي البداية قبل أن يظهر في الجزيرة السارونغ من خياطة معامل جنوب شرقي آسياً والذي هو عبارة عن مئزر أشبه بالتنورة لكلا الجنسين، وقبل أن يظهر لفاف الكتفين والعمامة، كانت التنورات الرجالية الفضفاضة المعمولة من القماش العادي



(شكل رقم 6 ـ 14)

منتشرة وتسمى في سقطرى ناقف وفوطة، وأحياناً شكا (تسمية قديمة جداً).

أما الآن فمعظم السقاطرة يرتدون الثياب العصرية ويتقيدون بالزي الإسلامي في الثياب. وأكثرية النساء يرتدين النقاب، فيما كانت وجوههن خلال عملي في الجزيرة في السبعينيات والثمانينيات مكشوفة دوما، وما كن يرتدين شيئاً فوق الفستان المشجر التقليدي سوى المنديل الملون.



(شكل رقم 6 ـ 15)

السقطريات معجبات بالحلي والزينة، وحتى الثمانينيات كانت العادة أن ترتدي المرأة عدة أزواج من الأقراط، لحد الثمانية، إلا أن هذه العادة انحسرت فيما بعد. لكنني رأيت العديد من النساء المتقدمات في السن وآذانهن مخرمة لكثرة ثقوب الأقراط. وبعد أن أخذ السقاطرة يسافرون للعمل والكسب في بلدان الخليج باتت نساؤهم يتزين بالحلي الذهبية الثقيلة نسبياً، كالخواتم والأقراط والأساور والقلائد.

مكائن الخياطة موجودة حتى في القرى النائية، والسقطريات يخيطن عليها الثياب ويطرزنها بالخيوط الفضية، الأقمشة تأتي من بلدان الخليج منذ زمن بعيد، والفساتين المطرزة بالخيوط الفضية غالية الثمن، بمعدل 17.5 ديناراً، ولذا فالنساء اللواتي يمتلكن ماكينات خياطة ويمارسن التطريز يمكن أن يكسبن كثيراً.

تقليعة الشعر عند بعض نساء سقطرى غير مألوفة بالنسبة لنا، بدا ذلك واضحاً خلال الفحوص التي أجراها طبيبنا للمرضى (شكل رقم 6 - 16). أم فاطمة مثلاً بشعر حليق قصير جداً عند الصدغين وعلى القفا، وهناك مفرق مستقيم على طول رأسها يتقاطع مع مفارق أخرى على عرضه. الشعر حول المفارق ناتئ بشدة ومضفور في ثلاث جدائل، اثنتان



(شكل رقم 6 ـ 16)

على الجانبين وراء الأذنين، والثالثة على القفا. كما رأينا تقليعة فريدة عند مريضة أخرى اسمها شيخة، قذالة أو ذؤابة قصيرة في الخلف وأخرى في الأمام، وباقي الشعر مضفور في جدائل متماسكة.

عموماً معظم نساء سقطرى يضفرن شعورهن في جدائل (اثنتين عادة). وفي العوائل الموسرة تزين النسوة وجوههن وأبدانهن عادة بصبغة صفراء، ويدهنّ شعورهن بالزيت من أجل البريق المتألق، في معظم العوائل تتزين المرأة وتتطيب على هذا النحو في الأعياد فقط.

وكانت حلاقة الأطفال الصغار وتقليعة شعر رؤوسهم غير مألوفة أيضاً، فالشعر يحلق بالكامل تقريباً، ولا يترك منه سوى طوق أو شريط ضيق حول الرأس وذؤابة على الهامة (شكل رقم 6 - 17).



(شكل رقم 6 ـ 17)

جمع البخور وإعداد النورة وطهي الطعام

كان جمع نسغ أشجار البخور والعطور، كاللبان والمر، وكذلك صموغ شجرة دم الأخوين من الأعمال المهمة في سقطرى سابقاً، إلا أن هذا النوع من الأعمال لم يعد مجزياً ولا

مربحاً في الفترة التي وصلتُ فيها إلى الجزيرة. ولعلي أقول إنه لم يعد ضرورياً، طالما أن سقطرى بقيت حتى تلك الفترة منزوية ومعزولة عن العالم لأمد طويل في الواقع، صحيح أن أسعار البخور في جنوب الجزيرة العربية ظلت مرتفعة نسبياً، إلا أن الطلب عليه كانت تلبيه إمكانات إنتاجه هناك، في حضرموت والمهرة. أما المساحات المسيجة بحدود حجرية في المنطقة الشرقية من سقطرى والتي كانت في غابر الزمان دون ريب، مزارع لأشجار البخور فقد باتت في الفترة التي نحن بصددها خالية ليس فيها سوى أشجار لبان نادرة متباعدة، وفي بعض الأحيان يجمع الأهالي صموغها. وذلك في فصل الصيف عادة، حيث يخدشون جذع الشجرة الناضجة في 10 - 12 موضعاً ويقتلعون قشرة اللحاء من تلك الخدوش.

كما لا يزالون يجمعون كميات غير كبيرة من صموغ الصبر أو الألوة (طيف بالسقطرية)، في الماضي كان الصبر المتحجر يعتبر وسيلة ناجعة لعلاج الإمساك ويصدر حتى إلى الهند، أما الآن فهو يستخدم من قبل السقاطرة وحدهم، وطريقتهم في جمعه هي تكديس أكوام من أوراق الصبر على جلود الأبقار المفروشة فيتجمع النسغ تحت ثقل الأكوام نفسها.

أما صموغ شجرة دم الأخوين أعريوب فالطلب عليها في السوق المحلي فقط، وبالحد الأدنى. ومما يثير الدهشة أن الطريقة القديمة التي كتب عنها ياقوت الحموي لإعداد الصموغ بنوعين لا تزال قائمة حتى اليوم. النوع الأول هو الصمغ أو النسغ الخالص الذي يسيل من الشجرة رأساً، ويسمونه أمزيلو، الحصول عليه يتطلب خدوشاً عميقة في جذع الشجرة، ويتحجر نسغها بعد بضعة أيام. والنوع الثاني هو الصمغ المعمول، من خلال دقة بالهاون ثم غليه وعجن أقراص منه تحوي أيضاً بقايا لحاء الشجر. ويسمى هذا النوع من الصموغ أدهة. والمثير أننا وجدنا في إحدى مقابر الجاهلية في شبهن (المنطقة الشرقية) قرصاً من الصمغ المعمول كالذي يصنعه السقاطرة في أيامنا هذه، وكان القرص محفوظاً بشكل جيد.

نسغ شجرة دم الأخوين يستخدم لعلاج الأمراض الجلدية والرمد، حيث يرش مسحوقه على العين المصابة بالتراخوما (دي عيهونته)، كما كان يستخدم بمثابة صبغة في نقوش الأواني الخزفية، والجرار تطلى بالصبغة وهي ساخنة بعد الحرق، ثم تلف في خرقة إلى أن تبرد.

ومن الأعمال المنتشرة في تلك الحقبة حرق صخور الشعاب (حشيوبة أو رخامة) للحصول على النورة. كان يمارس هذا العمل أهالي المناطق الساحلية، إلا أننا صادفنا

حفرات لاستحصال النورة في عدد من القرى البعيدة عن الشاطئ لمسافة كبيرة نسبياً.

لإعداد النورة يحفرون حفرة (محرقة) في الأرض ويلبّسون جدرانها (مرصوص) بالأحجار، ويضعون فيها حطباً من جذوع النخيل وغيرها، وفوقه كسر الشعاب التي تتحول بعد الحرق إلى نورة (تسمى بالسقطرية كما في العربية)، وتستخدم في طلاء الجدران وتبييضها، في قرية كدحة على مقربة من حديبو، حيث يقيم السادة من آل أبي بكر، التقيت الأهالي الذين كانوا يمارسون هذا العمل على الدوام. أكبرهم سناً ثاني بن سيد علي، حدثنا عن كيفية حرق النورة فقال: أحدثكم كيف نصنع النورة في الحفر وكيف نحفرها ونضع الأحجار وكيف نعد الحطب. قبل أن نبدأ الحرق ننقل الأحجار إلى المكان، ولهذا الغرض نقتطعها من الشعاب.

فإذا كانت كسر الأحجار كبيرة جداً نضطر إلى تكسيرها هنا لتغدو صغيرة، وإلا فإنها لن تحترق، وإذا لم تحترق بالشكل المطلوب لن نحصل على النورة، وعندما يجلبون لنا الأحجار نبدأ بحفر المحرقة، وهو أمر سهل، والأصعب منه رص الجدران ووضع الحطب بشكل يساعد على الاحتراق الجيد. وفوق الحطب نضع قطع الحجر بحيث لا تعيق اشتعال النار، وهذا يتطلب استدعاء أسطى متخصص بالصخور والأحجار. وهو يأتي مع عماله، فيرصون الجدران ويضعون الحطب وأحجار الشعاب بالكيفية المطلوبة. ثم تشتعل النار في الحطب ويجري حرق الأحجار. وبعد احتراق الحطب وحرق الأحجار ننتظر ما بين يوم وثلاثة أيام، ثم نصب الماء عليها، ثم نترك النورة لتجف، خمسة أو ستة أيام. وعندما تجف النورة نجمعها في أكياس، ونبيعها ليتمكن الناس من تبييض السقوف والجدران، نحن نصنع النورة ثلاثتنا على أساس المحاصصة، ونبيعها معاً ونتقاسم المداخيل...

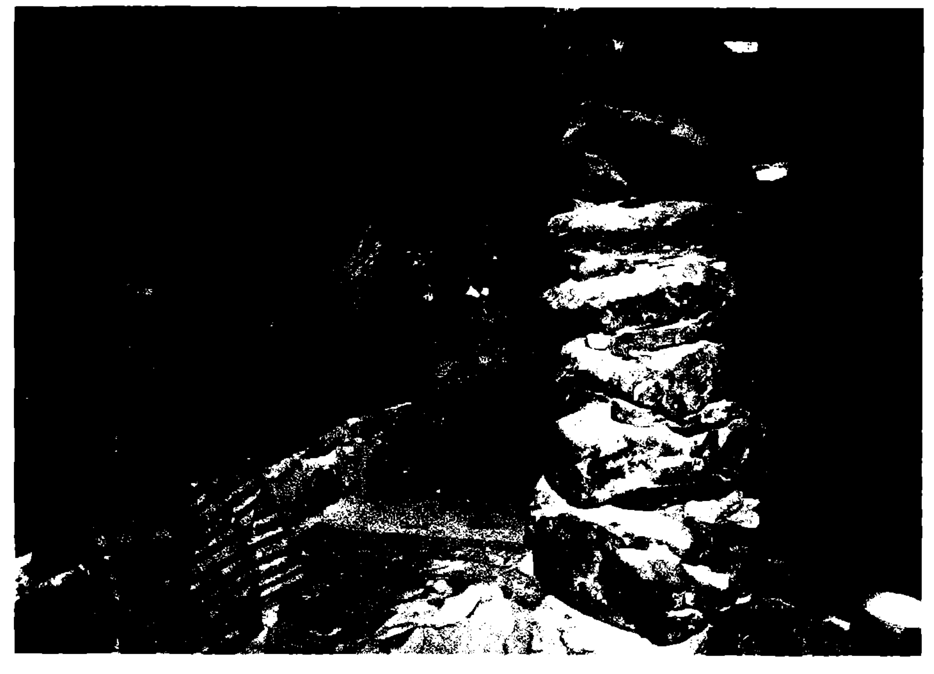
هكذا كان الحال في تلك الفترة، وفي أيامنا هذه اختفت ظاهرة إعداد النورة تقريباً.

طعام السقاطرة آنذاك كان يفتقر إلى التنوع، والدور الأساسي في طبق الطعام عند الرعاة يعود كما أسلفنا إلى اللبن والتمر، وعند الصيادين إلى السمك والتمر. أما الحبوب فقلما كانت تستعمل في الطعام سابقاً، الجبليون كانوا يغرسون الذرة السكرية التي يسمونها بامبة (بمبة)، إلا أن زراعتها توقفت في الثمانينيات، فيما انتشر الرز، المستورد طبعاً، في كل مكان. وبات السقاطرة يستهلكون المزيد من الشاي والسكر والخضروات والرغيف المخبوز، إلا أن الشاي ظل نادراً بالنسبة للبعض في الجزيرة.

نحر الذبائح الحلال يرتبط بطقوس وتقاليد يتقيد بها الناس دوماً، ولكي ينحر السقطري



(شكل رقم 6 ـ 18)



(شكل رقم 6 ـ 19)

نعجة أو معزاة يلقيها على جنبها في البداية، ويقص عنقها بالسكين متوجهاً صوب القبلة، كما تنص عليه الشريعة الإسلامية، ثم يعلق الذبيحة على غصن شجرة لينسكب دمها بالكامل. ثم يقطع رأسها، وكذلك كروعها (الأظلاف)، ويقص الجلد على قوائمها دائريا، ثم على طول القائمة ويدس يده تحت الجلد ويفصله عن اللحم. الجلد يفصل وينتزع عن الدابة، كالجورب، باتجاه الرأس. كما يقتلع الجزار العينين من الرأس المقطوع، وبعد ذلك يمضي في تقطيع الذبيحة إلى أجزاء.

الكبد والكليتان (الأحشاء) يتم شويها قليلاً على الصخر المسخن أو على جمر الموقد. ويتناولها الناس قبل أن تنضج بالكامل، والرأس يشطر بالفأس إلى شطرين، طوليين عادة، ويتم حرق شعره على نار الموقد، أما اللحم المقطّع فيطبخ في قدر. وبالأصابع يتم الضغط على الأمعاء الغليظة لتخليصها مما فيها، ثم تملأ بالسمن وتطبخ أيضاً. فيما تطبخ الأمعاء الدقيقة من دون تمهيد مسبق، مع ربطها بشكل حزمة في بعض الأحيان. الرعاة يعتبرون المعدة طبقاً مميزاً بخاصة، ويقطّعونها نصفين ويطبخونها مع محتوياتها في قصعة بمعزل عن اللحم.

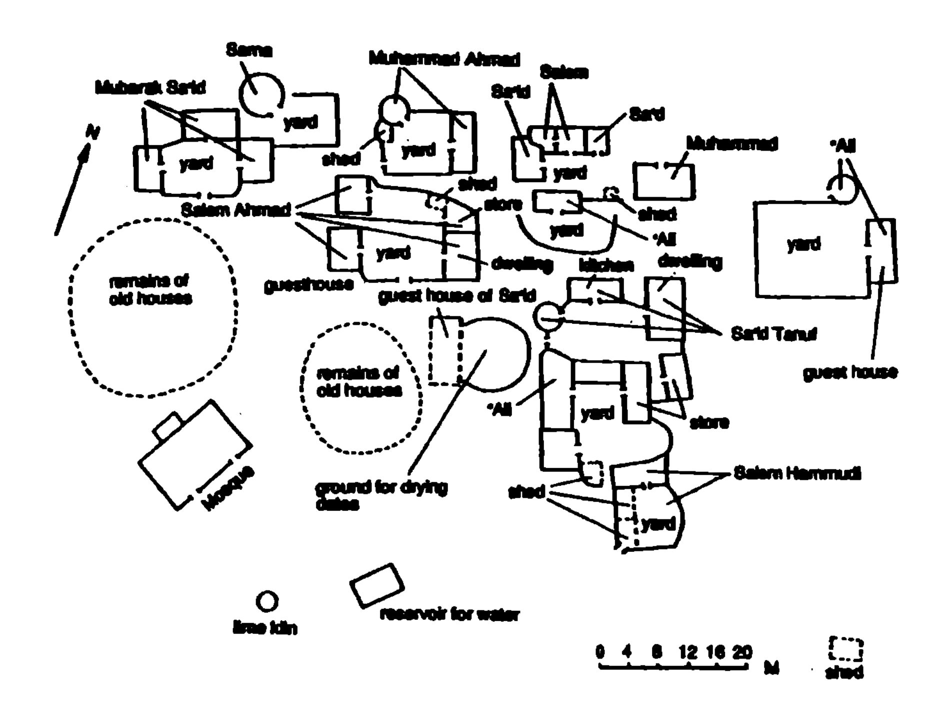
لحم الذبيحة المطبوخ يجرد من العظام، وتوزع كل العظام (كرمهم) مع الرأس وتوضع على السفرة قبل اللحم، بصفتها مقدمة للمأدبة. يعالج السقاطرة تلك العظام بحجرين، وما أكثر الأحجار في سقطرى!.. يهشمون العظام ويمتصون نخاعها بتلذذ، ويقتلعون بأسنانهم بقايا اللحم العالق بها، فلا تبذير ولا هدر أو تفريط. وبعد مشقة تذليل العظام يشعرون بشهية عارمة إلى الحساء الذي يأتي في أعقاب «مقدمة» الوليمة، ثم يأتي طبق اللحم المطبوخ مع الرز (شكل رقم 6 - 18 و 6 - 19).

تركيبة القرى وأشكال المباني

كل قرية في سقطرى تكاد تكون موطناً أو مقاماً حصرياً لفخذ واحد من قبيلة ما، وإذا كان الفخذ كبيراً فإنه يشغل في الغالب عدة قرى، وينقسم في هذه الحال إلى مجموعة من البطون والعوائل الكبيرة. وخلافاً لجنوب اليمن، حيث تسمى المراكز السكنية أحياناً بأسماء ساكنيها من القبائل والأفخاذ، لا تتوافق مسميات القرى في سقطرى مع أسماء ساكنيها، القرى السقطرية صغيرة في العادة، أكبرها يتكون من بضع عشرات من المنازل والبيوت.

وقد اخترنا قرية حاصن نموذجاً درسناه بالتفصيل (شكل رقم 6 - 20)، لم تكن القرية كبيرة، سكانها آنذاك قرابة 50 شخصاً. إلا أنها كانت تلعب دوراً مهماً لأنها مركز لمنطقة فرعية مصغرة تضم مجموعة من المراكز السكنية المتقاربة. في هذه القرية يقيم علي مبارك علي، شيخ قبائل منطقة حاصن. وأنا استميح عائلته الكريمة عذراً لأني ربما تماديت في الحديث عنها، وعذري أنها باتت مثالاً نموذجياً في دراستي لهذه المنطقة.

توجد قرية حاصن في وادٍ يقع في الجزء الأوسط من جزيرة سقطرى، على منتصف الطريق الممتد من الساحل الشمالي إلى الساحل الجنوبي، وهي تعطينا مؤشراً على أحد سبل نشوء القرى السقطرية. فقد استقر فيها أبناء قبائل مختلفة كانوا في السابق مرتبطين بهذه الأراضي، فانتسبوا بمر الزمن إلى فخذ حاصنهو (الحواصن)، ولم يبق أحد من الحواصن الأصليين إلا فيما ندر، ولربما انقرضت بقايا القبيلة التي سكنت هذه البقعة في السابق. بعض السكان الحاليين نزحوا من قرية سرهن الجبلية المطلة على حاصن، وفي تلك القرية تقيم ثلاثة أفخاذ من أبناء قبيلة عبدهو المترابطين بأواصر القربى: محفرهن وبارعبودهل وكاشي.



(شكل رقم 6 ـ 20)

كنت قد سجلت في العام 1984 الكيفية التي جرى فيها إسكان قرية حاصن، ففي أراضي فخذ بار عبدوهل كان يقيم مبارك علي وزوجته حليمة (حلمهن)، وبعد ميلاد ابنهما البكر علي في الأربعينيات انفصلت حليمة عن مبارك وتزوجت من سلوم الحاصني وانتقلت إلى بيته في حاصن، وأنجبت له ابنهما سعيد. إلا أن زوجها الجديد سلوم سرعان ما توفي، فعادت إلى زوجها الأول في الجبل بعد انتهاء العدة، ثم انتقلوا جميعاً إلى حاصن، لأنه بقيت فيها لسعيد تركته من والده المتوفى (ماشية ومنزل ونخيل)، وبذلك بات مبارك وزوجته حليمة من أفراد قبيلة حاصنهو. أنجبت حليمة لمبارك ستة أولاد آخرين، توفي ثلاثة منهم.

وعلى الرغم من أن نزوح مبارك إلى حاصن جاء لملابسات تتعلق بحياته الشخصية، إن صح التعبير، فإن العوامل الموضوعية لنزوح القبائل والأفراد لعبت دورها على أية حال. يعتقد أولاد مبارك أن الهجرة إلى هنا تمت في موسم القحط ونفق الماشية، حيث احتل الذين نزحوا بحثاً عن المراعي بعض الأراضي التي خلت بعد أن غادرتها قبائل أخرى. وإلى ذلك فإن قبائل سرهن كانت تسيطر على الوادي من زمان وتمتلك فيه نخيلاً، وكان من دوافع مغادرة العائلة لقريتها الضغط الشديد على المراعي الذي لوحظ في سنوات الخير، حيث الوفيات كانت أقل من المعتاد وعدد السكان في ازدياد.

مبارك توفي عام 1984 عن عمر ناهز الثانية والسبعين، وبقي في عائلته أولاده الأربعة علي وسالم ومحمد وسعد. كانت عائلة مبارك تعيش في منزل على الطرف الشمالي للقرية، وعندما تزوج أولاده بنى اثنان منهم بيتين على مقربة من منزل الأب، فيما ظل الأخوان الآخران مقيمين مع والدهما.

لهذا المنزل جناحان أو مشتملان على زاويتين حادتين من بعضهما، ويشكلان جانبين من الباحة (الحوش) التي لا يخلو منها أي منزل في سقطرى، مساحة الباحات في منازل حاصن تتراوح بين 50 إلى 100 متر مربع، وعلى أطراف الباحة تقوم المباني من جانبين عادة، وكأنها سياجان يلتقيان في الركن أو يقابل أحدهما الآخر، ونادراً ما تكون المباني من ثلاث جهات. الجناح الجنوبي الغربي المكون من غرفة كبيرة واحدة كان يشغله مبارك وزوجته، وقد ظلت حليمة فيه بعد وفاته مع ابنها الأعزب سعيد سلوم، المقعد بسبب كساح أصيب به في الطفولة، على الأرجح، وفي الجناح الشمالي الغربي غرفتان يشغلهما سالم بن مبارك البالغ آنذاك الخامسة والعشرين من العمر، مع زوجته من قبيلة دي فعرهو المقيمة

جنوبي حاصن، وأولادهما الأربعة (ثلاثة صبية وبنت). والغرفة الثالثة في الجناح يشغلها سعد (19 عاما) وزوجته، من قبيلة شربهي المقيمة في الوادي قرب حاصن، وولداهما الصغيران.

يلتصق بباحة منزل الوالد من جهة الجنوب الشرقي بيت ابنه البكر علي، وللبيت باحته المنفصلة وفسحة مسقفة، كان علي في السادسة والثلاثين، متزوجاً من ابنة عمه سالم حمودي علي، وله منها ولد في الثامنة من العمر. كما بنى علي في الطرف الشمالي الشرقي من القرية ديوانية أو مضيفاً (مقعداً) يعتبر المبنى الرئيسي في حاصن، خاصة أنه قائم على تلة هناك، وأمامه باحة كبيرة على طرفها عرصة، هي عبارة عن كوخ صغير مسقوف بالسعف.

وكانت تلاصق منزل الأب من الشمال الغربي بناية بيت محمد، وهي بناية كبيرة واحدة من دون باحة، وتستخدم للضيافة وللمبيت، محمد يسميها «محاضرة»، بمعنى غرفة حضور واستقبال. وقد يعود ذلك إلى أن محمداً الذي كان يخدم في شرطة حديبو، ولديه منزل في المدينة، لا يقيم دائمياً في حاصن، بل يتردد عليها بين الحين والآخر. زوجة محمد مهوى الخطيب، من آل ستحي من قبيلة شعرهو المقيمة في منطقة جبل طوف شمال حاصن، وللزوجين أربع بنات.

عندما نزح مبارك من الجبال إلى حاصن جلب معه الماشية التي ورثها عن أبيه وأخذ يرعاها في المراعي القريبة، لكنه لم يكن يمتلك نخيلاً في وادي حاصن، أما الخمسون نخلة التي في تركة والده فهي بعيدة، في منطقة ديشتان بوادي ديشهل، حيث المسافة إليها من حاصن تستغرق ذهاباً وإياباً يوماً بكامله. في بادئ الأمر كانت الماشية والنخيل جميعاً في عائدية هذه العائلة الأبوية الكبيرة. وفيما بعد عندما تقدم مبارك في السن، انتقلت مهام رب الأسرة وشيخ القبيلة إلى ابنه البكر علي، وعندما تزوج الأبناء خصص الوالد لكل منهم هدية زفاف جزءاً من قطيع العائلة.

وبعد وفاته تم تقسيم قطيعه إلى قسمين، استلم أحدهما بالتوافق كل من سالم وسعد المقيمين في منزل واحد ولهما اقتصاديات مشتركة. فيما استلم القسم الآخر علي ومحمد. ويتكون كل قسم من 150 - 200 رأس أكثرها من المعز. واحتفظت الأم بحصتها من القطيع، بشرط أن تقسم بين أولادها بعد وفاتها. وعلى الرغم من انفصال علي ومحمد اقتصادياً، لأن عائلتيهما تعيشان على انفراد، فإن ملكيتهما ظلت مشتركة، وقد تعوّدا على

اقتسام المنتجات وعائدات بيعها بالتساوي، وكذلك باقي العائدات النقدية، بما فيها راتب محمد (50 ديناراً في تلك الفترة)، بعد تخصيص مبلغ معين لطعام العائلتين والشؤون المنزلية والثياب وما إلى ذلك، إلا أنهما كانا يقومان بالمشتريات الكبيرة معاً.

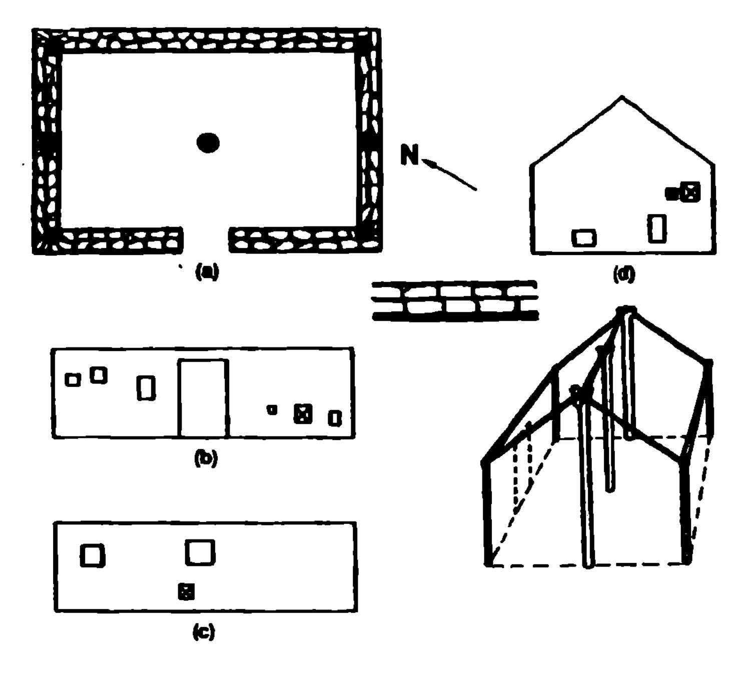
جنب منزل مبارك كان يقيم في السابق تنوف سعد علي الذي نزح إلى حاصن من قبيلة بودرهن المقيمة على مقربة من أربهو، في جبال الجزء الجنوبي من سقطرى، ويفصل بيته عن منزل علي مبارك ممر ضيق في جنوب شرق المنزل. وبعد وفاته ظل يقيم في البيت ابنه سعيد البالغ آنذاك 25 عاماً مع زوجته من القبيلة نفسها وابنهما وبناتهما الثلاث. بيت سعيد يحوي أربع بنايات إحداها سكنية من نوع (قاعر)، والأخرى غرفة استقبال أو ضيافة (محاضرة) والثالثة مستودع (مخزن) (شكل رقم 6 - 21) والرابعة (مطبخ)، وفي وسط الباحة موقد أو تنور.

وهناك أيضاً فسحة (مسطح) لتجفيف التمور، وجنبها أساسات بيت ضيافة كان سعيد يواصل بناءه. وقد ورث سعيد عن أبيه 60 رأساً من المعز والأغنام بالإضافة إلى 70 - 80 نخلة في وادي حاصن على مقربة من القرية. والدة سعيد، وهي من منطقة جسفو الجبلية جنوبي حاصن، تزوجت بعد وفاة أبيه من سالم حمودي علي، شقيق مبارك، ومنزله مجاور لمنزل سعيد من الجنوب الشرقي. وولد لسالم عن هذا الزواج ابنه علي الذي يقيم في ذات المكان مع زوجته وابنه.

زوجة سالم تحديداً من أهالي قرية حصلينو في الجبال المطلة على حاصن (قبيلة بيت حبوة)، وقد نزح أبوها مؤخراً إلى حاصن، وكان للأب والابن بيتان منفصلان وباحتان مستقلتان في الواقع، إلا أنهما متلاصقتان. بيت علي مفصول عن بيت سعيد بسياج من الجريد، ويضم بنايتين سكنيتين ومستودعاً وفسحة مسقوفة (طارمة)، فيما يضم بيت سالم بناية واحدة وفسحتين مسقوفتين. يمتلك سالم مع علي 60 نخلة في وادي حاصن، وقطيع معز من 60 رأساً، كما تمتلك زوجة سالم بضع عشرات من النخيل في وادي جسفو.

في آخر الصف التالي من المنازل، لجهة الشمال الغربي، ينتصب كوخ مدبب السطح (ستيره) عاش فيه أحمد قبل وفاته من سنوات، وكان أحمد قد نزح إلى حاصن قبل 60 عاماً تقريبا من قبيلة شزبهو في شرقي سقطرى بعد زواجه من امرأة من سرهن، يقيم في منزل أحمد الآن ابنه البكر محمد البالغ من العمر أربعين عاماً مع زوجته وأطفاله (ولدين وأربع بنات).

والمنزل مكون من بناية سكنية من طراز قاعر، ومن الكوخ المدبب الآنف الذكر وفسحة مسقوفة (طارمة) وباحة، وهناك ممر بينه وبين منزل الأخ الأصغر سالم البالغ من العمر 26 عاماً، وهو متزوج وله ولدان وبنتان. وقد ورث الأخوان عن والدهما أحمد 70 نخلة في وادي حاصن وقطيعاً من 50 رأساً من المعز والأغنام، كما أن والدتهما تمتلك بضع نخلات في منطقة سرهون.



(شكل رقم 6 ـ 21)

زوجة سالم بن أحمد «جلبت» للعائلة 30 نخلة في وادي حاصن و 20 رأساً من الماشية، العائلتان تساعد إحداهما الأخرى، على الرغم من أنهما تقتاتان على انفراد، وفي الطرف الغربي من القرية يقع منزل مبارك سعد حسني. وهو الشخص الوحيد من أهالي حاصن الأصليين المقيمين هنا أباً عن جد، متزوج وله ولدان وبنتان. يعمل في شرطة حديبو ولديه هناك منزل يقيم فيه دائماً. أما بيته في حاصن فهو مكون من ثلاث بنايات سكنية من طراز قاعر تشكل ثلاث جهات للباحة. وكان يقيم معه في المنزل خاله جمعة سعيد حبوه من قبيلة بيت حبوه (حصلينو)، وكان جمعة يمتلك 15 رأساً من المعز و 30 نخلة في وادي حاصن.

إلا أن البعض يعتبرونه غريباً على القرية، ولذا يتصرف انطلاقاً من هذا الموقف ولا يختلط بالأهالي إلا فيما ندر، وقد نصحنا علي مبارك، عندما أجرينا استطلاع الرأي في القرية، أن لا ندخل بيت جمعة، فلربما سيشعر أهل البيت بالضيق من زيارتنا لأنهم يعتبرون أنفسهم غرباء. لجمعة ولدان متزوجان يقيمان في مكان آخر، وابنتان إحداهما متزوجة من علي سالم في حاصن، والأخرى متزوجة من حضرمي يعمل في دولة الإمارات العربية المتحدة، وخلال زيارتي للقرية كانت ابنة جمعة هذه تقيم مع ابنتيها هنا، في منزل والديها، وتتلقى من زوجها على ما يبدو معونة مالية وعينية.

أواصل توصيف القرية على الحالة التي كانت فيها عام 1984. قرب منزل مبارك سعد حسني يقوم كوخ مدبب السطح عائد لامرأة اسمها سما سؤنهن، والدها نزح في الماضي إلى حاصن من كرهو الواقعة جنوب غربي سقطرى. توفي زوجها مخلفاً ابناً واحداً، يخدم حاليا في شرطة حديبو، ولديه هناك منزل يقيم فيه مع عائلته ووالدته سما التي تتردد على حاصن بين فترة وأخرى. وتمتلك سما مع اختها المقيمة في حديبو ولا تترد على حاصن بتاتاً، عشرين نخلة في الوادي وعدداً صغيراً من المعز يرعاه ويسهر عليه وعلى النخيل إبن خالهما من بيت حبوه. وتأتي سما إلى حاصن عادة لتأخذ حصتها من المنتجات، بشكل تمور وزبدة أساساً. بيت عائلة سما القديم تهدم لأن أحداً لم يسكنه أمداً طويلاً (بقايا المنازل القديمة تبدو على الخريطة في دائرتين منقطتين)، ولذا تكتفي المرأة بالكوخ المدبب عندما تتردد على حاصن.

في الجزء الجنوبي الغربي من قرية حاصن تقع أنقاض منازل قديمة هجرها أهلها في حينه، ولا يسعنا إلا أن نفترض بأن القرية خلت من أهلها الأصليين قبيل موجة نزوح أبناء المناطق القبلية المجاورة إليها واستقرارهم فيها.

حتى عام 1984 اتخذ الأهالي من الفسحة المسقفة جنوب شرقي القرية، على خط مضيف علي مبارك، مصلى لهم، إلا أن إحدى نساء القرية، من المقيمات في دولة الإمارات العربية المتحدة من زمان واللواتي جمعن ثروة هناك، تبرعت ببناء مسجد لأهالي حاصن وبنفقات أنبوب امتد من بئر حفرت على مقربة من القرية يوصل الماء إلى حوض جنب المسجد، كما توجد في القرية محرقة لصنع النورة المستخدمة في البناء.

البيت السقطري المبني من الحجر والطين، سواء على الساحل أم في الجبال، يسمى قاعر، كما أن لدى الجبليين طرازاً آخر من المساكن أشبه بالمستودع المستطيل المسقف

بالجريد، ويسمونه عريش إذا كان صغيراً وخرابي إذا كان كبيراً. وتصادف لدى الجبليين وأهالي السواحل أكواخ من سعف النخيل أشبه بالأكواخ الأفريقية من حيث شكلها الأسطواني، وهي أكواخ واطئة، لكن سطوحها المخروطية المغطاة بسعف النخيل عالية، وتسمى ستيره، كما يسمى الكوخ الكبير ستيره دي كمبلل.

ويتخذ الجبليون أثناء رعي الأغنام من الكهوف والمغارات الحجرية الطبيعية مأوى لهم، المغارة الصغيرة تسمى حاكك، والكبيرة طريبو أو طريبة. وفي منازل الجبليين توجد عادة فسحة دائرية (مسطح) محمية عن الماشية بسياج من الحجر والأشواك لتجفيف التمر بعد تخليصه من النوى، ثم حفظه مكبوساً في القرب لفصل الشتاء.

زرنا في قرية حاصن مضيف الشيخ علي مبارك، وهو ديوان كبير نسبياً تتجاوز مساحته 21 متراً مربعاً (5.9 × 3.6 أمتار)، جدرانه مرصوفة بصفين من الأحجار الكبيرة غير المنحوتة (بنووا ظفوري) والمتساوية في الحجم، وفيما بينها أحجار صغيرة. الجدران مطلية بالطين من الداخل، والطين (قص) يجلب من وادي النخيل مصيرة، ثم يخفف بالماء وترش به الجدران رشاً، فلا يكون سطحها صقيلاً، بل فيه نتوءات ومسامات. وفي الأركان أسانيد أو دعامات من خشب كنهر، وفي الوسط ثلاثة أوتاد من خشب أشهب منفرجة في أعلاها كالمرجام، والسطح يبنى من خشب ميترر ومن الجريد وعليه فرشة من حصران الخوص.

الجدران مزدوجة من صخور غير متوازية وغير منحوتة، لكنها منتقاة جيداً، وبين الأحجار الكبيرة أخرى صغيرة في بعض المواضع، والبناية مطلية بالطين من الداخل كما أسلفنا.

أوتاد الإسناد والعوارض التي تستقر عليها تصنع عادة من خشب أشجار مختلفة الأنواع، أما في المنطقة الشرقية فالكثيرون يستخدمون جذوع النخيل، العوارض المرتكزة على الجدران الحجرية من جهة وعلى العارضة الوسطى المستقرة على الأوتاد من الجهة الأخرى تغطى بشبكة من الجريد تشد بليف النخل المفتول في مواضع التقاطع مع العوارض، ومن فوق تفرش عليها حزم من السعف.

وجدنا بيتاً مبنياً بهذه الطريقة، على سبيل المثال، في قرية بجويج (المنطقة الشرقية) مساحته 7 × 4 أمتار. وفي قرية سديهن التي عرضت علينا نسوة فيها شراء بطانيات منسوجة رأينا مضيفاً مستطيل الشكل مساحته 8 × 4 بوتدين حاملين تحت سقف مستو.

وفي قرية دي فعرهو التي تبعد مسيرة ساعة عن حاصن جنوباً تفقدنا عدة منازل للأهالي تضم بنايات سكنية وأخرى للشؤون المنزلية والاقتصادية، وقد اعتاد سلاطين بني عفرار أن يتزوجوا من نساء دي فعرهو، وكانوا يترددون على هذه المنطقة ويقضون فيها بعض الوقت، ويعهدون للمرضعات في القرية برضاعة أولادهم.

الشكل رقم 6 - 22، على سبيل المثال، يوضح مخطط منزل كسائر منازل القرية، فوق: 1. غرفة الاستقبال (محاضرة)، 2. الباحة أو الحوش (حجيو)، 3. غرفة النوم (ستيره)، وهي في النهار غرفة الحريم، 4. المطبخ والمستودع (شمهل)، وهو مشتمل يمكن النوم فيه، 5. فسحة تجفيف التمر (مسطح)، 6. مشجب أو شماعة (سكية أو سكا) على أوتاد من الجريد لتعليق الثياب. تحت: المدخل الحجري ويتكون من جزئين : 1. البلاطة العلوية (مشيفو) ، 2. الوتدين أو الضلعين الجانبيين (معظر وجمعها معوظر)، وهما من عدة أحجار مرصوفة بعضها على بعض. ويغطى المدخل بستارة أو باب من جريد (زفنة) مربوط بعضه إلى بعض، كما في المشجب. ويغلق «الباب» (شكل رقم 6 - 26) بربطه إلى ضلع أو وتد المدخل (مازره).

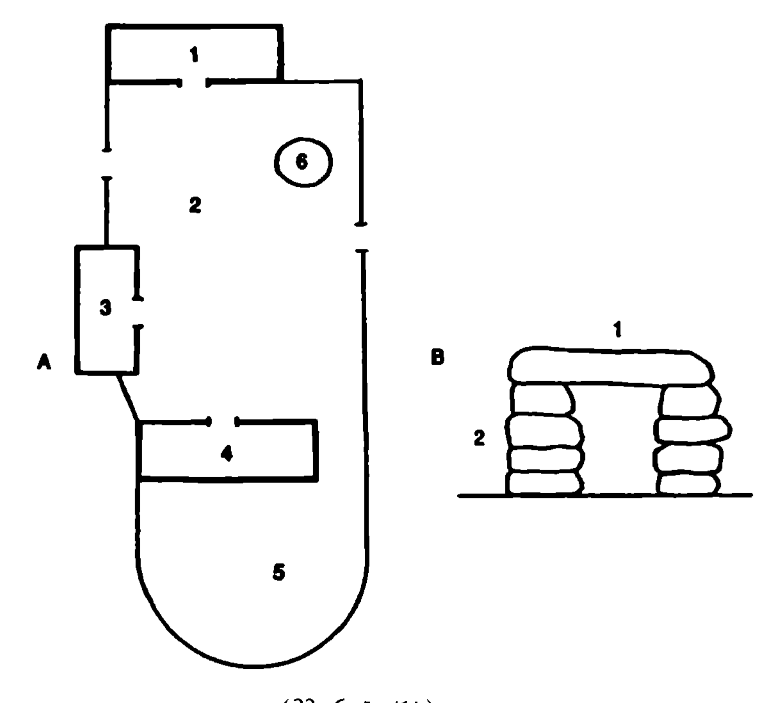
البناية السكنية عادة ترصف من حجر (في الحالة التي نحن بصددها بنيت غرفة الاستقبال والمطبخ بنفس الطراز)، في الوسط قاعدتان حجريتان (مرعيبي) للاسناد يقوم عليهما وتدان خشبيان لعوارض السقف (مصيدك وجمعها مصيديك).

تركنا دي فعرهو متوجهين نحو السهل الساحلي الجنوبي، فوصلنا جزءه المغطى بالكثبان الرملية، إنه سهل نوجد. وفيه فاجأنا الفارق الكبير البادي للعيان بين قراه وبين كل القرى التي رأيناها في سقطرى. فمعظم مباني قرى نوجد أكواخ ذات سطوح مخروطية من سعف النخيل، وجدرانها أيضاً من السعف والجريد، ولا وجود للمباني الحجرية تقريباً.

أكواخ السعف قائمة على الرمال، ومنظرها خلاب فريد، لون السعف اليابس الرمادي يتقاطع مع لون الرمال الأصفر الفاتح وخضرة النباتات الغامقة، كل ذلك على خلفية مياه البحر السماوية الزرقاء. هذه اللوحة تنبسط على امتداد الجزء الرملي من السهل، ثم يتغير طراز البناء عندما تنتهي الرمال وتحل التربة الصخرية محلها.

ففي قرية قعرة الواقعة في الجزء الغربي من السهل الساحلي الجنوبي، قرب رأس قطنهن، كل المنازل مبنية من صخور الشعاب البحرية، ومعظمها تنتصب على انفراد من دون باحات أو أحواش كبيرة. وقليل منها تتبعه باحات صغيرة مسيجة، أحد المنازل التي

زرناها عبارة عن بناية مسطحة بيضوية الشكل مساحتها 5 × 4 أمتار، وفي وسطها



(شكل رقم 6 ـ 22)



(شكل رقم 6 ـ 23)

وتدان أو عمودان للإسناد مرصوفان من حجر بدون مخلوط تثبيت، ولا يتجاوز ارتفاعهما المترين. وعلى الجدران وعارضة الوتدين تستقر أطراف جذوع الميطين المغطاة بطبقة طينية تشكل سطح البناء، وعلى مدخل البيت، ومقياسه 150 × 80 سنتمتراً، باب بشكل ستارة من جريد السعف (شكل رقم 6 - 24).

وإلى جانب هذا النوع من المباني توجد هنا، كما في سائر أرجاء الجزيرة، أكواخ مخروطية الشكل.

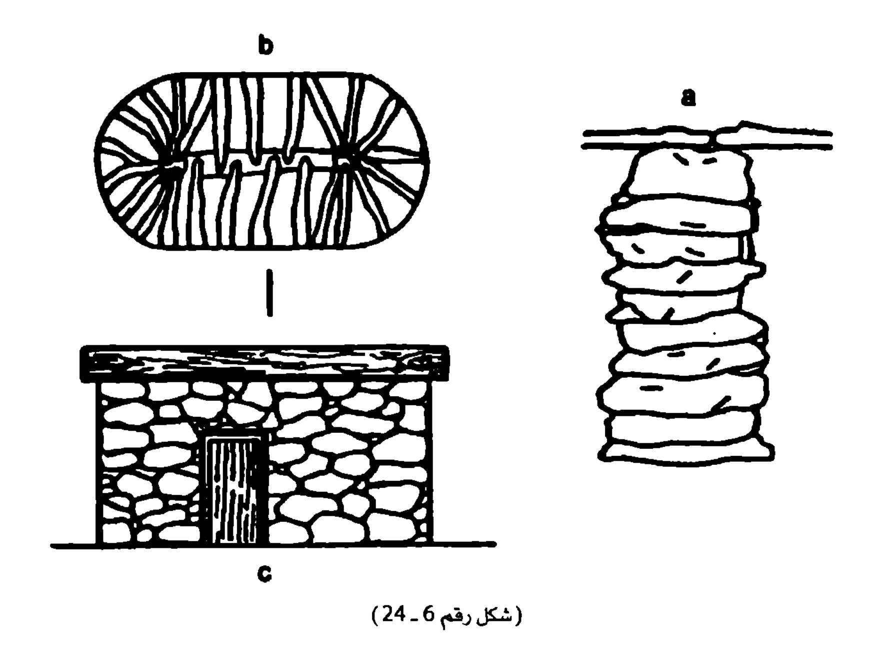
كان لأحد أهالي قعرة واسمه عيسى، مسكن أشبه بالضيعة مع باحة ومشتملات لمختلف الأغراض الاقتصادية (شكل رقم 6 - 25)، أكبر غرفة في المسكن درفين (1) مساحتها 21 متراً مربعاً، وهي للاستقبال، وفي وسطها وتدان للارتكاز أعلى من الجدران، ولذا فإن سطحها منحدر إلى الجانبين، وليس مستوياً. وهناك كوخان (2 و 3) أكبرهما مطبخ، وأصغرهما غرفة سكن للنساء، والمبنيان الآخران (4 و 5) للسكن أيضاً.

أما منازل الرعاة المقيمين في حجهر والوديان الجبلية في المنطقة الوسطى فمعظمها بنايات مستطيلة مبنية بشتى السبل من أحجار منحوتة وغير منحوتة، إلى جانب أكواخ حجرية مستديرة الشكل بسطوح مخروطية عالية. الشكل رقم 6 - 26 يمثل مخططاً لمنزل أحد الأهالي الجبليين مكون من ثلاث بنايات: 1. دار من طراز حاصر، و 2 - 3 كوخان جدرانهما من الحجر وليس من السعف والجريد (ستيره دي كمبلل). علماً أن لكل طراز من المباني تسميته الخاصة، لكنّ التسميات لا تتطابق دوماً مع المسميات ومع الأغراض المخصصة لها. فالكوخ المخروطي مثلاً يمكن أن يستخدم للسكن كما للأغراض المنزلية والاقتصادية.

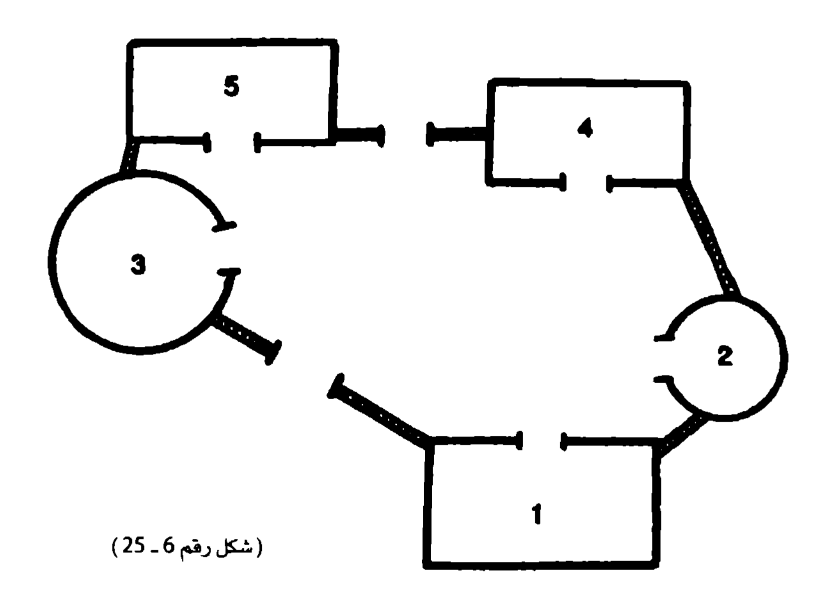
الكثيرون من الجبليين في تلك الحقبة اتخذوا لأنفسهم منازل في المغارات الطبيعية، وفي مثل هذه الحالات كانوا يقيمون جداراً من الأحجار قبالة المغارة، وهي تغدو في بعض الأحيان منزلاً أساسياً دائماً، وفي بعضها الآخر ملجأ وقتياً لموسم الترحال مع الماشية إلى تلك المناطق.

إذا كانت مساكن الجبليين بالأساس من طراز الضيعة الريفية، فإن مسكن أهالي الساحل لا يحتوي عادة على بنايات ومشتملات إضافية كثيرة، وهو يتكون من بنايات محاطة بجدران. العائلة تعيش في الغرفة المسماة درفين، كما توجد غرفة استقبال

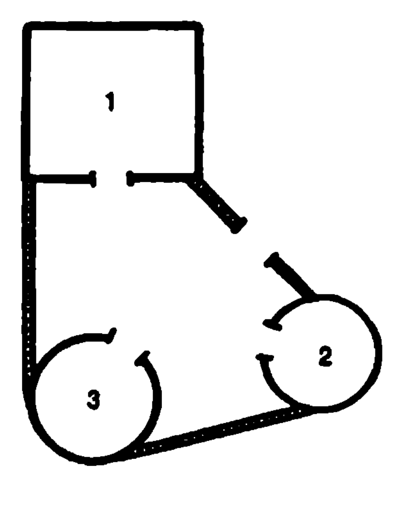
للضيافة، وهناك على انفراد مطبخ ومستودع. وإلى ذلك يوجد مغسل أو حمام (مغستل)



(شكل رقم 6 ـ 24)



(شكل رقم 6 ـ 25)



(شكل رقم 6 ـ 26)

ومرحاض (بشورة) وبئر (عيبهر). وفي الباحة نخيل، وأحياناً بستان صغير للخضروات (بستن دي معيشه). الباحة كلها مسيجة بسور من طين مطعّم بالمحار (عرابة)، ولمدخل البيت عبر الجدار باب كالمعتاد (تير)، جدران المنازل في المناطق الساحلية تطلى بالطين أو النورة. فيقرية قعرة وغيرها من قرى الجنوب الغربي تطلق تسمية مكوتي على البناية السكنية الأساسية في المنزل.

وقد سجل السقاطرة مهارة كبيرة في معالجة الحجر، الأمر الذي تجسد في صنع أنواع المطاحن الحجرية اليدوية (رحى)، كما نراها في الشكل رقم 6 - 27 و 6 - 28.

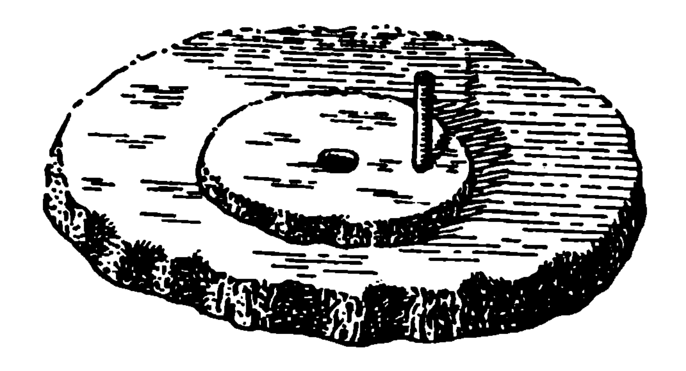
سطوح المنازل متنوعة أيضاً، فهي يمكن أن تكون من حزم السعف المفروشة على عوارض خشبية، وتغطيها طبقة طينية إذا كان السطح مستوياً، أما إذا كان منحدراً إلى الجانبين أو مخروطياً فالحزم لا تغطى بالطين طبعاً. كما نصادف سطوحاً من بلاطات ترصف على عوارض متقاربة ومتلاصقة من جذوع النخيل، وفوقها تفرش طبقة من الطين، هذا النوع من السطوح لا تتسرب عبره المياه حتى لو تساقط المطر مدراراً طوال أيام.

منذ الثمانينيات أخذ يزداد في حديبو وقلنسية وقرى الساحل الشمالي عدد الدور المبنية من الحجر المنحوت دون إتقان والمثبت بملاط الإسمنت.

تقوم جدران البيت على أساسات، هي عبارة عن قنوات تحفر في الأرض على عمق 30

سنتمتراً وتملأ بالحجارة. وعليها يرصف الجدار ويجري (شبك البناء)، حسب التعبير

(شكل رقم 6 ـ 27)



(شكل رقم 6 ـ 28)

المحلي، بصفين من الأحجار (ظفوري). مخلوط تثبيت الجدران يتم إعداده بنسب معينة، هي مقدار من الرمل مع خمسة مقادير من النورة، ويسمى المخلوط عندهم خلطة أو خلاط، فيما يسمى موضع الخلط مخلبة.

وتترك في الجدار ثغرات للباب (ورقه) وللنوافذ (دي ريشه)، الصف الحجري العمودي القائم جنب ضلع الباب يسمى معضض، وعلى صفين من هذا النوع تستقر العارضة العلوية (تياسر). يقوم الحجار برصف الأحجار الواحد فوق الآخر (يعاقي أوبن تحار أوبن)، بعد أن يحكها ويجلخها (يطيفن أوبن)، وتسمى سقّاطة الباب الخشبية مجلق.

بناء المنزل العادي، إذا أنجزه عاملان مع أسطى في غضون خمسة أيام، كان يكلّف آنذاك 650 ديناراً على وجه التقريب. وكان بناء المساكن عملاً مربحاً ومجزياً اجتذب الكثيرين لممارسته. أجور عمال البناء في القطاع الخاص كانت مرتفعة بمعايير ذلك الزمان، حيث تجاوزت 5.7 دنانير في اليوم. وكان الحجارون يتقاضون أجوراً مرموقة أيضاً لقاء استحصال حجر البناء وتوصيله إلى المكان المطلوب. الوسيلة الوحيدة للنقل في الماضي هي الدواب (ولا مجال للاختيار إلا بين الحمير والجمال).

لكنّ الجزيرة شهدت من بداية الثمانينيات بضع عشرات من الشاحنات كان بعضها ملكاً لأشخاص استخدموها في نقل أحجار البناء مقابل أجور. في حديبو مثلاً كان صاحب الشاحنة يتقاضى 5.6 دنانير لقاء نقل وجبة كاملة من الأحجار إلى موقع البناء، وكان استئجار السيارة ليوم واحد يكلف 10 دنانير (من دون قيمة البنزين)، فيما يتراوح سعر الكيس الواحد من النورة بين 3 و 5 دنانير تبعاً للجودة.

الأغنياء الذين بدؤوا يظهرون في سقطرى من ذلك الحين باتوا يطلون جدران منازلهم بالنورة الناصعة البياض، فكانت مؤشراً على البحبوحة والثراء. وخلال فترة مكوثنا في الجزيرة تبرع مقاول يعمل في مد أنابيب الماء في حديبو بـ 150 كيساً من النورة لبناء مسجد.

بديهي أن سقطرى تبدلت من ذلك الحين لدرجة تفوق التصور، فهي تتطور بسرعة، والكثيرون يكتبون عنها وعن إنجازاتها كما أسلفنا. إلا أن فهم التطورات والمستجدات التي حصلت فيها يتطلب معرفة أوضاعها آنذاك وكيف كان الحال فيها قبل أكثر من ربع قرن من الزمان.

الفصل السابع

علاقـــــات الـــزواج

علاقات الزواج

دراسة الأحوال الشخصية وعلاقات الزواج والأسرة، من أهم مجالات دراسة المجتمع، أي مجتمع. ولعلاقات الزواج والأسرة في المجتمع السقطري أهمية خصوصية بالنسبة لأهالي الجزيرة، ذلك لأن العائلة هنا ليست مجرد تشكيلة أو مؤسسة اجتماعية، وإنما هي أيضاً فريق عمل. إنها الخلية الأساسية للقبيلة التي تشغل مرتبة بارزة في التنظيم الاجتماعي لسكان سقطرى، ولاسيما أن الجزيرة لا تزال في سياق عملية التمايز الطبقي غير الناجز وما دامت تحتفظ بالأشكال التقليدية العريقة للحياة العامة. كاتب السطور عكف على دراسة علاقات الزواج والأسرة عند السقطريين في الثمانينيات، عندما كانوا يحتفظون، في تلك الحقبة، قبل انتشار الثقافة والتعليم الإسلامي على نطاق واسع ومكثف، بالكثير من مخلفات البنى والنظم الاجتماعية العتيقة. ومن خلال تلك الدراسة تمكنتُ جزئياً من ترميم لوحة العلاقات الزوجية والعائلية التي كانت سائدة في سقطرى في تاريخها القديم.

لدى بحث هذه المسألة لم أكن أستهدف تحليلها من جميع الجوانب والوجوه، فقد كان هدفي هو تقديم توصيف علمي لتقاليد الزواج وحياة الأسرة عند أهالي سقطرى الأصليين والكشف عن خصائصها المميزة واتجاهات تطورها. وأخذت بالاعتبار أن تنظيم العلاقات العائلية في سقطرى لم يكن موضع دراسة تفصيلية من أحد، فالملاحظات المتفرقة التي نجدها في مؤلفات الرحالة والباحثين ما هي إلا رتوش عرضية لا تسمن ولا تغني من جوع. ولكي أتمكن من الحكم على الموضوع عمدت إلى الاستفادة من نتائج استطلاع الرأي حسب منهجية تراعي الإمكانات الفعلية لعملنا في الجزيرة والخصائص المميزة للأشخاص الذين استطلعنا آراءهم، بالإضافة إلى النصوص الفولكلورية الشفهية التي جمعتها من أقوال السقاطرة وملاحظات السفر التي سجلتها أثناء تجوالي في ربوع الجزيرة.

ثم إن المواد (اللغوية خصوصاً) التي توافرت لدينا في شأن طبقات أو درجات القرابة هيأت لنا فرصة دراسة أواصر القربى عند السقاطرة بمزيد من التعمق، وساعدت في تحليل مختلف جوانب الموضوع.

وجوب الزواج

كما هو الحال في أي بلد إسلامي يعتبر الزواج في سقطرى واجباً شرعياً، والعزوبة هنا ظاهرة نادرة جداً إلا أنها في فترة السنوات 1983 - 1986 التي أجريت فيها دراستي لهذا الموضوع في الجزيرة، لم تكن تتعرض للاستهجان الشديد، فلم أرَ مؤشرات إهانة للرجل الأعزب أو للمرأة غير المتزوجة. والحقيقة أن العزوبة تلازم الرجل أو المرأة إذا كانا يعانيان من عيوب بدنية بادية للعيان أو أنهما لا يريدان أو لا يستطيعان (بسبب التقدم في العمر مثلاً) أن يتزوجا ثانية بعد الطلاق أو بعد وفاة الزوج أو الزوجة. فحتى الأشخاص الذين يعانون من مرض عضال، كالصرع أو الخلل العقلي، وذوو الاحتياجات الخاصة يتزوجون من أناس أسوياء أصحاء (شكل رقم 7 - 1).

لقد أجرينا استطلاعاً للرأي بين 547 رجلاً لم نجد عزاباً بينهم سوى 60 شخصاً، أي 96.10 % من العدد الإجمالي للمشاركين في الاستطلاع. ومن هؤلاء الـ 60 كان هناك 13 شخصاً متزوجين سابقاً، اثنان منهم لم يتزوجا بعد وفاة زوجتيهما (بمعنى أن المترملين يشكلون 37.0 % من المشاركين في الاستطلاع) و 11 مطلقاً (01.2 %) أحدهم للمرة الثانية وأحدهم للمرة الثالثة. أما الـ 47 رجلاً الباقون (59.8 %) فكانوا عزاباً أصلاً، إلا أن معظمهم في سن تتراوح بين 17 - 20 عاماً، بمعنى أنهم دخلوا سن الزواج تواً، وسيتزوجون أغلب الظن.

أما مجموعة النساء اللواتي استطلعنا رأيهن (519 امرأة) فليس فيها سوى 50 امرأة عازبة (63.9 %). ومن هؤلاء الـ 50 كانت 34 امرأة متزوجات سابقاً، وبينهن 15 أرملة (89.2 %) و 19 مطلقة (66.3 %). عدد العوازب أصلاً أقل بكثير من عدد العزاب، 16 امرأة (08.3 %) لا غير. ومن أسباب هذه النتيجة أن عدد اللواتي في سن مبكرة لا تشجع على الزواج في مجموعة النساء أقل من عدد الشبان في مجموعة الرجال.

وفي كل الأحوال يتضح حتى من المتابعة البصرية البسيطة أن العزوبة في هذه الأنحاء ظاهرة نادرة للغاية. والعزاب هنا لا يعانون من العزلة والانفراد، بل ينخرطون في العائلة القبلية الكبرى التي يتولى أبناؤها العناية بهم في الشيخوخة أو يتولى هذه المهمة أقرباؤهم (ما عدا حالات الخروج على هذه القاعدة في جزيرة عبد الكوري – راجع الفصل العاشر).

خلاصة القول أن مستوى الزيجات عند السقاطرة مرتفع جداً، فإن 04.89 % من الرجال

و 37.90 % من النساء ممن شاركوا في الاستطلاع كانوا متزوجين.

وبسريان مفعول قانون الأحوال الشخصية أثناء مكوثنا في سقطرى زيد الحد الأدنى لسن الزواج إلى 16 عاماً للإناث و 18 عاماً للذكور، وكانت تلك السن أقل من ذلك بكثير في الماضي غير البعيد، فلم تكن نادرة حالات زواج الصبية من الصبايا في سن 12 - 13 عاماً.



(شكل رقم 7 ـ 1)

كان الدافع للزواج المبكر هو بناء خلية اقتصادية جديدة في الأسرة الكبيرة حالما يبلغ المتزوجان سناً تؤهلهما للعمل والكد بقدر كامل، إلا أن العائلة يمكن أن تزوج بناتها من أبناء قبيلة أخرى أيضاً، إذا كانت الخطوبة نافعة مادياً. ثم إن الدوافع الاقتصادية كانت وراء الزيجات التي فيها فوارق كبيرة بين الزوجين في الأعمار، وثمة حالات تشير إلى زواج الفتى من امرأة تكبره سناً بفارق شاسع.

وحسب الأعراف المرعية كان يمكن للبنت أن تتزوج إذا شهد شاهد بأنها بلغت سن الرشد وباتت قادرة على الحياة الزوجية، وتتولى هذه المهمة عادة امرأة عجوز يسميها السقاطرة شيبب، وهي ملزمة في الوقت ذاته أن تشهد بعفة الخطيبة وبكورتها. فإذا قالت

«العجوز» بعد فحص الخطيبة إنها غير مؤهلة للزواج، ولا يجوز أن تتزوج الآن، فإن أقرباء العروس (إذا كانوا موافقين على زواجها من حيث المبدأ) يتفقون مع أقرباء العريس على الانتظار بعض الوقت إلى أن تبلغ البنت سن الرشد. ولم تكن للسن الفعلية بالميلاد في مثل هذه الأحوال أهمية تذكر. فالأمهات عادة لا يتذكرن حتى تاريخ ميلاد الأطفال الصغار، فكيف بالبنات في سن الخطوبة؟ وكان بالإمكان طبعاً الاتفاق مع «الشيبب» التي غالباً ما تقدم على التزوير بسهولة، ومن دون قصد أو طمع، كونها تدرك أن عائلة الفتاة يمكن، والحال هذه، أن تفوت فرصة جيدة لتزويج ابنتها، فالعريس لن ينتظر طويلاً، ووالداه قد يختاران له خطيبة أخرى.

والآن أيضاً تحاول عوائل كثيرة الالتفاف على القانون والتملص من قيوده مدعية أن بناتهن ولدن قبل ذلك التاريخ، من أجل تزويجهن بأسرع ما يمكن (إجراءات تسجيل النفوس وشهادات الميلاد لم تبدأ في سقطرى إلا في النصف الأول من الثمانينيات). ولذا حصلت حالات زواج مبكر في فترة عملنا هناك أيضاً. الدكتور «عين سين»، طبيب مستشفى حديبو، قال لنا إن البنات يمارسن أحياناً العلاقات الجنسية قبل سن البلوغ، فتحل تلك السن بالتزامن مع بداية الحمل.

اثنان من أصدقائنا السقطريين خطبا عروساً بحضورنا، وجرى ذلك على النحو التالي:

جاء سعد، صديق العريس أحمد، وأخوه مبارك إلى مقدم والد العروس.

سعد ومبارك: ـ السلام عليكم .

مقدم: ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. أهلاً وسهلاً. تفضلا.

سعد: ـ الله يحفظك. كيف حالك يا طويل العمر؟

مقدم: ـ الحمد لله، بخير. وأنتم كيف حالكم؟

سعد: ـ يحفظك الله. عرجنا عليكم في الطريق. نحن نبحث عن زوجة لأحمد. عسى أن يحالفنا الحظ ونتمكن من خطبة ابنتك فاطمة. نريد أن نخطبها إذا ما عندك مانع.

مقدم: ـ على الرحب والسعة. أنا في الحقيقة موافق، وفقكم الله، ولن أطلب مهراً كبيراً لابنتي، فأنتم من أهلنا. لكن البنت لا تزال صغيرة، وأنتما تعرفان العادات، ينبغي الذهاب إلى شيبب تكشف عليها. أخوكم معروف، وهو من جماعتنا، ولن نرفض طلبه. لكننا يجب أن نبحث عن شيبب، فلربما البنت لا تزال صغيرة بالفعل.

سعد: ـ ثم ماذا؟ لا يهم. ماذا لو كانت صغيرة؟ أحمد ليس غريباً علينا، ليس من الأعراب، بل هو من أبناء سقطرى الحقيقيين. وأنت تعرف جيداً: إذا كانت البنت صغيرة فهو لن يؤذيها إبداً ولن يفعل ما يسيء إليها. إنه عزيز علينا، وسيتحمل، المهم أن توافق أنت، وتعطينا كلمة نهائية.

مقدم: ـ طيب. سأذهب لأكلم أمها وأقرباءنا.

بعد فترة وجيزة عاد مقدم إلى مجلسنا.

مقدم: ـ كلمتُ الوالدة وأعمام البنت، كلهم كانوا هناك. وهم أيضاً موافقون، متى تريدون إعلان الخطوبة؟

بهذه الصورة أمكن الالتفاف على الموانع القانونية لتزويج الصبية القاصرة، اكتمال الرشد والبلوغ هو الحد الأدنى لسن الزواج وفقاً للأعراف العامة التي حاربها القانون الحديث. وكانت هنالك مبررات للاعتقاد بأن الزواج المبكر (كما نرى عند شعوب أخرى) من القواعد الراسخة تماماً والتي يدعمها نمط الحياة الاقتصادية التقليدي، ومن المستبعد أن تتهاوى أسسها.

الفارق في السن بين الزوجين يمكن أن يكون ملحوظاً ومتبايناً. ففي ذلك الزمان عادة، والآن أيضاً، يتزوج الفتى في سن 17 - 20، وأحياناً قبل هذه السن، فيما تتزوج البنات في سن 14 - 17.

كانت قيود الزواج وموانعه في حدها الأدنى، زواج الأخ من أخته ممنوع طبعاً، ولم يكن هناك حظر رسمي على زواج الحمي من كنته، ولا الصهر من حماته، ولا الراب (زوج الأم) من ربيبته، ولا الرابة (زوجة الأب) من ربيبها (ابن زوجها). إلا أن هذه الأنواع من الزيجات لم تكن معتمدة هنا أصلاً، ولذا لم نكتشف حالات من هذا النوع، إلا أننا لاحظنا حالات زواج الوصي أو القيّم من البنت التي تحت وصايته، وهو أيضاً زواج غير ممنوع.

كما أضيف إلى حظر زواج الأخ من شقيقته مانع آخر هو حظر الزواج بين الأخوة والأخوات في الرضاعة أيضاً، ذلك أن صلة القربى بين الذين أرضعتهم امرأة واحدة تعتبر في عداد القرابة المباشرة. واذا أخذنا بالاعتبار أن تسليم الأطفال للرضاعة في العوائل البدوية عادةً منتشرة، يغدو منع هذا النوع من الزواج قيداً ملحوظاً (قانون الأسرة اليمنية أو قانون الأحوال الشخصية الذي كان ساري المفعول آنذاك يمنع الزواج بين الأشخاص الذين أرضعتهم امرأة واحدة خمس مرات أو أكثر). الطفل يسمي المرضعة ماما، ويعتبر

أبناءها أخوة وأخوات له. وفي سقطرى مصطلحات خصوصية تجسد معاني هذا النوع من صلة القربى.

والى ذلك تلاحظ في الخطوبة والزواج سنن معينة تدل على وجود موانع في الماضي على زواج أبناء قبيلة ما من بنات قبيلة أخرى، إلا أن استحضار تلك الموانع والمحظورات متعذر الآنَ، لأن كل ما بقي منها هو مخلفات ليست بذات شأن.

اختيار الزوجة

غالباً ما تشارك القبيلة كلها في اختيار الزوجة إلى جانب أهل العريس، وخلافاً للعديد من البلدان الأخرى التي لا يستطيع الشاب القروي فيها أن يلتقي خطيبته قبل الزواج، تتمتع الفتيات في سقطرى بحرية غير مقيدة تقريباً، إلى حد ممارسة العلاقة الجنسية، فكان الشبان على الدوام تقريباً يعرفون الخطيبات سلفاً ويشاركون بهمة ونشاط في اختيار رفيقة الحياة. والعديد من حالات القران تتم برغبة الطرفين المتعاطفين، إن لم نقل المتحابين، إلا أن العلاقات تقوم أساساً على اعتبارات اقتصادية، فما كان بوسع الشاب أن يتجاهل رأي والديه وأقربائه.

والعادة أن يختار والدا العريس خطيبة له، غير أن المبادرة تنطلق أحياناً من والدي العروس، أو أن يتم الزواج باتفاق الطرفين. ومما كان يسهّل الأمور في الماضي غير البعيد أن حلقة الأشخاص الذين يمكن أن يتزاوجوا محدودة في إطار التقاليد التي لا تعمد إلى الحظر والمنع، بل تعتمد تفضيل الزواج بين أبناء الأخوين. وقد علمنا من أصدقائنا السقطريين أن الزواج بين أبناء وبنات العمومة كان سائداً في كل أرجاء سقطرى حتى الستينيات والسبعينيات

زواج العمومة اللُحمي الملازم للقبائل القائمة على قرابة الأب يعتبر هو المفضل تقليدياً عند العرب وبعض الشعوب الأخرى، إلا أننا عندما نقارن معطياتنا بشأن العرب بالمعطيات الخاصة بماضي السقطريين نستنتج أن تفضيل الزواج من أبناء العمومة اتخذ في سقطرى شكلاً متطرفاً يكاد يبلغ حد التعصب. وثمة ما يبرر القول بأن زواج العمومة، لدى قسم من القبائل على الأقل، تحول إلى إيعاز جبري، وطبيعي أن يتم الاتفاق على هذا النوع من الزواج في إطار عائلة متشعبة واحدة أو في إطار قبيلة أبوية واحدة تشكل وحدة اقتصادية

متكاملة، ذلك لأن الأخوة في معظم الحالات هناك لا يتقاسمون تركة الأب حتى إن عاشوا على انفراد.

الكتب تستفيض في شرح العوامل المؤثرة في ظهور هذا النوع من الزواج، فهو لا يلحق ضرراً مادياً بالعائلة الأبوية الكبرى، ذلك لأن مهر العروس (وكان أساساً بشكله العيني، بعدد معين من رؤوس الماشية)، وكذلك ما يخصصه الأبوان لها من مال وجهاز، لا يتعديان حدود العائلة إلى جهات أخرى. العالم الإثنولوجي الروسي دميتري أولديروغي الذي درس هذه المسألة يورد بهذا الخصوص النصيحة الشائعة في أفريقيا: «تزوج من ابنة عمك كي تعود الماشية إلى الحظيرة نفسها ». (أولديروغي، 1983: 123).

إلا أن هنالك من يعترض على هذا التفسير، ومن تلك الاعتراضات ما أورده العالم الروسي نفسه، حيث قال في إحدى دراساته: «إذا اعتبرنا أساس التركيبة البنوية للمجتمع القبلي رفض المصاهرة التباعدية أو الزواج من الأباعد علينا، بحكم المنطق، أن نضع عادة الزواج من بنت العم المنتشرة كثيراً عند العرب، أو على الأصح عند العديد من الشعوب الناطقة باللغات السامية، خارج مفهوم القبيلة. فهذا النوع من الزواج يخالف مبدأ التباعدية، لأن أبناء العائلة الأبوية الواحدة يتزاوجون فيما بينهم، أما إذا اعتبرنا التباعدية سمة أساسية للقبيلة فسنجد تناقضاً في طبيعة التعريف أو التأويل.

وقد جرت محاولات لتفسير هذا النوع من الزواج لاعتبارات اقتصادية، فوالدا العريس لا يدفعان، في هذه الحالة، مهراً لوالدي العروس، ولهذا التفسير أنصاره، إلا أنهم ينسون أن أهل العروس يخسرون المبلغ نفسه الذي يوفره أهل العريس، ولذا يصعب اعتبار هذه الحجة وجيهة» (أولديروغي، 1983 :21).

ونحن نعتقد أن السبب لم يكن يقتصر بالفعل على عدم دفع والدي العريس مهراً إلى قبيلة أخرى، ما دام والدا العروس يفقدان إمكانية الحصول على مهر من تلك القبيلة، وإنما يكمن أيضاً في الطموح إلى توثيق الوحدة الاقتصادية للعائلة من خلال إلزامية الزواج في إطار قبيلة الأب، وبذلك تشتد عزلة القبيلة الرافضة للمصاهرة التباعدية.

بديهي أن الظاهرة التي نحن بصددها لا يجوز تناولها بمعزل عن التقليد المنتشر في المنطقة، وقد كتب المستعرب الروسي ميخائيل روديونوف يقول: «الزواج اللُحمي بين أبناء وبنات العمومة يعزى عادة إلى العلاقات والاعتبارات الاقتصادية القائمة في العائلة الأبوية الكبيرة أو بمعنى أوسع في قبيلة الأب. ووفقاً للتقليد السائد في الشرق الأوسط يعتبر ابن

العم الشخص الوحيد المرشح «بطبيعة الحال» للزواج من ابنة عمه، وهو معفو من المهر كلياً أو جزئياً. ثم إن والد الفتاة لا يستطيع تزويج ابنته من أي شخص يطلب يدها إلا بعد موافقة ابن عمها الذي يتلقى جزءاً من المهر بمثابة تعويض له عن تخليه عن حقه في الزواج منها» (روديونوف، 1982 :74).

مع تعود السقاطرة التدريجي على الحياة العصرية ضعف الاتجاه نحو عزلة القبيلة، فرغم ديمومة تقليد الزواج بين أبناء وبنات العمومة أخذت نسبة حالات هذا النوع من الزواج تتقلص، بيد أنه ظهر في الثمانينيات، إلى جانب العوامل المؤدية إلى تفتيت هذا التقليد، تقليد جديد لا يزال يفعل فعله حتى اليوم لتقوية هذا الاتجاه. ونعني به ازدياد مبلغ المهر نظراً لتبدل الأحوال المادية للأسرة ومجرى الحداثة العام في الجزيرة، فقد بات الزواج من ابنة العم بدون تسديد المهر أو بتسديد مبلغ رمزي يعني بالنسبة للعريس ووالديه وسيلة للتخلص من مدفوعات حساسة تؤذي ميزانية الأسرة، وبالطبع ظلت أسرة العروس خاسرة لمهر ابنتها، ولكن يجب أن لا ننسى أن الأرجحية هنا تعود لمصالح العائلة الكبرى ومبدأ النخوة والتعاضد.

«عين ميم» من بلدة حاصن قال لنا إن الشبان في هذه البلدة وفي القرى المجاورة لها يتزوجون أساساً من بنات أعمامهم، وإن تسديد مهر كبير لوالدي العروس ليس من التقاليد المتبعة عندهم. وحينما يعقد القران بين الشاب وابنة عمه لا أحد يدفع مهراً على الإطلاق (كما هو الحال في كل مكان من سقطرى)، إلا أن أحداً لا يطالب بالمهر في حالات أخرى أحياناً، وبدلاً من المهر يكتفون بهدايا ثمينة، فيقدمون إلى العروس حلى من الذهب والفضة، ويهدون إلى عائلتها بضعة رؤوس من الماشية مع السمن والتمر وما إلى ذلك. وعندما يولد للزوجين طفل يتلقيان على سبيل الهدية عنزاً وبقرة ونخلة وما شابه لغرض التشجيع، كما يقولون.

بينت استطلاعات الرأي التي أجريناها في الجزيرة أن قرابة ربع العريسين آنذاك تزوجوا من بنات العم وبنات الخال وبنات العمة والخالة. ومع أن معلومات الاستفتاءات تفيد أن الزواج من بنات الخال يأتي من حيث العدد في المرتبة الثانية، بعد الزواج من بنات العم، إلا أن ذلك لا يبرر الخروج بتعميمات كبيرة (فالاستطلاعات لم تكن واسعة بالقدر الكافي). كما لم تتوافر مبررات الخروج باستنتاجات في شأن الاحتفاظ بمخلفات النظام القبلي الأمومي. ذلك لأن الزواج من بنات الأعمام على مدار عدة أجيال يؤدي إلى توافق

خطي القرابة الأبوي والأمومي، فيغدو ابن الخال والخالة إبن عم وعمة في الوقت ذاته (بيرشيتس، 1952 : 53).

التوضيحات التي تلقيتها آنذاك من السقطريين أنفسهم تفيد بأن الشاب إذا لم تكن لديه ابنة عم يفضل في كل الأحوال الزواج من قريبة له، وخصوصا ابنة عمته، وإذا تعذر ذلك تكون الأفضلية لابنة خاله، وفي المرتبة الأخيرة فقط تأتي ابنة خالته. وتجدر الإشارة بهذا الخصوص إلى الحالة التالية: إذا كان والدا العريس والعروس أبناء عم (هذا النوع «التبادلي» من زواج العمومة يصادف كثيراً) فإن ابنة العمة تكون في الوقت ذاته ابنة الخال، ولا يعني هذا الزواج خروجاً من إطار قبيلة الأب، وفي هذه الحالة لا يتقاسم أولاد العم دوماً تركة الوالدين اللذين لم يتقاسما بدورهما، تركة الجد. إلا أن ورثة أبناء العمومة ينفصلون من كل بد ويحافظون على أواصر العلاقة مع باقي فروع القبيلة (شكل رقم 7 - 1).

بعض الشباب تزوجوا من بنات أقرباء أبعدين، من أنسباء الأب في الغالب، وأنسباء الأم في حالات أندر، وقد بات الزواج من بنت القبيلة اليوم منتشراً كالزواج من أبناء العمومة الذي كان في السابق يفوق من حيث العدد باقي أنواع الزيجات. ونعود هنا إلى نتائج استطلاع الرأي.

من بين الـ 392 رجلا الذين استطلعنا آراءهم لم يعط 127 (32.4 %) جواباً عن الأسئلة التي طرحناها عليهم. أما الـ 265 رجلاً الذين أجابوا على اسئلتنا فقد كانوا متزوجين على النحو التالي:

الزواج من	العدد	نسبة المجيبين على الأسئلة	نسبتهم إلى العدد الإجمالي
ابنة العم	69	04.26	60.17
ابنة العمة	3	13.1	77.0
ابنة الخال	17	42.6	34.4
ابنة الخالة	5	89.1	28.1
قريبة الأب	10	78.1	56.2
قريبة الأم	3	13.1	77.0
ابنة الأقرباء الأباعد	8	02.3	04.2
ابنة القبيلة	69	04.26	60.17

ابنة البلد	11	15.4	80.2
«غريبة»	70	42.26	86.17

يتضح من هذه المعلومات أن أكثر من خمسي الرجال الذين أجابوا عن أسئلة الاستطلاع متزوجون من القريبات جداً (الزواج اللُحمي)، وأن أكثر من الثلثين (70% تقريباً) متزوجون من القريبات وبنات القبيلة. وإن الزواج من «الغريبات» له عدة صيغ وأشكال (من المتعذر الخوض في تفاصيلها أثناء الاستطلاع)، ومنها الزواج من فتاة تقيم في منطقة جغرافية معينة نادراً ما يتزوج أبناؤها من خارج حدود إقامتهم. وصادفت زيجات لأبناء وبنات مناطق متباعدة لا رابط بينها، ونشير بخاصة إلى حالات زواج ببنات من غير أهالي سقطرى، من حضرموت والمهرة وعمان والمناطق اليمنية الشمالية وسواها.

زواج الأبناء في العائلة الكبيرة مسألة يقررها رب العائلة في المقام الأول، ويتم الالتزام طبعاً بالاستحقاقات الواضحة، حيث لا تراعى سن الأبناء وأعمارهم فحسب، بل والملابسات الأخرى والإمكانيات المتوافرة للزواج في الفترة المعنية، وما إلى ذلك. وكان رب الأسرة، بوصفه المتصرف بميزانيتها الموحدة، يبت في مسألة إمكان تخصيص المبلغ والعدد اللازم من رؤوس الماشية لمهر الابن الذي ينوي تزويجه، إلا أن الوالدة تسهم أيضاً في حل هذه المسألة، بالإضافة إلى باقي أفراد العائلة الكبرى، وحتى لو جاء الزواج بناءً على رغبة الابن، فإن موافقة الأب لازمة في كل الأحوال.

ولا بد من التأكيد، ونحن في معرض الحديث عن اختيار الزوجة، على أن الاتجاه الجديد الذي لاحظناه نحو زواج أهالي المناطق الداخلية في سقطرى من بنات العاصمة والمدن والبلدات الكبيرة، بل والأغلب من بنات حضرموت واليمن اللواتي ازداد عددهن في الجزيرة، إنما يقابل بالاستنكار من أبناء البادية السقطرية. وهذا واضح في القصيدة التي سجلناها للشاعر البدوي علي عبدالله رجدهي، فهو يتشكى من أن بنات الأعمام أصبحن صعبات المنال أمام أبناء عمومتهن الذين يلجؤون إلى الغريبات مدفوعين بإغراءات «الحياة الهيّنة اليسيرة».

الزواج ومخلفات التقسيم القبلي الثنائي

من الناحية التاريخية يرتبط نظام علاقات الزواج بتقسيم القبائل السقطرية الذي لم

يلاحظه ولم يلتفت إليه من سبقني من الرحالة والباحثين.

فخلال تجوالنا في قرى المنطقة الشرقية من الجزيرة اتضح لنا أن قبائلها تقسم إلى فخذين أو شعبتين: «صعبب» بيض البشرة و «حوهر» سود (سمر). وكان الناس هناك يجيبوننا أحياناً على سؤالنا عن انتماءاتهم القبلية بقولهم إنهم «بيض» أو «سود»، ولا يذكرون اسم القبيلة الدقيق إلا بعد تساؤلات إضافية وإلحاح من جانبنا. والحقيقة فقد بات «البيض» و «السود» يشكلون قبيلتين منفصلتين ومستقلتين إحداهما عن الأخرى. وفي بعض الحالات لا توجد صلات وروابط بين هاتين الشريحتين أو الشعبتين حتى في القبيلة الواحدة. إلا أننا لاحظنا حالات معاكسة لهذا الاتجاه، حيث تبقى عناصر الوحدة الاقتصادية بين «البيض» و «السود» قائمة على الرغم من انتشارهم في أماكن سكنية منفصلة. ففي قرية فلاجي مثلاً يقيم سقطريون «بيض»، فيما يقيم في قرية شبنهو «سود» من أبناء قبيلة شبنهو، اما في قبيلة جزبهو المجاورة لقبيلة شبنهو «فالبيض» يقيمون في قرية بجوبج، فيما يقيم «السود» في قرية جلسينو.

خلال زيارتنا إلى قرية جزبهو لاحظنا أن «البيض» (من بجوبج) يعيشون في انعزالية أكثر تقوقعاً من «السود» في جلسينو، كانوا يخشون الإجابة عن أسئلتنا ويكذبون أكثر. منازلهم قذرة، وفيها حصر بالية وآنية مبعثرة وبطانيات متهرئة، وحاجياتهم المنزلية أكثر شحة، والزواج من بنات العمومة هو الأكثر انتشاراً هنا، فنشأ لدينا انطباع وكأن قبيلة «البيض» كانت في زمن ما تحت سيطرة «السود».

المقدم البريطاني ج. براون الذي زار سقطرى في الستينات أعرب عن دهشته من قدرة البدو على استخدام عادات وأعراف لا علم لهم بها في تفادي تجزئة وتفتيت الملكية (التي تنتقل في الأقطار الإسلامية، بموجب قوانين الميراث، إلى عدد كبير من الورثة). وهو أمر اعتبره هذا الخبير الذي يمجد النظام البريطاني للميراث «عقبة رئيسية أمام تطور المزارعين». وكتب براون يقول: «لم أحاول التعمق في سبل معالجة هذه المسألة عندهم. إلا أن الملكية تظل غير مجزأة على امتداد حياة أجيال كثيرة، وتلك قضية في منتهى الأهمية إذا أردنا أن نفكر في التطوير والتنمية» (Brown, 1966: 5).

ونحن أيضاً نعتقد أن ظاهرة عدم اقتسام التركة كانت منتشرة بالفعل، ويبدو أن سببها الأول هو تمكين العائلة من الحيلولة دون تفتيت وتوزيع القطيع على الورثة الكثيرين بفضل الزواج اللُحمي، أي زواج أبناء وبنات العمومة أو الأقرباء، بعد أن أعدت له تلك العوائل

بدقة كبيرة انطلاقاً من المصالح الاقتصادية للقبيلة. ثم إن عدد الورثة آنذاك لم يكن كبيراً، لأن وفيات الأطفال في الجزيرة قلصت عددهم تماماً. وإلى ذلك قامت وحدة الاقتصاد على أساس متين من البنية القبلية العشائرية للمجتمع، وخصوصاً بكثرة العوائل الموسعة والمتشعبة. وكان واقع ملكية الزوج للماشية بمعزل عن ملكية الزوجة قد ساعد أيضاً على صيانة الملكية القبلية، ففي حال الطلاق تعود الزوجة (وملكيتها) إلى الجهة التي جاءت منها.

وفي الحالات النادرة التي يكون للعائلة فيها ورثة ذكور كثيرون يتم إخراج الأبناء الذين يمتلكون القليل من الماشية والنخيل من دائرة اقتصاد العائلة، فكان بوسع هؤلاء أن ينزلوا إلى الساحل لممارسة صيد الأسماك أو غيره من الأعمال في حال توافرها، فيما كان البعض منهم ينتقل إلى بر اليمن وحضرموت أو يرتحل للكسب في إمارات ومشايخ الخليج العربي. ونحن على أي حال نعرف أمثلة من هذا النوع، فقد رأينا في قرى الساحل الشمالي كهولاً وشيوخاً من أبناء القبائل الجبلية دفعتهم الحاجة إلى ترك قراهم وممارسة صيد اللؤلؤ والسمك، وأحياناً الخدمة عند السلطان، وسافر بعضهم للكسب في المملكة العربية السعودية وعمان وإمارات الخليج. كان هذا، على سبيل المثال، مصير أحد معارفنا من السقطريين، وهو «سين سين» من قبيلة بني مالك الذي كان في منتصف الثمانينيات مقيماً في قرية قاضب على الساحل الشمالي للجزيرة.

كان التقسيم إلى «بيض» و«سود» موجوداً في حجهر (ولكن ليس في جميع القبائل) وكذلك في المنطقة الغربية التي يتواجد فيها، حسب معلوماتنا، أقل عدد من القبائل المقسمة إلى الشعبتين المذكورتين. كان «البيض» و «السود» من قبيلة فرجهو (المنطقة الغربية) يعيشون في قريتين مختلفتين، لكنهما متجاورتان.

وقد أوضح لنا أبناء قبيلة جزبهو الآنفة الذكر، وكذلك الكثير من القبائل الأخرى، سبب التقسيم الثنائي إلى «بيض» و «سود» بتفسير متماثل إلى حد يثير الدهشة، فقالوا: كان لدى الجد الأكبر، مؤسس القبيلة، في زمن ما ولدان أحدهما أسمر والآخر ببشرة فاتحة اللون. ومنهما نشأت قبيلتان «للبيض» و «السود» من حيث المظهر الخارجي. إلا أن المسألة لا تقتصر على لون البشرة، كما يبدو لنا، ولكن السكان الأصليين ليس لديهم رواية أخرى.

وكنا راغبين في العثور على وقائع أو حجج تدلل على احتفاظ التقسيم إلى «بيض» و

«سود» ببقايا ومخلفات تقسيم القبائل إلى مجموعتين كبيرتين تربطهما علاقة المصاهرة التباعدية، لكننا للأسف الشديد لم نعثر على ما يثبت ذلك. ولا توجد اليوم أية قواعد خصوصية للمتزوجين من أبناء هذه القبائل. وقد تحدث الطاعنون في السن عن انتشار زواج العمومة هناك في الماضي، أما الآن فإن حالات كثيرة من الزواج تتم بحرية الاختيار.

ويبدو أن هذا التنظيم أو التقسيم الثنائي فقد من زمان ارتباطه بالزواج، رغم رجوعه الذي لا شك فيه إلى عهود المصاهرة المتباعدة والمتشعبة القديمة، حيث كان الرجل من شعبة قبلية يختار لنفسه زوجة من شعبة أخرى. وقد تمت دراسة سبل تطور هذا النظام بصورة كاملة تماماً في المطبوعات العلمية القائمة على تحليل مواد شعوب عديدة من مختلف أرجاء العالم.

ومن المناسب هنا أن نورد رأي العالم الإثنولوجي الروسي أ. زولوتاريوف في ظاهرة مماثلة عند الشعوب الأفريقية، فقد كتب يقول: «لا توجد في أفريقيا الأشكال البدائية للتقسيم أو التنظيم الثنائي، فهو في معظم الحالات فقد أهميته السابقة وصلته بالزواج. التشعبات القبلية فقدت علاقة المصاهرة التباعدية أو زواج الأباعد وتحولت إلى وحدات أو تشكيلات طقوسية وعباداتية واجتماعية وعسكرية. كما تحولت لدى بعض القبائل إلى شكل من عمليات نشوء الطبقات وصارت بمثابة جماعات ذاتية داخلية مرتبطة بالفوارق الاجتماعية والمالية» (زولوتاريوف، 1964: 209).

ومما له دلالته أننا نرى هنا نوعين أو فئتين من التنظيم الثنائي، ففي ظل أحد التنظيمين يقيم «البيض» مع «السود» كما أسلفنا علاقات وثيقة، وقد لاحظنا حالات زواج بين أبناء القبيلتين، إلا أن الاتجاه نحو الزواج من داخل القبيلة الواحدة هو السائد. وفي هذه الحالة تكون الفوارق المادية والاجتماعية والثقافية بين القبيلتين في حدها الأدنى.

ويختلف الأمر لدى القبائل التي يوجد فيها نوع آخر من التنظيم أو التقسيم الثنائي، والمثال النموذجي على ذلك هو قبيلة جزبهو، حيث «السود» أغنى من «البيض»، ويتمتعون بمكانة أسمى منهم، كما لاحظنا لدى بعض القبائل الأخرى مظاهر الاغتراب، بل حتى العداوة في العلاقات بين الشريحتين أو الشعبتين.

وقد لا نأتي بجديد إذا عدنا مرة ثانية إلى زولوتاريوف الذي أشار، انطلاقاً من دراسة مواد أفريقية تناولها قبله باحثون آخرون (منهم على سبيل المثال العالم الإثنوغرافي الهولندي لوتيغ)، إلى «أن الاتجاه نحو انقراض الزواج الأباعدي بين التشعبات والأفخاذ

القبلية... يؤدي بمرور الزمن إلى ظهور نوع جديد تماماً من التنظيم الاجتماعي الذي لا يزال غير مدروس بالقدر الكافي، إلا أنه دون ريب يلازم الكثير من القبائل الأفريقية. وهذا النوع على طرفي نقيض من التقسيم الثنائي، لكنه مع ذلك يعود إليه بالذات من حيث المنشأ. وهو يتلخص في تقسيم القبائل إلى جزئين أو فخذين منعزلين، وأحياناً متناحرين، يعتمد كل منهما الزواج اللُحمي» (زولوتاريوف، 1964 : 207).

وعلى أساس دراسة تنظيم قبيلة غريرو قدم لوتيغ تأويلاً لتحول تشعبات القبائل الرعوية المتباعدة من حيث نسب الأم إلى شعبة «عليا» وأخرى «دنيا» بتأثير الرغبة في صيانة الملكية، والماشية في المقام الأول، وبقائها في حوزة العائلة، إضافة إلى باقي العوامل (Luttig, 1933: 56). كتب زولوتاريوف يقول: «لقد دخل هذا الاتجاه في تعارض مع الزواج بين الأباعد وسرعان ما قضى عليه، لأن الفوارق المالية بين الشعبتين قادتهما إلى الزواج اللُحمي بين الأقارب. فقد اتضح أن التقسيم الثنائي شكل ملائم لظهور الفوارق الطبقية، وباتت مشاعر التضامن أو التعاضد الوثيق بين أفراد كل شعبة قبلية وكذلك تصور الفوارق البدنية والنفسانية بين أبناء الشعبتين، والعداء شبه الطقوسي بينهما شكلاً عقائدياً مناسباً جداً لظهور الفوارق الطبقية والاقتصادية» (زولوتاريوف، 1964 : 208).

إننا لا نعتبر هذا الرأي متكاملاً ومقبولاً في تأويل منشأ وتطور الظاهرة التي نحن بصددها، لكننا نشير في الوقت ذاته إلى أن تأكيدات السقاطرة بخصوص اللونين الأسمر والفاتح لبشرة أبناء الجد الأول ووجود الفوارق بين القبيلتين على هذا الأساس إنما له صلة مباشرة تماماً بالفكرة الآنفة الذكر.

ومن المستبعد أن يكون صحيحاً طرح مسألة مخلفات النظام القبلي الأمومي لدى السقاطرة إذا أخذنا بالاعتبار استنتاجات علم الإثنولوجي المعاصر. ولكن بدا لنا آنذاك وكأن بالإمكان الكلام عن هذا الموضوع ليس بمراعاة تحول التقسيم الثنائي وصيرورته إلى ضده فحسب، بل وكذلك انطلاقاً من بعض عناصر العلاقات الاجتماعية والعائلية والعادات والتقاليد والحكايات الفولكلورية التي يمكن اعتمادها وإدراجها ضمن هذا الافتراض، وسنتناولها فيما بعد.

وثمة ظاهرة أخرى لاحظناها، ولها علاقة مباشرة بالموضوع، وأعني العادة المنتشرة في بعض القبائل لتزويج أبنائها من بنات قبائل أخرى تعيش في مواقع ليست بعيدة عن مواقع الأولى. (ولا ندري إن كان الأمر صدفة أم لا، لكن العلاقات الزوجية الدائمة تنشأ أحياناً

بين قبيلتين تقيم إحداهما في الجبل وتقيم الأخرى في الوادي الذي يطل عليه ذلك الجبل). وكانت حالات الزواج بين قبيلتي دعرهو وعصمهو المقيمتين في جبال المنطقة الوسطى على سبيل المثال كثيرة، وكذلك قبيلتي بشمهو وصعدهو في غرب الجزيرة، وقبيلتي جدد وصعنهن في شرقها.

إقامة الزوجين

إقامة الزوجين في بيت والدي العريس هي الشكل السائد عند السقاطرة، بلا استثناء تقريباً، فالعُرسان يجلبون العرائس دوماً إلى بيت والديهم (ونادراً ما يستقر العروسان في موضع جديد)، وعملية انتقال العروس إلى عائلة العريس تجري وفق مراسيم وترتيبات معينة. ويتوقف مصير العروسين فيما بعد على المنطقة التي يقيمان فيها، وعلى طريقة الحياة الذي يختاره الزوج. ففي العاصمة والبلدات الساحلية كان هناك اتجاه نحو انفصال العروسين عن عائلة الأب، إلا أن هذا الاتجاه تلكأ في الآونة الأخيرة نظراً لظهور صعوبات جديدة في بناء المساكن (ارتفاع أسعار المواد الإنشائية وأجور النقل، وضعف أواصر العلاقات بين أبناء القبيلة الواحدة، ما أدى إلى صعوبة الاستفادة من النخوة القبلية).

ولوحظ اتجاه مماثل في بعض قرى الصيادين، فلا موجب هناك لصيانة العائلة الكبيرة من خلال الحفاظ على القطيع وملكية المراعي. كما لوحظ ذلك الاتجاه في أماكن أخرى حيث لا تمتلك العوائل قطعاناً كبيرة من الماشية ولا تواجه صعوبات في بناء المساكن (كما في السهل الساحلي الجنوبي، حيث كانت الأكواخ تبنى من السعف وأغصان الأشجار). وإضافة إلى ذلك كانت الظروف الجيدة في منزل الوالدين تشجع على بقاء العروسين للعيش فيه.

وقد أجرينا استطلاعاً للرأي في 341 عائلة بشأن موضعية الزواج وإقامة العروسين، فوجدنا أن زواجهما تم في منزل الأب في 238 حالة من المجموع (79.69 %)، فيما كانت هناك 98 حالة (74.28 %) اختار فيها الزوجان موضعاً جديداً للإقامة، و 5 حالات فقط (4.1 %) أقام فيها العروسان في منزل أم العروس.

إذا كان العريس يعمل في حديبو مثلاً وعائلته تقيم في البادية فإنه في هذه الحالة فقط يطمح إلى توفير إقامة لزوجته في العاصمة. فيبني منزلاً هناك حينما يحصل على عمل

دائم أو تتوافر له ضمانات العمالة. وفيما عدا ذلك تكون الخدمة غير دائمة (في الشرطة مثلاً)، ويكون العمل غير دائم (مثل أشغال الأجرة في البناء). وفي هذه الحالة ينقل العريس عروسه إلى منزل والديه.

وعندما يباشر العروسان حياتهما المستقلة تخصص للابن حصته من ثروة الأب، يضاف إليها ما تجلبه العروس من عائلتها. وغالباً ما يبقى هذا الانفصال غير كامل، فبوسع العروسين أن يبنيا بيتاً مستقلاً جنب بيت الوالدين، وفي هذه الحالة لا يأخذ الزوج حصته من ثروة عائلته، ويبقى النشاط الاقتصادي مشتركاً. ومن ناحية إعداد الطعام نجد العروسين يقتاتان مع والدي العريس وباقي أفراد عائلته في بعض الحالات، وبصورة منفصلة في بعضها الآخر. ويمكن أن يقام منزل الزوجين بعيداً عن منزل والدي العريس (في إطار المركز السكني الواحد أو في خارجه)، وفي هذه الحالة أيضاً لا يأخذ الابن أحياناً حصته من ثروة العائلة.

في غياب الزوج (للخدمة في الجيش أو الدراسة أو الهجرة أو العمل خارج الجزيرة) تعود الزوجة الشابة إلى أسرة والديها ولا تبقى تعيش وحيدة أو مع أسرة والدي زوجها.

وثمة حالات انتقلت فيها الأسر الشابة من المناطق الجبلية إلى المناطق الساحلية على أمل العيش «العصري». «ميم عين سين» (26 عاماً) انتقل من قرية ترومو الواقعة في جبال المنطقة الوسطى إلى بلدة ديحمض الساحلية «ليغدو مثقفاً»، على حد تعبيره، وهذا دليل على تبدل معايير القيم لدى جزء من الشباب الجبليين الذين يعتقدون أن النمط التقليدي من حياة الرعاة مع ما يلازمه من صعوبات وحرمان وابتعاد عن أماكن تحشد الناس وانعزال عن الكفاح الحقيقي من أجل أسباب العيش لا يتجاوب مع المستجدات العصرية. كانت مكانة الراعي الجبلي في السابق أكثر احتراماً لدى السقاطرة، لكنها تزعزعت كثيراً الآن.

عندما يتزوج رجل لديه دار (بمعنى أنه منفصل عن عائلة أبيه) فإن الزوجة تنتقل إليه، ونجد حالات مماثلة في الزواج بعد طلاق، فالزوج المطلق يأتي بزوجته الجديدة إلى منزله، فيما تعود مطلقته إلى عائلة والديها، ولم نشهد إلا حالات نادرة كسبت فيها الزوجة السابقة منزل زوجها بعد الطلاق.

يعتبر انتقال العريس إلى منزل أم العروس حالة استثنائية في سقطرى، وتفيد المعلومات التي جمعناها أن إقامة الزوج في هذا المنزل يمكن أن تحصل عموماً في الملابسات التالية:

1) تقدم والدي الزوجة في السن ولا أحد يسهر على رعايتهما، 2) لا أحد عند والدي الزوجة يسهر على رعاية الماشية والنخيل، 3) ثراء والدي الزوجة وفقر والدي الزوج، 4) إذا اشترط والدا الزوجة ذلك أثناء الخطوبة.

الفلاح «عين ثاء غين» (54 عاماً) يقيم في حديبو، وكان في مفاهيم ذلك الزمان ثرياً في أنظار السقاطرة. تمتلك عائلته 300 نخلة وكثيراً من الماعز و 8 بقرات يرعاها راعٍ بأجرة في حجهر. إحدى بناته الثلاث تعيش مع زوجها في بيت خاص بهما، وتعيش ابنته الثانية في عائلة زوجها، فيما جاءت ابنته الثالثة بزوجها الفقير إلى بيت والدها. ولم نلاحظ على زوج الابنة الثالثة مؤشرات التبعية الاقتصادية، على الرغم من أنه يتولى دور العامل في العائلة ولم يجلب معه سوى بضعة رؤوس من صغار الماشية. على أي حال لم تكن التبعية الاقتصادية تؤثر بشكل ملحوظ في سمعته، ومكانته فهو عضو متكافئ وبشكل غير منقوص في العائلة الجديدة الكبيرة. لكنّ أبناءه بموجب الأصول المرعية، لن يكون لهم حق إلا في الأموال العائدة له شخصياً، وفي حصة والدتهم من الثروة المشتركة للعائلة في حال فرزها عن باقي الحصص. وبعبارة أخرى فإن أبناءه يحصلون في حال اقتسام الثروة على جزء أقل بكثير من أبناء أخوة زوجته الثلاثة.

في فترة إجراء الاستفتاء كان للقروي «عين ألف سين فاء» (45 عاماً) من أهالي قرية قعرة (المنطقة الغربية من الساحل الجنوبي) ثلاثة أبناء وثلاث بنات. إحداهن متزوجة، وزوجها من قرية ستيرة (شرقي قعرة في السهل الساحلي الجنوبي)، يعيش في عائلة والديها، ولم نتمكن من استيضاح أسباب إقامة الزوج في بيت والدي الزوجة، ولا نجد لهذه الإقامة مبرراً من بين الملابسات الاستثنائية التي سبق أن ذكرناها.

في بعض الحالات تأتي إقامة الزوج والزوجة في عائلة والدي الأخيرة لسبب خصوصي متعلق بأوضاع معينة، ففي جزيرة عبد الكوري سجلنا حالة إقامة الزوج عند حماته «بسبب الماء» كما قال، فماء البئر التي في قريته مالح، وفي قريتها عذب لذيذ.

«نون ميم باء» (25 عاماً) ابنة أحد أهالي حديبو، ممرضة عاشت مع زوجها وابنتها في بيت والدتها التي كانت زوجة أولى لأبيها («نون» وأمها تزوجتا مرتين أخريين بعد الطلاق). سبب إقامة «نون» وزوجها في بيت والدتها يعود على ما يبدو إلى حالة الزوج المادية. فهو عسكري من عبيد النوبة الذين لا يملكون مالاً أو عقاراً. وكان يقيم في منزل الأم عدد آخر من أبنائها. «نون» تملك 20 نخلة وقطيعاً من 100 أو 120 رأساً من الماعز والخراف. كل

هذا المال استلمته من والدتها (دون أن تفصله عن ثروة العائلة)، وإلى ذلك أهداها أبوها لمناسبة الزفاف بعض الماعز وخمس نخلات.

ظاهرة الطلاق

في الماضي غير البعيد كان عدم استقرار الزواج وانتشار الطلاق على أوسع نطاق إحدى السمات الجوهرية لعلاقات الزواج والأسرة في سقطرى. ورغم التبدلات التي طرأت على هذه العلاقات بفعل نمط المعيشة الجديد ظلت هذه السمة الملازمة للعائلة السقطرية قائمة حتى في الثمانينيات.

معلومات المشاركين في استطلاعاتنا عن طبيعة الزواج والطلاق قبل حصول اليمن الجنوبي على الاستقلال ترسم للوهلة الأولى لوحة يسودها انفلات الرجال الشديد الذي يفوق كل توقعات الباحثين المطلعين على تقاليد الشرق الأوسط، فالطلاق عند السقاطرة كان من البساطة بحيث يفارق الواحد منهم رفيقة حياته دون تردد ودون تفكير، فلم يكن يترتب على الطلاق تبعات ومسؤوليات. هذا أولاً، وثانياً الزواج المكرر يتطلب نفقات أقل بكثير. إلى هذه الملابسات، قبل غيرها، يعزو السقاطرة سهولة الطلاق عندهم والزواج من جديد. حقاً، فمهر العروس آنذاك لم يكن يتجاوز 5 دنانير، فيما لم يكن الزواج من مطلقة أو أرملة يكلف شيئاً على الإطلاق، ولم يكن الرأي العام يستهجن استبدال الزوجات المرة تلو المرة.

وكانت هذه الظاهرة، على العموم، تلازم شرائح معينة من أفراد المجتمع: التجار وشيوخ القبائل ومشايخ الأفخاذ والأمشاج والبطون، وهي منتشرة بصورة أندر بين العامة من الصيادين والرعاة. فنحن نعرف على سبيل المثال كهلاً طاعناً في السن تزوج في حياته الطويلة أكثر من 60 مرة، ولم يكن صعباً العثور على أشخاص تزوجوا 20 مرة أو يزيد، علماً أنهم في الغالب من أبناء المناطق الساحلية. وقال لنا رجال تزوجوا مراراً إنهم كانوا، وفقاً لأصول ذاك الزمان، يتمتعون حتى بحق استعادة المهر الذي دفعوه لأهل الزوجة، فلا يتركون لها سوى هدايا الزفاف.

ويؤكد براون أن الكثيرات من البدويات أصبحن خليلات أو محظيات لأهالي المدن في مقابل دفعة مالية واحدة تتراوح بين 5 إلى 15 ديناراً، بالإضافة إلى فستان واحد، ويضيف:

«هذا النوع من العلاقات لا يعتبر زواجاً، فالمرأة يمكنها أن تترك الرجل متى تشاء، وإذا أراد هو أن يقطع هذه العلاقة فلا حاجة به إلى إجراءات الطلاق». واعتبرت هذه العلاقة في تلك الفترة من الظواهر الاجتماعية، فلا تتعرض المرأة التي تقدم عليها إلى الاستنكار من جانب المجتمع. وكتب براون أنه لا يعرف شيئاً عن مصير الأطفال الذين يولدون نتيجة هذه العلاقة. «فالزيجات المختلطة حقاً (بين أبناء المناطق المختلفة ـ الناشر) نادرة جداً، لكن ذلك ليس نتيجة لفوارق طائفية أو قبلية، وإنما هو نمط حياة» (Brown, 1966: 9).

يستفاد من توضيحات المشاركين في استطلاع الرأي أن العلاقة التي كتب عنها براون كانت على أي حال تعتبر زواجاً، ولكن «بشكل مبسط» ما دام لا يتطلب التقيد بجميع الأصول الشرعية. أما الأطفال الذين يولدون في مثل هذه الحالات فإنهم يتمتعون بكافة حقوق الأبناء الشرعيين (بصفتهم أطفال محظيات). ونحن لا نعلم مدى انتشار هذه العادة آنذاك، إلا أننا نعتقد أن الكلام عن وجود تنظيم خصوصي لظاهرة المعاشرة والتهتك أو الزواج غير الشرعي في سقطرى سابقاً لا مبرر له في كل الأحوال.

وربما الأصح أن نتكلم عن شكل خصوصي للزواج كل مؤشراته بادية للعيان: التدبير المنزلي المشترك وواجبات الزوج المادية وحقوق الأطفال في التركة والميراث وما إلى ذلك. وأهم ما يمنع اعتبار هؤلاء النسوة محظيات هو أنهن لم يتعايشن مع «زوجات شرعيات» للرجل. ويمكن أن نقارن هذه الحالة ببعض أشكال الزواج الخصوصية الأخرى التي يجيزها الإسلام مثل زواج «المتعة» عند الشيعة، وزواج «المسيار» عند أهل السنة.

إلا أن أكثر ما يثير دهشة أهالي اليمن في نظام علاقات الزواج والأسرة في سقطرى ليس هو انتشار ظاهرة الطلاق، بل سهولة زواج المطلقات مرة أخرى، الأمر الذي يقدمن عليه دون إبطاء، في الغالب. وثمة نسوة تزوجن مراراً ولا أحد يستهجن تصرفهن هذا. بل كان الرأي العام ينظر إليه بعين الرضا والاستحسان، ومن ثم فإن المرأة في هذه الحال لا تفرط في سمعتها ولا في مكانتها الاجتماعية. أما إجراءات الطلاق في مثل هذه الحالات فهي أبسط مما تنص عليه الشريعة للطلاق العادي، لأنها لا تستوجب أية رسميات في الواقع.

هذه الأنظمة تذكرنا، على نحو ما، بالأعراف البدوية الملازمة لبعض القبائل الرحل في الجزيرة العربية، غير أنها ارتدت في سقطرى لبوساً في منتهى التطرف والغلو.

بعد إحراز الاستقلال تقلص كثيراً عدد محبي تكرار الزواج واستبدال الزوجات، إلا

أن غياب الاستقرار في العلاقات الزوجية ظل قائماً. ولم يلاحظ تغير من هذه الناحية إلا في النصف الثاني من السبعينات، حيث بات الزواج أكثر استقراراً وثباتاً. وساعد على تأمين هذا الاستقرار النسبي شمول سقطرى بالقوانين المدنية الوضعية وكذلك انخراط الجزيرة في منظومة العلاقات الاقتصادية وما تسبب عن ذلك من ازدياد مفاجئ في مبلغ مهر العروس.

ومع ذلك ظلت عشائر كثيرة متقيدة بالعادات السائدة، فيما ظلت سارية المفعول مبادئ الأخلاق وآداب السلوك القائمة من مئات السنين، بما فيها الموقف من الزواج والطلاق.

في غياب الاحصائيات، أياً كانت، في سقطرى تعذر علينا إجراء حسابات دقيقة للوصول إلى عدد حالات الطلاق لكل ألف نسمة من السكان (حسب المنهجية المعتمدة)، وكذلك نسبة عدد الزيجات إلى حالات الطلاق. إلا أننا حصلنا خلال استطلاع للرأي على معلومات من 537 رجلاً و 519 امرأة مكنتنا من تقدير درجة ومدى انتشار ظاهرة الطلاق. ونستدرك هنا فنقول إن قسماً كبيراً من المشاركين في الاستطلاع (أكثر من نصفهم) في سن تتراوح بين 17 و 20 عاماً، ولذا فإن بعضهم لم يتزوجوا بعد أو أنهم تزوجوا مؤخراً، فلم يتسع الوقت أمامهم للطلاق، خاصة وإن نسبة غير قليلة من حالات الطلاق تصادف، كما لاحظنا، ليس في السنوات الأولى من الحياة الزوجية، ولا بد أن نأخذ بالاعتبار أن بعض المشاركين أعطونا أجوبة مغلوطة عمداً.

اتضح بنتيجة استطلاع الرأي أن 300 رجل و 300 إمرأة من الذين شاركوا فيه لم يتزوجوا إلا مرة واحدة، ونظراً لأن 125 رجلاً و 135 إمرأة لم يجيبوا عن الأسئلة يغدو مؤشر المتزوجين مرة واحدة فقط كالآتي: 82.72 % من الرجال الذين أجابوا و 13.78 % من النساء، أي 87.55 % و 8.57 % من العدد الإجمالي. وإذا افترضنا أن قسماً كبيراً من الأشخاص لم يجيبوا عن أسئلتنا لعدم رغبتهم في تقديم معلومات عن حياتهم الخاصة وما يتعلق بالطلاق ثم الزواج من جديد تغدو هذه النسبة أقل. عدد الرجال المطلقين (سواء الذين تزوجوا مجدداً أو لم يتزوجوا) بلغ 49 شخصاً، أي بنسبة 89.11 % و 12.9 % ، أما عدد المطلقات فكان 36 امرأة ، أي بنسبة 38.9 % و 94.6 %.

ولم يفصّل المطلقون والمطلقات ويتوسعوا في أسباب الطلاق عادة، كانت المرأة التي تطالب زوجها بالطلاق تقول له: ال عيك (لا أريد)، دون أن توضح الأسباب. وقد تشكى لنا السقاطرة الذين مروا بحالات كهذه من تقلّب أطوار زوجاتهم السابقات، لأن أسباب

الطلاق الحقيقية ظلت غامضة حتى النهاية، وعزا بعضهم الطلاق إلى أهواء الزوجات. ولم تسفر عن نتيجة محاولات إجراء دراسة سوسيولوجية اجتماعية للموضوع، فإن أجوبة الأزواج السابقين والزوجات السابقات، بخاصة، على الأسئلة المذكورة في استمارة الاستفتاء (كان المطلوب منهم، على الأصح، أن يختاروا سبباً للطلاق من عدة أسباب احتمالية مذكورة في الاستمارة) لم تكن صادقة على أي حال.

ولكننا تمكنا من خلال استطلاع آراء عدد كبير من المطلقين والمطلقات، أن نتأكد بأن أسباب الطلاق تتسم أساساً بطبيعة اقتصادية. فقد قالت امرأة كانت قد طلبت الطلاق بنفسها أن زوجها السابق بذر المال وأنفق نقوداً كثيرة على أبنائه من زوجته الأولى، ولم يبق للعائلة الجديدة إلا النزر القليل. فيما قالت امرأة أخرى إن زوجها السابق لم يشتر لها ولبناتها ثياباً جديدة، (الفساتين السقطرية التقليدية المطرزة كانت باهظة الثمن)، وهكذا دواليك.

ولعل السبب الاقتصادي كان مجرد تغطية على السبب الفعلي للطلاق، وهو قد يكون غير مفهوم تماماً أو من غير اللائق الكلام عنه، مثل عدم التلاؤم الجنسي بين الزوجين. وعلى فكرة، السقاطرة يتحدثون عن هذا الجانب من الحياة الزوجية دون حرج، فليس لديهم موانع نفسانية أو سواها (أحد الأشخاص فاضلَ بين مزايا زوجتيه)، ومع ذلك لم يعتبر أحد غياب الوئام الجنسي التام سبباً للطلاق. ونظراً للعدد الكبير جداً من حالات الطلاق في سقطرى وسهولة فسخ الزواج هناك في الماضي غير البعيد يمكن الافتراض بأن الطلاق في حالات كثيرة لم يكن له ما يبرره في الواقع، وبعبارة أخرى حتى الأسباب الاقتصادية لا تعكس واقع الأمور الحقيقي الذي يكمن في تجذر عدم استقرار الزواج بحيث تكفيه أبسط ذريعة لتجعله يتهاوى وينتهي إلى الطلاق. فالاستقلالية الاقتصادية النسبية للمرأة، وكذلك الفرص المؤاتية لزواجها مجدداً، من العوامل المساعدة على غياب الاستقرار التقليدي للزواج، إلا أن هذا الاتجاه تغير كثيراً بفعل الانتشار المكثف للقيم الإسلامية في الجزيرة من بداية التسعينيات.

كان السقاطرة، وهم يتحدثون معنا عن الطلاق، يشيرون أحياناً إلى أن الزواج بين أبناء العمومة لم يكن متيناً بخاصة، وهو يتم لاعتبارات اقتصادية صرف، فقد قال بعض المشاركين في استطلاع الرأي: إنهم تزوجوا من بنات أعمامهم «لانتفاء الحاجة إلى دفع المهر»، إلا أن الحياة الزوجية معهن فيما بعد لم تكن على ما يرام. علما أن الزوجة هي التي

تبادر إلى الطلاق في العديد من هذه الحالات، وهي حالات كثيرة ومتكررة، ولكن لا يجوز القول إنها الحالات الأكثر. فقد كان هناك اتجاه معاكس أيضاً، حيث يطلق الرجل زوجته «الغريبة» ويتزوج من ابنة عمه بدلاً عنها. فيما قال البعض إن زواج العمومة، والزواج اللُحمي بشكل أعم، يصادف أن يكون أمتن وأقوى، ذلك لأن الأشخاص العازمين على الزواج «يعرف بعضهم بعضاً خير معرفة ولا يواجهون أية مفاجآت».

ولا يعتبر السقاطرة العقم والعقر سبباً جوهرياً للطلاق، وذلك خلافاً لعرب اليابسة الذين يعتبرون هذا العيب من الأسباب الرئيسية (قانون الأسرة والأحوال الشخصية لعام 1974 في جمهورية اليمن الشعبية الديمقراطية السابقة تضمن حكماً خصوصياً يجيز في هذه الحالات، وعلى سبيل الاستثناء من القاعدة، الزواج من زوجة ثانية كما جرت عليه العادة في العالم الإسلامي). ويبدو أن موقف السقطريين هذا يعود إلى كونهم قد عاشوا في عوائل موسعة بالأساس، حيث يغدو الزوجان العاقران مجرد خلية عمل في العائلة المتشعبة تسهم في تربية أبناء الآخرين، وإضافة إلى ذلك لم تكن هناك مشكلة بخصوص الميراث، لأن ثروة الأسرة مشتركة.

كانت استقلالية المرأة اقتصادياً من الأسباب المهمة التي يسّرت وبسّطت إقدامها على الطلاق، وكانت تعود بعد الطلاق إلى بيت أبيها ومعها حاجياتها وماشيتها وما يعود لها من أموال، إلى جانب الفرصة الفعلية للزواج من جديد في مستقبل قريب، وقد ساق مصير المطلقات الدليل على ذلك.

وعلى الرغم من أن أحداً لم يذكر النفور الجنسي والتنافر العاطفي بين أسباب طلاق الزوجين فإن هذ الأمر بالذات كان يشكل، في العقل الباطن على ما يبدو، الدافع الحاسم لفسخ الزواج.

«ميم باء سين» صياد من حديبو في الخمسين من العمر، قال لنا إنه تزوج للمرة الأولى في ريعان الصبا، وأنجبت له زوجته أربعة أطفال، ثم طلقها (ولم يذكر لنا الأسباب)، وجاء بامرأة أخرى إلى البيت أنجبت له ستة أطفال، ثم تزوج امرأة ثالثة دون أن يطلق زوجته الثانية، فولدت له طفلين. زوجته الأولى«فاء ميم سين» من بلدة قاضب تزوجت من جديد ومعها أطفالها الأربعة (زوجها الثاني من سلطنة عمان)، فولدت طفلين آخرين ثم تطلقت وتزوجت للمرة الثالثة رجلاً من حديبو ولدت له طفلا مع أنها تربي ستة آخرين.

يسترعي الانتباه في هذه الحالة أن «فاء ميم سين»التي لم تعد في سن الشباب أقدمت

على الزواج مرات وبكل سرعة، بل وبدون إشكالات كما يبدو، على الرغم من عبء الأطفال، ولعل العامل الاقتصادي قد لعب دوراً كبيراً في تقرير مصيرها. أفادت ابنتها أن أمها خصصت لها بمفردها من القطيع الذي تملكه مائة رأس من الأغنام والماعز وأهدتها 20 نخلة مثمرة. ولكنْ لا يجوز اعتبار العامل الاقتصادي حاسماً، فقد تزوجت من جديد نساء غير ثريات.

«ميم ألف سين» (30 عاماً) مستخدم في كمارك حديبو، قال لنا إن والده مزارع صاحب نخيل تزوج مراراً. «ما لا يقل عن ست مرات» على حد تعبيره، أما والدته فقد تزوجت بعد الطلاق من أبيه، وبلغ عدد من ولدتهم من الرجلين 22 طفلاً، لم يبق منهم على قيد الحياة سوى 6.

في هذه الحالة وفي العديد من الحالات الأخرى كان الطلاق يحصل بين أزواج أمضوا في الحياة الزوجية ما لا يقل عن عشر سنوات، علماً أن الرجل لا يتزوج دوماً من امرأة أصغر سناً من مطلقته، كما هو المتوقع.

كانت فرصة زواج الرجل مجدداً تتوقف على قيمته بصفته شغيلاً كادحاً، وكذلك بصفته «كاسباً» يوفر دخلاً مالياً لعائلته في ظروف يمكن للسقاطرة أن يرتحلوا فيها للكسب خارج المناطق الداخلية من الجزيرة.

نحن لم نعثر على حالات كانت الخيانة الزوجة فيها سبباً للطلاق، على الرغم من أن مكانة المرأة في سقطرى آنذاك توحي بأن ذلك ليس أمراً مستبعداً، فقد كان موقف السقاطرة تجاه العلاقة بين الجنسين يختلف عن موقف أهالي اليمن وحضرموت. وتجلى ذلك، على سبيل المثال، في كيفية التعاطي مع الوصال قبل الزواج من دون تشهير بالمرأة أو إعاقة زواجها فيما بعد، ومن المستبعد بالنسبة لأي بلد عربي آخر في الواقع تزوج المرأة مراراً وتكراراً، ولاسيما إذا كانت مثقلة بعدد كبير من الأطفال (لعدة آباء في الغالب).

ونحن نعرف حالة حملت فيها الزوجة في غياب زوجها المرتحل للكسب في الخارج وولدت طفلاً من دون علمه، إلا أنه اعترف بأبوته للطفل بعدما عاد من السفر، أما القول بأن السقاطرة كانوا يعتقدون أن مدة الحمل قد تطول بمشيئة الله أجلاً غير مسمى فهو لا يجسد واقع الحال، فالدوافع أكثر تعقيداً بالطبع، وهي تقوم على الأسباب الاقتصادية وعلى آداب السلوك ومبادئ الأخلاق الراسخة من خلال التقاليد.

حدثنا أحد المشاركين في الاستطلاع عن أمر عجيب غريب، فقال إن بعض الرجال

عندما يقررون حيازة امرأة ما يتربصون بها مساءً عندما تخرج لقضاء حاجتها في الوادي ويحاولون أن يغتصبوها، المرأة تبدي مقاومة مستميتة، ولكنها تلوذ بالصمت إذا تمكن الرجل من قهرها، فتهدأ أعصابها ولا تخبر أحداً بما حدث، أما إذا أخفق الرجل فالعار والشنار في انتظاره. ذلك لأن المرأة في هذه الحالة تلجأ إلى النواح والعويل وتشكو من حاول اغتصابها، فيضطر إلى دفع فدية لعائلتها. ولعل العار يلحق بالرجل ليس بسبب مخالفة القانون، بل بسبب ضعفه وعجزه عن ترويض امرأة شديدة البأس، ونظراً لحساسية الموضوع لم أتمكن من التأكد مما إذا كانت تلك القصص من نسج الخيال، إلا أن لها دلالتها ما دامت تتناقلها الألسن.

وكان من عوامل تفكك الأسرة هجرة عدد كبير من الرجال من المناطق الداخلية إلى البلدات والمدن الساحلية، وكذلك إلى الخارج بحثاً عن الكسب، فالذين يذهبون إلى العمل في حديبو وقلنسية لا يأخذون عوائلهم معهم في الغالب ليس بسبب صعوبة السكن في هاتين المدينتين (فهم يستطيعون أن يقيموا عند أقاربهم وأبناء قبيلتهم، ثم إن بناء مسكن متواضع ليس بالشيء الصعب)، وإنما لأنهم يتركون في البادية ماشية ونخيلاً لابد من بقاء أحد ليرعاها ويعتني بها. وفي بعض الحالات فقط تنتقل الزوجة مع الأطفال إلى الوالد وتوكل مهمة رعي الماشية والعناية بالنخيل إلى الأقرباء أو إلى عاملين بأجرة.

تكرار الزواج وتعدد الزوجات

لم يكن تكرار الزواج يشكل في سقطرى كما أسلفنا مشكلة أو صعوبة تذكر لا للرجال ولا للنساء.

فمن بين الـ 537 رجلاً الذين شاركوا في الاستطلاع (نعيد إلى الأذهان أن 125 منهم لم يجيبوا عن الأسئلة المطروحة) كان هناك 33 شخصاً تزوجوا للمرة الثانية (9 بعد وفاة زوجاتهم الأولى و 24 بعد الطلاق). وكان هناك 8 أشخاص تزوجوا للمرة الثالثة (3 بعد وفاة الزوجة وشخص واحد بعد وفاة إحدى الزوجتين وطلاق الأخرى و 4 بعد طلاق كلتا الزوجتين). وكان هناك شخص واحد تزوج عدة مرات، و 11 شخصاً لم يتزوجوا بعد الطلاق وشخص واحد لم يتزوج بعد وفاة زوجته، و 10 أشخاص من متعددي الزوجات (لخمسة منهم زوجتان، ولأربعة ثلاث ولواحد أربع زوجات). ما يعني أن 01.8 % من عدد

المجيبين عن الأسئلة، و 15.6 % من العدد الإجمالي متزوجون للمرة الثانية، و 94.1 % و 49.1 % متزوجون للمرة الثالثة، وشخصاً واحداً فقط متزوج عدة مرات، كما أن شخصاً واحداً فقط لم يتزوج بعد وفاة زوجته. فيما بلغت نسبة الذين لم يتزوجوا بعد الطلاق 67.2 % و 05.2 % ، ونسبة المتعددي الزوجات 43.2 % و 86.1 % من الرجال.

أما في المجموعة النسوية المكونة من 519 امرأة (135 منهن لم يجبن عن الأسئلة) فهناك 19 امرأة تزوجن للمرة الثانية بعد وفاة الزوج الأول، و 12 تزوجن بعد الطلاق من الزوج الأول (3 منهن طلقن بمحض إرادتهن). وهناك 3 نساء تزوجن للمرة الثالثة (اثنتان بعد طلاقين، وواحدة بعد وفاة زوج والطلاق من الزوج الآخر). وهناك 19 امرأة لم يتزوجن بعد الطلاق و 15 امرأة لم يتزوجن بعد وفاة الزوج (لم نخصص في استمارة أسئلة هذه المجموعة خانة لتعدد الأزواج). وبحساب النسب المئوية تزوجت للمرة الثانية 07.8 % من النساء اللواتي أجبن على الأسئلة و 97.5 % من العدد الإجمالي، فيما تزوجت للمرة الثالثة 78.0 % و 58.0 % ، أما نسبة اللواتي لم يتزوجن فهي 85.8 % و 55.6 %.

يستفاد من المقارنة بين هذه المؤشرات أن عدد المتزوجين والمتزوجات للمرة الثانية متماثل تقريباً في كلتا المجموعتين. وأن نسبة المتزوجات للمرة الثالثة أقل، ونسبة اللواتي لم يتزوجن أعلى، إلا أن ذلك ليس دليلاً على أن فرص زواج الرجال للمرة الثالثة أعلى بكثير. فهذا يصح فقط على سن معينة، فالنساء اللواتي طلقن مرتين كن على الأكثر في سن لم تعد قابلة للزواج عادة (بعضهن تجاوزن الخمسين). أما الرجال فلم تكن السن تشكل عقبة أمامهم بأي حال، ثم إن الطاعنين في السن كانوا قليلين جداً في سقطرى (ولم تتغير الحال الآن أيضاً). وإذا كانت المرأة مطلقة للمرة الثانية قبل أن تبلغ سن اليأس فإن وضعيتها هذه كمطلقة مرتين. لم تكن تشكل أبداً عائقاً أمام زواج جديد.

«خاء فاء ألف عين» (65 عاماً) صياد لؤلؤ سابق من بلدة السوق، وهو ابن عبد معتوق من عبيد السلطان، تزوج «خاء» ثلاث مرات. زوجته الأولى توفيت، وتركت له طفلين، فتزوج مرة ثانية ثم طلّق، وعادت مطلقته مع ابنتها إلى بيت والديها، وسرعان ما تزوجت من جديد، وعند ذاك تزوج «خاء» للمرة الثالثة. وهو يعيش حتى اليوم مع زوجته الثالثة التي أنجبت له ثمانية أطفال، ويقول: لو عاش جميع المواليد لكان عندي منهم ثلاثون.

نشير هنا إلى أننا لم نسجل ولا حالة واحدة عاد الزوج فيها إلى زوجته السابقة بعد الطلاق، كما هو الحال في الأقطار العربية التي تقر الشريعة فيها إجراءات خصوصية لمن

يتسرع في طلاق زوجته وينوي العودة اليها.

حالات تعدد الزوجات في سقطري قليلة، وقد يبدو السبب للوهلة الأولى متعلقاً بقانون الأسرة لعام 1974 الذي منع الزواج من أكثر من واحدة، لكنه أقر بشرعية الزيجات التي حصلت في اليمن الجنوبي قبل صدوره. إلا أن دراسة المجموعة التي احتفظت بحق تعدد الزوجات بينت أن هذه الظاهرة لم تكن منتشرة على نطاق واسع حتى قبل عام 1974، وكانت حالات تعدد الزوجات أكثر بعض الشيء قبل عام 1967، في ظل نظام الإمامة، غير أنها كانت بالأساس ملازمة لبعض أبناء الشرائح الموسرة من السكان. وكانت سهولة الطلاق قد جعلت «الميالين إلى التبدلات» يبدلون زوجاتهم بالطلاق دون أن يتزوجوا من أخريات عليهن، ولذا لم تتسع ظاهرة تعدد الزوجات، كما ساعدت على ذلك حرية العلاقة الجنسية، فكان بوسع المتزوج أن يرتبط بعلاقة غرامية مع امرأة من دون رابطة زواج.

تبين جغرافية تعدد الزوجات أن هذه الظاهرة كانت موجودة ليس في حديبو والبلدات الساحلية الكبيرة وحدها، بل وكذلك عند الجبليين، وهي هناك أيضاً ناجمة أغلب الظن عن أسباب اقتصادية، بمعنى الرغبة في تكاثر القطيع أو الحيلولة دون تشتت الثروة (فإحدى الزوجات على الأقل تربطها صلة رحم برب العائلة). علماً أن إقامة الزوجات منفصلة، لكن بيوتهن متقاربة تطل على باحة واحدة وتنتمي إلى المجمّع الاقتصادي المشترك.

«سين ميم عين ألف» (40 عاماً) شرطي من حديبو، قال لنا إن والده تزوج من امرأتين، الأولى عاقر والثانية (أم «سين») أنجبت طفلين، وبعد وفاة الوالد تزوجت الوالدة مرة ثانية، وأنجبت من زوجها الثاني سبعة أطفال.

أطفال زوجات الأب يعتبرون أنفسهم أشقاء وشقيقات تقريباً، تربط بينهم دوماً علاقات المودة والتعاضد. ومن الأمثلة على ذلك ما حدثتنا به «شين ثاء عين» (18 عاماً) المعلمة الشابة في حديبو، فقد قالت إن والد زوجها، وهو من أهالي حديبو أيضاً كان في خدمة السلطان سابقاً، ثم مارس السمسرة التجارية. كان متزوجاً من ثلاث نساء يعشن معاً في منزل واحد، وكان له منهن ثمانية أولاد وثلاث بنات، اثنتان منهن متزوجتان تعيشان في منزلي زوجيهما، أما باقي الأبناء فيعيشون في بيت الوالد، ومنهم ثلاثة متزوجون، وهناك حفيدان أيضاً.

بعد أن توفي والد زوج «شين» الذي تسميه حسب التقاليد «عمي» ترأس بيت العائلة ابنه البكر من زوجته الأولى. كل أفراد العائلة يقتاتون معاً، ويمارسون نشاطاً اقتصادياً مشتركاً

ويود بعضهم بعضاً في احترام متبادل. كان أولاد العم يسمون أنفسهم الأخوة الأشقاء، فيما كانت «شين» تنادي كلاً من زوجتَي حميها المتوفى الأخريين: «يا عمتي»، أسوة بوالدة زوجها، وكان لهذه العائلة الكثير من النخيل، بالإضافة إلى قطيع كبير من الأغنام والماعز.

لم تكن لدى السقاطرة قواعد متشددة بخصوص عائدية الطفل بعد الطلاق، إلا أن معظم الحالات التي نعرفها تشير إلى أن الأطفال يظلون مع الأم، وليس مع الأب، ومن النادر أن يتقاسم الوالدان أطفالهما. أحياناً يربيهم جدهم وجدتهم لأبيهم، والأغلب أقرباء أمهم، الأطفال (أو بعضهم) يبقون عادة مع أبيهم أو أقربائه اذا أقدمت الأم على بناء عائلة جديدة، إلا أن الأطفال في كل الأحوال ليسوا كما أسلفنا عائقاً أمامها في زواج جديد.

في حال وفاة الأم يبقى الأطفال مع أبيهم طبعاً وتتولى زوجة أبيهم تربيتهم فيما إذا تزوج بعد وفاة أمهم. وفي حال وفاة الأب يتولى عمهم رعاية أبناء أخيه، وإذا لم يكن لهم عم يتولى رعايتهم جدهم لأبيهم، وإذا كان هذا الجد متوفياً يتولى أقرباؤه رعايتهم. وإذا تزوجت الأرملة التي لديها أطفال ذكور فهي تربيهم عادة حتى يجتازوا ما يسمى بفترة الحضانة والطفولة (10 - 12 عاماً)، وبعد ذلك ينتقلون إلى بيت عمهم أو جدهم لأبيهم، أما الإناث فيبقين في هذه الحالة مع أمهن دوماً.

وحتى إذا كان الوالدان على قيد الحياة تجري تربية الأطفال أحياناً «حسب الدور»: في فترة الحضانة من قبل الأم، وبعدها من قبل الأب. أفادت الممرضة من حديبو «نون صاد سين» (21 عاماً) أن والديها افترقا عندما كانت صغيرة جداً، كلاهما تزوج بعد الطلاق، فولد للأب ثلاثة أطفال، وللأم اربعة، وتولت والدة «نون» تربيتها حتى الثانية عشرة من العمر، ثم انتقلت إلى عائلة والدها.

كان «سين ميم عين ألف» من حديبو، وقد سبق أن ذكرناه، متزوجاً من ابنة خاله، وله منها أربعة أطفال، وبعد وفاة شقيقته تولى رعاية طفلها وتربيته، ثم توفي أحد أشقائه فتولى رعاية أطفاله الأربعة، من الناحية المادية طبعاً، ذلك لأنه ما من حاجة إلى انتقالهم من أسرة إلى أخرى، فجميع الأشقاء يعيشون في منزل والديهم في القرية، والشخص الوحيد الذي نزح إلى العاصمة هو «سين». إلا أنه على ارتباط وثيق بعائلته الكبرى، فإن نصف الأطفال الذين يسهر على تربيتهم يقيمون معه في المدينة ونصفهم الآخر يقيمون في القرية، وكان واضحاً أنه إذا تزوجت أرملة أخيه مرة أخرى فإن أطفالها سيبقون معه.

ثم إن مصير «سين» نفسه عبارة عن شريط لعلو منزلة تقاليد التعاضد العائلي، فعندما توفي والده وهو صغير سهرت أمه على تربيته عدة سنوات، فيما كان عمه هو المتصرف بتركة شقيقه المتوفى، وحينما كبر «سين» ضمه عمه إلى عائلته واهتم بتربيته أسوة بابنه الوحيد.

ولم نجد حالة واحدة تقاسم فيها الأب والأم أبناءهما.

«ألف ياء ميم» (24 عاماً) موظف صحي في مستشفى بمدينة حديبو، وهو بالأصل من أبناء المنطقة الشرقية. زواج والده من أمه هو الثاني بالنسبة للأب الذي سبق أن طلق زوجته الأولى، فتركت له ابنة تولت أم «ألف» أمر تربيتها، إضافة إلى ذلك أنجبت أم «ألف» عشرة أطفال: خمسة أولاد وخمس بنات، وكلهم متزوجون ما عدا الابن الأصغر والبنت الصغرى. جميع الأخوة مع عوائلهم يعيشون في بيت الوالد ويمارسون نشاطاً اقتصادياً مشتركاً، كان «ألف» متزوجاً، إلا أنه طلق زوجته، ثم تزوج مرة أخرى، وهو يقيم بمنزله في حديبو. زوجته الأولى ولدت له بنتاً (تعيش مع أمها) وولداً يعيش معه، ولكنه أحياناً يحل ضيفاً على والدته لأمد طويل. لدى والد «ألف» نخيل تعتبر ملكاً للعائلة كلها، بالإضافة إلى قطيع من الماعز والأغنام. وقد بلغت حصة «ألف» 40 رأساً ترعى مع القطيع المشترك.

عندما يبقى الأطفال مع الأم يزورون عادة والدهم بصرف النظر عما إذا كانت لديه أو لدى الوالدة عائلة جديدة.

«سين عين ألف» (36 عاماً) معلم في حديبو، ابن تاجر، كان متزوجاً وطلق زوجته «لأسباب موضوعية»، على حد تعبيره، وترك لمطلقته صبيين وصبيتين. ثم تزوج امرأة أخرى أنجبت له ولدين وأربع بنات، كما أن مطلقته تزوجت وأنجبت عدداً من الأطفال. أبناء الزوجة الأولى غالباً ما يزورون والدهم.

المثال الذي نورده أدناه يتحدث عن خالة تولت تربية ابنة أختها اليتيمة، وبعد وفاة الخالة الطيبة تولت هذه الفتاة بدورها تربية أطفال خالتها الذين تيتموا بوفاتها.

«فاء عين ألف» (20 عاماً) ممرضة في حديبو من مواليد المنطقة الشرقية، ذكرت لنا أن والدها مربي الماشية طلق زوجته الأولى ثم تزوج من والدتها (وقد توفيت الزوجة الأولى تاركة ابناً لها. وتولى أقرباؤها تربية الصبي، وهو راشد الآن). في البداية أنجبت الأم ولداً، أعقبته بميلاد «فاء»، وتوفي الأب عندما كانت الأم حاملاً بـ «فاء»، كما توفيت الأم ولم تتجاوز «فاء» السنة الثانية من العمر، فتولت خالتها المقيمة في حديبو أمر تربيتها.

وكان للخالة أربعة أطفال: صبيان وصبيتان، وبعد سنوات توفي زوج الخالة، ثم عندما كبرت «فاء»، توفيت الخالة نفسها، فتولت الفتاة تربية أبناء خالتها الأربعة، وكانوا أثناء إجراء الاستطلاع في الـ 15 و 12 و 10 و 7 من العمر. تزوجت «فاء» من أحد أبناء عدن العاملين في سقطرى، لكن زواجها لم يدم أكثر من ثلاثة شهور، فقد تركها زوجها ولم تكن قد حملت منه.

كان في حوزة «فاء» في حديبو 250 نخلة وما بين 500 و 600 رأس من الماشية (معظمها من الماعز) يتولى خالها رعيها في الجبال. وكان يبعث أو يجلب إليها كل الأغذية اللازمة، فيما يتولى رعاية النخيل بستاني يعمل مقابل حصة من محصول التمر أو ثياب يشترونها له، أو ماعز أو منتجات ألبان أو نقود من عائدات بيع التمور. وقد عمل في هذا المجال بستاني واحد طوال عدة سنين، إلا أنه اعتذر في الآونة الأخيرة بسبب المرض، فاتفقت «فاء» مع بستاني آخر.

المثال التالي يبين أن زوج الأم يمكن أن يسهر على ربيبه في حال وفاتها ووفاة زوجها السابق، والد الطفل. «عين سين عين» (20 عاماً) موظف حكومي في حديبو، من أبناء قرية حالة (الجزء الشرقي من الساحل الشمالي)، والده صياد توفي، فتزوجت والدته للمرة الثانية، ثم توفيت هي أيضاً، فتولى زوجها الثاني أمر تربية «عين»، وقد خلف له والده بستاناً من النخيل تسهر عليه خالته، فيما يقيم هو في منزله بمدينة حديبو.

وظلت محفوظة في سقطرى، وإنْ بصورة نادرة جداً، ظاهرة زواج السلفة الذي يفرض على الشقيق أن يتزوج أرملة أخيه المتوفى.

«ميم سين عين» (45 عاماً) راعي ماشية من جلسينو (المنطقة الشرقية، قبيلة جدد)، قال لنا إن والدته التي هي من مواليد جرئي (قرية في الوادي أسفل حلسينو، قبيلة كوتر) ترملت وفي حضنها طفل واحد. و«مواساةً لها» تزوجها شقيق زوجها المتوفى، فولدت منه «ميم» وطفلاً آخر.

في مثل هذه الحالات، وكما يستفاد من أقوال المشاركين في الاستطلاع، يأتي زواج السلفة بحكم الضرورة لصيانة ثروة العائلة، وخاصة الماشية. صحيح أن قطعان العائلة التي نحن بصددها ليست كبيرة، فقد كان «ميم» يمتلك 35 ماعزاً و 5 أغنام لا غير، ولم يكن قطيعا أخويه أكبر حجماً.

«سين سين ألف» (19 عاماً) معلم في حديبو من قبيلة بني قرحان في المنطقة الشرقية.

قال إن أمه التي ولدت من أبيه طفلين آخرين تزوجت بعد وفاته من ابن عمه، علاوة على زوجته، وذلك دعماً للعائلة. زوجته الأولى هي ابنة عم والدة «سين»، ولها ستة أطفال. أم «سين» أنجبت في زواجها الثاني طفلين آخرين. «سين» يسمي زوج أمه كالعادة «عمي» ويسمى زوجته الأولى «عمتي»، وهما كذلك في واقع الحال. العمة تعيش في منزل جنب منزلهم، ولعله منزل العم، والأطفال (وعددهم 11) يتربون معاً، فيما يشكل المنزلان وحدة اقتصادية واحدة.

ومن الواضح تماماً في هذه الحالة أن العامل الاقتصادي هو الدافع الوحيد للزواج، فقد حافظت العائلة على ثروتها المشتركة. ويقول «سين» إن أفراد العائلة يمتلكون على سبيل الشراكة كثيراً من النخيل وقطيعاً من الماعز والأغنام يضم 250 رأساً.

«عين صاد ألف» (21 عاماً) راعي ماشية من قرية عدونة (ليس بعيداً عن حديبو)، من أبناء الوجهاء في الأصل. أبوه من السادة الهاشميين وأمه من قبيلة بني عفرار المهرية التي كان ينتمي إليها سلطان المهرة وسقطرى. في بادئ الأمر تزوجت أمه من ابن عمها، وبعد وفاته ظلت مع أطفالها الثلاثة، ثم تزوجت من والد «عين» الذي كان أصغر منها بكثير، فولدت له ثلاثة أطفال. والعائلة تعتبر ثرية، كونها تمتلك خمس أبقار وخمسة جمال وحماراً واحداً وقطيعاً كبيراً من الماعز والأغنام، بالإضافة إلى الكثير من النخيل. وإضافة إلى الاعتبارات الاقتصادية، يبدو أن الاعتبارات الاجتماعية كانت من حوافز هذا الزواج، فالسادة الهاشميون المعروفون بالتعاضد والنخوة يشملون برعايتهم الأرملة وأطفالها.

التركة والميراث

يقوم نظام التركة والميراث في العوائل السقطرية بالأساس على أصول الشريعة الإسلامية، إلا أنه متأثر كثيراً بالعادات، فقد تعرضت للتغيير بفعل العادات حتى بعض الأصول الشرعية المفصلية، مثل تقسيم التركة بين الأبناء وفقاً لمبدأ: «وللذكر مثل حظ الأنثيين»، على الرغم من التقيد بهذا المبدأ في معظم الأوقات.

والحقيقة أن دراسة نظام التركة والميراث عند السقاطرة مهمة صعبة، ذلك لأننا نواجه هنا ثلاث صيغ مختلفة لانتقال الميراث: أ) تخصيص حصص من التركة للأبناء من الذكور المنفصلين عن العائلة والإناث المتزوجات ثم توزيع الحصة المتبقية عند الوالدين

المتوفين على الأبناء. ب) توزيع ميراث الوالدين المتوفين على الورثة من دون تخصيص حصص مسبقة. ج) انتقال تركة الوالدين إلى الورثة من دون تقسيمها مع بقاء الملكية المشتركة للعائلة على هذه الثروة بمجملها.

وإذا توفي رب العائلة وظلت أرملته على قيد الحياة تخصص لها حصة من التركة (إذا لم تكن تمتلك ثروة خاصة بها) أو تمارس نشاطاً اقتصادياً مشتركاً مع جميع أبنائها أو بعضهم أو واحد منهم.

وعندما تتزوج المرأة تنتقل معها حصتها من التركة أو الحصة المخصصة لها من ثروة الوالدين (ماشية ونخيل)، على أن تبقى تلك الحصة لها دوماً، فعندما تطلّق تأخذ من جديد حصتها من الثروة، لكن ملكيتها الشخصية تبقى جزءاً من ملكية العائلة جمعاء ما دامت تعيش في تلك العائلة. وبعد وفاتها أو بناءً على رغبتها، توزع ثروتها على أبنائها بالرحم، أما أبناء زوجها فلا حق لهم في تركتها. وإذا لم يكن لديها أبناء تعود التركة إلى أقرب أقربائها، وفي بعض الأحيان يخصص الرجل لمطلقته جزءاً من ثروته (نعجة أو نعجتين) على سبيل الهدية.

الأطفال الذين افترق والداهما ويعيشون مع أمهم، وإن تزوجت مرة أخرى، ويتولى زوجها الجديد تربيتهم، لهم الحق في حصة من تركة أبيهم، ويقسم ميراثه بالتساوي على جميع أبنائه بالرحم، إلا أن القسّام الشرعي يتقيد في هذه الحالة بمبدأ: «وللذكر مثل حظ الأنثيين».

وأكد لنا السقاطرة أن الأطفال، ذكوراً وإناثاً، أعزاء عليهم بالقدر نفسه، ولا تعتبر ولادة بنت أخرى من سوء الطالع إلا في العوائل التي كل أطفالها من الإناث. ويبدو أن عدم استهانة السقطريين بالمواليد الإناث، خلافاً لموقف العديد من الشعوب الأخرى، يعود إلى الدور الكبير الذي تلعبه المرأة في الحياة الاقتصادية وإلى ضيق الحال الذي لا يمكّن الأسرة من تلبية احتياجات عدد كبير من الأبناء الذكور (وقد تبدل هذا الوضع في الآونة الأخيرة بالطبع).

ونظراً لكون مهر العروس ظل حتى الماضي غير البعيد زهيداً للغاية فلم يكن الوالدان ينتفعان من تزويج البنات، خاصة أن بقاء البنت في المنزل أنفع، حيث تؤدي وظائف اقتصادية معينة في الأسرة (رعي الماشية وإعداد المنتجات الحيوانية وممارسة النسيج وما إلى ذلك) في حال توفر اقتصاد منزلي واسع يتطلب بطبيعته العديد من الأيدي

العاملة. مسألة البت في حجم جهاز الزفاف الذي تخصصه الأسرة لابنتها المخطوبة (بما في ذلك الماشية) تتوقف على قرار الوالد الذي يأخذ بالاعتبار كل الأمور والملابسات، حتى ما لا يتطابق تماماً مع أحكام الشريعة، فهو يراعي الحالة المادية لأسرته ولأسرة خطيب ابنته، وكذلك الاتفاقات مع الخطّابة. ويمكنه، على سبيل المثال، أن يخصص لابنته حصة من ثروة الأسرة أكثر أو أقل من الحصة المحسوبة لها في حال تقسيم التركة وفقاً لمبادئ الشريعة بعد وفاته.

«ألف ميم حاء» (17 عاماً) معلمة في حديبو، من مواليد قرية تامير في المنطقة الشرقية، وهي غير متزوجة. قالت لنا إن والدها راعي ماشية، لكنه يمارس صيد الأسماك في مواسمه، ولديها ثلاثة أخوة متزوجون وأختان غير متزوجتين، وجميع الأخوة (أحدهم يخدم في الجيش) رعاة يعيشون مع عوائلهم في بيت الوالد. ثروة الأسرة مشتركة، وفيها كثير من النخيل وقطيع ماعز، وكانوا يمتلكون في السابق أبقاراً، لكنها نفقت في السنوات العجاف. إلا أن في القطيع المشترك حصصاً مقننة لكل فرد من أفراد العائلة: خمس رؤوس للعازبات وعشر للمتزوجين. وعندما كان الوالد يذهب للصيد تقوم الأم برعي الماعز. كما خصصت لكل فرد حصته من بستان النخيل، وكان لدى «ألف» عدة نخلات وخمس عنزات أهداها لها والدها، لكنها بقيت في حوزة الجميع، وحتى راتبها الشهري تحت تصرف الجميع، وعندما تتزوج يعطيها الوالد حصتها، وبوسعه أن يزيد عدد الرؤوس إلى عشر.

هكذا نرى أن قاعدة تمتع رب العائلة الكبيرة بحق البت في مسألة توزيع الملكية كانت تلعب في الثمانينيات دوراً لا يقل عن دور الشريعة الإسلامية في المجتمع السقطري التقليدي.

وكنا قد سجلنا أيضاً حالات جرى فيها توزيع الثروة بالكامل حسب أصول الشريعة.

«ميم هاء ميم» (30 عاماً) يقيم في قلنسية، وهو من مواليدها. كان صياداً مثل أبيه، لكنه لم يكن يمتلك زورقاً، فترك الصيد وبات يعمل ميكانيكاً كهربائياً، ويعيش في شقة صديقه. طلق أبوه زوجته الأولى وتزوج من امرأة ثانية أنجبت له «ميماً» وبنتاً، وهو وشقيقته يناديان زوجة أبيهما الأولى «يا خالتي»، وليس «عمتي»، كما هي العادة. استلم «ميم» بعد وفاة والده 16 نخلة، فيما استلمت أخته 8 نخلات (وللذكر مثل حظ الأنثيين). كما كانت من نصيبه 8 عنزات، وقد اشترى لنفسه عدداً إضافياً من الماعز. كان متزوجاً من امرأة أنجبت له طفلين، ثم هجرته وتزوجت من شخص آخر، وعندما شارك معنا في استطلاع الرأي كان في حالة طلاق.

انتشار الطلاق على نطاق واسع أدى في الواقع ليس إلى تعقيد قضية التركة والميراث التي كانت تحل دون إشكالات، بل إلى تعقيد مشكلة إيواء الأطفال ورعايتهم وتربيتهم، ففي هذا الميدان، كما أسلفنا، لم تكن هنالك قواعد وأصول متشددة، فالعادات القبلية والعشائرية لا تلزم الأب بالمشاركة مادياً في تربية الطفل إذا بقي مع أمه (حصته من الميراث مضمونة فقط في حالة وفاة كلا الوالدين).

عندما كان الأثرياء من النخبة الحاكمة يتزوجون ويطلقون مراراً في الماضي، اعتادوا أن يؤمنوا مستلزمات تربية أطفالهم في حال الطلاق من خلال تسديد مهر كبير أثناء الزفاف، بحيث يبقى المال بعد الافتراق أيضاً تحت تصرف العائلة التي تعود إليها المطلقة مع أطفالها. حتى السلطان في حال الطلاق لم يكن يترك أطفاله في بيته.

«راء عين عين» (19 عاماً) ممرضة توليد (قابلة) في مستشفى حديبو، وهي ابنة آخر سلطان للمهرة وسقطرى. والدتها، «خاء عين»، بالأصل من المناطق الشمالية في اليمن، إلا أنها عاشت في سقطرى حتى قبل الزواج. قالت لنا «راء» إن زوجات كثيرات كن في كنف والدها، طلق إحداهن، فيما ظلت الباقيات في حريمه. وأضافت إن في سقطرى اليوم 27 من إخوتها وأخواتها، أحدهم شقيق لها، و 11 أخوة بالرحم، و 15 أخوة بالأب فقط.

وقد يتصور البعض أن وجود عدد كبير من الإخوة والأخوات (الأشقاء وغير الأشقاء والكلالة) مبعث خلافات وخصومات كثيرة، إلا أن تلك الخلافات والخصومات نادراً ما كانت تحصل في سقطرى. فالإخوة والأخوات، على الدوام تقريباً، في علاقة ودية طيبة، ينجحون في حل المسائل التي يختلفون عليها، وكانت هناك بالطبع استثناءات من القاعدة.

«سين عين ألف عين» (20 عاماً) موظف صحي في حديبو، حدثنا فقال إن والده الراعي من قبيلة بني عفرار المهرية، طلق والدته بعد أن أنجبت أيضاً ثلاثة أولاد وابنتين، وتزوج للمرة الثانية، فرزق ببنت واحدة سرعان ما توفيت. تربى «سين» وإخوته في منزل الأم، وعندما توفي الأب قسّم العُقّال تركته على جميع ورثته. تزوجت الأم مرة ثانية واستضافت زوجها الجديد، فكان أبناؤها ينادونه: «عمي»، وأنجبت منه ولدين. أخوا «سين» بالرحم، هذان لن يحصلا على حصة من تركة والده، زوج أمه الأول. ومن جهة أخرى تبقى ثروة الزوج الثاني لابنيه، ولن يحصل منها «سين» وإخوته على شيء، إلا أن جميع الإخوة والأخوات من كلا زوجي الأم يعيشون معاً في منزل واحد.

المنزل في حديبو، لكنهم في موسم الأمطار ينتقلون إلى الجبال لرعي الأبقار وتخزين

سمن لبنها وما إلى ذلك. كان «سين» متزوجاً، وله ابن وابنة، وقد ورث عن والده جزءاً من نخيله وماشيته، وكان أخوه الأصغر بالرضاعة يمارس رعي القطيع ورعاية النخيل. والحقيقة أن والدي «سين» عهدا به بعد ميلاده إلى عائلة مرضعة بدوية من قبيلة جبلية، وتربى هناك حتى السابعة من عمره، وكانت مرضعته تتلقى مقابل تربيته مكافأة غير ثابتة، «على قدر المستطاع». وكان له ثلاثة إخوة بالرضاعة تربطه بهم علاقة مودة، أحدهم يرعى ماشية «سين» في مقابل اللبن والسمن والمحاصيل الأخرى، إضافة إلى الهدايا.

صلة القربى ومصطلحاتها في سقطرى والمهرة

تشكل اللغتان السقطرية والمهرية، إلى جانب الشحرية (الجبالية) والحرسوسية وغيرهما، فرعاً مستقلاً من عائلة اللغات السامية. مصطلحات ومسميات صلة القربى والأنساب في هذه اللغات تكاد تكون متماثلة، على الرغم من وجود فوارق فيما بينها، وقد اعتمدنا في دراستها على المواد الميدانية التي جمعتُها في سقطرى والمهرة في فترة طويلة امتدت من العام 1974 حتى 1990.

فما هي مسميات فروع شجرة القرابة والأنساب في اللغة السقطرية؟

مسميات صلة القربى من الدرجة الأولى هي التالية:

بيبي، المثنى بيبيهي، الجمع بيبهن - «أب، أبو». وإذا أضيف الاسم العلم إلى هذه الكلمة تضاف إليها أيضاً أداة الإضافة أو التعريف دي: بيبي دي محمد «أبو محمد»، وإذا أضيف إليها الضمير تغدو النسبة أو العائدية على النحو التالي: دي + الضمير. في العبارات: ديهو بيبي «أبي»، ديئه بيبي «أبوك»، وهلمجراً.

بيو، المثنى بيوتي - «أم». يورد ليسلاو صيغة محرفة للكلمة بعض الشيء (Leslau, 1936:81) ونحن لم نصادف ميدانياً صيغة الجمع. فيما يعتبر مكسيمليان بتنر (Bittner, 1913:24.) هذه الكلمة صيغة المؤنث من كلمة «أب»: بيبي - أبي bi - (bey) - (a)bi. النسبة والعائدية فيها مثلما في كلمة بيبي: ديهو بيو «أمي»، ديئه بيو «أمك»، وهلمجراً.

نصادف في النصوص التي سجلناها عن أقوال الجبليين كلمتي بيرهي«الأب» وبيري «الأم»، وهما كلمتان لا يفهمهما أهالي الساحل، وحتى الجبليون أنفسهم نادراً ما يستخدمونهما. وهما تعودان إلى جذر سامي مشترك اشتقت اللغة السقطرية منه كلمة

بيري بمعنى «وضعت، ولدت»، كما اشتقت مصطلحات القرابة مبرهي، بار، ابرهي، امبريو (راجع معانيها أدناه)، ولذا الأصح أن نفهم بيرهي بمعنى «الوالد» وبيري بمعنى «الوالدة». أما بخصوص جذر الكلمتين فهو على الأغلب «برأ» بمعنى «ابتدع أو خلق من لاشيء» (قارن ذلك بكلمة الباري، الخالق، باللغة العربية. وللمزيد راجع كتاب كارل لندبيرغ: «لهجة دثينة») (Landberg,1920:142). ومنهما يأتي معنى «الولادة».

وكان ميولر، رئيس بعثة الأكاديمية النمساوية إلى جنوب الجزيرة العربية في مطلع القرن العشرين (مواد البعثة 12 مجلداً كانت في حينه المصدر الوحيد لدراسة اللغات الحديثة في المنطقة، وقد اعتمد عليها ليسلاو في وضع قاموسه. المجلدات 4 و 6 و 7 مكرسة للغتين السقطرية والمهرية)، قد سجل نصوصاً قيمة كثيرة نجد فيها مصطلحين آخرين بمعنى الوالدين. وهما إئف «أب» وإم «أم» (Muller, 1905 - 1907). فيما يعتبر ليسلاو الفاء في كلمة إئف تحويراً إحتكاكياً للباء في كلمة أب، كما يعتبر وجود حرفي العلة القصيرين إنعكاساً للياء القديمة الكاملة النطق (Leslau,1936:62 - 63, 68 - 69).

والمصطلحان المذكوران مشتقان من جذر سامي مشترك (قارن بين : العربية ـ أب وأم ، المهرية – هيب وهام، الشحرية ـ بيو ويم، العبرية ـ أب وأم، وهكذا دواليك)، هاتان الكلمتان غير معروفتين عند أهالي المناطق الساحلية، ويبدو أن أحداً لا يستخدمهما في المناطق الجبلية، أو ربما استعمالهما هناك قليل. إلا أن ثمة انتشاراً واسعاً لكلمة آقو بمعنى الوالدين، الأسرة، الأقرباء الأكبر سناً، الناس، حيث يحول حرف «و» كلمة إئف إلى صيغة اسم الجمع (Rhodokanakis,1915).

ونجد الشيء ذاته في الشحرية حيث اشتقت كلمة ايو بمعنى الوالدين من كلمة أي التي تعني الأب. وتلك هي اللفظة الأساسية المستخدمة في اللغة السقطرية بمعنى «الناس» (وهي مشتقة من غيرها أغلب الظن). ومن الأدلة على قِدم كلمتي إئف وإم أنهما لم تعودا قيد الاستعمال من عهد بعثة ميولر في مطلع القرن العشرين. ثم إن هاتين اللفظتين، خلافاً لكلمتي بيبي وبيو، يمكن أن تلحق بهما الضمائر المتصلة لتأكيد النسبة أو العائدية. ومعروف أن صيغة الاسم زائداً الضمير الشخصي ذات طبيعة عتيقة قلما نصادفها في اللغة السقطرية المعاصرة بعد أن حلت محلها صيغة دي زائداً الضمير زائداً الاسم، والاستثناءات هي على وجه التحديد بعض مصطلحات القرابة التي سنتطرق إليها لاحقاً. ولا توجد كلمات خصوصية يخاطب بها الأبناء آباءهم، بل تستخدم كلمتا بيبي وبيو مع أداة

النداء أ (اآ): أ بيبي، أ بيوا (بابا، ماما!).

وعلى هذا النحو بالذات تتم مخاطبة باقي الأقرباء، ولذا لن نعود إلى هذا الموضوع، سوى أننا نذكر بعض التنوع في الصياغة تبعاً للمخاطب، وعلى سبيل المثال: أ كاكا (يا أخي).

بالنسبة للأخوة والأخوات نجد استعمالات لمعاني الإخوة الأكبر أو الأصغر سناً من المتكلم أو الذين هم في سنه، ولا توجد مفردة خصوصية للإشارة إلى أكبر الإخوان والأخوات، فكل من هو أكبر سناً من المتكلم يخاطَب بنفس الصيغة. وللإشارة إلى الأخ أو الأخت الأصغر سناً من المتكلم أو اللذين في عمره توجد لفظة واحدة للمذكر والمؤنث هي كاكا للمفرد، ومثناها كاكي، وجمعها كاكيهن. صيغة النسبة هي دي زائداً الضمير الشخصي، كما تستخدم في الوقت ذاته للإشارة إلى الأخ الأكبر والأخت الكبرى كلمتان مختلفتان من جذر واحد: نينهي للمفرد، نينيهي للمثنى (الأخ الأكبر)، أتّه (الأخت الكبرى)، وأداة النسبة هي دي أيضاً.

وإلى ذلك تستخدم كلمتان تعودان إلى الجذر السامي المشترك أه: أعها (أعحا) للمفرد وأعهي (أعحي) للمثنى وأعهو (أعحو) أو أعهوي (في بعض اللهجات البدوية) للجمع بمعنى «الأخ»، وأعهت (أعحت) بمعنى «الأخت». وقد لاحظنا ميدانياً أن أهالي الساحل يتلفظون الحرف هاء في هذه الكلمات، فيما ينطقه الجبليون (بعضهم على الأصح) بصيغة حاء. (قارن ذلك مع غا وغيت بالمهرية، وأغا وغيت بالحرسوسية وأخ وأخت بالعربية). (Le-slau,1977:7). وتعتبر هاتان الكلمتان من المصطلحات السقطرية القليلة التي تصاغ النسبة أو العائدية فيها بإضافة الضمير المتصل. على سبيل المثال:

أعهي (أعحي) . أخي

أعهش (أعحش). أخوه

أهويهي (أحويهي). إخواني، وهكذا دواليك.

ونصادف في حكاية وأسطورة «إيتهاميتن» (راجع ترجمتها العربية في الفصل التاسع) صيغة أوهوكي بمعنى «إخوانك» (للجمع). ونظراً لورود الصيغة المماثلة أوحوكي في النصوص التي جمعها ميولر يقول ليسلاو: «إن هذه الكلمة التي تبدو بصيغة الجمع إنما تعني أخويك مثنى أخيك» (Leslau, 1977:56). أما نحن فنعتقد أن المتكلم استخدم صيغة الجمع بدلاً من صيغة المثنى لا غير، وهو أمر شائع في كلام العامة.

وقد لاحظنا بعض الفوارق بين اللهجات المحلية في نطق كلمة أعهت مع الضمير المتصل:
أعهيتي . أختي (حديبو).
أعدتي – أختي (قلنسية وحجهر).
أغدتي. أختي (لهجة بدوية في المنطقة الغربية).
أغهدك . أختك (لهجة بدوية في المنطقة الغربية).
أعهدش – أخته (لهجة بدوية في المنطقة الغربية).
وهكذا دواليك...

أما بالنسبة للأطفال والأبناء ففي اللغة السقطرية عدة مصطلحات قيد الاستعمال. وأهمها:

مجشم (وتنطق أيضاً مكَشم) للمفرد ومجشيمي للمثنى ومجاشي للجمع. جذر الكلمة «ج. ش. م»، وهو حسب ميولر (راجع Bittner, 1913: 20)، يطابق المفردة العربية «جسم»، ولكن بمعنى «صبي، ابن». ليسلاو أورد في معجمه صيغ التصغير أو التدليع مجشِم، مجشمي، مجشمهن (Leslau, 1938: 117)، لكننا لم نصادفها في عملنا الميداني.

وتستخدم هذه الكلمة على نطاق واسع في اللغة السقطرية بكلا المعنيين: (صبي، غلام، فتى) و(ابن، ولد)، وتكون صيغة النسبة بواسطة الأداة دي: ديهو مجشم (ابني)، مجشم دي حمد (ابن حمد).

وبنفس القدر من الانتشار نصادف كلمة فرهم بكسر الفاء والهاء (ليسلاو يعطينا صيغة فيريهم (Leslau,1938:341 للمفرد وفيريمي للمثنى وفيرهم بفتح الهاء (فويرهم عند الجبليين) للجمع بمعنى «ابنة، بنت، فتاة، صبية»، أي بكلا المعنيين على غرار مجشم. جذر الكلمة ف. ر. م. ويقارنها بتنر بالكلمة المهرية فرهن التي تعني (وتقابلها) بالعربية «الفَرَس» (Bittner, 1913:13)، فيما يشير ليسلاو إلى أن المعنى الأول لهذا الجذر السامي المنعكس في اللغات العربية والعبرية والآرامية هو «قص، قطع، جزأ، هشم». ومن ذلك معنى «خلق ، أبدع» (الجذر «برأ» الآنف الذكر وغيره). وبذا تعني فرهم، في مفهوم ليسلاو: «المخلوق، الكائن» (Leslau, 1938:341).

إلا أننا نستطيع أن نقدم تأويلاً آخر. فلربما كانت كلمة «بنت» باللغة السقطرية مشتقة من هذا المصدر وترتبط مباشرة بمعنى «القص»، لأن كلمة فرهم تطلق على البنت في سن الرشد والبلوغ، عندما ينبغي أن تتعرض لعملية الختان (القص)، ومن هنا يأتي معنى

الكلمة للإشارة إلى «البنت التي بلغت سن الختان». وقد أفاد السقطريون ممن شاركوا في استطلاعات الرأي أن البنت التي لم تبلغ هذه السن تسمى في سقطرى بلفظة أخرى (عوجينو. راجع التسمية أدناه). وهذه الإفادة تدلل على مصداقية تأويلنا، أما نسبة كلمة فرهم فيعبر عنها بالأداة دي: ديهه فرهم «ابنته».

ثم إن كلمة فرهم غالباً ما تستخدم بالسقطرية مع كلمة «بنت» المقتبسة عن العربية بنفس المعنى، فتنشأ مفردة لغوية واحدة. وقد لاحظنا أن مصطلح «فرهم بنت» يستخدم بالأساس عندما تقتضي الحاجة الإشارة إلى سن البلوغ التي تؤهل الفتاة للزواج.

كما يستخدم مصطلحان آخران للدلالة على الأطفال، وهما:

عويجهن (تصغير اَجّ - رجل، إنسان، زوج) للمفرد بمعنى «صبي»، وعوجيني للمثنى وعوججهن للجمع.

عوجينو (تصغير عاجه - امرأة، زوجة) للمفرد بمعنى «صبية»، وعوجينوتي للمثنى، وعوجهنيتن للجمع.

وتطلق هاتان الكلمتان بأشكالهما العددية على الأطفال الصغار عادة. ليسلاو يورد في الصفحة 307 من «معجم سقطرى» صيغة أخرى لتصغير هاتين الكلمتين، إلا أننا لم نصادفها في عملنا الميداني في الجزيرة، وتصاغ النسبة منهما بإضافة الأداة «دي».

وفي اللغة السقطرية لفظة أخرى بمعنى «الطفل» (المذكر والمؤنث) وهي مبرهي للمفرد ومبروي للمثنى وامبريه بضم الباء (أو امبوريو) للجمع. وتستخدم بصيغة المفرد والمثنى للإشارة إلى الأطفال الرضع: اجدوحو مبرهي - «ولدت طفلاً». إلا أن هذه الكلمة بصيغة الجمع يمكن أن تعني ليس الأطفال فحسب، بل جميع أفراد العائلة، بمن فيهم الزوجة، بمعنى «الأسرة». بهذا المعنى يستعملها أهالي المناطق الساحلية، فيما يستخدم الجبليون في الغالب لفظة أخرى هي ماصن التي تعني «الزوجة» إضافة إلى معنى «الأسرة»، النسبة من كلمة مبرهي تصاغ بإضافة الأداة دي.

ومن الجذر نفسه نحتت كلمة بار المستخدمة في العديد من اللغات السامية بمعنى «الطفل» للمذكر والمؤنث (قارنها بمفردات حابري بالمهرية وبير بالشحرية وبار بالآرامية وغيرها). وخلافاً لمفردة مبرهي لا تشير هذه الكلمة إلى سن الحضانة، بل لها على الأرجح معنى «الابن والابنة» عموماً (Leslau, 1938:95). وإلى ذلك تستخدم كلمة بار في عدة معانٍ خصوصية. ويورد ليسلاو معنيين آخرين للكلمة أحدهما للإشارة إلى سن الطفل،

والآخر للإشارة إلى فتوة الحيوان: بير أسد «شبل».

وثمة كلمة في السقطرية مختصة بمعنى التوأم: شيكلي للمفرد، وشوكالي للمثنى، وشكلهو للجمع.

أما صلة القربى من الجيل الأقدم وما قبله فلها في السقطرية المصطلحات التالية:

معه - «جد» للمفرد ومعي للمثنى ومعهن للجمع. ويورد ليسلاو مُعو، معوهي، معميهن بمعنى «السلف» (Leslau, 1938:248)، فيما ينسب ميولر هذا المصطلح إلى مفردة ميهو (مئحو) التي تعني «الأحشاء، الأعضاء الباطنية»، ويقارنه بالعبارة العبرية «ميميعيكا يعاسو»، وتعني، على وجه التقريب، «الخارجين من أحشائك». (Ibid).

كلمة معه تعني بالسقطرية الجد من جهة الأب ومن جهة الأم. وللتفريق بينهما تستخدم الصيغة المركبة التالية: بيبي ديهو دبيبي «والد والدي» وبيبي ديهو دبيو «والد والدتي». صيغة النسبة من كلمة الجد بإضافة الأداة دي : ديسي معه «جدها». وبالطريقة التركيبية أيضاً يتم التعبير عن الأسلاف الأقدم: معه دي دبيبي «والد الجد» (الجد الأكبر) ومعه دي دمعه (جد الجد) وهلمجرا. وهناك عبارة معه معهن، ومعناها الحرفي«جد الأجداد»، «أبو البشر» (آدم).

وهناك كلمة حبّه بمعنى «جدة» للمفرد وحبيتي للمثنى وحوبب للجمع. وقد ورد عند ليسلاو مصطلح حابّه بمعنى «جدة، ربة بيت» (Leslau, 1938:159)، صيغة النسبة بإضافة دي. وخلافاً لكلمة معه يشتق من كلمة حبّه مصطلح منفرد هو حبيوبو بمعنى «الجدة الكبرى»، فيما تستخدم الطريقة التركيبية للإشارة إلى الجدات الأقدم منها. فإذا اقتضى الحال تدقيق نسب الجدة أو والدتها تستخدم نفس طريقة تدقيق لقب الجد: بيو ديهو دبيبي «أم أبي»، بيو ديهو دمعه «أم جده»، بيو دي بيبي ديهو دي بيو «أم والد أمي».

ولا توجد في السقطرية مصطلحات خصوصية للإشارة إلى الأحفاد الذكور والإناث، بل تستخدم لهذا الغرض الطريقة التركيبية : مجشم ديهو دي مجشم «حفيدي - إبن ابني»، امبريه ديهو دي مجشم «أحفاده وحفيداته - أبناء ابنه»، فرهم دئه دي فرهم «حفيدتك – ابنة بنتك» وهلمجراً. وعندما يخاطب الأحفاد جدهم أو جدتهم يقولون: أ معه أو أ حبّه وينادي الجد والجدة أحفادهما بالاسم أو يخاطبانهما كما يخاطبان أبناءهما: «يا ابني» أو «يا بنتي».

وهناك مصطلحات منفردة للأعمام والعمات والأخوال والخالات:

ديدو للمفرد وديدوي للمثنى (ولا جمع لهذا الجذر) - عم. وهذه الكلمة المؤنثة ذات جذر سامي مشترك يطابقه في المهرية هاديد، وفي الشحرية ديد وإيديد وفي العبرية دود، وفي العربية المغربية دادا، وفي السريانية داده، وفي العربية الجنوبية القديمة دد (Leslau, 1938:123). وللتفريق بين الأعمام الأكبر والأصغر سناً تستخدم الطريقة التركيبية: نينهي ديهو دي بيبي «الأخ الأكبر لوالدي»، كاكا ديهو دي بيبي «الأخ الأصغر لوالدي». صيغة النسبة بنوعين: إضافة الضمير المتصل أو إضافة الأداة دي زائداً الضمير.

حليله للمفرد وحليلي للمثنى و حليلهن للجمع - الخال. والنسبة إليه بالأداة دي فقط. ويبدو أن هذه الكلمة أزاحت (في المناطق الساحلية على الأقل) الأصل الأقدم المشتقة منه: حيل (وجمعها محولهي). ونصادف كلمة حيل في نصوص ميولر مربوطة بالضمير المتصل: حيلهي - خالي، حيلك - خالك، حولكي - أخوالك. كما يتحدث ليسلاو عن كلمة دودهي (عمي) التي وجدها عند ميولر، ويوردها بتنر أيضاً، مشيراً إلى أنها كانت تعتبر في السابق صيغة للمفرد (Leslau, 1938:123). ومن الجذر السامي الذي تقوم عليه كلمة حيل اشتقت في المهرية والشحرية خيل، وفي العربية خال، وفي السريانية حالا، وفي التيغري خال (Leslau, 1938:166). إلا أننا لم نصادف كلمة حيل في النصوص التي سجلناها في سقطرى، وإلى ذلك بيّن استطلاع رأي أهالي المناطق الساحلية أنهم لا يعرفون هذه الكلمة (ونحن لم نستطلع رأي أهالي الجبال بخصوصها).

وإذا كان العم والخال في السقطرية يعبر عنهما بكلمتين مختلفتين، فهناك كلمة واحدة فقط للدلالة على العمة والخالة معاً:

حيلو (خالّة في صيغة أخرى) للمفرد وحيلوتي للمثنى وحيلوت للجمع. والنسبة إلى هذه الكلمة بطريقتين: بإضافة الضمير المتصل (حيلوتي - عمتي، خالتي) وبأداة دي زائداً الضمير الشخصي (ديسي حيلو - عمتها، خالتها). صحيح أن ليسلاو وجد استعمالاً واحداً لا غير لكلمة ديده في نصوص ميولر بمعنى «العمة» فقط (Leslau, 1938:123 -124) لكنّ مكسيمليان بتنر يشير إلى عدم وجود هذه الكلمة في السقطرية، ويؤكد أن حيلو هي المستعملة بهذا المعنى (Bittner, 1913:28).

وهناك مصطلح إبري (أو إبرهي) للدلالة على ابن الأخ ومصطلح إبريت لابنة الأخ. والمصطلحان من الجذر نفسه برأ الذي اشتقت منه برهي «الأب» وبيري «الأم» ومبرهي «الولد». وكلاهما يستعملان مع الضمير المتصل فقط. وإلى ذلك تستخدم الطريقة

التركيبية للتعبير عن هذه المفاهيم في حال اقتضت الضرورة التفريق بين أبناء الأخ وأبناء الأخت:

مجشم دعهي ـ ابن أخي

فرهم دعهيتي – ابنة أختي

كما تستخدم الطريقة التركيبية للدلالة على أبناء العم والخال:

مجشم ديهو دي ديدو – ابن عمي.

فرهيم ديهو دي حليله – ابنة خالتي. وهلمجراً.

وبالإضافة إلى مصطلحي مجشم وفرهم نصادف في هذه التراكيب اللغوية لفظة بار:

بار ديدو – ابن العم.

ولعل اسم الجمع بارديد (أبناء أو بنات العم، ويلفظ ككلمة واحدة) مشتق من كلمتي بار ديدو. وللمزيد من التوضيح يمكن أن يستخدم مع مجشم/فرهم . على سبيل المثال: الها فرهَم بار ديد (هؤلاء بنات العم). وهذا من النماذج القليلة للتراكيب اللغوية العتيقة في السقطرية.

وغالباً ما نصادف كلمة بار مع ضمير التملك : بار ديهو ديدو (بار ديهو دي ديدو) – ابن عمي.

ونرى هذا التركيب في نصوص ميولر بصيغة أخرى:

ديهو بار ديدو ـ ابن عمي.

ديئه بار ديدو – ابنة عمك (نقلاً عن Leslau, 1938:123).

يستفاد من استطلاع رأي أبناء المناطق الساحلية أن هذا التركيب غير مستخدم هناك، فهم يتعاملون مع ابن أو ابنة العم على أنهما أخ وأخت لهم، ويميزون بين الصغير والكبير. فيسمون ابن العم وابن الخال الأكبر سناً بالمصطلحين نينهي/أته، فيما يخاطبون الأصغر سناً بالاسم، ويخاطبون الصغار جداً بكلمة كاكا .

ويسمون زوج الأم وزوجة الأب بنفس ما يسمون به العم والعمة، إلى جانب الطريقة التركيبية. على سبيل المثال: زوجة الأب حيلو تسمى عندهم عاجه دي بيبي، وزوج الأم ديدو يسمى عجّ دي بيو. ويسمون إخوة وأخوات الكلالة كالأخوة والأخوات بالرحم (الأشقاء)، لكنهم يضيفون، في حال التمييز بينهم، اسم الوالد المشترك مع حرف الجر من:

ديهو كاكا من بيبي ـ أخي/أختي لأبي.

كاكا من بيو - أخي/ أختي لأمي.

إذا توفي كلا الوالدين يتولى أمر الأطفال عادة جدهم لأمهم، فهو أول من يجب عليه رعايتهم، ويتحمل فيما بعد مسؤولية زواجهم، وإذا كان عاجزاً عن تربيتهم يتكفل بهم خالهم الأكبر أو أي خال أو خالة غيره. وفي شأن هذا النوع من الابن بالتبني يطلق بالسقطرية الكلام التالي مثلاً: مجشم تحر من إعدتي «الابن الذي بقي من أختي».

وإذا قال السقطري إن أخته ماتت يسألونه: إنم إكي من إمبريو؟ «ومن بقي من أطفالها؟»

وتطلق المصطلحات التالية للدلالة على الأقارب بالزواج (النسابة):

عجّ للمفرد، وعجّي للمثنى، وعيوج للجمع بمعنى «زوج، شخص، رجل». وقد أورد لسيلاو هذا المصطلح بصيغة عيج، عيجي، عيوج (Leslau, 1938:307). ويطابق هذه الكلمة في المهرية والشحرية غيج. ويبدو أن لهذه الكلمة صلة بفعل الولادة أيج (راجع تأويل أصل الكلمة عند Leslau, 1938:6 - 3 - 307).

عاجه للمفرد، وعجيتي للمثنى، وعجهيتن للجمع بمعنى «زوجة، امرأة». وهي من أصل نفس جذر اجّ.

والدا الزوج/الزوجة، حسب ما قاله لنا أهالي المناطق الساحلية، يسمون بالسقطرية ديدو وحيلو، ويمكن استخدام الطريقة التركيبية في تسميتهم، على سبيل المثال: بيبي ديهو دي عاجه «والد زوجتي». ويمكن للحماة أن تسمي صهرها ليس بالاسم فقط، بل تقول له يا إبريهي «يا ابن أخي» (والصهر غالباً ما يكون ابن أخ الحماة فعلاً).

وهناك مصطلحات خصوصية للدلالة على الأقرباء من جهة الزوج والزوجة تعود إلى جذر سامي مشترك:

حام (حيم) للمفرد، وحوم للجمع بمعنى: «حمو، صهر، عديل، قريب، أبو وأخو الزوج أو الزوجة» وهلمجراً. ويطابق هذه الكلمة في المهرية مصطلح حيم، وفي الشهرية حين وحيم، وفي العبرية حام، وفي الجغرية حام، وفي الأكدية أمو، وفي العربية الجنوبية القديمة حم.

حامت بمعنى «حماة، أم الزوج، زوجة الابن، عديلة» وهلمجراً (Leslau, 1938:178).

والنسبة لهاتين الكلمتين بإضافة الضمير المتصل:

حيمس - صهره

حامكي - صهركم

حامتش - زوجة ابنه

حامتس - زوجة ابنها، وهكذا دواليك.

وترتبط هذه الكلمات بالفعل حامي الذي يعني «زوّج يزوّج» (Leslau, 1938:178). ومن هنا يأتي فعل شحامي للدلالة على عملية الخطوبة:

.: من أوؤ شحامأك؟ . «من أين خطبتَ؟»

.: شحامأك كن محمد بن سليم. . «خطبتُ من محمد بن سليم».

ومن هذا المصدر أيضاً تشتق كلمة محمو التي هي اسم جمع وتعني «الخطّابة» أو «أهل العريس».

كما نصادف في النصوص المتوافرة لدينا كلمة حاميتي بمعنى «عديلتي» أو «أخت زوجتي». والصيغ الأخرى المماثلة. وقد بيّن استطلاع رأي أهالي المناطق الساحلية أنهم يستخدمون كلمة صهر (مقتبسة عن صهر العربية) بدلاً من حيم. ولاحظنا في أحد النصوص كلمة حاميتي بمعنى «زوج أخت الزوجة»، إلا أنها قد تكون من قبيل السهو.

وإلى ذلك وجدنا كلمة أخرى لم نصادفها عند ميولر وليسلاو، وهي:

حامتينو بمعنى «زوجة أخ الزوج، وزوجة أخ الزوجة».

والعادة أن ينادي السقاطرة العديل، أخا الزوج وأخا الزوجة، بالاسم.

وفيما يخص الزواج في سقطري فأكثره كما أسلفنا الزواج اللُحمي من أبناء العمومة، والزواج من أبناء الأخوال. ويفضل عادة الزواج من ابن وبنت العم (العمة). وينتقل العروسان عادة للإقامة في بيت والدي الزوج. وفي حال الطلاق يتكفل الجد من جهة الأم أمر الأطفال، وأحياناً يبقى الأطفال مع أبيهم.

وفي السقطرية مصطلح للزوج الجديد بالنسبة للاستعمال اللغوي عند الزوج القديم، فهذا الأخير يسمي زوج مطلقته شريك، فيما تسمي المطلقة الزوجة الجديدة شريكة، وهذه الكلمة مقتبسة من العربية «شراكة».

وهناك مصطلح خاص للدلالة على القابلة التي تمارس التوليد: شعبهر، ومصطلح لأول من يعطي الطفل، ساعة الولادة ماءً أو لبناً: حينكهن للمذكر وحنكهن للمؤنث، ويعزى أصل هذه الكلمة إلى تسمية أحد أنواع الألبان حنيكي « القشدة».

ولعل في ذلك إشارة إلى العرّاب/العرّابة الذي يحتفظ مدى العمر بعلاقة مميزة مع الطفل الذي يتولى عرَابته. كما تبقى علاقة الإخوة والأخوات بالرضاعة: أعهى من تدي وأعهت من تدي، ومعناها الحرفي: الأخ/الأخت بالثدي. ويقول الأخوة بالرضاعة عن

أنفسهم: أدكّي تهدهي (رضعنا معاً).

وفي السقطرية بضع مصطلحات بشأن العقم وفقدان الذرية أو عدم وجودها أصلاً:

مكتطع للمذكر ومكتطيعو للمؤنث و مكتطعهيتن للجمع بمعنى «منقرض»، أي العائلة أو القبيلة التي انقرضت نهائياً أو لم يبق منها سوى شخص أو شخصين.

صفهر للمفرد وصَفير للجمع بمعنى عقيم، وصفهيري للمفرد وصفرهيتن للجمع بمعنى عاقر.

وإلى ذلك تمكن المؤلف في سقطرى من تسجيل عدة مصطلحات خصوصية ومميزة عن غيرها من حيث المعنى الذي يرتبط لغوياً بصلة القربى:

فرح أو فورح للمفرد وفرحي للمثنى وفروح للجمع وفورحو للمؤنث (فورحو بار جربك – قطة صغيرة) وفورهيتن للجمع بمعنى الابن غير الشرعي وبمعنى أفراخ الحيوان (بصيغة الجمع).

وتستخدم هذه الكلمة للشتم والسباب بمعنى «لئيم، لا أصل له». وتستخدم مفردة فرحيهو للغرض نفسه، بمعنى المرأة التي لا مال لها ولا حلال.

وهناك شتيمة أخرى: أهن بار شعرهر«لستَ من الرجال»، وتعني حرفياً: أنت ابن شعرهر، أي حشفة لا نفع منها، أو أنبوبة خزف.

وشتيمة أخرى: أهن ال برويك لتسئة، وتعني «خديج» (ناقص)، أي لم تحملك أمك تسعة أشهر كاملة (قارن ذلك بتعبير حتليو عاجة الذي يعني «المرأة أجهضت»).

إلى هنا نأتي على نهاية عرض مصطلحات فروع شجرة القرابة في اللغة السقطرية. وللمقارنة أذكر أدناه مصطلحات القربى في اللغة المهرية التي سجلتها أثناء عملي الميداني في المهرة خلال السنوات 1985 - 1988:

غج، غيج ـ شخص، إنسان، رجل، زوج

غييجن ـ تصغير زوج

غيجن ـ صبي

غجت، تيس – امرأة، زوجة

تويسوت ـ تصغير زوجة

غجنوت ـ بنت

غا ـ أخ

غيت،غوية ـ أخت

حيب ـ أب

حابو ـ أسرة، أقرباء، ناس

حام ـ أم

أوم – جد، سلف

أميت ـ جدة

حديد ـ عم

خيل ـ خال

حديت ـ عمة

خلوت ـ خالة

حيم (حوم) ـ صهر، عديل، سِلْف، نسيب، حمو

حميت ، بكسر الميم ـ كنة

حميت، بفتح الميم ـ عديلة، أخت الزوج

مصهور (صهر) ـ صهر

مصهورت ـ عديلة

بير(بار)، حيبري (الجمع حبون) ـ ابن

حبريت ـ ابنة

امبروتن ـ أطفال، صبيان

بوني (بُني) أخي ـ أبناء إخوتي

بوني ديدي ـ أولاد عمي

بوني خيلي ـ أولاد خالي

بوني ديتي ـ أبناء عمتي

بوني خلوتي ـ أبناء خالتي

غوية من هام ـ شقيقة بالرحم

غوية من هيب – أخت بالأب

غاي (غاي دي تيس) ـ يا عديلي! (في مخاطبة شقيق الزوجة)

غيتي (غيتي دي تيس) ـ يا عديلتي!

حبون حديدي - يا إخوتي! يا أخواتي! (في مخاطبة إخوان الكلالة).

خلاصة القول أننا اعتمدنا، في التحليل الطبولوجي النمطي لمنظومة مصطلحات صلة الرحم والقربى في اللغة السقطرية، المخطط المعروف الذي يراعي في المقام الأول المقابلة بين زوجين من المؤشرات مستقلين عن زوجين آخرين منها. وهما: الخطان المباشر (المستقيم) والالتفافي (الجانبي الملتوي) للقرابة، والخطان الأبوي والأمومي. تقاطع كل خطين من المؤشرات مع الخطين الآخرين يمكننا من الكلام عن أربعة أنماط من صلة القربى:

أ. النمط الاندماجي الثنائي التشعب (الأسترالي والإيروكيزي والطوراني ـ الهانواني) الذي يميز بين خطي القرابة الأبوي والأمومي، لكنه يمزج أو يدمج الخطين المباشر والالتفافي وفي إطار هذا الموقف التحليلي تعتبر منظومة القرابة عند «الأوهاما» و«الكرو» صيغتين للنمط الثنائي الاندماجي.

ب. النمط التوليدي أو التكاثري (في الهاواي والملايو)، ولا يوجد فيه تعارض أو مقابلة لا بين الخطين الأبوي والأمومي، ولا بين الخطين المباشر والالتفافي

ج. النمط الالتفافي الثنائي التشعب (العربي) الذي ينطوي على تقابل من حيث الخطين الأبوي/الأمومي، ومن حيث الخطين المباشر/الالتفافي

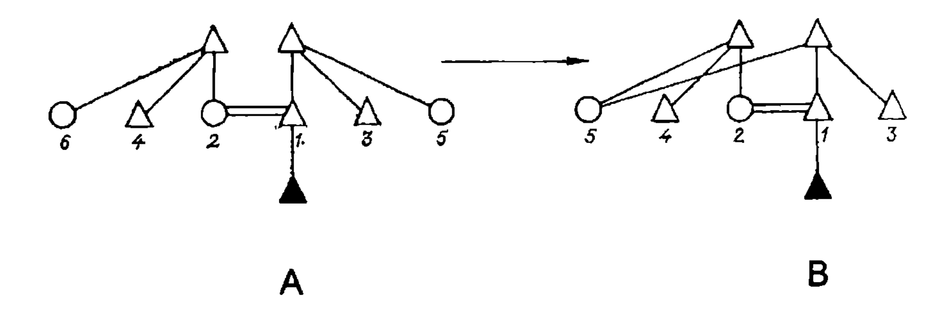
د. النمط الخطي (التوصيفي، الإنجليزي والآري) وفيه تعارض بين الخطين المباشر والالتفافي، ولكن لا وجود للتقابل بين خطي القرابة الأبوي والأمومي.

وفي إطار هذه المنهجية لتصنيف أنماط صلة القربى تلعب دوراً مهماً بخاصة المصطلحات المتعلقة بالجيل الصاعد الأول من الأقرباء.

بالنسبة للغة السقطرية توجد بهذا الخصوص ثلاثة مصطلحات للذكور هي الأب (بيبي) والعم (ديدو) والخال (حليلة). إلا أن هنالك مصطلحين فقط للإناث هما بيو(الأم) وحيلو (العمة والخالة)، بمعنى أن الخطين الأبوي والأمومي لا تمييز بينهما في هذه الحالة. وبذلك تمثل المنظومة السقطرية لمصطلحات القرابة في الجيل الصاعد الأول نمطاً عربياً ـ إنجليزياً مختلطاً، أي النمط الثالث ـ الرابع، كما في اللغة البولندية مثلاً.

إلا أن الترميم اللغوي الداخلي، وكذلك الاستعمال الوحيد الوارد في نصوص ميولر، لكلمة ديدو بمعنى «العمة»، يجيزان بكل ثقة افتراض المخطط التالي لأنسباء الوالدين:

خط الأب: ديد (مذكر)... ديدو (مؤنث)



(شكل رقم 7 ـ 2)

خط الأم: حيل (مذكر)... حيلو (مؤنث)

ما يعني أن منظومة مصطلحات القرابة السقطرية للجيل الأول تتطور من النمط الثالث (العربي) إلى النمط الرابع (الإنجليزي) (شكل رقم 7 - 2):

أ. المنظومة القديمة المرممة:

1. بيبي 2. بيو 3. ديد

4. حيل 5. ديدو 6. حيلو

ب. المنظومة الحالية:

1. بيبي 2. بيو 3. ديدو

4. حليلة 5. ديدو

بيد أن الفارق الواضح بين المنظومة السقطرية الحديثة لمصطلحات القربى والمنظومة البولندية المشابهة لها يتلخص في أن اللغة البولندية عندما فقدت التعارض السلافي المشترك بين مصطلحي الخالة والعمة فقدت معه المصطلحين نفسهما واستبدلتهما بمصطلح جديد يشمل الاثنتين معاً (وظل محفوظاً الترابط أو التناسب اللغوي لصيغة المذكر بين العم والخال). أما في اللغة السقطرية فقد استخدمت في هذه الحالة مفردة الخالة مصطلحاً مشتركاً بين أخت الأب (العمة) وأخت الأم (الخالة).

ويبدو أن التبدلات اللفظية في مصطلحات أنسباء الوالدين من الذكور تعود إلى الاتجاه نحو إطالة الكلمتين الوحيدتي المقطع ديد وحيل اللتين لم تكونا تستخدمان بدون ضمير

التملك. وفي الحالة الأولى استخدمت لهذا الغرض صيغة المؤنث ديدو التي باتت «طليقة» بعد فقدان المقابلة ديدو - حيلو وتعميم مصطلح حيلو بمعنى «العمة والخالة». أما صيغة حيل التي لا نزال نصادفها في النصوص التي جمعتها البعثة النمساوية في سقطرى فقد تعرضت إلى تكرار حرف العلة الأصلي الثاني، ما أسفر عن ظهور صيغة حليلة.

كما نشير بخصوص مصطلحات القرابة من الجيل الصاعد الأول إلى أن صيغة جمع الجمع لأبناء أنسباء الوالدين بار ديد إنما هي مشتقة من مصطلح العم. فإذا كان مصطلح الخالة قد علا و«انتصر» في المواجهة أو المقابلة المفقودة بين العمة والخالة نجد مصطلح العم هو الأقوى، على ما يبدو، في المقابلة بين العم والخال، الأمر الذي يتجلى في مصطلحات أبناء أنسباء الوالدين وفي مصطلحي والد الزوج ووالد الزوجة (كما سنوضح أدناه). وللمقارنة يمكن أن نشير إلى المنظومة اللاتينية لمصطلحات القرابة حيث «انتصر» بهذا الخصوص مصطلح الخال (الخالة) في كلتا الحالتين.

بالنسبة لجيل القربى الأول الهابط هناك خطان، مباشر والتفافي: بار (والمصطلحات الأخرى) للدلالة على الخلف المباشرين وإبري (مؤنثها إبرت) للدلالة على أبناء الأنسباء. ولعل اشتقاق الكلمة التي تعني ابن الأخ من جذر كلمة «ابن» يشير إلى عدم التفريق سابقاً بين الاتجاهين المباشر والالتفافي في هذا الجيل. يقول م. كريوكوف: إن مصطلحات جيل القربى الأول الهابط هي الأكثر ثباتاً أثناء تحول «المصطلحات الإيروكيزية» إلى «عربية» (كريوكوف 1972 :280). وكما هو الحال في جيل الصفر تستخدم هنا مصطلحات وصفية تدقيقية للتفريق بين أبناء الأخ وأبناء الأخت.

ويتسم بأهمية كبيرة للتحليل النمطي لمنظومة مصطلحات القربى السقطرية اختلاط علاقات صلة الرحم مع صلة المصاهرة: فإن والدي الزوج/الزوجة يمكن أن يخاطبا بصيغة أنسباء الوالدين – ديدو «حمو، أبو الزوج أو الزوجة» وحيلو «حماة، أم الزوج أو الزوجة». وبهذه الطريقة نفسها يخاطَب زوج الأم وزوجة الأب (نشير هنا إلى أن كلمة ديدو - العم تستخدم في هذه الحالات، وليس كلمة حليلة - الخال).

ظاهرة خلط مصطلحات صلة الرحم بمصطلحات المصاهرة تميز منظومات النمط الاندماجي الثنائي التشعب، فيما يتقيد النمط الالتفافي الثنائي بالتمييز التام بين تلك المصطلحات، ويبقى مفتوحاً بالنسبة للمنظومة السقطرية الحديثة السؤال عما إذا كانت فيها مخلفات للمنظومة «الإيروكيزية» أو لآخر تطورات مصطلحات القرابة «العربية»

(بتأثير انتشار زواج العمومة في سقطرى). والدليل على ذلك هو وجود مصطلحات خصوصية في اللغة السقطرية لأنسباء المصاهرة: حام «حمو، أبو الزوج، صهر، عديل، أخو الزوجة، أخو الزوج» وما إلى ذلك. والمؤنث منه:حامت، وأصلهما جذر سامي مشترك. ولعل من الممكن تأويل هذه الخاصية في منظومة مصطلحات القرابة السقطرية، شأنها شأن اختلاط الخطين المباشر والالتفافي في جيل الصفر، وربما في الجيل الأول الهابط، على أنها نوع من التطور المكرر لجهة نمط مصطلحات الهاواي في ظل الزواج اللُحمي الاضطراري الذي هو أمر طبيعي بالنسبة لأهالي الجزيرة المنعزلة.

كما نشير إلى وجود مصطلح بسيط غير توصيفي في الجيل الصاعد الثاني في المنظومة السقطرية للمؤنث فقط حبيبو، فيما تستخدم الصيغة الوصفية للدلالة على المذكر. ولعل في ذلك إشارة إلى مركز المرأة الريادي في المجتمع في زمن ما (أو أنه انعكاس لطول عمر المرأة أكثر من الرجل بالمعدل، أو لتزوج الإناث في سن مبكرة أكثر من الذكور).

مقارنة المنظومة السقطرية لمصطلحات القربى مع باقي اللغات الحديثة المحكية في جنوب الجزيرة العربية تؤكد ما ذهبنا إليه من آراء، ويتضح من القائمة التي أوردناها أعلاه لمصطلحات القرابة في اللغة المهرية أن في هذه اللغة مقابلة بين خط الأبوة وخط الأمومة بالنسبة لأنسباء الوالدين (أي في الجيل الصاعد الأول). ونجد اللوحة ذاتها في اللغات الأخرى موضوع البحث (حسب معطيات جونستون):

	[illegible]	[illegible]
الأب	حوب	إي
الأم	حام	أم
العم	حديد	ديد
الخال	خيل(ج. خول)	هز
العمة	حدت(ج. حدوتن)	أديت
الخالة	خلوت(ج. خلوتن)	خلوت

بناءً على ذلك يمكن الاستنتاج أن المصطلحات الحديثة لصلة القربى في اللغة السقطرية (فيما يخص الجيل الصاعد الأول) تمر بفترة انتقالية من النمط الالتفافي الثنائي التشعب إلى النمط الخطي، فيما يبقى النمط الأول هو السائد في باقي لغات الجنوب العربي. والمخطط الذي اقترحناه لاستحضار مصطلحات القربى في السقطرية

بالنسبة للجيل الصاعد الأول يعكس سير هذه العملية في الجزيرة . أما الصيغ الأقدم في لغات الجنوب العربي «القارية» فيمكن أن تعزى إلى تأثيرات اللغة العربية، وخاصة أن منظومة مصطلحات القرابة في هذه اللغة عبارة عن صيغة كلاسيكية للنمط الالتفافي الثنائي التشعب الذي يسمى أحياناً بالنمط العربي.

ويلاحظ الانتقال من النمط الالتفافي الثنائي إلى النمط الخطي كذلك في العديد من اللغات السامية - الحامية (الأفروآسيوية). علماً بأن المرحلة البينية في عملية الانتقال شبيهة بالحالة السقطرية، حيث تبقى في صيغة المذكر للمصطلحات مواجهة أو مقابلة بين خطي القرابة الأبوي والأمومي، فيما تنتفي تلك المقابلة في صيغة المؤنث.

وعلى أساس التحليل الأولي التمهيدي الذي أجراه كل من أبريشيموف وبورخوموفسكي لبنك المعلومات المتعلقة بالمصطلحات السامية والحامية لصلة القربى يمكن الافتراض بأن مثل هذا التطور في منظومات القرابة أمر طبيعي يلازم اللغات السامية - الحامية، ما يساعد على إبراز ثلاثة أنواع أساسية لمنظومات القرابة في إطار التحليل الحالي. النوع الأول يضم اللغات التي يوجد فيها تقابل بين خطي الأبوة والأمومة لدى الجيل الصاعد الأول في كلتا صيغتي المذكر والمؤنث، كما في اللغات السامية: الأدرية (في هراري) والتغرية والآرامية الجديدة (في شمال بلاد الشام)، وكذلك في الطرف المقابل لمنطقة اللغات السامية الحامية، ونعني اللغات التشادية مثل الهوسا (الحوصة) ودازاقا وماسا وغيرها.

ويضم النوع الثاني اللغات التي تتضمن حالة كالحالة السقطرية، أي بقاء المقابلة بين مصطلحات القرابة في الخطين الأبوي والأمومي في الجيل الصاعد الأول لصيغة المذكر واختفاء تلك المقابلة في صيغة المؤنث، كما في اللغات التشادية مثل قرة قرة ونغيزم وسواهما أما النوع الثالث والأخير فيضم اللغات التي لا توجد فيها عموماً مقابلة أو تضاد بين خطي الأبوة والأمومة ، كما في اللغة الأمهارية (السامية الإثيوبية).

ويمكن متابعة مسار هذا التطور حتى في إطار لغة واحدة، ففي اللغة الكوشية (أورومو)، على سبيل المثال، نجد النوعين الأول (في لهجة شوا) والثاني (في العديد من اللهجات الأخرى)، وتجدر الإشارة هنا إلى وجود تقابل بين خطي القرابة المباشر والالتفافي في جميع هذه الحالات.

بديهي أن الدراسة الطبولوجية القائمة على المعطيات المتعلقة بالجيل الصاعد الأول وحده، وبمجموعتين فقط من الأبعاد، تبقى محدودة وتحتاج إلى المزيد من التحليل المعمق

لمجمل منظومة مصطلحات القرابة، ومع ذلك حتى هذا التحليل المحدود يوفر الفرصة لإبراز بعض المواصفات الطبولوجية الملازمة للغات معينة أو لمجموعة من اللغات المتقاربة في الأصل. كما تعطينا تلك المواصفات فكرة عن الموقف في منطقة اللغات السامية الحامية بمجملها. (الدراسات اللغوية الميدانية في سقطرى، بما فيها دراسة مصطلحات القربى، استمرت على يد كاتب السطور وفكتور بورخوموفسكي عام 2001 في إطار البرنامج العلمي لجامعة ماينز الألمانية. وينتهز المؤلف الفرصة هنا ليعبر، بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن الزميل بورخوموفسكي، عن الامتنان الخالص لإدارة الجامعة وللمشرفَين على برنامجها المذكور السيدين م. كروب وب. بيزانغ).

دور الأم

ثمة ظاهرة لم تحظ بالتحليل اللازم حتى الآن، بل ولم تدرس بما فيه الكفاية، إلا أنها في اعتقادنا ذات أهمية كبيرة لمتابعة تطور أشكال الأسرة وطبيعة تحول علاقات الزواج والعائلة عند السقاطرة. ونعني العادة التي كانت منتشرة على نطاق واسع في الماضي، ولا نزال نصادفها حتى اليوم، لتكليف مرضعات من البادية بتربية الأطفال الرضع حتى سن معينة (تبلغ على الأكثر 7 - 8 سنوات).

وقد ورد ذكر هذه العادة أو التقليد في كتابات بعض الرحالة الذين زاروا سقطرى، ويمكن من خلال هذه الإشارات التي جاء بعضها بعجالة أحياناً. ومن خلال إفادات السقاطرة المشاركين في استطلاعات الرأي، الخروج باستنتاج مفاده أن أهالي المناطق الساحلية فقط (وخاصة المراكز السكنية الكبيرة) كانوا يعهدون بأطفالهم إلى المرضعات، بعد أن استقروا من زمان في حياة الحضر، إلا أننا لاحظنا حالة واحدة عهدت فيها عائلة بدوية بطفلها الرضيع إلى مربية من عائلة بدوية أخرى. ولم تكن لهذا التصرف أسباب واضحة للعيان، ثم إن السقاطرة أنفسهم، وبضمنهم أهل الطفل الرضيع، لم يتمكنوا من تقديم حجج وجيهة لإقناعنا بضرورة هذا التصرف، فالتوضيحات التي أدلوا بها خطرت في بالهم على الماشي ولا شك (شكل رقم 7 - 3).

ولذا رغبتُ أن أكشف قدر المستطاع عن مدى سعة انتشار هذه العادة، وأتقصى جغرافيتها واتجاهات إحالة الأطفال الرضع إلى الحاضنات ودوافعها الحقيقية. وقد بيّن الاستطلاع الذي أجريته أن ما لا يقل عن 5 - 10 بالمائة من العوائل كانت في تلك الفترة، على ما يبدو، تسلم أطفالها إلى المرضعات، إلا أن هذا المؤشر كان أعلى في الماضي، الأمر الذي تؤكده مقارنة المعطيات المتعلقة بمجموعات الأعمار المختلفة. وكان واضحاً اتجاه تقلص حالات تسليم الأطفال للرضاعة والحضانة في عوائل أخرى، إلا أن محدودية نطاق الاستطلاع حالت دون الخروج باستنتاج دقيق في شأن جغرافية هذه الظاهرة.



(شكل رقم 7 ـ 3)

ولكنّ حتى النتائج المحدودة وفرت الأمكانية للتأكد من أن العوائل الحاضنة لا صلة لها بأصل الأب وقبيلته. وفي الحالات التي ينتمي فيها والدا الطفل إلى قبيلتين مختلفتين تكون العوائل الحاضنة من قبائل وبطون أقرب إلى الأم، ما جعلنا نتقدم بافتراض يبدو أشبه بالحقيقة على خلفية الوقائع المعروفة والداعمة لوجود مخلفات النظام القبلي الأمومي. أفلا يصح اعتبار العادة التي نحن بصددها من مخلفات الخؤولة (بشكلها المحوّر لدرجة

كبيرة طبعاً)، حيث ينتقل أبناء الزوجة معها إلى بيت زوجها الجديد؟ هذا التأويل في المحصلة الأخيرة يجعل تلك الظاهرة تنسجم في نسيج اللوحة العامة لعلاقات الزواج والعائلة السقطرية التي تحتفظ بمؤثرات العادات القبلية الأمومية وتتميز باستقلال المرأة النسبي.

كان ذلك متجاوباً مع أحد تقاليد الجزيرة العربية عموماً والتي درسها الباحث البلجيكي جاك ريكمانس، حيث يقول: «إلى جانب الملاحظة العامة التي تفيد بأن بعض مسميات بطون القبائل هي تكرار لمسميات أعضاء جسم المرأة مثل البطن والرحم، ثمة سمات كثيرة أخرى جرت العادة على ربطها بالنظام القبلي الأمومي أو بقاياه. ومن أهم تلك السمات: نسبة الأبناء (في الاسم الثلاثي) إلى الأم بدلاً من الأب، دور الخال، حرية الجنسين في اختيار شريك الحياة، الحرية الاجتماعية والجنسية الواسعة التي تتمتع بها المرأة في الزواج، إقامة العريسين عند عائلة العروس (في بيت الأم أو بيت الزوجة)، وأخيراً تعدد الأزواج» (Ryckmans, 1983:3)

ومن الملاحظ أن بعض السمات المذكورة أعلاه اكتشفت بهذا القدر أو ذاك في المنظومة التقليدية لعلاقات الزواج والعائلة السقطرية التي تغيرت الآن كثيراً.

فعلى الرغم من عدم وجود ولو قبيلة واحدة تتسمى بنسب الأم مباشرة، إلا أننا نصادف في حكايات القبائل كثيراً من آثار وبقايا النظام الأمومي. ومن المؤشرات الواضحة على استحضار هذه الظاهرة وانعكاسات ذلك النظام أسطورة المرأة الإفرنجية التي أرست بدايات قبيلة القشن كما تقول الحكايات (راجع فصل الموروث الثقافي والفولكلور).

كما تشير إلى دور الخال، بوصفه من بقايا نظام الأمومة، بعض الوقائع المذكورة في هذا الفصل، ومنها على سبيل المثال أن الزواج من ابنة الخال يأتي في المرتبة الثانية بعد الزواج من ابنة العم.

ومن بين السمات الآنفة الذكر تبرز بخاصة الحرية الاجتماعية والجنسية للمرأة والتي كانت تلازم المجتمع السقطري حتى الماضي القريب. من غير الصحيح طبعاً الكلام عن حرية كلا الجنسين في اختيار رفيق (رفيقة) الحياة بقدر متساوٍ، ذلك لأن المؤشرات الظاهرية تدل على أن العريس وحده كان يتمتع بحرية الاختيار، إلا أن الممارسات في الواقع تبين أن الفتاة لم تكن تتزوج خلافاً لإرادتها إلا فيما ندر، بل وكانت أحياناً تختار الزوج بنفسها.

أما إقامة العروسين في بيت أهل الزوجة فتلك كما أسلفنا ظاهرة نادرة للغاية في سقطرى، كما لم يكن هناك تعدد الأزواج، إلا أن الأعراف والعادات شرعنت حق المرأة في تكرار الزواج عدة مرات (دون أن تفرط في سمعتها الطيبة ومكانتها الاجتماعية).

وأفاد بعض المشاركين في استطلاعات الرأي أن المرأة السقطرية كانت في تلك الآوِنة تسمح لنفسها بالدخول في علاقة غير شرعية مع الرجال، بل وكانت في الغالب تبادر إلى الدخول في مثل تلك العلاقة.

ومما له دلالته أن جاك ريكمانس، خلال دراسته لحالات انتقال الملكية بالميراث من امرأة إلى امرأة في الجزيرة العربية في العصر الجاهلي، يشير إلى الصلة بين هذه الظاهرة وبين عادة «الطرح» بشكلها المنتشر في اليمن، وفي سقطرى، وهو يستشهد بكتاباتنا بهذا الخصوص (ناومكين وبورخوموفسكي، 1980) ويقول عن تلك العادة: «إنها نوع من السلفة التي يقدمها والدا العروس لتعاد إلى الجهة التي قدمتها أثناء الزفاف»(Ryckmans, 1983:11 - 12). ويمكن أن نضيف إلى ذلك إمكان تأويل وجود الملكية المنفصلة للزوج والزوجة في الأسرة السقطرية في هذا الإطار، وكذلك إحالة الملكية إلى الأبناء بالميراث.

كما كانت حرية المرأة تتجلى، بقدر ما، في التقسيم العائلي للعمل، حيث تؤدي السقطريات، في بعض المناطق على الأقل، أنواعاً «رجالية صرفة» من الأعمال. ونشير، للمقارنة، إلى أن هذه الخاصية تلازم المهريين بشكل أوضح، فالرجل هناك كان في بعض الأحيان ملزماً بجلب الماء وجمع الأحطاب، بل حتى غسل الثياب وطهي الطعام. ولذا يفضل بعض المهريين الزواج من السقطريات على أقربائهم، لأنهن أقل «تحرراً» من المهريات!

ولا يسعني في ختام هذا الفصل إلا أن أؤكد مرة أخرى على الاستنتاج الرئيسي الذي توصلت إليه منذ السبعينيات، وهو أن علاقات الزواج عند السقطريين تسوق الدليل على الطابع الأبوي لهذا المجتمع وعلى الدور القيادي للرجل ولقبيلة الأب. إلا أننا نلمس في نظام هذه العلاقات مؤشرات (اتخذت شكل مخلفات) على آثار تنظيم قبلي كانت المرأة تلعب فيه دوراً أهم من أدوارها في المراحل اللاحقة. وهو دور يعود على الأرجح إلى عهود قديمة جداً من التطور الاجتماعي للأقوام والقبائل في جنوب الجزيرة العربية.

الفصل الثامن

الأســـــرة وأنواعهـــا

الأسرة وأنواعها

لا شك أن الكشف عن خصوصيات تنظيم الأسرة عند السقاطرة، وأنواعها الأساسية، واتجاهات تطورها، مهمة صعبة في الواقع، وإلى ذلك كان حل هذه المهمة مقيداً بمحدودية المواد التي أفلحت في جمعها في الثمانينيات. علماً أنني انطلقتُ عموماً، في تحليل مسائل التوصيف الطبولوجي للأسرة في سقطرى، من النظريات التي صاغها العلماء الروس. ونظراً لطبيعة هذا البحث وأبعاده المحددة لم أكن أتوخى فيه حل مشاكل التصنيف الطبولوجي للأسرة أو العائلة، وهي مشاكل لا يزال الكثير منها دون حل نهائي ومعترف به من قبل الجميع.

الأسرة الصغيرة البسيطة

الأسرة البسيطة أو الصغيرة نوع من العوائل قليل الانتشار في سقطرى، وتفيد معطيات دراستنا لـ 237 أسرة أن 101 منها فقط (6.42 %) تعتبر من الأسر البسيطة، وكان عددها في الماضي أقل، كما يستفاد من أقوال السقطريين أنفسهم ومن الدراسات والبحوث التي أجريناها.

ولا بد هنا من تشخيص نوعين فرعيين من الأسر السقطرية البسيطة: 1) الأسرة الصغيرة بزوجة واحدة، و 2) والأسرة البسيطة بعدة زوجات. النوع الأول يمكن تقسيمة، في اعتقادنا، إلى عدة فئات انطلاقاً من ثلاثة مؤشرات، هي وجود الأطفال، وأصلهم (أبوتهم)، ومدى اكتمال الأسرة: أ) أسرة بدون أطفال، ب) أسرة مع أطفالها، ج) أسرة مع أطفالها وأطفال الأب من زوجة أخرى، د) أسرة مع أطفالها وأطفال الأم من زوج آخر، هـ) أسرة مع أطفالها وأطفال كلٍّ من الزوجين من زواج آخر، و) أسرة من الأب وحده مع أطفاله، ز) أسرة من الأم وحدها مع أطفالها.

يمكن للأسرة البسيطة، أو الصغيرة نسبياً، أن تنشأ من انفصال الابن عندما يتزوج (أو من زواج إبن كان قد انفصل عن والديه، على الرغم من أن الشباب حتى عندما ينتقلون من البادية إلى حديبو مثلاً يظلون في معظم الأحوال جزءاً لا يتجزأ من العائلة الكبيرة ولو كانوا يقيمون على انفراد). الانفصال يحدث في حالات نادرة للغاية، وذلك واقع يمكن أن نحكم عليه من المعطيات المتعلقة بإقامة العروسين في بيت الوالدين. فالحالة الأخرى

المعاكسة، أي الإقامة في غير بيت الوالدين، لم تكن تشكل مرتبة أمامية. كما تنشأ الأسرة البسيطة من زواج رجل طلق زوجته أو ترمل بعد وفاتها. وإلى ذلك نشأت عوائل بسيطة من زواج وافدين إلى سقطرى، للإقامة الدائمة أو المؤقتة، من السقطريات (بعضهم كانوا يعتبرون هذا الزواج وقتياً، بموجب عادة قديمة كانت متبعة في حينها. ولذا كانوا يطلقّون زوجاتهم قبيل الرحيل من الجزيرة. بين الحالات التي نتطرق إليها في هذا الكتاب زواج عدني من سقطرية لم يستمر أكثر من ثلاثة شهور).

وكان بين الذين شاركوا في استطلاعات الرأي كثير من الذين قطعوا صلتهم بنمط الحياة التقليدي والممارسات الاقتصادية التقليدية فانفصلوا عن العوائل الكبيرة، ولذا من المحتمل أن تبدو نسبة الأسر الصغيرة بالمعدل مرتفعة حسب الظاهر، أكثر مما هي في واقع الحال.

والحقيقة أن عدد الأسر البسيطة والصغيرة أقل من العدد الذي يمكن أن نستخلصه من معطيات الاستطلاع، وللتدليل على ذلك نستعرض حالات مختلفة لهذا النوع من الأسر في سقطرى حسب ما جاءت المعلومات عنها في استطلاعات الرأي التي أجريناها في السنوات 1983 - 1986.

الأسر التي لا يوجد لديها أطفال قليلة جداً، كانت نسبتها 6.7 % فقط من إجمالي العوائل و 8.17 % من مجموع الأسر الصغيرة التي سجلناها، وفي غياب الرقابة على معدل المواليد ما كان بوسع زواج الشباب من دون أطفال أن يستمر طويلاً. إلا أن نسبة وفيات الأطفال التي لا تزال مرتفعة جعلت عدداً معيناً من الأسر تبقى من دون أطفال بضع سنوات أخرى. وحسب المعلومات المتعلقة بالفترة 1970 - 1980 كانت هناك حالات فقدت فيها الأسرة خمسة أو ستة أطفال يموتون الواحد تلو الآخر (قبل هذا التاريخ كانت وفيات الأطفال مرتفعة بشكل مهول، وما كان من المجدي أن نأخذها بالاعتبار في حساباتنا). والمثال على ذلك:

«خاء عين عين» صياد من المولدين، في الخامسة والخمسين، من بلدة السوق على الساحل الشمالي، توفي له ولزوجته خمسة أطفال في سن الحضانة بسبب الأمراض.

«سين سين عين» سائق من قرية حلمي (السهل الساحلي الجنوبي) في الثانية والثلاثين من العمر، كان متزوجاً من قريبة له، ولهما صغيران توفيا بسبب المرض في سن الحضانة. الزوجة مقيمة في حلمي، فيما يعمل الزوج في حديبو، وقلّما يزور زوجته.

وصادف أن وجدنا أسراً فتية من دون أطفال أصلاً.

«ميم سين نون» راعي ماشية من قرية كابهيتن (الجزء الغربي من الساحل الشمالي) في الخامسة والعشرين من العمر، كان متزوجاً وليس لديه أطفال.

ومن جهة أخرى، على الرغم من سرعة هرم الجسم، تحتفظ السقطريات لأمد طويل نسبياً بقدرتهن على الحمل والوضع، ولذا كان الأطفال يولدون أيضاً، في حالات الزواج بعد الطلاق، عند نساء على حافة سن اليأس.

الأسرة المكونة من الزوج والزوجة مع أطفالهما هي الفئة الأكثر انتشاراً للنوع الفرعي الأول من الأسرة البسيطة بزوجة واحدة. وتشكل هذه الفئة 5.47 % من مجموع الأسر البسيطة التي سجلناها، و 3.20 من العدد الإجمالي للعوائل، هذه الأسرة إما أن تكون استمراراً وتطويراً للفئة الأولى، وإما نتيجة لتفكك العائلة الكبيرة.

نورد هنا أمثلة على هذه الفئة مع الإشارة إلى أسباب الانفصال عن العائلة الكبيرة:

«عين سين عين» صياد وراعي ماشية من قرية حلمي (السهل الساحلي الجنوبي) في السابعة والثلاثين من العمر، كان له أربعة إخوة، اثنان منهم إخوته لأبيه (والده طلّق امرأته الأولى قبل أن يتزوج أمه). وهو متزوج وله ثلاثة أطفال على قيد الحياة (وثلاثة توفوا). انفصل عن العائلة الكبيرة بعد وفاة والده واستلم حصته من التركة (عدة نخلات وثلاثة جمال وعدداً من الماعز والأغنام) واشترى قارباً يشتغل عليه في صيد الأسماك.

«عين ميم حاء» صياد وصاحب نخيل من بلدة السوق (الساحل الشمالي) في الخمسين من العمر. كان له ستة أولاد، أربعة ذكور وبنتان، بنتاه تزوجتا وانتقلتا للعيش مع زوجيهما. وأولاده تزوجوا وانفصلوا عن العائلة وبنوا لأنفسهم منازل (حجرية)، وبذلك نشأت عدة أسر كل منها بزوجة واحدة وإقامة منفصلة. كانت ملكية أسرة «عين» قليلة، بضع نخلات وعدة عنزات، مما يعني عدم وجود حوافز للحفاظ على الأسرة موحدة.

«سين سين عين» عامل بناء في المنطقة الغربية، من قبيلة زمديد، في الثانية والثلاثين من العمر، انفصل عن أخيه ويعيش على انفراد، لأنهما لا يمتلكان شيئاً تقريباً في البادية (وهو الآن أيضاً لا يمتلك سوى خمس عنزات). كان له ثلاثة أولاد وثلاث بنات لم يبلغن سن الزواج. ارتحل إلى الإمارات العربية المتحدة للعمل وبقي فيها ثلاث سنوات. بمشاركة عمال آخرين اشترى شاحنة لنقل الصخور، وتمكن أن يبني لنفسه داراً.

في هذا المثال أدى الفقر وغياب الملكية إلى تفكك الأسرة الواحدة، كما أدى رحيل رب

الأسرة للكسب في الإمارات العربية المتحدة إلى ابتعاده عن نمط الحياة التقليدي. ومما له دلالته في الوقت ذاته أن تقاليد النخوة والتعاضد العائلي والقبلي انسحبت، بالنسبة إلى «سين سين عين»، على جماعة أخرى تتصرف وكأنها مجموعة من الأقرباء، لكنها ليست كذلك بالطبع. فالشاحنة اقتنيت من قبل العمال الوافدين إلى الخليج من أمد طويل، وكانوا من جيران «سين»، وقد أحالوا ملكية السيارة إليه والى أصدقائه بشرط أن يبعثوا جزءاً من عائدات الشاحنة إلى سقطرى، إلى أهل أولئك الوافدين المقيمين هناك.

الأسرة البسيطة التي تظهر بنتيجة انفصال الزوجين الشابين عن الوالدين وتتكاثر بميلاد الأطفال إنما تغدو منطلقاً لنشوء أسرة أكثر تعقيداً، وهي بدورها تتحول، بوفاة رب الأسرة، إلى عائلة أخوية أو إخوانية ينفصل أبناؤها عنها في الجيل التالي بعد أن يتزوجوا ويبنوا من جديد أسراً صغيرة بسيطة. وهكذا فالفئتان الأولى والثانية من هذا النوع الفرعي للأسرة (اللتان يمكن أن تشكلا مرحلتين في تطورها) تندرجان ضمن السياق العام لحياة الأسرة في سقطرى.

الزوجان مع أطفالهما وأطفال الزوج من مطلقته يشكلان فئة أو صيغة منتشرة بفضل شيوع الطلاق وكثرة الزيجات المكررة بعده، إلا أن انتشارهذه الفئة أقل بكثير من الفئة التالية المكونة من الزوجين مع أطفالهما وأطفال الأم من زوج آخر. فالأطفال في معظم حالات الطلاق يبقون مع الأم. والمصدر الرئيسي لنشوء هذه الفئة من الأسر هو النوع الفرعي للأسرة البسيطة بزوجة واحدة. والمصدر الآخر هو وفاة أحد الزوجين، وهو يعطينا عدداً أقل من هذه الفئة. إلا أنه في حال وفاة الأم بالذات تظهر فئة الأسر المكونة من زوجين مع أطفال الأب من زوجة أخرى (المتوفاة). فخلال رحلتنا إلى نوجد صادف أن توفيت امرأة شابة بعد الوضع في إحدى القرى، وكان لها خمسة أطفال. أوضح لنا أقرباؤها أن الأطفال سيبقون مع أبيهم الذي سرعان ما يتزوج من امرأة جديدة بحكم العادة.

ونحن نميز بين هاتين الفئتين لأن لهما تأثيراً غير متماثل على مصير الأسرة اللاحق. أبناء الأب من زواج آخر والمقيمون معه في الأسرة الجديدة يتمتعون بنفس الحقوق التي يتمتع بها أبناؤه من الزوجة الجديدة، بمعنى أنهم يستلمون حصة من الثروة تعادل حصة هؤلاء، ما يساعد على لمّ الشمل. وفي هذه الحالة يشتد على الأرجح الاتجاه نحو الحفاظ على وحدة اقتصاد الأسرة ووحدة الأسرة نفسها (على الرغم من أن الإخوة بالأب ليسوا بالطبع متقاربين بنفس درجة تقارب الأشقاء بالرحم).

أما أبناء الأم من زوج آخر فلا حق لهم في تركة زوج أمهم، فيما يستحقون حصة إلزامية من ثروة والدهم بعد وفاته. ولذا فإن انفصالهم عن الأسرة فيما بعد أمر مفروغ منه. ذلك لأن الأسرة الأخوية لا تنشأ من إخوة الرحم إلا فيما ندر، على الرغم من متانة صلة القربى فيما بينهم. الفئتان اللتان نحن بصددهما شكلتا نسبة 6.0 % و 8.5 % على التوالي من إجمالي العوائل الصغيرة في سقطرى.

ونجد في أسرة الزوجين مع أطفالهما وأطفال كلٍّ منهما من زواج آخر كلا الاتجاهين: نحو التطور باتجاه الأسرة الكبيرة المعقدة ونحو نشوء أسر بسيطة وصغيرة جديدة على أساسها.

في مثل هذه الحالات يميل إلى الانفصال أبناء الأب والأم من الزيجات ما قبل الأخيرة. وإذا كان في الأسرة عدد من الأخوة الذين ولدوا لآخر زوجة (عاش معها الأب قبيل وفاته) فهم عادة لا ينفصلون، بل يشكلون أسرة أخوية حتى في حال انفصال الإخوة بالأب (وهم طبعاً إخوة رحم معهم). وإليكم أحد الأمثلة:

«ياء سين ألف» صياد ومربي ماشية من قرية حلمي (السهل الساحلي الجنوبي) في العشرين من العمر. كان له خمسة إخوة: ثلاثة بالأب (من زواج والدهم قبل أن يتزوج والدتهم) وواحد بالرحم (من زواج أمهم قبل أن تتزوج أباهم) وواخد شقيق. كان متزوجاً في السابق من ابنة خال والدته من المنطقة الشرقية. إلا أنه طلق زوجته، فأخذت نصيبها من الثروة وعادت إلى بيت أبيها. وبعد وفاة والدي «ياء» ظل مع شقيقه في بيت زوج أمهما، فيما استلم أخوه بالرحم حصته من تركة أبيه وانفصل عن الأسرة. كذلك فعل الإخوة الثلاثة بالأب أيضاً. كان «ياء» وأخوه الشقيق يمتلكان بصورة مشتركة قارباً وبعض النخيل و 25 رأساً من الأغنام (عددها كان أكبر، إلا أنها نفقت بسبب القحط).

عودة الابنة المترملة أو المطلقة مع أطفالها، أو بدونهم، إلى بيت أبيها ظاهرة شائعة نسبياً في سقطرى. كما تعود إلى الأسرة الأخوية أحياناً الأخت المترملة أو المطلقة (وخصوصاً في الحالات التي تكون فيها الوالدة على قيد الحياة).

المطلقة مضطرة إلى العمل كثيراً في الأسرة، فعندما عرّجنا على قرية زليكينو في المنطقة الغربية زرنا مغارة اتخذها مربي الماشية «ألف غين ألف» (من قبيلة عجمهو) منزلاً له. وكان في السادسة والخمسين من العمر. زوجته الأولى توفيت مخلفة له ابناً وخمس بنات. فتزوج من جديد، وكان له ولد صغير من زواجه الثاني. ابنه الأكبر يخدم في

الجيش، وبناته الأربع في منازل أزواجهن، فيما تطلقت الخامسة وعادت مع رضيعها إلى بيت أبيها. كانت مع باقي نساء الأسرة تعمل في نسج بطانيات الصوف (الأسرة تملك 70 رأساً من الماعز و10 نعاج)، وإلى ذلك تمارس خياطة الثياب بأجرة على ماكنة خاصة بها.

نسبة الفئتين الأخيرتين اللتين تمثلان أسراً بسيطة غير مكتملة، ومكونة من الأب مع الأطفال أو من الأم وأطفالها، إنما هي، في العدد الإجمالي للأسر الصغيرة البسيطة، نسبة ضئيلة تشكل 0.2 % و 8.5 % على التوالي. ويعزى ذلك إلى سهولة الزواج وإلى الضرورة الاقتصادية التي تقتضي توسيع الأسرة غير المكتملة لتكون كاملة.

النوع الفرعي الثاني للأسرة البسيطة هو الأسرة الصغيرة المتعددة الزوجات، وقد ذكرنا في الفصل السابق أن عدد الأسر والعوائل المتعددة الزوجات في سقطرى قليل، وكان عددها أكبر بعض الشيء في الماضي، في عهود استعمار الجزيرة. درسنا تحديداً عشر أسر فقط من هذا النوع، تشكل 10 % من مجموع الأسر البسيطة التي تناولناها بالبحث، خمس منها كانت تضم رجلاً مع زوجتين وأطفال، وأربع تضم رجلاً مع ثلاث زوجات وأطفال، وواحدة تضم رجلاً مع أربع زوجات وأطفال. الموقف في هذه الأسر لا يختلف كثيراً عما في أسرة الزوجة الواحدة، إلا أنه على العموم يتميز باتجاهات أو قوى طاردة للمركز أشد مما في الأسرة الأخيرة. ويعزى ذلك ليس فقط إلى خصوصية العلاقات المتبادلة بين الإخوة من أمهات عديدات، بل على الأرجح إلى أبعاد الأسرة التي تغدو كبيرة مزدحمة.

«ألف عين ألف» راعي ماشية من المنطقة الشرقية كانت له ثلاث زوجات وابنة واحدة من الزوجة الأولى وثلاثة أولاد من الزوجة الثالثة. ملكيته المنزلية تضم أربع بقرات وكثيراً من الماعز والأغنام والنخيل وثلاثة حمير، وهو شأن أخوته انفصل عن أسرة الوالد قبل أن يبلغ سن الرشد.

أما انفصال الأبناء الراشدين (المتزوجين والعزاب سواء بسواء) عن الأسرة المتعددة الزوجات فيحصل بأكثر مما في الأسرة البسيطة المتوسطة الحال.

وفيما يخص قضية الانفصال وتشكيل العائلة البسيطة نتناول هنا الملابسات التي ترافق هذه العملية.

انقسام الأسرة يغدو مجدياً ومعقولاً في ثلاث حالات تقتضيها الضرورة الاقتصادية، وهي: 1) تقلص ثروة الأسرة لحد لا يؤمن احتياجات جميع أفرادها، 2) ازدياد عدد أفراد الأسرة لدرجة تجعل إمكانياتها المادية غير كافية لإعالتهم، 3) تضخم الأسرة بقدر أكبر

بكثير من الحجم الأمثل والمطلوب لتسيير اقتصادياتها.

الحالة الأولى تحصل في زمن الجفاف والقحط وتفشي أوبئة الماشية وهلمجراً. فلا تعود الأسرة قادرة على تأمين حاجتها من القوت، ويضطر بعض أفرادها بسبب ذلك على ترك العمل في اقتصادياتها والبحث عن مصدر للرزق في مكان آخر أو مغادرة الجزيرة إلى الخارج لهذا الغرض. وقد لا يؤدي ذلك حتماً إلى انقسام الأسرة، إلا أنه يشوش وحدتها ويساعد على تجزئتها. وفي الوقت ذاته يتجلى هنا بالذات التضامن والتعاضد العائلي، فالروابط مع من ترك الأسرة لا تنقطع أبداً، وفي معظم الأحوال يحاول أفراد الأسرة الذين يغادرونها (تبعاً لمكانتهم فيها) ألا ينقطعوا عنها اقتصادياً.

الحالة الثانية تلازم الأسر الفقيرة، فعندما تتضخم الأسرة بنتيجة زواج أبنائها وميلاد أطفال جدد وعودة المطلقات مع أطفالهن أو بدونهم ومجيء الأقارب الكهول للإقامة أو صغار السن المحتاجين إلى الوصاية والرعاية، لا تعود هذه الأسرة قادرة على إعالتهم جميعاً من مواردها، والمخرج من هذه الحالة هو نفسه الذي في الحالة الأولى.

أما الحالة الثالثة فتتوقف على وجود الأطر والحدود الطبيعية لنمو الاقتصاديات العائلية نفسها ولعدد العاملين فيها، وكذلك على أبعاد ومساحة المسكن السقطري التقليدي. وقد لاحظنا أن العوائل والأسر التي يزيد عدد أفرادها على 30 شخصاً كانت تنقسم وتتشظى بصرف النظر عن درجة صلة القربى أو حجم الثروة. فحتى الأسرة الغنية (التي تمتلك، على سبيل المثال، قطيعاً من عشرات الأبقار أو مئات الماعز والأغنام ومئات النخيل) والقادرة على إعالة عدد أكبر بكثير مما فيها من أفراد كانت تنقسم لأن أحجامها في هذه الحالة تتجاوز المطلوب وتعيق تسيير الاقتصاد الموحد وإدارته.

وإلى ذلك بوجد حد نوعي، إن صح التعبير، لتضخم الأسرة، يقتضي انفصال الأقرباء الأباعد عنها. أولاد العم مثلاً يمكن أن يعيشوا في أسرة واحدة، إلا أن أبناءهم عندما يبلغون سن الرشد يأخذون استحقاقاتهم من الثروة وينفصلون، ويعتبر سن الزواج آخر موعد لبقائهم في الأسرة المعقدة الكبيرة، إلا أن الأسرة يمكن في حالات استثنائية أن تتضخم وتؤوي الأقرباء الأبعد أيضاً.

الاتجاه نحو انفصال الأبناء أقوى ما يكون عند الصيادين، وخصوصاً في المناطق التي لا توجد للأسر فيها اقتصاديات مختلطة، بل تقوم على اقتصاد «خالص» نسبياً. (بمعنى أن الأسرة لا تمتلك قطيعاً كبيراً من الماشية). ففي هذه الحالة ينتفي حافز لمّ

شمل الأقرباء وتوحيدهم لتربية المواشي ورعيها. أما صيد الأسماك فليس حافزاً من هذا النوع أصلاً، فصيد السمك في العادة عمل لشخصين في قارب الهوري (ويكفي الأب وابنه لأداء هذا العمل).

الأسرة الكبيرة المعقدة

الأسرة الكبيرة أو المعقدة هي النوع السائد في التنظيم العائلي للسقاطرة والذي يشكل 4.57 % من إجمالي الأسر والعوائل التي تعرضنا لها بالبحث (مع الأسر المنفصلة أو المشتتة).

كانت الأسرة المعقدة في سقطرى، خلال الفترة التي أجريتُ فيها استطلاعات الرأي، تتكون من نوعين فرعيين تشير إليهما المطبوعات والدراسات باسم أسرة الخط الوراثي الواحد والأسرة المتعددة الخطوط، وكذلك من نوع ثالث اعتبرناه مستقلاً وأطلقنا عليه تسمية «الأسرة المنفصلة».

أسرة الخط الوراثي الواحد هي عبارة عن مجموع الأقرباء المباشرين في عدة أجيال متحدرة جميعاً من زوجين اثنين لا غير في كل جيل.

أما الأسرة المتعددة الخطوط فهي التي تضم الأقرباء الجانبيين من عدة أزواج (بروملي وكاشويا 1982:83). في هذا النوع الفرعي من الأسرة يمكن أن نخصص عدة فئات، إحداها تضم أفراداً من جيل واحد وأفراداً من أجيال متعاقبة. وينبغي أن ندرس على انفراد، في هذا النوع نفسه، انقسام الأسرة بحيث لا يقيم جميع أفرادها في مكان واحد، لكنهم يحتفظون بالاستهلاك المشترك، وكذلك بالإنتاج المشترك جزئياً. وارتباطاً بذلك يطرح السؤال نفسه بشأن المعايير التي تحدد الأسرة، وعلى الأصح تجيز توحيد مجموعة من الأقرباء أو عدة أسر بسيطة أو مجموعة من الأسر والأقرباء في أسرة أو عائلة واحدة.

ومن بين هذه المعايير (فيما يخص ظروف سقطرى) ما يلي: 1) الإقامة معاً (إلا أن هذا الشرط، كما لاحظنا، يمكن أن لا يطبق)، 2) الإنتاج المشترك (الملكية المشتركة لوسائل الإنتاج والمباني والماشية وما إلى ذلك، والمشاركة في ممارسة النشاط الاقتصادي. وذلك أيضاً ليس شرطاً إلزامياً)، 3) الاستهلاك المشترك (الانتفاع المشترك بالعائدات الإجمالية للأسرة إلى حد التغذية المشتركة)، 4) الإدارة المشتركة (في ظروف الأسرة

المعقدة مثلاً حق رب العائلة - الأب أو الأخ الأكبر أو غيره في التصرف بميزانية الأسرة والبت في جميع المسائل المتعلقة بالإنتاج وبحقوق أفراد الأسرة)، 5) علاقة التضامن والتعاضد والنخوة بين أفراد الأسرة.

فلنتناول هنا الأسرة الكبيرة ذات الخط الوراثي الواحد. وقد شملت 1.10 % من العوائل السقطرية التي أستطلعتُ رأي أبنائها. لهذا النوع من الأسر فئتان إحداهما بجيلين والأخرى بثلاثة أجيال. وفي كل منهما فئتان فرعيتان أخريان: أ) زوج وزوجة في سن أكبر أو الأب وابنه المتزوج، ب) زوج وزوج في سن أكبر أو الأب وابنه المتزوج وابنه الأعزب (أبناؤه العزاب). وإلى ذلك يمكن أن يعتبر بمثابة الابن كل صهر مقيم في عائلة زوجته إذا لم يكن لوالديها ابن ذكر.

وإليكم بعض الأمثلة مع الإشارة إلى العوامل المؤثرة في نشوء هذه الفئة من الأسر والعائلات:

«سين سين ميم» في الخامسة والخمسين من العمر، من مواليد ديكسم (في الجبال على الحدود بين المنطقتين الوسطى والغربية) من قبيلة بني مالك، ومن أهالي قاضب (الساحل الشمالي). كان راعياً، ثم صياد سمك، ثم صياد لؤلؤ. وفي وقت الاستطلاع كان يعمل ساعياً في مديرية المنطقة. قبل ذلك انتقل من الجبال إلى الساحل بسبب الجفاف، ثم ارتحل إلى المملكة العربية السعودية للكسب، وبنى له بيتاً في قاضب، تزوج مرتين من بنات القبيلة وطلّق دون أن ينجب أطفالاً. وكان أثناء الاستطلاع متزوجاً للمرة الثالثة وله أربعة أبناء لم يبلغوا سن الرشد.

في هذا المثال دفعت المجاعة والقحط الرجل البدوي إلى الساحل، حيث بدأ يعيش حياة مستقلة، فبنى (من المحاولة الثالثة) عائلة بزوجة واحدة. في بلدة قاضب التي كان أهلها يمارسون أساساً الصيد، ومختلف الأعمال في العاصمة التي تقع البلدة على مقربة منها، يطمح الأبناء إلى الانفصال عن الوالدين، ولم يكن الإخوة ينوون في الغالب أسرة موحدة، لأن الاقتصاديات لا تشجع على ذلك، كما لا تشجع عليه لا التقاليد ولا نمط الحياة عموماً هناك.

«صاد ميم ألف» في الخامسة والثلاثين من العمر، وهو مربي ماشية من قرية كدحة القريبة من حديبو، أصله من سادة قبيلة أبي بكر، متزوج من أمرأة من القبيلة نفسها، وله ثلاثة أولاد (عزاب لم يبلغوا سن الرشد) وأربع بنات إحداهن متزوجة تقيم في عائلة

زوجها. انفصل عن والديه بعد أن تزوج، ويمتلك عشرة أبقار وجملاً واحداً والكثير من الماعز والأغنام، بالإضافة إلى النخيل.

«خاء عين ميم» صياد وراعي ماشية من قرية ستيره (السهل الساحلي الجنوبي) في الأربعين من العمر. والداه متوفيان، وله ستة أخوة، ثلاثة أشقاء وثلاثة بالأب (من زواج والده بعد وفاة أمه). الإخوة متزوجون، ما عدا واحداً ظل في منزل أبيه. تقاسموا التركة ويقيمون كلّ في منزله، ولهم أبناء. «خاء» متزوج من ابنة خاله وله منها ولدان (توفي ثلاثة أطفال). كان يمتلك أكثر من 200 رأس من الماعز والأغنام، إلا أن الكثير منها نفق بسبب القحط والجفاف.

في هذا المثال نرى أن العائلة تفككت إلى عدة أسر على الرغم من ثرواتها الكبيرة.

الانفصال أكثر انتشاراً في منطقة السهل الساحلي الجنوبي نظراً لشيوع صيد الأسماك وسهولة بناء المساكن من سعف النخيل وجذوعها.

معظم الأسر المكونة من جيلين مختلفين (بزوجين لكل جيل) تضم العديد من الأبناء العزاب، سوى متزوج واحد هو عادة الابن البكر.

وتبرز بخاصة الأسر التي يقيم فيها الزوج بمنزل والدي زوجته، وهذا أمر مفهوم إذا لم يكن لوالد الزوجة ابن ذكر، إلا أن هنالك حالات ناجمة عن ملابسات أخرى (سبق أن تحدثنا عن أسباب إقامة الزوج عند أم العروس).

«عين سين فاء» مربي ماشية من قرية قعرة (الجزء الغربي من الساحل الجنوبي) في الخامسة والأربعين من العمر، لديه قطيع من الماعز والأغنام. توفي إخوانه وأخواته دون أن يتركوا ذرية، وهو متزوج وله ثلاثة أولاد وثلاث بنات، إحداهن متزوجة تعيش مع زوجها في منزل والدها (الزوج من قرية ستيره القريبة من قعرة. وسبب إقامته في منزل والد زوجته غير معروف).

للوالد ورب الأسرة كامل الحق في البت بمسألة ما إذا كان ينبغي أن يخصص لابنه الراغب في الانفصال حصته من الثروة أم لا.

وقد حصلت حالات اختلف فيها الابن مع أبيه ولم يتوصلا إلى اتفاق، كما في المثال التالي:

«سين ألف ميم» مزارع نخيل من حديبو، في الثالثة والخمسين من العمر. له ثلاثة أولاد وخمس بنات، الجميع متزوجون ما عدا الابن الأصغر والبنت الصغرى. الابن البكر انفصل

عن والديه من زمان، وله سبعة أبناء، وقد اشترى نخيلاً دون أن يستلم شيئاً من ثروة العائلة (حصته لا تأتي إلا بعد وفاة والده)، وهو يعمل في التعاونية. الابن الأوسط مع أسرته وكذلك الابن الأصغر يقيمان في منزل الوالد، وتبلغ ملكية العائلة 400 نخلة على وجه التقريب.

النوع المتعدد الخطوط من الأسرة المعقدة هو الأكثر انتشاراً، حيث يشكل 8.30 % من العوائل التي درسناها، ونشير فيه إلى الفئات الأساسية التالية: أ) زوج وزوجة أو والد مع أبنائه المتزوجين بلا أطفال، ب) زوج وزوجة أو والد مع أبنائه المتزوجين وأطفالهم، (كلا الأسرتين أبويتان)، ج) إخوة متزوجون مع أطفالهم أو بلا أطفال (أسرة أخوية)، د) أسرة أكثر تعقيداً (تضم كذلك أبناء الأخ أو الأخت، والأعمام أو الأخوال، وأحياناً الأقرباء الأبعد، ومن ضمنهم الأقرباء والأنسباء من جهة الزوجة).

الفئتان الأوليان (الأسرة الأبوية - 3.14 % من إجمالي الأسر التي تناولتها الدراسة) تمثلان مرحلتين في تطور أسرة المنطلق البسيطة (ناشئتين عن انفصال الابن بعد زواجه أو عن زواج رجل كان قد انفصل أو يعيش على انفراد ، سواء كان مطلقاً أو مترملاً وما إلى ذلك). ونظراً لعدم ممارسة السقاطرة تحديد النسل تعتبر الفئة الأولى مجرد مرحلة بينية، إلا أنها غالباً ما تحل محل المرحلة الثانية بسبب وفيات الأطفال (سبق وتحدثنا عن نسبة هذه الوفيات العالية اثناء استعراض موضوع الأسرة الصغيرة البسيطة). وتصادف حالات انفصل فيها بعض الأبناء المتزوجين عن الأسرة، فيما بقي بعضهم الآخر فيها، ويعود ذلك دوماً إلى أسباب اقتصادية، وهو يحصل عندما لا تكفي ثروة الأسرة لإعالة جميع الإخوة، فتتفكك الأسرة الواحدة، ويبقى مع الأب عادة واحد أو اثنان من أولاده.

«فاء سين عين» صياد من قرية حالة، في الثانية والعشرين من العمر، يعمل في تعاونية لصيد الأسماك. قال لنا إن لديه خمسة إخوة وأختين اثنتين، كلهم متزوجون ويعيشون في منازلهم على انفراد، ما عداه هو والأخ الأكبر غير الشقيق (من زوجة أبيه الأولى التي توفيت فتزوج من أم «فاء»)، حيث يعيشان في منزل والدهما. «فاء» متزوج من ابنة خاله، وقد ورث عن والدته قطيعاً صغيراً من الماعز، والى ذلك يمتلك بعض النخيل.

هكذا انفصل عن الأسرة التي يترأسها الأخ الأكبر جميع أفرادها، ماعدا أخاً واحداً ليس شقيقاً لرب الأسرة، وباتت الاقتصاديات التي توحدت في إطارها تركة الأب والأم سبباً لبقاء أسرة أخوية تضم أسرتين أصغر منها لأخوين غير شقيقين.

ومن ثم فإن استقرار الاقتصاديات وضرورة إدارتها وتسييرها يحددان مصير تطور هذه الأسرة أو تلك أكثر من درجة صلة القربى (كما رأينا من تعايش الأخوين غير الشقيقين).

«عين ميم هاء» صياد ومربي ماشية من قرية بدهولة (السهل الساحلي الجنوبي) في الثامنة والأربعين من العمر. عاش مع أبنائه الثلاثة المتزوجين وأطفالهم، وكان يمتلك قارب صيد.

أخو «عين» صياد ومربي ماشية أيضاً، انفصل عنه بعد وفاة والدهما، وعاش مع أبنائه المتزوجين وأطفالهم. وهو أفضل حالاً من «عين»، حيث يمتلك قارباً كبيراً بمحرك. تركة والد الأخوين ضئيلة للغاية، مما دفعهما إلى الانفصال، وكانت حيازة القارب الكبير محفزاً على بقاء أسرة «عين» موحدة، ومن المستبعد أن ينفصل أبناؤه بعد وفاته، بل الأرجح أنهم سيشكلون أسرة أخوية، أما أولادهم فسينفصلون عن تلك الأسرة في حينه، أغلب الظن.

المثال التالي عن أسرةٍ اثنان من أبنائها متزوجان، والباقون عزاب. ولأن بعض الإخوة غير أشقاء (وبينهم إخوة كلالة)، وانطلاقاً من طبيعة اقتصاديات الأسرة (صيد الأسماك بالأساس) يمكن توقع تفككها بعد وفاة الأب.

«سين ألف عين» مستخدم في دائرة حكومية في التاسعة عشرة من العمر، وهو من مواليد قرية عريرهن على الساحل الشمالي، له ثلاثة أخوة وثلاث أخوات. أحد إخوته واثنتان من أخواته ليسوا أشقاء (من زوجة أبيهم الأولى)، وأخواه الآخران وأخته الثالثة أخوة بالرحم (من زوج أمهم الأول. زواجها من أبي «سين»، وهو الثاني بالنسبة لهما كليهما، لم يعط حتى ذلك الحين سوى ولد واحد هو «سين»). الوالدان على قيد الحياة، وأحد الإخوة متزوج، وإحدى الأخوات متزوجة كذلك، تعيش في بيت زوجها. «سين» نفسه متزوج من ابنة عمه. وكلهم (هو وأخوه المتزوج وأخواه الأعزبان وأختاه) يقيمون في بيت والدهم الصياد. الأسرة تتكون من عشرة أفراد، وتمتلك قطيعاً من الماعز والأغنام إلى جانب النخيل.

الأسرة الأخوية التي تنشأ بعد وفاة الوالد، رب العائلة الكبيرة، هي صيغة منتشرة كثيراً بين الأسر والعوائل في سقطرى، وتشكل 5.10 % من مجموع الأسر التي تناولناها بالدراسة والبحث. كما تشكل هذه المجموعة 5.16 % بحساب الأسر التي انفصلت وكانت أخوية في الواقع. الدرجة العالية من التلاحم الملازم للعائلة الأبوية الكبيرة والقائم على الاقتصاد المشترك، وعلى تقاليد التعاضد والنخوة المتبادلة وحماية الأهل، وعلى الروح الجماعية،

تبقى كما هي حتى بعد وفاة الوالد. فالأسرة الأخوية التي تعمل في كيان اقتصادي واحد، حينما تتوافر مسوغات وجودها من وجهة نظر جدوى العمل المشترك، إلى جانب إمكانيات العيش من وارداته (لدى عدم توافر مثل هذه الإمكانيات تنشأ صيغة الأسرة التي سنتطرق إليها في الفقرات التالية من هذا الفصل) إنما تمثل أحد الأشكال الأساسية للتنظيم العائلي في سقطرى في ثمانينيات القرن العشرين.

«ألف سين ميم» راعي ماشية من حجهر في الخامسة والثلاثين من العمر، متزوج من ابنة عمه وله ولدان وبنتان، بعد وفاة والده ظل يعيش مع أخيه الوحيد وأسرته، ويعمل في الاقتصاديات المشتركة للأسرة.

وعندما يكبر أبناء «ألف» وأخيه ويتزوجون تمضي البنات، على الأرجح إلى أزواجهن، فيما ينفصل ولدا «ألف» بعد وفاته ليشكلا إما أسرةً أخوية (بمعنى أن كلا الولدين لن ينفصل أحدهما عن الآخر، بل ينفصلان بالتأكيد عن أبناء عمهما)، وإما أسرتين صغيرتين بزوجة واحدة لكل منهما (بمعنى أن الأخوين ينفصلان عن بعض).

«ياء ميم سين» مربي ماشية من قرية شملهن، في التاسعة والأربعين من العمر، بعد وفاة أبيه ظل يعيش مع أخيه الأصغر في منزل الوالدين. وظلت أسرتاهما تعيشان معاً، وتمارسان اقتصاداً مشتركاً. لأخيه ولدان ارتحل أحدهما (دون زوجته وطفلها) للعمل في الخليج العربي، فيما لا يزال الآخر أعزب. «ياء» تزوج مرتين وطلق كلتا الزوجتين، إحداهما متوفية حالياً. وله تسعة أبناء من الزوجتين: أربعة أولاد وخمس بنات. ثلاث منهن متزوجات يتخذن من منازل أزواجهن مكاناً للإقامة، أما البنتان غير المتزوجتين فتقيمان في منزل الوالد. أحد الأبناء أعزب (يخدم في شرطة حديبو)، والثلاثة الباقون متزوجون (لديهم إجمالاً ثمانية أطفال)، والجميع يعيشون في منزل الوالد، ويعملون في اقتصاديات الأسرة. كانوا يملكون أكثر من ألف نخلة، مع جمل وحمار والكثير من الماعز والأغنام. عدد أفراد الأسرة 23 شخصاً. وإذا توفي أحد الإخوة يتولى أخوه الآخر مهام رب الأسرة، كما أوضحوا لنا بأنفسهم، وبذلك تبقى الأسرة موحدة إلى أن يترعرع الأحفاد ويكبرون.

في بعض المناطق، على الساحل الجنوبي مثلاً، حيث تبنى المنازل من الحجارة وسعف النخيل، تعيش الأسر الكبيرة في عدة أكواخ متجاورة تشكل في الواقع منزلاً واحداً على الرغم من أنها تبدو منفصلة حسب الظاهر.

«ألف ألف سين» صياد من قرية ريهن (السهل الساحلي الجنوبي) في الثلاثين من العمر،

والداه توفيا، وله شقيقان وأخ ثالث وثلاث أخوات من زواج أمه للمرة الثانية بعد وفاة أبيه، وليس بينهم من المتزوجين سواه وأحد شقيقيه. الجميع يعيشون في منازل متجاورة خاصة بهم، إلا أن قطيع الأسرة ظل مشتركاً. وتلك في الواقع أسرة أخوية أو إخوانية واحدة.

ولدينا أمثلة على فئات أكثر تعقيداً من النوع الفرعي للأسرة موضوع البحث، فهناك أسر تضم الكبيرة منها الوالد وأبناءه الراشدين المتزوجين والعزاب وأولاد عمهم وخالهم الراشدين المتزوجين والعزاب.

هذه التركيبة تلازم العائلة الأخوية عموماً، وهي ناجمة عن جملة عوامل خضعت للدراسة من ناحية تأثيرها على شعوب أخرى، إلا أن من غير الصحيح طبعاً سحب جميع العوامل المتعلقة بشعب ما على شعب آخر. نوضح ذلك من دراسة أوضاع الأسرة لدى أحد الشعوب الصغيرة في شمال روسيا، ونعني السلكوبيين. يقول أي غومييف: «من الواضح أن أبناء الإخوة في مثل هذه الحالات لا يمكن أن يكونوا موضوعياً إلا أبناء شخص أكبر سناً من رب الأسرة (أي أبناء الأخ الأكبر الذي لم يعد على قيد الحياة). ما يعني أن الأبناء (حتى أبناء الأخ الأكبر في الأسرة) ليس لهم حق في التركة، وينبغي لهم أن يعيشوا مع أعمامهم الذين هم الورثة الوحيدون، أو على الأصح المالكون الحقيقيون للثروة التي كانت عائدة لهم بالاشتراك مع أخيهم المتوفى. وجاء وقت حل فيه جيل أبناء الإخوة محل جيل الآباء والأعمام (بسبب وفاة الأخيرين أو عجزهم البدني)، وهذا هو بالذات سبب الحالات المتكررة الآنفة الذكر للتسيير الاقتصادي المشترك من قبل الإخوة الجانبيين» (غومييف، 1984: 29).

هذا التوضيح لا يخص الوضع السقطري إلا بصورة جزئية، فحق الميراث عند السقاطرة لا ينص على انتقال الملكية إلى أعمام الأخ المتوفى بصفته «رب الأسرة»، والمسألة هنا ليست في وجوب بقاء أبناء المتوفى «مع أعمامهم»، وإنما في الجدوى الاقتصادية التي تحددها الأعراف والعادات البدوية، والتي يراعيها دوماً أفراد الأسرة المعقدة أو العائلة الكبيرة.

في حالات نادرة يمكن أن تربط أواصر التسيير الاقتصادي المشترك بين أهل الزوج ووالدي الزوجة حتى وإن كانوا ينتمون إلى قبائل مختلفة. المثال التالي يوضح هذا الموقف الناشئ عن وجود الأب والأخ الوحيد لمحدثنا في الخارج، بينما هو موظف لا يستطيع أن يرعى قطيع والده، ولذا سلمه إلى صهره.

«ميم عين حاء» محاسب مدرسة ابتدائية في حديبو، في الثالثة والعشرين من العمر، من مواليد جو (على الحدود بين المنطقتين الشرقية والوسطى). أبلغنا أن والده كان مؤذناً في مسجد جو، ثم غادر إلى دولة الإمارات العربية المتحدة، ولا يزال يقيم فيها، ولدى «ميم» أخ وأخت. أخوه متزوج ويعيش مع والده في الإمارات، وأخته القاصر تعيش معه عند والدتهما. وهو متزوج ولديه ابن واحد. والده يمتلك في جو 120 نخلة و 50 رأساً من الماعز والأغنام. النخيل يرعاها بستاني يتلقى مقابل عمله خُمس المحصول السنوي. والماشية ملحقة بقطيع نسيبه المقيم في روكب (المنطقة الوسطى)، ولكن ليس على أساس الملكية المشتركة، فالماشية اشتراها والد «ميم».

الأسرة المنفصلة

في الثمانينيات أخذ السقاطرة يعيشون حياة أكثر «انفتاحاً»، واتسعت حركة النزوح في داخل الجزيرة نفسها، وخاصة في اتجاه المناطق الداخلية مثل حديبو وقلنسية والبلدات الكبيرة في الساحل الشمالي. وانخرط عدد متزايد من السقطريين في الخدمة في دوائر الدولة والجيش والشرطة، كما ازداد عدد المسافرين للدراسة في الخارج. وقد ارتحل قسم كبير من السكان للكسب في مختلف مناطق اليمن ودول الخليج، وباتت عائدات العمل في الخارج تلعب دوراً متزايداً في ميزانية العائلة السقطرية، مما ساعد على تطوير الجزيرة عموماً وتحسين تموينها وتوفير فرص العمل. وأدت هذه الظاهرة إلى ازدياد كبير في نسبة الأسر المنفصلة أو المشتتة (5.16 % من العدد الإجمالي للأسر موضوع البحث) أي التي لا يقيم جميع أفرادها معاً. إلا أن تلك الأسر، رغم غياب الإقامة المشتركة، تحافظ على اقتصادها المشترك وميزانيتها الواحدة وملكيتها المشتركة للثروة وما إلى ذلك.

الأمثلة التي نوردها أدناه تقوم على معلومات مستقاة من أقوال أشخاص شاركوا في استطلاع الرأي وينتمون إلى مجاميع وشرائح سكانية متباينة. بينهم معلمون وموظفون من مستشفى حديبو وأبناء المناطق الداخلية بالأساس ممن حازوا على الإعداد المهني في مدارس عدن الصناعية. ولديهم عمل دائم، بمعنى أنهم مستقرون في انفصالهم عن الأسرة الكبيرة، ولذا فإن بقاء ارتباطهم بتركيبة الأسرة وكيانها الاقتصادي المشترك كبير الدلالة.

الأسر المشتتة أو المنفصلة على هذا النحو تضم جميع الأنواع الفرعية للأسرة المعقدة، فبينها أسر من خط وراثي واحد وأسر متعددة الخطوط بجيلين وثلاثة أجيال. في بعض الحالات تتكون الأسرة من زوجي البداية وأطفالهما، بمن فيهم الأبناء الراشدون مع زوجاتهم وأطفالهم أو بدونهم. وفي حالات أخرى تأتي البداية من أكثر من زوجين، مثل أخوين وزوجتيهما وأطفالهما، بمن فيهم الأبناء الراشدون مع زوجاتهم وأطفالهم أو بدونهم.

«ميم سين ميم» مفتش تعليمي في حديبو في السابعة والثلاثين من العمر. من مواليد حديبو، متزوج من ابنة خاله، وله منها ثلاثة أطفال. أبوه كان عامل بناء في السابق، إلا أنه يمارس الآن رعي الماشية ورعاية نخيل الأسرة، ولدى «ميم» أخَوان متزوجان لكل منهما بنتان. يعيشون جميعاً في بيت الوالدين، ويقتاتون معاً، ويديرون اقتصاداً مشتركاً. كما أن لدى «ميم» ثلاث أخوات متزوجات ومحل أقامتهن في منازل أزواجهن، عدد أفراد العائلة إجمالاً 15 شخصاً.

وإليكم مثالاً آخر، عائلة مكونة من 14 شخصاً، «ميم صاد ميم» مربي ماشية سابقاً من قبيلة بني مالك (على الحدود بين المنطقتين الوسطى والغربية) في الثامنة والخمسين من العمر. في فترة الاستطلاع كان عامل بناء في حديبو، أبلغنا أنه متزوج من ابنة خاله التي أنجبت عشرة أطفال بقي منهم ستة أولاد على قيد الحياة. أحد الأولاد يخدم في الشرطة والآخر في الجيش والثالث يعمل في حامية موري، فيما يقيم الثلاثة الباقون في منزله. اثنان فقط من أبنائه متزوجان، هما الأول والثاني في السن، ولهما أربعة أطفال. لدى الأسرة قطيع من 7 أبقار و 50 نعجة وعنزة، بالإضافة إلى 10 نخلات. جميع الأبناء يعملون ويعيشون في عائلة واحدة ويديرون اقتصاداً مشتركاً، بمعنى أن الذين يعملون خارج المنزل يبعثون ما يكسبون إلى الأسرة.

ومن الأمثلة أيضاً أسرة يعمل ربها نفسه، وليس أولاده، في القسم القاري من البلاد (اليمن) أو في المهجر. ومن الحالات النادرة جداً أن تسافر الزوجة للكسب في الخارج بعد وفاة زوجها.

«عين ثاء عين» موظف صحي في حديبو، في الثالثة والعشرين من العمر. توفي أبوه، وكان مسعفاً في المستشفى أيضاً، وله ثلاثة إخوة وثلاث أخوات (مات طفلان آخران). أحد الإخوة طالب في الثانوية متزوج، والآخران عازبان. إحدى أخواته متزوجة أيضاً

وتعيش في منزل زوجها، والأخرى مطلقة عادت إلى منزل والديها، والثالثة لا تزال صغيرة. «عين» تزوج من ابنة خاله، وليس لديه أطفال. اثنان من أفراد الأسرة يعملان، هما «عين» وأخته المطلقة. أمهم مقيمة في عجمان، تعمل في حراسة إحدى المدارس، وتبعث النقود إلى عائلتها بانتظام. وللأسرة عقار ونخيل وبقرة و 15 رأساً من الماعز، يسهر على النخيل بستاني غريب في مقابل خُمس المحصول، فيما تبقى للأسرة أربعة أخماسه.

وهناك نوع فرعي آخر لمثل هذه الأسر، كما في المثال التالي:

«جيم سين ميم» معلم في حديبو في العشرين من العمر، من أبناء بلدة «قرية» في المنطقة الشرقية، أمه متوفية وأبوه كان صياداً توفي مخلفاً التركة لأولاده الـ 16 (ثمانية ذكور وثماني أناث). أخواته متزوجات، ومحل إقامتهن في منازل أزواجهن، وأربعة من إخوانه متزوجون، لدى أحدهم طفلان ولدى الثاني طفل واحد، ولا أطفال للآخَرين. كما غادر إثنان من إخوته الجزيرة للعمل في الخارج. الجميع يقيمون في منزل الوالد، ويمارسون اقتصاداً مشتركاً. يمتلكون عدداً كبيراً من النخيل ومئات من الماعز والأغنام. إثنان من أطفال «جيم» توفيا، وقد بدأ ببناء منزل له في حديبو، لكنه لا ينوي سحب حصته من ثروة الأسرة.

نحن الآن أمام أسرة أخوية نشأت من أسرة معقدة ذات جيلين ومتعددة الخطوط الوراثية بعد وفاة زوج البداية (والدي الإخوة). الأسرة مكونة من أخوين راشدين وزوجتيهما وأطفالهما، ومن أخوين وزوجتيهما بدون أطفال، ومن أخ أعزب واحد. ويقيم على انفراد ثلاثة إخوة عزاب (اثنان في الخارج وواحد في حديبو)، وهم عملياً من أفراد هذه الأسرة الأخوية (15 شخصاً).

وعلى الرغم من أن «جيم سين ميم» لم يوضح لنا تحديداً ممّ تتكون ميزانية الأسرة وكيف يُستثمر اقتصادها فقد كان واضحاً أن العمل المشترك هو الأساس الذي تقوم عليه. أما المشاركون الباقون في الاستطلاع فقد أعطونا توضيحات بهذا الخصوص.

«ميم سين حاء» من أبناء جو (على الحدود بين المنطقتين الشرقية والوسطى) في الخامسة والعشرين من العمر، وهو من قبيلة السادة، يعمل معلماً في حديبو. قال إنه وإخوانه، رغم انفصالهم وإقامتهم في أماكن متباعدة نسبياً، حافظوا على التعاضد والمساعدة المتبادلة بين أفراد العائلة. لدى «ميم» أربعة إخوة، كلهم متزوجون، أحدهم يخدم في الشرطة، والآخر في البادية يرعى الماشية والنخيل التي ورثها الأخوة عن والدهم،

والأخ الأكبر الشرطي بات المسؤول عن ثروة الإخوة المشتركة في أعقاب وفاة الوالد. وقد ارتحل اثنان من إخوته للكسب في إحدى إمارات الخليج، إلا أن عائلتيهما ظلتا هنا في سقطرى. وكانت أمهم، في فترة استطلاع الرأي، في الإمارات أيضاً لزيارة ولديها.

الثروة الحيوانية ومحاصيل التمور توزع على الجميع بالتساوي، في السابق كانت تأتي عائدات مرموقة من الأبقار، إلا أن الكثير منها نفق أثناء الجفاف الأخير (لم يبق سوى خمس أبقار). في موسم جني المحاصيل وإعداد المنتجات الحيوانية يعمل أبناء جميع الإخوة في البادية (وعددهم إجمالاً 15 شخصاً). أسر الأخوة تتبادل الهدايا بانتظام، وتتحمل معاً نفقات الزفاف وأعياد ميلاد الأطفال واحتفالات الختان وما إلى ذلك، كما أن الإخوة يساعد بعضهم بعضاً في تسديد مهر الزفاف. العدد الكلي لأفراد الأسرة 26 شخصاً.

وتجدر الإشارة، بخصوص هذا المثال، إلى أن قبيلة السادة تتحلى بالتعاضد والتلاحم أكثر من سائر القبائل، وأن الاتجاه نحو الحفاظ على الوحدة يبقى هو الأقوى حتى بوجود كل مسببات تفكك الأسرة الأخوية ونشوء أسر بسيطة وصغيرة على أنقاضها.

وقد يبدو أن تشتت الإخوة يشتد عندما تنعدم وحدة الاقتصاديات، إلى جانب الإقامة المنفصلة. إلا أن التقسيم الفريد للعمل على أساس الأسرة المتعددة الخطوط، أو ذات الخط الوراثي الواحد المتعددة الأجيال، إنما يرص صفوفها ويلمّ شملها، لأن كل خلية في الأسرة تتلقى من الأخرى ما تفتقر إليه. وتنشأ في مثل هذه العائلة، في إطار التوزيع المتعادل للثروة والاستهلاك المشترك، علاقات تبادل تغدو بمثابة الأساس الصلد لتلك الأسرة.

كما يغدو الاقتصاد الرعوي حافزاً مهماً لصيانة وحدة الأسرة لجملة أسباب:

- فهو يعطي منتجات لا يمكن الاستغناء عنها ويتعذر اقتناؤها في السوق، لأن هذا الاقتصاد غير بضاعي بالأساس.

- ممارسة الرعي وتربية الماشية عمل تقليدي تشجعه السمعة الجيدة والمكانة الرفيعة للقبائل الرعوية.

- الاقتصاد الرعوي كثير المنافع لأنه يؤمن احتياجات الأسرة الكبيرة بقليل من النفقات.

- ملكية القطيع ضرورية للجميع، لأن الماشية تلعب دور القيمة التبادلية ووسيلة المقايضة في بعض أنواع الحسابات (مهر العروس، بناء المنزل، انفصال الأبناء الراشدين، الهدايا وما إلى ذلك)،

- الرعي (تربية الماشية) يؤمن العمالة والتشغيل لبعض أفراد الأسرة، وأحياناً لجميع أفرادها، ويساعد على استقرار الأسرة في وجه كل التذبذبات والتقلبات المرتبطة بالوضع السياسي والاقتصادي في سقطرى (احتمالات الانقطاع في تموين الجزيرة بالأغذية والضروريات، وصعوبات التشغيل، وإمكانات السفر للكسب في الخارج وهلمجراً).

- الاقتصاد الرعوي رمز احتفاظ السقاطرة بديارهم ومنازل آبائهم وأراضيهم ومراعيهم وما إلى ذلك. وهو يساعد على تلاحم نمط الحياة التقليدي بمجمله، والذي يفترض صيانة الأنواع التقليدية من التنظيم العائلي والنظام القبلي. في تلك الفترة لم نكن نعرف سوى حالات نادرة جداً باعت فيها أسرٌ ماشيتها، وترك جميع أفراد الأسرة مكان إقامتهم التقليدي.

وتلعب زراعة النخيل دوراً مماثلاً، ولكن فقط إذا اقترنت بتربية الماشية، لأن رعاية النخيل بالنسبة لمعظم الأسر والعوائل السقطرية ليست العمل الأساسي، ويمكن للنخيل أن تبقى دون رعاية بغياب أفراد الأسرة. وعلى أي حال فإن انتشار علاقات التأجير واستخدام العمل المأجور على نطاق واسع في زراعة النخيل دليل على أن هذه المهنة بحد ذاتها لا تؤمن بقاء الأسرة واستقرارها في أماكن إقامتها التقليدية، ولا الحفاظ على وحدتها، خاصة أن معظم السقاطرة يمتلكون نخيلاً على مسافة بعيدة من منازلهم.

وقد لاحظنا ظاهرة الجمع بين مختلف الأعمال والمهن في العوائل الأخوية المنفصلة أو المشتتة، إلا أننا رأينا الرعي أو تربية الماشية يشكل من كل بد جزءاً مكوناً لاقتصادياتها. وتبقى وحدة العائلة في مثل هذه الأحوال أمداً طويلاً جداً في بعض الأحيان، ولا يتقاسم الثروة إلا أحفاد الإخوة.

«ميم سين ميم» من مواليد قرية جو في حجهر ينتمي إلى قبيلة سيفهو، كان راعياً في السابق، وقد ارتحل إلى الخارج والتحق بأبناء قبيلته المقيمين في الخليج، فجمع بعض المال وافتتح له كشكاً في حديبو. لديه أربعة أولاد وخمس بنات. كلهم غير متزوجين لقصر السن، ويقيمون مع والديهم. «ميم» يمتلك مع أخيه الكثير من النخيل وقطيعاً كبيراً من الماعز والأغنام يسهر أخوه على رعايتها، الأخ متزوج أيضاً ولديه أطفال.

المثال الذي نحن بصدده ينطوي على ظاهرة جديدة بعض الشيء بالنسبة إلى سقطرى، وهي اقتران نوعين من العمل في أسرة واحدة: أحد الأخوين راعٍ والآخر بائع.

ونجد لوحةً مميزة تماماً لدى الأسر المعقدة التي يتولاها أب متعدد الزوجات وتضم

أطفالهن وأبناءهن، بمن فيهم أبناء متزوجون يقيمون في الأسرة نفسها مع زوجاتهم وأطفالهم. ونرى لوحة مبرقشة لا تقل عن ذلك في الأسر التي نشأت من زوجين مطلقين أو مترملين سابقاً، وهذا ليس زواجهما الأول. ومما له دلالته أن الإخوة بالأب والإخوة بالرحم، بل وحتى إخوة الكلالة، يتعايشون في الأسرة بود وصفاء نية، وغالباً ما يحافظون على الأسرة الأخوية حتى بعد وفاة والدهم، على الرغم من أن الاتجاه نحو الانفصال في هذه الأسر بالذات هو الأشد عموماً، وهو يحصل في وقت مبكر أكثر مما في الأسر الأخرى.

كنا قد تحدثنا عن «سين سين ألف» الذي تزوجت أمه من عمه، بعد وفاة والده، وغدت زوجة ثانية له. تركيبة هذه الأسرة كالتالي: أختان شقيقتان، وأخ وأخت بالرحم، (ابنا أم «سين» من زواجها بعمه) وأخوان اثنان وأربع أخوات بالكلالة (أولاد الزوجة الأولى لعم «سين»). خليتان لأسرة كبيرة تقيم في منزلين متجاورين وتمتلك عدداً كبيراً من النخيل و 250 رأساً من الماعز والأغنام. علماً أن كل فرد من أفراد العائلة يعرف مقدار حصته من هذه الثروة المشتركة، لكن أحداً لم يعمد إلى تجزئتها، الجميع يرعون الماشية في مرعى مشترك ويسهرون عليها في حظيرة واحدة، (بمعنى أن المراعي نفسها غير مقسمة بين أصحابها). إلا أنهم كانوا يَعدّون النسل على انفراد ويحسبون بدقة زيادة رؤوس ماشية المنطلق لكل فرد من أفراد الأسرة.

زوج أم «سين» (وهو عمه في الوقت ذاته) وأخوه بالرحم قاما على خدمة اقتصاد الأسرة المشترك سبع سنوات، وكان أخ له بالكلالة يعمل في المستشفى، وهو متزوج ، فيما كان الآخر تلميذاً في المدرسة، المنزلان يقتاتان على انفراد. إلا أن رب الأسرة واحد، هو العم الذي يتصرف بكل الموارد ويبت في احتياجات الجميع. إحدى شقيقتي «سين» متزوجة من سائق يعيش في منزلها (أي في منزل والدها المتوفى)، ويقدم راتبه إلى الأسرة، والشقيقة الثانية متزوجة أيضاً، وتقيم في المنزل نفسه، في حين يواصل زوجها مدة الخدمة العسكرية. وأخته بالرحم تزوجت من شقيق زوجة عمها (زوج أمها) الأولى وتعيش في منزل زوجها. وإحدى أخوات الكلالة الأربع تزوجت في عدن وتقيم هناك، فيما تزوجت الثانية في حديبو وتقيم فيها، والثالثة مطلقة تعمل في المستشفى وتعيش في بيت والدها، والرابعة لا تزال صغيرة. تضم هذه الأسرة عشرة أشخاص.

اللافت للنظر في هذه الأسرة هو ميل أخوات «سين» عموماً إلى البقاء في منزل الأم، وكذلك إقامة إحداهن مع زوجها في هذا المنزل، ولعل ذلك يعود إلى ملابسات حياة الأسرة

وتوافر الإمكانية لاستخدام عمل أبنائها والحاجة إلى تلك الأيدي العاملة.

وهناك صيغة أبسط هي الأسرة الأخوية المكونة من أخوين بالأب مع زوجتيهما وأطفالهما، أحدهما يسهر على الاقتصاديات التي ورثاها معاً، والآخر يكسب المال في حديبو. مثل هذه الأسرة لا تستطيع أن توحد الإخوة بالرحم، لأن التركة التي يرثونها تعود إلى آباء مختلفين، إما الحالة التي نحن بصددها فإن التركة التي خلفها الأب ضمنت للأخوين وحدة الأسرة.

«سين جيم حاء» معاون مدير مختبر في مستشفى حديبو، في الثانية والعشرين من العمر، أبوه مربي ماشية من قرية حاصن في المنطقة الوسطى. كان متزوجاً من امرأة توفيت وخلفت له ابناً، فتزوج مرة أخرى ولديه من هذا الزواج بنتان إضافة إلى «سين»، إلا أن الوالد توفي أيضاً، وظل يعيش في منزله بالقرية أخو «سين» لأبيه مع زوجته وأطفاله الأربعة. وورث «سين» عن أبيه 30 نخلة ونحو 40 معزى (الزريبة والمرعى العائدان للأسرة يقعان على مسافة نصف ساعة من المنزل سيراً على الأقدام). ثروة «سين» وثروة أخيه لأبيه واحدة غير مقسمة، وكانت لهما في الواقع ميزانية واحدة: كل الواردات توزع على الجميع.

ممارسة بعض أفراد الأسرة للرعي وتربية الماشية تقترن في سقطرى بخدمة بعضهم لبعض في الجيش والشرطة والعمل بصفة حمّالين وبنّائين وسواق، وكذلك معلمين ومستخدمين في الدولة ومن ذوي المهن الطبية. ومن أهم مصادر عائدات الأسرة، كما أسلفنا، النزوح إلى دول الخليج العربية (دولة الإمارات العربية المتحدة وسلطنة عمان بالأساس)، حيث كان يعمل الكثيرون من السقاطرة.

«ثاء ألف حاء» معلم في حديبو، في العشرين من العمر، من مواليد المنطقة الشرقية، قال لنا إن والدته ولدت بنتاً من زواجها الأول، وإن زوجها توفي فتزوجت ثانية من والد «ثاء». أبوه كان متزوجاً قبل ذلك، لكنه طلق زوجته بعد أن خلف منها ولدين وبنتاً، وبالإضافة إلى «ثاء» كان لوالديه من زواجهما الجديد ابن وبنت. أخوه الأكبر لأبيه يعيش مع عائلته في دولة الإمارات، فيما ظل الأخ الأصغر مع الأسرة في بيت الوالد، وهو راعي ماشية مثل أبيه، أما شقيقه الوحيد فهو تلميذ. إحدى أختيه متزوجة في عدن وتقيم مع زوجها، والأخرى تقيم مع زوجها أيضاً، ولكن في بلدة السوق بسقطرى. أما الأخت الثالثة، العزباء، فتعيش مع والدتها.

تمتلك الأسرة بصورة مشتركة نخيلاً (كان الوالد يعتني بها) وقطيعاً من الماعز والأغنام وحمارين. يرعى القطيع الأم وابنتها غير المتزوجة، ابنة الأم من زواجها الأول تسمي والد «ثاء» عمي. وقد أوضح لنا «ثاء» أن الشخص الذي ينفصل عن أسرة الأب يستلم عادة حصته من الثروة على أساس أن حصة الذكر ضعف حصة الأنثى. أما ما يتبقى من الثروة فليس خاضعاً للتقسيم، فيظل في العائدية المشتركة. إلا أن «ثاء» نفسه لم يأخذ حصته على الرغم من أنه يعيش على انفراد، بل إن راتبه يشكل جزءاً من ميزانية الأسرة، لكنه يحتفظ بقليل من النقود للنثريات.

في بعض الأحيان يعيش معاً في مكان واحد العزاب المنفصلون عن عوائلهم (للعمل بصورة وقتية أو دائمة في حديبو أو في مركز سكني كبير آخر)، إذا كانوا من أبناء منطقة واحدة، فيساعد بعضهم بعضاً كجماعة متعاضدة متراصّة، لكنهم يحتفظون في الوقت ذاته بعلاقات وثيقة مع عوائلهم وأسرهم التي غادروها.

«ميم سين سين» عامل مختبر في مستشفى حديبو، في العشرين من العمر، وهو من أبناء قلنسية، يعيش مع جماعة العزاب في دار أحد أبناء جلدته. كان متزوجاً في قلنسية، لكنه طلق زوجته. والده طلق أمه وتركها مع أطفالها، فلم تتزوج ثانية. له أختان، إحداهما متزوجة تقيم مع والدتها ما دام زوجها في الخدمة العسكرية على أن تنتقل إليه بعد التسريح. والأخرى الصغرى، تعيش مع أمها دوماً. أسرة الأم تمتلك عدداً من النخيل وزهاء 40 عنزة. يرعاها أبناء خالة «ميم»، ويتقاضون لقاء هذه المساعدة كمية من اللبن. خال «ميم» ارتحل إلى الخارج بحثاً عن عمل، وهو يساعد شقيقته، أم «ميم»، مالياً بين الحين والآخر، «ميم» أيضاً يبعث المال لوالدته، ويستلم من البيت بعض المحاصيل.

مثال هذه الأسرة يتسم بأهمية أيضاً من حيث وجود علاقات وطيدة تربط بين الشخص المتحدث إلينا وبين أبناء خالته، فيما يقدم الخال لأسرة أخته مساعدات مالية منتظمة (ولعل سبب ذلك أن أم «ميم» لم تتزوج بعد الطلاق، وهي بحاجة إلى المعونة لفقر الحال، في حين أن ابنها الوحيد دخل معترك الحياة لتوه).

وقد حدثنا «عين ألف خاء»، وهو موظف إسعاف في حديبو، في الثانية والعشرين من العمر، فقال إن والده من أهالي النوبة كان في خدمة السلطان قبل الثورة اليمنية. وكان متزوجاً من امرأتين، الأولى ولدت له ثلاثة أطفال، والثانية اثني عشر طفلاً، ومن ضمنهم «عين» نفسه. كانت كل زوجة تقيم في منزل منفصل، لكنّ المنزلين في مجمّع واحد

اقتصادياته مشتركة، بعد وفاة الوالد بات أحد المنزلين من نصيب الزوجة الأولى، إلا أن أولادها الثلاثة تنازلوا عنه فيما بعد لصالح «عين» في مقابل تعويض. وفي هذا المنزل بالذات يقيم «عين» المتزوج من ابنة خاله، أما المنزل الآخر (الذي كانت تقيم فيه المرحومة والدته) فقد بات، على سبيل التركة، من حصة أخيه الأكبر الذي يعيش معه باقي الأشقاء السبعة وأختهم الصغيرة (الأختان الأخريان تزوجتا وانتقلتا للإقامة في منزلي زوجيهما). تركة الأب وزعت بكاملها على الورثة، إلا أنهم يتساعدون فيما بينهم، ويرعون الماشية معاً، وينتفعون من تمور البستان الذي أحالوه على سبيل الإيجار إلى شخص يعتني بنخيله مقابل حصة الخُمس.

كما أن ابن عم «عين» يعمل في الاسعاف أيضاً، واسمه «خاء عين خاء»، وهو في الخامسة والعشرين من العمر. والده مارس السمسرة التجارية، وكان لديه بالإضافة إلى «خاء»، ثلاثة أولاد وأربع بنات. «خاء» متزوج وله طفلان، أما الباقون فهم عزاب يعيشون مع والدهم، وإحدى الأخوات متزوجة تقيم عند زوجها. والأسرة تمتلك عدداً كبيراً من النخيل يعتني بها الأخ الأصغر في ربيعه الثالث عشر، فهو يسقيها ويشذبها ويسهر عليها، إلا أن الجميع يشاركون في جني تمورها.

وكانت لدى الأسرة أبقار في السابق، لكنها نفقت لمرض حلّ بها، وبقي للأسرة عدد قليل من الماعز. الاقتصاديات مشتركة، والوالد يتصرف بالمال، و«خاء» يسلمه راتبه.

إلا أن ثمة حالات نادرة يغادر فيها الشباب منزل الوالدين إلى العاصمة أو غيرها من الأماكن، فينفصلون عن العائلة الكبيرة نهائياً، حتى لو كانوا عزاباً.

«ألف سين ميم» شرطي من حديبو، في الثانية والعشرين من العمر. وهو من مواليد قرية قدامة في المنطقة الغربية، والده صياد له إلى جانب «ألف» ولدان وابنة متزوجة تقيم مع رضيعها في بيت والدها بسبب رحيل زوجها إلى محافظة المهرة للعمل. أحد أخوي «ألف» متزوج يقيم مع والده، والآخر أعزب. «ألف»، وهو أعزب أيضاً، أخذ حصته من ثروة الأسرة (عدداً من الماعز والأغنام والنخيل) ويقيم بمنزله في حديبو، إلا أن ظاهرة «الأعزب المنفصل» ليست منتشرة في سقطرى.

بعض أمثلة الأسر الأخوية تشير إلى مشاركة أزواج الأخوات أحياناً في التعاضد العائلي الذي يمثل، عادة، حلقة مغلقة ومقتصرة على أفراد العائلة فقط. أزواج الأخوات يعتبرون من أفراد العائلة عندما يقيمون مع زوجاتهم في منزل الأم. المثال الذي نورده أدناه يتحدث

عن مشاركة زوجي أختين بالأب في دعم الأسرة.

«ألف سين حاء» سائق من أبناء قرية حوف في نوجد، له أخت شقيقة واحدة، وأختان بالأب وأربعة أخوة. أمه كانت الزوجة الأولى لأبيه، أخذت مستحقاتها وتركت الأسرة بعد أن طلقها زوجها وتزوج من امرأة أخرى. توفيت والدة «ألف» دون أن تتزوج مرة ثانية، فانتقلت تركتها بالكامل إلى «ألف». وهو متزوج من ابنة خاله، وكان يعيش مع أسرته وشقيقته في منزل أمهما. أختاه بالأب متزوجتان، زوج إحداهما يعمل في عدن، فيما تقيم هي مع أطفالها في بيت حميها، وزوج الأخرى في الخارج، يعمل في إحدى دول الخليج، بينما تقيم هي في منزل زوجها.

إخوان «ألف» الأربعة متزوجون جميعاً ويعيشون في بيت والدهم، حيث كل شيء مشترك، الاقتصاديات واحدة، والأخ الأكبر مسؤول عنها، ويعتبر رب الأسرة. في ملكية الجميع نخيل وقطيع من الماعز والأغنام وبضعة جمال. وقد أخذ «ألف» نصيبه، إلا أنه يتعاون مع إخوته بالأب ويتبادل معهم الهدايا والزيارات بالمناسبات، والعلاقات فيما بينهم جيدة جداً، كما أكد لنا «ألف».

في مقدم السمات المميزة للأسرة المعقدة، كما للأسرة والعائلة عموماً في سقطرى، كما أسلفنا، التعاضد والنخوة بين أفرادها، والروح الجماعية، وتعادل الاستهلاك، ودور المرأة الكبير في اقتصاد الأسرة، والحرية النسبية للنساء ومشاركتهن في البت في الشؤون العائلية. ونضيف هنا إلى هذه السمات الاحترام والتقدير الكبير للانتماء إلى العائلة الأبوية والثقة بالنفس والشعور بالرفعة لدى العائلة الكبيرة تجاه العوائل الأصغر.

الأسرة الكبيرة في سقطرى تتميز دوماً بهوية رب العائلة المعروف تحديداً، فهو إما الأب (الذي لم يبلغ من العمر عتياً، ولم يتنازل عن مهام رب الأسرة لابنه الأكبر)، وإما الابن البكر (او الابن الوحيد)، وإما الابن التالي من حيث السن، إذا انفصل إخوانه الأكبر منه عن الأسرة أو كانوا غائبين مؤقتاً، وفي هذه الحالة حتى الابن الأصغر يمكن أن يكون رب الأسرة.

كما يمكن أن يكون رباً للأسرة العم، في حال وفاة الأب وبقاء أطفاله في عهدة عمهم. وإذا تولى الخال تربية الأطفال بعد وفاة والدهم، أو بعد تركه أسرته، فهو يغدو رباً لها.

واللافت للنظر أن الابن الأصغر غالباً ما يبقى عند والدته ويقيم معها بعد وفاة والده في حال اقتسام ثروة الأسرة الكبيرة. والمثال على ذلك:

«عين عين سين» شرطي في حديبو في الأربعين من العمر، وهو ابن مربي ماشية من روجد (جبال المنطقة الوسطى). والده تزوج أمه بعد وفاة زوجها الأول الذي ترك لها ولداً وبنتاً، ثم أنجبت أم «عين» ولداً آخر وبنتاً، الجميع يعيشون في مغارة جبلية. عندما توفي والد «عين» تقاسموا التركة، وظل الابن الأصغر يعيش مع أمه في المغارة، فيما انفصل الباقون عن الأسرة. «عين» متزوج من ابنة عمه، وقد بنى بيتاً في حديبو، ولديه ثلاث أبقار وبضع عنزات.

«لام عين عين» من نساء قرية كُزمعة (المنطقة الشرقية)، في الخامسة والخمسين من العمر، تزوجت مرتين، ولها ابنتان من زوجها الأول المتوفى، وكان زوجها الثاني مطلقاً وله ابن واحد، ثم أنجبت «لام» منه ولدين وبنتين. تزوجت البنات وتركن المنزل، كما تزوج الأولاد. أخذ ابن الزوج حصته من الثروة ويقيم وحده، والتحق ابن «لام» الأكبر بالخدمة في الشرطة، ويقيم في حديبو، فيما ظل الابن الأصغر مع أمه.

يصعب القول هل ظهرت مثل هذه الحالات بالصدفة، أم أنها انعكاس لسنّة معينة. على أي حال المواد المتوافرة لدينا بهذا الخصوص ليست كافية للخروج بتعميمات نهائية، ولاسيما أن الوضع تبدل كثيراً على مدار ربع القرن الأخير، لكن الأكيد أن العديد من سمات التنظيم العائلي التقليدي في سقطرى لا يزال قائماً حتى اليوم.

استنتاجنا من المواد التي جمعتها في الموضوع تؤكد أن الأسر الأبوية والأخوية الكبيرة كانت هي الغالبة تقليدياً في التنظيم العائلي بجزيرة سقطرى في الثمانينيات، وقد انتشرت على نطاق واسع خصوصاً الأسر المشتتة أو المنفصلة عن الأسرة أو العائلة الأصلية. ورغم الطابع القبلي الأبوي للتنظيم العائلي السقطري فقد كان هذا التنظيم يتميز بالدور الكبير الذي اضطلعت به المرأة. وقد شهدت مسيرة حياة المجتمع في سقطرى ظاهرة أسرة الزوجة الواحدة التي تقوم على انفصال الأبناء بعد زواجهم، أو زواج المنفصلين منهم، وكذلك على الزواج المكرر، وصولاً إلى تكاثر عدد أفراد الأسرة ونشوء عائلة أبوية كبيرة منها، ثم تحولها إلى أسرة أخوية، تتفكك في الجيل التالي وتنشأ على أساسها من جديد أسر أخرى.

الفصل التاسع

الموروث الثقافي والفولكلور

السحر والشعوذة

في العصور القديمة والقرون الوسطى وُصفت سقطرى بجزيرة الجن والعفاريت، وكان سكانها، في تصورات الرحالة آنذاك، سحرة على ارتباط بالأرواح الشريرة والجنيات والسعالي وما إلى ذلك. كتب ماركو بولو في القرن الثالث عشر يقول: «نصارى هذه البلاد أكثر السحرة شطارة في الدنيا. وللحقيقة الأسقف لا يريد لهم أن يمارسوا السحر، وينهاهم عنه باللين والشدة، ولكن دون جدوى. كل عمل يقومون به يضفون عليه من السحر شيئاً، ويحققون الكثير، كل ما يريدون ويرغبون فيه. فإذا خرجت السفينة في ريح مؤاتية واجتازت مسافة بعيدة يمكنهم أن يبعثوا لها ريحاً معاكسة ويعيدوها إلى الوراء، إنهم يبعثون أية ريح يشاؤون. واذا أرادوا للموج أن يهدأ يهدأ البحر تماماً، يستطيعون أن يثيروا الزوابع في البحر ويوجهوا الرياح في شتى الاتجاهات، كما يعرفون الكثير من غرائب السحر وعجائبه التي لا يليق بنا الخوض فيها، لأنها تثير دهشة من يسمعها...» (Marco Polo, 1955: 201).

في عهد ماركو بولو كان السقاطرة يشدون وثاق المتهم بالسحر والشعوذة ويتركونه في أعلى التلة ثلاثة أيام بلياليها، فإذا تساقط المطر في تلك البقعة خلال هذه الفترة يرجمونه بالحجارة حتى الموت.

ولم يكن من قبيل الصدفة الربط بين المطر الذي كانت تتوقف عليه حياة السقاطرة وبين مختلف الأفعال السحرية، فالجفاف يهدد الناس بالهلاك، وكانوا يعتبرونه عقاباً من الآلهة. أما المطر ففيه الخير والبركة. كانت في سقطرى، في عهد الجاهلية وقبل التنصر، تقاليد سحرية للاستسقاء واستدرار الأمطار. ولما كانت عبادة القمر منتشرة في سقطرى، كما في الجزيرة العربية آنذاك، كان الأهالي يبتهلون إلى القمر كي يسعفهم بالمطر، وينحرون الذبائح له ويقدمون الأضاحي ويعدون المباخر لهذا الغرض. أما في العهد المسيحي فقد لوحظ هنا خليط من العادات والتقاليد والرموز الوثنية والنصرانية على ما يبدو، ولم يبق من الرموز المسيحية في بعض الأماكن سوى الصليب الذي يعلقه النصارى على صدورهم أثناء الطقوس والشعائر الدينية.

مرت على تلك الحقبة قرون وقرون، وتبنى أهالي الجزيرة الإسلام من زمان كما أسلفنا، إلا أن عهود الانزواء والعزلة الجزائرية وغياب المدارس والكتاتيب جعلت انتشار

الإسلام سطحياً ومحدوداً، ولم يتبدل الموقف إلا مع حلول تسعينيات القرن العشرين، حيث أخذت مخلفات العقائد والتقاليد القديمة تنسحب نهائياً وتغدو في طيات الماضي.

بعد تحليل الأغاني والأناشيد الدينية والطقوسية والفلكلورية القديمة التي جمعناها في سقطرى في بداية الثمانينيات تمكنا من الكشف عن الآثار المتبقية من عبادة الأجداد وآلهة القبائل والأفخاذ وتقديس أرواح الموتى، وكذلك تقديس الحيوانات (ناومكين وبورخوموفسكي، 1981: 31 - 50). ويتسم بأهمية خصوصية من هذه الناحية، كما ذكرنا في دراسات سابقة، احتفاظ اللغة السقطرية بكلمة «قنينهم» qaninhim القديمة مرادفاً لكلمة الإله، والتي لا نجد لها مثيلاً إلا عند المهرة المتصاهرين مع السقاطرة وعند أهالي ظفار الذين يتكلمون الشحرية. كان الإيمان بالأوثان والأصنام، المعادية بمعظمها للبشر، جزءاً لا يتجزأ من الثقافة السقطرية آنذاك، ولعل هذا الإيمان لم ينمحِ ولم يتلاشَ نهائياً حتى اليوم. علماً أن الكائنات الأنثوية (النسوية) تشغل مكانة خصوصية في أساطير الجن والعفاريت والأرواح والأشباح وما يماثلها.

بعد دراسة طائفة واسعة من النتاجات الفولكلورية وإجراء تحليلات ميدانية لعقائد السقاطرة تأكدنا تماماً من أنهم يعترفون، في المقام الأول، بقدرة المرأة على السحر والشعوذة وقابلياتها الخارقية. وينبغي البحث عن أسباب هذه الظاهرة بالطبع في خصائص نمط حياة أهل سقطرى في المراحل المبكرة من تاريخهم. وليس بالإمكان طبعاً استحضارها وإعادة هيكلتها بالكامل، إلا أننا تناولنا في الفصول السابقة الدور المهم للمرأة في النشاط الاقتصادي وفي الحياة العامة لمجتمع الجزيرة. فهل انعكست في تلك العقائد، وفي نتاجات الأدب الشعبي، مرحلة من تطور المجتمع السقطري حاول فيها الرجل أن يعيد اعتباره، من خلال عملية ترسيخ النظام الأبوي، فألصق بالمرأة كل الشرور؟ لعلنا نجد ما يؤكد هذه الفكرة في صورة الجنية التي ما إنْ يُذكر اسمها حتى ترتعش أبدان السقاطرة من الهلع والوساوس، وخصوصاً في الليالي عندما يحل الظلام.

يعتقد أهالي سقطرى أن الجنية أو السعلوّة يمكن أن تؤلب ملاك الموت على الشخص فيقتله أو تنهال عليه بالأمراض وبما يقود إلى تدهور صحته. فقد أبلغنا «ميم» من قرية عجمينو أنه قابل الجنية عندما كان في طور الشباب، وهي في ثياب بيضاء («كالعادة»، كما يقول) ووجهها أبيض أيضاً. خرجت إليه على سفح الجبل من خلف شجيرات كانت تختبئ وراءها. فرّ «ميم» وتمكن من النجاة بنفسه، إلا أن الجنية استطاعت، على أي حال،

أن تمسه بيدها، وعندما وصل الفتى إلى بيته راكضاً شعر بألم في الأضراس، ثم سقطت أسنانه كلها دفعة واحدة.

بالفعل لم يكن في فكي «ميم» ولا سن واحدة عندما قابلناه. والأرجح أنه كان مصاباً بمرض أدى إلى تساقط أسنانه، أما الصدمة بعد لقاء المرأة المجهولة الموشحة بالبياض فقد أعطت دفعة لما حصل، ولا يُستبعد أن يكون «ميم» قد وجد فيما بعد تفسيراً لتساقط أسنانه نسبه إلى ما حدث «سابقاً»، ولربما لم يكن له في يوم حدوثه وقع بهذه الشدة.

في كل الأحوال كان الاعتقاد في وجود الجنيات والسعلوات راسخاً جداً لدى السقاطرة، وقد لاحظنا أن الشباب، حتى العصريين الجالسين حول المواقد في الأمسيات، يرتعشون من مجرد ذكر الجنيات واحتمال ظهور إحداهن فجأة من مخبأ لها قريب.

«عين عين ألف الدعرهي » من قبيلة دعرهو حدثني عن جنية أو سعلوة مميزة، فقال: هناك جنية تسمى «أم مسامير»، (سكان جنوب العراق يسمونها «أم مساحي» لأن رجلها في تصوراتهم أشبه بالمسحاة – المؤلف). من بعيد تبدو بمظهر المرأة العادية، فلا يظن بها المرء سوءاً عندما يراها، وحينما تقترب منه يكتشف حقيقتها حالما يقع بصره على أسفل جسمها، فلها رجل واحدة أشبه بمسمار حديدي كبير، فيفر هارباً مذعوراً. فيما تقفز هي خلفه على مسمارها الوحيد لتلحق به، وحينما يصل إلى مكان يظنه ملاذاً آمناً يجد «أم مسامير» هناك، فيهرب إلى مكان آخر لكنه يجدها فيه، وهكذا دواليك. إنها كالكابوس، لا مجال للفرار منها، والأفضل طبعاً أن لا يصادف المرء سعلوة من هذا النوع!

كما حدثنا عن السعالي «عين ياء ألف»، وهو حادي إبل من قرية عدونة استأجرنا جماله لتوصلنا إلى الجبال.

قال: عندما كنت صغيراً ذهبت ذات مرة أبحث عن ماعز تاهت ولم تعد إلى البيت، والدي أرسلني للبحث عنها، فأمضيت النهار كله في البحث هنا وهناك، على كل تلة، ووراء كل كثيب، دون أن أجدها. وفجأة خرجت إليّ من إحدى المغارات امرأة غريبة وسألتني: إلى أين أنت ذاهب؟ فقلت لها إني أبحث عن الماعز التي تاهت. فقالت المرأة: ليس هذا وقت البحث عنها، فكل الناس طبخوا الطعام وتناولوا الغداء، ولا مجال للبحث هنا في مثل هذا الوقت. المساء يقترب، والناس في بيوتهم، بينما تبحث أنت عن الماعز؟ لا خير في ذلك. ثم تساءلت: هل يستطيع الإنسان أن يجد الكثير في مثل هذا الوقت؟ وأضافت: لا أحد يترك منزله في هذه الساعة، والأفضل لك أن تعود. الماعز التائهة موجودة في بيتبلهن، اذهب

إلى هناك وستجدها. نزلتُ من الجبل وذهبت إلى البيت وحدثت أبي عما حصل، ذكرت له أن المرأة وعدتني أن أجد الماعز في ذلك المكان، فذهب والدي إلى المكان ووجدها بالفعل هناك. أنا لم أذهب معه، فقد كنت خائفاً، أرعبتني الجنية.

في عبد الكوري يسمون السعلوة والجنية والأرواح الشريرة بكلمة حليلة، فيما يطلقون هذه التسمية في سقطرى على الخالة (الخالة في عبد الكوري تسمى حلّة). والكلمة تطابق معنى الجني الذكر بالسقطرية والذي يشار إليه بمفردة ديدهي ذات الصلة بمفردة ديدو بمعنى العم ووالد الزوجة. وأذكر هنا السؤال الذي طرحه عليّ البروفيسور الروسي الراحل إيغور دياكونوف بهذا الخصوص: ألا يوحي ذلك بأن الجن، عموماً، يمكن اعتبارهم بمثابة «أنسباء كأنما تربطهم علاقة مصاهرة وعمومة مع الجنس البشري؟» (دياكونوف، 1982: 209). ومن ثم فالجنيات نسيبات أو عمّات للبشر؟

في الفولكلور السقطري أساطير تتحدث عن شخصيات أنثوية شريرة أكثر بشاعة من الجنيات العاديات، كالعجوز إيتهميتن التي تأكل كل الأحياء. وقد تحدثت عنها في دراساتي المنشورة سابقاً (ناومكين، 1977. ناومكين 1985). وإلى جانبها ثمة شخصيات نسائية طيبة أيضاً. السقاطرة يعترفون بعقل المرأة وفطنتها وشطارتها وإخلاصها وبسالتها، كل هذه الخصال تلازم الشخوص الأنثوية في العديد من الأساطير السقطرية، وأخص بالذكر منها، على سبيل المثال، بطلة إحدى الأساطير التي سجلتها أثناء رحلتي إلى الجزيرة في العام 1974 نقلاً عن المرحوم الشيخ عامر أحمد دعرهي، إلا أنني أبدأ على أي حال بأسطورة الجنية المرعبة إيتهميتن.

أسطورة الفتى والعجوز دي إيتهميتن

«كان يا ما كان. كانت ببلدة روكب، في قديم الزمان، عجوز اسمها دي إيتهميتن تأكل البشر والبقر وتلتهم كل ما هب ودب، فلا ينجو من أنيابها الحادة كل من تصادفه في الطريق. ترك الناس ديارهم في هذه الأماكن شيئاً فشيئاً ومضوا إلى أعماق الجزيرة خوفاً من آكلة لحوم البشر الشريرة تلك. ولم يبق أحد من بني آدم أو الحيوانات في هذه الأنحاء، فبعضهم التهمته العجوز اللعينة، وبعضهم نزح إلى أماكن أخرى.

وكان لأحد أهالي مرو ابن لديه بقرة وثور، فجاء غريب ونحرهما، لكنه وهب صاحبهما

مرعى معشوشباً على مقربة من روكب، فيوهدة بين الجبال. وفي المقابل أعطى الأب ابنه ست بقرات، وصار الفتى يرعاها هناك، ولكنه سرعان ما هرع إلى والده مذعوراً:

- علمتُ أن العجوز الرهيبة إيتهميتن التي تأكل لحوم البشر موجودة في روكب قرب فرمهم، وهي تلتهم كل من يصادفها في الطريق. يخيل إليّ أنني سمعت زئيرها اليوم من بعيد.

فقال الأب لابنه:

اذهب إلى ديحيكو، وسينصحك بشيء ما.

ومضى الفتى إلى العراف ديحيكو، وحدثه بما سمع، وطلب النصح منه، فقال له ذاك:

- غداً ستلد بقرتك الشقراء وليدها، خذ البقرة الأخرى بيان، واجعل الوليد يرضع لبنها ولبن أمه الشقراء معاً، لينمو صحيح البدن ويتحول إلى ثور قوي، حك قرنيه يومياً ليكونا طويلين حادين، وليرضع البقرتين كثيراً إلى أن ينمو ويترعرع. وعندما يكبر اذهب إلى مجدوب التي في فرمهم واقطع عدة أغصان من شجرة سيرهن دي برهيتن واصعد على السطح واجلس هناك محتمياً بتلك الأغصان. لا تنهض من مكانك كائناً من كان الذي يأتي إليك، وإذا قال لك أحد ما كلمة أو عبارة كررها قبل أن تجيب.

عند الفجر حل وثاق الثور وأطلقه على ذاك الذي يأتي إليك في تلك الساعة.

عندما يجهز عليه الثور انظر إلى مكان القتيل، فإذا ظهر فيه كائن حي آخر اقتله.

البقرة الشقراء ولدت، فجعل الفتى العجل الصغير يرضع البقرتين، وسرعان ما تحول إلى ثور قوي. اقتاد الفتى الثور إلى المكان المطلوب وجلس على السطح وراء حزمة الأغصان التي جلبها إلى هناك. واستعد لقضاء المساء والليل.

فجأة جاءت فتاة لا يدري من أين، واقتربت منه وأنشدت بصوت غنائي معسول:

يا إلهي! نحن وإياك في ريعان الصبا، وحدنا هنا، تعال نعانق بعضنا.

فأجاب الفتى:

يا إلهي! نحن وإياك في ريعان الصبا، وحدنا هنا، تعال نعانق بعضنا.

ولم يتزحزح من مكانه. فقالت الفتاة:

إنزل يا أخي، أنا متشوقة للقائك، فلنلتق بعون الله.

أنا مريض، لا أقوى على النزول.

أخذت الفتاة تحوم حول البيت وتحاول دخوله بكل السبل، من جهة البحر ومن جهة

الجبل، ولكن دون جدوى. ثم راحت تقنع الفتى بأن ينزل لتحت، وهو يمانع، حتى مضت دون أن تحصل على مبتغاها.

وفجأة ظهرت امرأة أخذت تغني:

اهٓ، نحن معاً وحدنا، تعال نعانق بعضنا.

فأجابها الفتى:

اهٓ، نحن معاً وحدنا، تعال نعانق بعضنا.

فقالت له:

انزل لتحت، واحلب لي لبناً.

لن أنزل.

ظلت تلح على الفتى، وهو يمانع، حتى مضت بخفي حنين، ولم يأت أحد بعدها حتى حلول الظلام. حالما حل الليل هبت ريح عاصفة، ظلت تصول وتجول في المكان أمداً طويلاً.

وفجأة ظهرت عجوز متقدمة في السن، واقتربت من الفتى وزعقت بصوت مرعب رهيب:

أنا إيتهميتن، أهيّج العواصف والرياح، سأتعشى الليلة عندك، سأتعشى في هذا المنزل.

زعقت العجوز وأضافت متسائلة:

ألن تنزل وتفتح الباب للعجوز؟ ألن تسمح لي أن أتدفأ في الداخل؟

فأجابها الفتى:

- كلا. لن أفتح لك الباب. أنا نفسي جالس على السطح طول الليل أرتجف من البرد حتى تجمد بدني.

حاولت العجوز أن تدخل المنزل بكل السبل، دون جدوى، فعادت إلى الباب وزعقت من جديد:

أنا إيتهميتن، تلك التي تهيّج العواصف والرياح. أنا خالتك، افتح الباب يا ابن أختي!

لاذ الفتى بالصمت ولم ينبس ببنت شفة، فلم تتراجع العجوز، وظلت تلحف في الطلب كي يفتح لها الباب، وهو مصر أن لا يفتحه.

وعندها أنشدت الجنية بصوت أبح:

ما أكثر أبقارك! شقراء ومبقعة، يا لها من أبقار!

فأجاب الفتى:

سأطعمك لهباً وحطباً، لا لبناً ورطباً. سأرميك بالفحم المستعر، ولن تذوقي طعم لبن

الأبقار.

وواصلت العجوز الغناء:

ما أكثر معزك! كلها مليحة، الواحدة أجمل من الأخرى.

وأجاب الفتى:

لن تذوقي طعم لبن المعز. سأرش على وجهك سم الأفاعي كي تفقدي البصر، يا لعينة.

وواصلت العجوز الغناء:

ما أكثر أغنامك! كلها بيضاء، جميلة الآذان.

وأجاب الفتى:

لن تذوقي طعم لحم الغنم. سألقمك الصبر المر ليغرز أشواكه في حنجرتك.

وواصلت العجوز الغناء:

ما أكثر إخوتك بثيابهم الأنيقة! الواحد أجمل من الآخر.

وأجاب الفتى:

لن تملئي بطنك الخاوي بإخواني، بل بماء البحر المالح حتى تسقطي في هاوية الجحيم.

انبلج الفجر، وهما يتجاذبان أطراف حديث لا فرحة فيه ولا مسرة. نفد صبر العجوز الشريرة، فقفزت من على السياج إلى داخل الحوش، فيما حل الفتى عقدة حبل الثور.

استدار الثور وهرع صوب العجوز. غرز قرنه الحاد في بطنها حتى خرج طرفه من ظهرها، إلا أنها تمكنت أن تعض الثور بأنيابها الصفراء. ارتعش الاثنان واندفعا كلاهما عبر السياج وهويا على الأرض في الجانب الآخر. خرج الفتى من المنزل فرأى العجوز ميتة، فيما الثور لا يزال يتنفس. نحر الثور لأنه لم يمت بيد العجوز الشريرة، فلا يعتبر لحمه محرماً.

تلفت الفتى حواليه، فرأى نعجة سوداء جميلة، التقط حجراً حاداً من على الأرض ورمى به النعجة بكل ما لديه من قوة، فأصابها في صدرها ، فسقطت ميتة، وبذلك حلت نهاية العجوز إيتهميتن»

تصور الأساطير والحكايات العجوز الشمطاء إيتهميتن كائناً بشعاً بأنياب حادة مخيفة. يقول كبار السن من أهالي الجبال إنهم يعرفون المكان الذي دفنت فيه ويؤكدون أن طول قبرها بطول قبرين بشريين. الأسطورة تحرّم أكل لحوم الماشية إذا قتلتها الجنية العجوز. لقد طوى النسيان هذه الأسطورة تحديداً في الفترة الأخيرة، إلا أن موضوع أكل لحوم

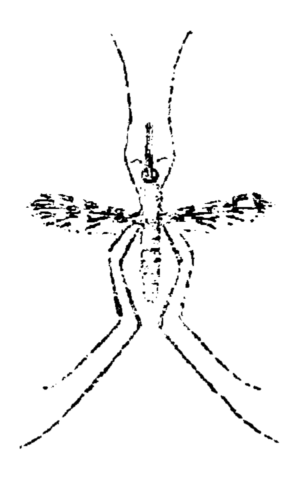
البشر من قبل الجنية الشريرة ظل قائماً، مع فارق واحد هو إطلاق توصيف «الجنية» على أية شخصية تظهر في هذا النوع من الأساطير والخرافات.

وثمة أساطير منتشرة عن الأفعوان العملاق الذي يلتهم البشر، ومما يثير العجب أن الأسطورة التي سجلناها نحن في سقطرى عن ذلك الأفعوان تكرر الكثير من تفاصيل أسطورة الثعبان المعروفة في الشرق الأوسط. وحتى الآن يظهر في الجزيرة بين الحين والآخر من يقول إنه رأى في مكان ما ثعباناً هائلاً يبتلع المعز والنعاج. في موسم 1987 سمعنا حكاية من هذا النوع حدثنا بها شخص من رأس مومي، وأقسم بأنه رأى بنفسه ثعباناً هائلاً، على الرغم من أن الجميع يعرفون بعدم وجود أفاع بهذا الحجم في سقطرى.

على أي حال، المعروف أن في الجزيرة نوعين فقط من الأفاعي، ربما غير السامة، التي يبلغ طولها مائة وخمسين سنتمتراً في أبعد تقدير، وهما Hemerophis socotrae و Ditypophis vivax . لكنّ كاي فان دام الذي وصل إلى سقطرى عام 1999 ضمن البعثة الطبيعية المتعددة الاختصاصات برعاية حديقة النبات الملوكية في أدنبرة شاهد، ومرافقيه في جبال حجهر، أفعى كبيرة، مقلّمة بالأسود والأصفر، يناهز طولها الثلاثة أمتار. وقد تملصت الأفعى زاحفة بسرعة، ولا يزال العلماء حتى اليوم لا يتذكرون صنف الأفاعي الذي يمكن أن تنسب إليه.

واستناداً إلى هذه الحادثة لا يعتبر فان دام أساطير السقاطرة من نسج الخيال (Cheung and DeVantier, 2006: 133 - 132). ونعيد إلى الأذهان هنا أن الليفتينانت الإنجليزي جيمس ولستد الذي تسلق جبال حجهر عام 1830 ذكر أنه كاد يتعرض للسع أفعى سامة كبيرة يسميها الأهالي «جاوة» ويقولون إن سمها يقود إلى الموت بعد بضع ساعات(Wellsted, 1838: 315) .

في الموروث الثقافي الشعبي السقطري حكايات عن الجن الأخيار والأرواح الطيبة والعرافين الصالحين. في أساطير إيتهميتن يرد ذكر عراف اسمه ديحيكو الذي يقال إنه «كان سقطرياً بسيطاً»، بمعنى «شخصية ملحمية»، ولكنْ من لحم ودم، وقد توفي إلا أن البعض ممن تحدثنا إليهم يسمونه «الملاك الطاهر». ويقال إنه عندما كان يسير في الجبال يضرب الجلمود بعصاه فتنفتح مغارة أو تنبجس عين ماء فوارة. وكان يوفر للجبليين المراعي المعشوشبة والينابيع الزاخرة. طبيعي أن الإيمان بقدرة ديحيكو الخارقة يتعارض مع تعاليم التوحيد الإسلامي، ولذا يعتبر من بقايا المعتقدات القديمة.



(شكل رقم 9 ـ 1)

في أدناه إحدى أساطير ديحيكو أملاها علينا الشيخ عامر أحمد. وهي تجسد أيضاً صورة المرأة الطيبة التي أشرت إليها أعلاه.

حكاية ديحيكو والمرأة الطيبة القلب

«كان في قديم الزمان، في إحدى قرى هذا المكان، نبع صغير ماؤه الذي يتجمع طول النهار لا يكاد يملأ قربة من جلد ماعز، ولا يغترف ماءه إلا الشاطر الذي ينهض من النوم مع بزوغ الفجر ويأتي إلى النبع قبل الآخرين. أما الذين يأتون بعده فلا نصيب لهم في قطرة من الماء. كان أهالي القرية يتشاجرون بسبب ذلك، ورغم شجارهم يتكرر الحال في اليوم التالي كما كان، فخلال الليل يتجمع في النبع قليل من الماء، ويأتي أحدهم فيغترفه كله، دون أن يترك لغيره قطرة.

ذات مرة جاءت امرأة فقيرة إلى النبع قبل غيرها من الناس، واغترفت ماءه في قربتها وهمّت بالانصراف على عجل كيلا يراها أحد من الجيران. وما إن خطت خطوتها الأولى للانصراف حتى شاهدت رجلاً يقتاد حماراً. كان القادم هو ديحيكو بقضه وقضيضه. اقترب من المرأة وقال:

اسقيني يا بنت الحلال.

القربة تكفي المرأة لأسبوع كامل. فهي مقترة في استهلاك الماء، مثلما في استهلاك سمن البقر. فأجابته:

من أين لي بالماء فيما بعد إذا سقيتك؟

لكن ديحيكو ألح في الرجاء:

أكاد أموت عطشاً. اسقيني يا بنت الحلال.

رق قلب المرأة، ففتحت قربتها. شرب منها ديحيكو ثم قال:

أعطيني ماءً لأغتسل.

فأجابت المرأة:

الماء نادر جداً عندنا. فكيف يجوز الاغتسال به؟

فكرر ديحيكو:

أعطيني لأغتسل.

فصبت له المرأة ليغتسل.

فقال بعد أن اغتسل:

اسقي حماري.

فتساءلت المرأة:

وماذا يبقى لي من الماء إذا سقيت حمارك؟

وأصر ديحيكو مكرراً الطلب:

اسقي حماري.

طيب، خذ القربة واسقه بنفسك - قالت المرأة متأوهة.

ارتوى الحمار، فقال ديحيكو:

أريد أن أغسل حماري.

اغسله.

عندما فرغ ديحيكو من غسل حماره لم يبق في القربة شيء. وفهم الرجل طبعاً أن هذه المرأة نبيلة طيبة القلب، أعطته كل ما اغترفته من ماء النبع الناشف، ولم تعد أمامها فرصة للحصول على قطرة واحدة . فرأى أن يكافئها على طيبتها. فقال:

اطلبي مني ما تشائين وسأعطيك كل ما تطلبين.

لن أطلب شيئاً، وسأرضى بما تعطيني إياه بنفسك.

فقال:

- أهبك نبع مصبيحو. وكل ما ينمو حوله ملك لك. تعالي إلى هنا في الفجر قبل أن يأتي الآخرون. وعندما يأتون ويدهشون قولي لهم: «كل هذا ظهر بمشيئتي أنا، وكله لك وحدك».

لم تصدق المرأة ما قال ديحيكو، لكنها تصرفت بناءً على أمره. جاءت في الفجر فرأت الماء الرقراق ينبجس من النبع، وحوله نخلات غاية في الجمال، لم تر مثلها في حياتها، وعلى النخلات عذوق رطب ريان. فقالت المرأة آنذاك:

الحمد لله على نعمته.

اجتمع أهالي القرية ولم يصدقوا ما تراه العين.

شربوا حتى ارتووا، واغترفوا حتى اكتفوا، فالماء وفير، بلا حدود ولا معايير.

وأخذوا يسمون الينبوع «نبع مصبيحو» تكريماً لهذه المرأة الطيبة التي راحت ترعى نخيلها، فيما بات ماء النبع في متناول الجميع. الماء فيه لا ينضب أبداً، وهو يروي جذور النخلات حوله ليل نهار. أحفاد هذه المرأة زرعوا فسائل تلك النخيل في أماكن أخرى من الجزيرة. ولا يزال النبع في هذه القرية ينبجس من تحت الأرض ماءً عذباً رقراقاً تنمو حوله نخلات باسقات فيحاء».

فيما يخص القابليات السحرية للمرأة عموماً، والمرأة العادية التي لا تتميز عن غيرها بشيء، كان السقاطرة يعتقدون بأنها تستطيع، على سبيل تناسخ الأرواح، أن تتحول إلى كائن آخر، وأن تقطع بلمح البصر مسافات هائلة، وتبعث الأمراض وتسلط الموت على الماشية والبشر. وكانوا يطلقون على مثل هذه النساء تسمية «زاهرة» بمعنى الساحرة أو العفريتة، ويرجمونهن وينتقمون منهن شر انتقام. وحتى ثورة 1967 في اليمن كانت تجري في جزيرة سقطرى محاكمة الساحرات على نحو مماثل للمحاكمات الاعتباطية الجائرة في أوروبا في العصور المظلمة.

كتب الليفتينانت البريطاني إ. سنيل عن آخر محاكمات للساحرات شهدها في سقطرى عام 1955: «كما يحصل عادة في الأماكن التي تشكل فيها الساحرات جزءاً معترفاً به من السكان يمكن أن توجه تهمة السحر والشعوذة إلى الشخص بدافع من الحقد أو الثأر أو النفور لا غير . لهذه الأسباب يحاكمون جوراً ما بين 15 و 20 شخصاً في السنة. والرأي السائد هنا أن الرجال أيضاً يمكن أن يمارسوا السحر، شأنهم شأن النساء، ولكن لم يطرق سمعي أن رجلاً من هؤلاء مَثل أمام المحكمة يوماً ما. تعرض الاتهامات على شيوخ القبائل

أو عمدات البلدات أو ترفع إلى السلطان نفسه، فيما تجري كل المحاكمات في حديبو عاصمة الجزيرة.

بعد أن يحضروا المتهمة مخفورة إلى حديبو يدرس السلطان، أو من ينوب عنه في غيابه، أسباب الاتهام والأدلة الثبوتية بكل اهتمام، وكذلك طباع المدعي والمدعى عليها إن أمكن. ثم يعهد إلى شخص يختاره خصيصاً مهمة إجراء المحاكمة أو الاختبار إذا اعتبر الدعوى وجيهة أو خطيرة.

هذا «الخبير» (أو المختبِر، أو المشرف، ولا أدري كيف أسميه) يتم اختياره من بين نصف دزينة من رجال آخرين يعتبرون من ذوي الخبرة. وقد تأكد لي أن هؤلاء ليسوا حتماً خبراء «أباً عن جد»، رغم وجود أشخاص من هذا النوع بينهم. لكن الواحد منهم يجب أن يتحلى من كل بد بقابلية «طرد الأرواح الشريرة من صدور المجانين والمسكونين». ويكون عادة حكيماً من المطببين والعرافين المحللين في الوقت ذاته، ويتقاضى «الخبير» أو «المشرف» 40 روبية مقابل عمله. في البداية يحضرونه أمام السلطان ليؤدي القسم على القرآن، ويعلن: 1) أنه مسلم موثوق، و 2) أنه ليس ساحراً، و 3) أنه لن يقترف خطأ اثناء الاختبار، و 4) أنه سيؤدي عمله بكل دقة ونزاهة. هذا القسم لا يطابق كما هو واضح التعاليم الإسلامية، وهو مؤشر آخر على عدم استقامة أهالي الجزيرة في أصول الدين.

ثم يستدعون المتهمة، ويسألونها هل تعترف بذنبها في ممارسة السحر أم لا؟ وهي عموماً يمكن أن تعترف بذنبها في أية لحظة من المرافعة، فتحكم على نفسها بنفسها، ويطلق سراحها. أما إذا لم تعترف فتحال إلى المشرف، وهو يُعدّها للاختبار في فجر اليوم التالي بحضور أهالي المدينة جميعاً أو كل الراغبين في الحضور. في الليل يشد المشرف ومعاونوه وثاق المتهمة بحبل متين على اليدين والقدمين، ثم يضعون كيسين من الأحجار وزن كل منهما خمس أوقيات، أحدهما على صدرها والآخر على خصرها. ثم يشدون طرف الحبل الطويل حول الخصر، وعند ذاك تعتبر التجهيزات منتهية.

وفي الفجر يُركبون المتهمة زورقاً يوصلها إلى مكان معين عند الساحل، على مسافة ميل شرقي حديبو. وهناك تنتقل إلى زورق آخر يأخذها المشرف على الاختبار وأعوانه فيه إلى عرض البحر، حتى يصلوا موضعاً عمقه قرابة 15 قدماً. قاع البحر في ذلك الموضع معتدل الانحدار تماماً، ما يجعلهم يبتعدون قرابة نصف ميل عن الساحل.

ويبدأ الاختبار، يرمون المتهمة من الزورق إلى الماء، ويرخون نهاية الحبل الطويل الملتف

حول خصرها. فإذا غاصت المرأة وهوت صوب القاع رأساً يسحبونها في الحال إلى الزورق، ويفحصونها ليتأكدوا هل لصقت بها حبات رمل من تحت أم لا؟ فإذا اكتشفوا آثار الرمل يكررون رمي المرأة إلى القاع مرتين أخريين. وطالما يسرع بدن المتهمة إلى القاع فذلك يعني أنها اجتازت الاختبار بنجاح، ولذا تُعلن براءتها. أما إذا كانت ساحرة مسكونة حقاً فإنها حتماً ستطفو على سطح البحر بشكل عمودي، ويبقى رأسها وردفاها ناشفين، فتعوم ببطء نحو الشاطئ إلى أن تبلغ المضحل.

عندما يثبت الاختبار ذنب المتهمة على هذا النحو تمثل مرة أخرى أمام السلطان، لتستمع إلى قرار الحكم. في الأزمان القديمة كانت الأحكام على الساحرات تصدر دوماً بالإعدام رمياً من فوق صخرة الرأس غربي حديبو، إلا أن أحكام هذا الزمان هي النفي. فالمحكومة تنقل في الحال مخفورة إلى قلنسية، وهي ميناء في غرب الجزيرة كثيراً ما تعرّج عليه الزوارق. ومن هناك تركب أول قارب يغادر الميناء بصرف النظر عن وجهته. تكاليف النقل يدفعها أقرباء المحكومة أو تقتطع من أموالها الشخصية، ويسمح لها أن تأخذ معها أية أموال منقولة تشاء، إلا أن أطفالها يبقون في الجزيرة.

في نوفمبر من عام 1955 جرت محاكمة ثلاث نساء، إحداهن عجوز في نحو السبعين، وقد اعترفت بأنها ساحرة وهي على الساحل قبل الاختبار، وبرئت ساحتها بسبب هذا الاعتراف وأعفيت من «الاستحمام». أما الأخريتان فقد سبحتا «عمودياً» حتى الساحل وثبتت التهمة عليهما.

وعلى حد علمي لا تتخذ أية إجراءات أو عقوبات بحق الشهود أو المدعين الذين يثبت الاختبار زيف ادعائهم وعدم صحة الاتهامات التي يوجهونها للنساء، والسبب في ذلك أنهم في حقيقة الأمر ليسوا مدعين، بل يعتبرون مجرد «مخبرين عن أمور تثير الريبة والشكوك». أما بشأن الاختبار الفعلي فمن الصعب الجزم بما إذا كان المشرف عليه قد خبأ تحت ثياب المتهمة طوق نجاة أم لا، فإن كل تحضيرات الاختبار سرية، ومن المحتمل جداً أنه كان يدس تحت ثيابها وسيلة عوم إذا كان واثقاً من براءتها.

على أي حال هذه الممارسات لا تزال موجودة في الجزيرة، وأنا على يقين بأن أولئك التعيسات اللواتي جُرّمنَ يعتقدن، رغم ما يتعرضن له من أذى، أنهن ساحرات بالفعل، وأن العقوبة بحقهن ليست جائرة.

وأحياناً تصادف مواقف صعبة ومحرجة، فالموظفون القنصليون الطيبون يعيدون

أحياناً تلك السقطرية المنفية إلى الجزيرة من جديد، وهذا التصرف يشكل إهانة لمشاعر السلطان الذي لا يتمتع بأية سلطة دولية ليحول دونه» (Snell, 1955).

ونحن نعتقد أن الأمر قد التبس على الليفتينانت سنيل في بعض النقاط، فهو قليل الاطلاع مثلاً على موضوع «العرافين» في سقطرى، ولذا نحاول هنا أن نضيف بعض التفاصيل إلى حديثه الذي يتوافق على العموم مع موادنا العلمية.

في السبعينيات تحدثت في قلنسية إلى أحد الأهالي، وكان قد تولى في زمن ما مهام «المدعي» في محاكمة من هذا النوع. قال لي محمد إن نعاجه نفقت ذات يوم الواحدة تلو الأخرى، فاستعان بعراف حكيم يمارس طرد الأرواح الشريرة من الأشخاص المسكونين، ويشفي الناس من الأمراض بالكي أو بالتعاويذ، ويزيل مفعول السحر، ويعثر على آثار الشخص التائه أو الحيوان الضائع، وما إلى ذلك من المعجزات والكرامات. فقال العراف ماكولي لمحمد إن جارته هي سبب مصائبه، فهي التي تجلب الأمراض وتنهال بها على ماشيته. في البداية أراد محمد أن ينتقم بنفسه من الساحرة بالوسيلة التي كانت متبعة سابقاً عند السقاطرة، وهي التربص بها ورميها بحجر في الصدغ، إلا أنه ارتعب عندما تصور كيف ستكون النتيجة فيما لو أخفق في قتلها، فهي ستثأر منه حتماً، وعندها قدم شكوى إلى السلطان.

كان السلطان يحاكم المتهمين بالسحر عادة في موضع يسمى «المقعد»، يقع على ممر حيبق الجبلي بين حديبو وقاضب، وهناك يجتمع ممثلو كل القبائل، فيصدر الحكم بحضورهم. وقد حوكمت جارة محمد بتهمة الشعوذة (شتبيري)، فنقلت إلى قرية سرهم (التي يتحدث عنها سنيل) شرقي حديبو، وتم اختبارها هناك. قبل أن يرموها إلى الماء علقوا تحت إبطيها وعلى رجليها أحجاراً تزن 6 أوقيات تقريباً، أي حوالي 5.5 كيلوغرامات. إلا أن المتهمة كانت قويه البدن، على ما يبدو، فنطت من تحت الماء وعامت تنفث الرذاذ من فمها، وكان ذلك كافياً لتجريمها ونفيها من الجزيرة.

أسهب محمد، أثناء حديثه معي، في الثناء على العراف ماكولي الذي كان يقيم قريباً منه، وانتقد السلطات التي منعت هذا العراف من مزاولة عمله، ما جعل الساحرات يمرحن ويسرحن دون عقاب. هكذا قال صاحبنا محمد.

ثم إن العراف يشفي الأمراض بالسحر، وللأسف إننا لم نتمكن حينئذ من دراسة مراسم العلاج بالسحر، فقد كانت هذه الحرفة ممنوعة منعاً باتاً في سقطرى آنذاك.

وقد حدثنا الذين عالجهم الحكيم سابقاً وقالوا إنه كان يقوم بعدة حركات معقدة يتحكم فيها بجسد المريض، كأن يُغطس رأسه في الماء، وينطق بالتعاويذ والأدعية في أثناء ذلك. وأحياناً يجري العلاج غيابياً، فيكفي لهذا الغرض وصف حالة المريض، أو جلب حاجة من حاجياته إلى العراف. وفي الغالب يسأل العراف عن اسم والدة المريض، والعادة أن السقاطرة لا يذكرون أسماء الأمهات أمام الغرباء. ولذا كان الذين يجيبون على أسئلتنا أثناء الاستطلاعات يخالفون هذا المحظور على مضض، كما كان العراف يستخدم في العلاج العقاقير النباتية والبخور.

ولا تقل عن ذلك رسوخاً في ذهنية السقاطرة رواية الذبابة ديعاصر (دي عاسر) التي يخشاها الجبليون خشيتهم من الموت، وهي حشرة لونها ضارب إلى البياض لا تظهر إلا في موسم الأمطار. ويعتبرونها ذبابة فتاكة، لأن الشخص إذا ابتلعها يموت كما يقولون (الذبابة العادية تسمى عندهم بكلمة أخرى: أدبيبو). ويعلم السقاطرة أن ديعاصر لا تضع بيوضاً كسائر الذباب، بل تلد أفراخاً بشكل يرقات تسبب الوفاة في اعتقادهم.

ونضيف إلى ذلك أن إناث جميع أنواع ذباب الخيل أو الأنبار من فصيلة Oestridae البلعومية تلد مباشرة ولا تبيض (شكل رقم 9 - 1). فالبيوض تتفقس في داخل بطونها عن يرقات حية، وتبدأ الذبابة في البحث عن حيوان يستضيف تلك اليرقات في أعلى بلعومه، لتنمو في مادته المخاطية. الذبابة تقذف كل مرة بضع يرقات في البلعوم الأنفي للحيوان مباشرة. واليرقات شديدة التأثر بالجفاف، ولذا تجد منفذاً إلى الأغشية المخاطية قبل أن تتبخر رطوبة الأنف. بعض البهائم تعمد، أثناء هجوم الأنبار، إلى استنشاق الغبار والرمل الناعم لتجفف بلاعيمها وتحمي نفسها من اليرقات بقدر ما، إلا أن اليرقات عندما تكبر تخرج من مناخر البهيمة.

وقد لوحظ في مناطق عديدة هجوم ذباب الخيل على البشر، وفي هذه الحالة تنفث الذبابة يرقاتها في العين عادة، فتزحف اليرقات بسرعة على الأغشية وتجرحها «بمخالبها» وتسبب التهابات الرمد. وقد تتسرب اليرقات إلى القصبات الهوائية، فتسبب أمراضاً أخطر، ولذا يتلثم الجبليون في موسم الأمطار كيلا يدخل الذباب أفواههم. البعض من الطاعنين في السن لا يتلثمون ويقولون متبجحين بجرأتهم: إن خبرتهم الحياتية الطويلة علمتهم سماع أزيز ديعاصر من بعيد، فيسدون أفواههم في الوقت المناسب. فيما يعتقد آخرون أن الوقاية من هذه الذبابة تقتضي الاستعانة بشجرة «صبرا» أو «سبرا» التي لا تجرؤ

ديعاصر على الاقتراب منها، فلا تقتحم أفواه الموجودين جنبها.

إذا دخلت الذبابة الفم على أية حال يتمضمض الجبليون بنقيع ورق «صبرا» أو «تمباكو» (التبغ) وغيره من المواد اللاذعة، فيخلصون تجويف الفم والبلعوم من «اليرقات» الفتاكة. وكان الجبليون آنّذاك يعتبرون قلائد الخرز الأجنبية (المستوردة من أقطار الخليج) وسيلة ناجعة للوقاية من الذباب. فهذه القلائد كأنما تخيف الذباب اللجوج وتنشه عن الإنسان. وأحياناً عندما يتعرضون لخطره، يمسكون خرزات «الحنضب» في أفواههم لبعض الوقت (شكل رقم 9 - 2).



(شكل رقم 9 ـ 2)

إحدى دراساتنا المنشورة سابقاً في روسيا (صدرت في الترجمة العربية عام 1999) تتضمن معالجة للصلة بين التصورات المتعلقة بذبابة ديعاصر وبين أسرار السحر القديم ذات الأصول السامية المشتركة، آنّذاك لم يشهد أحد وفاة إنسان بسبب تلك الذبابة، وقد أشرنا إليها في الفصل الأول من هذا الكتاب.

وآخر ما قرأته عن هذه الذبابة اللعينة الوصف الدقيق الذي كتبه الباحث أحمد بن

سعيد بن خميس الأنبالي، مؤلف «تاريخ جزيرة سقطرى» (الأنبالي www.soqotra.net). وهو يشير بهذا الخصوص إلى دراستنا الآنفة الذكر (في ترجمتها العربية) ويقول إن بعض الأجانب، ومنهم المستشرق فيتالي ناومكين، أنكروا وجود تلك الذبابة. ثم يضيف مستدركاً: «نحن لا نهوّن من جهد فيتالي ناومكين فقد قام بجهد ضخم وتكبد مشقات في دراسته وبحثه عن الحقيقة في ربوع جزيرة سقطرى». وأنا أتساءل هنا: كيف يمكنني، والحال هذه، ان أنكر حقيقة يتحدث عنها الجميع في الجزيرة؟ يخيل إلي أن سوء الفهم الذي وقع فيه الأنبالي يعود إلى عدم دقة الترجمة، والله أعلم. لكن الأكيد أنني تناولت موضوع «ديعاصر» ليس كعالم حشرات متخصص، بل كان ما يعنيني هو انعكاس هذه الظاهرة وتداعياتها في الموروث الثقافي السقطري.

العادات والتقاليد العائلية

يقترن الزواج في سقطرى بعادات وتقاليد وطقوس يعود بعضها إلى بطون التاريخ، فيما ظهر بعضها الآخر بمجيء الإسلام. وقد اختلطت هذه بتلك، فنشأت عن هذا التزاوج سبيكة من تقاليد الزفاف وعاداته تضفي على بدايات الحياة العائلية صبغة أو نكهة خصوصية تميز السقاطرة عن باقي فئات وشرائح السكان في اليمن. وأنا أقصد بالطبع الأوضاع التي كانت سائدة في الفترات الأساسية من عملي في الجزيرة خلال السبعينيات والثمانينيات.

بعد اختيار الخطيبة يبعث العريس وعائلته خطّابة إلى عائلتها. ويتولى دور الخطابة عادة والد العريس أو أخوه الأكبر أو عمه، في حال غياب الوالد وابنه، بصحبة اثنين أو ثلاثة من الأقرباء، يأتون إلى بيت الخطيبة في المساء بعد العشاء. وإذا كان البيت بعيداً يضطرون إلى المبيت فيه، حتى لو لم تنجح مهمتهم. وبعد السؤال عن الصحة والحال وتبادل المجاملات يبلّغ الخطابة والد العروس (أو أخاها الأكبر أو عمها في حال غياب الوالد والأخ) بأنهم جاءوا يطلبون يد البنت زوجةً لفلان الفلاني. الخطابة لا يتوقعون رفضاً دون أسباب، فللرفض سببه الوجيه عادة. ويكتفون بالقول: إذا كانت البنت غير مخطوبة فتعالوا نتفق على المهر وعلى الزفاف، أما إذا كانت مخطوبة فلا مؤاخذة، نستميحكم عذراً، وفي أمان الله.

بعد الموافقة يبدأ الأخذ والرد بشأن المهر، فعلى الرغم من أن القانون حدد آنذاك المبلغ الأقصى لمهر العروس بمائة دينار، إلا أن أحداً لا يتقيد بهذه القاعدة، كل شيء بهذا الخصوص يتوقف على مزايا العروس والعريس، وعلى الملابسات. أهل العروسين يمكن ان يتفقوا على مبلغ 150 أو 200 دينار على سبيل المثال، وإضافة إلى ذلك يتفقون على نوعية وكمية الأطعمة التي توفرها عائلة العريس لحفل الزفاف. وقد يكون ذلك مثلاً كيساً من الرز وكيساً من السكر وعلبة من سمن البقر واللبن وعدداً من علب معجون الطماطم، وبقرة أو بقرتين، أوفي حال عدم توافر الأبقار، 8 . 7 معزات ونعجات. كل ذلك، بما فيه المهر والأطعمة العينية، يسمى عندهم «خسارة»، بمعنى ما تخسره عائلة العريس في مقابل كسب العروس. والعادة أن يتم تسليم النقود رأساً إذا كان الخطابة قد جلبوها معهم، ثم يتم الاتفاق على يوم الزفاف الذي يمكن أن يكون فور انتهاء الاستعدادات اللازمة أو بعد أسبوع أو عشرة أيام أو عشرين يوماً، ومن المستبعد أن يؤجل إلى أبعد من ذلك.

في اليوم الذي يبدأ فيه الاحتفال بالزفاف تنقل العروس منذ الصباح الباكر إلى مكان لا تعود منه قبل الساعة السابعة مساءً. وهي عادة لا تعرف شيئاً عن الموضوع (في غالب الأحيان لا يبلّغونها بالزفاف، وحتى إذا عرفت بنية العريس في الخطوبة فإنها تبقى على غير علم بموعد الزفاف). وتدعو أم البنت جاراتها ليساعدنها في ترتيب المنزل والباحة، فيكنسن المكان وينظفنه ويغسلن الآنية ويفرشن «السفرة» (والحصر والبسط والتكيات حولها على الأرضية)، ويدققن التوابل والبهارات والبن في الهاونات حتى تكون جاهزة لوليمة المساء، وتأتي كل واحدة منهن بهديتها. هذه تأتي بخروف، وتلك بعلبة سمن منزلي، وثالثة بكيس رز، ورابعة بعلبتين أو ثلاث من معجون الطماطم، على قدر المستطاع. جميع أهالي القرية يمدون يد العون.

وفي تلك الأثناء تجري الاستعدادات للزفاف في منزل العريس أيضاً، إعداد الطعام هنا على قدم وساق، ففي هذا المنزل يجتمع كل الذكور من الأقارب والجيران وأبناء القبيلة. وفي نحو الرابعة بعد الظهر تبدأ وليمة الضيافة، كثير من الرجال يأتون لتناول عشاء الزفاف. كل فرد منهم يقدم للعريس على سبيل الهدية مبلغاً يتراوح بين الدينار والعشرة دنانير تبعاً لحالته المالية ولصلة القربى مع العائلة. بعضهم يعيدون ديون زفاف قديم (حسب مبدأ المعاملة بالمثل)، ولا يصار إلى تسجيل مبالغ «الديون» هذه في الدفتر. أما هدايا الذين يدخلون لأول مرة في علاقات من هذا النوع مع صاحب البيت فتسجل للحفظ، كي يتسنى

للعريس لاحقاً أن يعيد الدين حينما تحل مناسبة مماثلة عند الغير.

وينتهي العشاء في ساعتين على وجه التقريب، وبعد ذلك تبدأ في منزل العريس أفراح تسمى «مولد» تستمر حتى الصباح، وفيه ينشط فريق من المنشدين والموسيقيين الذين يسمون «معالمة»، وهم متخصصون في هذا النوع من أغاني الزفاف.

كما تستمر الاستعدادات في منزل العروس، حيث تجتمع كل نساء وبنات الناحية، وفي السادسة والنصف مساءً، على وجه التقريب، تعود الفتاة إلى المنزل، وهنا تنتظرها المفاجأة. عدد من أقربائها الشباب يتربصون بها قرب المنزل، احدهم - أخوها عادة - يباغتها من ركن الشارع ويحتضنها ويحملها إلى البيت على ذراعيه، هكذا تبدأ مراسم «طيرح». وفي البيت تكون قد أعدت على عجل، وكيفما اتفق، زاوية وراء ستارة من شرشف، أو قماش آخر، هي «محضرة». وفيها سرير مفروش «يطرحون» العروس المرتبكة عليه، فتهرع النسوة متدافعات إلى هناك ليبلغن البنت المرتعبة أنها صارت عروساً لفلان الفلاني. فينتحبن جميعاً العروس وضيفاتها، وتنهمر الدموع مدراراً، ثم يحل المرح والحبور محل البكاء والدموع. يساعدهن فيه موسيقيون مكلفون ومدعوون خصيصاً لهذا الغرض، يسمون تيلود. وهم يؤدون أهازيج وأغاني شعبية سقطرية مألوفة تسمى تعودهن، بمصاحبة الصنوج والدفوف والطبول، وذلك خلافاً لابتهالات وأهازيج المولد التي ينشدها المعالمة في بيت العريس.

النسوة يحدثن العروس عن الحياة الزوجية التي تنتظرها، ويعرضن عليها شيئاً من خبرتهن وتجاربهن الشخصية. ثم يدعى الموسيقيون لتناول طعام العشاء، وبعده تستمر الأهازيج والأفراح. كما يأتي لتناول الطعام أولئك الشباب الذين كلفوا «بخطف» العروس و«طرحها» في المحضرة، فقد جاء دورهم ليشبعوا حاجتهم مما لذ وطاب من طعام وشراب. ثم يأتي دور «الباكيات الناحبات» ليتناولن العشاء.

تختار العروس شاهدتين من وصيفاتها لتمضي مع شاهدي العريس إلى القاضي المأذون وتؤكد أمامه أنها قبلت الزواج من فلان الفلاني طوعاً وبمحض إرادتها، فيقر القاضي زواجهما ويسجله. بعد العشاء تعود النساء إلى إنشاد الأغاني السقطرية التي يبدأ كل مقطع منها بالآهات والونّات وينتهي بنغمات مفرحات. وتستمر البهجة والفرحة حتى الرابعة فجراً على وجه التقريب.

في الفجر تتم فعالية مسؤولة أخرى هي «الزفة» التي يتوجه فيها العريس ومرافقوه من

الموسيقيين والأقارب إلى بيت العروس في جو من الرقص والفرح يعمّ الشارع كله. إلا أن العريس يظهر في بيت العروس هذه المرة لأداء مراسم المسح فقط. يدخل عليها الغرفة ويضع على رأسها ورقة نقدية من فئة كبيرة وكأنما يمسح بها شعرها، هذه الفعالية ترمز إلى الخير والرفاه والى استعداد الزوج لتحمل جميع مشاق الحياة الزوجية، وبعد ذلك يغادر الغرفة في الحال عائداً إلى منزله، فتتجدد الأفراح وتستمر حتى شروق الشمس. عندذاك ينصرف المعالمة، لأن مهمتهم تنتهي بعد عملية المسح، كما يعود من النزهة أصدقاء العريس (فهم في حديبو يتجولون عادة على شاطئ البحر في الوقت الذي تجري فيه مراسم المسح). ويتناولون مع العريس طعام الفطور ثم ينصرفون، وبذلك تنتهي المرحلة الأولى من فعاليات الزفاف.

في اليوم التالي بعد الظهر تبدأ مراسم الاحتفال عند العروس، فتجتمع لديها من جديد كل نساء الناحية، من قريباتها وجاراتها وبنات قبيلتها وقريتها، فينشدن الأغاني الشعبية والأهازيج المرحة ويرقصن في الباحة على عزف تيلود، حتى يحل موعد العشاء. وبعد وليمة دسمة تحضرها كل المدعوات تبدأ مراسم كُسبة، الشبيهة بما حصل في بيت العريس في اليوم السابق، حيث تضع كل امرأة في طبق الزفاف مبلغاً معيناً يسجل في دفتر خصوصي من قبل كاتب يكلف بهذه المهمة، هذه النقود مخصصة لوالدي العروس. وبهذه الطريقة تعيد نساء القرية اللواتي لديهن بنات ما عليهن من «ديون» سابقة لأم العروس عندما قدمتها هي (أو أمها) لهن أثناء زفافهن، بل مع إضافة مبلغ زهيد إلى تلك «الديون».

وعندما يحل موعد زفاف بناتهن تعيد العروس الحالية، إذا رزقت ببنت حتى ذلك الحين، مبلغ «الدين» مضافاً إليه ما في وسعها أن تضيف. وستعود إليها هذه الإضافة مع «فائدة مئوية» جديدة حينما يأتي دور ابنتها في الزفاف. وفي حال عدم ميلاد بنات تتولى أم العروس إعادة «الدين». ما يعني أن النساء اللواتي ليس لديهن بنات لا يسهمن في «صندوق التوفير» هذا. الكاتب يسجل كل تلك الحسابات، ثم إن النسوة يحفظن تلك «الديون» عن ظهر قلب، حتى بدون حساباته، على مدى سنين.

أما الجبليون الذين لم يكونوا في السابق يتداولون النقود تقريباً فلا يزالون حتى اليوم يقدمون هذه المساعدات بشكلها العيني، بالمعز والسمن وغيره.

بعد «جمع التبرعات» يعود الحاضرون إلى الرقص والغناء، ويواصلون حتى مغيب الشمس ثم ينصرفون. وبعد ذلك يأتي العريس برفقة أقربائه إلى منزل العروس من

جديد، لكي يسلمها «سبحة» هذه المرة. وإذا رغب أقرباء العريس في طعام العشاء يقدم لهم، وإلا يسقونهم الشاي على كل حال، ويمكن للعريس الآن أن يختلي بعروسه، ليتناولا طعام العشاء وحدهما، ثم يبيت عندها. وبذلك تبدأ ليلة الدخلة التي هي في الحقيقة رمزية تماماً، فالزوج لا يحق له حتى ذلك الحين أن يؤدي واجب الزوجية، مع أنه يرقد جنب زوجته على سرير واحد.

وفي الصباح تأتي القريبات والجارات إلى العروس من جديد، ينظفن البيت ويجهزن الفتاة ويزوّقنها، يمسحن بدنها بزيوت فواحة، ويكحلن عينيها، ويزينّ وجهها بالحناء، ويلبسنها فستاناً جديداً مطرزاً بخيوط فضية. النسوة يتقاطرن من كل الأنحاء ليتفحصن هدايا العريس التي تعرض لهذا الغرض على الجميع. في فترة عملنا في سقطرى أخذ العريسون يهدون عرائسهم حلقات زواج ذهبية وأساور وأقراطاً وشنوفاً وساعات. ويكتفي الأكثر فقراً بثياب جديدة، فستان زاه أو وشاح أو منديل رأس، أما الذين لا يجدون ثمن الهدية عموماً فيستعيرون الحلي وقتياً، وتسمى عندهم «سبحة دي فيني» بمعنى الهدية الاستعراضية. وبعد أن تنعقد ألسنة الجارات من الدهشة تعاد الحلي المستعارة إلى أصحابها.

ويأتي اليوم الثالث، وفيه يتمتع العريس بكامل حقوق الزوجية، بعد الليلة الثانية التي هي عبارة عن امتحان للرجل. قال لنا عريس حضرنا حفل زفافه: في الليلة الثانية قبلّت زوجتي لا أكثر. كان عليّ ان أصبر، وإلا فأي رجل أنا إنّ لم أضبط نفسي؟

العروسان يقرران موعد انتقال الزوجة إلى منزل زوجها، يمكنها أن تنتقل رأساً، في اليوم الذي يلي ليلة الزواج. أو بعد يومين من ذلك أو أسبوع، أو شهر في أبعد تقدير، في حال وجود عراقيل أو صعوبات.

تنتقل العروس إلى منزل زوجها في زفة أخرى يسير فيها الأقرباء وصديقات العروس ببطء راقصين منشدين على قرع الدفوف. ووراء بوابة السياج يتربص أحد إخوة العريس أو أصدقائه ممسكاً بجدي (أو حمل). وحالما يقترب العروسان من العتبة يذبح الجدي وتسيل دماؤه. ومع سفك دم الضحية ينبغي أن تبتعد عن الزوجين كل الشرور والمنغصات. فتجتاز العروس العتبة المدماة وتدخل البيت الذي ينتظر أن يكون من الآن فصاعداً بيتها إلى الأبد. وتقام من جديد مأدبة عشاء تسهم فيها النسوة اللواتي بذلن جهوداً مشكورة في الرقص والغناء، وكذلك الرجال الذين بذلوا جهداً لا أقل منهن في طهي الطعام وإعداد

السُفرة بمنزل العريس.

ويأتي دور نساء جيران العريس ليلقين نظرة على العروس الشابة، ويسقيهن الساقي شراباً سكرياً بارداً، فيمضين أدراجهن بعد قليل. وإذا كان منزل العريس بعيداً عن منزل العروس فإن أمها تبيت الليل فيه، فيما يغادر الباقون المكان، وإذا لم تكن أم العروس على قيد الحياة تدير هذه الفعاليات أختها الكبرى أو خالتها أو غيرهما شرط أن تكون من أقارب الأم. وإذا كان المنزلان متقاربين، كما يصادف كثيراً، فإن أم العروس تعود إلى منزلها وتجلس مع الأقرباء هناك يخوضون في تفاصيل الأحداث حتى ما بعد منتصف الليل.

وإذا كانت الملابسات تحول، بعض الوقت، دون نقل الزوجة إلى منزل الزوج فيمكنه أن يزورها في بيت والديها ويبقى للمبيت، لكنه لا ينتقل للإقامة هناك.

أهل العروس ينفقون مهرها كما يحلو لهم، يشترون ببعض منه عادة هدايا لابنتهم، وأحياناً يتم الاتفاق على ذلك مسبقاً. ويصادف أن يستلم أهل العروس من أهل العريس جزءاً من مبلغ المهر على أن يشتري الزوج بالجزء الباقي هدايا وحاجيات لزوجته. وهناك حالات يصر فيها العريس على إنفاق جزء من المهر بالشكل الذي يرتئيه. وقد سبق أن ذكرنا أن سقطرى شهدت في الماضي تقليداً ينص على أن يأخذ الزوج عند الطلاق المهر الذي دفعه في حينه، أو جزءاً منه، إلا أن المبلغ كان زهيداً جداً في تلك الأزمان، والزوج بالطبع لا يستعيد الجزء العيني من المهر، بل يتركه لمطلقته. ومما يخفف من حسرة المطلقة مبلغ الذمة الذي تكون قد استلمته من زوجها بعد الطلاق أو من أهله في حال وفاته. وفي الحال الحاضر يتم تحديد مبلغ الذمة في المحكمة، وهو عادة خمسة دنانير. وإذا تخلف أهل الزوج عن تسديد ما بذمته في حال وفاته فإن الزوجة يمكن أن تهددهم بأنها لن تدفنه، أو لن تقيم الفاتحة عليه. ما لم يسددوا مبلغ الذمة.

توصيفنا هذا لمراسم الزفاف يلازم الزواج بين أبناء القرية أو البلدة الواحدة أو القرى المتجاورة، أما في الحالات الأخرى فإن تلك المراسيم تتخذ أشكالاً مغايرة بعض الشيء، لكن جوهرها يبقى ذاته.

العروسان ينبغي أن يأويا إلى فراش واحد على سرير واحد، فالزوجة تعتبر رغبة الزوج في النوم على انفراد إهانة لها، وهذا يوحي في اعتقاد السقاطرة بأن الزوج لا يريد الوصال مع زوجته.

الأولاد في سن تقارب العاشرة ينامون في غرفة الوالدين نفسها، ثم يتم فصلهم حتماً، فينامون إما في غرفة أخرى وإما في الباحة.

حدثنا سقاطرة من وسط الجزيرة، ممن شاركوا في استطلاعات الرأي، وليس بإمكاننا أن نتأكد من صحة هذه المعلومات طبعاً، أن الناس تعودوا على الوصال كل يوم خميس ليؤدوا واجب الزوجية. والمرأة تستعد لهذا اليوم خير استعداد، تدهن جسدها بالطيب وتتعطر وتعدل تسريحة شعرها وترتدي أجمل ثيابها، وإذا لم يكن لتلك الجهود تأثير على زوجها فإنها تطالبه «بتعويض» قدره خمسة دنانير، هكذا قالوا، ولعلهم يمزحون.

الأعياد والشعائر الدينية

الوساوس والخرافات التي تعود بجذورها إلى الجاهلية، ومخلفات المعتقدات والعبادات الوثنية القديمة، والأعراف والتقاليد العادية تشابكت عند السقاطرة وتداخلت مع أصول الشريعة الإسلامية، كما أسلفنا، على نحو فيه كثير من الغرابة، وقد تجلى ذلك بوضوح في الحياة المعيشية للأهالي وفي شعائرهم الدينية وأفراحهم وأعيادهم.

كان الجبليون يصومون رمضان في السابق أيضاً، ولكن ليس كما يصومه إخوتهم من أبناء الوديان والمناطق الساحلية. وحتى في الحال الحاضر، حيث غدوا أكثر تديناً، ظل موقفهم من الصيام أكثر انفتاحاً من موقف باقي أهالي الجزيرة، وسائر المسلمين، الذين يعتبرون هذا الشهر شهر عبادة وأفراح متواصلة يكللها عيد الفطر.

في اللغة السقطرية كلمتان خصوصيتان لغرة رمضان وخاتمته: مرحض وجبّانة. والجبليون يحددون حلول هذا الشهر برؤية الهلال.

السقاطرة لم يتعودوا في رمضان، كالأغلبية الساحقة من المسلمين، على الولائم المرحة الصاخبة التي تحل بحلول الظلام، ولا على التزاور بين الناس حتى السحور، والسبب في ذلك هو إمكانياتهم المادية المتواضعة، وخصوصاً في الماضي، إذا قارناها بإمكانيات أهل اليمن وحضرموت مثلاً. أما إنشاد الأغاني ليلاً (رمسة) فهو يجري عند أهالي المناطق الساحلية من سقطرى في الأشهر الأخرى لا أقل مما في شهر رمضان.

إلا أنهم جميعاً يحتفلون بعيد الفطر، فأول أيام عيد الفطر يقضيه الناس عادة في بيوتهم: ينحرون الخراف ويأكلون ما استطاعوا ويهنئ بعضهم بعضاً ويوزعون «العيدية»

والحلوى على الأطفال، وتتطيب النساء بماء الورد والعطور ويرتدين ثياب العيد ويُخرجن الحلي من الصناديق. وفي اليوم الثاني تزور العوائل عادة أقرباء الزوجات (ما دامت تقيم هذه العوائل فيعشيرة الزوج). وإذا لم يزر الزوج والديه فذلك يعني أنه يبيّت غيظاً عليهما.

وفيهذا اليوم يزور السقاطرة أصدقاءهم وجيرانهم وأبناء قبيلتهم، والعادة أن يأخذوا معهم طعاماً عندما يتزاورون. الرجال يقتاتون بمعزل عن النساء، ويتجاذبون أطراف الحديث طويلاً، فوقت الزيارات غير محدود. أبواب جميع الدور مفتوحة أمام أي ضيف، وهذا عندهم من طبيعة الأشياء، حتى في العاصمة حديبو يحق لأي شخص أن يدخل أي بيت ويلقى حسن الضيافة: يقدمون له الطعام والشراب من شاي أو غيره، ويرشون عليه ماء الورد أو يستقبلونه بالبخور.

كما يحتفل السقاطرة بميلاد الأطفال. كانت المرأة في السابق تلد بنفسها عادة، من دون قابلة، تجلس القرفصاء في كوخ مخصص للوضع وتمسك بحبل سميك يتدلى من السقف، وبعد أسبوع من الميلاد يعتبر الطفل قد اجتاز درب الآلام، فتجري له مراسيم قص الشعر على اعتبارها تطهيراً من الأوساخ.

ويحيي الوالدان حفل «ضيافة» لمناسبة ميلاد صغيرهما، ويجلب كلٌّ من الضيوف، على سبيل الهدية، مبلغاً زهيداً من المال يخصص لشراء ما يحتاجه الطفل، على الرغم من أن الطفل فيظروف الجزيرة لا يحتاج فيالواقع إلى شيء تقريباً. ولذا يغطي هذا المبلغ بعض تكاليف وليمة الضيافة. وكما هو الحال في الزفاف تمثل هذه التبرعات نوعاً من التكافل المالي أو تبادل «القروض» بين السقاطرة.

ولا أقل فرحة من ذلك، بالنسبة للعوائل السقطرية، الاحتفال بختان الأولاد، وقد اعتاد الجبليون، حتى وقت غير بعيد، أن يوفقوا بين الختان والزفاف فياحتفال مشترك واحد، بهدف الاقتصاد والتوفير فينفقات هذه الفعاليات التي تقصم ظهر ميزانية العائلة عادة. وفي مثل هذه الأحوال يختار الأبوان للصبي، عندما يحين موعد ختانه الذي يرمز إلى بلوغه سن الرشد والرجولة (فيالرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من العمر عادة)، عروساً تلائمه ويقيمان حفلاً مشتركاً بالمناسبتين معاً. وهو في العادة عبارة عن أفراح واسعة جداً تستمر عدة أيام بلياليها. إليكم بهذا الخصوص مقطعاً من حوار جرى بين عدد من السقاطرة الجبليين سجلناه فيصيغة تقريبية عام 1983:

مبارك: حان الوقت لختان ولدي. سيبلغ سن الرشد قريباً، وأريد أن نجتمع مع أبناء قبيلتنا الذين لديهم أولاد في سنه. عيسى وعلي وعثمان، سأبعث إليهم خبراً، كي نلتقي يوم الأربعاء القادم. وسننحر الماشية يوم الجمعة، وننهي أفراح الختان يوم السبت. وسنتفق على عدد الدواب التي يقدمها كلّ منا، أنت تقدم عشر رؤوس وعشر علب من السمن وأربع قرب من التمر المهروس، وأنت بنفس المقدار. نلتقي في الساحة بعد صلاة الظهر، فلا تتأخرا رجاءً. سنبلغ قبيلة دعرهو وقبيلة شعبهو وندعوهم لحضور طهور ولدي وزواجه من ابنة عمه، فلا بد أن يكون حفل الختان كبيراً، وسنرجوهم أن يقوموا بالواجب.

سالم: نحن أيضاً سنحتفل بختان ولدك كما يجب، ما دمت عزمت على ذلك.

مبارك: الأمر متروك لكم، تعالوا لتشاركونا أفراحنا إن كنتم راغبين.

محمد: نريد لكل شخص أن ينحر بقرتين وعشر معز أو عشر نعجات.

سالم: ويأتي بست علب وست قرب.

مبارك: كلا. هذا كثير. بهذه الصورة يكون الحفل أكبر من اللازم. لا موجب لحضور الجميع، وإلا فسيكون الازدحام شديداً.

علي: أعتقد أنك لن تهملنا نحن، أليس كذلك؟ نحن أقرباؤك. وليس صحيحاً أن تحرمنا من الأفراح.

مبارك: معك حق. ليس صحيحاً. لكنكم والآخرين ستشاركون في احتفالات وأفراح عديدة أخرى. بناتنا كثيرات، وسنزوجهن جميعاً.

علي: نحن أقرب إليك من غيرنا.

مبارك: بلّغ عيسى أن يحضر بقرة وعشر معزات.

سالم: بقرة وخمسة عشر من المعز.

مبارك: كلا، لا تكثر عليه. فليحضر كل واحد بقرة وعشر دواب. كفاية. فلنتهيأ للحفل. هيا، هيا. ولنستشر العقال. أنا سأطعم كل من يأتي بدون دعوة.

علي: الذين يأتون معنا ينبغي استضافتهم معنا، ولا داعي لإطعامهم على انفراد.

مبارك: أما الذين يأتون في المساء فسنوزعهم فيما بيننا. سنعطي لأبناء قبيلة كمهر عشرة جلود معز وفخذ بقرة وجنبها بالإضافة إلى خمس معزات. وهذا يكفي. البيض من أبناء قبيلة هرويهن نعطيهم المقدار نفسه. قبيلة كاليهو تستلم الكمية نفسها أيضاً، وقبيلة شعبهو الشيء نفسه. كم فرداً من قبيلة بني مالك؟ اثنان أم ثلاثة؟

محمد: ثلاثة. كم نعطيهم؟

مبارك: نعطيهم ماعزاً واحدة وفخذ بقرة وقربة تمر وعلبة زيت. بقي أبناء حرهميتن. كم عددهم؟

محمد: ستة.

مبارك: حصتهم، إذن، قربة ونصف ، إضافة إلى الباقي.

سالم: تكفيهم قربة واحدة.

مبارك: كلا ، قربة ونصف.

سالم: والله قربة تمر تكفيهم. فهناك سقاطرة كثيرون يتوجب علينا أن نكرمهم.

مبارك: طيب، ولكن ابحثوا لهم عن قربة كبيرة. هيا ، اذهبوا.

علي: بقيت قبيلة لي من عدهو وقبيلة جسفو. لي من عدهو تكفيهم صينية رز باللحم. فهم غرباء علينا ، عكس جسفو.

مبارك: نعطي هؤلاء قربتين وعلبتين وعشرة من ذكور المعز الكبار.

علي: ولي من عدهو؟

مبارك: نعطيهم خمس صينيات. والآن اذهبوا. هيا. نلتقي فيما بعد. والآن نتغدى. أطعموا أطفالكم ونساءكم ، ثم خذوا الطعام إلى الساحة. بعض الضيوف سيصلون ليلاً.

سالم: يا الله. فليسمع أكبر عدد من الناس بأفراحنا.

مبارك: سيأتي أيضاً جنود ومستخدمون وكل المدعووين.

سالم: ينبغي أن نقدم لهم لحم البقر.

مبارك: كلا. لحم البقر جاسئ. نطعمهم لحم المعز. فليعدوا لهم لحم صغار المعز مع لحم البقر . أما الآن فاذهبوا إلى الساحة. هيا إلى الساحة. فيلكنسوا المكان وليجلبوا الحطب، ويلبسوا الصبية ثياباً جميلة.

محمد: وليحلقوا شعرهم على الصدغين، ويعلّموهم حسن التصرف والأدب ويأخذوهم إلى الصخرة.

مبارك: نعم، علموهم ما ينبغي واتركوهم جنب الصخرة ليلقي المُطهِّر عليهم نظرة.

محمد: هل رأيت المطهر؟

مبارك: نعم.

محمد: أين نجري الطهور؟ في الساحة أم في البيت؟

مبارك: في الساحة طبعاً. فما معنى الأفراح إذا لم نطهرهم في الساحة، أمام الناس؟! هيا ، ارقصوا وانشدوا «هدانا هدان».

سالم: هل سمعت قصيدة أبناء قبيلة كمهر وما ينشدون فيها؟

مبارك: سمعتها. إنها والله قصيدة جيدة.

سالم: يمدحونك فيها.

مبارك: أعطوهم المزيد من الطعام ، وقابلوهم بحسن الضافة. فقد كرّمونا بإنشادهم.

محمد : لي من عدهو زعلوا.

مبارك: معقول؟ ماذا يريدون؟

سالم: هل سمعت قصيدتهم وما ينشدون فيها؟

مبارك: أضف لهم المزيد من اللحم.

سالم: والقصيدة؟ سمعتها أم لا؟

مبارك: كلا، لم أسمعها.

سالم : يعتبون فيها، ويقولون لا أحد نهض لاستقبالهم، ولم ينظر إليهم أحد.

مبارك: يا عبد الله، أين عبد الله؟ رد عليهم بقصيدة. هيا يا ابن أخي، ارتجل وأنشد رداً عليهم.

محمد: نادوا عبد الله. ابحثوا عنه.

مبارك: جاء ردنا بقصيدة. قدموا لهم القشدة مع الشاي.

محمد: هيا، بزغ الفجر. فلنختتم. حان وقت الختان.

مبارك: أين الصبيان؟ أحضروا جميع الذين سيتم طهورهم. الفجر ينبلج. كان الله في عوننا. إلى متى تماطلون؟ أين المطهر؟ صلوا على النبي.

المطهر: السلام عليكم.

مبارك: وعليكم السلام. كن حذرا يا أخي، خذ بالك ولا تجرح أحداً من الأولاد.

المطهر: فليلعبوا جنب الصخرة ، إنهم لا يعرفون الاستقرار.

مبارك: سبحان الله، حالما يتم طهور الصبية يصبحون راشدين رصينين.

في بداية عملنا بجزيرة سقطرى، وكانت العادات الجبلية القديمة آنذاك في سبيلها إلى الانقراض، لاحظنا أن الختان يجري في سن تتوافق مع أصول الشريعة، أي قبل السن التي تحدثنا عنها أعلاه. كما أنه يجري في المنزل وليس على رؤوس الأشهاد، وبالطبع ليس

في المستشفيات كما هو الآن. إلا أن بعض جوانب العادات القديمة ظلت قائمة، ففي يوم الختان توجه الدعوة إلى الضيوف ويأتي الأقارب بالهدايا من معز وأغنام وسواها. وفي بعض الأحيان يجري ختان مجموعة من الأولاد دفعة واحدة إذا كانوا من عوائل متجاورة أو تربطها صلة قربى. وعندها يكتسب الاحتفال نطاقاً أوسع. ويدعى إليه الموسيقيون والمطربون مثلما في حفلات الزفاف.

ومن بقايا العادات القديمة أن يُظهر الصبية رجولتهم وبسالتهم في الصبر وتحمل الألم. ويراقبهم أقرباؤهم في تلك اللحظة مشجعين مهللين. كما ظلت على حالها الأدوات التي يستخدمها المطهرجي (الختّان) والمستحضرات المسكنة لتخفيف آلام الطهور، وهي عبارة عن مسحوق لحاء شجرة إكشة المغلي والمجفف يرش على الجرح، وكذلك خلطة ذات رائحة كريهة توضع في حُق صغير يعلق تحت الأنف أو على الرقبة ويتنشق الصبي ما فيه طوال 15 يوماً. وإذا صادف وتوفي الطفل في سن مبكرة فإن عملية الختان تُجرى له ميتاً، كي «يلاقي ربه على دين الإسلام».

عادة ختان الإناث في سقطرى باتت في طي الماضي، على الرغم من أن نصوص الشعر النبطي (والفولكلور) القديم تتحدث عنه مباشرة. ومن مؤشرات وجوده في الماضي، كما أبلغنا أحد السقاطرة، القاعدة المتبعة التي كانت تتقيد بها النساء والبنات عندما يؤدين مناسك الحج. فهن في طريقهن إلى بلاد الحرمين، يتوقفن في حضرموت، حيث كان ختان الإناث معمولاً به آنذاك، ويتحملن هذه العملية الجراحية التي ترمز، والحال هذه، إلى طهارة البدن التامة.

خلال عملية الطهور يتلفظ الناس بقول تقليدي ورثوه عن أجدادهم، وهو أشبه بتعويذة قديمة لا يفهم معناها تماماً حتى السقاطرة أنفسهم. وهو يُنطق باللهجة المحلية على النحو التالي تقريبا: آلباعارش شيبب رحق هش صبيحو. وقد اختلفت الآراء في ترجمته وتفسيره. ولعله أقرب إلى عبارة «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». فالنغمة التي ينطقه بها المطهر أثناء الختان تنم على أنه يطرد روحاً شريرة متمثلة طبعاً في صورة عجوز مسكونة يدعو لها المطهر، والأصح أنه يدعو عليها في تلك العبارة أن لا ترى نور الفجر.

عموماً الختان يجري في الفجر حيث تشير الأساطير والخرافات السقطرية إلى قلة الجنيات والعفاريت والسعلوات و«أم مسامير» وغيرها من الكائنات الشريرة المسكونة (التي تنشط عادة في ساعات الليل). وإلى ذلك يلعن المطهر بتعويذته تلك العجوز المنحوسة

كيلا تأتي مع الفجر، أي كيلا تفسد أفراح الطهور. وقد تكون لتلك التعويذة مقاربة، من حيث المعنى، مع ما يتصوره الناس عن الحسد، فيكون فيها والحال هذه، تلميح إلى التعبير الشائع: «عين الحسود فيها عود». فلا تأتي إلينا، أيتها العجوز المقيتة، ولا تسلطي نظرتك الخبيثة على أولادنا الأحياء في لحظة الختان!

كانت تقاليد الختان في سقطرى في الثمانينيات لا تزال تحتفظ كما رأينا بخصائص طقوس التكريس القديمة التي يعود بأصوله إليها، وقد تجلى هذا التشابه في فترة متأخرة حينما أخذ الجبليون المتقيدون بالثقافات التقليدية القديمة يختنون الأولاد في سن النضوج الجنسي، أي سن التكريس العائلي. ففي الماضي كان ختان الأولاد والبنات يجري، على ما يبدو، في وقت واحد وفي سن متقاربة. وهو يعني تكريس أو انتماء الأولاد والبنات إلى فئة الراشدين من أفراد المجتمع، ويشير إلى أهلية الزواج (الصبي غير المطهر لا يحق له الزواج).

قدم الباحث الروسي إيغور دياكونوف تأويلاً لأنشودة دينية طقوسية سبق أن نشرناها في كتاب لنا، فأكد في مقالة تحليلية عن الكتاب: «إن البنت التي تتزوج تسمى بالمصطلحات السقطرية فيرهم، بمعنى «مختونة» حرفياً، ولكن ليس بمعنى «مهيأة» كما يعتقد وولف ليسلاو(Leslau, 1938: 81) . ولنقارن ذلك بالجذر السامي المشترك «بتول - ات». ويعني كلا المصطلحين أن الفتاة مكرسة وجاهزة للزواج، بمعنى أنها مستعدة للانفصال عن الأسرة والقبيلة في حال إجراء الختان الذي يعتبر مقدمة لأهليتها للحياة الزوجية.

والمعروف أن التكريس يرمز إلى الموت الذي يسبق الميلاد الجديد في هيئة وخصائص جديدة. ومن الأدلة على إجراء ختان التكريس للفتيات السقطريات في الماضي أن البنت تسمى أيضاً «زاحية» وتعني بالسقطرية «غير مختونة». ولعل كلمة فيرهم كانت، في البداية على الأقل، تعني المرأة الأكبر سناً من زاحية. وكان الختان مرتبطاً بطقوس التكريس والانتماء قبيل الدخول في سن الزواج، الأمر الذي يشير إليه مصطلح الختان نفسه، «خيتن» بالسقطرية، والجذر السامي المشترك «خاتان» الذي يعني «عريس». كما تؤكد ذلك المعلومات التي يوردها المؤلف عن سن الختان عند الجبليين (في حدود الخامسة عشرة)» (دياكونوف، 1982: 209).

ومما له دلالته أن ختان الأولاد عند السقاطرة الجبليين، قبل أمد غير بعيد من وصولي إلى الجزيرة، كان متوافقاً من الناحية الزمنية مع زواجهم. ولم يكن الأمر مقتصراً على

توفير نفقات الأفراح، مع أن سكان المناطق الجبلية كانوا يأخذون هذه النقطة بالحسبان نظراً لضخامة الإنفاق على الولائم وسواها. بل لعل المسألة تتعلق أيضاً في الصلة المباشرة بين الختان وبين بلوغ سن الرشد والأهلية للزواج. وقد تسنى لكاتب السطور أن يحضر الأفراح «المشتركة» لختان الشباب وزواجهم في الوقت ذاته أثناء الرحلة الأولى إلى سقطرى عام 1974، وسبق أن تحدثت عن تلك الأفراح أعلاه.

وإليكم الآن معاني بعض الأغاني والأهازيج التي تنشد أثناء الختان. وقد سجلتُها فيما بعد، في العام 1983، بإملاء عامر أحمد دعرهي، من قبيلة دعرهو:

في الفجر، باسم الله، وبالأحرف الثلاثة من قرآنه الكريم
ألف لام ميم، افتح لنا كل ما في فؤادك من خير
تقديراً للضيوف الكرام.
وسيأتي ضيوف الآن من قاطن
فإذا أردتَ، وقلبي أنا يريد، افتح قلبك.
فلماذا تتصرف بشكل غير حميد؟
لماذا تأكل بيدك اليسرى؟
وقد تغاضيتُ عنك،
وكأنني أعمى لا أرى ما تفعل.
عندما يقول لك الرجل الكبير هذا الكلام
لن تتمكن من التملص بسهولة.
درسمويتن موقع جميل بلون النحاس
لكن العالم كله منقسم لا يلمّ شمله إلا الناس.
المحاربون الذين ركبوا البحر
وحضروا أفراحنا مع قائدهم
أناس طيبون.
بل كل الناس طيبون.
واللهِ، كلهم طيبون.
الجنود يمرحون في حاصن
بعد أن دفعوا مبلغاً مجزياً

لأهالي درسمويتن،
وقدموا عمامة جديدة لكل فرد
من أهالي عابب.
فافتح باب السوق ولا تبخل على الناس
وليأخذوا ما يشاؤون
وليأكل الضيوف حتى التخمة
وليسرحوا ويمرحوا حتى الصباح.
أمامك معز كثير ينتظر الذبح،
انظر ما أكثر الجنود القادمين.
ظننتك بخيلاً يا ابن دعرهو
وغضبت عليك في البداية.
لكنني أرى الجميع الآن راضين مسرورين.
في مقابل النبأ السعيد
عليك أن تدفع ستة آلاف من سوقك الثمين.

هذه الأغنية تعود، كما هو واضح، إلى تقليد قديم جداً، إلا أن وقائعها حديثة العهد نسبياً. ففيها إشارة إلى قبطان السفينة الذي نصادفه كثيراً بين شخوص الفولكلور، وكلام عن الجنود والمقاتلين الذين يعتبرون ضيوف شرف على أفراح الختان، وغير ذلك من التفاصيل التي توحي بأن وقائع الأغنية تعود إلى عهد سلطان المهرة في سقطرى. كما تتحدث الأغنية عن بلدتي القبيلة اللتين تنشد فيهما، إلا أننا سجلنا في باقي مناطق الجزيرة أيضاً أغاني وأهازيج مشابهة لهذه الأغنية لدرجة كبيرة، تنشد بنفس اللحن أو بلحن مماثل.

الفكرة الرئيسية للأغنية هي التركيز على أهمية الحدث وعلى ضرورة البذل والعطاء والسخاء في تكريم الضيوف. المنشد يمتدح الضيوف ويتظاهر بأنه يلوم صاحب البيت على سوء الضيافة وعلى التقتير في ذبح الدواب، ويعيب عليه مازحاً أنه لم يتعلم حتى الآن تناول الطعام بيده اليمنى (فلا يجوز الأكل عندهم باليد اليسرى التي يعتبرونها وسخة دوماً). إلا أنه يكف عن اللوم والانتقاد ويدعو في النهاية إلى الصرف على الأفراح بدون حساب.

عموماً الأغنية في نصها الأصلي ليست واضحة تماماً، وفيها كثير من الغموض، خلافاً للبساطة التي أوردنا بها معانيها أعلاه.

أهمية الختان بصفته مؤشراً على الانتماء أو التكريس (وهو أمر لم يشطبه الإسلام، حيث يعتبر مراسم ختان الولد دليلاً على انتمائه إلى الأمة الإسلامية) تتجلى في الأدب الشعبي عموماً، ومن الأمثلة على ذلك ما نجده في «أسطورة القلعة» من مقابلة أو تعارض بين مفهومي الشاب المطهَّر (بمعنى رجل راشد) وبين غير المطهر.

أسطورة القلعة

كان يا ما كان، كان زمان بنيت فيه قلعة «ماكون» على قمة جبل حجهر. حكم القلعة عدة أمراء، بينهم رجل عملاق من بلاد السواحيلي. كان العملاق السواحيلي يتبع قاعدة تلزم كل صبي غير مطهر يدخل القلعة أن يحدثه ويتنبأ له بشيء من المستقبل. وعندما يدلي الصبي بنبوءته يمهله العملاق سنة واحدة يعود بعدها إليه. ولو صدقت نبوءة الصبي لقضى العملاق السواحيلي نحبه ولدمرت قلعته.

إلا أن أحداً من الأولاد المساكين لم يتمكن من قهر إرادة العملاق، فنبؤاتهم لا تتحقق، وكانوا يُقتلون جميعاً الواحد تلو الآخر. هكذا أبيد كل الصبية غير المطهرين الذين دخلوا قلعة «ماكون».

في ذلك الزمان كان هناك رجل من قبيلة رجدهو، وعنده حفيد غير مطهر، أمر الرجل حفيده ذات مرة قائلاً:

اصعد إلى حجهر وأجلب أبقارنا من هناك. ولكن، أوصيك بأن لا تعرّج على ماكون.

مضى الصبي إلى الجبل، وفكر في نفسه:

ـ لمَ يمنعني جدي من دخول القلعة؟ أليس الأفضل أن أرى ما فيها؟ سأسلّم على من هناك، ولن يحصل لي شيء.

دخل الصبي القلعة ، فسأله حاكمها ورجاله:

أنت مطهر أم لا؟

لا.

من أين أنت إذن؟

من قبيلة رجدهو.

طيب، قل كلمتك طالما دخلت قلعة ماكون وأنت غير مطهر.

هل أنا ملزم أن أتكلم؟

نعم. تكلم حالاً.

لم يكن أمام الصبي مخرج فقال للحاكم:

سأجلب لك قربة تمر مهروس لن تحزر نوع نخلته.

فكر حاكم القلعة قليلاً ثم قال:

الصبي غير مطهر ولن يتمكن من تسلق النخلة.

فقال الصبي:

سأجلب إذن جرة زيت تعطسون جميعاً حالما تفتحونها.

فكر الحاكم ورجاله وقالوا:

إنه غير مطهر ولن يستطيع...

فقال الصبي:

سأحضر لكم ماعزاً يحطم أنياب سيدكم السواحيلي.

ففكروا وقالوا:

لا يزال غير مطهر ولن يستطيع.

ثم سألوه:

هل تريد أن تضيف شيئاً، ام أنك انتهيت؟

ليس عندي ما أضيفه.

فقالوا له فرحين:

اسمع إذن، عندك مهلة عام واحد من الآن، فعش هادئ البال بسلام.

عاد الصبي إلى داره، فتطلع جده فيه متسائلاً:

هل دخلت القلعة؟

نعم.

وماذا فعلت هناك؟

قلت لهم كيت وكيت، فليكن ما يكون، ربما أخطأت في القول.

إنفعل الشيخ وغضب على حفيده في السر، دون أن تظهر أمارات الغضب على وجهه،

فلا بد له الآن أن يفكر في حيلة لنجدة الصبي. أخذ يفكر، ويطيل التفكير حتى توصل إلى حل.

حلب لبن معزه في جرار وضعها على جمر الموقد، ثم قشط القشدة من على اللبن، وفي القشدة غلى زهور شجرة «صوبهر»، وصب نقيعها في وعاء أغلقه ودفنه تحت التراب.

في موسم الحر لقّح النخيل. اكتفى بتلقيح ستة أو سبعة عذوق. وعندما نما البلح اقتلع العذوق إلا واحداً تركه لينضج. وفي موسم جني التمور أخذ التمرات بيديه، وشق بطونها تمرة تمرة، وتركها في العراء لتجف. نظف التمرات من غشائها واستخرج نواها، ثم حشا بها قربة كبيرة.

كانت عند الجد عنزتان حاملان في دشحس بمنطقة ريجد، وعندما وضعت العنزتان ذبح جدياً، وجعل الجدي الآخر يرضع لبن العنزتين، ليكبر قوياً متيناً.، وكبر الجدي وتحول إلى ماعز عنيف.

حان الوقت الموعود، فخرج أصحاب القلعة للقاء الصبي حتى ينتقموا منه.

قال الجد لحفيده:

- خذ الوعاء والقربة والماعز واذهب إلى ماكون، فأخذها الصبي وهمّ بالذهاب إلى هناك، إلا أن الجد أوقفه، قائلاً:

- تمهل. غط الوعاء والقربة بمئزرك، ولا تتلفت أبداً قبل أن تدخل القلعة وتتأكد من أن الماعز الذي معك وصل إلى منتصف المكان بالتمام والكمال. وعندما تكون عفرته على مستوى مساند الباب قل ما يلي:

« ذاك الذي رضع عنزتين سيحطم القلعة الحصينة. سقط المطر وبرد الجو تحت النجوم».

بعد أن تقول هذا الكلام يمكنك أن تلتفت إلى الماعز.

مضى الصبي في طريقه إلى القلعة. وفكر عندما اجتاز نصف الطريق:

ما الذي يمنعني من الالتفات؟ أليس من الحكمة أن أرى هل يسير الماعز خلفي أم لا؟

التفت الصبي. وما إن وقع بصره على الماعز حتى استدارت الدابة وعادت إلى البيت راكضة. فاضطر هو أيضاً أن يعود إلى جده. فقال له الجد العراف:

يبدو أنك التفت إليه يا حفيدي قبل أن تصل إلى المكان.

نعم، يا جدي.

وفي اليوم التالي بعث الصبي مع الماعز وقال محذراً:

لا تلتفت هذه المرة قبل أن تصل إلى المكان.

مضى الصبي ثانية إلى القلعة حتى وصلها، ونطق الكلمات التي لقنها إياه جده الحكيم:

«ذاك الذي رضع عنزتين سيحطم القلعة الحصينة. سقط المطر وبرد الجو تحت النجوم».

والتفت في الحال، فقفز الماعز هائجاً وحطم أوتاد سقف ماكون. أمسك به أصحاب القلعة وقطعوا عنقه. فيما راح العملاق السواحيلي يلعق لعابه متشوقاً لالتهام لحم الماعز الطازج. قشطوا جلده واقتطعوا الرقبة على عجل وسلموها إلى العملاق. وعندما قرّبها من جانب فمه وغرز فيها أنيابه تساقطت الأضراس على الأرض. وبعد أن تساقطت أضراس الفكين العلوي والسفلي في جانب فمه حوّل الرقبة إلى الجانب الآخر وغرز فيها أنياب تلك الجهة، فلم تتحمل باقي أضراسه وتساقطت على الأرض جميعاً.

فتح أصحاب القلعة قربة التمر، فدهشوا لأنهم لا يعرفون أي تمر هذا، وعلى أي صنف من أصناف النخيل ينمو هذا التمر العجيب.

جلبوا الوعاء ورفعوا غطاءه، وحالما رفعوه فاجأتهم رائحة شديدة فعطسوا جميعا دفعة واحدة.

بهذه الصورة وفى الصبي بما وعد. وحقّ على أصحاب قلعة ماكون الحكم الذي أصدروه هم. فقطعوا عنق العملاق السواحيلي، وحلت نهاية القلعة في ذلك اليوم، فما أعظم فرحة الصبي!





(شكل رقم 9 ـ 3 أ و ب)

الطب الشعبي التقليدي

في الماضي غير البعيد كانت حياة السقاطرة، كما أسلفنا، مليئة بالوساوس والأوهام القديمة والطقوس والمحذورات الإلزامية، فيما كانت الأساطير والخرافات بالنسبة لأجيال عديدة المصدر الرئيسي للمعارف عن العالم الخارجي. على سبيل المثال إذا بدأت السن اللبنية عن الطفل تتقلقل بحيث يمكن اقتلاعها بسهولة ينتزعها أبوه بيده ويدفنها تحت شجيرات صوبهر دي برهيتن الشائكة كيلا يتمكن أحد أن ينجسها ببوله. فلو تبول أحد على تلك السن اللبنية فإن السن الدائمة الجديدة تنمو، باعتقاد العامة، مائلة أو تظهر في غير موضعها.

طرق وأساليب العلاج الشعبية التقليدية للأمراض تعود إلى أصول قديمة جداً، والطريقة الأساسية المستخدمة في علاج جميع الأمراض هي الكي (بشكل خطوط أفقية وعمودية أو نقاط موضعية). يمارس الكي العرافون الموجودون لدى معظم القبائل، وأداة الكي سفود معدني (مما كان منتشراً في الحياة اليومية آنذاك) يحمونه ويضعونه ساخناً على موضع الألم. في حالة الصداع: على الرأس، وفي حالة التهاب الرئتين: على الصدر، وهلمجراً. ولم يكن الحكماء والمطببون على علم كبير بمواضع ونقاط البدن التي يمارسون التأثير فيها بالكي، فقد كان علمهم بالتشريح البشري على أوطأ مستوى، رغم تضلع السقاطرة في تشريح الحيوانات الأليفة الذي كان يمكن أن يدلهم بالمقارنة على تشريح الإنسان حسب طريقة الشيء بالشيء يعرف. إلا أن بعضهم كان لا يزال يعتقد آنذاك أن القلب موجود في منتصف الصدر. وكان نبض القلب بشكله الطبيعي يثير أحياناً قلق العرافين والحكماء لاعتقادهم بأن «العروق» (فنش) تطقطق، فيعمدون إلى الكي بشكل خطين متوازيين بينهما نقطة.

في تلك الأزمان كان من الصعب أن تجد في الجزيرة شخصاً (حتى الأطفال الصغار) لم يتعرض للكي (شكل رقم 9 - 3 أ وب). أبدان بعض الأشخاص مليئة بالخدوش والندوب المرعبة من أثره، وقد وجدنا على بدن أحد الأشخاص آثار الكي في 57 موضعاً، ومن نافل القول إن عواقب هذا النوع من «العلاج» كانت مأساوية جداً.

ولا أقل من ذلك حماقة اقتلاع اللهاة، بعقدة خيط، وسيلة لعلاج الرشح والتهاب اللوزتين وما إلى ذلك.

إلا أن للطب الشعبي في جزيرة سقطرى جوانب إيجابية ملحوظة، فالسقاطرة نجحوا في استخدام العقاقير والأعشاب الطبية في علاج عدد من الأمراض. وقد اهتمت بالطب الشعبي كثيراً بعثة أدنبرة البريطانية التي سبق أن تحدثنا عن إسهامها في دراسة جزيرة سقطرى. كما تحدثنا في مواضع أخرى من هذا الكتاب عن استخدام نسغ شجرة دم الأخوين لأغراض العلاج. وكان السقاطرة يعالجون التقيح والقرحة والخُراج بواسطة طين بني اللون (جديري) من أوكار النمل الطائر (المسمى ديديهن، وهو ينتشر طائراً في موسم الأمطار). فالنمل يترك في ذلك «الطين» مسالك متشعبة عادة.

أما الدمامل (لوسة) فلا علاج لها، في اعتقاد المطببين والعرافين السقاطرة، سوى الكي، وكثيراً ما تلاحظ عند الجبليين بثور دقيقة متقيحة تنتشر على البشرة بين الحين والآخر مرة كل بضعة شهور، ويطلق على هذا المرض (أو الأمراض الشبيهة به) تسمية أرضية. وهناك مرض على ارتباط بهذه الأمراض الجلدية يسميه الجبليون تسيعو، ويعتقد السقاطرة أن هذه البثور الجلدية تظهر على الشخص عندما يلمس القبور، ولذا وجدنا صعوبة كبيرة في تلك الأزمان في العثور على عمال لحفرياتنا في المدافن.

وثمة فعاليات وإجراءات سحرية غيبية كثيرة في إطار مراسم التطبيب والوقاية والعلاج بالسحر والتعاويذ. ومنها عادة شد خيط صوفي حول بطن الوليد، واستبداله بحبل عندما يكبر. وكثيراً ما يعلق على زند الطفل فوق الكوع، كيس أو حق صغير فيه خلطة. وإذا توفي طفل يثقبون وسط الأذن اليمنى للطفل الذي يولد بعده، كيلا يموت مثل أخيه (شاهدنا هذه العادة في حضرموت أيضاً).

في غضون موسمين من العمل الميداني في سقطرى أجرى زميلنا الراحل الطبيب الأنثروبولوجي فلاديمير شينكارينكو دراسات علمية واسعة وقدم في الوقت ذاته خدمات طبية إلى مئات المرضى. وأثناء فحوصات المراجعين التي كنت أحضرها أنا أيضاً توافرت له فرصة التقييم المهني الموضوعي لنتائج العلاجات السابقة، سواء بالكي العشوائي الفظ أو بأساليب أخرى.

ذات مرة جاءتنا امرأة مليحة ترتدي قرطين ذهبيين ومعها صبي في الخامسة من العمر، يعاني من دمل متقيح كبير تحت الإبط (التهاب الغدد العرَقية) يؤلمه كثيراً، ومما أثار دهشتي أن رجاء المرأة لم يكن له صلة بالدمل المذكور، إذ طلبت منا فيتامينات تساعد الصبي ليتجاوز الهزال الذي هو فيه. وكان واضحاً أنها تعرف بوجود وسيلة عصرية

من هذا النوع لمعالجة الهزال، لكنها تجهل أموراً طبية أخرى. فعندما قال لها الدكتور شينكارينكو أن الدمل تحت إبط ابنها بلغ مرحلة تهدد حياته بالخطر دهشت كثيراً.

والحقيقة كان الصبي مكتنزاً بعض الشيء وليس نحيلاً، وقد لاحظنا مثل هذه المواقف اللامبالية، غير المعتادة بالنسبة لنا، حيال بعض الأمراض في سقطرى آنذاك أكثر من مرة. الصبي تعافى بسهولة على ما يبدو بعد العملية الجراحية التي أجراها له الدكتور شينكارينكو وتحملها الصغير دون أن يرتجف له جفن، فجاء هذا الشفاء السريع ليحير المرأة أكثر. وخيل إليّ أنها لم تدرك تماماً أن العملية الجراحية أنقذت ابنها فعلاً.

راجعتنا في حينه امرأة اسمها سلمة مع ابنتها فاطمة المصابة بالرمد، وكانت الأم قد استخدمت في علاجه وسائل شعبية، فرأينا جبهة الصبية مطلية بالأخضر، وعلى يافوخها بقعة حليقة مطلية بالأخضر والبني. الطلاء الأخضر يسمى هيلة، والأم لا تدري من أين جاءت به الجدة. وعلى اليافوخ خليط من كركم ومسحوق ورق شجرة ضأد والرأي السائد أن استعمال هذه المساحيق يخفف من حرارة الحمى ومن حدة الصداع.

وتجدر الإشارة إلى أن جزيرة سقطرى حققت في التسعينيات وما بعدها طفرة عريضة في التطور الثقافي عموماً، والتطور الطبي والعلاجي خصوصاً، فباتت في متناول السقاطرة خدمات طبية مؤهلة ومتطورة يعود الفضل فيها للحكومة اليمنية وللهيئات الدولية المختصة.

ولا يسعنا، ونحن نتحدث عن عادات السقاطرة، إلا أن نشير إلى طريقتهم في التحية والسلام بعضهم على بعض. فالرجال من مراتب متساوية وأعمار متقاربة يتلامسون بالأنوف (كما يفعلون في دول الخليج)، والأصغر سناً يمس بأنفه ركبة أو يد الأكبر منه. هكذا كانوا يحيون بعضهم بعضاً. أما الآن فالغالب على الرجال أنهم يمس بعضهم بالأنف يد بعض.

وكانت النساء في الماضي يحيين الواحدة الأخرى بتلامس الأنوف أربع أو خمس مرات على هذه الجهة من الأنف ثم على تلك. المرأة الشابة تحيي الأكبر منها سناً بتلامس الأنفين في البداية، ثم بلمس الأنف لركبة الأكبر سناً. أما الآن، وبتأثير الاتجاهات العصرية المتسعة والدعاية الموجهة حول الأضرار الصحية التي تترتب على هذا النوع التقليدي من تبادل التحية، باتت النساء يسلمن على بعض كالرجال بلمس الأنف لليد المرفوعة قريباً من الوجه، أما تحية الغرباء فتتم بأن تضع المرأة راحة يدها على صدرها أو بطنها بتقدير واحترام.

بديهي أن التطور الحديث لجزيرة سقطرى، وانتشار الثقافة العربية الإسلامية، والتعليم العصري، واطلاع أهاليها النشيط المتسارع على العالم الخارجي، كل ذلك يوجه ضربة إلى العادات والتقاليد القديمة التي لا ينتظر الكثير منها سوى الانقراض، إلا أن السمات التقليدية للثقافة الروحية والدينية لأهالي الجزيرة تبقى راسخة رغم كل رياح التجديد.

الفولكلور

للسقاطرة فولكلور شعبي غني يتكون من أساطير وخرافات وحكايات ممتعة وأغان وأهازيج ومماويل وسواها. وللتدليل على غنى الفولكلور السقطري أورد هنا بعضاً من الأساطير والحكايات الرائعة مما سجلته أثناء مواسم عملي الميداني في الجزيرة:

اشتهرت عند القبائل السقطرية حكايات وروايات كثيرة عن أصولها وشجرة أنسابها. ومنها الحكاية التي تسنى لي أن أسجلها بشأن أصل قبيلة كشن التي تتوافق تسميتها مع تسمية المركز السكني المعروف في المهرة.

حكاية رحبهَن من الكشن

كان يا ما كان، كان في قديم الزمان وسالف الدهر والأوان، رجل ثري باسل اسمه رحبهَن، يعيش في مغارة كشن بغرب الجزيرة، ويقيم معه ابنه الوحيد وخادمان.

في تلك الأثناء غزا الفرنجة جزيرة سقطرى وأقام بعضهم فيها، فأراد رحبهن أن يطردهم منها، وفكّر في حيلة لهدا الغرض ونفذها على النحو التالي: تربص برجل وامرأة من الفرنجة اعتادا أن يتمشيا وحدهما. وأمر ابنه وخادمه أن يقبضا عليهما، فقبضا عليهما. اقتاد رحبهن المرأة وحدها إلى مكان ما، دون أن ينتبه إليه الإفرنجي، وغطاها هناك بمئزر مما يرتديه السقاطرة. ثم نحر ماعزاً تحت نفس المئزر، وسال الدم، فرآه الإفرنجي وتصور أن السقطري ذبح المرأة.

نزع رحبهن جلد الماعز وخبأه. ثم جلب حطباً وأشعل النار ووضع لحم الماعز عليها وكأنه لحم المرأة المذبوحة، وهمس في أذن خادمه أن يطلق سراح الأسير كأنما دون علم سيده.

حل الخادم وثاق الإفرنجي الأسير، فيما تظاهر رحبهن بأنه مشغول بالطعام ولا يرى شيئاً غيره، فر الإفرنجي إلى أصحابه مذعوراً، وأبلغهم أن الأهالي ذبحوا المرأة وأكلوا لحمها مشوياً، وأنهم أرادوا أن يأكلوه هو أيضاً، إلا أن شخصاً أشفق عليه وأطلق سراحه خفية، ولذا فر بجلده. وأضاف: «افعلوا بي ما تشاؤون». فتشاوروا فيما بينهم، وقرروا العودة إلى بلادهم. فاستقلوا باخرة نقلتهم بعيداً عن سقطرى.

أما المرأة الإفرنجية فقد تزوجها رحبهن، وأنجبت له أولاداً كثيرين، ومنهم نشأت قبيلة كشن..

في الحكاية التالية نجد تجسيداً لإخلاص وذكاء المرأة الوفية التي يمكن أن تكون عضيدة ومنقذة للرجل، لا جنية تقوده إلى التهلكة. وقد سجلتُها هي أيضاً بإملاء الراوية الجبلي المدهش عامر أحمد الذي لا تنفد جعبته المليئة بمخزون الأدب الشعبي، وقد ربطتني به علاقة صداقة ومودة.

حكاية المرأة الوفية والكذابين الثلاثة

كان يا ما كان، كان في قديم الزمان رجل تزوج وعاش مع زوجته في رخاء وأمان، إلى أن حلت المصيبة. المجاعة والجفاف أهلكا الزرع والضرع، فبات ذاك الرجل متسولاً مسكيناً. قال لزوجته ذات مرة:

أنا ذاهب لأجرب حظي في بلاد الغربة، فابقي أنت في البيت.

نعم. اذهب. الله في عونك.

ومضى الزوج في طريقه البعيد. ركب البحر طويلاً، ولا يعلم إلا الله إلى أي بلد وصل. حالفه الحظ، فوجد عملاً وتوفيقاً كثيراً.

في يوم من الأيام بلغ مسامع ثلاثة من رجال القرية التي تقيم فيها زوجته أنه أثرى في بلاد الغربة وجمع مالاً كثيرًا، فقتلهم الحسد. فكروا، مدفوعين بحسدهم الأسود، وأطالوا التفكير حتى استقر رأيهم على الإساءة إلى زوجته. وقالوا: «فليذهب أحدنا إليها».

وقع اختيارهم على أجملهم وأكثرهم شطارة، فذهب إلى تلك المرأة، استقبلته بحسن الضيافة وسقته القهوة ، فأخذ يراودها ويغويها. فقالت له:

- أنا لست مستعدة الآن. علي أن أرتب المنزل وأهيئ نفسي، فأستحم وأتطيب. فتعال

غداً في مثل هذا الوقت.

سر الرجل وفارقه الهدوء حتى مساء اليوم التالي. وفي ذلك المساء مضى إليها من جديد في الموعد المتفق عليه.

كانت المرأة قد أسرعت قبل ذلك إلى الحكيم وطلبت منه مسحوقاً يجعل الشخص يقع في غيبوبة حالما يستعمله. واستفسرت منه كيف تخصي الرجال. عادت إلى منزلها وأعدت خليطاً من المسحوق مع الخمر.

ثم رتبت المنزل ودهنت جسدها بالزيوت العاطرة وارتدت ثيابها وتطيبت، وعندما جاء الرجل رأى المنزل يلمع بهاءً، والمرأة مزوقة متألقة يفوح عطرها من بعيد، فأبتهج أيما ابتهاج. قدمت له المرأة كأس الخمرة قائلة:

اشرب لكي تأتيك قوة الرجال.

شرب خليط الخمر، فأغمي عليه وخر على الأرض طريحاً، أخذت المرأة سكيناً انتزعت بها بيضتيه، ثم مسحت الجرح بمروّخ ودهان.

وفي الصباح صحا الرجل فارتعب وذعر من هول ما رأى، ذلك لأنه لم يجد في الموضع المعهود شيئا سوى الورم. خرج من الدار نادماً حزيناً، ورأى أحد رفيقيه. ألح عليه ذاك بالسؤال والاستفسار. فكذب عليه صاحبه وقال:

كل شيء على ما يرام، حالما جئت إليها فعلت كل ما أردته منها.

فقال الثاني مسروراً:

إذن سأذهب أنا إليها غداً، جاء دوري بعدك.

فأجابه الأول:

الأفضل أن تذهب إليها الآن. اذهب واطلب منها موعداً في يوم غد بعد مغيب الشمس.

مضى الرجل الثاني فوراً إلى المرأة الوفية، فسقته القهوة وتكرر بينهما نفس حديثها مع الرجل الأول. فحددت له موعداً في اليوم التالي في وقت الموعد نفسه مع صاحبه، وتحججت بأنها ينبغي أن تتهيأ للقاء الموعود بالشكل اللائق.

وعندما جاء الرجل في الموعد رأى البيت يتألق، وراَها هي أيضاً متألقة مزوقة تفوح عطراً وطيباً. ففرح وابتهج أيما ابتهاج، ناولته كأس خليط الخمر، فاحتساه حتى الثمالة، وخر فاقد الوعي على الأرض. استلت المرأة بيضتيه، كما فعلت بالرجل الأول. ووضعت «المقصوصات» من كلا الرجلين في وعاء ونثرت عليها مسحوق التحنيط «كفر الأحياء». وفي

الصباح عاد الرجل إلى وعيه وذعر لما فعلت به المرأة، ومضى مكتئباً حزيناً.

صادف الرجلَ الأول، وكان واضحاً للاثنين ما حصل لكل منهما، فمضيا إلى صديقهما الثالث، فسألهما عن الحال، فأجاباه:

لا موجب للسؤال، كل شيء على ما يرام.

ونصحاه أن يمضي إليها. فمضى، وتكرر معه ما حدث لكليهما. لقد حولت المرأة الأصدقاء الثلاثة إلى خصيان.

التقوا ثلاثتهم وقرروا أن يتصارحوا في الأخير، فتحدث الأول والثاني عما جرى لهما، واعترف الثالث بأنه واجه نفس المصير. خيم عليهم الوجوم والأسى، وفكروا في الأمر ملياً يبحثون عن وسيلة أخرى للثأر من تلك المرأة اللعينة.

فكروا وتأملوا، وأطالوا التفكير والتأمل، إلى أن قال أحدهم في الأخير:

- تعالوا نذهب إلى زوجها ، فيقيم أحدنا دعوى عليه في المحكمة لمصادرة أملاكه وكل ما لديه، فيما يتولى الآخران دور الشاهدين، ويقسما اليمين القانونية على صحة الدعوى.

انشرحت صدور الأصدقاء الثلاثة للفكرة الخبيثة السوداء، فشدوا الرحال. فيما بلغ مسامع المرأة أنهم ينوون سوءاً بزوجها. فحلقت شعرها وارتدت ثياب الرجال. استقلت السفينة ووصلت المكان الذي يقيم فيه زوجها قبل أن يصل الثلاثة إليه. ومضت إلى منزل الحاكم، فسألها متصوراً أنها رجل: من أنت؟ ومن أين تكون؟ فأجابته:

أنا سيد تقي من الأولياء والصالحين.

فأكرمها الحاكم وأحسن ضيافتها كشخصية مرموقة تستحق التكريم، ثم وصل الأصحاب الثلاثة وتوجهوا إلى القاضي رأساً لإقامة الدعوى على زوجها، فيما كانت هي في ضيافة الحاكم بصفتها «سيداً» من الأولياء والصالحين. استدعى القاضي زوجها وبدأ ينظر في الدعوى. كذب الشاهدان على المحكمة وأدّيا اليمين زوراً وأقسما بأن المال الحلال عائد للمدعي.

في تلك الأثناء خرج «السيد» المزعوم من بيت الحاكم ومضى إلى دار القضاء، قال أمام المحكمة:

- أنا سيد من الأولياء الصالحين أقرأ الغيب وأكشف الأسرار. أرجو أن تفحصوا هؤلاء الثلاثة، لتتأكدوا أليسوا مخصيين؟ حتى يكون بالإمكان التصديق بإفاداتهم، فهي قد تكون كاذبة، ويأخذ القانون حقه ويقول كلمته.

وتأكد للجميع أن الرجال ثلاثتهم خصيان. فأمر القاضي بحبسهم وإطلاق سراح الزوج.

فقال الرجل لزوجته، معتقداً أنه يكلم سيداً جليلاً:

ـ الحمد لله، والشكر لك، لأنك أنقذتني يا سيدنا الجليل. قل لي، من فضلك يا مولاي، كيف أردّ لك الجميل، أنا مستعد لمنحك كل ما تريد.

فقالت له زوجته:

إذا كنت تنوي حقاً تلبية ما أرغب وأريد، فاقترب مني لأهمس في أذنك ما أريده منك.

اقترب الزوج من زوجته، ومال عليها فقالت له:

أعطني زوجتك وسأتزوجها.

ـ صعق الزوج واشتاط غضباً، وهمّ بضرب السيد الجليل، إلا أنه ضبط أعصابه وقال:

خذ أثمن ما لدي إذا شئت. إقتلع عينيّ، لكنني لن أتنازل عن زوجتي لأحد.

فأجابه السيد المزعوم:

طيب. اهدني إذن حلقة زواجك.

خلع الزوج الحلقة من إصبعه وقدمها له.

ثم استقلا نفس السفينة الذاهبة إلى سقطرى، فأقتربت الزوجة من زوجها وقالت له:

سأمر على منزلك. أريد أن أرى زوجتك على الأقل.

حالما وصلا الجزيرة، سبقت الزوجة زوجها في الطريق، وكأن «السيد» مستعجل لإقامة الصلاة في المسجد. إلا أنها أسرعت في الحقيقة إلى منزلها لتسبق زوجها في الوصول إليه. كانت في البيت فتاة، أمرتها الزوجة أن ترتبه على عجل، فيما استبدلت هي ثيابها الرجالية وعادت كما كانت سابقاً.

دخل الزوج المنزل، فاستقبلته الزوجة وكأن شيئا لم يحدث. سلّم عليها وقال:

وصل معي سيد تقي أنقذني من الإفلاس. حضري عشاءً شهياً، فهو سيأتي إلينا في المساء.

في المساء انتظرا السيد طويلاً، لكنه لم يأت، وتناولا طعام العشاء وحدهما، ثم أويا إلى الفراش. فحدث الزوج زوجته بما حصل له، وعندها أخرجت الزوجة حلقة الزواج، وأحضرت الوعاء الذي فيه ما اجتثته من أعضاء الرجال الثلاثة، وحدثت زوجها بكل ما حصل. انعقد لسان الزوج من الدهشة، ثم سأل:

كيف أردّ لك كل هذ الجميل؟

فأجابته الزوجة:

لقد رددت الجميل عندما رفضت التنازل عن زوجتك، وهذا يكفيني ويزيد.

بعض حكايات السقاطرة عبارة عن استعادة أو ترجيع للحكايات العربية وشخوصها المعروفين في الأدب الشعبي اليمني، إلا أن أسماء الأبطال يمكن أن تتعرض للتحوير والتبديل، كما في الحكاية التالية التي يأتي فيها أبو نواس باسم علي بوطاير:

حكاية علي بوطاير (بانواس)

كان يا ماكان، كان في أحد البلدان رجل اسمه علي بوطاير، اشتهر بفطنته وذكائه، ونكاته وحكاياته.

وكانت هناك امرأة تعيش مع ولدها بلا معيل. ذات مرة وصل إلى المكان من بلاد أخرى تاجران لا يعرفان معنى النزاهة، فأرادا أن يضحكا على ذقن الصبي، فقالا له:

نعطيك كل أموالنا إذا دخلت ماء البحر وبقيت هناك من المساء حتى الصباح.

كان ابن المرأة الفقيرة راغباً في الكسب، فصدّق كلام التاجرين، رغم خوفه من دخول الماء البارد. طلب منهما أن يسجلا تحريرياً ما وعداه به، ويذيلا الورقة بإمضائيهما، فأعطياه ورقة مذيلة بإمضائيهما.

وحالما غابت الشمس مضى الصبي إلى البحر وغاص في الماء حتى الرقبة، فيما جلست أمه المسنة تدخن الشيشة على الشاطئ، جنب موقد أشعلته هناك.

ظل الصبي جالساً في البحر الهائج حتى الصباح، وارتجفت أوصاله حتى النخاع من برودة الماء، فكاد يتجمد تماماً. إلا أن الشمس أشرقت في الصباح، فتدفأ بعض الشيء. ثم مضى إلى التاجرين وخاطبهما قائلا:

أريد النقود التي وعدتماني بها.

فقال له التاجران الغشاشان:

- انت لم تنفذ الشروط المطلوبة. أمك أمضت الليل كله جالسة على الشاطئ تغذي الموقد بالحطب وتدفئك.

فرد الصبي معترضاً:

كيف يدفئني الموقد وأنا في ماء البحر البارد، بينما هو على الشاطئ بعيداً عني؟

فنهره المخادعان:

اغرب عنا، وإلا ستلقى ما لا يرضيك. لن نعطيك نقوداً.

غضب الصبي وتألم. فهل أمضى الليل كله في الماء البارد جزافاً؟ ومضى يشكو حاله إلى علي بوطاير الفهيم. وجد الشيخ علياً جالساً على ساحل البحر. فبادره قائلاً: «ساعدني، يا شيخ، في حل مشكلتي». «وما مشكلتك؟ حدثني عنها». فحدثه الصبي قائلاً:

- جاءني رجلان ووعداني بتسليم كل ما يمتلكان إذا دخلت ماء البحر حتى الرقبة وبقيت فيه طول الليل، من المغيب حتى الفجر. وقد بقيت في الماء البارد حتى الصباح، بينما أشعلت أمي موقداً على الشاطئ لتدخن منه النارجيلة. وفي الصباح جئت إلى الرجلين مطالباً بحقي، فقالا لي: أمك دفأتك بنيران موقدها من الشاطئ، ولذا أنت لا تستحق النقود.

وسأله علي بوطاير:

هل أخذت منهما تعهداً خطياً؟

نعم. أجاب الصبي وقدم الورقة المذيلة بإمضائي الرجلين إلى الشيخ علي بوطاير، فقال له:

حسناً. امض لحالك.

غادر الشيخ علي الشاطئ ووجه دعوة إلى جميع السلاطين والوزراء والقضاة في البلاد ليتناولوا طعام الغداء عنده في اليوم التالي. ونحر عشر معزات لهذا الغرض وأحضر حطباً وعدة قدور. وأمر بوضع قدور اللحم على الأثافي في مكان، وإشعال النار في مكان آخر يبعد عن القدور عشرين خطوة.

توزع الضيوف على مقاعدهم في انتظار طعام الغداء. حلت الساعة الثالثة بعد الظهر، فشعروا بالجوع، ولا طعام. تطلعوا حواليهم، فرأوا النار في مكان والقدور في مكان. وسألوا من رب الدار:

يا شيخ علي، كيف يُطبخ اللحم إذا كانت النار بعيدة عن القدور؟

فأجابهم الشيخ علي بوطاير متظاهراً بالسذاجة:

حقاً؟ ألن يُطبخ الطعام بهذه الصورة؟

فقال الضيوف مستغربين:

كلا.

هل انتم واثقون؟ - سألهم الشيخ الفهيم من جديد.

طبعا نحن واثقون.

- فقولوا لي، إذن، بالله عليكم، كيف استطاع موقد أشعلته الأم على الشاطئ أن يدفئ صبياً كان في ماء البحر بعيداً عن النار؟

تساءل الشيخ علي بوطاير وعرض على ضيوفه الكبار ورقة التعهد المذيلة بتوقيعي التاجرين. وعندما رأوا الورقة أمروا بمصادرة نقود الرجلين وتسليمها إلى الصبي.

الشعر النبطي

الإبداع الشعري عند السقاطرة متطور للغاية. فلكل قبيلة شعراؤها الشعبيون. والكثيرون منهم مشهورون على نطاق جزيرة سقطرى كلها. الشعر عندهم متعدد المعاني والوجوه. وغالباً ما يستعصي على الفهم، كونه مرتبطاً بمواضيع وحبكات قبلية لا يعرفها إلا أبناء قبيلة الشاعر. ومن أبرز الشعراء الذين التقيتهم في حينه المرحوم سالم أحمد سالم كرّاني من المنطقة الغربية الذي كان يدهشني بتلاوة قصائدة طوال ساعات متتالية. وأشير هنا إلى أن فك رموز الشعر النبطي والقصائد التي سجلناها أمر في منتهى الصعوبة، ذلك لأن السقطرية لا تزال لغة محكية غير مكتوبة، وليس لها أبجدية خاصة بها. إلا أن المشكلة لا تقتصر على ذلك، بل تكمن أيضاً، وبالدرجة الأولى، في كون تسجيلات النصوص الشعرية القديمة لم يبق منها اليوم شيء تقريباً. ذلك لأن طبقة كاملة من الثقافة السقطرية القديمة غابت مع مجيء التعريب ولم يعد لها أثر. ولا بد من جهود خارقة لترميمها واستعادتها. ونعتقد أنه لا يزال في الوقت متسع للحفاظ على تلك الثقافة وتسجيلها وتوثيقها، فهي أيضاً تمثل طرفاً من أطراف الحضارة العربية المترامية، خاصة أنها عريقة عميقة الجذور.

إلى جانب الشعر النبطي الإلقائي الخالص ينتشر في سقطرى نوع مميز من النظم هو الشعر الغنائي الإنشادي. فالأعياد والأفراح والطقوس الاحتفالية والدينية في سقطرى يصاحبها الإنشاد والغناء دوماً. وفي كل فخذ قبلي، بل وحتى في كل عائلة كبيرة، مبدع يتقن نظم النصوص الشعرية الصالحة للإنشاد في المحافل والأعياد، وفي ساعات الراحة والاستجمام. هذه النصوص الشعرية الغنائية تقسم إلى أنواع متخصصة، وهي تتلى أو

تنشد بمصاحبة شتى الأنغام الإيقاعية تبعاً لتصنيفها وعائديتها إلى هذا النوع الشعري أو ذاك. وبعبارة أخرى ثمة سنة أو قانون موسيقي شعري معين لهذه النتاجات الإبداعية يقوم على المقاربة أو التزاوج بين بحور الشعر وبين الألحان.

النوع الأول من الشعر السقطري يسمى «تمتيلو» (جمعها تموتل، وقد تكون على صلة بتمثيل، تماثيل العربية)، ويشمل القصائد الوعظية الأقرب إلى الحكم والأمثال، والموشحة، عادة، برمزية عميقة وكنايات مجازية ليست مفهومة دوماً لمن لا يعرف الوقائع التي تتحدث عنها، وأحياناً لا يفهمها حتى السقاطرة أنفسهم. تقوم هذه المواعظ الشعرية في العادة على قصة واقعية حصلت بالفعل لشخص ما، وهي أشعار لا تنشد، بل تتلى على عجل، وإليكم مثالاً عليها:

كين دي هين نطاعن بيسن
إد- تنيهن إد- كيوده
كور نتيكي تنويك
وت عربيه شكلوتن.

خلاصة معاني هذه الرباعية أن الراعي (وهو هنا بضمير المتكلم) ترك معزه في مرعى تنيهن وكيوده (بالقرب من درسموتن في دعرهو) وعرّج على أقاربه، حيث أمضى الوقت في التدخين وتجاذب أطراف الحديث باللغة العربية. وفي تلك الأثناء هطل مطر غزير، فنفقت المعز. فيا له من ثرثار كسول فقد ماشيته الثمينة.

وهذا مثال مقتضب آخر على الشعر الوعظي من نوع «تمتيلو»:

تنتوبن برهيتن
تي عن تي قنهييتن
وشكي ينتوبن داهن
دؤت عن طيتُدسن

وترجمته الحرفية على وجه التقريب:

تختلف الوالدات،
المربيات، الواحدة عن الأخرى
كما يختلف حاملو السلاح بعضهم عن بعض
بالفطنة والذكاء.

هذه الرباعية الوعظية (قال عنها الشاعر علي عبد الله رجدهي بأنها قديمة جداً) محبوكة في الأصل بالأسلوب التقليدي الملازم للشعر السقطري والقائم على الصورة البلاغية الجمالية وعلى مبدأ «ما قل ودل». وغالباً ما نرى في هذا النوع من النظم أن المقطوعة الشعرية مقسومة قسمين (وليس شطرين). وتلك تركيبة نصادفها كثيراً في هذا النوع من النتاجات الفولكلورية.

القسم الأول من هذه المقطوعة يفيد بأن النساء يربين أطفالهن بأشكال مختلفة، وهذا كما يقول متذوقو شعر المواعظ في سقطرى هو ما يجعل الأولاد «يترعرعون صالحين عند بعض الأمهات وطالحين عند بعضهن الآخر». وتتجلى في هذا القول الفكرة المنطقية المعروفة بشأن ميلاد الأطفال متكافئين متماثلين من حيث نقاوة الطباع، لكن نوعية التربية تحولهم فيما بعد إلى طيبين وأشرار. ولذا تتجلى الفوارق بين النساء، بمنطوق هذا الشعر، في كيفية تربيتهن للأطفال.

اما الرجال، من حملة السلاح الذين يتحدث عنهم القسم الثاني من المقطوعة الشعرية، فهم أيضاً يختلفون بعضهم عن بعض. وليس من قبيل الصدفة أن تضع المقطوعة الرجال في المرتبة الثانية، فالفوارق فيما بينهم قائمة على التربية، وكأنها مشتقة من الفوارق بين النساء اللواتي تولين تربيتهم في الصغر. إلا أن الرجال يختلفون بعضهم عن بعض من حيث الطباع والذكاء والسجايا الأخلاقية، أي كل ما يبنون عليه تصرفاتهم وسلوكهم، كما توحي إلينا به هذه المقطوعة وغيرها من شذرات الشعر الوعظي السقطري.

كما يُتخذ هذا النوع من الشعر وسيلة للتعبير عن الذات، فالمتكلم في هذه الرباعيات غالبا ما يتحدث عن نفسه، عن همومه ومصائبه، عن أفراحه وأتراحه، عن نجاحاته وإخفاقاته في الحب والحياة. وعلى سبيل المثال نظم فقير مسكين رباعية يشكو فيها حاله، فقال:

آكي تو هبيليه	(آكل التمرهند)
جريمي قسيتهن	(وحشف الدوم، فأنا نحيف)
و ياحق دبال رنهم	(وأمضغ سرطان البحر)
عيقل تو د بال لافي	(يا ويلي منه، جعلني ضعيف).

وهذا مثال رابع على «التمتيلو»:

تنطيفن ارونك	(خارت الأقدام)
عج تراعي اروني	(عند راعي الأغنام)

يال معرك شرعهيسن (فلا يعطي سمكاً من الشباك)

وال انكركر كِن يهيني (ولا يحرث تربة للبذار)

النوع الثاني من الشعر النبطي هو «تنتيرو» (جمعها تنوتر) الشبيه بالنوع الأول من حيث كونه رباعيات أيضاً، إلا أنها تنشد بنغم أو إيقاع واحد، وبتكرار كثير. كما نصادف هذه الرباعيات في نصوص الحكايات، حيث يتغنى بها أبطالها وشخوصها. وإليكم مثالاً على هذا النوع من الشعر سجلناه في فترة متأخرة بقرية دعرهو عن الشيخ عيسى عامر أحمد:

عوقلك عيك عاقل ركهسن (تركتك أنت الذكي، والآخر اقتاد المعز.)

وهو هك اراعي كادح (بينما أرعاك أنا يا مسكين.)

نيم محسن تري من اوبني (أي حجر أفضل:)

سلكيو عن دي من ماطف (حجر الجبال أم حجر الوديان؟)

سلكيو تكوس بيني (حجر الجبال الذي يثبت جيداً في أركان البنيان)

اركان ومسهبيتن (وعلى السطوح المستديرة)

دي من ماطف كي نكالح (أم حجر الوديان)

تعيك وتلا طع لافي (الذي إذا سقط يهشم العظام ويقتل الشجعان؟)

والمعنى الذي يرمي إليه صاحب هاتين الرباعيتين، كما هو واضح، تفضيل صخور الجبال في البناء.

النوع الثالث من الشعر الغنائي في سقطرى يسمى عندهم «القصائد» (القصايد). ونجد فيها جميعاً مفردات من اللهجة الكثيرية المنتشرة في الجزء الجنوبي الشرقي من اليمن. كما تأتي بعض القصائد مبنية بمجملها على صيغة مبسطة لمفردات هذه اللهجة. شعر القصايد ينشد ويغنى أيضاً، إلا أن أنغامه وإيقاعاته تختلف عن تلك التي تنشد بها رباعيات النوع السابق. هذا الشعر ينشده الرجال فقط، وله ترديدته المكررة «هدانا هدان» (وتلفظ في بعض الأماكن: هدون أدون). وهو كثيراً ما ينشد في مختلف المناسبات والأفراح، كالختان والزفاف وما إلى ذلك. إلا أنه يمكن أن يتخذ طابع وسيلة التسلية الصرف. إليكم مقطعاً من قصيدة ألقاها ناظمها في وليمة «ضيافة»:

:

نيسة سرت مش مقتلب

لال دي نجيمي سعيد

دورت ليل ونهار

والطريق ال حصلت.

ويقصد الشاعر أنه كان سيتيه في نيسة لولا حظه السعيد الذي هداه إلى طريق «الضيافة». وإلا لكان سيظل يبحث عنه ليل نهار.

وإليكم أبياتاً من النوع الرابع المسمى بالسقطرية «قولهل»، أي شعر البناء والعمل:

فاني ها دوميك (أنت تنام هنا دوماً)

فاني ها عتينك (وأنا أجر الحبل وحدي).

والمعنى المقصود: تحرك يا هذا، ولا تتهاون في العمل.

كتب الباحث السقطري فهد سليم كفاين الشزابي المهتم بجمع الفولكلور وترجمة الأدب السقطري عن هذا الشعر يقول:

«يستخدم هذا النوع من الغناء أثناء العمل، وهوعبارة عن تكرار بيتين أو أكثر عدة مرات بإيقاع سريع وصوت عال ينقسم فيه العمال إلى مجموعتين، المجموعة الأولى تردد الصدر مرة واحدة، فتجيبها المجموعة الأخرى بعجز البيت مرة واحدة وهكذا مرات. يساعد هذا الترديد على زيادة نشاط العمل واستمراره، وغالباً ما تكون الألفاظ المستخدمة معبرة عن نوع العمل، كالبناء أو الرفع أو الحفر أو الحمل. ويستخدم عندما يقوم العمال بسقف البيت ورفع الأحجار والتراب، وعند الصيادين عندما يرفعون شباكهم، مثل:

المجموعة الأولى: مر جهل دمن بر (أحجار وتراب من الخارج)

المجموعة الثانية: الده دبر بس (ليس الذي كان فيها)

المجموعة الأولى: قيد انه وجونيه (إليّ بحبل وشواله)

المجموعة الثانية: صامه حبشيه شبب (ماتت العجوز الحبشية)

المجموعة الأولى: حوره ولبنه (أبيض وأسود)

المجموعة الثانية: قاعر دبشيشه (منزل طائر البشوشة)

المجموعة الأولى: الأحامل دمباللن (لا أحب المتكاسل)

المجموعة الثانية: امباعد تامر وحمئه (بعد السمن والتمر)».

(الشزابي، 2006 : 91 - 92).

والنوع الخامس، «صمهر» أو«صامهر» (السمر)، شعر نبطي غنائي ينشده الرجال والنساء معاً. وله إيقاعه المميز وترديدته المعروفة «واواه» أو «واو يا واو». أستشهد هنا أيضاً بما قاله فهد الشزابي عن الصامهر، ولا سيما أنه يورد مثالاً عليه من قصيدة للشاعر الرائع سالم كرّاني:

«وهو أكثر أنواع الغناء السقطري انتشاراً وأوسعه استخداماً، ويستخدم عادة في المناسبات كالأعراس والزفاف والختان، وكذلك في المجالس والرحلات والأسفار، وخاصة على ظهور الإبل. فبينما تشق قوافل الإبل طريقها وسط الجبال بين الأودية المترامية بسهولها الخضراء يصدح السقطري ويرفع عقيرته بغنائه المميز «صامهر» فيتجاوب معه رفاقه وتسعد الرحلة. وتستخدم فيهذا الغناء جميع أنواع الشعر السقطري: الغزل والمدح والهجاء والرثاء والوصف والعتاب، وبه تغنى القصائد السقطرية المطولة بعشرات الأبيات، وبه يتجاذب الشعراء أطراف الشعر ويتمازحون أو يتهاجمون. وكثيراً ما تحدث المساجلات الشعرية أثناء السمار، فكل شاعر حوله مريدوه، والمعجبون به، يتلقفون شعره فيخصمه، فيرددونه مرات عديدة بينما الشاعر الآخر يستمع هو ومريدوه، ثم لا يلبث أن يرد على خصمه شعراً يتغنى به مريدوه لتبدأ المساجلة، وتستمر عادة إلى وقت متأخر من الليل، وقد يكون فيالمجلس عشرات الشعراء يشاركون فيالمساجلة بأدوار مرتبة وتنسيق بديع.

يقول الشاعر سالم أحمد سالم كرّاني فيقصيدته المغناة «يا طير»:

بلاه عك ده طير تضالع	(بالله عليك ايها الطير أخبر)
وتموتلن صراحة	(تكلم بصراحة)
من هك أعدأ من شبيره	(من تسبب بارتحالك)
من كاف در كبوتي	(من سفوح التلتين)
سر إنهي الله تضالع	(يا إلهي إجلِ سراً)
وعاليهن دشقاري	(وحباً يختفي)
دعاقل بستين ماتر	(عمق ستين متراً)
بخمس درجة سياسة	(ثم يعلو خمسة أدوار احتيالاً)». (الشزابي،

2006: 86 - 87).

والنوع السادس، «تعودهن»، يمثل أغاني الأفراح والأعياد التي ينشدها الرجال والنساء. وأستشهد مرة أخرى بما كتبه فهد الشزابي:

«وهو نوع كثير الانتشار ويتشابه مع «صامهر»، إلا أنه يختلف عنه بسرعة الإيقاع والرقص، الذي يصاحبه عادة، ويقتصر استخدامه في المناسبات «الأعراس والزفاف» حيث يلقي أحد الشعراء بيتاً أو بيتين وهو قائم بين صف طويل من الرجال، يقابله صف من النساء، فيردد الحاضرون البيتين باللحن ويبدؤون بالرقص، وهو أن يتقدم صف الرجال بخطوات منظمة مطابقة لإيقاع الصوت ونغماته حتى يقترب من صف النساء، ويبدأ صف النساء بالخطوات نفسها، وهكذا من قصيدة إلى أخرى ومن شاعر إلى شاعر وساعات طويلة إلى قبل طلوع الفجر.

يقول الشاعر محمد أحمد بياضي:

خانت تو دحبر بوري	(خانتني المنقّطة)
إصفورة دمن مطله	(عصفورة من المكلا)
وهو الماعدك خداعه	(وما قصدت خداعها)
يحفض الله شرافش	(فليحفظ الله شرفك)
نصابش حي لتر دقاعر	(وضعت لي بباب المنزل)
مرتمه دل حولن	(فخاخك الثقيلة).

يردد الجميع البيت الأول ويخطون خطوات منظمة إلى الأمام، على إيقاع اللحن، ثم يعودون إلى الخلف ويبدأ الصف الذي يقابله بترديد البيت الثاني بخطوات إلى الأمام ويعود بعدها إلى الخلف وهكذا» (الشزابي، 2006: 89 - 90).

والنوع السابع هو «تندانه» أو التنويمة التي هي غناء شجي تنشده الأم لطفلها في المهد عندما تهدهده.

ويتحدث فهد الشزابي في «مختارات من الأدب السقطري» عن نوع ثامن، هو «قانونه»، يقول عنه إنه «غناء سقطري عادة ما يتغنى به فرد واحد رجلاً كان أو امرأة. غالباً ما تتغنى به الراعية وهي باحثة عن ضأنها بين المراعي قبل الغروب. وفيه يستخدم العزف على الناي السقطري. وهو صوت رقيق مرهف يقوم على تفعيلة قانونة قانونة وتتبع بالبيت المراد التغني به، ويتبعها لحن آخر مقارب له. ومن أمثلته:

يوتن جنة التآبع	(أيها الناس الجنة لا تُنال)
من حايها عاس الجونون	(ولا تلتقط من الأرض)
عر تعاجب عامل دشكار	(بل تريد عملاً صالحاً)

ولبب ديها من ادهوره (وقلباً طيباً عند التعامل مع الآخرين)»

(الشزابي، 2006: 93 - 94).

وهناك نوع مميز من الشعر غير الغنائي نشرت أنا شخصياً أول نماذجه، ويسميه السقاطرة «طلبة» أو «موبر». وهو عبارة عن أدعية وابتهالات منظومة تنشد أثناء نحر الذبائح والأضاحي. ويطلب منشدوها من الله أن يهبهم الصحة والعافية والمزيد من الأنعام والماشية، ويُشفي المرضى ويُنزل المطر مدراراً وما إلى ذلك. يجلس المنشد القرفصاء ممسكاً قرني الدابة بيد، ماسحاً على جنبيها باليد الأخرى على إيقاع القصيدة.

في قبيلة بني مالك تسنى لنا أن نستمع إلى أقدم صيغة للدعاء الشعري، حيث كان الحاضرون يرددون كلمة «آمّل» - «آمين» بعد كل بيت. وكان واضحاً أن ذلك من الطقوس الوثنية المتبقية من العهود الغابرة والتي ربما ترسبت فوقها مؤثرات نصرانية في البداية، ثم إسلامية. وليس من قبيل الصدفة أن يصف أحد السقاطرة المرافقين لنا، من المتضلعين في العلوم الإسلامية، هذا النوع من الأدعية والابتهالات بالشِّرك الذي يحرمه الإسلام.

ومن بين الابتهالات الشعرية التي تسنى لي أن أسجلها في قبيلة بني مالك دعاءان فريدان من نوعهما، ذلك لأنهما يمجدان الشمس. فهل تعتبر تلك الأدعية صدى واسترجاعاً لعبادة الشمس التي كانت قائمة في سقطرى في زمن ما؟ إذا قارنا هذا الافتراض بالمؤشرات الأخرى، القليلة في الحقيقة، التي تركز على دور الفجر والمغيب في الكثير من العادات والمراسم والطقوس، وبالمصطلحات والمفردات الكثيرة المتعلقة بشعاع الشمس والنور والفجر، وبتوجه المدافن والمقابر القديمة نحو محور الشرق - الغرب، وما إلى ذلك، يبدو لنا أن هذا الافتراض له ما يبرره.

شعراء القبائل السقطرية غالباً ما يقيمون مباريات شعرية فيما بينهم، مثلما كان يفعل شعراء المعلقات في سوق عكاظ. وإليكم نموذجاً من مساجلة قصيرة بين شاعرين جرت بلهجة عربية:

سكهي:

صويع ال يهز جبال
النار بيدّو ال يلوف يدّ
ولسان اشتعلك
اجباضنك قهرة

صويع:

قهرة بيدّ الله

وبراس الحكيمة

وهات ال سلطان الروم

عن تسكهي أسألك.

سجلتُ هذا النص بإملاء الشاعر الرائع علي عبد الله رجدهي (شكل رقم 9 - 5). والمساجلة فيه تجري بين شخصين أحدهما يلقب سكهي، أي من قبيلة سكهو ومن القرية التي تحمل الاسم نفسه ، والآخر يلقب صويع نسبة إلى الإصبع. السكهي يسخر من منافسه ويمتدح نفسه، ويقول إن خصمه لا يستطيع أن يزحزح الجبال (بينما هو شخصياً يستطيع، كما نفهم من إيحاء الكلمات)، ولا يقوى على إشعال النار (التي كان السقاطرة يشعلونها بحك العيدان بعد جهد جهيد)، ولا يجيد سوى الثرثرة وتحريك اللسان والتلويح باليدين اللتين تكادان تلتهبان من سرعة الحركة والإيماءات (كما يفعل منشدو الأشعار المتحمسون عادة). وأخيراً يتباهى السكهي بأنه قادر على قهر غريمه وتحطيمه.

في هذه المساجلة الفكاهية يتحقق الفوز على الخصم ليس فقط بسوط الملامة والهجاء، وحدّة التهكم والسخرية، والإفراط في الزهو والتباهي بالمناقب، بل وكذلك بأصالة أسلوب الجدل والمحاججة، وذكاء الردود وتفنيد تهجمات الخصم، وروح النكتة والفكاهة. ونحن نرى صويع لا يتباهى بمناقبه وقدرته على هز الجبال، بل يقول إن القوة الحقيقية بيد الله، وإن قوة الإنسان تكمن في ذكائه وعقله وحكمته. ويرد على تبختر الخصم وزهوه بتذكيره أنه ليس سلطان الروم وبيزنطة، بل هو مجرد بدوي من قبيلة سكهو.

للأسف الشديد ليست المواهب الشعرية والغنائية الثرة لدى السقطريين معروفة تماماً خارج جزيرتهم، في حين أن شعب سقطرى، رغم أقسى وأعتى ظروف الصراع من أجل البقاء، ورغم العزلة الطويلة الأمد، ورغم الفقر والكوارث الطبيعية كالمجاعة والجفاف الفظيع، تمكن أن يصون ويطور ثقافة رائعة من نثر وشعر وأغان سجل فيها بسماته وبصماته، أفراحه وأتراحه، صبره وتحمله، عزته وشهامته، طيبة قلبه واحترامه للآخرين، حبه للتسامح والوئام، واستعداده للتعاضد والمؤازرة.

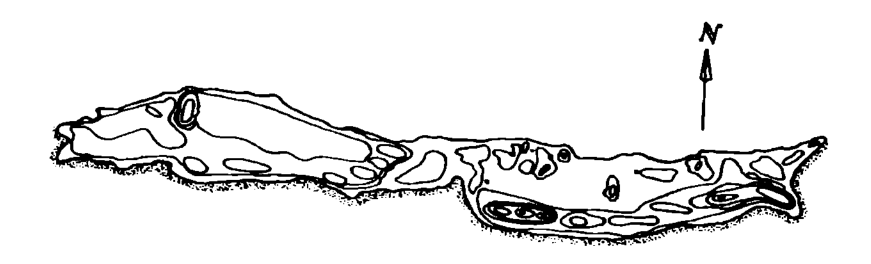
الفصل العاشر
عبد الكوري

عبد الكوري

كنت أود من زمن بعيد زيارة جزيرة عبد الكوري التي بدت كأنها في عزلة أكبر من عزلة سقطرى. حتى تمكنا خلال موسم البحث الميداني لعام 1985 من القيام برحلة متخصصة إلى هذه الجزيرة. كان مبعث اهتمامنا بالدرجة الأولى هو أن سكان عبد الكوري، رغم قلة عددهم (في العام 1985 بلغ العدد 224 شخصاً، وفي عام 1967 كان يقيم في الجزيرة 151 شخصاً فقط من رعايا سلطان سقطرى)، إنما يتكلمون لهجة من لهجات اللغة السقطرية تختلف كثيراً عن اللهجات التي يتحدث بها أهل سقطرى.

طبيعة الجزيرة شحيحة للغاية، والغطاء النباتي قليل. أما أكثر ما يعقد حياة أهل الجزيرة فهو عدم توفر احتياطي للمياه العذبة تقريباً، فمياه الآبار التي يشرب منها السكان شديدة الملوحة. وكنا نجد مشقة في شربها لعدم تعودنا عليها، وخيل إلينا أنها لا تروي العطش، حتى الشاي المحلّى بالسكر كان له هنا مذاق مالح (انظر شكل رقم 10 - 1).

ومع ذلك تعود الناس والماشية القليلة هنا من معز وأغنام على هذه المياه، فهم يعيشون في هذه الأنحاء، على ما يبدو، من زمن بعيد. يدل على ذلك وجود لهجة عبد الكوري المنبثقة من اللغة السقطرية، لكنها لا تنتمي إلى مجاميع اللهجات المنتشرة في سقطرى، إذ لم تشهد جزيرة عبد الكوري هجرات كبيرة لأي من القبائل السقطرية. ومن الناحية الإثنية لا يعتبر سكان عبد الكوري متجانسين، بل تشكلوا على أساس اختلاط مختلف العناصر والمكونات، بما في ذلك المكون الحضرمي.



(شكل رقم 10 ـ 1)

يعمل جميع سكان عبد الكوري في صيد الأسماك، ولذلك يتركزون على الشريط الساحلي الشمالي والجنوبي في ثمانية مراكز آهلة هي: بير العجوز، وبيت عيسى، وخيمة، وعالية، وخيصة صالح، والتواهي، وسرهن، ومنزبيتن. ومن الملفت للنظر أن بعض المراكز الآهلة تحمل أسماء عربية هي المعروفة أكثر خارج نطاق الجزيرة، ولكنّ لها مقابلاً في اللهجة المحلية: فمثلاً «بير العجوز» تسمى «تشاحل»، و«بيت عيسى» تسمى «جورد»، و«عالية» تسمى «كسرر»، و«خيصة صالح» تسمى «تشيكر»، و«التواهي» تسمى «حامر ـ عفيرو».

صيد السمك في الجزيرة حكر على الرجال وحدهم، وهم يصطادونه بكميات تكفي لإطعام أسرهم ولبيعه في حضرموت. وإلى هناك ينقلون سمك القرش المجفف والأسقمري السلطاني (سمك الديرك) المملح على زوارق من نوع «ورّة». ويبتاعون بما يحصلون عليه من نقود لوازم المعيشة من أرز وطحين وشاي وملح طعام وأدوات منزلية وملابس وغيرها. ونظراً لتطور التموين في جزيرة سقطرى أصبح سكان عبد الكوري يشترون المواد الغذائية من هناك في الأساس.

وسائل الإنتاج الرئيسية للصيادين، من زوارق ومراكب ومحركات وأدوات، ملك خاص للأسرة أو لمجموعة أسر، والأنواع الأساسية من أدوات الصيد هي الشباك المنصوبة، والشباك المطروحة (شبك)، والشباك الممدودة (شكّة)، والمصيدة المخروطية المظفورة، وتسمى (قرقور).

وخلافاً عن سكان القسم القاري (حضرموت) وأهل سقطرى يستخدم الناس في عبد الكوري لحم السلاحف البحرية في طعامهم. وفي الغالب فإن ذلك يعوضهم إلى حد ما عن نقص البروتينات في غذائهم. وروى لنا «ألف سين»، وهو من الذين أجابوا عن أسئلة استطلاع الرأي، أن السلحفاة تقع أحياناً في مصيدة « القرقور»، فيعتبر ذلك توفيقاً عظيماً. وعندئذ يطلقون على السلحفاة توصيف «جديهو» (الهدية غير المنتظرة). ويوزعون لحمها على كافة أفراد الأسرة، فيتمكن كل منهم من الأكل حتى الشبع، كذلك يمكن اصطياد السلحفاة بالشص. وفي فصل الربيع، عندما تخرج السلاحف من البحر إلى الشاطئ، لتضع هناك بيوضها وتدفنها في الرمل، ينقض عليها الصيادون المختبئون ويمسكون بها وينهبون بيضها ليستخدموه في طعامهم. أما البيض المستخرج من بطن السلحفاة المقتولة فيعد من أطايب الطعام.

والرعي هو مصدر إضافي لمعيشة السكان المحليين الذين يربون المعز، وبدرجة أقل

الغنم. عدد هذه الماشية الصغيرة قليل نظراً لشح العشب والعلف، فيبلغ نصيب الأسرة منها قرابة 15 رأساً في المتوسط. وخلافاً لسقطرى فالأرض هنا ملك مشاع لجميع أهل الجزيرة، ويرعى كل منهم ماشيته حيث يشاء. والنساء هن اللائي يرعين الماشية، ويجلبن الماء والحطب، ويعددن الطعام، ويعتنين بالأولاد.

وبفضل التبادل النشيط مع حضرموت نجد في بيوت سكان عبد الكوري أدوات منزلية أكثر مما لدى الأسر السقطرية التقليدية (التي ليس لها أبناء مهاجرون ولا تعمل في التجارة أو البناء أو النقل، أي في المهن المكسبة). كانت لدى معظم الأسر في عبد الكوري منذ تلك الفترة أجهزة راديو ترانزستور أو أجهزة تسجيل.

قبل حلول موسم الصيف، عندما تشتد الرياح فلا يستطيع الصيادون الخروج إلى البحر، يدّخر الأهالي كل ما يحتاجون إليه من مؤونة (شكل رقم 10 - 2).

خلال عملنا في عبد الكوري وضعنا نصب أعيننا مهمة الكشف عن أصل سكان الجزيرة الحاليين وتركيبتهم القبلية - العشائرية وتوزيعهم من حيث العمر والجنس، ومنظومة علاقات الزواج والأسرة، وخصائص لغة الكلام والنماذج الفولكلورية.

وأظهرت المادة المتواضعة التي جمعناها ميدانياً أثناء العمل أن الزيجات تتم في الجزيرة بحرية، دون تقيد صارم بالقواعد التقليدية، وذلك لمحدودية إمكانات الزواج. فلا يوضع في الاعتبار سوى المصلحة الاقتصادية للأسر والعشائر. ورغم ما يبدو من عدم جاذبية عبد الكوري وظروف المعيشة الشاقة فيها، إلا أن هناك من يأتي من الجزء القاري إلى الجزيرة للإقامة فيها، وإنْ كانت تلك حالات قليلة. والزواج في عبد الكوري كان في تلك الفترة أكثر استقراراً منه في سقطرى، فنسبة الطلاق أقل. (نظراً لقلة عدد السكان لا موجب لإجراء حسابات متخصصة، ويكفي الاطلاع على نتائج دراستي للأسر في الجزيرة).

وصلتُ إلى عبد الكوري، فنزلت على ساحلها الشمالي وأمضيت بضعة أيام في قرى بير العجوز، وسرهن، وخيصة صالح، وعالية، ثم زرت قرية بيت عيسى. وشملت الدراسة الميدانية 150 شخصاً (أي أكثر من نصف عدد سكان الجزيرة)، وإلى ذلك أجريتُ أحاديث مع 30 - 40 شخصاً. وأظهرت تسجيلات الفولكلور المحلي التي قمنا بها، ونماذج الكلام اليومي والشعري، وجود اختلافات كبيرة بين اللهجة القورية للغة السقطرية وبين الأشكال التي سجلناها لهذه اللغة خلال بحوثنا ودراساتنا الميدانية في جزيرة سقطرى.

ينقسم سكان عبد الكوري إلى عشائر وأفخاذ يقيم كل منها في المركز السكاني المناسب،

ولكنها ليست متجانسة وليست من دم واحد، كما هو الحال في سقطرى.



(شكل رقم 10 ـ 2)

يرى سكان قرية بير العجوز أو تشاحل (المسماة على اسم الوادي) أن أصل عشيرتهم هو صالح، والد جد شيخهم الحالي، من أبناء قبيلة جمحي الحضرمية الذي استقر في الجزيرة. جاء إلى هنا مع زوجته وابنته، وبنى كوخاً غدا فيما بعد نواة للقرية. ويقال إن سبب مجيئه إلى جزيرة عبد الكوري هو الجوع الذي عمّ حضرموت آنذاك لعدم قدرة الصيادين على الخروج إلى البحر بعدما ساءت الأحوال الجوية لأمد طويل. عندئذٍ قرر صالح أن يجرب حظه في هذه الجزيرة النائية التي اشتهرت آنذاك بوفرة أسماكها. وربما لعب دوراً في ذلك ما يتميز به الحضارمة من روح فاعلة وما عرف عنهم من رغبة متواصلة في تغيير المكان. ويؤكد أحفاد صالح الحاليون أنه قبل قدوم والد جدهم لم يكن في الجزيرة سكان محليون ولم يكن السقاطرة قد استوطنوها بعد. كما أفاد الأهالي أن عبد الكوري كانت في السابق على ارتباط وثيق مع الصومال، وأن الصيادين الصوماليين غالباً ما كانوا يترددون عليها. فيما ذكر ج. براون (Brown, 1966: 8) أن وباءً شرساً اجتاح جزيرة عبد الكوري وفتك بقسم كبير من سكانها. وإذا كانت مثل هذه الأوبئة قد حصلت في أزمنة أبعد، فمن المحتمل أن يكون أقدم سكان الجزيرة الأصليين قد انقرضوا تماماً.

ولكنّ متى، والحال هذه، ظهرت القورية بصفتها لهجة للغة السقطرية؟ كانت هذه

اللهجة، بالمناسبة، موجودة في القرن التاسع عشر، وقد كتبت عنها بعثة لاندبرغ ـ ميولر وقدمت وصفاً موجزاً لها. ثم إن تاريخ القرى الأخرى في الجزيرة يفند ما يقوله أهالي بير العجوز.

وأياً كان الأمر فقد تعين علينا أن ندرس تركيبة السكان المحليين وخصائص تنظيمهم العشائري ـ القبلي، الأمر الذي يمكن أن يساعد في حل مسألة منشأ مجتمع عبد الكوري.

كانت قرية بير العجوز (في الفترة موضوع البحث) تتكون من سبعة منازل أو بيوت:

البيت ـ 1 رب البيت سالم صالح علي صالح (ابن حفيد مؤسس العشيرة). زوجته تدعى فاطمة، وهي ابنة خاله. لديهما خمسة أطفال (ولدان وثلاث بنات). إحدى البنات كانت متزوجة من ابن عمها (انظر البيت ـ 2)، فطلقها وترك لها ثلاث بنات، وأبناء سالم رحلوا إلى حضرموت. سالم نفسه متقدم في السن، ومن الصعب عليه مزاولة العمل ورعاية البيت، ولكن ابن أخيه يساعده. العائلة تضم سبعة أشخاص.

البيت ـ 2 رب البيت سالم حسن صالح، وهو ابن أخي سالم صالح (انظر البيت ـ 1). بعد وفاة والده حسن تزوجت أمه مرة أخرى وانتقلت إلى زوجها الجديد، بينما تربى سالم الصغير في كنف عمه سالم صالح، وعندما كبر تزوج ثم طلق. تزوج للمرة الثانية فتاة من قرية بيت عيسى، ولديه من زواجه الثاني ولدان. مجموع أفراد العائلة أربعة أشخاص.

البيت ـ 3 رب البيت سالم عبد الله سوري، تنحدر أصوله من منطقة سور في مسقط (عمان) وقبيلة سوري (عدة أشخاص من هذه القبيلة استقروا في جزيرة عبد الكوري). لديه ثلاث أخوات. متزوج وله ثلاثة أبناء (ولدان وبنت). مجموع أفراد العائلة ثمانية أشخاص.

البيت ـ 4 رب البيت عوض سالم باموسى. تنحدر أصوله من قبيلة باموسى الحضرمية (منطقة قصيعر). في زواجه الأول اقترن بفتاة من قرية بيت عيسى (حيث يعيش أخلاف قبيلتي سور والمهرة)، ثم طلق زوجته. لديه من هذا الزواج ثلاثة أبناء (ولد وبنتان) تربوا في كنف أمهم، ثم تزوج ابنه سالم وانتقل إلى سرهن (انظر سرهن، البيت ـ 7). وفي زواجه الثاني اقترن عوض سالم باموسى بامرأة من قبيلة سوري، وهي شقيقة سالم عبد الله (انظر البيت ـ 3)، وله منها ولد وبنت. مجموع أفراد الأسرة أربعة أشخاص.

البيت ـ 5 رب البيت جمعان سعيد باموسى، ابن أخ عوض سالم (انظر البيت ـ 4)،

متزوج من حفيدة عمه من زواجه الأول، له منها ولد وبنت. مجموع أفراد الأسرة أربعة أشخاص.

البيت ـ 6 رب البيت نسيب عبيّد . جاء إلى الجزيرة من حضرموت طلباً للرزق. متزوج من شقيقة سالم عبد الله (انظر البيت ـ 3)، واستقر هنا. لديه أربعة أبناء (ثلاثة أولاد وبنت). مجموع أفراد الأسرة ستة أشخاص.

البيت ـ 7 رب البيت سعيد سالم باموسَى. متزوج من شقيقة سالم عبد الله (انظر البيت ـ 3). لديه أربعة أبناء (ثلاثة أولاد وبنت). أحد أبنائه متزوج من حفيدة سالم صالح (انظر البيت ـ 1). لديه ولد وبنت . الجميع يعيشون معاً. مجموع أفراد الأسرة تسعة أشخاص.

وعلى ذلك فإن سكان بير العجوز البالغ عددهم 43 شخصاً يشكلون، من جهة، عائلة موسعة، وتجمعاً بشرياً مرتبطاً بعلاقات أسرية وثيقة، ويمثلون من جهة أخرى، مجتمعاً حديث التشكيل وعلى أساس عناصر متنوعة (قبائل جمحي وسور وباموسى). سكان القرية، مثلهم مثل سكان الجزيرة، يتقنون اللغة العربية، ويتحدثون بلهجة حضرموت، ولكنهم يتحولون إلى اللغة السقطرية بسهولة، ويفضلونها في التخاطب فيما بينهم.

وغير بعيد عن قرية بير العجوز توجد قرية سرهن التي تتألف في الواقع من دار واحدة كبيرة تربطها علاقات وثيقة بأحد بيوت بير العجوز. ونحن، إذ قسمنا أهل هذه القرية إلى سبعة بيوت لتسهيل الدراسة، فإننا ننوه إلى أن رؤساء العائلات ليسوا هم أصحاب البيوت، رغم أنهم يعيشون في أكواخ مستقلة ويشكلون نواة الأسرة الموسعة.

البيت ـ 1 رب هذه العائلة الأبوية في سرهن هو سالم عيسى جبران، وينتمي إلى أهل سقطرى الأصليين من جزيرة سمحة. في هذه الجزيرة الصغيرة تعيش جماعة قليلة من الصيادين ترجع أصولهم إلى قبائل غرب سقطرى ويتحدثون باللهجة الغربية للغة السقطرية.

جاء جد سالم إلى عبد الكوري من جزيرة سمحة مع زوجته، وتزوج ابنه عيسى من امرأة من قبيلة سوري. ابنهما سليم متزوج من امرأة من قبيلة جمحي من قرية بير العجوز. وكانت هذه المرأة من قبل متزوجة من علي منصور، ابن عمه الذي مات وترك وراءه زوجته وسبعة أبناء: ولداً صغيراً اسمه صالح (لم يبلغ سن الرشد آنذاك) وست بنات. وأنجبت المرأة من سالم بنتاً تزوجت في حضرموت (زوجها من قبيلة يزيد)، لديها

ابنان: ولد وبنت. البنات الست جميعا متزوجات. واحدة في سرهن من عوض العبد (انظر البيت ـ 6). والثانية متزوجة من سعيد محمد يافعي (انظر البيت ـ 5). والثالثة متزوجة من أحمد عبد الله، ابن أخي سالم (انظر البيت ـ 2). والرابعة متزوجة من محمد عبد الله، ابن أخي سالم. والخامسة متزوجة من صالح سعيد صالح من قرية بيت عيسى، من قبيلة سوري، لديها ثلاثة أبناء: ولدان وبنت. والسادسة متزوجة من صالح سالم عيسى من قرية بيت عيسى، من قبيلة المهرة.

في الماضي كان يعيش مع سالم أخوه عبد الله عيسى، وبعد وفاته تكفل سالم بأرملة أخيه وأولاده السبعة (أربعة صبيان وثلاث بنات). ثلاثة من الأبناء كبروا وتزوجوا ويعيشون في دور مستقلة وإنْ لم ينفصلوا في واقع الأمر (انظر البيوت 2 - 4). خالد عبد الله لم يتزوج حتى ذلك الحين، وكان يعيش مع والده. البنات تزوجن وانتقلن إلى أزواجهن: الأولى تزوجت من صالح ابن عوض من قرية بير العجوز (انظر بير العجوز، البيت ـ 4). والثانية تزوجت من سليم صالح عيسى من قرية بيت عيسى من قبيلة المهرة، ولديها ثلاثة أولاد: ابن وبنتان. والثالثة تزوجت من صياد وصل بقاربه ذات مرة إلى عبد الكوري قادماً من حضرموت. وهي تقيم معه هناك دون ارتباط بالجزيرة.

مجموع الأفراد في هذا البيت خمسة.

البيت ـ 2 أحمد عبد الله عيسى. ابن أخي سالم (انظر البيت ـ 1). متزوج من ابنة عمه، وليس لديهما أطفال. الأسرة تضم شخصين فقط

البيت ـ 3 عيسى عبد الله عيسى. ابن أخي سالم (انظر البيت 1). متزوج من ابنة عوض من بير العجوز (البيت 4). لديه ثلاثة أبناء: (ولدان وبنت). في الأسرة خمسة أشخاص.

البيت ـ 4 محمد عبد الله. ابن أخي سالم (انظر البيت ـ 1). متزوج من إبنة عمه. لديه أربعة أبناء (ثلاثة أولاد وبنت). المجموع ستة أشخاص.

البيت ـ 5 سعيد محمد يافعي. جاء من حضرموت، وهو من قبيلة يافع. متزوج من ابنة ابن عم سالم (انظر البيت ـ 1). لديه ثمانية أبناء: (خمسة أولاد وثلاث بنات). المجموع عشرة أشخاص.

البيت ـ 6 عوض العبد. ينحدر من حضرموت. تدل كنيته على انتمائه إلى فئة العبيد الأفارقة هناك. متزوج من ابنة ابن عم سالم (انظر البيت ـ 1). لديه بنت وولد. المجموع

أربعة أشخاص.

البيت ـ 7 سالم عوض باموسى ابن عوض الذي من قرية بير العجوز (انظر بير العجوز، البيت ـ 4). متزوج من ابنة أخي سالم (انظر البيت ـ 1). لديه ثلاثة أبناء (ولد وبنتان). المجموع خمسة أشخاص.

إجمالي سكان قرية سرهن 37 شخصاً.

من واقع هذه القرية نرى جيداً خصائص الأسرة الأبوية في عبد الكوري. فمن الأبيات السبعة المذكورة تشكل البيوت 1 - 4 استثمارة منزلية واحدة وأسرة أبوية كبيرة واحدة، رغم أن أبناء أخي سالم الثلاثة يعيشون في أكواخ مستقلة. فجميع الدخل النقدي والعائدات الأخرى (السمك والمنتجات الحيوانية) يُعطى إلى سالم، وهو المتصرف فيه وصاحب القرار، وهو الذي يعطي الموافقة على الزواج، ويحدد المبلغ المطلوب لمهر العروس ولإحياء العرس، ويأذن بصرف هذا المبلغ من المال أو ذاك لأي غرض كان، ويدير الشؤون المعيشية والإنتاجية.

سالم ابن عوض من بير العجوز (انظر سرهن، البيت ـ 7) يقدم النقود والمواد الغذائية إلى أبيه (انظر بير العجوز، البيت ـ 4) رغم أنه يعيش هنا. وعلى هذا فهو يبدو كجزء من عائلة موسعة هي عائلة عوض، الذي يعتبر هو أيضاً، مثله مثل سالم عيسى في سرهن، الأب الأكبر للعائلة ويؤدي الوظائف المنوطة به. فهو يخصص لسالم المال للإنفاق على بيته، بما في ذلك ما يلزم لمأكله. وبعبارة أخرى يَعدّ سالم نفسه في الوقت ذاته عضواً في المجموعة العشائرية المقيمة في سرهن، حيث تمثل إقامة سالم مع والدي زوجته رمزاً لانضمامه إلى هذه المجموعة. ولكن هذه الازدواجية نادرة للغاية سواء في عبد الكوري أم في سقطرى، حيث يسود الشكل الأبوي للزواج.

تضم كل أسرة من الأسر أولئك الذين يعتبرون خلايا في الأسرة الموسعة. وهي تملك عدداً قليلاً من الماشية (من 10 إلى 15 رأساً). ملكية الماشية فردية، وهي لا تورث فحسب، وإنما كثيراً ما يخصصها الآباء للأولاد عند زواجهم. أما رعي الماشية فيتم بتجميعها في قطيع واحد. فإذا كانت الأسر تقتات معاً، يصبح كل شيء مشتركاً: اللبن والصوف. أما إذا كانت تتناول الطعام منفصلة عن بعضها فإن كل خلية في الأسرة تستهلك اللبن ومنتجات الألبان من القسم الذي تملكه في القطيع، ولكن رب العائلة الكبيرة يحصي ذلك.

وفي الوقت نفسه يمثل رجال الأسرة فريق صيادين. وملكية الزوارق والشباك والمحركات

والمعدات هي في العادة ملكية مشتركة لأفراد الأسرة، وفي بعض الأحيان يعتبرون «مساهمين» إذا كان إسهامهم غير متكافئ. فعلى سبيل المثال خصص لأحمد عبد الله بعض المال لشراء زورق كبير من طراز ورّة مساهمةً من ابنَي عوض من بير العجوز (مع سالم المقيم في سرهن، والابن الثاني المقيم مع والده). وبالنسبة للقوارب الصغيرة المسماة هوري والمستخدمة سواء في صيد السمك أم للرحلات الأبعد، إلى حضرموت وسقطرى، تملك كل أسرة عدداً منها. وفي هذا المجال نرى ما يشبه التعاونية بين أسرتين كبيرتين. ولذا يحتاج الأمر إلى جرد وإحصاء دقيق للإسهامات الإنتاجية، ومن ثم لحصص التوزيع.

وغير بعيد عن سرهن يوجد موضع يسمى منزبيتن، وعلى طرفه يقوم منزل الصياد العجوز عبد الله عامر، السقطري الأصل من أبناء جزيرة سمحة. وهو شخص فقير وزوجته من قبيلة سوري، عمياء. وتعيش معهما أيضاً أختها المطلقة وابنتها الصغيرة. ولا تملك هذه الأسرة سوى أربع عنزات ونعجتين، ولكن الجيش يساعدهم ويمدهم بالطعام من الحامية القريبة.

في قرية خيصة صالح، المسماة باللهجة المحلية تشيكر، (أي موقع صدف السلاحف) والواقعة في الجزء الأوسط من الجزيرة، توجد أربعة بيوت، لكن القرية من حيث عدد السكان تعتبر واحدة من أكبر القرى.

البيت. 1 رب الدار أحمد سعيد بن عامر بن صالح الجمحي ينحدر من قبيلة جمحي الحضرمية ومن أحفاد مستوطني عبد الكوري. والقرية تحمل اسم جد جده الذي يعتبر مؤسسها (قبل 130 - 150 عاماً على الأرجح). أحمد سعيد يشغل منصب نائب مأمور الجزيرة، بمعنى أنه شيخ أهل عبد الكوري. زوجته من مواليد الجزيرة. ولدى الزوجين ثمانية أبناء (ستة أولاد وبنتان). البنتان تعيشان في منزلي زوجيهما، وجميع الأولاد ما عدا الأصغر متزوجون. وأربعة منهم يعيشون بأسرهم مع الأب، ويمارسون العمل المشترك. أحد الأبناء انتقل إلى منزل والدة زوجته، وهم:

محمد، متزوج من ابنة فاطمة، أخت أحمد، ولم يكن لديهما أطفال حتى ذلك الحين.

سعيد، تزوج فتاة من قرية بيت عيسى، هي أخت زوجة أخي سالم، ولديها ولد وثلاث بنات.

سالم، متزوج من أخت زوجة سعيد، لديه أربعة أبناء (ولدان وبنتان).

مسلّم، متزوج من فتاة من حضرموت تقيم في الجزيرة، لديه ثلاثة أبناء (ولدان وبنت).

عامر، مثل محمد، متزوج من ابنة فاطمة. لديه ثلاثة أبناء (ولد وبنتان). يعيش في

منزل أم زوجته.

غالب، أعزب. كان آنذاك في الخامسة عشرة من العمر.

وهكذا تتكون أسرة أحمد سعيد الموسعة من 22 شخصاً. جميع الرجال يزاولون صيد السمك، يخرجون إلى البحر بقوارب الهوري كل شخصين في قارب. ولدى أحدهم زورق ورّة، أكبر من القوارب الأخرى، ويمكنه الإقلاع به إلى حضرموت وسقطرى.

بعد استطلاع رأي أهالي عبد الكوري استنتجنا أن الزواج هنا دائماً أبوي محلي. فلماذا، والحال هذه، يعيش عامر في منزل حماته - عمته؟ العائلة تفسر ذلك بقولهم إن فاطمة ليس لديها رجال كثيرون في منزلها وهي بحاجة إلى المساعدة. ولكن عامراً مع أولاده يعتبر عضواً في الأسرة الأبوية الكبيرة التي يرأسها والده. وعلى هذا فإن كل ما يكسبه عامر من أموال ومنتجات يعطيه لهذه الأسرة ولا يستبقي إلا جزءاً يسيراً لإطعام وإعالة أسرته، ويعطي هذا الجزء لأسرة حماته التي يعيش عندها. هذا الجزء يجري تقديره في كل حالة على حدة، وكل شيء يتوقف على الدخل، ولذلك لم يستطع المشاركون في الاستطلاع تحديد حجم مداخيلهم، ولكننا علمنا أن الأب هو الذي يقرر ذلك. «أحمد سعيد» يجمع كل النقود والمواد الغذائية، ويحدد ميزانية الأسرة، والمصروفات الضرورية، والمشتريات، ويتولى شؤون المعيشة المشتركة.

البيت - 2 ربة الدار سعيدة بنت سعيد. أخت أحمد سعيد لأمه (انظر البيت - 1). بعد وفاة زوجها الذي خلف ولداً هو أحمد سعيد تزوجت والدتهما مرة أخرى (في الجزيرة) من أحد أبناء قبيلة غراب الحضرمية. ومات زوجها هذا وبقي لها خمسة أبناء (ثلاثة أولاد وابنتان). اثنان من الأولاد متزوجان، أحدهما متزوج من ابنة أحمد سعيد (يعيشان لدى سعيدة)، والآخر متزوج من حضرمية ويعيش هناك، يزاول الصيد ويملك ورّة، ويزور أمه أحياناً. البنتان متزوجتان، واحدة من سالم علي سمحان من قبيلة بني عكوش المهرية. ليس لديهما أبناء، والثانية متزوجة من علي أحمد عامر (أبوه سقطري أصيل من جزيرة سمحة)، ولديهما ابنتان. الجميع يعيشون عند سعيدة بنت سعيد.

وهكذا تتألف أسرة سعيدة من 10 أشخاص.

البيت. 3 ربة البيت فاطمة بنت سعيد، وهي أخت أحمد سعيد الآنف الذكر. تزوجت للمرة الأولى من عبد الله باروك من قبيلة جمحي، وترملت. أنجبت من هذا الزوج ولداً، اسمه أيضاً عبد الله باروك. يعيش في منزلها، متزوج من ابنة أحمد سعيد، لديه خمسة أبناء.

تزوجت فاطمة للمرة الثانية من أحمد عامر سعيد من جزيرة سمحة، لديها من الزواج الثاني ولدان علي وصالح. علي متزوج من ابنة سعيدة (أنظر البيت . 2)، لديه ابنتان. الأسرة تعيش في منزل سعيدة، أما صالح فهو شاب راشد، لكنه ما زال أعزب يعيش عند أمه.

ترملت فاطمة من جديد، وتزوجت من سالم مبارك سعيد من المهرة، وولدت له بنتين، ثم طلقها سالم وغادر للإقامة في حضرموت. إحدى بنتيه متزوجة من محمد ابن أحمد سعيد وتعيش في منزله، ولم تنجب أطفالاً. والأخرى متزوجة من عامر شقيق محمد، ولهما ثلاثة أطفال. الجميع يعيشون في منزل فاطمة التي باتت عائلتها مكونة من 14 شخصاً. الذكور (ثلاثة منهم راشدون) يمارسون الصيد جميعاً ولديهم قوارب هوري يعملون عليها كل شخصين في قارب.

البيت . 4 رب الأسرة سالم علي مهري (سمحان). أبوه من المهرة وأمه من قرية عالية في عبد الكوري. متزوج من ابنة سعيدة (انظر البيت . 2)، وليس لديه أولاد. كان يعيش مع أسرة سليم في هذا البيت أخوه صالح علي وزوجته (من قرية بيت عيسى)، ولهما بنتان. وإلى ذلك تقيم هنا أخوات سالم الثلاث مع عوائلهن:

شيخة وزوجها من التواهي، ولهما أربعة أبناء (ثلاثة أولاد وبنت واحدة).

مهرية وزوجها، وهو من التواهي أيضاً، ولهما خمسة أبناء (أربعة أولاد وبنت واحدة). زوجا شيخة ومهرية شقيقان ينتميان إلى قبيلة التعيين الحضرمية.

بشارة وزوجها من بيت عيسى، ولهما ثلاثة أبناء (ولدان وبنت).

مجموع أفراد الأسرة 24 شخصاً. كل أبناء هذه العائلة الكبيرة يقتاتون معاً، إلا أن رئيس كل خلية عائلية (الزوج) يتصرف بأموال خليته، ويقدم جزءاً مما تكسبه الخلية إلى ميزانية الأسرة المشتركة للصرف على الطعام والشؤون المنزلية. الفارق بين هذا النوع من الأسر الموسعة وبين الأسرة الكبيرة التي يترأسها أحمد سعيد (البيت . 1) يتلخص في كون الأولى تفتقد إلى الشيخ الآمر الناهي بشخص الوالد بالنسبة لأولاده أو الأخ الأكبر، في حالات أندر، بالنسبة لإخوانه وأخواته الأصغر (سالم علي في المثال الذي نحن بصدده أصغر من أخواته). وإلى ذلك تنعدم هنا الملكية المشتركة غير الموزعة التي تنتقل عادة بشكل تركة من المتوفى إلى الورثة، وتنتقل معها وظيفة صاحب قرار التوزيع من الأب إلى أحد أبنائه (الابن البكر).

ونجد في الحالة التي نحن بصددها توحيداً لملكية الإخوة والأخوات وأزواجهن. وبالنتيجة لا توجد في الأسرة ميزانية موحدة وتجميعٌ إلزامي للعائدات والمداخيل وتصرفٌ بها من قبل الأب (كما هو الحال في البيت ـ 1). ورغم ذلك نجد هذا النظام في «الأسرة المصغرة» المكونة من الأخوين سالم وصالح، حيث الاقتصاديات مشتركة والأخ الأكبر هو صاحب القرار، يبت في كل الأمور ويتحمل كل المسؤوليات. الأخوات وعوائلهن يُمضين عادة شهراً أو شهرين بالسنة في ضيافة أزواجهن. وسبب رغبتهن في الانتقال إلى خيصة صالح أن ماء الآبار في التواهي أشد ملوحة من ماء قريتهن الأصلية، ثم إن ظروف خيصة صالح أفضل بكثير فيما يخص صيد الأسماك.

وهكذا تضم القرية 70 شخصاً، أبناء جمحي يشكلون العنصر الرئيسي في تركيبة هذا المجتمع، أما السقاطرة الخالصون فعددهم هنا قليل كما في بير العجوز، والأكثر منهم هم أبناء قبائل حضرموت والمهرة.

وكما هو الحال في القرى الأخرى تربط أواصر القربى بين جميع الأهالي.

على مقربة من خيصة صالح يوجد موضع يسمى خيمة، تقيم في طرفه امرأة وحيدة (مثل عبد الله عامر في شرق الجزيرة) يلقبونها بالعجوز حليمة. ترملت حليمة وبقيت وحدها مع 20 أو 30 رأساً من المعز والأغنام. وهي أيضاً تتلقى مساعدة من الحامية العسكرية، فيما يحمل لها أهالي خيصة صالح السمك ويساعدونها في حلب الماشية.

في قرية عالية الواقعة في الجزء الغربي من الجزيرة، واسمها المحلي قشرر (بمعنى التلة الناتئة)، ثلاثة بيوت فقط. أرباب عوائلها هم رشيد أحمد صالح (من قبيلة سوري العمانية)، وأخوه إبراهيم أحمد صالح، وسعيد صالح صومالي (ولقبه يشير إلى أصله).

كما أن قرية التواهي لم تكن كبيرة أيضاً، واسمها المحلي حامر عفيرو.

قرية بيت عيسى، واسمها المحلي جورِد، هي الأكبر من حيث عدد المنازل، ففيها تسعة بيوت، وأهاليها يعودون بأصلهم إلى قبيلتين: المهرة الحضارمة وسوري العمانيين. أحفاد عيسى: أحمد سالم وصالح سالم وسالم صالح، ولكل منهم بيته، ينتسبون إلى المهريين، على حد قولهم، أما أحفاد صالح: صالح سعيد ومحمد سعيد وسالم سعيد، ولهم بيوتهم أيضاً، فينتسبون إلى سوري.

وقد اقتنعتُ، بعد المزيد من الاطلاع على أوضاع أهالي عبد الكوري، أن العنصر أو المكون السقطري ليس حاسماً في تركيبتهم ومنشئهم الإثني. فأهل هذه الجزيرة يمثلون

سبيكة متلاحمة من عدة مصادر ومكونات. طقوسهم وتقاليدهم وعاداتهم تسوق الدليل على وجود نفوذ حضرمي ملحوظ تماماً في عبد الكوري. ويكفينا أن نلقي نظرة على سكان الجزيرة لنرى أن النساء يرتدين الفساتين نفسها («المذيلة») التي ترتديها الحضرميات وليس السقطريات. كما يغطين وجوههن بالكامل ببرقع أو ملاءة شبه شفافة، فيما يكحّل الرجال عيونهم. وتلك عادة منتشرة في اليمن ولا يعرفها أهالي سقطرى. حتى الزفاف في عبد الكوري يشبه الزفاف في حضرموت، حيث نشاهد عادة ربط العروس كما يربطونها في حضرموت، ولكن من دون سقوط (أي طرح العروس).

ولا ننسى، من الجهة الأخرى، أن سكان عبد الكوري من «الناطقين بالسقطرية». فما هي التقاليد الثقافية لأهالي هذه الجزيرة وما طبيعة إبداعهم الشعبي الفولكلوري؟

في قرية خيصة صالح التقينا الشاعر الشعبي صالح أحمد عامر، نجل فاطمة بنت سعيد، الأعزب آنذاك (انظر البيت ـ 3). هذا الشاب الوسيم البالغ من العمر (حينئذٍ) 27 عاماً، وتحت كلٍ من عينيه ثلاثة ندوب لجروح عمودية صغيرة (في أعلى الوجنتين، ولعلها أجريت له في الطفولة لمعالجة التراخوما)، أنشد لنا بكل ارتياح أغاني عبد الكوري القديمة وأشعاراً حديثة من نظمه.

أنشد صالح الأغنية الأولى بصوت عاطفي رخيم، وبأنغام متنوعة، حتى بدا وكأن نص الأغنية مطوّل بعض الشيء. إلا أننا أدركنا من توضيحاته فيما بعد أن في الأغنية بضع كلمات لا غير، تتردد بعدة نغمات. وإليكم نص الأغنية باللغة السقطرية:

نهارين لدي بيركر
دي نيشش بعديبي
زدرة دي رضفشش
هوبن زدرة ال إنكرامش

نمط التفكير عند أهالي سقطرى وعبد الكوري مدهش حقاً، يتجلى في لغة شاعرية فريدة تميزهم في كلتا الجزيرتين. ورغم الشبه الكبير وصلة القربى بين أهالي عبد الكوري والحضرميين، ورغم الأواصر المتينة التي تربط هذه الجزيرة بالجزء القاري اليمني، فإن ثقافتها ثقافة سقطرية. يتيقن المرء من ذلك عندما يطلع على الفولكلور في عبد الكوري. صحيح أن الأنغام التي ينشد بها « صالح أحمد عامر» هذه القصيدة تختلف كثيرا عن الأنغام السقطرية، إلا أن طبيعة هذا الفن المتمثلة في التأني والاستطالة في الأداء إنما هي

دون ريب ظاهرة سقطرية (رغم وجود بعض التشابه مع الفولكلور في حضرموت). فالنص القصير ينطوي على معنى غزير وإيحاء شعوري وفير، ومن ثم يكون له تأثير كبير في نفوس مستمعيه من السكان المحليين.

تتميز القصيدة السقطرية (في عبد الكوري أيضاً) بالإيجاز المثير للدهشة والذي يكاد يبلغ مستوى الإعجاز. فالتعابير تأتي مختزلة في تقتير شديد، وكأن القائل لا يريد أن يفضي بكل ما في جعبته، ليحمل المتلقي على استشفاف المعنى وإكماله بنفسه. ولا بد من فك رموز الأشعار ليتيسر فهم معانيها، وهذا يدفعنا عفوياً إلى مقارنتها بالنتاجات الشعرية والميثولوجية للشعوب الشرقية القديمة. ويخيل إلينا أن تلك الأشعار تحتمل معنيين، متعارضين تماماً في بعض الأحيان، ولعل تعدد المعاني يمثل القيمة الحقيقية لهذا النوع من نتاجات الفولكلور.

ونعيد إلى الأذهان هنا أن الكثير من القصائد السقطرية التي هي قيد الإنشاد بصفة أغنيات إنما تظل غير مفهومة بالنسبة للعديد من الناس. وهي تتطلب توضيحات من أصحابها المطلعين على تقاليد البلاد أو ممن يتلونها على الناس. وفيما يخص أغاني عبد الكوري أذكر هنا أن السقاطرة الذين رافقوني إلى الجزيرة لم يكونوا يفهمون بعض مفردات لغتهم السقطرية هناك، ذلك لأن خصائص النطق في عبد الكوري تجعل من الصعب على السقاطرة فرز الكلمات من السياق السريع، الأمر الذي يعقّد فهمها. كما أن صعوبات معينة في هذا المجال تأتي من الفوارق الصوتية بين اللهجات.

فما الذي تعنيه الأبيات التي أوردناها أعلاه؟ إليكم ترجمتها الحرفية، أو على الأصح، المفرداتية:

أنف التي ولدت لأول مرة،
ونسيت آلام الحمل والولادة،
لا يشم رائحة الخجل.
والغصن الذي غطت به الوليد
والحجر الذي أفقده القدرة على الحراك
لا يشعران بالخجل.

أليس هذا الجمع من المفردات محيراً بالنسبة لمن يدرس فولكلور سقطرى ما لم يحصل على توضيحات؟ إليكم معنى الأبيات المذكورة بعد توضيحات العارفين:

الزوج يلوم زوجته الشابة، وهي تتهيأ لحضور حفلة الرقص التقليدي رمسة، ويذكّرها بميلاد ابنها البكر من عهد قريب، ويشبّهه بالأنف الجميل. ومهما بدا هذا التشبيه غريباً فإنه أمر معقول ومقبول تماماً بالنسبة لأهالي الجزيرة نظراً للاحترام التقليدي الذي يحظى به الأنف عندهم (لنتذكر التقبيل بالأنفين وليس بالشفاه). ثم إن هذا التشبيه يرسم صورة شاعرية للطفل المحبوب. ويخاطب الزوج زوجته قائلاً: لقد نسيت آلام الحمل والمخاض. لا ينبغي للمرأة أن تنسى آلام الحمل وولادة الطفل وتهرع إلى حفلة الرقص. ويضيف: تتركين الطفل تحت الشجيرة وتغطينه بخرقة تثبتينها بحجر على طرفها كيلا يتحرك المسكين ويتدحرج من هذا المكان!

هذه معاملة غير جائزة بالطبع. ولعل الأم الشابة لن تركب رأسها ولن تذهب إلى الرقص بعد هذا التوبيخ الشديد. ويراد لهذا الشعر الوعظي الذي ينشده الرجال أن يعيد أمثال هؤلاء الأمهات إلى رشدهن ويوجههن على الطريق القويم.

ونورد هنا رباعية مماثلة من الشعر الشعبي الغنائي أتحفنا صالح بإنشادها، ويعرفها الأهالي، كما يقولون، من سالف الزمان. وهي من النوع المسمى تموتل، والمقصود به الأغاني العاطفية والهزلية:

مزبدة لدي عاقبش
كيته سليط بلوكة
وعاد كيته عاصدن فيني
وال عاد ميكن لريمو.

وترجمتها الحرفية:

ضعي الدهان على الشعر
أو خذي الزيت من الجرة
وأمسحي وجهك بالأصفر
وأنا أسير أمامك.

الشاعر يتغنى بجمال محبوبته، ويريد لها أن تتزين بالطيب والعطور: «أريدك أن تدهني شعرك بالدهان كي يلمع ويتألق. أريدك أن تتطيبي بالزيت الفواح من الجرة كي ينتشر عطرك في كل الأنحاء، ولا تنسي أن تطلي وجهك بالصبغة الصفراء». ويضيف معتزاً فخوراً: «عندما تتطيبين هكذا، يا حلوتي، سأسير أمامك ليقول الجميع: ما أحلاها،

ويعرفوا أنك حبيبتي».

جو هذه الأغنية الشاعرية، والفكاهية الساخرة في الوقت ذاته، يذكرنا بالأشعار التي سمعناها مراراً في سقطرى.

كما أنشد صالح لنا أغنية من تأليفه وتلحينه. استغرق إنشادها وقتاً، بسبب تلاوين الأنغام وهتافات الاستحسان. وما كان أشد دهشتنا عندما علمنا في الأخير أن الأغنية كلها تتكون من شطرين لبيت شعري واحد، أو فلنقل من بيتين لا غير:

هيدو وال عللينو

نفج وال نفج دي جاهم

....

سماء مدلهمة، دون ماء

حتى تجيئ نجمة الصباح بالضياء

في هذه الأغنية يجسد الشاعر الشعبي هواجس الإنسان الذي ينتظر المطر من زمان. تنتظره الماشية ليعطيها العلف، وينتظره الناس ليروي عطشهم. السماء ملفعة بالسحب، والكل في انتظار المطر طول الليل، حتى انقشعت الغيوم وظهرت نجمة الصباح، وتبددت معها الآمال في مطر يروي الغليل.

في العام 1967 زار جزيرة عبد الكوري فريق من علماء الآثار البريطانيين برئاسة برايان دو (انظر شكل رقم 10 - 3). ودرسوا المنطقة الأثرية الواقعة جنوبي وشرقي المركز المفترض للساحل الشمالي على مقربة من قرية خيمة. وفي هذه المنطقة تبرز نتوءات الجرانيت والكلس لتشكل قمماً جبلية.

ومن أولى المعثورات التي جلبت انتباه علماء الآثار هناك بضعة أكوام من الأحجار قطر كل كومة قرابة المتر فوق أرضية صخرية على مسافة 800 متر تقريباً عن خيمة (في الباطن). وعلى مسافة 450 متراً عن الساحل، على الضفة الشرقية للوادي الصغير الممتد شرقي خيمة، عثر برايان دو على أنقاض ثمانية منازل مبنية من الصخور المرجانية من دون ملاط أو مخلوط تثبيت. ووجد حول هذه البيوت كمية كبيرة من القواقع المثقوبة في جزئها العلوي.

وجنوبي هذا الموقع، وراء الصخور التي تشكل منفذاً إلى الجزء الضيق من الوادي الأوسط الموصل مباشرة إلى أعلى جبل هناك، هو جبل حصالة، تم اكتشاف عدة آثار بينها

صفان من الصخور الواطئة على ضفة قناة مهدمة تؤدي إلى الوادي من جهة الشمال. ولعلهما قد استخدما في زمن ما بصفة حدود فاصلة بين الممتلكات. وأوضح عبد الله الذي رافق علماء الآثار الإنجليز، كونه من الأهالي المحليين، أن أناساً عاشوا في قديم الزمان قد أنشؤوا تلك الحدود.

وثمة عدة أكوام من الأنقاض على منتصف الطريق تقريباً، من خلال الوادي، إلى سفوح الجبال، حيث يحتمل وجود قرية صغيرة في سالف الزمان. وظلت محفوظة في أحد الأماكن بقايا جدار لم تكتشف جنبه أية معثورات أو حاجيات.

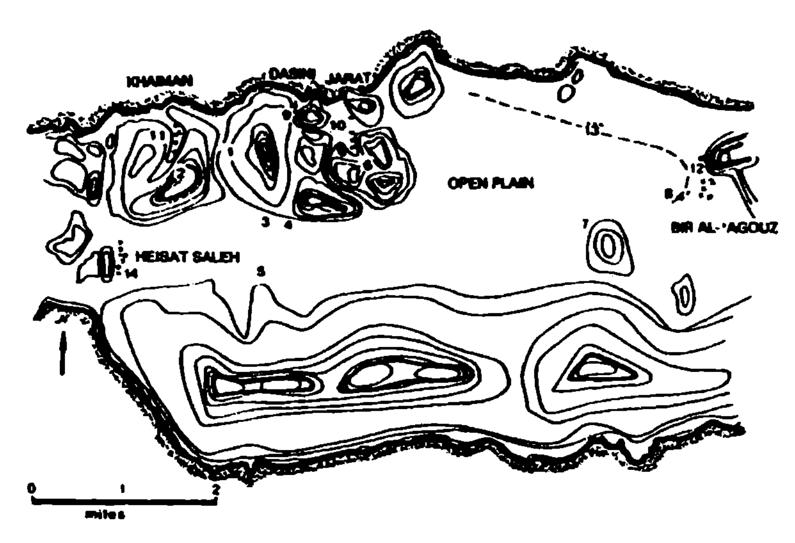
في آخر نتوءات الجرانيت، على الجانب الشمالي من الوادي، عثر العلماء البريطانيون على صخور حدودية منتصبة عمودياً على مسافة 180 متراً فيما بينها.

وعندما تسلق برايان دو المنطقة في الاتجاه الشمالي، حيث تلوح قرية بيت عيسى (جورد)، وجد صفين من أكوام الأحجار الصغيرة بشكل نصف دائرة. كل صف على صخرة جبلية منفردة يبعد أحدهما عن الآخر مسافة 270 متراً. الصف المقوّس الغربي يتكون من 14 كومة من أحجار ارتفاعها 30 سنتمتراً وقطرها 45 سنتمتراً. والمسافة فيما بينها 4.2 – 6.3 متراً. وهي تمتد من هنا إلى أعلى الجبل، نقطة السمت بين طرفها الأول وطرفها الأخير 120 درجة. وقال عبد الله إن هذه أيضاً بناها الناس القدامى.

الصف الثاني، الشرقي، من تلك الأحجار يطل على الوادي العريض، وهو يتكون كذلك من 14 كومة يتراوح ارتفاع أحجارها ما بين 38 و 60 سنتمتراً وقطرها، كما في الصف الأول، 45 سنتمتراً. نصف الدائرة أو القوس الذي تشكله هذه الأكوام عرضه 18 متراً، وطرفاه ينفرجان بـ 210 درجات. وعلى مسافة 235 متراً شرقي هذه الأحجار توجد أطلال جدار طويل مبني من أحجار صغيرة ومتجه إلى الوادي. والفرجة بين خطي الجدار والوادي 205 درجات.

كما تفقدت البعثة البريطانية الوادي العريض المؤدي إلى قرية بير العجوز. قرب الصخرة الناتئة من باطن الأرض، على مسافة 1200 متر عن القرية، هناك أنقاض خمس منشآت حدودية دائرية كبيرة مبنية من الحجارة، وقبالتها على الساحل المرتفع، ولمسافة 800 متر عن البحر، توجد بقايا ترع أنبوبية مبنية من الحجارة والصخور المرجانية، كما توجد هنا عدة مساكن يصعب تحديد زمنها. ورغم أن برايان دو عثر في هذا الموضع على جزء من كأس خشبية وكسرة خزفية غير مدهونة، إلا أن أحدث المعثورات التي وجدها هي

شظية قنينة لماء الصودا من القرن التاسع عشر (بقاعدة بيضوية). المنازل في بعض القرى المهجورة تبدو رغم خلوها من النزلاء أفضل حالاً، كما يقول علماء الآثار، من المنازل في زمن بعثتهم (كما في بعض المواقع بجزيرة سقطرى).



(شكل رقم 10 ـ 3)

وقد درست البعثة البريطانية في بير العجوز بئراً اعتبرتها أفضل الآبار في جزيرة عبد الكوري، ويؤكد الأهالي أنها بئر قديمة جداً. قطر البئر 90 سنتمتراً، وهي مبنية من الحجر من فوق لتحت، والماء فيها على مستوى 45.3 متراً. وقد لاحظ علماء الآثار غرابة رصف الحجر في الجزء العلوي من البئر. فوهة البئر أضيق من جذعها، كونها محاطة بكتل حجرية (قطر الواحدة منها 45 سنتمتراً تقريباً). والفوهة مغطاة من فوق بصدفة سلحفاة بحرية منعاً للتلوث. وعلى مقربة من البئر، على الأرض، ظلت محفوظة فسحات حجرية مستديرة (أقطارها 2.1 متر و6.3 أمتار و6 أمتار) تدل على وجود رصيف هنا في الماضي. وفي الفسحة الأخيرة سور واطئ من الجرانيت المقتطع من الصخور الجبلية القريبة، وماء البئر عذب، كما يقول برايان دو.

هذه البئر كانت موجودة في قرية بير العجوز أثناء رحلتي العلمية إلى عبد الكوري، ولم تتغير مواصفاتها في عهدي. عمق الماء فيها لم يكن ثابتاً، ولكن القول إنه ماء عذب يجانب الصواب. يفيد أهالي الجزيرة أن ماء البئر ربما كان أفضل في بعض الفترات السابقة إلا

أنه كان مالحاً دوماً، على ما يتذكرون.

كما تفقدت البعثة البريطانية قرية بير العجوز نفسها الواقعة جنوبي البئر. بعض مساكنها مبنية من مواد انتشلت بعد غرق السفينة «أرشير». إلا أن تلك المساكن من حيث الشكل شبيهة تماماً بالأكواخ والبيوت في باقي قرى الجزيرة. وهناك منازل مبنية من قطع الصخور المرجانية غير المنحوتة، وفي كل منها حجرتان وباحة أمامية. وهي تذكرنا بطراز مساكن جزيرة الحلانيات (كوريا ـ موريا). هذه المساكن تقع في الوادي الذي يشق الطرف الغربي من الساحل المرتفع. كما استخدمت الكهوف والمغارات الموجودة فيه مأوى للناس وحظائر للمعز ومستودعات للخزن.

على الساحل المرتفع ، ولمسافة 180 متراً غربي هذه القرية، لاحظ الإنجليز، ولاحظنا نحن أيضاً، خطاً ممتداً على طول 90 متراً (نقطة السمت 108 درجات). وهو بالأصل كان، على ما يبدو، معلّما بإهرامات صغيرة أو طيقان من كسر الصخور المرجانية الدقيقة (كالتي في صحراء الربع الخالي، من الوسط إلى الشرق باتجاه واحة البريمي، كما يقول برايان دو). وعند الـ 18 متراً الأخيرة، قبل نهاية هذا الخط، ثمة دائرة من الصخور الملساء قطرها 5.4 أمتار تقريباً.

رحلات البعثة البريطانية إلى باقي مناطق عبد الكوري، ومنها قرية خيصة صالح الواقعة على الساحل الرملي الجنوبي وفيها بئر جيدة (مبطنة بأخشاب سفينة هالكة)، وكذلك المقبرة القديمة لم تعط ، كما يقول أعضاء البعثة، أية أدلة جديدة على سكنى الجزيرة في أزمان أقدم.

الخاتمة

الخاتمة

دراسة النشاط الاقتصادي التقليدي والتركيبة الاجتماعية والعادات والأعراف والفولكلور الشعبي عند السقاطرة الذين يشكلون مجموعة إثنية مميزة من سكان اليمن تقودنا إلى استنتاج واضح بشأن المنشأ القديم والأصيل لثقافتهم التي لا تزال حتى اليوم تحتفظ بالكثير من سمات العصور التاريخية الغابرة. ويعزى ذلك، فيما يعزى، إلى العزلة الجزائرية التي عاش فيها السقاطرة طوال القرون، وخصوصاً أهالي المناطق الجبلية الذين كانت اتصالاتهم بالعالم الخارجي في حدها الأدنى.

كان أسلاف السقاطرة (الناطقين باللغة السقطرية والحاملين لثقافتها) يشكلون جزءاً من السكان الأصليين للقسم الأوسط من جنوب الجزيرة العربية التي انفصل وتفرع عنها، إلى جانبهم، أسلاف المهريين وأهالي ظفار الحاليين. ولكي نحدد، ولو على وجه التقريب، الفترة الزمنية التي انسلخت فيها اللغة السقطرية من وضعيتها اللغوية السابقة، عندما كان الناطقون بها يكلمون المهريين وأهالي ظفار ويخاطبونهم بلغة واحدة هي لغة الأجداد الأولى وأم اللغات في جنوب الجزيرة العربية، نستعين بنتائج الحسابات العلمية لتواريخ انقسام وتشظي عائلة اللغات السامية. وهي حسابات أجراها العلماء الروس بمراعاة المواد التي جمعناها نحن في سقطرى.

تقول فرضية إلكسندر ميليتاريوف إن اللغة السامية الأولى، أم جميع اللغات السامية، انقسمت في الألف الخامس قبل الميلاد إلى ثلاث لهجات، هي: 1) اللهجة التي انبثقت عنها اللغة الآشورية البابلية أو الأكدية، و 2) اللهجة التي انبثقت عنها معظم اللغات السامية المعروفة: اللغة العمورية واللغات الكنعانية (العبرية والفينيقية وغيرهما) والآرامية والعربية والسبئية واللغات السامية الحبشية، و 3) اللهجة التي تمثل أصل عدد من اللغات «العتيقة» غير المكتوبة والدارجة في جنوب جزيرة العرب وسقطرى: اللغات المهرية والحرسوسية والجبالية ـ الشحرية والسقطرية التي تشكل بمجملها فرعاً خصوصياً من عائلة اللغات السامية يطلق عليه صاحب الفرضية مصطلح «اللغات السامية الجنوبية» ويضعه في مقابل «السامية الشمالية» (الأكدية) و«السامية الوسطى».

جدة فرضية العالم الروسي، القائمة على أدلة لغوية وجيهة، إنما تتجلى في فرز فرع اللغات السامية الجنوبية ورفع أصل اللغات الدارجة حالياً في جنوب الجزيرة العربية

إلى مستوى أم اللغات السامية (من دون درجات أو مراحل بينية للقرابة مع سائر اللغات السامية). وتعطي هذه الفرضية توضيحاً للصبغة العتيقة في اللغة السقطرية واللغات القريبة منها، وهي صبغة نوعية مميزة ومدهشة تنعكس في النطق الصوتي (الفونطيقا) والقواعد النحوية (الغراماطيقا)، وخاصة في المفردات السقطرية الأكثر إثارة للدهشة والاهتمام من هذه الناحية.

وبحسب هذه الفرضية انفصلت اللغة السقطرية عن فرع اللغات السامية الجنوبية في حدود النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد. ومن ثم يعتبر هذا التاريخ الموعد الأكثر احتمالاً لنزوح الناطقين بالسقطرية من جنوب الجزيرة العربية إلى أرخبيل سقطرى. أما انقسام باقي لغات جنوب الجزيرة العربية (المهرية، والحرسوسية القريبة منها، عن الجبالي – الشحرية) فقد حصل في فترات أحدث من ذلك التاريخ بكثير.

ومن هنا يوافق انفصال اللغة السقطرية، والقبائل الناطقة بها التي باتت تشكل كياناً مستقلاً منفرداً، الفترة التي تعتبر بداية عصر التبدلات بالنسبة للمنطقة. وفي حدود تلك الفترة على وجه التقريب اكتمل نشوء نظام الدولة في جنوب جزيرة العرب (مملكة سبأ). ولعل الكتابة ظهرت آنذاك، وآنذاك أيضاً استصلح النازحون من جنوب الجزيرة أراضي الحبشة. وكان أهالي الجنوب العربي في تلك الحقبة ملمين بالملاحة البحرية. فبات بإمكان الناطقين باللغة السقطرية أن ينزحوا إلى الأرخبيل.

إلا أن ذلك لا يعني أن قدم الإنسان لم تطأ أرض سقطرى قبل وصول الناطقين بالسقطرية إليها. فقد كشفت دراساتنا ومعثوراتنا الأثرية في الجزيرة أن الإنسان القديم ظهر هنا في الدهر العتيق (الأولدوفاي) من العصر الحجري القديم، أي قبل 4.1 مليون عام. ولربما كانت هنا مستوطنات سكانية في عصور أحدث. المعثورات التي اكتشفتها بعثتنا تفند استنتاج العالم الأثري الإنجليزي برايان دو بشأن «عدم وجود أية أدلة على مستوطنات ما قبل التاريخ في الجزيرة كالأدوات الحجرية، والمعثورات الصوانية، والمعدات السَبَجية من الزجاج البركاني» (Doe, 1970: 151). فالنتائج المترتبة على دراساتنا الأنثروبولوجية لجزيرة سقطرى، والتي تناولنا بعضها في الفصل الثالث من هذا الكتاب، تسوق الدليل على وجود تقارب كبير نسبياً بين عدد من المؤشرات الأنثروبولوجية لدى السقاطرة ولدى بعض شعوب الهند، وخاصة الدرافيديين. كما أن معطيات الدراسة التعميمية التي أجرتها الباحثة الروسية هنريتا هيت لمواد جنوب

الجزيرة العربية تفيد بأن المنطلق بالنسبة للسقاطرة هو النموذج الأوروبي - الآسيوي الذي تتجلى ملامحه بمنتهى الوضوح عند الجبليين، فيما تعتبر سيماء أهالي المناطق الساحلية أقرب إلى خليط من الملامح الهندية الأسترالية. أما اليمنيون (الحضارمة والعدنيون بخاصة) فلديهم ملامح هندأسترالية أكثر مما لدى السقاطرة. ولذا انتشر هذا النموذج الأنثروبولوجي على ما يبدو في المناطق الساحلية. ولا تزال قضية العلاقات والروابط بين سكان الجنوب العربي القدامى وبين الهندأستراليين في انتظار الحل.

ولا بد من التذكير بهذا الخصوص بالنتائج التي توصل إليها تور هيردال الذي اعترض بشدة، وطوال سنين، على النظريات الانعزالية وأثبت بالحجة والبرهان أن شعوب وحضارات جزر المحيطين الهندي والهادي نشأت من خلال نزوح مختلف الأقوام في حوض المحيطين المذكورين. وقد اطلع هيردال على النتائج الأولية لبحوثي وتطرق في حديثه معي، بتحمس وارتياح، إلى الخصائص المشتركة بين الحضارات الجزائرية في المالديف وسقطرى ومدغشقر. وارتباطاً بذلك تخطر في البال فكرة استحضار التشابه أو القاسم المشترك بين طقوس عبادة الشمس في سقطرى وتقاليد تلك العبادة التي اكتشفتها بعثة هيردال في جزر المالديف.

ومهما كان الشعب الذي له الأولوية في ارتياد جزيرة سقطرى، فإن منشأ الناطقين بالسقطرية هو الجزء القاري الذي نزحوا منه إلى الجزيرة إما في بداية الألف الأول قبل الميلاد (فيكون انفصالهم هذا، الواسع بحكم المنطق، سبباً لانفصال لغتهم عن أصولها السامية)، وإما في وقت أحدث بعض الشيء. وفي فترة ازدهارها سيطرت مملكة حضرموت على سقطرى، رغم أن تلك السيطرة كانت، على ما يبدو، سطحية، والدليل على تلك السطحية غياب الكتابات الحضرمية في الجزيرة وعدم وجود مؤشرات وآثار لمؤثرات لغوية تستحق الذكر.

وفي معرض تقويمه لنطاق البناء القديم في سقطرى افترض برايان دو، وهو على حق، بأن الجزيرة كانت في زمن ما هامة جدا للإقتصاد الحضرمي. وعلى أساس المعطيات التاريخية، ووجود أشجار اللبان، واكتشاف آثار المزارع في الجزيرة، توصل عالم الآثار الإنجليزي إلى افتراض، قائم على أهمية البخور بالنسبة للإقتصاد في تلك الفترة، ومفاده أن «مغارسي اللبان» هم أول من استوطن جزيرة سقطرى.

ويمكن بالطبع القول بأن هذه الفرضية غير صحيحة من حيث التركيز على غارسي

اللبان وجامعي نسغ البخور والقول بأنهم تحديداً وبالذات كانوا أول من ارتاد الجزيرة. وإلى ذلك لا يصح الجزم بأن التوسع الاقتصادي (كالذي تتحدث عنه أسطورة الإغريق الذين طمعوا في الصبر السقطرى) كان الحافز المسبب للنزوح. فنحن على يقين من أن ذلك النزوح ناتج عن أسباب أخرى، على الأرجح. فيما يبقى مفتوحاً السؤال عن وقت وظروف بدء غرس أشجار اللبان في الجزيرة.

وهل كان سكان سقطرى الأصليون مجرد أيدٍ عاملة استخدمها التجار الحضرميون أم أنهم كانوا يمارسون الإنتاج لأنفسهم؟ بديهي أن الظروف المناخية الملائمة والحدود الطويلة للغاية بين المزارع الكثيرة المعروفة في تاريخ الجزيرة تدل على وجود ممارسات زراعية نشيطة. وقد افترض برايان دو أن النازحين إلى الجزيرة كانوا من مزارعي اليابسة القارية الذين عملوا في ظروف شبيهة بظروف العمل الجماعي التعاوني، فيما استأثر بثمار ذلك العمل الكهان والإقطاعيون الذين امتلكوا الأراضي الزراعية نيابة عن إله القمر سين. والدليل على صحة هذا الافتراض، كما يؤكد صاحبه، هو قلة المباني الكبيرة وندرة المعثورات التي كان المتوقع وجودها بكثرة فيما لو احتفظت الجزيرة بعائدات إنتاجها.

كتب العالم الأثري الإنجليزي يقول: «ملك حضرموت، بلاد البخور الممتدة آنذاك من قنا حتى ظفار، تولى مسؤولية حماية سقطرى، فكانت له فيها حاميات عسكرية. ويمكن الافتراض بأن معظم الذين كانوا يعتنون بالأشجار ويجمعون نسغها في عهد ازدهار التجارة بين حضرموت والبحر الأبيض المتوسط إنما هم عمال موسميون من المهرة ومن جبل القرا في ظفار أساساً» (Ibid. p. 152 -151). إلا أنني أعتقد أن هذه الفرضية تفتقر إلى الدليل القاطع، ولا سيما أن عملنا الميداني في سقطرى لا يعطي مبرراً لبناء نظريات محكمة عليها.

ونحن، حينما نستبعد موضوعة «الإستثمارات التعاونية» و«العمال الموسميين» باعتبارها تفتقر إلى المصداقية، إنما نطرح افتراضاً أكثر جدية في اعتقادنا بشأن الاقتصاد أو الاستثمار الاقتصادي الكهنوتي والعباداتي الذي تدل على وجوده في الأراضي اليمنية في تلك الحقبة نتائجُ الحفريات التي أجرتها بعثتنا الأثرية في مستوطنة ريبون في حضرموت (القرن السابع قبل الميلاد ـ القرن الأول الميلادي). ولتلك الحقبة، على الأرجح، تعود مدافن الدولمين الحجرية التي كنا أول من اكتشفها في سقطرى. ونأمل أن تقود دراساتنا

الأثرية المستقبلية، فيما لو تسنى لنا مواصلتها، إلى تحديد تواريخ هذه الحضارة بدقة أكبر.

ويمكننا أن نتكلم اليوم بثقة واطمئنان عن وحدة وتجانس حضارة أهالي الجزيرة في تلك العصور. وتشير الدراسات التي أجريناها إلى أن فسحة انتشار تلك الحضارة شملت بالأساس الجزء الشرقي من سقطرى. وما يؤكد متانة ورسوخ أساسات هذه الحضارة هو توارث طقوس دفن الموتى. وهو توارث يربط عهود ما قبل الميلاد بالعصر المسيحي (نحن لا نعرف على وجه التحديد مدى تجذر المسيحية هنا) وبالعصر الإسلامي. ولربما كانت عملية نزوح مختلف العناصر الإثنية الأخرى إلى الجزيرة قد حصلت في تلك الحقبة أيضاً.

ونستشهد مرة ثانية بأقوال برايان دو بهذا الخصوص: «كانت في سقطرى أيضاً مستوطنات للهنود والزنوج الذين ربما كانوا يمارسون تجارة عصارة شجرة دم الأخوين والصبر ودروع السلاحف. إلا أن هذه التجارة مع الجزيرة لابد أن تكون هي أيضاً موسمية بسبب الزوابع البحرية. وبعد أن انحسر الطلب على البخور اضطر أهالي الجزيرة إلى الاعتماد على مواردهم المتمثلة في صيد الأسماك وتربية الماعز والأغنام والزراعة. ولربما حصل ذلك في القرن الرابع، بعد أن توقفت تجارة البخور في جنوب جزيرة العرب. ولعل أحفاد أولئك المزارعين هم اليوم بدو الجبال والهضاب السقطرية التي لجؤوا إليها منسحبين من السواحل خلال غزوات المهريين اللاحقة» (Ibid. p. 152).

الدراسات الميدانية التي أجرتها بعثتنا في جزيرة سقطرى أثبتت وجود ثقافة أو حضارة أصيلة موحدة قائمة على جوهر ذاتي متين. ويشمل هذا الاكتفاء الذاتي، إن صح التعبير، كلا الجانبين المادي والروحي للحضارة المذكورة، وهو ما يستنتج من الدراسة التفصيلية للنمطين الاقتصاديين الثقافيين الرئيسيين لسكان سقطرى: الرعاة وصيادي السمك. تربية الماشية الرعوية هي النمط الأقدم الذي تساعدنا دراسته على استحضار وترميم بعض خصائص طراز الحياة الاقتصادية لأسلاف السقاطرة وكذلك الشعوب والأقوام القريبة منهم في جنوب الجزيرة العربية. ثبات هذا النمط الاقتصادي وديمومته يفندان الاستنتاج الذي خرج به بعض الباحثين، ومنهم برايان دو، من أن أهالي الجزيرة الأصليين اضطروا على النزوح إلى الجبال بسبب مضايقات الوافدين من المهرة، ومن ثم تعين على المزارعين السقطريين الذين مارسوا في السابق غرس اللبان أن ينتقلوا إلى رعي

الماشية، بحسب ذلك الاستنتاج. لقد اقترن تخلف الاقتصاد الرعوي هنا بتنوع الأساليب والسبل المستخدمة فيه وبالقدرة الكبيرة على التكيف للظروف الطبيعية الصعبة طوال القرون.

الظروف المعيشية الجديدة المتبدلة على الدوام تمارس تأثيراً كبيراً على حياة الرعاة. فإن انخراطهم في فلك العلاقات البضاعية النقدية، وعملية التمايز الاجتماعي الجارية، وتزايد الضغط على البيئة بسبب تكاثر السكان، وظهور وسائل الإنتاج الحديثة وارتفاع المستوى الثقافي للرعاة بسرعة كبيرة في السنوات الأخيرة وتحسن أحوالهم المادية، وكذلك توسع اتصالاتهم بالعالم الخارجي - كل ذلك يؤدي إلى تحات وتميّع منظومة العلاقات التقليدية التي نشأت طوال القرون. إلا أن القبائل والبطون والأفخاذ والعوائل السقطرية تتكيف مع الظروف الجديدة، مع الاحتفاظ بتقاليد النخوة القبلية والتعاضد العشائري والتضامن الاجتماعي، على الرغم من فسحها المجال أحياناً أمام القيم الأخرى. ومن المستبعد في المستقبَل المنظور أن يحل الاقتصاد العصري بتقنياته المستحدثة محل الاقتصاد الرعوي التقليدي في سقطرى؛ ذلك لأن الظروف والمقدمات الطبيعية والاقتصادية اللازمة لهذا الغرض غير متوافرة. وإذا توافرت تلك المستلزمات فإن تحويل الاقتصاد الرعوي بتسرع وبدون ترو يمكن أن يسفر عن عواقب سلبية للغاية.

إن الحرص على تقاليد القبائل الرعوية واهتمام السلطات اليمنية بها، إلى جانب جهود الهيئات الدولية، دليل على أنها ليست مهددة بتغييرات فوقية مدمرة من الأعلى، إلا أن خطر استنزاف المراعي يبقى قائماً نتيجة الإفراط في الرعي، كما يبقى قائماً خطر استنزاف الكساء النباتي والموارد المائية بسبب توسيع شبكة الآبار دون تنظيم أو رقابة.

أما صيد الأسماك فقد بينت السنوات الأخيرة أنه مهيأ أكثر للانتقال إلى استخدام التقنيات العصرية وأدوات العمل المستحدثة.

وفيما يخص التنظيم الاجتماعي في سقطرى تبين الدراسات التي أجريناها أن القبائل السقطرية تمثل كيانات اجتماعية إقليمية مترابطة بأواصر القرابة، يتكون الواحد منها عادة من فخذين أو ثلاثة. إقامة الجماعات والعوائل القبلية متقاربة متحاشكة تقليدياً. إلا أنها في الربع الأخير من القرن العشرين باتت مشتتة وأكثر تباعداً. ومما له دلالته أن لبعض القبائل روايات وأساطير عن أنسابها، تتحدث عن جد حقيقي أو موهوم. أما البعض الآخر، مثل قبيلة عصمهو (الفصل السابع) المكونة من شتات القوم في أرض

مشتركة، فليس لديهم مثل تلك الروايات، لأنهم ليسوا من جد واحد. ولدى تحليل علاقات الزواج والأسرة أثار اهتمامنا بخاصة ما اكتشفناه من بقايا النظام الأمومي لأواصر القربى التي تدل على أنه لعب دوراً معيناً في تاريخ السقاطرة.

الثقافة الروحية للسقاطرة نشأت في عهود سحيقة تنتسب إليها المدافن التي اكتشفناها، ولم تتقوض أسسها الأصيلة بمؤثرات المسيحية والإسلام. فإن بقايا عبادة الأوثان، وآلهة القبائل، وعبادة القمر، وتقديس الحيوانات الأليفة التي يتحدث عنها الموروث الشعبي الفولكلوري، وطقوس ختان الأولاد في سن الفتوة (14 - 15 عاماً) كتقليد ظل منتشراً حتى الربع الأخير من القرن العشرين، والإيمان الشديد بالأرواح والجن والعفاريت، وتحوير بعض الطقوس الإسلامية - كل ذلك يشكل جانباً من أصالة الثقافة الروحية السقطرية التقليدية المتجذرة في الجزيرة. والجانب الآخر يتجلى في الدور الكبير الذي لعبته وتلعبه المرأة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وكذلك في موقف أبناء القبيلة منها.

خلال دراساتنا الميدانية في جزيرة عبد الكوري تلمسنا، بل قل اكتشفنا، هنا مجتمعاً تقترن فيه عناصر الثقافة الجزائرية والقارية، ويؤدي دور حلقة الوصل بين سقطرى وحضرموت.

وعموما تشهد جزر الأرخبيل اليوم تطوراً يمكّن السقاطرة من التخلص من التخلف الموروث، فنرى شبكة الطرق في اتساع، وتصل مياه الشرب إلى السكان، وكذلك الكهرباء. وفي الجزيرة مدارس وجامعة ومستشفيات، والكثير من المساجد. وسيغدو العديد من الخصائص العتيقة للثقافة السقطرية المادية والروحية في طي الماضي. فيما تتلخص مهمة العلماء والباحثين في صيانة الطبيعة الفريدة في الجزيرة وعدم المساس بها، ورعاية المواقع والمعالم الأثرية، وحفظ الشعر النبطي الرائع، وتسجيل ما أخذ يندثر من خصائص الثقافة التقليدية التي لمسناها من زمن غير بعيد في « جزيرة النعيم»، هذا الركن الفريد المدهش من أركان العالم العربي الكبير، لتبقى كنزاً ثميناً للعلماء وللأجيال القادمة.

المراجع

الروسية

1- أميرخانوف، خ. ، جوكوف، ف. ، ناومكين، ف. ،سيدوف، أ. «اكتشاف آثار الأولدوفاي أو الدهر العتيق في جزيرة سقطرى». مجلة «الطبيعة» 2009، العدد 9، ص 68 - 74. أندرونوف ب. «السكان البدو في العالم»، موسكو، 1985.

2- ابن ماجد، احمد «الفوائد في أصول علم البحر والقواعد» . دراسة نقدية بعنوان «الموسوعة البحرية العربية في القرن الخامس عشر». ترجمة نص «الفوائد» والتعليق عليه بمجلدين . تيودور شوموفسكي، المجلد الأول، موسكو 1985.

3- بورسوك، و. «تأثير إنجراف الجزر على تطور العمليات الساحلية». مجلة «قضايا الجغرافيا»، 1982، العدد 119.

4- بروملي، ي. «بحوث في النظرية الإثنية»، موسكو 1983.

5- بروملي، ي. « القضايا المعاصرة للإثنوغرافيا: بحوث في النظرية والتاريخ»، موسكو 1981.

6- بروملي، ي.، كاشوبا، م. «الزواج والأسرة عند شعوب يوغوسلافيا»، موسكو 1982.

7- فولغين، ف. «أسلاف الاشتراكية المعاصرة»، المجلد الأول ، موسكو 1928.

8- غيمويف، إ. «الأسرة عند السلكوبيين في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين» ، نوفوسيبيرسك 1984.

9- هيرودوتس «تاريخ هيرودوتس»، لينينغراد 1972.

10- غلازوفسكايا، م. «التربة في البلدان الأجنبية»، موسكو 1983.

11- ديبيتس، غ. «سكنى جنوب وغرب آسيا وفقاً للمعطيات الأنثروبولوجية. أصل الإنسان وانتشار البشرية في قديم الزمان» ، موسكو 1951، ص 355 - 370 . «إصدارات معهد الإثنوغرافيا لأكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي. السلسلة الجديدة»، المجلد 16.

12- دياكونوف، إ. تعليق على كتاب ف. ناومكين وف. بورخوموفسكي « علم اللغة

الإثني في سقطرى» (موسكو 1981) بمجلة «شعهوب آسيا وأفريقيا» 1982، العدد الرابع، ص 2008 - 210 .

13- زولوتاريوف، أ. «النظام القبلي والميثولوجيا البدائية»، موسكو 1964.

14- زوبوف، أ. «علم الأسنان: منهجية الدراسات الأنثروبولوجية»، موسكو 1968.

15- زوبوف، أ. «علم الأسنان الإثني»، موسكو 1973.

16- زوبوف، أ. « معلومات علم الإسنان عن البؤرتين الأوليين لنشوء الأجناس»، في كتاب « فجر التاريخ الإثني لشعوب شرق آسيا»، موسكو 1977، ص 69 - 74.

17- زوبوف، أ.، زولوتاريوف، إ. «المغول في منظومة الأنواع حسب علم الأسنان»، مجلة «قضايا الأنثروبولوجيا»، 1980، العدد 63.

18- كيتا، ب. «أنثروبولوجيا سكان جمهورية مالي» ، موجز رسالة دكتوراه، موسكو، 1977.

19- «كتاب ماركو بولو»، موسكو 1955.

20- كريوكوف، م. «صلة القربى عند الصينيين»، موسكو 1972.

21- ليونتيف، و. «بعض الخصائص الجيومورفولوجية للسواحل المرجانية لجزر المحيط الهندي. دراسة شاملة لطبيعة المحيط». الإصدار الأول. موسكو 1970

22- لوبوفا، ي. ، خاباروف، أ. «أنواع التربة»، موسكو 1983.

23- «أطلس البحار»، المجلد الثاني، موسكو 1953.

24- ناومكين، ف. «جزيرة النعيم»، مجلة «حول العالم»، 1985، العدد الثالث.

25- ناومكين، ف. «في موطن العنقاء»، موسكو 1977.

26- ناومكين، ف.، بورخوموفسكي، ف. «علم اللغة الإثني في سقطرى»، موسكو 1981.

27- نيكيفوروف، ل.، كوروتايف، ف. «جيومورفولوجيا سواحل جزيرة سقطرى». «سواحل البحار»، موسكو 1982 . وكذلك مجلة «قضايا الجغرافية»، العدد 119.

28- أولديروغي، د. « الزواج اللُحمي»، موسكو 1983.

29- «جزر الجزء الغربي من المحيط الهندي»، مراجعة ل. نيكيفوروف، موسكو 1982.

30- بيرشيتس، أ. «النظام الأبوي عند العرب»، «موجز بحوث معهد الإثنوغرافيا»، 1951، العدد 13.

31- بيرشيتس، أ. «من تاريخ الأشكال الأبوية لعلاقات الزواج. النهوة وزواج العمومة عند العرب»، «موجز بحوث معهد الإثنوغرافيا»، 1955، العدد 24.

32- بيرشيتس، أ. «مخلفات التنظيم الثنائي للبنية القبلية العشائرية عند العرب»، مجلة «الإثنوغرافيا السوفيتية»، 1958، العدد 3.

33- بيرشيتس، أ. «الإقتصاد والنظام السياسي الاجتماعي في شمال جزيرة العرب في القرن التاسع عشر والثلث الأول من القرن العشرين»(بحوث تاريخية إثنوغرافية)، موسكو 1961.

34- بيوتروفسكي، م. «جنوب الجزيرة العربية في فجر العصر الوسيط»، موسكو 1986.

35- بريغوروفسكي، إ.»حول طوباوية يوهوميروس»، «بحوث معهد التاريخ لأكاديمية العلوم السوفيتية»، موسكو 1926، الإصدار الأول.

36- بسيفدواريان «رحلة بحر أرتيريا»، مجلة التاريخ القديم، 1940، العدد الثاني.

37- روغينسكي، يا. ، ليفين، م. «الأنثروبولوجيا»، موسكو 1978.

38- روديونوف، م. «الموارنة: من تاريخ الأديان في شرقي المتوسط»، موسكو 1982.

39- «الأطلس الجغرافي الفيزيائي للعالم»، موسكو 1964.

40- هيت، هـ. «علم البشرة لشعوب الاتحاد السوفيتي»، موسكو 1983.

41- هيت، هـ. ، دولينوفا، ن. «علم البشرة لشعوب العالم»، 1985 (مخطوطة في أرشيف معهد الإثنوغرافيا لأكاديمية العلوم السوفيتية).

42- هيت، هـ.، دولينوفا، ن. «علم البشرة للتركمان. أنثروبولوجيا وإثنوغرافيا تركمان أوزبكستان وطاجكستان». عشق آباد 1986.

43- هيت، هـ. ، كيتا، ب. « فوارق البشرة لدى الفروع العرقية الأساسية للبشرية – الأجناس والشعوب»، موسكو 1981، ص 25 - 39.

44- شينكارينكو، ف.، ناومكين، ف. ، هيت، هـ.، زوبوف، أ. «دراسات أنثروبولوجية في جزيرة سقطرى»، مجلة «الإثنوغرافيا السوفيتية» 1984، العدد 4، ص 53 - 63.

45- شرول، ك. «الصباح» (مذكرات طبيب في اليمن الجنوبي)، موسكو 1986.

46- شوموفسكي، ت. «العرب والبحر» (مدخل الكتاب الثاني). موسكو 1985.

باللغات الأوروبية

1. Albuquerque , Alfonso. The Commentaries of the Great Alfonso Dalbouquerque, ed. by W de Gray Birch. London : Hakluyt Society, 1875.
2. An account of the Arab Tribes in the Vicinity of Aden. Bombay, 1908.
3. Anati, E. «The Rock Engravings of Danthami Wells in Central Arabia». Bolletine del Centro Commune di Studi Preistorici (Italy). 1970, vol. 5.
4. Al - 'Aqil, 'Abd al - 'Aziz. «Zur Megalithfrage in Sudarabien». Festschrift fur Werner Caskel zum 70 Geburtstag, Leiden,1968, pp. 53 - 61.
5. Balfour, I. B. «The Botany of Socotra». Transactions of the Royal Society of Edinburgh. 1888, XXXI.
6. [Barbosa, Duarte]. The Book of Duarte Barbosa, an Account of the Countries Bordering on the Indian Ocean and their Inhabitants. London, 1921.
7. Barnes, D. S. «Tooth Morphology and Other Aspects of the Teso Rentition». American Journal of Physical Anthropology, 1969, 30, no. 2.
8. Bent, J.T. & Mrs. Theodore. Southern Arabia, Soudan and Socotra. London, 1900.

9. Beydoun, Z. R. & Bichan, H. R. «The Geology of Socotra Island, Gulf of Aden». Quarterly Journal of the Geological Society. London, 1970, vol. 125 (3), part 3, no. 499.

10. Bittner, M. Vorstudien zur Grammatik und zum Worterbuche der Soqotri _ Sprache. I. Wien, 1913; II, 1918; III, 1918.

11. Bittner, M. Characteristic der Sprache der Insel Soqotra. Wien, 1918.

12. Bonney, J. G. «On a Collection of Rock Specimens from the Island of Socotra». Philosophical Transactions of the Royal Society of London, 1883, 184.

13. Bosworth, W., Huchon, P. and McClay, K. «The Red Sea and Gulf of Aden basins». Journal of African Earth Sciences, 43, p. 334 - 378.

14. Botting, Douglas. Island of the Dragon›s Blood. London, 1958.

15. Botting, Douglas. «The Oxford University expedition to Socotra». Geographical Journal, 1958a, vol. 124, part 2, pp. 200 - 209.

16. Boxhall, P. G. «Socotra, Island of Bliss». Geographical Journal, 1966, vol. 132.

17. Boxhall, P. G. «Tribesmen of Socotra». Geographical Magazine. 1967, no. 40(7), pp.548 - 555.

18. Brown, G. H. H. «Social and Economic Conditions and Possible Development in Socotra». Unpublished mimeo, report. Aden, 1966.

19. Burr, M. «On a collection of insects and arachnids made by Mr. E.N.Bennett in Socotra, with descriptions of new species» Proceedings of the General Meetings for Scietific Business of the Zoological Society of London (for the year 1898). !898, no. 3, pp. 384 - 385.

20. Chagula, W. K. «The Cusps on the Mandibular Molars of East Africans». American Journal of Physical Anthropology. 1960, 18, no. 2.

21. Chelhod, Joseph. L'Arabie du Sud, Histoire at Civilisation; Tome III. Culture et institutions du Yemen. Paris, 1985.

22. Cheung, Catherine & DeVantier, Lindon. Socotra: A Natural History of the Islands and Their People. Science Editor: Kay Van Damme. Hong Kong: Odyssey Books and Guides, 2006.

23. Coon, C. S. The Races of Europe. L., 1939.

24. Cummins, H. & Midlo, Ch. Finger prints, palms and soles. New York, 1961.

25. Da Costa, José Pereira. Socotrá e o Dominio Português no Oriente. Coimbra, 1973.

26. De Geest, P. «Socotra Karst Project: The underground mysteries of Socotra revealed». Bulletin of the Society of Arabian Studies, no. 9, p. 6.

27. «De l›Afrique, contenant la description de ces pays et la navigation des anciens capitaines portugais». Temporal. Paris, 1830, 4.

28. Doe, D. Brian. Socotra: An Archeological Reconnaissance in 1967. Miami, Florida: Field Research Projects,1970.

29. Doe, D. Brian. Monuments of South Arabia. Naples and Cambridge: Falcon – Oleander Press, 1983.

30. Doe, D. Brian. Socotra: Island of Tranquility. London: Immel Publishing, 1992.

31. Forbes, H.O., ed. The Natural History of Socotra and Abd _ el _ Kuri: A monograph of the Islands. Liverpool, 1903.

32. Gregory, J. W.«Geology of Socotra and Abd _ el _ Kuri». Geological

Magazine. 1899. vol. 6, no. 426.

33. Haines, S.B. «Memoire of the South and East Coasts of Arabia; II». Journal of the Royal Geographical Society, 1845, 15. См. также: Hunter & Sealy, 1886/1909.

34. Hanihara, K. Statistical and Comparative Studies of the Australian Aboriginal Pentition. University of Tokyo, 1976.

35. Henke, W. «Beitrag zur Cranologie der Beduinen des Nahen Ostens» [Cranological Studies of the Near Eastern Beduin]. Homo, 1984, 35, 3 - 4.

36. Holy, Ladislas. Kinship, Honour and Solidarity: Cousin Marriage in the Middle East. Manchester & New York: Manchester University Press, 1989.

37. Howell, W.W. «Cranial variation in man: a study by multivariate analysis of patterns of difference among recent human population». Papers of the Peabody Museum of American Archeology and Ethnology, 1973, 67.

38. Hunter, F.M. & Sealy, C.W.H. Arab Tribes in the Vicinity of Aden. Bombay, 1886, new edition 1909.

39. Ingrams, W.H.Sokotra. In: Encyclopedia Britannica: a new survey of universal knowledge, 14th edition. London, 1961.

40. Johnstone, T. M. The Harsuri - English Lexicon. London, 1977.

41. Landberg, C. Glossaire datinois. Vol.1, Leiden, 1920; vol.2, Leiden, 1923.

42. Leslau, Wolf. Lexique soqotri. P., 1938.

43. Lister, B.W., Orr, N.W, Botting, D., Ikin, E.W., Mourant, A. E., Lehmann, H. «The Blood Groups and Haemoglobin of the Bedouin of Socotra». Man (The Journal of the Royal Anthropological Society).

1966, vol. 1, no.1, pp. 82 - 86.

44. Lonnet, A. The Socotri language: past, present and future. In: Socotra, 1996.»bdesebt ^

45. Lüttig, H. C. The Religions System and Social Organisation of the Herero. Utrecht, 1933.

46. King, J.S. The aboriginies of Sokotra: an ethnological, religious and philosophical review. Indian Antiquary, 1890, no. 19, p. 189 - 215.

47. Kossmat, F. Geologie der Inseln Sokotra, Semha und Abd El Kuri. Denkschriften der Kaiserlichen Academie der Wissenschaften. Mathematisch _ Naturwissenschaftliche Klasse, 71, pp. 1 - 62.

48. McCrindle. The Christian Topography of Cosmas, an Egyptian monk. London, 1897.

49. McIntosh, J.R. «The Megalith Builders of South India; a Historical Survey». South Asian Archaeology, 1979.

50. Morant, G.M. «A description of human remains excavated by Miss G.C.Thompson at Horeidha», in Thompson, G.C., The Tombs and Moon Temple of Horeidha (Hadramaut). Oxford: Reports of the Research Commission, Society of Antiquaries, 1944, no. 13.

51. Miller, Anthony G. & Morris, Miranda M.. Ethnoflora of the Soqotra Archipelago. Ed. by Ruth Atkinson. Edinbourgh: Royal Botanic Garden, 2004.

52. Morris, Miranda M. «Conservation and Sustainable Use of the Biodiversity of the Soqotra Archipilago». Manual of Traditional Land Use Practices. Edinburgh: Royal Botanic Garden, February 29, 2002.

53. Müller, D. H. (editor). Die Mehri und Soqotri _ Sprache. I, 1902; II, 1905; III, 1907, Sudarabiche Expedition der Kauserlichen Academie der Wissenschaften in Wien, IV, VI, VII.

54. Naumkin, Vitaly. Island of the Phoenix. An Ethnographical Study of the People of Socotra. Reading: Ithaca Press, 1993.

55. Noldeke, Th. Neue Beitrage zur semitischen Sprachwissenschaft. Strasbourg, 1910.

56. C. Plinius Secundus. Historia Naturalis, book X. Ed. Mayhoff. Berlin, 1909.

57. Purchas, Samuel. Hakluytus Posthumus or Purchas His Pilgrims. Vol. 1 - 4. London, 1625.

58. Radcliffe _ Smith, A. The botany of Socotra. In: Doe, 1992.

59. Recueil des Voyages. .. de la Compagnie des Indes Orientales. Amsterdam, 1754.

60. Rhodokanakis, V. Der vulgärarabische Dialekt im Dofar (Zfar). Vol. 1. Wien, 1908; Vol. 2, Wien, 1911.

61. Risdon, D.L. «A study of the cranial and other human remains from Palestine excavated at Tell Duweir (Lachish) by the Wellcome _ Marston Archeological research expedition». Biometrica, 31, 1 - 2.

62. Robin, Christian & Gorea, Maria. Une inscription palmyrenienne deposée dans une grotte de Suqutra. Report, 5 avril 2002.

63. Le Routier de Dom Joao de Castro: L›exploration de la Mer Rouge par les Portugais en 1541. Trad. du portugais. . . par A. Kammerer. P., 1936.

64. Ryckmans, J. «A Three Generations Matrilineal Geneology in a Hasaean Inscription: Matrilineal Ancestry in Pre _ Islamic Arabia». Mimeo, Bahrain, 1983.

65. Schoff, W.H., ed. The Periplus of the Erythraean Sea. New York, 1912.

66. Schweinfurth, G. Ein Besuch auf Socotra. Freiburg, 1884.

67. Schweinfurth, G. «Erinnerungen von eines Fahrt nach Socotra». Westermann's Monatshefte, nos. 34 and 35.

68. Schweinfurth, G. «Das Folk von Socotra». Unzere Zeit, 1893.

69. Serjeant, Ralph B. The Portuguese of the South Arabian Coast. Oxford, 1963.

70. Serjeant, Ralph B. «The coastal population of Socotra», in Doe (1992).

71. Shakti Gupta, M. Plant Myths and Traditions in India. Leiden, 1971.

72. Shakti Gupta M. Plant Myths and Traditions in India. Leiden, 1971.

73. Sharma, A. Comparative Methodology in Dermatoglyphics. Delhi, 1964.

74. Shinnie, P. L. «Socotra». Antiquity, London., 1960, vol. 24.

75. Snell, I. E. «Witch Trials in Socotra». American Documentation Institute, c/o Photoduplication Service. Library of Congress, no. 5623 (in Miscellanea Asiatica Orientalis series).

76. Socal, R.R. & Rohlf, F.J. «The comparison of dendrograms by objective methods». Taxonomy, 1962, vol.11.

77. Socotra. Proceedings of the First International Symposium on Socotra Island: Present and Future. Aden, March 1996. Vol. 1 - 2. Ed. By H.J.Dumont. New York United Nations Publications, 1996.

78. Sprenger, A. Die Alte Geographic Arabiens. Bern, 1875.

79. Stripling G. W. E. The Ottoman Turks and the Arabs. Urbana, Illinois, 1942.

80. Thomas, Bertram. Arabia Felix: Across the Empty Quarter of Arabia. New York, 1932.

81. Vogt, B. «Ist Millennium BC graves and burial customs in the Samad

Area (Oman)». Arabie orientale, Mesopotamie et Iran meridional, de l'age du fer au debut de la period islamique (AOMIM). Paris, 1984.

82. Van Belle, R.A. & Wranik, W. «Chitons (Mollusca: Polyplacophora) from the coast of Yemen and Socotra Island». Fauna of Saudi Arabia, 1991, no. 12, pp. 336 - 381.

83. Wellsted, J. B. «Memoir on the Island of Socotra». Journal of the Royal Geographical Society, 1835, vol. 5.

84. Wellsted J. B. «Report on the Island of Socotra». JASB. 1835, vol. 4.

85. Weygoldt, P. & Van Damme K. «A new troglomorphic whip spider of the genus Charinus (Amblypygi:Charinidae) from Socotra Island». Fauna of Arabia, 2004, no. 20, pp.327 - 334.

86. Wranik, W. Fauna of the Socotra Archipelago _ Field Guide. With contributions from O.S.Al _ Saghier, S.Aspinall,R.F.Porter abd H.Rosler. Universitat Rostok, Germany, 2003.

المراجع العربية

1- «رحلة ابن بطوطة»، بيروت 1968.

2- الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب، «كتاب الإكليل»، المجلد الأول، بغداد 1963.

3- الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب، «صفة جزيرة العرب»، صنعاء، 1983.

4- الحموي الرومي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله، «معجم البلدان»، المجلدات 1 - 10, القاهرة 1906.

5- الشزابي، فهد سليم كفاين، «مختارات من الأدب السقطري»، حديبو 2006.

6- المهري، سليمان أحمد سليمان، «لمحات عن سقطرى»، مجلة «الثقافة الجديدة»، 1974، العدد 5، ص 42 - 67.

7- الأنبالي، أحمد بن سعيد، «تاريخ سقطرى» سقطرى نت، 2010.

المحتويات

	رقم الصفحة
تقديم	5
الفصل الأول. طبيعة جزر أرخبيل سقطرى	9
الفصل الثاني. صفحات من التاريخ	45
الفصل الثالث. ملامح السقاطرة	81
الفصل الرابع. المواقع الأثرية	105
الفصل الخامس. التنظيم الاجتماعي والأحوال المعيشية	177
الفصل السادس. ميادين النشاط الاقتصادي	257
الفصل السابع. علاقات الزواج	313
الفصل الثامن. الأسرة وأنواعها	397
الفصل التاسع. الموروث الثقافي والفولكلور	447
الفصل العاشر. عبد الكوري	455
الخاتمة	477
المراجع	487

سقطرى جزيرة الأساطير

في الشرق الأوسط - في تلك المنطقة التي كانت ولا تزال تلعب دوراً كبيراً في تاريخ البشرية - نجد العديد من الأقوام والجماعات. ومن أولئك نخص بالذكر الجماعات الصغيرة القاطنة في اليمن وسلطنة عمان، ممن يتكلمون لغات قديمة غير مكتوبة، وأقل أولئك الأقوام حظاً ونصيباً في الدراسة والبحث والتحليل أهالي أرخبيل سقطرى الواقع في المحيط الهندي.

وقد استأثرت جزيرة سقطرى - التي تحتل موقعاً جغرافياً فريداً على مفترق الطرق البحرية وملتقى الحضارات القديمة - باهتمام الباحثين من غابر الزمان، وقد تسنى للمؤلف أن يكون من أوائل الباحثين الروس الذين زاروا سقطرى، ومكثوا فيها أمداً طويلاً لإجراء الدراسات العلمية الميدانية.

وقد جاء هذا الكتاب ثمرة إجمالية للدراسات التي أجرتها البعثة الروسية. وتأتي طبعته العربية صيغة موسعة شاملة منقحة ومزيّدة بالمستجدات العلمية، للطبعة الروسية التي صدرت في موسكو عام 1988 بعنوان "السقاطرة"

السعر 70 درهماً





